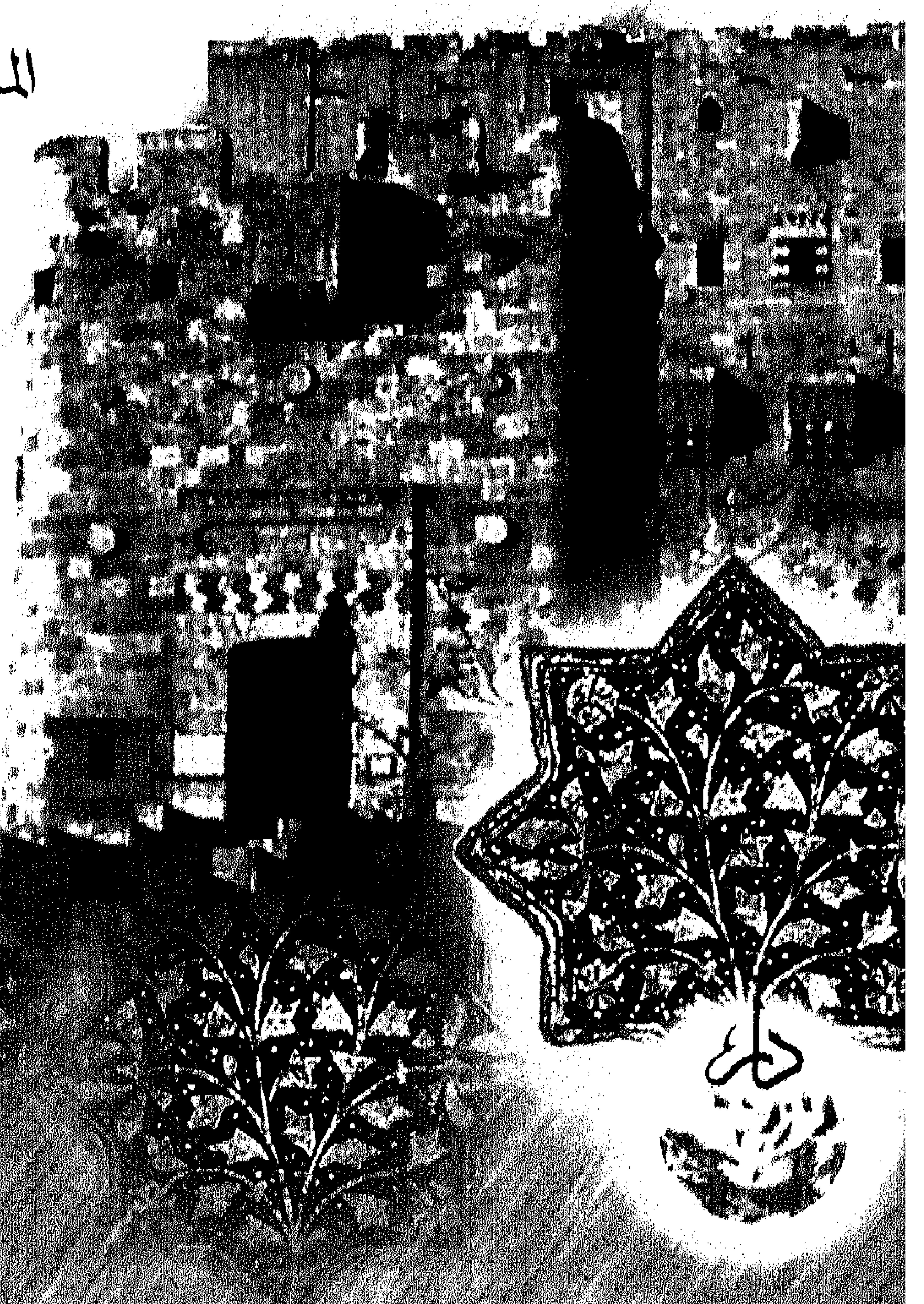
زبدة الحلب من تاريخ حلب

للصاحب كمال الدين
عمر بن أحمد بن أبي جرادة
المتوفى سنة ٦٦٠هـ



حققه وقدم له
الأستاذ الدكتور سهيل زكار

الجزء الأول

دار الكتاب العربي
دمشق - القاهرة

زبدة الحلب
من
تاريخ حلب

زبدة الحلب من تاريخ حلب

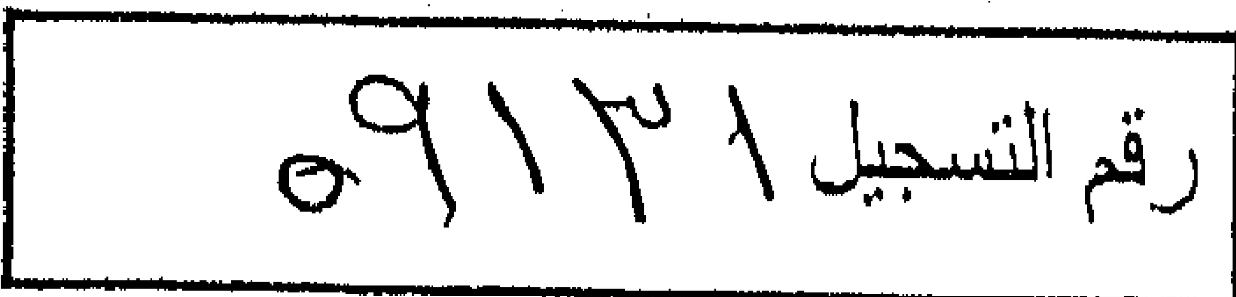
للصاحب كمال الدين
عمر بن أحمد بن أبي جرادة
المتوفى سنة ٦٦٠ هـ

حققه وقدم له
الأستاذ الدكتور سهيل زكار

الجزء الأول





الطبعة الأولى

١٤١٨هـ/١٩٩٧م



دار الكتاب العربي / دمشق - القاهرة

دمشق: الحلبوني - تلكس ٤١١٥٤١ - هاتف ٢٢٣٥٤٠١

القاهرة: ٥٢ ش عبد الخالق ثروت، شقة ١١

ت + فاكس ٢٦٩٤٤٤٨ - ٣٩١٦١٢٢

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

تعدّ مدينة حلب من أعرق مدن بلاد الشام وأكثرها أهمية ، وقد شغلت أعظم الأدوار في تاريخ هذه البلاد في الاسلام ، وعلى محورها ومحور دمشق دارت الأحداث الرئيسية لتاريخ الشام الاسلامي ، ومنها استردت الشخصية الشامية الثقافية ذاتها بعد ما لحق بها التدمير أثر سقوط الدولة الأموية .

وصحيح أن الأدوار السياسية والعسكرية لحلب عالية جداً ، لكن دورها الحضاري أكثر تميزاً وتأثيراً وشمولية ، وكان التاريخ بين أبرز الحقول الثقافية التي أسهم فيها الحلبيون ، ولا أعني سكان المدينة فقط بل سكان الشام الشمالي ، لأن حلب غدت منذ القرن الرابع للهجرة/ العاشر للميلاد مركزاً لإمارة ، غالبا ما امتدت حدودها جنوباً حتى بلده الرستن على العاصي .

وكان أبو غالب همام بن الفضل بن جعفر بن المهذب المعري ، أهم مؤرخي القرن الخامس هـ/ الحادي عشر م ، هذا ولم أستطع الوقوف على ترجمة منفصلة له ، ولكن ابن العديم الذي نقل أجزاء كبيرة جداً من تاريخه

في كتابه بغية الطلب ، قد ذكره بين تلاميذ أبي العلاء المعري [ت ٤٤٩ هـ/ ١٠٥٧ م] وتوحي النقول الطويلة التي قام بها ابن العديم بطبيعة كتابه ، حيث يبدو أنه كان يتألف من تاريخ حولي عام ركز على تدوين أخبار الأحداث التي وقعت في معرة النعمان وحلب ، وتعلقت المعلومات المنقولة بتأسيس الدولة المرداسية في حلب من قبل صالح بن مرداس ، ثم بحكم ثمال بن صالح بن مرداس وعلاقاته بالخلافة الفاطمية ، وببدايات استيلاء السلاجقة على بلاد الشام بعد العراق ، مع حملة السلطان ألب أرسلان ضد حلب .

وكان من معاصري ابن المهذب الطبيب المسيحي أبو الخير المبارك بن شرارة ، وكان ابن شرارة كاتباً بالاضافة إلىٰ كونه طبيباً ، وقد عاش في مدينة حلب حتى أيام رضوان بن تتش (١٠٩٥ ـ ١١١٣ م)، وقد هجر مدينته وذهب أولاً إلى أنطاكية ومن هناك إلى صور بسبب سوء معاملة رضوان له وطغيانه ، وفي صور توفي حوالي سنة ٤٩٠ هـ/ ١٠٩٦ م ، وكتب المبارك تاريخاً روى فيه بشكل أساسي الحوادث التي وقعت في أيامه ، لاسيما الوقائع التي شهدتها حلب ، وكان من شهودها . ويبدو أن هذا التاريخ لم يرج كثيراً ، ولذلك فقدت نسخه بعد وفاة مؤلفه بأمد قصير ، ذلك أن القفطي [ت ٦٤٦ هـ/ ١٢٤٨ م] قال إنه أخفق في الحصول على نسخة منه ، وأنه تلقى من مصر نسخة سيئة ومختصرة من هذا التاريخ ، كان قد اختصرها مصري غير معروف .

ومن معاصري ابن شرارة كان منصور بن تميم بن الزنكل ، الذي كان شاعراً من سرمين ، شهد أحداث وفود التركمان إلى الشام الشمالي ، ودوّن بعضها لكن لا نعرف وفق أي منهج ، والذي نعرفه أن ابن العديم نقل عنه بعض الأخبار في كتابه بغية الطلب في تاريخ حلب .

وقام في القرن السادس هـ/ الثاني عشر/م على الأقل ثلاثة من الحلبيين بكتابة تواريخ خاصة بمدينة حلب وهم : حمدان بن عبد الرحيم الأثاربي [ت ١١٤٧ م] وعلي بن عبد الله بن أبي جرادة [ت ١٥٥١ م] ومحمد بن علي العظيمي المتوفى حوالي سنة ١١٦١ م ، ومن المؤسف أنه لم يتعد ما وصلنا مما كتبة هؤلاء عن حلب بعض النقول الموجودة لدى ابن العديم في كتابه بغية الطلب .

كان حمدان طبيباً وشاعراً ، وقد امتلك ذخيرة كبيرة من معارف عصره، وقد خدم في حقب متفاوته في إدارة كل من المسلمين في حلب (أيام زنكي بشكل خاص) وإدارات الصليبيين في أنطاكية والمناطق المحيطة بها ، وقد سفر لزنكي حيث بعثه إلى الصليبيين في أنطاكية وإلى مصر ودمشق ولربما إلى بغداد ، وقابل في القاهرة الخليفة الفاطمي الآمر [١١٠١ - ١١٣٠ م] ولكن بعدما برهن أنه شيعي إمامي ، وأنه لم يكن من أفراد الاسماعيلية الحشيشية ، وتمنحنا سيرة حياة حمدان بعض المعلومات المفيدة حول حياة كل من المسلمين والصليبيين في الشام الشمالي ، وحول العلاقات بينهما في النصف الأول من القرن الثاني عشر .

أرخ حمدان لقدوم الفرنجة إلى بلاد الشام ، كما وحمل واحد من كتبه عنوان المفوف ، ويرجح أنه أوقفه على تاريخ حلب ، واهتم فيه بشكل خاص بالأحداث التي وقعت بعد سنة ٤٩٠ هـ/ ١٠٩٦ م .

وكان من معاصري حمدان علي بن عبد الله بن أبي جرادة ، وكان مثله مثل حمدان شاعراً وعالي الثقافة ، وأيضاً أمامي العقيدة ، وقد كتب بالتاريخ كتاباً دعاه «تاريخ ملوك حلب» ، وعن هذا الكتاب نقل ابن العديم بعض المعلومات المتعلقه بسقوط الامارة المرداسية ، وحول الأوضاع الداخلية في مدينة حلب آنذاك .

وكان أيضاً من معاصري حمدان وابن أبي جرادة محمد العظيمي ، الذي كان بدوره شاعراً ومعلم مدرسة ، وقد كتب العظيمي عدة كتب بالتاريخ ، أوقف واحداً منها على تاريخ حلب ، وحمل واحد منها اسم «الموصل على الأصل المؤصل» وقد كتب هذا الكتاب على شكل حوليات عامة لتاريخ الاسلام ، وقد وصلنا ما يمكن عده مختصراً له ، أو هو نفسه في نسخة خطية وحيدة (مكتبة بيازيد استانبول رقم ٣٩٨ ، ونشر محققاً مؤخراً في دمشق سنة ١٩٨٥ باسم تاريخ حلب) . وعلى الرغم من سيطرة طابع الاختصار والعموميات على هذا الكتاب ، فإنه يحتوي في أواخره على معلومات ثمينة جداً تتعلق بحلب خلال أواخر القرن الحادي عشر م ، هذا ونقل ابن العديم في كتابه بغية الطلب من كتب العظيمي الأخرى مواداً تتعلق بعصر الدولة المرداسية ثم بدايات الحكم السلجوقي لحلب .

ومع أن بعض مؤرخي القرن الثاني عشر م قد صنف كتباً تعالج تاريخ حلب فقط ، فإن العدد الأكبر منهم قد تابع السير على مذاهب الأوائل في كتابة حوليات عامة ، وكان من بين هؤلاء يحيى بن علي التنوخي ، ويعرف عادة بابن زريق ، وقد ولد عام ١٠٥١ م في معرة النعمان ، ولعله مات في العقد الأول من القرن الثاني عشر .

وكتب ابن زريق تاريخاً حوليا ، أوقف أخباره بشكل أساسي على الاحتلال السلجوقي لبلاد الشام ، ثم على الغزو الصليبي ، وعنه نقل ابن العديم في كتابه بغية الطلب ، ومن خلال ابن العديم تعرفنا عليه ، لأن كتابه بحكم المفقود .

وكانت الأسرة المنقذية قد تأسست في قلعة شيزر ، حيث انتقلت إليها من بلدة كفر طاب ، وفي شيزر أنجبت الأسرة المنقذية عدداً من الفرسان والشعراء والكتاب ، شهر منهم بشكل خاص أسامة بن مرشد [ت ١١٨٨ م] ، ومع أسامة أسهم أثنان من أخوانه بكتابة التاريخ هما : علي ومنقذ ، فقد صنف منقذ تاريخاً حوليا جعله ذيلاً لتاريخ ابن المهذب المتقدم الذكر ، وكتب أخوه علي أيضاً تاريخاً حوليا حمل اسمه ، أما أسامة صاحب كتاب الاعتبار ، فقد صنف عدداً كبيراً من الكتب وصلنا بعضها لكن لم يصلنا ما كتبه بالتاريخ العام إلا من خلال النقول التي احتفظ بها ابن العديم في كتابه بغية الطلب .

ومثلما نقل ابن العديم عن الأخوة الثلاثة من آل منقذ ، نقل عن أبي غالب عبد الواحد ابن مسعود بن الحصين ، الذي يرجح أنه كان من أهالي معرة النعمان ، وقد صنف تاريخاً حوليا ، ومثله كان من بين مؤرخي معرة النعمان عبد القاهر بن علوي ، وقد ذكره العماد الأصفهاني الكاتب ، وبيّن أنه كان شاعراً ، شغل منصب قاضي معرة النعمان ، وأنه قد لقيه في مدينة حماه في آذار ١١٧٦ م ، وكتب ابن علوي كتاباً بالتاريخ اسمه «نزهة الناظر وروضة الخاطر» ، وكان هذا الكتاب أيضاً بين مصادر بغية الطلب لابن العديم .

ونقل ابن العديم عن مؤرخ حلبي آخر اسمه أبو منصور هبة الله بن سعد الله بن الجبراني ، ولا نعرف تاريخ ميلاد أو وفاة هذا المؤرخ ، لكننا نعلم أن واحداً من أولاده واسمه أحمد قد توفي سنة ٦٢٨ هـ/ ١٢٣١ م .

مما تقدم عرضه بايجاز نعلم أن المؤرخين الذين أنجبتهم امارة حلب كثير عددهم خصب انتاجهم ، ولقد تأوجت أعمال التدوين التاريخي في الشام الشمالي في القرن السابع للهجرة/ الثالث عشر للميلاد، وأبرز الذين خلفوا لنا العديد من المؤلفات هم : ابن أبي طيء (يحيى بن حميدة ـ توفي سنة ٦٣٠ هـ/ ١٢٣١ م) ، والقفطي (علي بن يوسف ـ توفي سنة ٦٤٦ هـ/ ١٢٤٨ م) ابن العديم (عمر بن أحمد ـ توفي سنة ٦٦٠ هـ/ ١٢٦١ ـ ١٢٦٢ م) وابن شداد (محمد بن علي ـ توفي سنة ٦٨٤هـ/ ١٢٨٥ م) . ويمكن أن نضيف إلى هؤلاء بهاء الدين بن شداد صاحب سيرة صلاح الدين لأنه أمضى سنوات حياته الأخيرة في حلب .

وكان القفطي ، الذي شغل منصب الوزير بحلب ، مصنفاً لعدد من الكتب تتضمن عدة موضوعات منها واحد حمل عنوان «الاستئناس في أخبار آل مرداس» لا نعرف نسخة عنه ، وفيما عدا ما يوحيه عنوانه لا نعرف شيئاً عن محتوياته ولا الطريقة التي كتب بها .

وكتب ابن أبي طيء عدة كتب معظمها بحكم المفقود ، وقد ذكر له حاجي خليفة كتاباً اسمه «معادن الذهب» في تاريخ حلب ، كما ويرجح أنه كتب سيرة لصلاح الدين الأيوبي ، وأتى بتفاصيل حوله لانجدها عند سواه ، فقد كان والد هذا المؤرخ من زعماء الشيعة الامامية بحلب ، وقد اضطر إلى مغادرة مدينته أيام نور الدين محمود بسبب السياسة الدينية التي اتبعها ولضغطه الشديد على الشيعة ، ولذلك جاءت أخبار ابن أبي طيء مشايعة لصلاح الدين مضادة لنور الدين ، ومع ذلك هي هامة جداً اعتمدها واستفاد منها كل من ابن العديم وأبو شامة في الروضتين .

هذا وكتب ابن شداد كتاب الأعلاق الخطيرة، وجل مواده عن حلب نقلها عن ابن العديم ، وابن العديم هو أعظم مؤرخ أنجبته بلاد الشام في تاريخها الاسلامي كان غزير الانتاج موسوعي المعارف ، وهو خير ممثل للحضارة العربية والثقافة الشامية قبيل الاجتياح المغولي المدمر .

وابن العديم هو الصاحب كمال الدين عمر بن أحمد بن هبة الله . . . ابن أبي جرادة ، ولد في مدينة حلب في ذي الحجة سنة ثمان وثمانين وخمسمائة للهجرة وعندما بلغ السابعة من عمره حمل إلى المكتب للدراسة ، وهناك

ظهرت استعداداته مما بشر بنبوغه المبكر ، وقد كان نحيف البنية لذلك عني به أبوه عناية كبيرة ، فحدب على رعاية صحته ، وسهر على تربيته وتعليمه ، ونظراً لمنزلة والده ولما تمتعت به أسرته من مكانة نال ابن العديم حظه وافياً من معارف عصره الدينية والدنيوية ، ويروى بأن اباه حضه على اتقان قواعد الخط ، ذلك أنه ـ أي الأب ـ كان رديء الخط ، فأراد أن يجنب ابنه هذه الخلة ، ونجح في هذا المجال نجاحاً كبيراً جداً ، وقد وصف ياقوت اتقان ابن العديم لقواعد الخط العربي بقوله : «واما خطه في التجويد والتحرير والضبط والتقيد فسواد ابن مقلة ، وبدر ذو كمال عند علي بن هلال» ، ويؤكد شهادة ياقوت هذه المجلدات العشرة من كتاب بغية الطلب التي وصلتنا بخط ابن العديم ، حيث نرى واحداً من المع النساخ في تاريخ العربية وأكثرهم ضبطا وبراعة وأمانة ويقظة ودراية .

وفي باب العناية في إنشاء ابنه وتثقيفه صحب أحمد بن هبة الله ولده عمر في رحلاته وأسفاره ، حيث زار دمشق أكثر من مرة كما زار بيت المقدس ورحل إلى العراق والحجاز .

وعندما بلغ سن الشباب وجد ابن العديم السبل أمامه كلها مفتوحة لمستقبل لامع ، وكان لمواهبة وثقافته وأسرته الفضل الأكبر في تحقيق نجاحاته ، وهنا يحسن التوقف قليلاً للتعرف إلى اسرة ابن العديم ، وذلك قبل متابعة الحديث عن مراحل حياته :

يعرف الجد الأعلى للصاحب كمال الدين باسم ابن أبي جرادة ، وكان

صاحبا لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، ينتسب إلى ربيعة من عقيل إحدى كبريات قبائل عامر بن صعصعة العدنانية ، وكان يقطن مدينة البصرة ، وفي هذه المدينة عاش أولاد آل أبي جرادة وأحفادهم ، وفي مطلع القرن الثالث للهجرة قدم أحد أفراد أسرة أبي جرادة إلى الشام في تجارة وكان اسمه موسى بن عيسى وحدث آنئذ أن ألم بالبصرة طاعون ، لهذا قرر موسى البقاء في الشام ، واستوطن مدينة حلب ، وفي هذه المدينة التي كانت عاصمة شمال بلاد الشام ، ومفتاح الطريق إلى العراق وبلاد المشرق الاسلامي مع آسيا الصغرى والأراضي البيزنطية ، فيها خلف موسى بن عيسى أسرة نمت مع الأيام عدداً ومكانة وثروة وشهرة ، وتملكت هذه الأسرة الأملاك ، كما ساهمت في جميع ميادين الحياة في حلب من سياسة وعلم وقضاء وادارة وتجارة وغير ذلك ، وبهذا غدت أسرة آل أبي جرادة من أبرز أسر حلب ، وظلت هكذا حتى حل بحلب الدمار على أيدي جيوش هولاكو ، كما ظلت محتفظة باسمها ذاته طوال تاريخها ، إنما في القرن الأخير من حياتها كسبت اسما اضافيا ، أخذ رويداً يعم في الاستعمال أكثر من الاسم الأصيل ، لكنه لم يلغه وكان الاسم الجديد هو «العديم» ، ونحن لا نملك تعليلاً لسبب هذه التسمية ، فقد قال ياقوت : «سألته أولا لم سميتم ببني العديم ؟ فقال : سألت جماعة من أهلي عن ذلك فلم يعرفوه وقال : هو اسم محدث لم يكن آبائي القدماء يعرفون بهذا» .

ودانت أسرة ابن أبي جرادة بالتشيع حسب مذهب الامامية ، وظلت هكذا حتى بدأ التشيع بالانحسار في حلب ، وذلك منذ النصف الثاني للقرن

الخامس/ الحادي عشر ، هذا وان كنا لا نعرف بالتحديد تاريخ أخذ هذه الأسرة بمذاهب السنة أمكننا أن نقدر ذلك ، بحكم سقوط سلطة الشيعة في حلب مع عصر السلطان السلجوقي الب ارسلان (وهو أمر بحثته بالتفصيل في كتابي مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية) ونظراً لعلاقات أسرة آل أبي جرادة الخاصة مع سلطات حلب ، لابد أن الحال اقتضى المسايرة والتحول إلى السنة ، ولربما حسب المذهب الحنفي .

وفي عودة نحو سيرة الصاحب كمال الدين نجده يحدثنا بأن والده خطب له وزوجه مرتين ، فقد اخفق في الزواج الأول ، لذلك طلق زوجته وتزوج ثانية بابنة الشيخ الأجل بهاء الدين أبي القاسم عبد المجيد بن الحسن بن عبد الله ـ المعروف بالعجمي ، وكان شيخ أصحاب الشافعي ، ومن أعظم أهل حلب منزلة وقدراً وثروة ومكانة سياسية ودينية واجتماعية ، ومن زواجه الثاني رزق الصاحب كمال الدين أولاده ، ولم يمت والده حتى كان ابنه أحمد طفلاً يدب على الأرض ، ويمكننا التعرف إلى هذا الابن من خلال استعراضنا لكتاب بغية الطلب حيث سمع الكتاب على أبيه وقام بعد وفاة والده باستدراك بعض المواد التي حالت المنية بين والده وبين تدوينها في كتابه ، فمن المقرر أن ابن العديم مات دون أن يقوم باعادة النظر في مؤلفه «بغية الطلب» ولم يقم بتبييضه ، والذي وصلنا هو مسودة الكتاب ، إنما نظرا لبراعة المؤلف وحسن طريقته وجودة خطه ، نرى أن مكانة الكتاب وأهميته هي هي ، ذلك أن أهمية الكتاب نابعة مما حواه من مواد تاريخية نهلها ابن العديم من وثائق ومصنفات غيبها الزمن عنا ، فابن العديم كان مصنفا ممتازاً

ولم يكن «مؤرخاً» حسب مصطلحات أيامنا هذه ، فهو قد جمع في كتابه المواد الاخبارية ونسقها ، لكنه لم يحاول تعليلها ومعالجتها كما يفعل الباحث في التاريخ في جامعات أيامنا هذه . . .

ومنذ أن بلغ الصاحب كمال الدين سن الشباب أخذ يشارك في الحياة السياسية والعلمية لمدينة حلب ، فقد كان يحضر مجلس الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين ـ صاحب حلب ـ فيكرمه ويقربه ويقبل عليه أكثر من أقباله على غيره على الرغم من صغر سنه ، وفي ذي الحجة سنة ست عشرة وستمائة ولي ابن العديم أول عمل رسمي ، لقد ولي التدريس في مدرسة شاذبخت ، وكانت من أجل مدارس حلب وارقاها ، كل «هذا وحلب اعمر ما كانت بالعلماء والمشايخ ، والفضلاء الرواسخ ، إلا أنه رئي أهلا لذلك دون غيره ، وتصدر ، وألقى الدرس بجنان قوي ، ولسان لوذعي ، فأبهر العالم وأعجب الناس» ويبدو أنه تولى بعد هذه المدرسة التدريس بالمدرسة الحلاوية ، التي كانت أجل مدارس حلب ، وهي مدرسة مازالت قائمة حتى الآن ، تعلو واحدا من جدرانها لوحة حجرية كتبها ابن العديم بخطه .

ومع مرور الأيام علت مكانة ابن العديم ، فسفر عن ملوك حلب إلى ملوك الدول المجاورة في بلاد الشام والجزيرة وآسية الصغرى ، وإلى سلاطين القاهرة وخلفاء بغداد ، وكانت خزائن كتب ووثائق كل بلد زارها تحت تصرفه ، فنهل منها ما لم ينهله سواه ، واودع جل ذلك في كتابه بغية الطلب ، ومن هذه الزاوية يمكن أن نرى أهمية هذا الكتاب ، ومن ناحية أخرى يمكننا

أن نرى المدى الذي وصلت إليه خزائن المشرق العربي قبيل وقوع الطامة الكبرى على يد المغول بسنوات .

وفي كل مكان زاره ابن العديم كان يلقى الحفاوة من رجال السلطة ، وكان في الوقت نفسه يلتقي بالعلماء وشيوخ العصر فيأخذ عنهم ، ولقد أودع ما أخذه عن علماء عصره ، وما رآه من أحداث أو شارك به ، أودعه في كتابه بغية الطلب ، حتى غدا هذا الكتاب أشبه بمنجم للمعلومات لا ينضب معينه .

وظل نجم ابن العديم يصعد في سماء السياسة في حلب وسواها حتى وصل إلى مرتبة الوزير ، ولكن مشاغل السياسة والحياة العامة لم توقف العمل الفكري ولم تعطله ، وهكذا صنف ابن العديم عدداً كبيراً من الكتب ، غلب على معظمها سمة التاريخ ، ولعل أشهر كتبه «كتاب زبدة الحلب من تاريخ حلب» و «كتاب الانصاف والتحري في دفع الظلم والتجري عن أبي العلاء المعري» وكتابه بغية الطلب الذي أشرنا إليه حتى الآن كثيراً ، وقد طبع كتاب زبدة الحلب في أجزاء ثلاثة في دمشق ، وأعدت الآن تحقيقه ، أما كتاب الانصاف فقد طبعت قطعة منه للمرة الأولى بحلب ثم اعيد طبعها في القاهرة ، وأقول قطعة ذلك أن الكتاب لم يصلنا كاملاً بشكل مباشر .

وعندما قلت بشكل مباشر اردت أن أقول بأن الكتاب وصلنا بشكل غير مباشر ، فقد روي لي منذ سنوات أن واحداً من أحفاد ابن العديم ممن عاش بعد جده في القاهرة ، صنف كتاباً حول القاضي الفاضل دعاه باسم

«سوق الفاضل في ترجمة القاضي الفاضل» ، وتوجد من هذا الكتاب نسخة خطية في مكتبة شيخ الإسلام عارف حكمت بالمدينة المنورة ، وقيل لي إن في ثنايا الكتاب ورد في احدى رسائل القاضي الفاضل بيت شعر من شعر المعري ، واراد حفيد ابن العديم أن يعرف بالمعري ، فقال : قال جدي في كتابه الانصاف والتحري : وأثبت نص الكتاب بكماله ، ويوجد هذا الكتاب مصوراً على شريط في معهد المخطوطات التابع لجامعة الدول العربية بالقاهرة ، ومضيت إلى المدينة المنورة للتأكد من هذا الخبر ، فتيقنت من عدم دقته وان حفيد ابن العديم نقل قليلاً من كتاب جده الانصاف والتحري .

ويعود سبب انتقال ابن العديم إلى القاهرة ، إلى تعرض مدينة حلب إلى الدمار سنة ٦٥٧ هـ على يد جيوش هولاكو ، وكان ابن العديم غادر مدينته إلى دمشق ، ثم منها إلى غزة فالقاهرة ، ويبدو أنه عاد بعد عين جالوت إلى دمشق ، وربما اراد التوجه إلى حلب ، أو توجه إليها فعلاً ليعاين الدمار الذي لحقها ، وفي أثناء ذلك عرض عليه هولاكو منصب قاضي حلب ، فرفض ، وعاد إلى القاهرة ، حيث أمضى بقية حياته ، وقد وافته منيته في مصر في العشرين من جمادى الأولى سنة ستمائة وستين للهجرة .

وكنت في عام ١٩٨٨ قد حققت الموجود من كتاب بغية الطلب ونشرته بدمشق ، وكنت من قبل قد تعاملت مطولاً مع كتاب «زبدة الحلب من تاريخ حلب» الذي انتزعه ابن العديم واستخلصه من مواد كتاب «بغية الطلب» ، وجاء هذا التعامل لدى اعدادي لرسالة الدكتوراه في جامعة لندن عن امارة

حلب في القرن الخامس هـ/ الحادي عشر ميلادي ، وعندما بدأت بعملي باعداد اطروحتي كان المنشور من كتاب زبدة الحلب الجزء الأول [نشر في دمشق ١٩٥١] والثاني [نشر في دمشق ١٩٥٤] لذلك قمت بتصوير المتبقي من المخطوط من باريس [نشر الجزء الثالث في دمشق ١٩٦٨] .

لقد تولى المرحوم الدكتور سامي الدهان تحقيق كتاب زبدة الحلب ، ونشره في /١٠٥٤/ ص وزعها على ثلاثة أجزاء ، وقدم لنشرته بمقدمه مسهبة عن حياة ابن العديم وعن مؤلفاته ، ولاشك أنه بذل جهوداً طيبة في تحقيق الكتاب الزبدة، لكن يؤخذ على عمله الاطالة ، لا بل الاسراف بالاطالة ، فهو كان مغرما بالحواشي وباقحام العناوين ، وأقحم العناوين في نص الكتاب وكأنها منه ، ولم يضعها بين حواصر للأمانة ، وفي هذا العمل تدليس وتزييف .

أما الحواشي فأكثر من تكرارها فضلاً عن أنه اختلق بعضها بلا سبب ، حتى أنه كان يدعي وجود طمس بالمخطوط ، ومن ثم اجتهاده بالقراءة والضبط ، هذا وأخفق الدكتور الدهان في عدة أماكن في قراءة النص إلى حد أن «عين الجر» جاءت عنده «عبر الجسر» .

وكان المرحوم الدهان قد وصف المخطوطات التي اعتمدها خاصة الأساسية منها وهي مخطوطة المكتبة الوطنية في باريس (رقم ١٦٦٦ - الرقم القديم ٧٢٨ مخطوطات عربية) وهي تقع في ٢٦٨ ورقة بحجم ٢٥ × ١٧,٥ سم ، وكتبت هذه النسخة «لإحدى عشرة ليلة خلت من ربيع

الآخر سنة ست وستين وستمائة» أي بعد وفاة ابن العديم بست سنوات ، وقد اعتمد ناسخها على نسخه ابن العديم التي كتبها بخط يده .

وكنت قد اشتريت منذ أكثر من عامين بعض مصورات مكتبة المرحوم الدكتور الدهان من ذلك مصورة كتاب زبدة الحلب ، وعلى هذا اعتمدت المصورة نفسها التي اعتمدها .

ومن المرجح أن ابن العديم انتزع مواد زبدة الحلب من مواد بغية الطلب لكن قبل اكماله لتصنيف كتاب البغية ، ولهذا نلاحظ وجود بعض الفوارق بين روايات الكتابين أحياناً حول الخبر نفسه ، وصنف ابن العديم الزبدة تلبية لرغبة الملك العزيز بن الظاهر الأيوبي [٦١٣ ـ ٦٣٤ هـ] لكنه لم يقيد نفسه بتاريخ عهده ، بل زاد عليه ، ومن المؤكد أنه لم يبيض كتابه بغية الطلب ، بل إن بعضهم يرى إنه لم يكمل تصنيفه .

وكتاب زبدة الحلب يختلف في منهجه عن كتاب البغية ، وهو يشبه من بعض الوجوه تاريخ دمشق لابن القلانسي ، وكتب الحوليات ، ولا شك أنه أهم مصدر في بابه ، ظهر فيه ابن العديم بمظهر المؤرخ الأصيل .

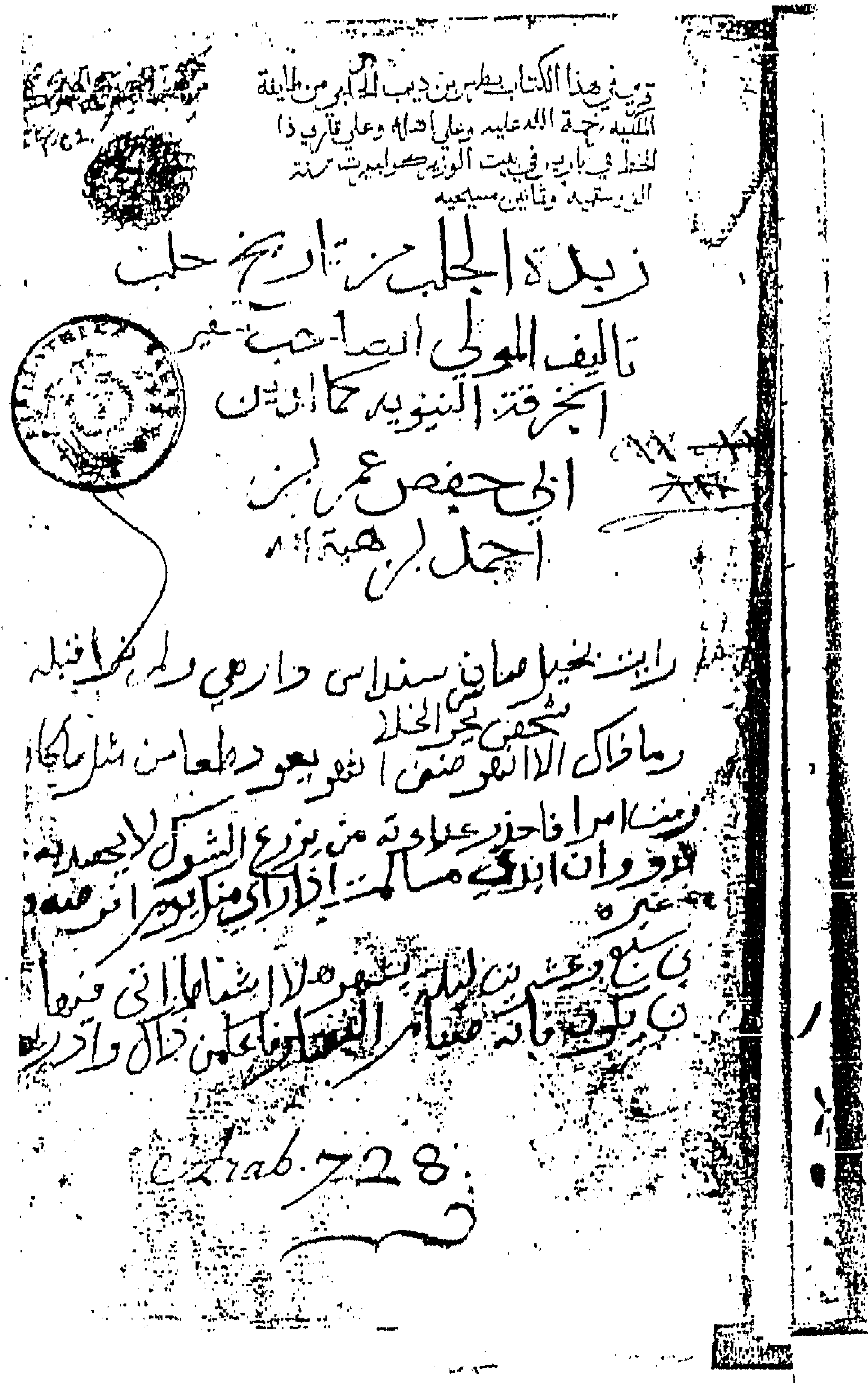
وانصب اهتمامي لدى تحقيقي لهذا المصدر الهام على ضبط النص واخراج جميع الشوائب منه ، وخففت من الحواشي قدر الامكان ، لكن اضطررت لأسباب فنية إلى اضافة بعض العناوين ، فوضعت ما أضفته بين حاصرتين ونبهت على ذلك ، ولعل مما ساعدني في عملي أنني أعمل في تاريخ

حلب منذ أكثر من ثلاثين سنة ، وأنني حققت كتاب بغية الطلب ، وتوفر لي مصادر جديدة ، ثم إن اختصاصي الأساسي هو التاريخ الإسلامي .

والله الموفق إلى السداد والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

دمشق ٥ جمادى الأولى ١٤١٧ هـ
١٧ أيلول ١٩٩٦ م

الصفحة الأولى من زبدة الحلب ـ نسخة باريس ـ



صفحة الغلاف لمخطوط زبدة الحلب ـ نسخة باريس ـ

الصفحة الأخيرة من مخطوط زبدة الحلب ـ نسخة باريس ـ

الصفحة الأولى من الدراري بخط ابن العديم

بسم الله الرحمن الرحيم وبه توفيقي

انبانا ابو اليمن الكندي قال اخبرنا ابو منصور القزاز قال اخبرنا ابو بكر
احمد بن علي بن ثابت الخطيب قال الحسن بن احمد بن صالح ابو محمد السبيعي
سمع محمد بن حبان البصري وعبد الله بن ناجية واحمد بن هرون البرديجي
ومحمد بن جعفر الطبري والحسن بن محمد بن عنبر الوشا ويموت بن المزرع
العبدي وعمر بن ايوب السقطي وقاسم بن زكريا المطرز وابا معشر
الدارمي وعمر بن محمد بن نصر الكاغدي وجماعة من الغرباء بحلب
روى عنه الدارقطني وحدثنا عنه ابو بكر البرقاني وابو نعيم الاصبهاني
وابو طالب محمد بن الحسين بن بكير وغيرهم وكان ثقة حافظا مكثرا
وكان عسرا في الرواية ولما كان اخره عزم على التحديث والاملا
في مجلس عام فتهيأ لذلك ولم يبق الا تعيين يوم المجلس فمات
اخبرنا ابو الوحش بن نسيم في كتابه قال اخبرنا ابو القسم علي بن الحسن
الحافظ قال الحسن بن احمد بن صالح ابو محمد السبيعي الكوفي الحافظ
حدث عن محمد بن حبان البصري و[illegible] عبد الله بن محمد بن ناجية
وابي بكر البرديجي وابي جعفر الطبري والحسن بن محمد بن عنبر الوشا
ويموت بن المزرع وعمر بن ايوب السقطي وقاسم المطرز وابي معشر
الدارمي وعمر بن محمد بن نصر الكاغدي وابي عمر سعد بن عمر الوراق

نموذج من خط ابن العديم بغية الطلب

زبدة الحلب من تاريخ حلب

تأليف

المولى الصاحب سفير الخرقة النبوية

كمال الدين أبي حفص عمر بن أحمد بن هبة الله[1]

---

١ ـ جاء على هذه الصفحة من مخطوط باريس:

ـ قرى في هذا الكتاب بطرس بن ديب الحلبي من طائفة الملكية رحمة الله عليه وعلى أهله، وعلى قارىء ذا الخط في باريس في بيت الوزير كولبيرت سنة ألف وستمية وثمانين مسيحية.

ـ رأيت بخيل صان سنداس دارهي ولم نر قبله شخص يحرس الخلا. وماذاك إلا النهر ضن النهر يعود طعامك مثل ماكان. رمت أمرءاً فاحذر عداوته. من يزرع الشوك لايحصد به مدو وإن أبدى مسالمة إذا رأى منك يوما فرصه وغيره. في سبع وعشرين ليلة بشهر هلال شباط أتى فيها أن يكون فإنه صيام النصارى فاعلمن ذاك وادرين.

بِسْــــم الله الرَّحْمَنُ الرّحيــــم
وما توفيقي إلا بالله

الْحَمْدُ لله مُقَلّبِ الأمُور. وَمُصَرِّفِ الدُّهُور. وَمَالِكِ الأمِيرِ وَالْمَأْمُور. وَالصَّلاةُ عَلَى نَبِيّهِ مُحَمَّدٍ الْمُصْطَفَى الصَّبور. الذِي نَسَخَ بِدِينِهِ سَائِرَ الأدْيَانِ وَقَمَعَ بِهِ كُلَّ كَفُور. وَعَلى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ صَلاةً دَائِمَةً إلَى يَوْمِ النُّشُور.

وَبَعْدُ فَإنَّ بَعْضَ مَنْ يَتَعَّينُ عَلَيَّ امِتثَالُ أَمْرِه. وَيَجِبُ عَلَيَّ الانْقِيَادُ إلى مُوَالاتِهِ وَبِرِّه. التَمَسَ مِنِّي تَعْلِيقَ مَا وَقَعَ إليَّ مِنْ ذِكْرِ أُمَرَاءِ حَلَبَ وَوُلاتِهَا. وَمُلُوكِهَا وَرُعَاتِهَا. فَسَارَعْتُ إلى تَحْصِيلِ غَرَضِه. وَقُمْتُ مِنْ تلبيتهِ بِمُفْتَرَضِه. وَعَلَّقْتُ فِي هذِهِ الأوْرَاقِ ذِكْرَ مَنْ مَلَكَهَا مِنَ الْوُلاة. وبعض مَنْ عَثَرْتُ عَلَيْهِ مِنَ الوْزَرَاءِ والْقُضَاة.

وأَضَفْتُ إلى ذَلِكَ ذِكْرَ مَنْ بناها في قَدِيمِ الزَّمَان. وَمَعْنَى اسْمِهَا الْمُخْتَصَّةِ هِيَ بهِ مِنْ بَيْنِ سَائِرِ الْبُلْدَان.

وَرَسَمْتُهُ: «بزبدة الحلب من تاريخ حلب»؛ لأنَّهُ مُنْتَزَعٌ مِنْ تاريخي الكبير للشهباء. الْمُرَتَّبِ عَلَى الْحُرُوفِ وَالأسْمَاء.

وَأَرْجُو أَنْ يَكُونَ وَصَلَ إِلَيَّ مِنْ ذَلِكَ مَا لَمْ يَصِلْ إِلَى سِوَايَ. وَأَنْ أَبْلُغَ مِنْ عَفْوِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ نِهَايَةَ سُؤْلِي وَأَقْصَى مُنَايَ. وَبِاللهِ أَسْتَهْدِي. وَإِلَى فَضْلِهِ وَكَرَمِهِ أَسْتَعْدِي.

وَأَقُول:

اسم حلب عربيّ لاشك فيه[١]. وكان لقباً لتل قلعتها[٢]. وإنَّما عُرف بذلك لأن إبراهيم الخليل ـ صلوات الله عليه ـ كان إذا اشتمل من الأرض المقدّسة؛ ينتهي إلى هذا التلّ فيضع به أثقاله، ويبث رعاءَهُ إلى نهر الفرات

١ ـ حلب مدينة عربية موغلة بالقدم، قامت على ضفة نهر قويق اليسرى، وسط منطقة زراعية، تنتج الحبوب والزيتون، في موقع استراتيجي هام جدا، فقد شكلت صلة وصل بين بلاد الشام وبلاد مابين النهرين والهضبة الايرانية والبلدان الآسيوية الشرقية، من جهة الشرق وآسية الصغرى فأوربا الشرقية من جهة الشمال، وشواطىء البحر المتوسط من جهة الغرب. حافظت على اسمها دونما تبديل، فقد وردت في نصوص ماري باسم حالاب، وخلاب وخالايا وحلبا، وفي النصوص المصرية القديمة خرب، وفي رسائل تل العمارنة حلب، وفي نصوص أوغاريت حلب، وفي النصوص الآرامية الصيغة نفسها، ووردت في النصوص الحثية باسم خلب وخالاب وحلباس، وسماها الهلنستيون بيروا، واستردت اسمها الأصيل بعد الفتح العربي، وتعاظمت مكانتها فكانت حاضرة الشمال الشامي، وشغلت دوما أهم الأدوار السياسية والحضارية والاقتصادية، وتميزت بتل قلعتها وبنشاط سكانها وعبقريتهم وامكاناتهم المتميزة.

٢ ـ هناك اجتهادات جعلت إبراهيم الخليل من ايبلا، وهنا يمكن ربطه بتاريخ مدينة حلب، ولانقيم وزنا للدعاوى الصهيونية التوراتيه بشأن الانتماء إلى إبراهيم الخليل، فبنو اسرائيل اندثروا منذ عدة آلاف من السنين، ومااورد بالتوراة من معلومات تاريخية لم تثبته أعمال الكشف الأثري، والصهاينة الذين جاءوا من أوربا هم من أصل خزري.

وإلى الجبل الأسود[١]. وكان مقامه بهذا التلّ يحبس به بعضَ الرّعاء؛ ومعهم الاغنام، والمعز، والبقر. وكان الضُّعفاء إذا سمعوا بمقدمه أتوْهُ من كُلّ وجهٍ، من بلاد الشمال. فيجتمعون مع من اتبعه من الأرضِ المقدسة، لينالوا من برّه؛ فكان يأمر الرِّعاء بِحَلْبِ ما معهم طَرَفي النَّهار. ويأمرُ ولدَهُ وعبيدَه باتخاذ الطَّعام فإذا فرغ له من ذلك أَمر بحمله إلى الطرق المختلفة بازاء التلّ، فيتنادى الضّعفاء: «إنَّ إبراهيمَ حَلَبَ»، فيتبادرون إِلَيْهِ.

فنُقِلتْ هذه اللَّفظةُ كما نُقل غيرُها، فصارت اسماً لتلّ القلعة. ولم يكن في ذلك الوقت مدينة مبنيَّة.

قيل: إنَّ «بيتَ لاها»[٢] كان يقيم به أَيضاً إبراهيمُ ـ صلَّى الله عليه ـ ورعاؤه تختلف إليه. وكان يفعلُ فيه أيضاً، كما يفعل في تلّ القلعة. لكنَّ الاسمَ غلب على تلّ القلعة دون غيره.

---

١ ـ «جبل دون اللكام من شرقيه، ويقال إن إبراهيم صلى الله عليه وسلم كان إذا أقام بحلب يبث رعاءه إليه ليرعوا غنمه فيه، وفيه أشجار كثيرة غير مثمرة» بغية الطلب لابن العديم ـ تحقيقي ط. دمشق ١٩٨٨ ص٤٣٨، والمراد هنا جبال الأمانوس.

٢ ـ بهامش الأصل: «وبيت لاها هذا المشار إليه هو جبل اللكام، ويقال له بيت لاها الغربي وبيت لاها الشرقي هو ليلون، ويقال لكل منهما الغربي».

وفي بغية الطلب ص٤٢٠ لدى الحديث عن جبل سمعان قال ابن العديم: «وفي وسط هذا الجبل جبل عال شاهق على الجبال التي حوله، يقال له بيت لاها، وهو بيت لاها الشرقي، لأن جبل اللكام يقال له بيت لاها الغربي، ومعناه بالسريانية بيت الله، ويقال إن إبراهيم عليه السلام لما هاجر إلى الشام، كان يرعى غنمه من أرض حلب إلى بيت لاها، ويقال لما حوله من الجبال جبل ليلون، وقيل فيه لولون».

وقيل: إنَّ إبراهيم ـ صلى الله عليه ـ لَمَّا قطع الفراتَ من حَرَّان[1] أَقام ينتظر ابنَ أخيهِ «لوطا»، في كثيرٍ مِمَّنْ يتبعُه في سنةٍ شديدةِ المحل. وكان الكنعانيون يأتُون إبراهيمَ ـ عليه السلام ـ بأبنائهم فيهبونهم منه؛ ويتصدَّقُ عليهم بأقواتهم من الطَّعام، والغنم. وصار إبراهيمُ ـ عليه السلام ـ إلى أرضِ حَلَبَ فاتخذ الركايا، وكرا الأعين؛ ومنها: عينُ إبراهيمَ ـ عليه السلام ـ وهي التي بَنِيَتْ عليها مدينةُ حلب.

وكان للكنعانيين بتلّ القلعة في رأْسِهِ بيتٌ لِلصَّنم؛ فصار إليه ابراهيم ـ عليه السلام ـ فأخرج الصَنَمَ؛ وقال لِمَنْ حضره من الكنعانيين: أدْعُوا إلهَكُمْ هذَا أَنْ يكشف عنكم هذه الشّدةَ. فقالوا: وهَلْ هو إلا حجر؟ فقال لهم: فإنْ أَنا كشَفْتُ عنكم هذه الشّدَّةَ، ما يكونُ جزائي؟ فقالوا له: نعبُدُك فقال لهم: بل تَعْبُدُون الَّذي أَعْبُدُ؛ فقالوا: نعم.

فجمعهم في رأس التلّ؛ ودعا الله، فجاء الغيثُ. وضرب إبراهيم ـ عليه السلام ـ برأس ظِلِّهِ حين أَقْلَع الغيثُ. وتوافتْ إليه رعاؤُهُ؛ فكان يأمرُ أصحابه بإصلاحِ الطَّعام، ويضعُه بَيْنَ أوعيةِ اللَّبَن؛ ويأمر بعضَهم فيُنَادي: «أَلا إنَّ إبراهيمَ قَدْ حَلَبَ فَهَلِمُّوا» فيأتُونَ مِنْ كلِّ وجهٍ، فيطعمون، ويشربون، ويحملون مابقي إلى بيوتهم. فكان الكنعانيون يُخبرون عن مقام

١ ـ حران الآن قرية مهملة داخل الحدود التركية، قريبة من أطراف محافظة الرقة، وكانت دوما من أهم مدن بلاد الشام لاسيما في الجوانب الفكرية والعقائدية.

إبراهيم بما كان يفعله. وصار قولهم «حَلَبَ» بِطُولِ هذا الاستعمال لقباً لهذا التلّ؛ فلما عمرت المدينة تحته سميت باسمه.

وذكر بعضُهم: أنها إنما سميت «حلب» باسم من بناها، وهو: حلب بن المَهَرْ بن حيص بن عمليق من العمالقة. وكانوا إخوة ثلاثة: بردعه، وحمص، وحلب؛ أولاد المهر. فكلٌّ منهم بنى مدينة سميت باسمه.

وكان اسم حلب باليونانية «باروا» وقيل «بيرؤأا».

وذكر ارسطاطاليس[1] في كتاب الكيان[2]: أنه لما خرج الاسكندر لقصد دارا الملك، ومقاتلته، كان ارسطاطاليس في صحبته؛ فوصل إلى حلب ـ وهي تُعرف بلسانِ اليونانية «بيرؤأا» ـ فلما تحقَّق أرسطوطاليس حالَ تُرْبَتها، وصِحَّةَ هوائها، استأذن الإسكندر في المقام بها، وقال له: إنَّ بي مرضاً باطناً، وهواءُ هذه البلدةِ موافقٌ لِشفَائي. فأقام بها فزال مرضه.

وقيل: إنَّ الذي بنى مدينة حلب أولاً مَلِكٌ من ملوك الموصل يقال له:

---

١ ـ لأرسطو ترجمة وافية في بغية الطلب ص١٣٤١ ـ ١٣٤٥ .

٢ ـ قال ابن العديم في بغية الطلب أثناء الحديث عن كتب أرسطو: «وأما الكتب التي في العلوم الطبيعية فمنها مايتعلم منه الأمور التي تخص كل واحد من الطبائع، فالأمور التي يتعلم منها الأمور التي تعم جميع الطبائع وهو كتابه المسمى «بسمع الكيان» فهذا الكتاب يعرف بعدد المبادىء لجميع الأشياء الطبيعية، وبالأشياء التوالي للمبادىء. وبالأشياء المشاكلة للتوالي، فأما المبادىء فالعنصر والصورة، وأما التوالي فالزمان، وأما المشاكلة للتوالي: فالخلاء، والملاء، وما لانهاية له...».

بلوكوس الموصلي[١]. ويسميه اليونانيون: «سردينبلُوس». وكان أول ملكه في سنة ثلاثة آلافٍ وتسعمائة وتسع وثمانين سنة لآدم ـ صلوات الله عليه ـ وملك خمساً وأربعين سنة. وفي سنة تسع وعشرين من ملكه وهي سنة أربعة آلاف وثماني عشرة سنة لآدم، ملكت ابنته «أطوسا» المسماة «سميرم»[٢] مع أبيها بلوكوس.

وذكر أبو الرَّيْحان البيرونيُّ[٣] في كتاب القانون المسْعُودِيّ، وقال: بُنَيتْ

---

١ ـ نقل ابن شداد في كتابه الأعلاق الخطيرة ـ ط. دمشق ١٩٨٨ ق١ ج١ ص٤٢: «قال كمال الدين ابن العديم: قرأت في الكتاب الجامع للتاريخ، المتضمن ذكر مبدأ الدول، ومنشأ الممالك، ومواليد الأنبياء، وأوقات بناء المدن، وذكر الحوادث المشهورة، مما عني بجمعه أبو نصر يحيى بن جرير الطبيب، التكريتي النصراني، من عهد آدم إلى دولة بني مروان، ونقلت ذلك من خطه قال: ذُكر أن في دولة المواصلة أن بلوكوس الموصلي ملك خمساً وأربعين سنة، وأول ملكه في سنة ثلاثة آلاف وتسعمائة وتسع وثمانين لآدم عليه السلام، قال: كان في سنة تسع وعشرين من ملكه، وهي سنة أربعة آلاف وثماني عشرة لآدم ملكت أطوسا المسماة سميرم مع بلوكوس أبيها، وبلوكوس هذا هو الذي يسميه اليونانيون سردنيبلوس، وهو الذي بنى مدينة حلب».

٢ ـ هي سميراميس، بطلة أسطورة آشورية انتشرت في ايطاليا وبلاد الاغريق، قيل كانت أمها دير كيتو ربة عسقلان التي كانت تجمع بين وجه امرأة جميلة وجسم سمكة. انظر تفاصيل الاسطورة في معجم الأساطير اليونانية والرومانية لسهيل عثمان وعبد الرزاق الأصفر، ط. دمشق ١٩٨٢ ص٢٩٣ ـ ٢٩٤.

٣ ـ البيروني هو أبو الريحان محمد بن أحمد [٣٦٢ ـ ٤٤١هـ/٩٧٣ ـ ١٠٥٠] كان قد عاش في البلاط الغزنوي، بعد سقوط الدولة السامانية، وصنف بالعربية في الجغرافية، والفلك، واللغة والفلسفة، انظر كتابي مائة أوائل من تراثنا ـ ط. دمشق ١٩٨٩ ص٤٩٦ ـ ٤٩٩.

حلب في أيام بلقورس[1] من ملوك نينوى، وكان ملكُه لمضي ثلاثة آلاف وتسعمائة واثنتين وستين سنة لآدم ـ عليه السلام ـ ومدة مقامه في المُلْك ثلاثون سنة.

وشاهَدْتُ على ظهر كتاب عتيقٍ من كُتُب الحلبيين بخطّ بعضِهم: رأيتُ في القنطرة الَّتي على باب أنطاكية، من مدينة حلب، في سنة عشرين وأربعمائة للهجرة كتابةً باليونانية، فسألتُ عنها، فحكى لي أبُو عبد الله الحسينُ بن إبراهيمَ الحسيني الحرَّانيّ ـ أيده الله ـ أَنَّ أبا أسامةَ الخطيبَ بحلب حكى له: أنَّ أباه حدَّثَهُ: أنه حضر مع أبي الصَّقر القبيصي، ومعهما رجلٌ يقرأ باليونانية، فنسخوا هذه الكتابة وأنْفَذَ إليَّ نُسْخَتَها في رقعة وهي:

«بُنيتْ هَذِهِ المدِينَةُ، بَنَاهَا صَاحِبُ الْمُوصِلِ، والطَّالعُ العقرب والمشتري فيه، وعطارد يليه، ولله الحمد كثيراً».

وهذا يدل على ماذكرناه، وهو أن بلوكوس الموصلي هو الذي عمرها. وكان قبل الاسكندر.

وذكر يحيى بن جرير التكريتي[2] في كتاب له ضَمَّنَه أوقاتَ بناء المدن،

١ ـ نقل ابن شداد عن ابن العديم قوله: «وبلقوريس هذا هو بلوكوس الذي قدمنا ذكره، غير أن هذه الأسماء الأعجمية لايكاد المسمون لها يتفقون فيها على صورة واحدة لاختلاف ألسنتهم». الأعلاق الخطيرة ق١ ج١ ص٤٤.

٢ ـ أبو نصر يحيى بن جرير التكريتي، شهر بصناعة الطب، توفي بعد سنة ٤٧٢هـ، وصنف عدة كتب. عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة ـ ط. القاهرة ١٣٠٠هـ ج١ ص٢٤٣.

مايدل على أن حلب بعد بناء بلوكوس خربت، وجدد عمارتها غيره، بعد موت الاسكندر فانه قال بعد ذكر دولة الاسكندر وموته باثنتي عشرة سنة: «بَنَى سلوقوس[١] اللاذقية، وسلوقية، وأفامية، وبارُوّا وهي حلب، واداسا وهي الرُّها؛ وكمَّلَ بناء أنطاكية وزُخرَفَها وسمَّاها على اسم ولده انطيوخوس وهي أنطاكية، وكان شرع في بنائها قبله أنطيغنوس في السنة السادسة من موت الاسكندر. وذكر أنه بناها على نهر أورنْطِس وسماها: «انطوغينا» .

وقال: «كان الملك الأول على سوريا، وبابل، «سلوقوس نيقطور»[٢] وهو سرياني؛ وملك في السنة الثالثة عشرة لبطلميوس ابن لاغوس، بعد موت الاسكندر؛ وألْزَمَ اليهودَ أن يُقيموا في المدن التي بناها وقرّر عليهم الجزية» .

وسوريا هي الشام الأولى وهي: حلب وما حولها من البلاد[٣] ـ على

---

١ ـ الاشارة هنا إلى سلوقس الثاني كالينيكوس ملك سورية وبابل ابن أنطيوخوس الثاني، خاض عدة حروب وتوفي سنة ٢٢٦ق.م. الموسوعة العربية الميسرة.

٢ ـ كان سلوقس نيكاتور [ت ٢٨٠ ق.م] من أبرز قادة الاسكندر المقدوني، أسهم في حروب خلفاء الاسكندر وملك سورية وبابل، وتولى تأسيس عدد من المدن، وسعى إلى التشبه بالاسكندر، وبعد وفاته خلفه أنطيوخوس الأول. الموسوعة العربية الميسرة.

٣ ـ كانت بلاد الشام مقسمة في عصور ما قبل الفتح العربي الاسلامي إلى عدة مناطق إدارية هي:

١ ـ سورية وقد انقسمت إلى قسمين هما:

أ ـ سورية الأولى ومركزها أنطاكية، ومن مدنها الرئيسة: سلوقية، واللاذقية، وجبلة وحلب.

=

ماذكره بعض الرواة - وفي طرف بلد حلب، بناحية الأحص، مدينةٌ عظيمةٌ، وبها آثار قديمة، يقال لها سورية وإليها يُنْسَبُ القلى السورياني، فلعلَّ الناحية كلّها ينسب إليها، ويطلق عليها اسمها، كما أُطلق بعد ذلك على جميع الكورة اسم قنسرين.

وقال بعضُ المؤرّخين من المسيحية: الذي ملك بعد الاسكندر بطليموسُ الأريب[1] وهو الذي بنى مدينة حلب، وسماها «أشمونيت»: وذلك

= ب - سورية الثانية، أو سورية المجوفة، ومركزها مدينة أفامية، وتبع لها: حماة، والرستن، وشيزر.

فينيقيا، وقسمت بدورها إلى قسمين هما:

أ - فينيقيا الأولى ومركزها صور، والمدن الرئيسة في هذا القسم: عكا، وصيدا، وبيروت، وطرابلس، وأرواد.

ب - فينيقيا الثانية المواجهة للبنان، ومركزها دمشق، وضمت حمص وتدمر.

فلسطين وقد قسمت إلى:

أ - فلسطين الأولى، ومركزها قيسارية، وكانت تضم القدس ونابلس،ويافا، وغزة وعسقلان.

ب - فلسطين الثانية ومركزها بيسان، ومدنها الرئيسة جدرة وطبرية.

ج - فلسطين الثالثة، ومدينتها الرئيسة البتراء.

Palestine under the muslims, P28.

١ - كان بطليموس الأول (سوتر) المنقذ واحدا من كبار قادة الاسكندر الأكبر، أقيم عقب وفاته واليا على مصر،عمل على تفكيك عرى الامبراطورية المقدونية،وأسس في مصر حكم أسرة البطالمة، اعتنى بالاسكندرية وود جعلها عاصمة الحضارة الاغريقية، جعل عبادة الاسكندر ديانة رسمية وهي العبادة التي تطورت إلى عبادة أسرة البطالمة،وحمل بعض ألقاب الفراعنة، أشرك ابنه بطليموس معه بالحكم قبل وفاته، وكانت وفاته سنة ٢٨٣/٢٨٢ ق . م . الموسوعة العربية الميسرة .

أنه اختار بناء المدينة في موضع، وأراد أن يكون بها الماء، فخرج ودار حولها، حتى رأى الأعين التي «بحيلان»[١]؛ فأمر المهندس أن يبني عليهنَّ بناءً، ويحكمه، وأن يجريَهُنَّ إلى المكان الذي هو مرسوم بمنزلة الملك. وجمعَ الناسَ للعمل في عمارة المدينة، فاحتفر في وسط المدينة حفيرة بثقها إلى النهر الذي أجراه؛ وأمر بالقساطل أن تعمل فاختلَّت، فاتخذت من الحجارة؛ فتمَّ ما أراد وبنَى به بناءً في موضع الريحانيين يومنا هذا؛ واتخذ عليه قصراً، وبنى المدينة. وآخر مابناه «باب أنطاكية» ورتَّب فيها ابنته «أشمونيت»؛ وسمَّى المدينةَ باسمها وأضافَ لها جُنداً وزوجَّها «بإيلياوس»، أحد أبناء ملوكهم؛ وكان قائد جيش الأريب؛ وصار إلى أنطاكية؛ وليست من بناء اليونان فإنَّ رسمّها قديم؛ فتمم بناءها، وأضافها إلى إيلياوس زوج أشمونيت[٢].

وملك الأريب تسعاً وعشرين سنة. وملك بعده ابنه بطليموس، ولقب باليونانية: «محب أخته»[٣]؛ وكانت أخته أشمونيت نائبة عنه؛ فبقي في

---

١ ـ حيلان: قرية بهضبة حلب، تبعد عنها ٨كم نحو الشمال، تصلها بحلب طريق مزفتة، وهي تتبع اداريا قرى مركز ومنطقة جبل سمعان. المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري.

٢ ـ لم يهتم البطالمة باعمار الجزء الجنوبي الذي حكموه من سورية، وعلى عكسهم كانت الدولة السلوقية،حيث يبدو أن سلوقس قام بالدور الرئيسي في هذا المجال، فإليه تنسب المدن الأربع: أنطاكية، وأفامية، وسلوقيا، ولاذقية. مدن بلاد الشام حين كانت ولاية رومانية ـ ط. عمان ١٩٨٧ ص٣٦ ـ ٤١ .

٣ ـ وقعت حلب في ظل حكم البطالمة وهم: بطليموس الثاني محب أخته (٣٠٨ ـ ٢٤٦ ق.م) وقد جاء بعد بطليموس،وحافظ على استقلال مصر وخلفه بطليموس الثالث الخير [يورجتيس] [٢٤٦ ـ ٢٢١ ق.م] وجاء من بعده بطليموس الرابع [فيلوباتور] المحب لأبيه، وخلفه بطليموس الخامس [٢٠٣ ـ ١٨٠ ق.م] وجاء بعده بطليموس السادس [فيلومنور]

الملك ستاً وعشرين سنة. وملك بعده ابنه بطليموس الاورجاتيس [ولُقِّب باليونانية بالفاعل فبقي في الملك أربعاً وعشرين سنة. وملك بعده بطليموس فليفاطر] ولقّب باليونانية محب أبيه، وأشمونيت وزوجها وولدها يتولون حلب. وملك بعده «بطليموس محب أمه»[1] وهو ابن أشمونيت وكان ينزل حلب، وعَمَّر على صخرتها قلعةً، وحصّنها، فخرج عليه في آخر أيامه «انطياخوس» ملك الروم؛ واستنجد عليه فلم يكن لمحب أمه به طاقه، فخرج عنها مع أمه، فأسرهما أنطياخوس، وعذبهما، واستصفى أموالهما، وشرع في هدم ماجدَّدت أشمونيت من بناء حلب. فقيل له إنَّ الذي يفعله ليس من عادة الملوك، فكفَّ عن هدمها؛ وتوَّعد من يسكن بحلب، فصار الناس إلى غيرها. وعاد إلى أنطاكية فاستحدث بها أبنية لنفسه. فلذلك يزعم قومٌ أن أنطاكية من بنائه، وليس الأمر كذلك؛ وإنما له فيها مثل ما لبطليموس الأريب من التتميم. ويقال: إن أشمونيت وهي حلب تجاوزت عمارتها مارسمه الأريب، حتى صارت العمارة إلى جميع الجوانب. وقيل: إن أشمونيت نصبتْ حواليها مائة ألف نصبة من الزيتون، ومن التين مائة ألف نصبة وغير ذلك من الأشجار الجبلية الشامية. ولم يبق بحلب موضع ينسب إلى أشمونيت غير العين المعروفة بأشمونيت. وماتت أشمونيت وولدها في أسر أنطياخوس تحت العقاب.

---

١ - المحب لأمه [١٨٠ ـ ١٤٥ ق.م] وكان في السابعة من عمره، فتولت الوصاية عليه أمه كليوبترا الأولى، وبعد وفاتها غزا أنطيوخوس الرابع [١٧٠ ق.م] مصر. الموسوعة العربية الميسرة.

وقيل هوالذي بنى قنسرين، وأجرى الماء إليها في قناة من عين المباركة، وقيل: بناها غيرهُ، وعرف انطياخوس ببطليموس الرابع.

وقيل: إنَّ أشمونيت حال محاربتها أنطياخوس أتتها نجدة من مصر، فهزمته فصار إلى الشرق فمات.

ثم ملك حلب بعد أشمونيت «بطليموس ابيفانيس»[١] وهو قائد العسكر؛ وفي زمانه اشترت اليهود منه موضع القلعة المعروفة اليوم بقلعة الشريف فتحصَّنُوا بها؛ وكانوا يعينون الملك في القتال ويحملون له الأموال.

ثم ملك بعده بطليموس فيلو بطر[٢]، وهلك انطياخوس في أيامه. ثم ملك بعده جماعة من ملوك اليونان؛ إلى أن صار الملك إلى القياصرة ملوك الروم؛ فملك منهم عدة ملوك إلى أن ملك أوغسطس قيصر بن مويوخس، فاستولى على الدنيا، وقهر الملوك، وقصد مصر ليستولي عليها، فلما بلغ حلب وكان أمره قد عظم، قال: إنَّ بطليموس الأريب لم يرْضَ أن ينزل منزلاً لغيره. فسار إلى موضع مدينة قنسرين فأمر القواد أن يأمروا من قبلهم بتحويط منازلهم، وأخذ كلٌّ واحد ببناء ما حوَّطه، فبنى قنسرين وسمَّاها «مدينة العسكر»[٣]. ونقل الأسواق من حلب إليها، ولم يبق بحلب إلا مَنْ لا

١ ـ كذا، وبطليموس أبيفانس هو الرابع [٢٠٣ ـ ١٨٠ ق.م] في أيامه فقدت مصر امبراطوريتها. الموسوعة العربية الميسرة.

٢ ـ هذا بطليموس الرابع ـ المحب لأبيه، وسلفت الاشارة إليه.

٣ ـ تبعد بقايا قنسرين عن حلب ٧كم ويضم الموقع تلاً فيه بقايا مدينة مسورة، هذا وكان يطلق على المنطقة مابين العاصي والفرات اسم خالدين Chalcidene وكانت قنسرين Chalcis حاضرة هذه المنطقة. A classical Dictionary, London 1866.

حاجة للعسكر به. وكانت هذه أعظم من فعل انطياخوس. وقيل: إنه أمر أن ينفق على القناة إليها فأنفق نائبه مالاً على القناة، وأجرى الماء فيها من عين المباركة، وساقها إلى القناطر إلى قنسرين؛ وبنى بها ثلاث برك على شكل المثلث، وفايضها ينحدر إلى الأرضين التي تحتها.

وصار الملك بعده إلى جماعة من القياصرة ملوك الروم. وصارت أنطاكية دار الملك، وبها مقام ملوك الروم؛ وكانوا يدعونها مدينة الله، ومدينة الملك، وأم المدن، لأنَّها أول بلد ظهر فيه دين النصرانية[1]. ومعظم سور مدينة حلب من بناء الروم.

وملك منهم ملك يقال له: فوقاس[2] فسفك الدماء، وتتبع حاشية كسرى، فقتلهم؛ فتوجه كسرى أنو شروان إلى الشّام فافتتح حلب، وأنطاكية، ومنبج، ورمَّ ما استهدم من سور مدينة حلب بالقرميد الكبار، وهو ظاهر في سور المدينة الكبير، فيما بين بابي اليهود والجنان. وجدَّد كسرى بناء منبج وسمّاها منبه؛ وهو بالفارسية: أنا اجود، فعرّبتْ فقيل منبج.

واستحسن أنطاكية فلما عاد إلى العراق بنى مدينة على صورتها، وسماها ريد خسره، وهي التي تسمى رومية، وأدخل إليها سبي أنطاكية، فقيل إنهم

---

١ ـ في هذه العبارة دقة كبيرة، فبعد ما نجح بولس الرسول (شاول) في مزج تعاليم السيد المسيح بالغنوصية، بات اسم العقيدة الجديدة النصرانية، وعلى هذا قال بولس لأتباعه في أنطاكية إثر نجاحه: أنتم آخر الجليليين وأول النصارى. انظر الموسوعة العربية الميسرة.

٢ ـ وصل فوقاس إلى عرش الامبراطورية البيزنطية سنة ٦٠٢م، إثر مقتل الامبراطور موريس، وقد عزل سنة ٦١٠م من قبل هرقل الذي قدم من قرطاج ونصب نفسه امبراطورا.

لم ينكروا من منازلهم شيئاً فانطلقوا إليها إلا رجل اسكاف، كان على باب داره بأنطاكية شجرة فِرْصَاد[١]، فلم يرها على بابه ذلك؛ فتحيَّر ساعة؛ ثم دخل الدار، فوجدها مثل داره.

ولما عاد كسرى عن الشام، قام هرقل بن فوق بن مروقس وجمع بطارقة الروم، وأولي المراتب؛ وذكر لهم سوء آثار فوقاس ملك الروم؛ وغلبة الفرس على ملكهم بسوء تدبيره، وإقدامه على الدماء؛ ودعاهم إلى قتله فقتلوه؛ ووقع اختيارهم على هرقل فملَّكُوه.

وفي أول سنة من مُلكه كانت هِجرة نبيّنا مُحَمَّدٍ ـ صلى الله عليه وسلَّمَ ـ من مكة إلى المدينة[٢]؛ واستولى على حلب، وعلى جميع البلاد، التي استولى عليها أنو شروان وكان جلّ مقامه بأنطاكية.

فلما افتتح المسلمون أجناد الشام[٣]، وكانت وقعة اليرموك، وقَتَل

١ ـ الفرصاد شجر التوت، وتوسع ابن العديم في كتابه بغية الطلب في هذا الباب انظر ج١ ص٦٥ ، ٩١ ـ ٩٢ ، ١٠٦ ـ ١٠٧ .

٢ ـ اعتلى هرقل العرش في بيزنطة سنة ٦١٠م، ويقابل سنة الهجرة الأولى سنة ٦٢٢م. انظر الدولة البيزنطية في عصر الامبراطور هرقل تأليف د. ليلى عبد الجواد اسماعيل ـ ط. القاهرة ١٩٨٥ ص٦١ ـ ٧٤ .

٣ ـ أشرت من قبل إلى تقسيمات بلاد الشام اداريا قبل الفتح العربي الاسلامي، وبعد الفتح قام العرب باعادة النظر في هذا التقسيم في ضوء تبدل الجغرافية السياسية لبلاد الشام. فهذه البلاد باتت جزءا من دولة الخلافة التي مركزها الآن المدينة المنورة. ولم تعد تتبع روما الغربية أو الشرقية بل تعاديها. لذلك قسم العرب البلاد أولاً إلى أربعة أجناد هي: جند دمشق، وجند حمص، وجند الأردن، وجند فلسطين، وفي العصر الأموي أيام يزيد بن معاوية قسم جند حمص إلى قسمين هما: جند حمص وجند قنسرين. =

المسلمون فيها معظَم الرُّوم، وأميرُ المسلمين عليهم أبو عبيدة بنُ الجرَّاج ـ رضي الله عنه ـ انتقل هرقل من أنطاكية، وعبر الفرات إلى «الرها»؛ وجعل بقِنّسرين ميناس الملك، ـ وكان أكبر ملوك الروم بعد هرقل.

فسار أبو عبيدة بعد فراغه من اليرموك إلى حمص ففتحها؛ ثم بعث خالد بن الوليد على مقدمته إلى قِنّسرين؛ فلما نزل بالحاضر زحف لهم الروم؛

= وجند دمشق، حاضرته دمشق، وفيه من الكور: بعلبك قاعدة البقاع، وحوران ومدينته بصرى، والبثنية ومدينتها أذرعات، والجولان ومدينته بانياس، وكورة الشراة ومدينتها أذرح ومناطق أخرى، على رأسها المناطق الساحلية لعرقة وطرابلس وجبيل وبيروت وصيدا. وكانت الغالبية العظمى لسكان جند دمشق من العرب من قبائل أصل يماني.
وجند حمص كان يضم وسط بلاد الشام مع الشمال. من أهم مدنه حماة وشيزر وأفاميا، وتدمر ومعرة النعمان، وحلب والبارة، وقنسرين وأنطاكية، مع اللاذقية وجبلة وبانياس وأنطرطوس على الساحل، وكانت تنوخ وطيء تسكن هذه المناطق قبل الفتح وانضاف إليها بعد الفتح القبائل اليمانية التي شاركت في اليرموك وبقية المعارك.
جند الأردن وقصبته مدينة طبرية على شاطيء البحيرة التي حملت الاسم نفسه. ومن مدن هذا الجند في الداخل بيسان وفحل وجرش، وفي الساحل صور وعكا.
وجند فلسطين وقاعدته مدينة اللد ومن مدن هذا الجند القدس وعمواس ونابلس وسبسطيه وبيت جبرين.
وبات لكل جند خراجه ونواة ادارة مستقلة ووالٍ وحامية. فقد تمركزت غالبية القوات التابعة لجند فلسطين في عمواس. وآثر كبار الصحابة سكنى هذه المدينة لوقوعها على مقربة من بيت المقدس.
مختصر كتاب البلدان لابن الفقيه: ١٠٢ ـ ١٠٥ كتاب البلدان لليعقوبي: ٢٢٥ ـ ٢٢٧. المسالك والممالك لابن خرداذبه: ٧٥ ـ ٧٦ ـ الأعلاق الخطيرة قسم دمشق: ٤١. معجم البلدان مواد: عرقة. صيدا، بيروت، طرابلس. الأنس الجليل: ٢٦٦.

وثار أهلُ الحاضر بخالد بن الوليد، وعليهم «ميناس» ـ وهو رأسُ الرُّوم وأعظمهُم فيهم بعد هرقل ـ فالتقَّوْا بالحاضر؛ فقتل «ميناسُ» وَمَنْ معه مقتلة لم يقتلوا مثلها. ومات الروّم على دمه حتى لم يبق منهم أحد.

وأما أهل الحاضر فكانوا من تنوخ، منذ أول ماتنخوا بالشَّام، ونزلوه وهم في بيوت الشعر؛ ثم ابتَنوْا المنازلَ؛ فأرسلوا إلى خالد: أنَّهم عربٌ؛ وانهم لم يكن مِنْ رأيهم حربه؛ فقَتَلَ منهم، وتَرَكَ الباقين.

فدعاهم أبو عبيدة بعد ذلك إلى الإسلام فأسلم بعضهم، وبقي البعضُ على النصرانية؛ فصالحهم على الجزية. وكان أكثر من أَقام على النصرانية بنو سليح بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة[1].

ويُقال: إنَّ جماعة من أهل ذلك الحاضر أسلموا في خلافة المهديّ، فكتب على أيّديهم بالخضرة: قنّسرين.

ثم إنَّ خالداً سار فنزل على قنّسرين، فقاتله أهلُ قنّسرين، ثم لجؤوا إلى حصنهم، فتحصنوا فيه، فقال: «إنكم لو كنتم في السحاب لحملنا الله عليكم أَو لأنزلكم إلينا» ثم إنهم نظروا في أمرهم، وذكروا مالقي أهلُ حمص فطلبوا منه الصلح؛ فصالحوه على صُلح حمص، فأبى إلا على إخراب المدينة فأخرَبها.

---

١ ـ لمزيد من التفاصيل ـ انظر البلدان للبلاذري ـ تحقيقي ـ ص١٧٠ ـ ١٧٢ . مغازي ابن حبيش ـ تحقيقي ـ ص٢٢٥ ـ ٢٢٦ . ومفيد أن نشير إلى أن نظام الحواضر في بلاد الشام قد اندثر الآن، اللهم إلا في مدينة حماة حيث مايزال الجزء العلوي ـ الشمالي ـ منها يعرف باسم الحاضر، وتتركز علاقات هذا الجزء مع أهل البادية.

وكان صلحُ حمص على دينار وطعام على كل جريب[1] أيسروا أو أعسروا. وغلب المسلمون على جميع أرضها وقراها؛ وذلك في سنة ست عشرة للهجرة.

فتح حَلَبُ[2]

ثم إنَّ خالداً ـ رضي الله عنه ـ سار إلى حلب، فتحصن منه أهل حلب. وجاء أبو عبيدة ـ رضي الله عنه ـ حتى نزلَ عليهم؛ فطلبوا إلى المسلمين الصلحَ والأمانَ، فقبل منهم أبو عبيدة وصالحهم، وكتب لهم أماناً[3].

ودخل المسلمون حلب من «باب أنطاكية»[4] وحفُّوا حولهم بالتراس داخل الباب؛ فبني ذلك المكان مسجداً، وهو المسجد المعروف بالغضائري، داخل باب أنطاكية، ويعرف الآن بمسجد شعيب[5].

ولما توَّجهَ أبو عبيدة إلى حلب بلغه أن أهل قنّسرين قد نقضوا فرد

١ ـ الجريب: مكيال قدر أربعة أقفزة، وقيل هو من الأرض مايساوي ثلاثة آلاف وستمائة ذراع، أو عشرة آلاف ذراع. القاموس.
٢ ـ نقل هذا العنوان من هامش الأصل.
٣ ـ لمزيد من التفاصيل انظر بغية الطلب ج١ ص٥٦٩ ـ ٥٨٧ .
٤ ـ عدد ابن العديم في بغيته أبواب حلب بعدما وصف أسوارها ج١ ص٥٥ ـ ٥٧ .
٥ ـ اسمه الآن جامع النوته في محلة العقبة، لم يبق من بنائه الأول إلا الجهة الغربية بالرواق. الآثار الاسلامية والتاريخية في حلب لمحمد أسعد طلس، ط. دمشق ١٩٥٦ ص٦٣ ـ ٦٤ .

إليهم السمط بن الأسود الكندي، فحصرهم ثم فتحها، فوجد فيها بقراً وغنماً؛ فقسم بعضَها فيمن حضر، وجعلَ الباقيَ في المغنم.

وكان حاضرُ قنّسرين [لطيء] قديماً نزلوه بعد حرب الفساد التي كانت بينهم حين نزل الجبلين[١] مَنْ نَزَلَ منهم؛ فلما ورد أبو عبيدة عليهم أسلم بعضُهم، وصُولح كثيرٌ منهم على الجزية؛ ثم أسلموا بعد ذلك بيسير إلا مَنْ شذَّ منهم.

وكان بقرب مدينة حلب حاضر حلب يجمع أصنافاً من العرب من تنوخ وغيرهم؛ فصالحهم أبو عبيدة على الجزية، ثم إنهم أسلموا بعد ذلك؛ وَجَرتْ بينهم وبين أهل حلب حربٌ أجلاهم فيها أَهلُ حلب، فانتقلوا إلى قنّسرين[٢].

وكانت قنّسرين وحلب إذ ذاك مضافتين إلى حمص فأفردَهُما يزيدُ بن معاوية في أَيَّامه. وقيل: أفردهما معاويةُ أبوه.

ولما بلغ عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ مافعل خالد في فتح قنسرين وحلب، قال: أمّر خَالِدٌ نفسَهُ؛ يرحمُ الله أبا بكر، هو كان أعلمَ بالرجال مِنِّي. يعني أَنَّ خالداً كان أمير المسلمين من جهة أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ على الشام؛ فلما وُلّي عمر عزله ووّلَّى أبا عبيدة[٣].

---

١ ـ الاشارة هنا إلى جبلي طيء: أجأ وسلمى انظرهما في معجم البلدان لياقوت.
٢ ـ انظر بغية الطلب ج١ ص٥٦٢ ـ ٥٦٤ .
٣ ـ لمزيد من التفاصيل انظر بغية الطلب ج١ ص٥٧٣ ـ ٥٨٢ .

ثم ولاه عمر ـ رضي الله عنه ـ على قنّسرين فأدرب خالدٌ وعياضُ بن غَنْم أَول مدربة كانت في الإسلام، سنة ست عشرة[1].

ورجع خالد، فأتته الامارة من عمر ـ رضي الله عنه ـ على قنّسرين، فأقام خالدٌ أميراً، تحت يد أبي عبيدة عليها، إلى أن أغزى هرقل أهل مصر في البحر؛ وخرج على أبي عبيدة في عساكر الروم، وأبو عبيدة بحمص بعد رجوعه من فتح حلب.

فاستمدَّ أبو عبيدة خالداً فأمدّه بمن معه؛ ولم يخلف أحداً، فكفر أهلُ قنّسرين بعده؛ وبايعوا هرقلَ وكان أكفر من هناك تنوخ.

واشتور المسلمون فأجمعوا على الخندقةِ والكتابِ إلى عمر ـ رضي الله عنه ـ بذلك. وأشار خالدٌ بالمناجزة فخالفوه، وخندقوا. وكتبوا إلى عمر ـ رضي الله عنه ـ واستصرخوه.

وجاء الرُّومُ بمددهم؛ فنزلوا على المسلمين؛ وحصروهم. وبلغتْ أمداد الجزيرة ثلاثين ألفاً، سوى أمداد قنّسرين، من تنوخ وغيرهم؛ فنالوا من المسلمين كل منال.

وكتب عمر ـ رضي الله عنه ـ إلى سعد بن أبي وقاص يخبرُهُ بذلك؛ ويأمرُه أن يبثَّ المسلمينَ في الجزيرة، ليشغلهم عن أهل حمص. وأمدَّهُ عمر ـ

١ ـ روى ابن العديم في بغيته ج١ ص٥٦٩ ـ ٥٧٢ . ان أول من أدرب إلى الأراضي البيزنطية كل من ميسرة بن مسروق العبسي والاشتر النخعي.

رضي الله عنه ـ بالقعقاع بن عمرو، فتوغلوا في الجزيرة؛ فبلغ الروم؛ فتقوضوا عن حمص إلى مدائنهم.

وندم أهلُ قنّسرين وراسلوا خالداً، فأرسل إليهم: «لو أن الامرَ إليَّ ما باليتُ بكم، كثرتم أم قللتم؛ لكنّي في سلطانِ غيري؛ فإن كنتم صادقين، فانفشوا كما نفش أهل الجزيرة». فساموا سائر تنوخ ذلك، فأجابوا؛ وأرسلوا إلى خالد: «إنّ ذلك إليك، فإن شئتَ فَعَلْنا وإنْ شئتَ أَن تخرج علينا فننهزم بالرُّوم». فقال: «بل أقيموا؛ فإذا خرجنا، فانهزموا بهم».

فلما علم أبو عبيدة والمسلمون بذلك قالوا: «اخرج بنا»! وخالد ساكت، فقال أبو عبيدة: «مالك ياخالد، لاتتكلم» فقال: «قد عرفتَ الذي عليه رأيي، فلم تسمع من كلامي». قال: «فتكلمْ فإني أسمعُ منك، وأطيع». فأشار بلقائهم.

فخرج المسلمون والتقوهم، فانهزم أهلُ قنّسرين، والرومُ معهم فاحتوى المسلمون على الروم، فلم يفلت منهم أحد[1].

وما زال خالد على إمارة قنّسرين حتى أدربَ خالد وعياض، سنة سبع عشرة، بعد رجوعهما من الجابية[2]، مرجع عمر إلى المدينة، فأصابا أَموالاً عظيمة.

---

١ ـ لمزيد من التفاصيل انظر بغية الطلب ج١ ص٥٧٦ ـ ٥٧٨.
٢ ـ يقع تل الجابية على مقربة من بلدة نوى في حوران ـ سورية.

وقفل خالد سالماً، غانماً، وبلغ الناسَ ما أصابوا تلك الصائفة؛ وقسم خالد فيها ماأصاب لنفسه؛ فانتجعه رجال من أهل الآفاق، وكان الأشعث بن قيس ممن انتجع خالداً بقنسرين، فأجازه بعشرة آلاف درهم.

وكان عمرَ لايخفى عليه شيء في عمله؛ فكتب إليه من العراق بخروج من خرج منها، ومن الشام بجائزة من أجيز فيها. فدعا البريد، وكتب معه إلى أبي عبيدة: أن يقيم خالداً، ويعقله بعمامته، وينزع عنه قلنسوته. حتى يعلمكم من أين أجاز الأشعث؟ أمِنْ ماله؟ أمْ مِنْ إصابة أصابها؟ فان زعم أنَّها من إصابة أصابها فقد أقرَّ بخيانة؛ وإنْ زعم أنَّها من ماله، فقد أسرف. واعزله على كل حال، واضمم إليكَ عملَه.

فكتب أبو عبيدة إلى خالد فقَدم عليه؛ ثم جمع الناسَ؛ وجلس لهم على المنبر، فقام البريد فقال: «يا خالد، أمنْ مالِكَ أجزتَ بعشرة آلاف، أم من إصابة»؟ فلم يتكلم حتى أكثر عليه، وأبو عبيدة ساكت لايقول شيئاً. فقام بلال إليه فقال: «إنَّ أميرَ المؤمنين أمر فيك بكذا وكذا». ثم تناول عِمامَتَهُ، فنقضها، لايمنعه سمعاً وطاعة. ووضع قلنسوته، ثم أقامه فعقله بعمامته، ثم قال: «ماتقول أَمِنْ مالِكَ أم من إصابة»؟ قال: «لابل من مالي» فأطلقه، وأعاد قلنسوته، ثم عمَّمه بيده. ثم قال: «نسمعُ ونطيعُ لولاتنا، ونفخم ونحترم موالينا».

وأقام خالد متحيراً، لايدري أمعزول أم غير معزول. وجعل أبو عبيدة يكرمه ويزيده تفخيماً ولايخبره؛ حتى إذا طال على عمر أن يقدم ظن الذي قد كان. فكتب إليه بالوصول.

فأتى خالد أبا عبيدة فقال: «رحمك الله ماأردت إلى ماصنعت؟ كتمتَني سرّاً كنت أحب أن أعلمه قبل اليوم». فقال أبو عبيدة: «إني والله ماكنت لأروعك ما وجدت من ذلك بدّاً؛ وقد علمت أن ذلك يروعك».

قال: فرجع خالد إلى قنسرين، فخطب أهل عمله، وودعهم. وقال خالد: «إنَّ عمرَ ولاني الشامَ حتّى إذا أَلْقَى بَوَانِيَهُ وَصَارَ بَثْنِيَّةً[1] وعَسَلاً عزلني، واستعمل غيري».

وتحمَّل وأقبل إلى حمص فخطبهم، وودعهم. وسار إلى المدينة حتى قدم على عمر فشكاه؛ وقال: «لقد شكوتُكَ إلى المسلمين وبالله إنَّك في أمري غير مُجْمل يا عمر». فقال عمر: «من أَيْنَ هذا الثَّرَاء؟ فقال: «من الأنْفَالِ والسُّهْمَان». فقال: «مازاد على الستين ألفاً فَلَكَ». فشاطره على ما في يده وقوّم عروضَه، فخرجت عليه عشرون ألفاً؛ فأدخلها بيت المال، ثم قال: «يا خالدُ! والله إنَّك لَعَلَيَّ الكريمُ، وإنَّك إليَّ الحبيبُ؛ ولن تعاتبني بعد اليوم على شيء». ثم إنَّهُ عوَّضه بعد ذلك عما أخذه منه[2].

واستعمل أبو عبيدة على قنسرين حبيب بن مسلمة بن مالك.

---

١ ـ بهامش الأصل: البثنية: الحنطة التي تنبت في البثنية وهي السهل. وجاء في النهاية لابن الأثير: في حديث خالد: فلما ألقى الشام بوانيه عزلني واستعمل غيري؛ أي خيره ومافيه من السعة والنعمة، والبواني في الأصل: أضلاع الصدر، وقيل الأكتاف والقوائم، الواحدة بانية.

٢ ـ لخالد بن الوليد ترجمة وافية في كتاب بغية الطلب لابن العديم، منها استخلص ماأورده هنا من معلومات ص٣١٢٠ ـ ٣١٧٣ .

وأما هرقل فانه تأخر من الرُّها إلى سميساط؛ وفصل عنها إلى القسطنطينية؛ فلما فصل عَلا على شرف؛ والتفت؛ ونظر نَحْوَ سُورِية، وقال: «عليكِ السَّلامُ ياسورية سلام لااجتماع بعده؛ ولايعود إليك روميٌّ أبداً إلاّ خائفاً، حتى يولد المولود المشئوم؛ ويا ليته لايولد، ماأحلى فعله وأمرّ عاقبته على الروم.

وطُعن[1] أبو عبيدة ـ رضي الله عنه ـ سنة ثماني عشرة؛ فاستخلف على عمله عياض بن غَنْم، وهو ابن عمه وخاله؛ وكان جواداً مشهوراً بالجود، فقال عمر: «إني لم أكن مغيّراً أمراً قضاه أبو عبيدة».

ومات عياض سنة عشرين، فأمّر عمر ـ رضي الله عنه ـ على حمص وقنسرين سعيد بن عامر بن حِذْيَم الجمحي ومات سنة عشرين. فأمّر عمر مكانه عمير بن سعد بن عبيد الأنصاري على حمص وقنسرين.

ومات عمر ـ رضي الله عنه ـ مقتولاً في ذي الحجة سنة ثلاث وعشرين؛ وعمير بن سعد على حمص وقنسرين؛ ومعاوية على دمشق والسواحل وأنطاكية. فمرض عمير في إمارة عثمان مرضاً طال به، فاستعفى عثمان؛ واستأذنه في الرجوع إلى أهله، فأذن له.

---

١ ـ حدث في سنة ١٨هـ طاعون عرف باسم طاعون عمواس، وعمواس بلدة قرب القدس، سكن فيها عدد كبير من الصحابة، والمسلمين وقيل كان عدد الذين ماتوا من المسلمين يتجاوز الخمسة والعشرين ألفا من أبرزهم: أبو عبيدة عامر بن الجراح، وشرحبيل بن حسنة، ومعاذ بن جبل. طبقات ابن سعد ج٧ ص٣٨٧ . الأنس الجليل ص٣٦٦ .

وضمّ حمصَ وقنسرين إلى معاوية سنة ست وعشرين؛ فاجتمع ولاية الشام جميعه على معاوية لسنتين من خلافة عثمان؛ فولى معاوية حبيب بن مَسْلَمة بن مالك الفهري على قنسرين، وكان يسمى حبيب الروم لكثرة غزوه لهم.

ومات عثمان ـ رضي الله عنه ـ مقتولاً في ذي الحجة سنة خمس وثلاثين، والشام مع معاوية؛ وحبيب على قنسرين، من تحت يده.

فجرى بين علي ـ عليه السلام ـ وبين معاوية اختلاف إلى أن سار كلٌّ منهما إلى صاحبه؛ والتقيا بصفّين[1]؛ وذلك بعد سنة وشهر من خلافة عليّ، في سنة سبع وثلاثين.

وكان عليّ في تسعين ألفاً ومعاوية في مائة ألف وعشرين ألفاً[2]، وقتل بها من أصحاب علي خمسة وعشرون ألفاً، ومن أصحاب معاوية خمسة وأربعون ألفاً. وكان مقامهما بصفّين مائة يوم وعشرة أيام. وكانت الوقائع تسعين وقعة؛ ثم اتفقا على التحكيم؛ والتقى الحكمان أبو موسى وعمرو بن العاصِ بأَذْرُح[3] في شهر رمضان سنة ثمان وثلاثين.

---

١ ـ المرجح أن موقع صفين هو موقع أبي هريرة، القريب من الرقة حالياً.
٢ ـ أخبار صفين مجموعة بشكل ملحمي مفصل في كتاب صفين لنصر بن مزاحم المنقري، وفي الفتوح لابن الأعثم الكوفي وغيره من المصادر المبكرة، واستخلص ابن العديم جملة من الروايات المتنوعة أودعها في الجزء الأول من بغية الطلب ص٢٧٩ ـ ٣٢٠.
٣ ـ أذرح معروفة الآن بالمملكة الأردنية.

ومات عليٌّ ـ كرم الله وجهه ـ مقتولاً بالكوفة، في سنة أربعين، ومعاوية متغلبٌ على الشام جميعه، فصالح الحسنَ بن عليٍّ ـ عليهما السلام ـ وبويع بالخلافة، في ربيع الأول سنة إحدى وأربعين؛ فمصَّر معاوية قنسرين، وأفردها عن حمص، وقيل إنَّما فعل ذلك ابنُه يزيد. وصار الذكر في ولاية قنسرين، ووظَّف معاوية الخراج على قنسرين أربعمائة ألف وخمسين ألف دينار، وحلب للخلفاء من بني أمية لمقامهم بالشام، وكون الولاة في أيامهم بمنزلة الشرط، لايستقلون بالأمور والحروب؛ وولاة الصوائف ترد كل عام مع الجيوش الإسلامية إلى دابق[1].

وأقام جماعة منهم بنواحي حلب، فإن سليمان بن عبد الملك رابط بدابق إلى أن مات. وأقام [عمر[2] بن عبد العزيز بخناصرة[3] إلى أن مات].

١ ـ دابق الآن قرية في هضبة حلب تتبع ناحية صوران، منطقة أعزاز، محافظة حلب، فيها تل أثري في شمال القرية، تنتشر عليه الكسر الفخارية، أقيم عليه ضريح الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك، وقربها جرت المعركة الفاصلة بين السلطان المملوكي قانصوه الغوري والسلطان العثماني سليم الأول. المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري.

٢ ـ فقد من الأصل ـ كما هو مرجح ـ ورقة جرى استدراك مارجح أنها حوته، اعتمادا على ماجاء في مصادر التاريخ الاسلامي العامة مع كتاب الأعلاق الخطيرة لابن شداد، والجزء الأول من اعلام النبلاء للطباخ.

٣ ـ هي الآن خناصر، بلدة في الأطراف الجنوبية لهضبة حلب، مركز لناحية خناصر، تتبع منطقة السفيرة، محافظة حلب، تبعد عن السفيرة ٤٥كم، وهي قائمة عند نهاية السفح الجنوبي لجبل الأحص، فيها آثار ظاهر منها السور والقلعة. المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري.

[ولم يزل حبيب بن مَسلمة مع معاوية في حروبه، وقد وجهه إلى أرمينية والياً، فمات بها سنة اثنتين وأربعين. واستعمل معاوية عبد الرحمن بن خالد بن الوليد على غزو الروم؛ ولشدة بأسه خافه معاوية، وخشي منه؛ وأمر ابن أثال النصراني أن يحتال في قتله. وضمن له أن يضع عنه خراجه ماعاش؛ وأن يوليه خراج حمص. فلما قدم عبد الرحمن من الروم دسَّ إليه ابن أثال شربة مسمومة مع بعض مماليكه فشربها، فمات بحمص سنة ست وأربعين.

وقاد مالك بن عبد الله الخثعمي الصوائف أَربعين سنة. وسير معاوية جيشاً كثيفاً إلى بلاد الروم، وجعل عليهم سفيان بن عوف وأَمر يزيد ابنه بالغزاة معهم، فتثاقل، واعتلّ، فأمسك عنه أبوه. فأصاب الناس في غزاتهم جوع ومرض شديد، وذلك في سنة اثنتين وخمسين.

وشتا بأرض الروم بعده عبد الرحمن ابن أم الحكم الثقفي وغزا المسلمون الصائفة في سنة أربع وخمسين كذلك، وفتحوا قرب القسطنيطينية.

فلما مات معاويةُ سنة ستين، ووُلي ابنه يزيد أَمرَهُمْ بالعود منها فعادوا.

ومات يزيد بن معاوية بحوارين[1] من أرض الشام في سنة أربع وستين. وبويع بعده معاوية ابنه بالخلافة في الشام ولكنه لم يمكث إلا أربعين يوماً حتى خلع نفسه، ثم هلك.

١ ـ حوارين قرية في هضبة حمص الجنوبية الشرقية، تتبع ناحية مهين، منطقة مركز المحافظة ـ محافظة حمص، تتصل بحمص بطريق مزفتة هي طريق حمص القريتين، فيها آثار من العصور التدمرية، والبيزنطية والاسلامية، المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري.

وبويع بعده مروان بن الحكم، وذلك في سنة أربع وستين.

وتحارب مروان والضحّاك بمرج راهط[1] عشرين ليلة، واقتتلوا قتالاً شديداً، فقتل الضحّاك، قتله دحية بن عبد الله، وقتل معه ثمانون رجلاً من أشراف أهل الشام. وكانت الوقعة في المحرم سنة خمس وستين.

ولما بلغت الهزيمة زفر بن الحارث الكلابيّ بقنسرين هرب منها فلحق بقرقيسيا[2]. واستوثق الشام لمروان واستعمل عماله عليها. ولما مات مروان سنة خمس وستين قام ابنه عبد الملك في اليوم الذي مات فيه.

وأقام عبد الملك بدمشق بعد رجوعه من قنسرين ما شاء الله أن يقيم، ثم سار يريد قرقيسيا، وبها زفر بن الحارث الكلابي، ثم قفل إلى دمشق فدبر لعمرو بن سعيد فقتله. واستعمل عبد الملك أخاه محمداً على الجزيرة وأرمينية فغزا منها، وأثخن العدو، وذلك في سنة ثلاث وسبعين.

وأعاد الكرة في سنة خمس وسبعين حين خرجت الروم من قبل مرعش. وبعد سنتين غزا الصائفة الوليد بن عبد الملك، وظل على الولاية إلى أن مات عبد الملك في شوال سنة ست وثمانين.

---

١ ـ كان الضحاك بن قيس الفهري قد بايع عبد الله بن الزبير، وتزعم القيسية في الشام، وبالمقابل قامت القبائل اليمانية بزعامة حسان بن بحدل الكلبي بعقد مؤتمر الجابية، حيث بويع فيه مروان بن الحكم، واثر ذلك كانت معركة مرج راهط، شرقي بلدة جوبر، خارج دمشق، وفي هذه المعركة هزم الضحاك بن قيس، وترسخت بيعة مروان.

٢ ـ هي البصيرة حاليا (البوسرايا) حيث يلتقي الخابور بالفرات في سورية.

وولى ابنه الوليد بن عبد الملك ومحمد بن مروان على ولايته فما زال كذلك إلى أن عزله الوليد بن عبد الملك في سنة تسعين. وولى مكانه أخاه مسلمة بن عبد الملك.

فدخل مسلمة حرّان وكان محمد بن مروان يتعمم للخطبة؛ فأتاه آت فقال: هذا مسلمة على المنبر يخطب! فقال محمد: هكذا تكون الساعة بغتة! وارتعدت يده، فسقطت المرآة من يده؛ فقام ابنه إلى السيف فقال: مَهْ يابني؛ ولاني أخي وولاه أخوه.

وكان أكثر مقام مسلمة بالناعورة، وبنى فيها قصراً بالحجر الأسود الصلد، وحصناً بقي منه برج إلى زماننا هذا[1].

وكان عبد الملك بن مروان يقول للوليد: كأنني ـ لو قد متّ ـ بك قد عزلت أخي وولّيت أخاك.

ومات الوليد بن عبد الملك في سنة ست وتسعين.

وولي سليمان بن عبد الملك فسَيَّر أخاه مسلمة غازياً إلى القسطنطينية واستخلف مسلمة على عمله خليفة؛ ورابط فيها سليمان بمرج دابق إلى أن مات به سنة تسع وتسعين.

وولي عمر بن عبد العزيز بن مروان، فكان أكثر مقامه بخناصرة الأحصّ. وولى من قبله على قنسرين هلال بن عبد الأعلى. ثم ولى أيضاً عليها الوليد بن هشام المُعَيْطِي على الجند، والفرات بن مسلم على خراجها.

١ ـ لمزيد من المعلومات حول الناعورة انظر بغية الطلب ج١ ص٦٤ .

وتوفي عمر بدير سمعان[1] من أرض معرة النّعمان، يوم الجمعة لخمس بقين من رجب سنة إحدى ومائة.

وولي يزيد بن عبد الملك، والوليد على قنسرين؛ وكان مرائياً سأل عمر أن ينقص رزقه تقرباً إليه؛ فعلم أنه إنما أراد أن يتزّين عنده بذلك؛ فحطَّ رزقه. وكتب إلى يزيد، وهو ولي عهده: «إنَّ الوليدَ بن هشام كتب إليّ كتاباً أكثر ظني أنه تزّين بما ليس هو عليه، فأنا أقسم عليك إنْ حدث وأفضى هذا الأمر إليك فسَأَلَك أَنْ تردَّ رزقَه، وذكر أني نقصتُه فلا يَظفر منك بهذا».

فلما استُخِلفَ يزيد كتب الوليد إليه: «إنَّ عمرَ نقصني وظلمني» فغضب يزيد، وعزله، وأغرمه كل رزق جرى عليه في ولاية عمر ويزيد كلها؛ فلم يل له عملاً حتى هلك.

ومات يزيد بن عبد الملك بالبلقاء[2] في شعبان سنة خمس ومائة [فاستُخلف هشام بن عبد الملك][3].

وولى على قنسرين وعملها خال أخيه سليمان وهو الوليد بن القعقاع بن خُلَيْد العَبْسيّ وقيل إنَّه ولَّى عبد الملك بن القعقاع على قنَّسرين؛ وإليهم ينسب حِيارُ بني عبس[4]، وإلى أبيهم ينسب القعقاعية قرية من بلد الفايا[5].

١ ـ على مقربة من معرة النعمان أعيد ترميمه حديثاً.
٢ ـ كانت البلقاء كورة من أعمال دمشق، قصبتها عمان. معجم البلدان.
٣ ـ زيد مابين الحاصرتين لاستقامة السياق.
٤ ـ هي أشهر باسم حيار بني القعقاع، وكانت أيضاً تعرف باسم كورة قنسرين الثانية. بغية الطلب ج١ ص١٢٥.
٥ ـ الفاية كورة بين منبج وحلب كبيرة. معجم البلدان.

وتوفي هشام سنة خمس وعشرين ومائة.

وولي الوليد بن يزيد بن عبد الملك، وكانت بينه وبين بني القعقاع وحشة، فهرب الوليد بن القعقاع وغيره من بني أبيه من الوليد، فعاذوا بقبر يزيد بن عبد الملك. فولى الوليد على قنّسرين يزيد بن عمر بن هبيرة؛ وبعث إلى الوليد بن القعقاع، فأخذه من جوار قبر أبيه؛ ودفعه إلى يزيد بن عمر بن هبيرة، وهو على قنسرين، فعذبه وأهله. فمات الوليد بن القعقاع في العذاب.

وخرج يزيد بن الوليد على الوليد بن يزيد، فقتله في «البَخْرَاء»[1] في جمادى الآخرة سنة ست وعشرين ومائة. ووثب على عامله بدمشق فأخذه، وسيّر أخاه مسرور بن الوليد، وولاه قنّسرين؛ وقيل بل ولي قنسرين أخوه بشر بن الوليد. وبويع يزيد، ومات في ذي الحجة من هذه السنة.

وبويع ابراهيم بن الوليد؛ وخلع في شهر ربيع الأول، سنة سبع وعشرين ومائة.

فولِيَ مروان بن محمد بن مروان بن الحكم، وكان بحرّان[2]، فسار منها

١ - البخراء: مدينة أثرية في البادية، ناحية مركز ومنطقة تدمر. محافظة حمص تقع إلى الجنوب من مدينة تدمر، وعلى بعد ٢٥ كم، اشتق اسمها من البخر، وهي الرائحة النتنة الصادرة عن الينابيع الكبريتية، أثارها تدل على أنها كانت مدينة محصنة أبعادها ٢٠٠×١٦٠م، يحيط بها سور من الحجارة المنحوتة بعرض ٣م، مدعم بأبراج نصف دائرية، يتجه بابها نحو الجنوب الشرقي، ويحيط به برجان مستديران وفي وسطها باحة ذات أعمده، تيجانها كورنثية، بناها التدمريون، واتخذوها محطة رئيسة للقوافل. المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري.

٢ - حران الآن قرية مهملة داخل الحدود التركية مع محافظة الرقة السورية.

في سنة سبع وعشرين ومائة. ونزل بحلب؛ وقبض على مسرور بن الوليد الوالي بحلب، وعلى أخيه بشر، بعد أن لقيهما فهزمهما وقتلهما بحلب. وكان معهما ابراهيم بن عبد الحميد بن عبد الرحمن، فقتله أيضاً.

واستتب أمر مروان. وخرج على مروان سليمان بن هشام بن عبد الملك فالتقاه مروان بن محمد بخُساف[1] فاستباح عسكره في سنة ثمان وعشرين ومائة .

وكان الحكم وعثمان ابنا الوليد بن يزيد حبسا بقلعة قنسرين؛ وكان يزيد بن الوليد حبسهما؛ فنهض عبد العزيز بن الحجاج ويزيد بن خالد القسري؛ فقتلاهما وقتلا معهما يوسف بن عمر الثقفي بقنسرين؛ وأُخذا بعد ذلك فقتلهما مروان وصلبهما.

١ ـ برية خساف: المنطقة القائمة بين بالس ـ مسكنة حاليا ـ وحلب، وبين بالس وبين انقضاء برية خساف خمسة عشر ميلا. بغية الطلب ج١ ص٦٣ ـ ٦٤ .

[ابتداء دولة العباسيين]

وبُويع أبوالعباس السفاح[1]، في شهر ربيع الآخر من سنة اثنتين وثلاثين ومائة، بالكوفة، فسيّر عبد الله بن علي بن عبد الله بن العبَّاس، في جمع عظيم، للقاء مروان بن محمد؛ وكان مروانُ في جيوشٍ كثيفة، فالتقيا بالزَّاب[2] من أَرض الموصل، في جمادى الآخرة من سنة اثنتين وثلاثين ومائة. فهزم مروانَ واستولى على عسكره؛ وسار مروانُ منهزماً حتى عبر الفرات من جِسْرِ مَنْبج[3] فأحرقه.

فلما مرَّ على قنّسرين وثبتْ به طي وتنوخ، واقتطعوا مؤخرة عسكره ونهبوه، وقد كان تعصّبَ عليهم؛ وجفاهم أيام دولته، وقتل منهم جماعة.

وتبعه عبد الله بن عليّ؛ وسار خلفَه، حتى أتى منبجَ، فنزلها. وبعث إليه أَهلُ حلب بالبيعة مع أبي أُميَّة التغلبي.

١ ـ بهامش الأصل بخط مخالف: ابتداء دولة العباسيين سنة ١٣٢ . ومنه استعير عنوان هذه الصفحة .

٢ ـ الزاب الأعلى نهر بين الموصل وإربل. معجم البلدان.

٣ ـ جسر منبج: مدينة صغيرة لها زرع سقي ومباخس، وماؤها من الفرات، حصينة، وزروعها سقي، نزهة ذات مياه وأشجار، وهي قريبة من الفرات. بغية الطلب ج١ ص١٠٨ .

وقدم عليه أَخوهُ عبد الصَّمد بنُ عليّ؛ فقلَّدهُ حلبَ وقنسرينَ. وسار عبدُالله وعبدُ الصَّمد أخوه معه إليها، فبايعه أبو الورد مجزأة بن الكوثر بن زفر بن الحارث الكلابي ـ وكان من أَصحاب مروان ـ وَدَخل فيما دَخَل فيه الناسُ من الطاعة.

وسار عبدُالله إلى دمشقَ، ثم بلغ خلفَه إلى نهرِ أَبي فُطْرُس[1]، وأَتْبَعَهُ بأخيهِ صالح، حتَّى بلغ إلى الديار المصرية، خلف مروان بن محمد، فأدركه ببوصير[2] فقتله؛ ثم عاد إلى دمشق بعده.

وذكر ابن الكلبي: وقدم بالسّ قائدٌ من قُوَّادِ عبدِ الله بنِ عليّ، في مائة وخمسين فارساً؛ وتقدّم إلى الناعورة فعبث بولد مسلمة بن عبد الملك ونسائهم ـ وكانوا مجاورين أَبا الورد بحصن مسلمة بالناعورة وببالس ـ فشكا بعضُهم ذلك إلى أَبي الورد الكلابي، فخرج من مزرعته خُسَاف في عدة من أَهل بيته؛ وخالف وبيّض؛ وجاء إلى الناعورة، والقائد المذكور نازل بحصن مسلمة بها؛ فقاتله حتى قتله ومن معه؛ وأَظهر الخلع والتبييض[3]؛ ودعا أَهل حلب وقنسرين إلى ذلك فأجابوه.

فبلغ ذلك عبدَ الله بن علي، وهو بدمشق؛ فوجه أخاه عبدَ الصَّمد بن عليّ، في زهاء عشرة آلاف فارس، ومعه ذؤيب بن الأشعث على حرسه،

١ ـ خارج مدينة الرملة في فلسطين.
٢ ـ بوصير قوريدس من كورة الأشمونين في مصر. معجم البلدان.
٣ ـ كان شعار بني أمية البياض، ومعروف أن العباسيين اتخذوا السواد شعاراً.

والمُخَارق بنُ عفَّان على شرطه؛ فسار أبو الورد إليه، وجعل مقدَّم جيشه وصاحبه أبا محمد بن عبد الله بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان؛ وأبو الورد مدبر الجيش، وَلقِيَهم فهزم عبد الصَّمَدِ وَمَنْ معه.

فلما قدم عبدُ الصَّمد على أخيه عبد الله أَقبل عبدُ الله بنُ عليّ بعسكره لقتال أَبي محمد وأَبي الورد، ومعه حُمَيْد بن قحطبة، فالتقَوْا في سنة اثنتين وثلاثين ومائة، في آخر يوم من السنة؛ واقتتلوا بمرج الأجم[1]، وثبت لهم عبدُ الله وحميْدٌ فهزموهم. وقُتل أبو الورد[2]. وأَمَّنَ عبدُ الله بنُ عليٍّ أهلَ حلبَ وقنّسرينَ وسوَّدُوا وبايعوا. ثم انصرف راجعاً إلى دمشقَ فأقام بها شهراً.

فبلغه أنَّ العباسَ بن محمد بن عبدِ الله بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان السفياني قد لبس الحُمْرَةَ، وخالف، وأظهر المعصيةَ بحلب؛ فارتحل نحوه حتى وصل إلى حمص، فبلغه أنَّ أبا جعفر المنصور - وكان يومئذ يلي الجزيرة، وأرمينية، وأذربيجان - وجَّه مقاتل بن حكيم العكّي من الرقَّة، في خيلٍ عظيمة لقتال السفيانيّ؛ وأنَّ العكي قد نزل منبج، فسار عبدُ الله مسرعاً حتى نزلَ مرج الأجم، فبلغه أنَّ العكّي واقعَ السفيانيَّ وهزَمَهُ، واستباح عسكَرَهُ، وافتتح حلبَ عنوة، وجمع الغنائمَ، وسار بها إلى أبي جعفر وهو بحرّان.

---

١ - في بغية الطلب ص ٣٩٢٧ «فاقتتلوا بمرج الأخرم من ناحية قنسرين».

٢ - لأبي محمد السفياني - زياد بن عبد الله الأسوار ترجمة وافية في بغية الطلب ٣٩٢٧ - ٣٩٣٢، فيها تفاصيل ما أوجزه ابن العديم هنا.

فارتحل عبدُ الله إلى دابق، وشتا بها، ثم نزلَ سميساط[1]، وحَصَرَ فيها اسحاق بن مسلم العقيليَّ، حتى سلّمها؛ ودخل في الطاعة.

ثم قدم أبانُ بن معاوية بن هشام بن عبد الملك، في أربعة آلاف من نخبة مَنْ كان مع اسحاق بن مسلم. فسيّر إليه حُمَيْد بن قحطبة، فهزم أباناً، ودخل سميساط، فسار إليها عبدُالله ، ونازلها حتى افتتحها عنوة.

وكتب إليه أبو العباس يأمرهُ بالمسير إلى الناعورة، وأن يترك القتال؛ ويرفع السَّيف عن الناس، وذلك في النصف من رمضان سنة ثلاث وثلاثين ومائة.

وهرب أبو محمد ومن معه من الكلبية إلى تدمر ثم خرج إلى الحجاز، فظفر به وقُتل[2]. وكتب إليه السفَّاحُ أن يغزو بلادَ الروم، فأتى دابقَ، فعسكر بها، وجمع، وتوجَّهَ إلى بِلاد الرُّوم.

فلمَّا وصل دُلُوكَ[3] يريد الإدرابَ، كتب إليه عاملُه بحلب يخبره بوفاة

١ - سميساط: بلدة على شاطىء الفرات الغربي في طرف بلاد الروم. معجم البلدان.

٢ - قتل قرب أحد خارج المدينة المنورة. انظر ترجمته في بغية الطلب السالفة الذكر. وجاء بهامش الأصل بخط مخالف: وذكر ابن الكلبي أن عبيد الله بن العباس بن يزيد من بني حجر بن وهب بن ربيعة بن معاوية بن الحارث بن ثور بن مرتع الكندي ولي قنسرين لأبي السفاح، وأنه ولي بعد ذلك أرمينية لأبي جعفر وبها مات.

٣ - عرفها ابن العديم، وأوضح أن الرشيد كان قد أفردها مع غيرها وجعلها من العواصم، وشغلت المدينة هذه دوراً في الحروب الصليبية حتى حررها نور الدين محمود بن زنكي، وإثر ذلك خربت المدينة والقلعة، وبقيت قرية مضافة إلى عين تاب. بغية الطلب ج١ ص٢٦١ .

السفاح وبيعة المنصور؛ فرجع من دُلُوك، وأتى حرَّانَ، ودعا إلى نفسه، وزعمَ أنَّ السَّفاحَ جعله وليَّ عهده.

وغلبَ على حلب، وقنّسرين، وديار ربيعة ومُضر، وسائر الشَّام. ولم يبايع المنصور. وبايعه حُمَيْدُ بن قحطبة وقُوَّادُه الذين كانوا معه. وولَّى على حلب زُفَرَ بن عاصم بن عبد الله بن يزيد الهلالي أبا عبد الله، في سنة سبع وثلاثين ومائة.

فسَيَّر المنصورُ أبا مسلم الخراسانيَّ صاحبَ الدعوة لقتال عبد الله بن علي؛ فسيَّر عبدُالله حُمَيْدَ بن قحطبة، وكتب له كتاباً إلى زفرَ بن عاصم إلى حلب، وفيه: «إذا وَرَدَ عليك حُمَيْد فاضربْ عنقه»[1]. فعلم حُمَيْد بذلك؛ فهرب إلى أبي مسلم الخراساني، خوفاً من عبد الله.

ثم سار أَبو مسلم إلى عبد الله بن عليّ، فالتقيا، وانهزم عبدُ الله وعبدُ الصمد أخوه معه؛ فسار أبو مسلم خلفَهُ فوصل إلى الرقة؛ وأخذ منها أموالَ عبدِ الله، وتبعهُ إلى رُصَافة هشام[2] فانهزم عبدُ الله إلى البصرة، وتوارى عند أخيه سُلَيْمان بن عليّ، فأخذ له أماناً من المنصور؛ وسَيَّرهُ إليه، فحبَسهُ إلى أن سقط عليه الحبس، فمات[3].

١ ـ لحميد ترجمة جيدة في كتاب بغية الطلب ٢٩٧٣ ـ ٢٩٧٥ فيها تفاصيل ما أوجزه ابن العديم هنا.

٢ ـ ماتزال بقايا رصافة هشام قائمة خارج مدينة الرصافة التي تبعد عن الرقة قرابة العشرين ميلا.

٣ ـ وجدت في كتاب المقفى للمقريزي ترجمة وافية لعبد الله بن علي نشرتها مع تراجم أخرى ملحقة بكتاب تاريخ الخلفاء للوثابي، بيروت ١٩٩٥ .

وقبض أبو مسلم على عَبْدِ الصَّمَدِ بن عليّ، بالرُّصَافَةِ، وأَخذَ أموالَه، وسَيَّرهُ إلى المنصور، فأمَّنه وأَطلقَهُ.

وورد كتابُ المنصورِ على أبي مُسْلِمٍ بولايةِ الشَّامِ جميعِهِ، وحلبَ، وقنّسرينَ، وأمره أن يقيم له في بلاده نُوَّاباً، ففعل أبو مسلم ذلك.

وسار إلى المنصور، فالتقاه في الطريق يَقْطِينُ بن مُوسَى، وَقَدْ بعثَهُ المنصورُ إليه لاحصاء جميع ما وَجَدُوا في عسكر عبد الله بن عليّ. فغضب أبو مسلم وقال: «أنكون أمناء في الدماء وخونة في الأموال؟» ثم أقبل وهو مجمع على خلاف المنصور[1]. فاستوحش المنصورُ منه، وقتلهُ في سنة تسع وثلاثين ومائة.

ولما عاد أبو مسلم من الشَّام ولى المنصورُ حلبَ وقنسرينَ وحمصَ صالح بن عليّ بن عبدِ الله بن العبَّاس سنةَ سبع وثلاثين ومائة؛ فنزل حلب، وابتنى بها خارج المدينة قصراً بقرية يقال لها بِطْيَاس[2] بالقرب من النيرب؛

---

١ ـ أخبار أبي مسلم الخراساني منتشرة في مختلف المصادر المبكرة مثل أنساب الأشراف للبلاذري، وتاريخ الطبري، وغرر السير للمرعشي، ولأبي مسلم ترجمة متميزة في تاريخ دمشق لابن عساكر تحت اسم عبد الرحمن بن مسلم.

٢ ـ في بغية الطلب ج١ ص٥٢٨ ـ ٥٢٩ : وابتنى صالح بن علي بن عبد الله بن عباس «قصره المعروف ببطياس، وكان على الرابية المشرفة على النيرب من جهة الغرب والشمال، وكان عن يسار المتوجه من حلب إلى النيرب، وموضع اصطبله عن يمين المتوجه، والطريق بينهما، ودثر القصر، ولم يبق منه إلا الآثار، ويجد الناس في موضعه شيئاً من الفسيفساء وكسور الرخام» وما يزال موقع النيرب يحمل الاسم نفسه خارج حلب.

وآثاره باقية إلى الآن. ومعظم أولاده ولدوا ببطياس. وقد ذكرها البحتريّ وغيرُه في أشعارهم.

وأغزى الصائفة مع ابنه الفَضْل في سنة تسع وثلاثين ومائة بأهل الشام، وهي أول صائفة غزيت في خلافة بني العباس. وكانت انقطعت الصوائف في أيام بني أمية قبل ذلك بسنين.

وظهر في سنة إحدى وأربعين ومائة قومٌ يقال لهم الراوندية[١]، خرجوا بحلب وحرَّان. وكانوا يقولون قولاً عظيماً. وزعموا أنهم بمنزلة الملائكة. وصعدوا تلّاً بحلب، فيما قالوا؛ ولبسوا ثياباً من حرير؛ وطاروا منه فتكدوا[٢] وهلكوا. ودام صالح في ولاية حلب إلى أن مات في سنة اثنتين وخمسين ومائة.

ورأيتُ فلوساً عتيقة، فتتبعتُ ما عليها مكتوب فإذا أحد الجانبين مكتوبٌ عليه: «ضرب هذا الفلسُ بمدينة حلبَ سنة ست وأربعين ومائة». وعلى الجانب الآخر: «مما أمر به الأميرُ صالحُ بن عليّ أكرمه الله».

ولما مات صالح بن عليّ تَولَّى حلب وقنسرين بعده ولدُهُ الفضل بن صالح، واختار له «العقَبة»[٣] بحلب، فسكنها وأقام بحلب والياً مدّة. ثم ولى المنصور بعده موسى بن سليمان الخراساني. ومات المنصور سنة ثمان وخمسين،

١ ـ قالوا بتأليه الخليفة المنصور، خرجوا في أيامه في بغداد وأبيدوا.

٢ ـ أي لحق بهم الأذى. القاموس.

٣ ـ عرفت قديما باسم عقبة بني المنذر، وسميت عقبة لارتفاعها عن المدينة. الآثار الاسلامية والتاريخية في حلب ص٥٤ ـ ٥٥ .

وموسى على قنسرين وحلب. ورأيتُ فلوساً عتيقة فقرأت عليها: «ضرب هذا الفلس بقنسرين سنة سبع وخمسين ومائة». وعلى الجانب الآخر: «مما أمر به الأمير موسى مولى أمير المؤمنين».

ولما ولي المهدي خرج عبد السلام بن هاشم الخارجي بالجزيرة، وكثر أتباعه فلقيه جماعة من قواد المهدي، فهزمهم؛ فبعث المهدي إليه جنوداً كثيرة، فهرب منهم إلى قنسرين، فلحقوه فقتلوه بها في سنة اثنتين وستين ومائة؛ وكان مقدم الجيش شبيباً[1].

وعزم المهدي على الغزو فخرج حتى وافى حلب في سنة ثلاث وستين ومائة، والتقاه العباس بن محمد إلى الجزيرة؛ وأقام له النزل في عملهِ، واجتاز معه على حصن مسلمة بالناعورة، فقال له العباس: «ياأميرَ المؤمنين إنَّ لمسلمة في أعناقنا منّة». كان محمد بن علي مرّ به فأعطاه أَربعة آلاف دينار، وقال له: «يابن عم، هذه ألفان لدينك وألفان لمعونتك، فإذا نفدت فلا تحتشمنا». فقال المهدي: «أحضروا مَن ههنا مِن ولد مسلمة ومواليه»؛ فأمر لهم بعشرين ألف دينار وأمر أن تجري عليهم الأرزاق.

ثم قال: «يا أبا الفضل كافينا مسلمة وقضينا حقه؟» قال العباس: «نعم، وزدتَ».

ونزل المهدي بقصرِ بِطياس ظاهر حلب. وولى المهدي حين قدم

١ ـ شبيب بن واج المروروذي، وتفاصيل ثورة عبد السلام بن هاشم اليشكري في سنة ستين ومائة موجودة في تاريخ خليفة بن خياط ـ ط. دمشق ١٩٦٨ ج٢ ص٧٠٠ ـ ٧٠٤ .

قنسرين وحلب والجزيرة علي بن سليمان بن علي بن عبد الله بن العباس حرباً وخراجاً وصلاة.

ثم إن المهدي عرض العسكر بحلب وأغزى ابنه هارون بلاد الروم وسيَّر محتسب حلب عبد الجبار فأحضر له جماعة من الزنادقة فقتلهم بحلب. وولى حلب والشام جميعه ابنه هارون. وأمر كاتبه يحيى بن خالد أن يتولى ذلك كله بتدبيره؛ وكانت توليته في سنة ثلاث وستين ومائة

ولما بويع الهادي أقر أخاه ويحيى على حالهما.

فلما أفضى الأمر إلى الرشيد ولّى حلب وقنّسرين عبد الملك بن صالح بن علي بن عبد الله، فأقام بمنبج، وابتنى بها قصراً لنفسه وبستاناً إلى جانبه، ويعرف البستان يومنا هذا ببستان القصر، وكانت ولايته سنة خمس وسبعين؛ ثم صرفه لأمر عتب عليه فيه.

ثم ولاها الرشيد موسى بن عيسى سنة ست وسبعين ومائة. ومرّ الرشيد على عبد الملك بمنبج فأدخله منزله بها. فقال له الرشيد: «هذا منزلك». قال «هو لك ولي بك». قال: «فكيف هو؟». قال: «دون منازل أهلي وفوق منازل الناس». قال: «فكيف طيب منبج؟». قال: «عذبة الماء، عذبة الهواء، قليلة الادواء». قال: «فكيف ليلها؟». قال: «سحر كله!».

وهاجت الفتنة بالشام بين النزارية واليمانية، فولى الرشيدُ موسى بن يحيى بن خَالد في هذه السنة الشَّامَ جميعه، فأقام به حتى أصلح بينهم. ثم ولاها الرشيدُ جعفر بن يحيى بن خالد بن برمك سنة ثمان وسبعين؛

وتوجّه إليها سنة ثمانين، واستخلف عليها عيسى بن العكي.

ثم إنَّ الرشيد ولى حَلب وقنّسرينَ اسماعيل بن صالح بن عليّ لما عزله عن مصر سنة اثنتين وثمانين ومائة؛ وأقطعه ماكان له بحلب في سوقها وهي الحوانيت التي بين باب أنطاكية إلى رأس الدلبة[1] وعزله وولاه دمشق.

ثم ولى الرشيد بعده عبد الملك بن صالح بن علي ثانية، فسعى به ابنه عبد الرحمن إلى الرشيد، وأوهمه أنه يطمع في الخلافة فاستشعر منه، وقبض عليه في سنة سبع وثمانين ومائة.

وولّى على حلب وقنسرين ابنه القاسم بن هارون، وأغزاه الروم ووهبه لله تعالى في سنة سبعٍ وثمانين ومائة.

ورابط القاسم بدابق هذه السنة والتي بعدها. وقيل: إنَّ الرشيد لما غضب على عبد الملك بن صالح ولى أخاه عبد الله بن صالح ثم عزله سنة ثمان وثمانين وولى القاسم بن هارون ابنه. وقيل: إن أحمد بن اسحاق بن اسماعيل بن علي بن عبد الله بن العباس ولي قنسرين للرشيد، وقد كان ولي له مصر، وعزله عنها سنة تسع وثمانين؛ فلا أتحقق ولايته في أي سنة كانت.

وقد ذكر بعضهم: أن عبد الله بن صالح توفي ببغداد في أيام المنصور. وقال بعضهم: إنه توفي بسلمية في سنة ست وثمانين. فعلى هذا يكون الذي ولاه الرشيد ابن ابنه عبد الله بن صالح بن عبد الله بن صالح؛ والله أعلم.

١ - ترجم ابن العديم لاسماعيل بن صالح في بغية الطلب ص١٦٤٨ - ١٦٥٥، وذكر ما أقطعه الرشيد في حلب وزاد: «وقدرها قدر جليل جسيم».

ثم إنَّ الرشيد ولّى حلب وقنّسرين خزيمة بن خازم بن خزيمة، من قبل ابنه القاسم بن الرشيد، في سنة ثلاث وتسعين ومائة. ولم يزل القاسم بن الرشيد في ولاية حلب وقنسرين حتى مات أبوه الرشيد في سنة ثلاث وتسعين ومائة في جمادى الآخرة فأقره أخوه الأمين عليها؛ وجعل معه قمامة بن أبي زيد؛ وولى خُزيمة بن خازم الجزيرة.

ثم إن محمداً الأمين عزل أخاه القاسم بن الرشيد عن حلب وقنسرين والعواصم وسائر الأعمال التي ولاه أبوه سنة أربع وتسعين ومائة؛ وَوَلَيَّها خُزيمة بن خازم في هذه السنة.

ثم ولَّى الأمينُ حلبَ وقنسرينَ والجزيرة عبدَ الملك بن صالح بن عليّ؛ فخرج إليها، واجتمعت إليه العرب في سنة ست وتسعين ومائة[1]. وهذه الولاية الثالثة لعبد الملك. وكان الأمين قد أخرجه من حبس أبيه حين مات سنة ثلاث وتسعين ومائة في ذي القعدة.

واستمر عبد الملك في هذه الولاية إلى أن مات في سنة ست وتسعين ومائة بالرقة؛ ودفن في دار من دور الإمارة. وكان يرى للأمين مافعله به. فلما خلع الأمين حلف عبد الملك إن مات الأمين لايُعطي المأمون طاعة؛ فمات قبل الأمين فبقيت في نفس المأمون إلى أن خرج إلى الغزاة؛ ووجد قبر عبد

١ - بهامش الأصل: وخرج أبو العُميطر علي بن عبد الله بن يزيد بن معاوية السفياني... بالخلافة في ذي الحجة سنة... وبايعه أهل قنسرين، وخرج إبراهيم بن اسحق بن قضاعة الثويبي من بني القصيص في جماعة من أصحابه، ثم هرب أبو العميطر واستخفى». انظر بغية الطلب ج١ ص٥٦٣ - ٥٦٥.

الملك في دار الإمارة فأرسل إلى ابنٍ لعبد الملك: «حوّلْ أباك من داري» فنبشتْ عظامه وحُوّل.

ثم ولي خزيمة بن خزيمة حلب وقنسرين في سنة سبع وتسعين ومائة.

وقيل إن الوليد بن طريف ولي حلب وقنسرين بعد عبد الملك بن صالح؛ وبعده ورقاء عبد عبد الملك ثم بعده يزيد بن مزيد، ثم استأمن إلى طاهر بن الحسين.

فلما قتل الأمين وبويع المأمون ولى حلب والشام جميعه طاهر بن الحسين؛ وجعل إليه حرب نصر بن شبث فتحصن بكيسوم[1] فقصده طاهر فلم يظفر به ولقيه، فكُسر طاهر وعاد مفلولاً؛ وذلك في سنة ثمان وتسعين ومائة.

ثم أضاف إليه ولاية مصر وإفريقية في سنة أربع ومائتين.

ثم ولاه خراسان سنة ست. وولى ابنه عبد الله مصر والشام جميعه؛ وأمره بمحاربة نصر بن شَبَث في سنة ست ومائتين.

وتوفي طاهر بخراسان سنة سبع ومائتين؛ فأضاف المأمون ولايته إلى ابنه عبد الله مع الشام. فسار عبد الله بن طاهر إلى الشام من الرقة واحتوى على الشام جميعه. وهدم سور معرة النعمان. وهدم معظم الحصون الصغار مثل

---

١ ـ كانت كيسوم مدينة كبيرة قديمة، وولاية واسعة عظيمة، وكان حصنها حصينا وبناؤها قوياً ركيناً، وبينها وبين الحدث سبعة فراسخ. بغية الطلب ج١ ص٢٦٥.

حصن الكفر وحصن حُنَاك[1] وغير ذلك. ونزل بكيسوم وبها نصر بن شبث فحصره إلى أن ظفر به، وخرج إليه بأمان. وخرّب حصن كيسوم بعد وقائع كثيرة جرت بينه وبين نصر بن شبث؛ وسار إلى مصر؛ وذلك كله في سنة تسع ومائتين.

ولما فتح مصر في سنة إحدى عشرة ومائتين كتب المأمون إليه:

أخي أنت ومولاي ومن أشكر نعماهُ
فما أحببتَ من أمر فإني الدهر أهواهُ
وما تكره من شيء فاني لستُ أرضاهُ
لك الله على ذاك لك الله لك الله

ودامت ولاية عبد الله بن طاهر إلى سنة ثلاث عشرة ومائتين؛ ووجهه المأمون إلى خراسان، وعزله عن الشام؛ وولى ابنه العباس بن المأمون حلب وقنسرين والعواصم والثغور؛ وأمر له بخمسمائة ألف دينار في سنة ثلاث عشرة ومائتين.

ثم ولاها المأمون إسحاق بن ابراهيم بن مصعب بن زريق وعزل ابنه العباس في سنة أربع عشرة ومائتين. ثم إنَّ المأمون عزل اسحاق بن ابراهيم في هذه السنة وولاه مصر، وأعاد ابنه العباس إليها ثانية.

ثم ولى المأمون حلب وقنسرين ورقة الطريفي، وأظنه مع العباس

١ ـ لعله أراد بالكفر، بلدة كفر طاب، علماً بأنه يوجد على مقربة من خربة حناك قرية اسمها كفر رومه، تبعد عنها ٣كم. المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري.

وكانت لورقة حركة أيام الفتنة.

فلما قدم المأمون حلب للغزاة ونزل بدابق، في سنة خمس عشرة ومائتين، لقيه عيسى بن علي بن صالح الهاشمي فقال له: «ياأمير المؤمنين أيلينا أعداؤنا في أيام الفتنة وفي أيامك؟» فقال: «لا ولا كرامة». فصرف ورقة.

وولى عيسى بن علي بن صالح نيابة عن ولده العباس فيما أرى، فوجد عنده من الكفاية والضبط وحسن السيرة ماأراد فقدّمه وكبر عنده وأحبه. وكان المأمون كلما غزا الصائفة لقيه عيسى بن علي بالرقة ولايزال معه حتى يدخل الثغور، ثم يرد عيسى إلى عمله.

وولى المأمون في سنة خمس عشرة ومائتين قضاء حلب عبيد بن جناد بن أعين مولى بني كلاب، فامتنع من ذلك، فهدده على الامتناع فأجاب.

ثم ولى المأمون عبيد الله بن عبد العزيز بن الفضل بن صالح لما غزا الصائفة في سنة ثمان عشرة ومائتين العواصم.

وفيها مات المأمون وإنما وليها عبيد الله عن العباس بن المأمون في غالب ظني فان العباس ولي حلب وقنسرين والجزيرة من سنة أربع عشرة ومائتين إلى أن توفي أبوه المأمون بالبَذَنْدون من أرض طرسوس[1].

---

١ - للمأمون ترجمة وافية في المقفى للمقريزي ألحقتها بكتاب تاريخ الخلفاء للوثابي، والبذندون قرية بينها وبين طرسوس يوم، ثم نقل إلى طرسوس ودفن فيها، وأودع ابن العديم مادة رائعة عن طرسوس. بغية الطلب ج١ ص١٧٥ - ٢٠٤ .

وبويع أبو اسحاق المعتصم فأقر العباس بن المأمون على ولايته، وكان الجند قد شغبوا وطلبوا العباس ونادوه باسم الخلافة؛ فأرسل المعتصم إليه، وأحضره فبايعه؛ وخرج إلى الناس وقال لهم: «ماهذا الحب البارد قد بايعت عمي» فسكنوا.

وسار المعتصم إلى بغداد والعباس معه؛ فلما توجه المعتصم إلى الغزاة ومرّ بحلب، في سنة ثلاث وعشرين ومائتين، ودخل إلى بلاد الروم اجتمع به بعض الجند ووبّخه على مافعل من إعطاء المعتصم الخلافة، وحسّن له تدارك الأمر، فاستمال جماعة من القواد وعزموا أن يقبضوا على المعتصم وهو داخل إلى الغزاة فلم يمكنهم العباس وقال: «لاأفسد على الناس غزاتهم».

فنمى الخبر إلى المعتصم فقبض على العباس، وعلى من ساعده على ذلك، وهو عائد من الغزاة، فلما وصل إلى منبج سأل العباسُ الطعام وكان جائعاً فقدم إليه طعام كثيرٌ فأكل. فلمّا طلب الماءَ مُنع وأُدرج في مِسْح[1] فمات بمنبج في ذي القعدة، من سنة ثلاث وعشرين ومائتين؛ وصلى عليه بعض إخوته ودُفن بمنبج.

وولى المعتصمُ حلبَ وقنسرينَ حربها وخراجها وضياعها عبيدَ الله بن عبد العزيز بن الفضل بن صالح بن عليّ الهاشمي؛ ثم إنه ولى أشناس التركي الشام جميعه والجزيرة ومصر، وتوّجه وألبسه وشاحين بالجوهر في سنة خمس وعشرين ومائتين.

١ - المسح: الكساء من شعر. المعجم الوسيط.

ونُظر في صلات المعتصم لأشناس فوجد مبلغها أربعين ألف ألف درهم. وأظن أنه بقي في ولايته إلى أن مات سنة ثلاثين ومائتين في أيام الواثق.

وولى الواثق عبيد الله بن عبد العزيز بن الفضل بن صالح الهاشمي حلب وقنسرين حربها وخراجها وضياعها؛ وأظنه كان متولياً في أيام المعتصم من جهة أشناس، فأقره الواثق على ولايته.

وولّى الواثق قنسرين وحلب والعواصم، بعد عبيد الله، محمد بن صالح بن عبد الله بن صالح فكانت سيرته غير محمودة. وكان أَحمر أشقر، فلُقّب: «سُمَّاقة» لشدة حمرته. ويقال: إنه أول من أَظهر البِرْطيل بالشام، وأوقع عليه هذا الاسم؛ وكان لايعرف قبل ذَلك إلا الرُّشْوة على غير إكراه. وكان أكثرَ الناس سكوتاً وأطولَهم صمتاً؛ لايكاد يسمَعُ له كلامٌ إلا في أمرٍ يأمر به، أو قولٍ يجيب عنه.

وكان قاضي حلب في أيامه أبا سعيد عبيد بن جناد الحلبي، توفي سنة إحدى وثلاثين ومائتين؛ وكان المأمون ولاه قضاء حلب. وله يقول عمرو بن هوبر الكلبي في قصيدة يَغُضُّ منه؛ أولها:

لا دَر دَرُّ زمانك المتنكسِ　　　الجاعلِ الأذنابَ فوْق الأرْؤُسِ
ما أَنْتَ إلا نقمةٌ في نعمةٍ　　　أو أصلُ شوكٍ في حديقة نَرْجس
ياقبلةً ذهبتْ ضيَاعاً في يَدٍ　　　ضَرَبَ الإلهُ بنانَها بالنقرس
من سرّ أبطح مكةٍ آبـاؤهُ　　　وجدُودُهُ وَكأنَّـهُ من قُبْرُسِ

وهذا عمرو بن هوبر كان من مَعْرَاثا البريدية من ضياع معرَّة النعمان وولي في أيام المتوكل مَعَرَّة مَصْرِين وقتل بها[١].

وكان الواثق قد ولى الثغور والعواصم دون حلب وأعمالها أحمد بن سعيد بن سلم بن قتيبة، وأمره بحضور الفداءِ مع خاقان وصاحب الروم ميخائيل، فأمضى الفداء سنة إحدى وثلاثين ومائتين.

ثم إنه غزا شاتياً فأصاب الناس شدة فوجد الواثق عليه بسبب ذلك، وعزله وولاها نصر بن حمزة الخزاعي.

وولّى الشاربامیان، في أول أيام المتوكل على حلب وقنسرين والعواصم، والبين أنا ذاكرهما. وكان الشاربامیان أَحد قواد المتوكل وكان خصيصاً عنده. فإما أَن يكون المتوكل ولاه جند قنسرين والعواصم أَو أَنه كان السلطان في أَيام المتوكل فكان أَمر الولاية إليه. فانني قرأتُ في كتاب نسب بني صالح بن علي قال: وولى الشاربامیان جند قنسرين والعواصم عليّ بن اسماعيل بن صالح بن علي، أَبا طالب؛ وإنما أَراد أَن يتزين به عند المتوكل فامتنع من قبول ولايته؛ فأعلمه إن لم يفعل كتب فيه إلى الخليفة فقبلها؛ وأَقام على ولاية جند قنسرين والعواصم، حتى مات. فكانت أَيامه أَحسن أَيام وسيرته أَجمل سيرة. وكان عليّ بن اسماعيل إذا خرج إلى العواصم استخلف ابنه محمد بن علي على قنسرين وحلب فلا يفقد الناس من أَبيه

١ ـ مايزال هناك أكثر من معراثا على مقربة من معرة النعمان، هذا وأفرد ابن العديم بابين لكل من معرة النعمان ومعرة مصرين. ج١ ص١٢٧ ـ ١٣٥ .

شيئاً، قال: ولى الشارباميان جند قنسرين والعواصم عيسى بن عبيد الله بن الفضل بن صالح بن علي الهاشمي.

قال: وولى المتوكل طاهر بن محمد بن اسماعيل بن صالح على المظالم بجند قنسرين والعواصم، والنظر في أُمور العمال؛ وجاءته الولاية منه فألفاه الرسول في مرضه الذي مات فيه، وجعل المتوكل ولاية عهده إلى ابنه محمد المنتصر؛ وولاه قنسرين، والعواصم، والثغور وديار مضر، وديار ربيعة، والموصل، وغير ذلك في سنة خمس وثلاثين ومائتين؛ فاستمر في الولاية إلى أن قتلَ أَباه وكانت الولاة من قبله.

وفي أَيام ولايته حلب في سنة اثنتين وأَربعين ومائتين وقع طائر أَبيض دون الرخمة[1] وفوق الغراب على دُلبة بحلب لسبع مضين من رمضان، فصاح: «يامعشر الناس، الله الله» حتى صاح أَربعين صوتاً. ثم طار؛ وجاء من الغد فصاح أَربعين صوتاً. وكتب صاحب البريد بذلك وأَشهد خمسمائة انسان سمعوه. ولايبعد عندي أَن تكون الدُّلبة التي ينسب إليها رأس الدلبة[2].

وسمع في هذه السنة أَصوات هائلة من السماء، وزلزلت نيسابور،

١ - الرخم (الشوح) طائر يشبه النسر في الخلقة، كانت له مكانة دوائية منها أن يطلى بمرارته لسم الحية وغيرها، والتبخير يجفف لحمه مخلوطاً بخردل سبع مرات يحل المعقود عن النساء... القاموس.

٢ - بهامش الأصل: مقال الطائر. غريبة، إن الله على كل شيء قدير.

وتقلعت جبال من أُصولها، ونبع الماء من تحتها، ووصلت الزلزلة إلى الشام والثغور.

وأَظن أَن نائب المنتصر في جند قنسرين في حياة المتوكل كان بغا الكبير؛ فلمّا قُتل المتوكل قدم بغا عليه. وسيّر المنتصر وصيفاً إلى الثغر الشامي، فأقام به إلى أَن مات.

وولى المستعين في سنة خمسين ومائتين قنّسرين وحلب وحمص موسى بن بغا؛ وتوجه إليها حين عاث أَهل حمص على الفضل بن قارن. ثم ولي حلب والعواصم أبو تمام ميمون بن سليمان حدقة بن عبد الملك بن صالح في أَيام المستعين، وكانت له حركة وبأس في فتنة المستعين.

وعصى أَهلُ حلب وأَقاموا على الوفاء للمستعين ببيعتهم؛ فقدم عليهم أَحمد المولد محاصراً لهم فلم يجيبوه إلى ما أَراد من البيعة للمعتز. وكان السفير بينه وبينهم الحسين بن محمد صالح بن عبد الله بن صالح أَبا عبيد الله الهاشمي.

فلما بايعوا بعد ذلك للمعتز وانقضى أَمر المستعين ولاه أَحمد المولد جند قنسرين وحلب، في سنة اثنتين وخمسين ومائتين؛ فأقام مدة يسيرة؛ ثم انصرف إلى سلمية ـ أَعني الحسين بن محمد.

وولي حلب وقنسرين والعواصم صالح بن عبيد الله بن عبد العزيز بن الفضل بن صالح، في فتنة المستعين؛ وكان له سعي وتقدم ورئاسة.

ثم ولي بعده، فيما أرى، أبو تمام ميمون بن سليمان بن عبد الملك بن صالح. وهذه ولاية ثانية له؛ ومات بالرقة، ثم ولي بعده ثانية صالح بن عبيد الله بن عبد العزيز بن الفضل بن صالح الهاشمي وانقضت ولاية بني صالح الهاشميين.

ثم ولي حلب وقنسرين في أيام المعتز أبو الساج داوداذ في شهر ربيع الأول، سنة أربع وخمسين ومائتين، وبقي والياً إلى أن تغلب أحمد بن عيسى بن شيخ على الشامات في أيام المهتدي.

فلما مات، وولي المعتمد سيّر إلى ابن شيخ بولاية أرمينية، على أن ينصرف عن الشام آمناً؛ فأجاب إلى ذلك؛ ورحل عنها في سنة ست وخمسين ومائتين.

[عصر الدولة الطولونية][1]

ووليها أحمد بن طولون مع أنطاكية وطرسوس وغيرها من البلاد وكان أحمد بن طولون شهماً شجاعاً عاقلاً، وكان على مربطه أربعة آلاف حصان، وكانت نفقته في كل يوم ألف دينار[2].

فعقد المعتمد لأخيه أبي أحمد الملقب بالموفق على حلب وقنسرين والعواصم، في شهر ربيع الأول سنة ثمان وخمسين ومائتين. ثم ولاه بغداد، واليمن، وخراسان؛ ولى الشام لابنه جعفر؛ وجعل له ولاية العهد، وهو صبي؛ وجعل الأمر بعده لأخيه أبي أحمد.

فولى أبو أحمد الموفق «سيما الطويل» أحد قواد بني العباس ومواليهم حلب والعواصم. فابتنى بظاهر مدينة حلب داراً حسنة، وعمل لها بستاناً. وهو الذي يعرف الآن «ببستان الدّار» ظاهر باب أنطاكية. وبهذه الدّار سميت المحلة التي بباب أنطاكية «الدّارين»؛ إحدى الدارين هذه؛ والدار الأخرى

١ ـ أضيف مابين الحاصرتين للتوضيح.
٢ ـ لأحمد بن طولون ترجمة وافية في بغية الطلب ص٨٢٦ ـ ٨٣٥.

بناها قبله محمد بن عبد الملك بن صالح فعرفت المحلة بالدّارين لذلك. وإحدى الدارين تعرف بالسليمانية على حافة نهر «قُوَيْق»؛ وحاضر السليمانية بها يعرف وهو حاضر حلب.

وجدّد سيما الطويل الجسر الذي على نهر قويق قريباً من داره. وركب عليه باباً أخذه من قصور بعض الهاشميين بحلب يقال له: «قصر البنات». وأظن أن «درب البنات» بحلب يعرف به؛ وأظن القصر يعرف بأم ولد كانت لعبد الرحمن بن عبد الملك بن صالح اسمها «بنات»؛ وهي أم ولده داود.

وسمى سيما الباب باب السلامة وهو الباب الذي ذكره الواساني[1] في قصيدته الميمية التي أولها:

يا ساكني حلب العوا صم جادها صوب الغمامة[2]

وفي سيما الطويل يقول البحتري:

فَرُدَّت إلى سِيَمَا الطَّوِيلِ أُمورُنا وسيما الرِّضا في كُلِّ أَمْرٍ يُحَاوِلُه[3]

فعصى أحمد بن طولون على أبي أحمد الموفق، وأظهر خلعه ونزل إلى الشام، فانحاز سيما الطويل إلى أنطاكية فحصره أحمد بن طولون بها فألقت

١ ـ الواساني من شعراء يتيمة الدهر للثعالبي ـ ط. القاهرة ١٩٥٦ ج١ ص٣٥١ .

٢ ـ انظر بغية الطلب ج١ ص٥٧ .

٣ ـ لم ترد قصيدة البحتري في ديوانه المطبوع، وذكر المرحوم سامي الدهان أنه رآها في مخطوطة باريس من ديوان البحتري بالورقة ٣١١ .
وقال يمدح الموفق ويذكر ولاية سيما الطويل الشام:

لقد وفق الله الموفق للذي أتاه وأعطى الشام ماكان يأمله
أضاف إلى سيما الطويل أمورنا وسيما الرضا في كل أمر يحاوله

عليه امرأة حجراً وقيل قوفاً[1] فقتلته. وقيل بل قتله عسكر ابن طولون، وكان ذلك في سنة أربع وستين أو سنة خمس وستين ومائتين.

واستولى أحمد بن طولون على حلب والشام جميعه منابذاً لأبي أحمد الموفق؛ وكان قاضي حلب في أيامه عبيد الله بن محمد بن عبد العزيز بن عبد الله أبو بكر القاضي العمري. ودام على قضائها إلى أن مات أحمد.

وكان سيما حين صارت له حلب قد قصد جماعة من الأشراف [من] بني صالح بن علي بالأذى، واستولى على أملاكهم، وأودع بعضهم السجن. فلما ولي أحمد بن طولون قال صالح بن محمد بن اسماعيل بن صالح بن علي الهاشمي الحلبي، يمدحه ويشكره، ويذكر ظفره بسيما بقصيدة يقول فيها:

وقد لبستْنا من قَذَا الجور ذلةٌ ... ودار بنا كيدُ الأعادي فأحدقا
وحُكِّمَ فينا عانداً فَجَرتْ له ... أفاعيلُ غرٍّ تَتْرُكُ اللب أَخْلَقَا
إلى أَن أتيحت بابن طولون رحمةٌ ... أَشار إلى مُعْصَوْصِبٍ فتفرَّقا
فدتك بنو العباس من ناصرٍ لها ... أَنارَ به قَصْد السبيلِ فأَشرقا
بنيتَ لهم مجداً تليداً بناؤُهُ ... فلم نَرَ بنياناً أَعزَّ وأَوْثَقَا
منحتَهُمُ صَفْوَ الوداد ولم يكن ... سواك لِيُعْطِي الودَّ صَفْواً مُزَوَّقا
تجوزَ منكَ العبدُ لما قصَدْتَهُ ... وأَسكن أَشرافَ الأقاوم مطبقا
بلا ترةٍ أَسدوا إليه وإنَّما ... يجازي الفتى يوماً على ماتحققا

١ ـ القفة والقف: ماارتفع من متون الأرض وصلبت حجارته. والقف حجارة غاص بعضها ببعض مترادف بعضها إلى بعض حمر لايخالطها من اللين والسهولة شيء. اللسان.

وهيهات ما ينجيه لو أَنَّ دونه ثمانين سوراً في ثمانين خندقا

ثم إنَّ أحمد بن طولون توجه إلى مصر، وولى مملوكه لؤلؤ حلب في سنة ست وستين؛ فخرج بكار الصالحي من ولد عبد الملك بن صالح، بنواحي حلب بينها وبين سلمية؛ ودعا إلى أبي أحمد الموفق في سنة ثمان وستين؛ فحاربه ابن العباس الكلابي فهزم الكلابي؛ ووجه إليه لؤلؤ قائداً يقال له أبو ذر، فرجع وليس معه كبير أحد. ثم. إن لؤلؤ ظفر به فقبض عليه.

ثم إن لؤلؤ الطولوني خالف مولاه أحمد بحلب، وعصى عليه في سنة تسع وستين؛ وكاتب أبا أحمد الموفق في المسير إليه فأجابه إلى ذلك. وقطع لؤلؤ الدعاء لمولاه أحمد في مدنه جميعها: حلب، وقنسرين، وحمص، وديار مضر؛ وترك أهل الثغور الدعاء لابن طولون؛ وأخرجوا نائبه منها وهموا بقبضه، فهرب. فنزل أحمد بن طولون من مصر في مائة ألف فقبض على حرم لؤلؤ وباع ولده وأخذ ما قدر عليه مما كان له؛ وهرب لؤلؤ منه ولحق بأبي أحمد طلحة بن المتوكل وهو على محاربة العلوي البصري عميد الزنج.

ولؤلؤ هو الذي قتل علوي البصرة في سنة تسع وستين ومائتين. وبقي لؤلؤ ببغداد إلى أن قبض عليه الموفّق؛ وقيّده في سنة ثلاث وسبعين ومائتين، فوجد له أربعمائة ألف دينار. فذكر لؤلؤ الطولوني أنه لايعرف لنفسه ذنباً إلا كثرة ماله وأثاثه.

ولمّا انحدر لؤلؤ من الرقة كان معه من السفن والخزائن زهاء ثلاثمائة خزانة.

ولما هرب لؤلؤ من مولاه إلى العراق في جمادى الأولى من السنة، اجتاز ببالس، وبها محمد بن العبَّاس بن سعيد الكلابي أبو موسى، وأخوه سعيد فأسرهما.

ثم إن ابن طولون وصل إلى الثغور، فأغلقوها في وجهه، فعاد إلى أنطاكية ومرض. فولى على حلب عبد الله بن الفتح، وصعد إلى مصر مريضاً، فمات سنة سبعين ومائتين.

وولي ابنه أبوالجيش خمارويه بن أحمد بن طولون؛ فولى في حلب أبا موسى محمد بن العباس بن سعيد الكلابي، في سنة إحدى وسبعين ومائتين. ونزل أبو الجيش من مصر إلى حلب، وكاتب أبا أحمد بن المتوكل بأن يولي حلب ومصر وسائر البلاد التي في يده، ويدعى له على منابرها، فلم يجبه إلى ذلك، فاستوحش من الموفق.

وولي في حلب القائد أحمد بن ذو غباش؛ وصعد إلى مصر فوصل إلى حلب اسحاق بن كنداج[1]، وكان يلي ديار ربيعة؛ ومحمد بن أبي الساج، وكان يلي ديار مضر، فولاه الموفق حلب وأعمالها؛ وكتبا إلى العراق يطلبان نجدة تصل إليهما، فان ابن جبغويه وغيره من قواد ابن طولون بشيزر.

فسيّر الموفق ابنه ابا العباس أحمد بن طلحة، وكان قد جعل إليه ولاية عهده، فوصل إلى حلب في ربيع الآخر من سنة إحدى وسبعين

١ - لخمارويه ترجمة مفيدة في بغية الطلب ص٣٣٨٢ - ٣٣٨٦ ، وفي هذه الترجمة «اسحق بن كنداجيق».

ومائتين، وكان فيها محمد بن ديوداذ بن أبي الساج، المعروف بالأفشين حينئذ والياً؛ وسار إلى قنسرين، وهي يومئذ لأخي الفصيص التنوخي وهي عامرة وحاضر طيء لطيء وعليها أيضاً سور، وقلعتها عامرة.

وسار إلى شيزر، فكسر العسكر المقيم، وسار إلى أن تواقع المعتضد وخمارويه على الطواحين[1]، بقرب الرملة؛ وكانت الغلبة أولاً لأبي العباس المعتضد، فهرب خمارويه بمن خفّ معه إلى مصر، ونزل أبو العباس بخيمة خمارويه، وهو لايشك في الظفر، فخرج كمين لخمارويه، فشدّوا عليهم وقاتلوهم؛ فانهزموا؛ وتفرق القوم[2].

ورجع الأمير أبو العباس إلى أن انتهى إلى أنطاكية؛ وكان محمد بن ديوداذ المعروف بالأفشين بن أبي الساج قد فارق أبا العباس لكلام أغلظ له فيه أبو العباس، فجاء قبل وقعة الطواحين، واستولى على حلب، ومعه اسحاق بن كنداج.

وسار أبو العباس من أنطاكية إلى طرسوس فأغلقها أهلها دونه، ومنعوه من دخولها؛ فسار إلى مرعش، ثم إلى كيسوم، ثم إلى سميساط، وعبر الفرات، ونكب عن حلب لاستيلاء الأفشين عليها؛ وكان قد جرت بينهما وحشة.

ونزل خمارويه إلى حلب، فصالحه الأفشين وصار في جملته؛ ودعا له

١ ـ في أحواز بلدة الرملة في فلسطين.
٢ ـ لمزيد من التفاصيل، انظر بغية الطلب ص٨٠٨ ـ ٨٠٩، ٣٣٨٢.

على منابر أعماله، وحمل إليه خمارويه مائتي ألف دينار ونيفاً وعشرين ألف دينار لوجوه أصحابه؛ وعشرين ألف دينار لكاتبه؛ وذلك في سنة ثلاث وسبعين ومائتين. وأعطاه ابن أبي الساج ولده رهينة على الوفاء بعهده؛ فراسل خمارويه أبا أحمد الموفق، وسأله الصلح فأجابه إلى ذلك؛ وولاه مصر، وأجناد الشام، وقنسرين، وحلب، والعواصم، والثغور.

وصعد أبو الجيش إلى مصر، وكان أبو الجيش قد أعطى ابن أبي الساج يوم دفع ولده إليه مامبلغه ثلاثون ألف دينار، فقال ابن أبّا[1]: «خدعكم محمد بن ديوداذ، إذ أعطاكم بولة يبولُ مثلّها في كل ليلة مرات، وأخذ منكم ثلاثين ألف دينار».

ثم إن ابن أبي الساج نكث عهده مع أبي الجيش، وعاث في نواحي الأعمال التي له، في ذي القعدة من سنة أربع وسبعين ومائتين؛ فخرج إليه أبو الجيش، والتقيا بالثنية[2]، من أعمال دمشق فانهزم ابن أبي الساج واستبيح عسكره قتلاً وأسرا، ففي ذلك يقول البحتري:

وَقَدْ تَدلتْ جُيُوشُ النَّصرِ مُنْزَلَة ... عَلَى جُيوشِ أَبي الجَيْشِ بن طُولُونا
يَوْمَ «الثنِّية» إذْ ثَنَّى بِكَرَّتِهِ ... خَمْسِينَ أَلْفاً رِجَالاً أَوْ يَزِيدُونَا[3]

١ ـ هو أحمد بن أبا، وكان من قواد خمارويه. انظر تاريخ الطبري ج١٠ ص٣٤ (ط. دار المعارف، القاهرة).

٢ ـ ثنية العقاب، اسمها الآن «التنايا» خارج دمشق على الطريق الواصل بين حمص ودمشق.

٣ ـ لم ترد القصيدة في ديوان البحتري المطبوع، وذكر المرحوم د. دهان أنه رآها في مخطوطة ديوان البحتري المحفوظة في باريس الورقة ٣٩٨، حيث جاء: وقال يمدح أبا الجيش خمارويه بن =

وكتب إلى ابن أبي الساج يوبخه، ويقول له: «كان يجب يا قليل المروءة والأمانة، أن نصنع برهنك ما أوجبه غدرك! معاذ الله أنْ ﴿تَزِرَ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾[1]».

ورجع أبو الجيش إلى مصر في سنة خمس وسبعين ومائتين. فعاد محمد بن ديوداذ، وعاث عليه في أطراف بلاده، فقصده فانهزم بين يديه؛ فوصل ابن طولون خلفه إلى الفرات. وهرب ابن أبي الساج؛ ولحق بأبي أحمد الموفّق، فانضم إليه، فخلع عليه، وأخرجه معه إلى «الجبل»، وذلك في سنة ست وسبعين ومائتين. فولّى أبو الجيش على حلب غلام أبيه طغج بن جف والد الإخشيذ أبي بكر محمد بن طغج.

ودعا يازمار والي الثغور لخمارويه بطرسوس والثغور، وحمل إليه خمارويه خمسين ألف دينار، وحمل إليه قبل الدعاء له ثلاثين ألف دينار لينفقها في سبيل الله ومائة وخمسين ثوباً ومائة وخمسين دابة وسلاحاً كثيراً؛ وذلك في سنة سبع وسبعين ومائتين.

ورجع أبو الجيش إلى مصر، ومات المعتمد بعدذلك في سنة تسع وسبعين؛ فولي الخلافة أبو العباس أحمد بن طلحة المعتضد[2] فبايعه أبو

= أحمد بن طولون:

يكاد عاذلنا في الحب يغرينا   فما لجاجك في لوم المحبينا

١ ـ سورة الأنعام ـ الآية: ١٦٤.

٢ ـ للمعتضد ترجمة وافية في بغية الطلب ٨٠٨ ـ ٨٢٦.

الجيش بن طولون وخطب له في عمله. وسيّر إليه هدية سنية مع الحسين بن الجصّاص[1]. وطلب منه أن يزوج ابنته من عليّ بن المعتضد، فقال المعتضد: «بل أنا أتزوجها»، فتزوجها المعتضد وهي قطر الندى.

وقيل: إنه دخل معها مائة هاون ذهب في جهازها، وان المعتضد دخل خزانتها، وفيها من المنائر والأباريق، والطاسات، وغير ذلك من الآنية الذهب. فقال: «ياأهل مصر، ما أكثرِ صفركم». فقال له بعض القوم: «ياأمير المؤمنين، إنما هو ذهب».

وزُفّت إلى المعتضد مع صاحب أَبيها الحسين بن عبد الله بن الجصّاص. فقال المعتضد لأصحابه: «أكرموها بشمع العنبر»! فوجد في خزانة الخليفة أَربع شمعات من عنبر، في أَربعة أَتوار[2] فضة.

فلما كان وقت العشاء، جاءت إليه وقدّامها أَربعمائة وصيفة، في يد كل واحدة منهن تور ذهب وفضة؛ وفيه شمعة عنبر. فقال المعتضد لأصحابه: «أَطفئوا شمعنا واسترونا».

وكانت إذا جاءتْ إليه أكرمها بأن يطرح لها مخدة. فجاءت إليه يوماً فلم يفعل ما كان يفعله بها. فقالت: «أَعظم الله أَجرَ أَمير المؤمنين» قال:

---

١ ـ الحسين بن عبد الله بن حسين بن منصور، أبو عبد الله الجوهري، المعروف بابن الجصاص، كان من أعيان تجار عصره، ذوي الثروة الواسعة واليسار. له ترجمة وافية في المقفى للمقريزي ـ ط. بيروت ١٩٨٩ ج٣. ص٥٢٠ ـ ٥٣٤.

٢ ـ آنية صغيرة توضع فيها الشمعة.

«فيمن؟». قالت: «في عبده خمارويه» ـ تعني أَباها ـ فقال لها: «أَوَقَدْ سمعتِ بموته؟» قالت: «لا ولكني لمَّا رأَيتُك قد تركتَ إكرامي علمتُ أَنه قد مات أَبي». وكان خبره قد وصل إلى المعتضد، فكتمه عنها. فعاد إلى إكرامه لها بطرح المخدّة في كل الأوقات.

وقُتل خمارويه بدمشق في سنة [ثماني و] ثمانين ومائتين[1]، وحلب في ولاية طغج بن جُفّ من قبله.

وأَظن أَن قاضي حلب بعد أَيام أَحمد بن طولون حفص بن عمر قاضي حلب.

وولي مكان خمارويه ولده جيش بن خمارويه[2]، وطغج في حلب على حاله.

وعزل القوادُ جيشَ بن خمارويه؛ وولوا أَخاه هارون بن خمارويه، فولى طغج بن جفّ حلب على حاله، وسيّر إلى المعتضد رسولاً يطلبُ منه إجراءه على عادة أَبيه في البلاد التي كانت في ولايته، فلم يفعل.

وسيّر رسولاً إلى هارون، فاستنزله عن حلب وقنسرين، والعواصم، وسلّم لهارون مصر وبقية الشام، واتفق الصلح مع المعتضد وهارون على ذلك، في جمادى الأولى من سنة ست وثمانين ومائتين.

---

١ ـ أضيف مابين الحاصرتين من ترجمة خمارويه في بغية الطلب ص٣٣٨٦ .

٢ ـ لجيش بن خمارويه ترجمة مفيدة في المقفى للمقريزي ج٣ ص١١٦ ـ ١١٧ .

وكان هارون قد ولى قضاء حلب وقنسرين أبا زرعة محمد بن عثمان الدمشقي، فقلد المعتضدُ حلبَ وقنسرين ولده أَبا محمد علي بن أَحمد في هذه السنة.

وولى بحلب من قبل ابنه الحسنَ بن عليّ المعروف بكوره الخراساني، وإليه تنسب دار كوره؛ التي داخل باب الجنان[1] بحلب، والحمام المجاورة لها. وقد خربت الآن ولم يبق لها أَثر.

وكان كاتب علي بن المعتضد يومئذ الحسين بن عمرو النصراني، فقلده النظر في هذه النواحي.

وسار المعتضد، في سنة سبع وثمانين ومائتين، خلف وصيف خادم ابن أَبي الساج إلى الثغور إلى أَن لحقه. فضم عمل الثغور أَيضاً إلى كوره، وعاد إلى أنطاكية، ووصيف[2] معه.

ثم رحل إلى حلب، فأقام بها يومين؛ ووجد لوصيف بعد أَسره في بستان بحلب مال كان دفنه وهو بها مع مولاه مبلغه ستة وخمسون ألف دينار، فحمل إلى المعتضد؛ ثم رحل إلى بغداد، فمات في شهر ربيع الآخر سنة تسع وثمانين ومائتين.

وتولى الخلافة ولده أَبو محمد، ولقب بالمكتفي؛ فصرف الحسن بن علي

---

١ ـ سمى بذلك لأنه يخرج منه إلى البساتين التي لحلب، بغية الطلب ج١ ص٥٥.
٢ ـ لمزيد من التفاصيل انظر ترجمة المعتضد في بغية الطلب ص٨١٨ـ ٨١٩.

كوره عن ولايته؛ وولي حلب أحمد بن سهل البوشجاني[١]، في جمادى الآخرة سنة تسع وثمانين ومائتين. ثم صرفه عنها سنة تسعين ومائتين.

وولي حلب في هذه السنة أبا الأغر خليفة بن المبارك السلمي[٢]، ووجهه إليها لمحاربة القرمطي صاحب الخال ـ لعنه الله ـ فإنه كان قد عاث في البلاد؛ وغلب على حمص، وحماة، ومعرة النعمان، وسلمية. وقتل أهلها وسبى النساء والأطفال.

فقدم أبو الأغر حلب في عشرة آلاف فارس، فانفذ القرمطي سرية إلى حلب، فخرج أبو الأغر إلى وادي بُطْنَان[٣]، فلما استقر وافاه جيش القرمطي، يقدمه المطوّق غلامه وكبسهم، وقتل عامة أصحابه وخادماً جليلاً يقال له بدر القدامي[٤].

١ ـ كذا بالأصل، ولم يرد في لباب الأنساب لابن الأثير البوشجاني بل البوشنجي، والنوشجاني.

٢ ـ ترجم ابن العديم في بغية الطلب لكل من صاحب الخال وخليفة بن المبارك (أبو الأغر السلمي) وسلف لي نشر هاتين الترجمتين في كتابي الجامع في أخبار القرامطة ـ ط. دمشق ١٩٨٧ ج٢ ص٤٠٧ ـ ٤٢٥.

٣ ـ في ترجمة أبي الأغر ـ الجامع في أخبار القرامطة ج٢ ص٤٢٤ : «وللنصف من شهر رمضان ـ سنة ٢٩٠هـ ـ مضى أبو الأغر إلى حلب، ونزل وادي بطنان، قريبا من حلب، ونزل معه جميع أصحابه، فنزع ـ فيما ذكر ـ جماعة من أصحابه ثيابهم، ودخلوا يتبردون بمائه، وكان يوماً شديد الحر، فبيناهم كذلك إذ وافاهم جيش القرمطي المعروف بصاحب الشامة، مقدمهم المعروف بالمطوق، فكبسهم على تلك الحال، فقتل منهم خلقاً كثيراً، وانتهب العسكر، وأفلت أبو الأغر وجماعة من أصحابه، فدخل حلب، وأفلت معه مقدار ألف رجل، وكان في عشرة آلاف رجل مابين فارس وراجل».

٤ ـ رسم هذا الاسم بالأصل دونما ضبط أو نقط، ولم يرد ذكره في ترجمتي أبي الأغر وصاحب الخال.

وسلم أَبو الأغر في أَلف رجل، فصار إلى قرية من قرى حلب؛ وخرج إليه ابنه في جماعة من الرجّالة والأولياء، فدخل إلى حلب. وأقام القرامطة على مدينة حلب على سبيل المحاصرة.

فلما كان يوم الجمعة، سلخ شهر رمضان من سنة تسعين ومائتين، تسرّع أَهل مدينة حلب إلى الخروج للقاء القرامطة فمنعوا من ذلك، فكسروا قفل الباب، وخرجوا إلى القرامطة، فوقعت الحرب بين الفئتين؛ ورزق الله الحلبيين النصر عليهم. وخرج أَبو الأغر فأعانهم فقتل من القرامطة خلق كثير.

وخرج أَبو الأغرّ يوم السبت يوم عيد الفطر إلى المصلى، وعيد بأهل حلب، وخطب الخطيبُ؛ وعادت الرعية على حال سلامة؛ وأشرف أبو الأغر على القرامطة، فلم يخرج منهم أحد إليه؛ ثم أنهم رحلوا إلى صاحبهم، في سنة ثلاثمائة.

ثم إن المكتفي ولى حلب الحسين بن حمدان بن حمدون عم سيف الدولة، فعاثت عليه العرب من كلب واليمن وأسد وغيرهم، فاجتمعوا بنواحي حلب، فخرج للقائهم، في شهر رمضان من سنة أربع وتسعين ومائتين؛ فهزموه حتى بلغوا به باب حلب؛ وجرى بينه وبين القرامطة، في هذه السنة وقعة كسرهم فيها واستأصلهم.

ثم إنه عزل عن حلب، وولي عيسى غلام النوشَرِي؛ وكان المكتفي قد صار إلى الرقة في سنة إحدى وتسعين ومائتين؛ وكان وجّه بمحمد بن

سليمان صاحب الجيش إلى حلب والشام في عشرين ألف فارس وراجل، لمحاربة الطولونية والقرامطة، وفتح مصر. فقدم محمد بن سليمان حلب في أواخر سنة تسعين، والوالي بها على الحرب عيسى غلام النوشري، فدخلها محمد في أحسن تعبئة وزي؛ وأقام بها أياماً وطالب عمال الخراج بحمل المال؛ وقصده رؤساء بني تميم وبني كلاب.

فأمر عيسى والي حلب أن يستخلف على عمله ويشخص معه إلى مصر؛ فامتثل أمره، واستخلف على حلب ولده، وأنفق في جنده؛ ورحل في آخر شوال معه. فلما وافى معرة النعمان خلع عليه، وحمله، وولاه بلده إلى حدود حماة؛ ولقيهم القرامطة بين تل منّس[1] وكفر طاب[2]، في عشرة آلاف فارس، فنصره الله عليهم، وانهزموا وقتل الرَّجالة، وأسر أكثر الخيَّالة[3].

وصار محمد بن سليمان إلى مصر، وافتتحها من يد الطولونية، عند قتل هارون بن خمارويه؛ واستولى على أموالها. ثم ضمّ إلى طُغج بن جُفّ الطولوني أربعة آلاف رجل، وولاه حلب، وأخرجه عن مصر.

فلما صار إلى حلب وجد بها ابن الواثقي، وقد أنفذه السلطان إلى حلب لعرض جيوش الواردين من مصر، وذلك في سنة اثنتين وتسعين

---

١ - تل منس: قرية في سهول ادلب، تابعة لمنطقة معرة النعمان وتبعد عنها مسافة ٦كم، وذلك إلى الشرق منها، في شمالها الشرقي تل أثري فيه آثار تعود إلى العصور الكلاسيكية وما تلاها. المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري.

٢ - تبعد خرائب كفر طاب نحو ٣كم إلى الغرب من بلدة خان شيخون.

٣ - لمزيد من التفاصيل انظر الجامع في أخبار القرامطة ص٤٠٨ - ٤٢٢ .

ومائتين. فعرض ابن الواثقي جيشه لما وصل إلى حلب، وأمره بالنفوذ إلى بغداد، فرحل حتى وافى مدينة السلام.

وكذلك ورد حلب جماعة من القواد الطولونية، فعرضهم وتوجهوا إلى بغداد. ووافى وصيف البُكْتُمري وابن عيسى النوشري صاحب حلب بغداد، يوم الاثنين لثلاث عشرة ليلة بقيت من شعبان سنة اثنتين وتسعين ومائتين، ومعهما طغج، وأخوه، وابن لطغج، فخلع عليهم وطوّق منهم البكتمري وابن عيسى النوشري.

ثم شخص عيسى النوشري عن مصر إلى حلب، لأنه كان واليها. فلما كان بعد شخوصه إليها بأيام، ورد كتاب العباس بن الحسن الوزير بتولية عيسى النّوشري مدينة مصر، ويؤمر محمد بن سليمان بالشخوص إلى طرسوس للغزو، فوجه محمد بن سليمان من لحق عيسى بالرملة فردّه؛ وورد إلى عيسى كتاب من السلطان بذلك فعاد والياً على مصر.

وولى المكتفي في هذه السنة أبا الحسن ذكَا بن عَبْد الله الأعور حلب؛ ودام بها إلى سنة اثنتين وثلاثمائة. وكان كريماً يهب ويعطي وإليه تُنسبُ «دار ذكا» التي هي الآن دار الزكاة. وإلى جانبها دار حاجبه فيروز فانهدمت، وصارت تلا يعرف بتل فيروز؛ فنسفه السلطان الملك الظاهر ـ رحمه الله ـ في أيامه؛ وظهر فيه بقايا من الذخائر مثل الزئبق وغيره؛ وهو موضوع سوق الصّاغة الآن. ولأبي بكر الصنوبريّ الشاعر فيه مدائح كثيرة.

وعاد محمد بن سليمان إلى حلب، ووافاه مبارك القُمّي بكتب يؤمر فيها

بتسليم الأموال، وركب إليه ذَكَا الأعور صاحب حلب، وأبو الأغرّ وغيرهما. فاختلط بهم وسار معهم إلى المدينة، فأدخلوه إلى الدار المعروفة بكوره، بباب الجنان، ووكلوا به في الدار.

وشخص ذَكَا عن حلب لمحاربة ابن الخلنج[1] مع أبي الأغر إلى مصر؛ ووُجِّه بمحمد بن سليمان مقبوضاً إلى بغداد.

وتوفي المكتفي سنة خمس وتسعين ومائتين؛ وولي أخوه أبو الفضل المقتدر.

وعاثت بنو تميم في بلد حلب، وأفسدت فساداً عظيماً، وحاصروا ذَكَا بحلب، فكتب المقتدر إلى الحسين بن حمدان في إنجاد ذَكَا بحلب، فأسرى من الرحبة[2] حتى أناخ عليهم بخناصرة، وأسر منهم جماعة، وانصرف ولم يجتمع بذَكَا. ففي ذلك يقول شاعر من أهل الشام:

أصلح ما بين تميم وذَكَا
أبلج يُشكي بالرماح من شكا
يدلُّ بالجيش إذا ما سلكا
كأنَّه سليكةُ بن السُّلَكَا[3]

وكان وزير ذكا وكاتبه أبا الحسن محمد بن عمر بن يحيى النفري

---

١ ـ كذا بالأصل وفي ولاه مصر للكندي ـ ط. بيروت ١٩٠٨ ص٢٥٨ ـ ٢٩٧ «ابن الخليج».
٢ ـ ماتزال بقاياها قائمة على مقربة من الميادين، وتعرف باسم الرحيبة.
٣ ـ من الشعراء الصعاليك في الجاهلية، نشر ديوانه مع دراسة عنه في بيروت ١٩٩٤ .

الكاتب؛ وإليه ينسب حمّام النفري، وهي الآن دائرة. وداره هي المدرسة النورية؛ ومدحه الصنوبري.

ثم إن المقتدر عزل ذكا عن حلب، وولاه دمشق ثم مصر إلى أن مات. وقيل إنَّ المقتدر ولّى حلب مولاه تكين الخادم أبا منصور ثم عزله عنها. والصحيح أنه ولّى الشام ومصر مؤنس المظفر الخادم نيابة عن ابنه أبي العباس، فقدم إلى حلب وصعد إلى مصر.

وولى مؤنس ذَكَا الأعور دمشق ومصر، وعزله عن حلب؛ وولى الأمير أبا العباس أحمد بن كيغلغ حلب سنة اثنتين وثلاثمائة. وكان على قضاء حلب سنة تسعين محمد بن محمد الجدوعي.

ثم ولى القضاء بحلب وقنسرين محمد بن أبي موسى عيسى الضرير الفقيه، في سنة سبع وتسعين ومائتين. وشخص إلى عمله لأربع عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الآخر.

ثم صرف محمد بن عيسى عن قضاء حلب وقنسرين، في سنة ثلاثمائة بأبي حفيص عمر بن الحسن بن نصر الحلبي القاضي. وكانت داره بسوق السرَّاجين. وعزل أبو حفيص عن القضاء في حلب سنة اثنتين وثلاثمائة. ووليها أبو عبد الله محمد بن عبده بن حرب.

وتوفي عمر بن الحسن القاضي سنة سبع وثلاثمائة؛ وكان محمد بن عبده بن حرب قاضياً بها سنة خمس وثلاثمائة.

ثم تولى قضاء حلب وحمص ابراهيم بن جعفر بن جابر أبو اسحاق الفقيه، في سنة ست وثلاثمائة. وولي الخراج من قبل المكتفي بحلب الحسن بن الحسن بن رجاء بن أبي الضحَّاك. وتوفي بحلب في جمادى الأولى سنة إحدى وثلاثمائة فجاءة.

وولي الخراج بعده علي بن أحمد بن بسطام والانفاق عبد الله بن محمد بن سهل. ثم توفي سنة اثنتين وثلاثمائة؛ وتولى مكانه محمد بن الحسن بن علي الناظري.

وكان أبو العباس بن كَيْغَلَغ أديباً؛ شاعراً، جواداً، وهو الذي مدحه المتنبي بقوله:

كَمْ قَتِيلٍ كَمَا قُتِلْتُ شَهِيدِ[1]

ومن شعر الأمير أحمد بن كَيْغَلَغ قوله:

قلت له، والجفون قرحى: قد أقرح الدمع مايليها
ما لي في لوعتي شبيه قال: وأبصرت لي شبيها

ثم ولَّى مؤنس المظفر حلب أبا قابوس محمود بن حبك الخراساني؛ وكان جباراً، قاسياً، منحرفاً عن أهل البيت. وقيل: هو محمود بن حمل، فدام والياً بها إلى سنة اثنتي عشرة وثلاثمائة.

وكان مؤنس المظفر بالشام، فاستدعي إلى بغداد لقتال القرمطي، فسار

١ ـ ديوان المتنبي ـ ط. بيروت ١٩٦٩ ص٧١.

إليها؛ وولي حلب وصيف البكتمري الخادم سنة اثنتي عشرة وثلاثمائة. ثم عزله عنها سنة ست عشرة وثلاثمائة.

ووليها في هذه السنة هلال بن بَدْر أبو الفتح، غلام المعتضد؛ وكان أمير دمشق قبل ذلك؛ ثم عزل عن حلب؛ وولي قُطْرَبُّل[1] وسامرّا في سنة سبع عشرة، فوليها في هذه السنة وصيف البُكْتُمري ثانية.

ومات بحلب على ولايته يوم الثلاثاء لثمان خلون من ذي الحجة من سنة سبع عشرة وثلاثمائة.

وكان كاتبه عبد الله والد أبي العباس أحمد بن عبد الله الشامر المعروف بابن كاتب[2] البكتمري، فوليها الأمير أحمد بن كيغلغ ثانية إلى ثماني عشرة وثلاثمائة.

ثم ولّى مؤنسُ المظفرُ غلامَه طريفَ بن عبد الله السبكريّ الخادم، في سنة تسع عشرة وثلاثمائة، وكان ظريفاً شهماً شجاعاً، وحاصر بني الفصيص في حصونهم باللاذقية وغيرها، فحاربوه حرباً شديداً حتى نفد جميع ماكان عندهم من القوت والماء، فنزلوا على الأمان فوفّى لهم، وأكرمهم؛ ودخلوا معه حلب مكرمين معظمين، فأضيفت إليه حمص مع حلب.

---

١ ـ قطربل: اسم قرية بين بغداد وعكبرا. معجم البلدان.

٢ ـ لعله أبو الفتح البكتمري الذي ترجم له الثعالبي في يتيمة الدهر ـ ط. القاهرة ١٩٥٦ ج١ ص١٢٠ ـ ١٢٢.

ثم إن القاهر[1] قبض على مولاه مؤنس المظفر، وتولى طريف قبضه، وأحضره إلى القاهر في سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة، فرأى له ذلك. وولى القاهر بشرى الخادم دمشق وحلب؛ وسار إلى حلب ثم إلى حمص، فكسره ابن طغج وأسره، وخنقه. ووصل أبو العباس بن كيغلغ إلى حلب فاتفق مع محمد بن طغج وحالفه.

وولي الخلافة الراضي بعد القاهر[2]. وكان الراضي قد خاف على بدر الخرشني من الحجرية أن يفتكوا به؛ فقلده حلب وأعمالها؛ وهي بيد طريف سنة أربع وعشرين؛ وأمره بالمسير من يومه. فسار وبلغ طريف، فأنفذ صاحباً له إلى ابن مقلة؛ وبذل له عشرين ألف دينار ليجدد له العهد، وأن لايصرف من حلب. ووصل الخرشني فدافعه طريف، رجاء أن يقضي ابن مقلة وطره، فزحف بدر الخرشني، والتقى طريف في أرض حلب، فانهزم طريف من بين يديه.

وتسلم بدر حلب، وأقام بها مدة يسيرة، ثم كوتب من الحضرة بالانصراف فرجع إلى الحضرة، وقُلد طريف حلب مرة ثالثة؛ فقلد طريف السبكري من جهته حلب والعواصم فأقام بها إلى سنة أربع وعشرين وثلاثمائة.

وكان قاضي حلب عبيد الله بن عبد الرحمن ابن أخي الإمام.

١ ـ حكم القاهر من سنة ٣٢٠هـ/٩٣٢م إلى ٣٢٢هـ/٩٣٤م.
٢ ـ حكم الخليفة الراضي من سنة ٣٢٢هـ/٩٣٤م إلى ٣٢٩هـ/٩٤٠م.

ثم ولي حلب أبو العباس أحمد بن سعيد بن العباس الكلابي؛ ومدحه أبو بكر الصنوبري؛ وكان بها نائباً عن أبي بكر الإخشيد محمد بن طُغج بن جُفّ ـ في غالب ظني ـ فان الأخشيد استولى على الشام إلى سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة.

وفي ولاية أبي العباس الكلابي، وردت بنو كلاب إلى الشام من أرض نجد، وأغارت على معرة النعمان، فخرج إليهم والي المعرة معاذ بن سعيد بجنده، وتبعهم إلى البراغيثي، فعطفوا عليه، وأسروه وأكثر جنده. وأقام فيهم مدة يعذبونه، فخرج إليهم أبو العباس أحمد بن سعيد الكلابي والي حلب، فخلصه منهم. وكان ورودهم في سنة خمس وعشرين وثلاثمائة[1].

ثم إن الراضي قدم الموصل، وكان أبو بكر محمد بن رائق ببغداد[2]، وبينه وبين بجكم وحشة؛ فأنفذ الراضي أبا الحسين عمر بن محمد القاضي إلى أبي بكر محمد بن رائق يخيّره في أحد البلدين: واسط، أو حلب وأعمالها؛ فاختار حلب؛ وأراد بذلك البعد عن بجكم، فأجابه الراضي إلى ذلك، وخلع عليه أبو جعفر وأبو الفضل ابنا الراضي وعقدا له.

وجعل بجكم يحثّ الراضي على الوصول إلى بغداد، ويتأسف على خروج ابن رائق منها ليشفي غيظه؛ فقال له الراضي: «هذا لا يصلح؛ وهذا رجل قد أمنته، وقلدته ناحية من النواحي، فسمع وأطاع وما أُمكنّك منه».

١ ـ لمزيد من التفاصيل انظر ترجمة أحمد بن سعيد الكلابي في بغية الطلب ص٧٦٠ ـ ٧٦١. وجاء في هذه الترجمة أن معاذ بن سعيد لاحق كلاب «إلى مكان يعرف ببرج البراغيث».

٢ ـ لابن رائق ترجمة جيدة في المقفى للمقريزي ج٥ ص٦٥٤ ـ ٦٥٩.

فخرج أبو بكر بن رائق في شهر ربيع الآخر من سنة سبع وعشرين وثلاثمائة. وقيل: دخل حلب في سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة. وسار عنها إلى قتال الأخشيذ محمد بن طغج بن جف[1] الفرغاني؛ وولى في حلب نيابة عنه خاصة محمد بن يزداذ.

وجرت بين أبي بكر بن رائق والإخشيذ وقعة انهزم فيها الإخشيذ؛ وسلّم دمشق إلى ابن رائق، واقتصر على الرملة ومصر.

ثم وقع بينهما وقعة أخرى في الجفار[2]، أسر فيها أبو الفتح مزاحم بن محمد بن رائق، فرجع في عدة يسيرة حتى يخلّص ابنه، فقتل أبو نصر بن طغج؛ فكفنه ابن رائق؛ وجعله في تابوت؛ وأنفذه إلى أخيه الإخشيذ مع ابنه مزاحم؛ وقال: «ماأردتُ قتلَ أخيك؛ وهذا ولدي قد أنفذتُه إليك لتقيده به». فخلع الإخشيذ عليه؛ وأعطاه مالاً كثيراً، ورده. وذلك في سنة تسع وعشرين وثلاثمائة.

ثم أن أبا بكر محمد بن طغج الإخشيذ سيّر كافوراً الخادم من مصر، ومعه عسكر وفي مقدمته أبو المظفر مساور بن محمد الرومي، أحد قواد الإخشيذ؛ فوصل إلى حلب؛ فالتقى كافور ومحمد بن يزداذ الوالي بحلب

١ - لابن طغج ترجمة واسعة في كتاب المقفى للمقريزي ج٥ ص٧٤٥ - ٧٥٢.
٢ - في رواية المقريزي أن المعركة وقعت باللجون، واللجون عند ياقوت بلد بالأردن على عشرين ميلاً من طبرية، وجاء عند ياقوت أيضاً: الجفار: أرض من مسيرة سبعة أيام بين فلسطين ومصر.

من قبل ابن رائق، فكسره كافور، وأسره، وأخذ منه حلب؛ وولّى بها مساور بن محمد الرومي؛ وعاد كافور إلى مصر.

وهذا أبو المظفر مُساور بن محمد الرُّومي مدحه المتنبي بقوله:

أَمُسَاوِرٌ أَمْ قَرْنُ شَمْسٍ هذا   أَمْ لَيْثُ غَابٍ يَقْدُمُ الأَسْتَاذَا[1]

يريد بالأستاذ: كافوراً الخادم. وذكر فيها كسره ابن يزداذ فقال:

هَبْكَ ابْنَ يَزْدَاذٍ حَطَمْتَ وَصَحْبَهُ   أَتَرَى الوَرَى أَضْحَوْا بَنِي يَزْدَاذَا

ومساور هو صاحب الدار المعروفة بدار ابن الرومي بالزّجاجين بحلب، وتعرف أيضاً بدار ابن مستفاد، وهي شرقي المدرسة العمادية التي جددها سليمان بن عبد الجبار بن أرتق بحلب، وهي المنسوبة إلى بني العجمي[2].

وأظن أن قاضي حلب في هذا التاريخ كان أبا طاهر محمد بن محمد بن سفيان الدباس أو قبل هذا التاريخ.

ثم اتفق الإخشيد ومحمد بن رائق على أن يخلي له الإخشيد حمص وحلب ويحمل إليه مالاً؛ وزوج الإخشيد ابنته بمزاحم بن أبي بكر بن رائق.

وقتل ناصرُ الدولة أبو محمد الحسن بن عبد الله بن حمدان أبا بكر بن رائق، في رجب سنة ثلاثين وثلاثمائة بين يدي المتقي يوم الاثنين لتسع بقين منه.

١ - ديوان المتنبي ص١١٣.
٢ - انظر الآثار الاسلامية والتاريخية في حلب ص٢٦٣.

وكان ابن رائق شهماً مقداماً سخياً جواداً، لكنه كان عظيم الكبر، مستبداً برأيه، منزوعاً من التوفيق والعصمة والتسديد.

وكان أحمد بن علي بن مقاتل بحلب من جهة أبي بكر بن رائق ومعه ابنه مزاحم بن محمد بن رائق، فقلّد ناصر الدولة علي بن خلف ديار مضر والشام؛ وأنفذ معه عسكراً، وكاتب يانس المؤنسي أن يعاضده .

وكان يانس يلي ديار مضر من قبَل ناصر الدولة فسار إلى «جسر منبج» وسار أحمد بن مقاتل ومزاحم إلى منبج، فالتقوا على شاطىء الفرات.

وسيّر يانس كاتبه ونذيراً غلامه برسالة إلى ابن مقاتل، فاعتقلهما ووقعت الحرب بين الفئتين؛ ولحق يانس جراح كادت تتلفه فعدل به إلى «قلعة نجم»[١] ليشده. ونظر نذير غلامُه وهو معتقل في عسكر ابن مقاتل، على بغل إلى شاكري[٢] ليانس معه جنيبة من خيله، فأخذ سيف الشاكريّ، وركب الجنيبة؛ وصار إلى ابن مقاتل فقتله وانهزم عسكره.

وأفاق يانس المؤنسي، فسار وعلي بن خلف متوجهين إلى حلب وتلاوم قواد ابن مقاتل على هزيمتهم؛ فعادوا إلى القتال في وادي بطنان، فانهزموا ثانية؛ وملك علي بن خلف ويانس المؤنسي حلب في سنة ثلاثين وثلاثمائة.

ثم إنّ علي بن خلف سار منها إلى الإخشيد محمد بن طغج، فاستوزره وعلا أمره معه، إلى أن رآه يوماً، وقد ركب في أكثر الجيش بالمطارد والزيّ؛

١ ـ قلعة حصينة قرب جسر منبج. معجم البلدان.
٢ ـ الشاكري: معرب جاكر، وهو الأجير أو التابع.

ومحمد جالس في متنزه له، فأمر بالقبض عليه؛ فلم يزل محبوساً إلى أن مات محمد بن طغج. فأطلق وبقي يانس المؤنسي والياً على حلب في سنة إحدى وثلاثين وثلاثمائة.

وكان يانس هذا مولى مؤنس المظفر الخادم، وتولى الموصل في أيام القاهر، وكان يلي ديار مضر من قبل ناصر الدولة إلى أن كان من أمره ما ذكرناه. فاستأمن إلى الأخشيذ، ودعا له على المنابر بعمله.

واتفق ناصر الدولة بن حمدان وتوزون، في سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة، على أن تكون الأعمال من مدينة الموصل إلى آخر أعمال الشام لناصر الدولة؛ وأعمال السن[1] إلى البصرة لتوزون وما يفتحه من وراء ذلك؛ وأن لايعرض أحد منهما لعمل الآخر.

فولى ناصر الدولة حلب وديار مضر والعواصم أبا بكر محمد بن علي بن مقاتل صاحب ابن رائق في شهر ربيع الأول من سنة اثنتين [وثلاثين] وثلاثمائة، ووافق ناصر الدولة أبا محمد بن حمدان على أن يؤدي إليه إذا دخل حلب خمسين ألف دينار.

فتوجّه أبو بكر من الموصل ومعه جماعة من القواد، ولم يصل إليها؛ فوقع بين الأمير سيف الدولة بن حمدان وبين ابن عمه أبي عبد الله الحسين بن سعيد بن حمدان كلام بالموصل وأراد القبض عليه.

١ - السن: مدينة على دجلة فوق تكريت. معجم البلدان.

فقلد ناصر الدولة أبا عبد الله الحسين بن سعيد بن حمدان، أخا الأمير أبي فراس، حلب وأعمالها، وديار مضر، والعواصم، وكلّما يفتحه من الشام، فتوجه في أول شهر رجب سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة، ودخل الرقة بالسيف لأن أهلها حاربوه مع أميرها محمد بن حبيب البلزمي، فأسره وسلمه، وأحرق قطعة من البلد وقبض على رؤساء أهله، وصادرهم.

وتوجه إلى حلب ومعه أبوبكر محمد بن علي بن مقاتل، وبحلب يانس المؤنسي وأحمد بن العباس الكلابي، فهربا من بين يديه من حلب، وتبعهما إلى معرة النعمان ثم إلى حمص.

وهرب أمير حمص اسحاق بن كيغلغ بين يديه، وملك هذه البلاد ودانت له العرب، ثم عاد إلى حلب، وأقام بها إلى أن وافى الأخشيذ أبو بكر محمد بن طُغج بن جُفّ الفرغاني.

وإنما لقب بالأخشيذ لأن ملك فرغانه يتسمى بذلك؛ وكان أبوه من أهل فرغانه.

وقدمها الإخشيذي في ذي الحجة من سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة. ولما دنا الإخشيذ من حلب انصرف الحسين بن حمدان عنها لضعفه عن محاربته إلى الرقة.

وكان ابن مقاتل مع ابن حمدان بحلب؛ فلما أحس بقرب الأخشيذ منها وتعويل ابن حمدان على الانصراف استتر في منارة المسجد الجامع إلى أن انصرف ابن حمدان.

ودخل الاخشيذ فظهر له ابن مقاتل، واستأمن إليه، وقلده الاخشيذ أعمال الخراج والضياع بمصر.

وأما الحسين بن سعيد، فإنّه لما وصل إلى الرقة وجد المتقي لله بها هارباً من توزون التركي وقد تغلب على بغداد، وسيف الدولة أبو الحسن علي بن عبد الله بن حمدان مع المتقي بالرقة؛ وقد فارق أخاه ناصر الدولة لكلام جرى بينهما، فلم يأذن المتقي لأبي عبد الله الحسين في دخول الرقة، وأغلقت أبوابها دونه؛ ووقعت المباينة بينه وبين ابن عمه سيف الدولة؛ وسفر بينهما في الصلح، فتمّ، ومضى إلى حران ومنها إلى الموصل.

وقدم الاخشيذ عند حصوله بحلب مقدمته إلى بالس[1]، وسار بعدها بعد أن سيّر المتقي أبا الحسن أحمد بن عبد الله بن اسحاق الخرقي يسأل الإخشيذ أن يسير إليه ليجتمع معه بالرقة، ويجدد العهد به، ويستعين به على نصرته، ويقتبس من رأيه.

فلما وصل أبو الحسن إلى حلب تلقاه الإخشيذ، وأكرمه؛ وأظهر السرور والثقة بقرب المتقي، وأنفذ من وقته مالاً مع أَحمد بن سعيد الكلابي إلى المتقي، وسار خلفه حتى نزل وبينه وبين المتقي الفرات، فراسله المتقي بالخرقي، وبوزيره أبي الحسين بن مقلة؛ فعبر إليه يوم الخميس لثلاث عشرة ليلة خلت من المحرم سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة.

١ - هي مسكنة الآن في سورية على الطريق الذي يصل حلب بالرقة.

ووقف بين يدي المتقي لله؛ ثم ركب المتقي لله فمشى بين يديه؛ وأمره أن يركب فلم يفعل؛ وحمل إليه هدايا ومالاً كثيراً، وحمل إلى الوزير أبي الحسين بن مقلة عشرين ألف دينار؛ ولم يدع أَحداً من أصحاب المتقي وحواشيه وكتابه إلا بَرَّهُ وَوَصَلَهُ.

واجتهد بالمتقي لله أن يسير معه إلى الشام ومصر؛ فأبى. فأشار عليه بالمقام مكانه، وضمن له أن يمدَّه بالأموال فلم يفعل[١]، إلى أن كاتبه توزون، وخدعه، وقبض عليه وبايع المستكفي.

وكتب المتقي عهداً للإخشيذ بالشامات ومصر على أن الولاية له ولأبي القاسم أنوجور ابنه إلى ثلاثين سنة.

وكتب الإخشيذ في هذه السفرة إلى عبده كافور الخادم إلى مصر وقال له: «ومما يجب أن تقفَ عليه ـ أطال الله بقاءك ـ أنّي لقيتُ أميرَ المؤمنين بشاطىء الفرات فأكرمني، وحباني[٢]، وقال: كيف أنت يا أبا بكر أعزَّك الله»، فرحاً بأنّه كناه، والخليفة لا يكني أحداً.

---

١ ـ في ترجمة الاخشيذ في المقفى ج٥ ص٧٥٠ : «واجتهد المتقي أن يسير معه إلى مصر، فأشار عليه بالمقام مكانه ولايرجع إلى بغداد، وأشار على ابن مقلة أن يسير معه إلى مصر ليحكمه في جميع البلاد فلم يجبه، فخوفه من طوزون فلم يوافقه».

٢ ـ كذا بالأصل ويرجع أنها تصحيف: «وكناني» فقد جاء في ترجمة الاخشيد في المقفى ج٥ ص٧٥٠ ، أن الاخشيذ التقى المتقي بالرقة «فلما قدم عليه بالرقة وقف بين يديه ومشى عند ركوبه، فأمره المتقي بالركوب فلم يفعل، فألح عليه المتقي، وأكرمه وكناه وكنى ابنه وجعله خليفة له»، يضاف إلى هذا أن سياق الخبر يؤكد التصحيف.

[عصر الدولة الحمدانية][1]

وعاد الإخشيذ من الرقة إلى حلب وسار إلى مصر. وولى بحلب من قبله أبا الفتح عثمان بن سعيد بن العباس بن الوليد الكلابي، وولى أخاه أنطاكية. فحسد أبا الفتح إخوته الكلابيون، وراسلوا سيف الدولة بن حمدان ليسلموا إليه حلب، وقد كان طلب سيف الدولة من أخيه ناصر الدولة ولاية، فقال له ناصر الدولة: «الشام أمامك؛ وما فيه أحد يمنعك منه».

وعرف سيف الدولة اختلاف الكلابيين، وضعف أبي الفتح عن مقاومته، فسار إلى حلب؛ فلما وصل إلى الفرات خرج إخوة أبي الفتح عثمان بن سعيد بأجمعهم للقاء سيف الدولة؛ فرأى أبو الفتح أنه مغلوب إن جَلَس عنهم، وعلم حسدهم[2] له، فخرج معهم.

١ ـ أضيف مابين الحاصرتين للتوضيح.
٢ ـ أفرد ابن العديم في آخر الجزء الأول من بغية الطلب بابا للحديث عن قبائل كلاب التي قطنت ديار حلب، ولدى بحثي في تاريخ الدولة المرداسية أدركت أن كلاب عانت دوماً من التمزق والصراعات الداخلية.

فلما قطع سيف الدولة الفرات، أكرم أبا الفتح دون إخوته، وأركبه معه في العمارية[١]؛ وجعل سيف الدولة يسأله عن كل قرية يجتاز بها: مااسمها؟ فيقول أبو الفتح: هذه الفلانية! حتى عبروا بقرية يقال لها «ابرم» وهي قرية قريبة من الفايا[٢]. فقال له سيف الدولة: «ماسم هذه القرية؟» قال أبو الفتح: «أبرم». فظن سيف الدولة أنه قد أكرهه بالسؤال. فقال له أبْرم من الإبرام. فسكت سيف الدولة عن سؤاله. فلما عبروا بقرى كثيرة، ولم يسأله عنها علم أبو الفتح بسكوت سيف الدولة. فقال له أبو الفتح: «سيدي يا سيف الدولة، وحقِّ رأسك، إنّ القرية التي عبرنا عليها اسمها ابرم، واسألْ عنها غيري». فعجب سيفُ الدولة من ذكائه. فلمْا وصل حلب أَجلسه معه على السرير.

ودخل سيف الدولة حلب، يوم الاثنين لثمان خلون من شهر ربيع الأول، من سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة.

وكان القاضي بها أحمد بن محمد بن مائل، فعزله وولّى أبا حصين علي بن عبد الملك بن بدر بن الهيثم الرقي؛ وكان ظالماً، فكان إذا مات إنسان أَخذ تركته لسيف الدولة. وقال: «كلّ من هلك فلسيف الدولة ماترك، وعلى أَبي حصين الدّرك»[٣].

---

١ ـ العمارية هودج يجلس فيه.

٢ ـ الفايا: كورة بين منبج وحلب كبيرة، وهي من أعمال منبج في جهة قبلتها قرب وادي بُطنان، ولها قرى عامرة، فيها بساتين ومياه جارية. معجم البلدان.

٣ ـ بهامش الأصل: «هذه حكاية عجيبة من قاض ظالم يقول: كل من هلك فلسيف الدولة =

ثم إنَّ الإخشيذ سيّر عسكراً إلى حلب مع كافور ويانس المؤنسي[١]؛ وكان الأمير سيف الدولة غازياً بأرض الروم قد هتك بلد الصفصاف[٢] وعَرْبسُوس[٣] فغنم؛ ورجع فسار لطيته إلى الإخشيذية، فلقيهم بالرَّسْتن. فحمل سيفُ الدولة على كافور، فانهزم وازدحم أصحابه في جسر الرَّسْتن، فوقع في النهر منهم جماعة.

ورفع سيف الدولة السيف، فأمر غلمانه أن لايقتلوا أحداً منهم. وقال: «الدم لي والمال لكم». فأسر منهم نحو أَربعة آلاف من الأمراء وغيرهم، واحتوى على جميع سواده.

ومضى كافور هارباً إلى حمص، وسار منها إلى دمشق؛ وكتب إلى الإخشيذ يعلمه بهزيمته؛ وأطلق سيفُ الدولة الأسارى جميعهم؛ فمضوا وشكروا فعله.

ورحل سيف الدولة بعد هزيمتهم إلى دمشق، ودخلها في شهر رمضان

= ماترك، وعلى أبي حصين الدرك. بئس ماقال هذا القاضي من المقالة القبيحة، وبئس مافعله من الفضيحة».

١ ـ في المقفى ج٥ ص٧٥١ : «فبعث ـ الاخشيذ ـ فاتك وكافور بالجيوش إلى الشام، ثم خرج يوم السبت لخمس خلون من شعبان سنة ثلاث وثلاثين يريد محاربة سيف الدولة».

٢ ـ الصفصاف: كورة من ثغور المصيصة. معجم البلدان، ومن أجل المصيصة انظر بغية الطلب ج١ ص١٥٣ ـ ١٦٥ .

٣ ـ هي مدينة أفسوس في تركية، وكان من الرائج أنها مدينة أهل الكهف. انظر ماجاء حولها في بغية الطلب ج١ ص٣٣٠ ـ ٣٣٤ .

سنة ثلاث وثلاثين، وأقام بها. وكاتَبَهُ الإخشيذ يلتمس منه الموادعة، والاقتصار على ما في يده؛ فلم يفعل.

وخرج سيف الدولة إلى الأعراب؛ فلما عاد منعه أهل دمشق من دخولها. فبلغ الإخشيذ ذلك فسار من الرملة؛ وتوجه يطلب سيف الدولة؛ فلما وصل طبرية عاد سيف الدولة إلى حلب بغير حرب، لأن أكثر أصحابه وعسكره استأمنوا إلى الإخشيذ. فاتبعه الإخشيذ إلى أن نزل معرة النعمان في جيش عظيم؛ فجمع سيفُ الدولة، ولقيه بأرض قنسرين، في شوال من سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة.

وكان الإخشيذ قد جعل مطارده وبوقاته في المقدمة، وانتقى من عسكره نحو عشرة آلاف؛ وسمّاهم الصابرية فوقف بهم في الساقة.

فحمل سيف الدولة على مقدمة الإخشيذ فهزمها، وقصد قبته وخيمه؛ وهو يظنه في المقدمة؛ فحمل الإخشيذ ومعه الصابرية فاستخلص سواده. ولم يقتل من العسكرين غير معاذ بن سعيد والي معرة النعمان، من قبل الإخشيذ؛ فإنه حمل على سيف الدولة ليأسره، فضربه سيف الدولة بمستوفى[1] كان معه فقتله.

وهرب سيف الدولة فلم يتبعه أحد من عسكر الإخشيذ وسار على حاله إلى الجزيرة فدخل الرقة. وقيل: إنه أراد دخول حلب فمنعه أهلها.

---

١ ـ المستوفى: عمود حديد، طوله ذراعين، مربع الشكل، له مقابض مدورة.

ودخل الإخشيد حلب، وأفسد أصحابه في جميع النواحي، وقطعت الأشجارُ التي كانت في ظاهر حلب وكانت عظيمة جداً. وقيل: إنها كانت من أكثر المدن شجراً. وأشعار الصنوبري تدل على ذلك.

ونزل عسكر الاخشيذ على الناس بحلب؛ وبالغوا في أذى الناس لميلهم إلى سيف الدولة.

وعاد الإخشيذ إلى دمشق بعد أن ترددت الرسل بينه وبين سيف الدولة، واستقر الأمر على أن أفرج الإخشيذ له عن حلب وحمص وأنطاكية. وقرّر عن دمشق مالاً يحمله إليه في كل سنة.

وتزوج سيف الدولة بابنة أخي الإخشيذ عبيد الله بن طغج[1]؛ وانتظم هذا الأمر على يد الحسن بن طاهر العَلَوي[2] وسفارته، في شهر ربيع الأول، سنة أَربع وثلاثين وثلاثمائة.

---

١ ـ في المقفى ج٥ ص١٧٥ : « وعادالاخشيذ إلى دمشق، فسار سيف الدولة إلى حلب وملكها، وبعث إلى الاخشيذ وهو في دمشق، فاصطلحا على مال يحمله للاخشيد في كل سنة، وزوجه الاخشيد بابنة أخيه».

٢ ـ ترجم ابن العديم للحسن بن طاهر في بغية الطلب ج٥ ص٢٤٠٨ ـ ٢٤١٣ ونقل عن ابن زولاق أنه بعدما هزم الاخشيد سيف الدولة عاد: «الأمير سيف الدولة عسكر مواجها للاخشيذ، فاختار الاخشيذ المسالمة، وراسله بالحسن بن طاهر على مال يحمله إليه، وأن يكون لسيف الدولة من خرشنة إلى حمص، وزوجه ابنته فاطمة، وكان الولي الحسن بن طاهر بتوكيل الاخشيذ، فسر سيف الدولة بذلك، وعقد النكاح، ونثر سيف الدولة في مضربه على الحاضرين ثلاثين ألف دينار، ونثر خارج المضرب أربعمائة ألف درهم. وحمل إلى الحسن بن طاهر مالاً كثيراً وخلعا وحملانا».

فسار الإخشيذ إلى دمشق وعاد سيف الدولة إلى حلب؛ وتوفي الإخشيذ بدمشق في ذي الحجة، من سنة أربع وثلاثين، وقيل: في المحرم من سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة.

وملك بعده ابنه أبو القاسم أَنُوجُور؛ واستولى على التدبير أبو المسك كافور الخادم.

وكان سيف الدولة، فيما ذكر، قد عمل على تخلية الشام. فلما مات الإخشيذ سار كافور بعساكر مولاه إلى مصر من دمشق، وكان قد استولى على مصر رجل مغربي[1]، فحاربه كافور، وظفر به.

وخلتْ دمشق من العساكر، فطمع فيها سيف الدولة، وسار إليها فملكها؛ واستأمن إليه يانس المؤنسي في قطعة من الجيش.

وأقام سيف الدولة بدمشق، وجبى خراجها؛ ثم أتته والدته «نُعم» أمّ سيف الدولة إلى دمشق؛ وسار سيف الدولة إلى طبرية.

١ ـ ترجم المقريزي في المقفى ج٢ ص٣١٣ ـ ٣١٩ لأونوجور، أنه عندما مات الإخشيذ بدمشق كان أونوجور بمصر، وقد لحق به كافور فيما بعد، فخلت الشام من جيوش الاخشيذ فاستغل الفرصة هذه سيف الدولة فاستولى على دمشق وسار إلى طبرية، فما كان من أونوجور إلا أن «ندب العساكر إلى الشام، وعليها أبو المظفر ـ عم أونوجور ـ وكافور فسارا في جمع عظيم ومعهما الوزير أبو علي الحسين بن محمد بن علي الماذرائي إلى الشام، وقاتلا ابن حمدان، ودخلا دمشق» وفي أثناء غياب الجيش بالشام ورد الخبر بخلاف غلبون بن سعيد المغربي متولي اخميم وخروجه عن الطاعة، فندب لقتاله شادن الصقلبي فانهزم منه... فأخرج إليه عسكر آخر، ثم خرج أونوجور فلقيه فانهزم منه، وملك غلبون دار الامارة... ثم عاد أونوجور فانهزم غلبون، ولحق بالصعيد، فخرجت إليه العساكر، وأحضر رأسه».

وكان سيف الدولة في بعض الأيام يساير الشريف العقيقي بدمشق، في الغوطة بظاهر البلد، فقال سيف الدولة للعقيقي: «ما تصلح هذه الغوطة تكون إلا لرجل واحد»، فقال له الشريف العقيقي: «هي لأقوام كثير». فقال له سيف الدولة: «لئن أخذتها القوانين ليتبرأن أهلها منها». فأسرّها الشريف في نفسه، وأعلم أهلَ دمشق بذلك.

وجعل سيف الدولة يطالب أهل دمشق بودائع الإخشيذ وأسبابه؛ فكاتبوا كافوراً فخرج في العساكر المصرية، ومعه أنوجور بن الإخشيذ.

فخرج سيف الدولة إلى اللَّجُون، وأقام أياماً قريباً من عسكر الإخشيذ بـ«أَكْسَاك»[1]، فتفرق عسكر سيف الدولة في الضياع لطلب العلوفة، فعلم به الإخشيذية، فزحفوا إليه. وركب سيف الدولة يتشرف، فرآهم زاحفين في تعبئة، فعاد إلى عسكره فأخرجهم، ونشبت الحرب فقُتل من أصحابه خلق وأسر كذلك.

وانهزم سيف الدولة إلى دمشق فأخذ والدته، ومن كان بها من أهله وأسبابه؛ وسار من حيث لم يعلم أهل دمشق بالوقعة؛ وكان ذلك في جمادى الآخرة من سنة خمس وثلاثين.

وجاء سيف الدولة إلى حمص؛ وجمع جمعاً لم يجتمع له قط مثله، من بني

---

١ ـ تبعد أكساك عن الناصرة ستة كم في اتجاه الجنوب الشرقي. ويجاورها من الشرق جبل الطور. معجم بلدان فلسطين لمحمد شراب.

عقيل، وبني نمير، وبني كلب، وبني كلاب؛ وخرج من حمص. وخرجت عساكر ابن طغج من دمشق، فالتقوا «بمرج عذراء» وكانت الوقعة أولاً لسيف الدولة ثم آخرها عليه، فانهزم، وملكوا سواده؛ وتقطع أصحابه في ذلك البلد، فهلكوا؛ وتبعوه إلى حلب، فعبر إلى الرّقة، وانحاز يانس المؤنسي من عساكر سيف الدولة إلى أنطاكية[١].

ووصل ابن الإخشيذ حلب، في ذي الحجة من سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة. فأقام بها وسيف الدولة في الرّقة فراسل أنوجور يانس المؤنسي وهو بأنطاكية، وضمن هو وكافور ليانس أن يجعلاه بحلب في مقابلة سيف الدولة، وضمن لهما يانس بأن يقوم في وجه سيف الدولة بحلب، وأن يعطيهم ولده رهينة على ذلك فأجابوه.

وانصرف كافور وأنوجور بالعسكر عن حلب إلى القبلة، وأتاها يانس فتسلمها. وقيل: إنَّ الإخشيذية عادوا.

وأقام سيف الدولة بحلب، فخالف عليه يانس والساجية، وأرادوا القبض عليه، فهرب وكُتابه، وأصحابه، إلى الرّقة. وملك يانس حلب.

ولم يقم يانس بحلب إلا شهراً، حتى أسرى إليه سيف الدولة إلى حلب، في شهر ربيع الآخر، سنة ست وثلاثين وثلاثمائة؛ فكبسه، فانهزم يانس إلى سَرْمين[٢] يريد الإخشيذ. فأنفذ سيف الدولة في طلبه سرية مع

١ ـ انظر المقفى للمقريزي ج٢ ص٣١٦.

٢ ـ سرمين الآن قرية تتبع ناحية قرى مركز ومنطقة أدلب، تبعد عن ادلب ٩كم إلى الجنوب الشرقي. المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري.

ابراهيم بن البارد العُقيلي، فأدركته عند ذاذيخ[1]؛ فانهزم، وخلّى عياله، وسواده، وأولاده. وانهزم إلى أخيه بميّافارقين.

وكان ابن البارد قد وصل إلى سيف الدولة، في سنة خمس وثلاثين؛ وكان في خدمة أخيه ناصر الدولة، ففارقه، وقدم على سيف الدولة.

ثم إنَّ الرّسل ترددتْ بين سيف الدولة وابن الإخشيذ وتجدّد الصلح بينهما على القاعدة التي كانت بينه وبين أَبيه، دون المال المحمول عن دمشق.

وعمر سيف الدولة داره بالحلبة[2]، وقلّد أَبا فراس ابن عمه منبج، وما حولها من القلاع. واستقرت ولاية سيف الدولة لحلب من سنة ست وثلاثين وثلاثمائة. وهذه هي الولاية الثالثة.

وجرى بينه وبين الروم وقائع أكثرها له وبعضها عليه.

فمنها: أنه فتح حصن بَرْزُويه[3] في سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة من ابن اخت أَبي الحجر الكردي[4]. ووقع بينه وبين الروم وقعة فكانت الغلبة للروم

١ ـ ذكر ياقوت قرية ذا ذيخ وعدها من قرى سرمين.

٢ ـ من المعتقد أن موقع الحلبة، وكان خارج حلب، حيث الآن مركز انطلاق السيارات إلى المحافظات.

٣ ـ وصف ابن العديم حصن برزويه وذكر أنه كان يعرف في أيامه باسم حصن برزيه. بغية الطلب ج١ ص٣٢٨ ـ ٣٢٩ ، وبرزية الآن قلعة في السفوح الشرقية لجبال اللاذقية، حملت قديما اسم ليزياس، على بعد ٣كم شرق مضيق سلمى، مساحتها ثلاثة هكتارات، يحيط بها سور محصن بعشرة أبراج مربعة أو مستطيلة، وظلت مقطونة حتى القرن الرابع عشر م. المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري.

٤ ـ في تاريخ يحيى بن سعيد الأنطاكي ـ ط. طرابلس ١٩٩٠ ص٧٧ ، «وفيه يومئذ أبو تغلب الكردي».

وملكوا مرعش ونهبوا طرسوس. وسار إلى ميّافارقين، واستخلف على حلب ابن أخيه محمد بن ناصر الدولة؛ وخرج لاون الدمستق إلى «بوقا»[١] من عمل أنطاكية. وخرج إليه محمد[٢] فكسره الدمستق، وقتَلَ من عسكره خلقاً، في سنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة.

ومنها: أَنه غزا، سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة، ومعه خلقٌ عظيمٌ، فظفر فيها، وغنم غنيمة كثيرة. فلما رجع إلى درب الجوزات[٣]، وفارقه أَهل الثغور، فاجتمع الروم في الدّرب على سيف الدولة، فقتل خلق عظيم من المسلمين؛ وأسر كذلك.

وما سلم إلا سيف الدولة على ظهر فرسه، وعرفوه فطلبوه، ولزّوه إلى جبل عظيم، وتحته واد، فخاف أن يأسروه إن وقف أَو رجع، فضرب فرسه بالمهماز، وقبله الوادي، لكي يقتل نفسه، ولا يأسروه فوقع الفرس قائماً[٤].

وخرج سيف الدولة سالماً. وسمّيت هذه الغزاة غزاة المصيبة[٥]، وأخذ

١ ـ بوقا حصن إلى الشمال من أنطاكية. معجم البلدان. بغية الطلب ج١ ص٢٢٩.
٢ ـ محمد بن ناصر الدولة الحمداني. تاريخ يحيى بن سعيد ص٧٨.
٣ ـ حصن الجوزات بينه وبين طرسوس ثمانية فراسخ وهو بين البذندون وطرسوس، وهو حصن مذكور موصوف بالقوة. بغية الطلب ج١ ص٢١٢ ـ ٣١٣.
٤ ـ كانت أسس الاستراتيجية البيزنطية في حروب الامبراطورية مع سيف الدولة هي السماح له بقطع الممرات الصعبة في الجبال، والتحرش به في الداخل واشغاله حتى تتمكن قوات البند من الرجالة من الانتشار بالممرات الجبلية وإقامة كمائن، وفي طريق العودة كانت هذه القوات تعمل على حصر قوات سيف الدولة في الممرات وابادتها، هذا وتمركز في الجبال دوما قوات للانذار البيزنطي استخدمت المرايا العاكسة والنيران وشارات الدخان.
٥ ـ من المرجح أن تاريخ يحيى بن سعيد هو مصدر ابن العديم، انظر ص٧٨ ـ ٧٩.

له من الآلات، والأموال، مالايحصى حتى أنه ذكر أنه هلك منه من عرض ما كان معه في صحبته خمسة آلاف ورقة بخط أبي عبيد الله بن مقلة ـ رحمه الله ـ وكان منقطعاً إلى بني حمدان، وكان قد بلغ سيف الدولة إلى سمندو(١) وأحرق صارخة(٢) وخرشنة(٣).

ومنها: أنَّ سيف الدولة بنى مرعش في سنة إحدى وأربعين وثلاثمائة، وأتاه الدمستق بعساكر الروم ليمنعه منها فأوقع به سيف الدولة الوقعة العظيمة المشهورة(٤).

ومنها: أنَّ سيف الدولة دخل بلد الروم، في سنة اثنتين وأربعين وثلاثمائة، وأغار على زبطره(٥) والتقاه قسطنطين بن بَرْدَس الدّمستق على دَرْبِ مَوْزار(٦) وقتل من الفريقين خلق. ثمّ تم سيف الدولة إلى الفرات، وعبره، وقصد بطن هِنْزِيط(٧)، ودخل سيف الدولة سميساط(٨)، فخرج الدمستق إلى

١ ـ سمندو: بلد في وسط بلاد الروم في شمالي طريق مرعش إلى قيصرية. معجم البلدان.
٢ ـ ذكر ياقوت صارخة وأن سيف الدولة غزاها سنة ٣٣٩هـ.
٣ ـ خرشنة بلد قرب ملطية بين سيواس وقيصرية. معجم البلدان.
٤ ـ أفرد ابن العديم في بغية الطلب باباً لذكر مرعش، وذكر هذه الوقعة التي قال فيها المتنبي:
أتى مرعشاً يستقرب البعد مقبلا وأدبر إذ أقبلت يستبعد القربا
٥ ـ زبطرة: بلدة قريبة من الحدث، بينها وبين الحدث ثمانية عشر فرسخاً. بغية الطلب ج١ ص٢٤٧ ـ ٢٤٨.
٦ ـ على مقربة من ملطية. تاريخ يحيى بن سعيد ص٨٣. معجم البلدان.
٧ ـ من ثغور الروم، ورد ذكره في شعري المتنبي وأبي فراس. معجم البلدان.
٨ ـ مدينة صغيرة على الفرات ولها قلعة حصينة. بغية الطلب ج١ ص٢٥٨ ـ ٢٥٩.

ناحية الشام؛ فرجع سيف الدولة، فلحقَهُ وراء مرعش، فأوقع به، وهزم جيشه، وقتل لاون البطريق في الحرب، وأسر قسطنطين ولد الدمستق، وحمّله الإبريق إلى بيت الماء؛ وكان أمرد، فخرج فوجده قائماً يبكي، ولم يزل عنده حتى مات من علة اعتلها[1].

وكان الدمستق استتر في تلك الوقعة في القناة ودخل فترهب، ولبس المُسُوحَ؛ ففي ذلك يقول المتنبي:

فَلَوْ كَانَ يُنْجِي مِنْ «عَلِيٍّ» تَرَهبٌ   تَرَهَّبَتِ الأمْلاكُ مَثْنَى وَمَوْحَدَا[2]

وقال أَبو العباس أَحمدُ بنُ مُحَمَّدٍ النَامي[3]:

لَكِنَّهُ طَلَبَ التَّرَهُّبَ خِيفَةً   مِمَّنْ لَهُ تَتَقَاصَرُ الأعْمَارُ
فَمَكَانُ قَائِمِ سَيْفِهِ عُكَّازُهُ   وَمَكَانُ مَا يَتَمَنْطَقُ الزُّنَّارُ

١ ـ نقل ابن العديم في بغية الطلب ص٢٥٣٢ عن «تاريخ أبي اسحق ابراهيم بن حبيب السقطي صاحب كتاب الرديف في حوادث سنة اثنتين وخمسين وثلاثمائة في ذكر من توفي فيها قال: وفيها، أو في سنة ثلاث وخمسين مات أبو العشائر الحسين بن علي بن الحسين بن حمدان ببلد الروم في أسره مسموما، وكان السبب في سمه أن ملك الطاغية بلغه أن علي بن حمدان فسق بابن قسطنطين، كان في أسره فأنفذوا من بلد الروم من سمه فهلك، وسمّوا هم أبا العشائر بن حمدان حنقا لما جرى من قتلهم ابن قسطنطين». وجاء في الأعلاق الخطيرة لابن شداد ـ ط. دمشق ١٩٩١ ج١ ق٢ ص٣١٢ عن ابن أبي طي الحلبي: «أن قسطنطين المأسور كان في غاية الحسن، فبذل أبوه فيه ثمانمائة ألف دينار، وثلاثة آلاف أسير، فاشتط سيف الدولة، فسير الدمستق إلى عطار كان بحلب، نصرانيا، وأمره أن يسقي ولده سما ففعل فمات، وعدت هذه من غلطات سيف الدولة».

٢ ـ ديوان المتنبي ص٩٤.

٣ ـ أبو العباس أحمد بن محمد الدارمي، المعروف بالنامي، كان من خواص سيف الدولة، وعدّ بالمرتبة التالية للمتنبي. يتيمة الدهر ج١ ص٢٤١ ـ ٢٤٩.

وبنى سيف الدولة الحدث[١]، وقصده الدمستق بردس، فاقتتلا سحابة يومهما. وكان النصر للمسلمين، وذلك في سنة ثلاث وأربعين، وأسر صهر الدمستق على ابنته اعورجرم[٢]، بعد أن سلمها أهلها إلى الدمستق.

ومنها: أن سيف الدولة غزا سنة خمس وأربعين بطن هنزيط ونزل شاطىء أرسناس[٣]، وكبس يانس ابن شمشقيق[٤] على تل بطريق[٥] فهزمه وفتحها.

وقتل في هذه الوقعة رومانوس بن البلنطس صهر ابن شمشقيق، وأسر ابن قلموط[٦]، وانثنى سيف الدولة قافلاً إلى درب الخياطين[٧]، فوجد عليه

١ ـ وتعرف بالحدث الحمراء لحمرة أرضها، وهي مدينة كثيرة الماء والزروع. بغية الطلب ج١ ص٢٣٩.

٢ ـ في بغية الطلب ج١ ص٢٤٢: «وكان أسر قودس ـ أي Theodose الأعور بطريق سمندو وابن ابنة الدمستق» انظر أيضاً.

Cambridge Medieval History, Vol 4, PartI, PP 719–20.

٣ـ هو نهر «مرادصو» اليوم، ويعد من فروع الفرات، وقال عنه ياقوت. «نهر ببلاد الروم يوصف ببرودة مائه».

٤ ـ يوحنا تذمسيس، وكان من أصل أرمني، وهو بالأرمنية Gemezkig ومعناه «قصير القامة» أعلن امبراطورا سنة ٩٦٩م واستمر حتى سنة ٩٧٦م. أوربا العصور الوسطى لعاشور ـ ط. القاهرة ١٩٦٦ ص٤٢٣.

٥ ـ يقع تل بطريق على الطرف الغربي للفرات، بينه وبين الفرات ثلاثة فراسخ. معجم البلدان.

٦ ـ انظر نخب تاريخية وأدبية جامعة لأخبار الأمير سيف الدولة الحمداني، لموريس كنار ـ ط. الجزائر ١٩٣٤ ص٣٧٨.

٧ ـ حدده كنار ص١١٦ بأنه قريب من آمد.

كذو بن الدمستق فأوقع به وهزمه.

وخلف ابن عمه أبا العشائر الحسين بن عليّ عَلَى عمارة عرنداس فقصده ليون بن الدمستق فهزمه، وأسره، وحمله إلى قسطنطينية، فمات بها[١]. وغزا في هذه السنة في جمادى الآخرة مع أهل الثغور وخرب مواضع من بلاد الروم مثل خرشنة وصارخة. وأسر الرُست بن البلنطس؛ وأسر لاون بن الاسطراطيغوس ، وابن غُذال بطريق مقدونية؛ وهرب الدمستق وبركيل بطريق الخالديات؛ فلما قفل سيف الدولة فكَّ قيود الأسارى، وخلع عليهم، وأحسن إليهم[٢].

وفي جمادى الأولى من سنة ست وأربعين كاتب الروم جماعة من غلمان سيف الدولة بالقبض عليه، وحمله إلى الدمستق عند شخوصه لمحاربته؛ وبذل لهم مالاً عظيماً على ذلك. فخرج سيف الدولة عن حلب وقد عزموا على ذلك، فصار بعض الفراشين إلى ابن كيغلغ فأخبره بما عزموا عليه؛ فأعلم سيف الدولة، فجمع الأعراب والدّيلم؛ وقتل منهم مائة وثمانون غلاماً، وقبض على زهاء مائتي غلام، فقطع أيديهم وأرجلهم وألسنتهم، وهرب بعضهم.

وعاد إلى حلب وقتل من بها من الأسرى، وكانوا زهاء أربعمائة أسير؛

---

١ ـ لأبي العشائر ترجمة جيدة في بغية الطلب ص٢٥٢٧ ـ ٢٥٣٢ ، فيها تفاصيل ما أوجز هنا.
٢ ـ انظر تاريخ يحيى بن سعيد ص٨٧ .

وضيّق على ابن الدمستق، وزاد في قيده، وصيّره في حجرة معه في داره، وأحسن إلى ذلك الفراش، وقلّد ابن كيغلغ أعمالاً، وتنكر على سائر غلمانه.

ومنها: أن يانس بن شمشقيق خرج إلى ديار بكر، ونزل على حصن اليماني[1]. وعرف سيف الدولة خبره، فسيّر إليه نجا الكاسكي في عشرة آلاف فارس، فالتقاه فانهزم نجا، وقُتل من أصحابه خمسة آلاف فارس؛ وأُسر مقدار ثلاثة آلاف راجل؛ واستولى على سواد نجا كله.

وسار ابن شمشقيق والبراكموس[2] إلى حصن سميساط، وفتحاه؛ ثم سارا إلى رعبان[3]، وحصراها؛ وسار سيف الدولة إليهما، ولقيهما؛ فاستظهر الروم عليه استظهاراً كثيراً.

وعاد سيف الدولة منهزماً وتبعه الروم وقتلوا، وسبوا من عشيرته وقواده مايكثر عدده؛ وذلك في سنة سبع وأربعين وثلاثمائة[4].

وفي هذه السنة قدم ناصر الدولة الحسين بن عبد الله بن حمدان[5] أخو

١ ـ انظر تاريخ يحيى بن سعيد ص٨٨ . حيث قال: «ونزل على حصن يقال له اليماني من عمل آمد».

٢ ـ Basile le parakimaumene الابن الطبيعي للامبراطور رومانوس الثاني (٩٥٩ ـ ٩٦٣م) والذي سيكون الامبراطور باسيل الثاني سفاح البلغار [٩٧٦ ـ ١٠٢٥م].

٣ ـ رعبان مدينة صغيرة، قديمة البناء، ولها قلعة حسنة، بينها وبين الحدث سبعة فراسخ. بغية الطلب ج١ ص٢٥٩ ـ ٢٦٠ .

٤ ـ لمزيد من التفاصيل انظر تاريخ يحيى بن سعيد ص٨٨ ـ٨٩ .

٥ ـ لناصر الدولة ترجمة في بغية الطلب ص٢٤٣٣ ـ ٢٤٣٧ .

سيف الدولة مستنجداً بأخيه سيف الدولة إلى حلب ومعه جميع أولاده عندما قصد معز الدولة الموصل. وتلقاه سيف الدولة على أربع فراسخ من حلب، ولما رآه ترجل له. وأنفق سيف الدولة عليه وعلى حاشيته؛ وقدم لهم من الثياب الفاخرة والجوهر ماقيمته ثلاثمائة ألف دينار.

وكان يجلس ناصر الدولة على السرير؛ ويجلس سيف الدولة دونه. ولما دخل دار سيف الدولة وجلس على السرير؛ جاء سيف الدولة لينزع خفه من رجله؛ فمدَّهما إليه، فنزعهما بيده. وصعب على سيف الدولة لأنه قدّر أنه إذا خفض له نفسه إلى ذلك رفعه عنه، فلم يفعل ذلك إظهاراً لمن حضر أنه وإن ارتفعت حاله، فهو كالولد والتبع. وكان يعامله بأشياء نحو ذلك قبيحة كثيرة فيحتملها على دخن. وتحمل عنه سيف الدولة لمعز الدولة مائتي ألفاً من الدراهم حتى انصرف عنه[1].

وفي هذه السنة مات قسطنطين بن لاوي[2] ملك الروم، وصيّر نفقور بن الفقّاس دمستقاً على حرب المغرب، وأخاه ليون بن الفقاس دمستقاً على حرب المشرق؛ فتجهّز ليون إلى نواحي طرسوس[3]، وسبى، وقتل، وفتح

---

١ ـ لمزيد من التفاصيل انظر تاريخ يحيى بن سعيد ص٨٩ ـ ٩٠ . أخبار الدولة الحمدانية لعلي ابن ظافر الأزدي ـ ط. دمشق ١٩٨٥ ص١٨ ـ ١٩ .

٢ ـ هو عند يحيى بن سعيد ص٩١ «ابن لاون».

٣ ـ ماتزال طرسوس تحمل الاسم نفسه في تركيه، وكانت أهم مدن الثغور، «بها كان يقوم سوق الجهاد، وينزلها الصالحون والعبّاد، ويقصدها الغزاة من سائر البلاد». اهتم بها ابن العديم وأودع كتابه بغية الطلب مواداً ثمينة عنها ج١ ص١٧٥ ـ ٢٠٤ .

الهارونيّة[١]، وسار إلى ديار بكر.

وتوجّه إليه سيف الدولة فرحل الدمستق راجعاً إلى الشام؛ وقتل من أهله عدداً متوافراً، وأخرب حصوناً كثيرة من حصون المسلمين؛ وأسر محمد بن ناصر الدولة.

ومنها: غزوة مغارة الكُحل[٢]: غزا سيف الدولة في سنة ثمان وقيل تسع وأربعين وثلاثمائة بلاد الروم، فقتل، وسبى. وعاد غانماً يريد درب مغارة الكحل؛ فوجد ليون بن الفقاس الدّمستق قد سبقه إليه، فتحاربوا؛ فغُلب سيف الدولة. وارتجع الروم ماكان أخذه المسلمون؛ وأخذوا خزانة سيف الدولة وكراعه وقُتل فيها خلق كثير.

وأُسر أبو فراس الحارث بن سعيد بن حمدان وترك بخرشنة. وأُسر علي بن منقذ بن نصر الكناني فلم يؤخذ له خبر. وأُسر مطر بن البلدي، وقاضي حلب أبو حصين الرقي، وقتلا. وقيل: إنَّ أبا حصين قُتل في المعركة فداسه سيفُ الدولة بحصانه، وقال: «لارضي الله عنك، فإنَّك كنتَ تفتحُ لي أبوابَ الظلم». وقيل: إنهم لما أخذوا الطرق على سيف الدولة وثب به حصانه عشرين ذراعاً. وقيل: أربعين؛ فنجا في نفر قليل.

وولى سيف الدولة، بعد قتل أبي حصين، أحمد بن محمد بن ماثل

١ ـ الهارونية حصن صغير غربي جبل اللكام، بناه هارون الرشيد. بغية الطلب ج١ ص٢١٩ .

٢ ـ في تاريخ يحيى بن سعيد ص٩٤ «مغارة الكحك» ويستدل من روايته أن هذا الموقع كان على مقربة من المصيصة.

قضاء حلب، وكان قد عزله بأبي حصين حين ملك. وذلك أنه لما قدم حلب خرج للقائه أبو طاهر بن ماثل فترجل له أهل حلب، ولم يترجل القاضي لأحد، فأغتاظ سيف الدولة وعزله.

ثم قدم سيف الدولة من بعض غزواته فترجل له ابن ماثل مع الناس. فقال له: «ماالذي منعك أولاً، وحملك ثانياً؟». فقال له: «تلك المرة لقيتُك وأَنا قاضي المسلمين، وهذه الدفعة لقيتُك، وأَنا أَحد رعاياك». فاستحسن منه ذلك.

فلما قتل أَبو حصين أعاده إلى القضاء. وولّى سيف الدولة أَيضاً قضاء حلب أَبا جعفر أَحمد بن اسحاق بن محمد بن يزيد بن الحلبي المعروف بالجرد، وكان حنفي المذهب.

ونقل الملك رومانوس إلى حرب المشرق نقفور بن الفقاس الدمستق؛ فسار إليه رشيق النسيمي أَمير طرسوس في حمّية من المسلمين؛ فبرز إليه نقفور فقاتله؛ وانهزم رشيق وقُتل من المسلمين زهاء تسعة آلاف رجل[1].

وعاد نقفور فضايق عين زربه[2] وفتحها بالأمان في ذي القعدة سنة خمسين وثلاثمائة؛ وهدم سورها فانهزم أهلها إلى طرسوس. وفتح حصن دلوك، ومرعش، ورعبان، في سنة إحدى وخمسين وثلاثمائة[3].

---

١ ـ لرشيق النسيمي ترجمة غنية بالمعلومات في بغية الطلب ص٣٦٥٦ ـ ٣٦٥٨.
٢ ـ مدينة من الثغور الشامية، بينها وبين المصيصة ثمانية عشر ميلا. بغية الطلب ج١ ص١٦٧.
٣ ـ لمزيد من التفاصيل انظر تاريخ يحيى بن سعيد ص٩٦ ـ ٩٧.

ثم إنّ نقفور بن الفقاس الدمستق ويانس بن شمشقيق قصدا مدينة حلب في هذه السنة، وسيف الدولة بها، وكانت موافاتُها كالكبسة. وقيل: إنَّ عدة رجاله مائتا ألف فارس، وثلاثون ألف راجل بالجواشِن، وثلاثون ألف صانع للهدم وتطريق الثلج، وأربعة آلاف بغل عليها حسك حديد يطرحه حول عسكره ليلاً.

ولم يشعر سيف الدولة بخبرهم، حتى قربوا منه. فأنفذ إليهم سيف الدولة غلامه «نجا» في جمهور عسكره، بعد أن أشار عليه ثقاته ونصحاؤه بأن لايفارق عساكره. فأبى عليهم ومضى نجا بالعسكر إلى الأثارب[١]. ثم توجه منها داخلاً إلى أنطاكية فخالفه عسكر الروم؛ ووصل إلى دلوك؛ ورحل منها إلى تل حامد[٢]، ثم إلى تُبَّل[٣].

واتصل خبره بسيف الدولة فعلم أنه لايطيقه مع بُعد جمهور العسكر عنه، فخرج إلى ظاهر حلب وَجَمَع الحلبيين وقال لهم: «عساكر الروم تصل اليوم، وعسكري قد خالفها؛ والصواب أَن تغلقوا أبواب المدينة، وتحفظوها؛ وأمضي أنا ألتقي عسكري، وأعود إليكم وأكون من ظاهر البلد، وأنتم من باطنه، فلا يكون دون الظفر بالروم شيء».

---

١ ـ تعرف الآن بالأتارب، وهي بلدة ومركز ناحية تتبع منطقة جبل سمعان وتبعد عن حلب ٣٠كم نحو الجنوب الغربي. المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري.

٢ ـ تل حامد المذكور هنا واقع إلى الجنوب من دلوك. نخب تاريخية لكنار ص٣٨٤ .

٣ ـ تبل من قرى عزاز وتبعد عنها ٨كم. انظرها في معجم البلدان.

فأبى عامة الحلبيين وغوغاؤهم، وقالوا: «لاتحرمنا أيها الأمير، الجهاد؛ وقد كان فينا من يعجز عن المسير إلى بلد الروم للغزو، وقد قربت علينا المسافة». فلما رأى امتناعهم عليه، قال لهم: «اثبتوا فإنّي معكم».

وكان سيف الدولة على بانقوسا[1]، ووردت عساكر الروم إلى الهزازة[2]، فالتقوا فانهزم الحلبيون، وقُتل وأسير منهم جماعة كثيرة وقُتل أبو داود بن حمدان، وأبو محمد الفياضي كاتب سيف الدولة[3]، وبشرى الصغير غلام سيف الدولة؛ وكان أسْنَدَ الحرب ذلك اليوم إليه، وجعله تحت لوائه.

ومات في باب المدينة المعروف بباب اليهود[4] ناس كثير لفرط الزحمة. وكان سيف الدولة راكباً على فرس له يعرف بالفَحّى؛ فانهزم مشرقاً حتى بعد عن حلب. ثم انحرف إلى قنّسرين فبات بها.

وأقام الروم على ظاهر البلدة أربعة أيام محاصرين لها، فخرج شيوخُ حلب إلى نقفور يسألونه أن يهب لهم البلد، فقال لهم: «تُسلّمون إليَّ ابنَ

---

١ ـ بانقوسا الآن من أحياء حلب، وقال عنها ياقوت: جبل في ظاهر مدينة حلب.

٢ ـ الهزازه الآن من أحياء الشمال الغربي من حلب.

٣ ـ له ترجمة في يتيمة الدهر، حيث قال عنه الثعالبي: أبو محمد عبد الله بن عمرو بن محمد الفياض، كاتب سيف الدولة ونديمه، أخذ بطرفي النظم والنثر، وكان سيف الدولة لايؤثر عليه في السفارة إلى الحضرة أحداً، لحسن عبارته وقوة بيانه، ونفاذه في استغراق الأغراض، وتحصيل المراد. يتيمة الدهر ج١ ص١١٧ ـ ١١٩.

٤ ـ هو الباب الشمالي لمدينة حلب، سمى بذلك لأن محال اليهود كانت من داخله، غيره السلطان الملك الظاهر غازي ابن صلاح الدين، وإثر ذلك «سمي الباب باب النصر، ومحي عنه اسم باب اليهود» بغية الطلب ج١ ص٥٥.

حمدان». فحلفوا أن، ابن حمدان ما هو ف البلد. فلما علم أن سيف الدولة غائب عنها طمع فيها وحاصرها.

وقيل: إنَّ نقفور خرج إليه شيوخُ حلب باستدعاءٍ منه لهم، يوم الاثنين الثاني والعشرين من ذي القعدة من السنة. وكان نزوله على المدينة، يوم السبت العشرين من ذي القعدة. وجرى بينه وبينهم خطابٌ آخره على أن يؤمنهم، ويحملوا إليه مالاً، ويمكِّنوا عسكره أن يدخل من باب ويخرج من آخر، وينصرف عنهم عن مقدرة. فقالوا له: «تمهلنا الليلة حتى نتشاور، ونخرج غداً بالجواب». ففعل، ومضوا، وتحدّثوا، وخرجوا بكرة الثلاثاء إليه، فأجابوه إلى ماطلب. فقال لهم نقفور: «أظنكم قد رتبتم مقاتلتكم في أماكن مختفين بالسلاح حتى إذا دخل من أصحابي من يمكنكم أن تطبقوا عليه وتقتلوه فعلتم ذلك». فحلف له بعضهم من أهل الرأي الضعيف أنه مابقي بالمدينة من يحمل سلاحاً، وفيه بطش، فكشفهم نقفور عند ذلك، فعند ذلك قال لهم: «انصرفوا اليوم واخرجوا إليَّ غداً»؛ فانصرفوا.

وقال نقفور لأصحابه: «قد علمتم أنه مابقي عندهم من يدفع، فطُوفوا الليلة بالأسوار ومعكم الآلة، فأي موضع رأيتموه ممكناً فتسوَّروا إليه، فانكم تملكون الموضع.

فطافوا، وكتموا أمرهم، وأبصروا أقصر سور فيها مما يلي الميدان بباب قنّسرين، فركبوه، وتجمعوا عليه؛ وكان وقت السحر، وصاحوا، ودخلوا المدينة.

وقيل: إنَّ أَهل حلب قاتلوا من وراء السور، فقُتل جماعة من الروم بالحجارة والمقالع؛ وسقطت ثلمةٌ من السور على قوم من أهل حلب فقتلتهم. وطمع الروم فيها فأكبوا عليها، ودفعهم الحلبيون عنها؛ فلما جنّهم الليل اجتمع عليها المسلمون، فبنوها، فأصبحوا وقد فرغت، فَعَلَوْا عليها وكبّروا؛ فبعُد الروم عن المدينة إلى جبل جوشن[1].

فمضى رجّالة الشرط وعوام الناس إلى منازل الناس، وخانات التجار، لينهبوها. فاشتغل شيوخ البلد عن حفظ السور، ولحقوا منازلهم. فرأى الروم السور خالياً فتجاسروا، ونصبوا السلالم على السور، وهدموا بعض الأبدان، ودخلوا المدينة من جهة برج الغنم، ليلة الثلاثاء لثمان بقين من ذي القعدة من سنة إحدى وخمسين. وقيل: يوم الثلاثاء آخر ذي القعدة، في السحر.

وأَخذ الدمستق منها خلقاً من النساء والأطفال؛ وقتل معظم الرجال، ولم يسلم منه إلا من اعتصم بالقلعة من العلويين، والهاشميين والكُتّاب، وأَرباب الأموال. ولم يكن على القلعة يومئذ سورٌ عامرٌ فإنها كانت قد تهدّمت، وبقي رسومها. فجعل المسلمون الأكُف[2] والبراذع بين أيديهم.

وكانت بها جماعة من الديلم الذين ينسب إليهم درب الدّيلم[3]

١ ـ جبل جوشن في ظاهر حلب غربيها.
٢ ـ جمع أكاف، أي البراذع.
٣ ـ على مقربة من باب الجامع الشرقي. الأعلاق الخطيرة ج١، ق١، ص٣٤٤.

بحلب، فزحف إليها ابن أخت الملك، فرماه ديلميّ فقتله فطلبه من الناس فرموه برأسه، فقَتل عند ذلك من الأسرى اثني عشر ألف أسير. وقيل أكثر من ذلك، وقيل أقلّ؛ والله أعلم.

وأقام نقفور بحلب ثمانية أيام ينهب، ويقتل، ويسبي باطناً وظاهراً. وقيل: إنَّه أخرب القصر الذي أنشأه سيف الدولة بالحلبة، وتناهى في حسنه، وعمل له أسواراً، وأجرى نهر قويق فيه من تحت الخناقية[1]، يمر من الموضع المعروف بالسقايات حتى يدخل في القصر من جانب، ويخرج من آخر، فيصب في المكان المعروف بالفَيْض[2]، وبنى حوله اصطبلاً ومساكن لحاشيته.

وَقِيل: إنَّ ملك الروم وجد فيه لسيف الدولة ثلاثمائة وتسعين بدرة دراهم؛ ووجد له ألفاً وأربعمائة بغل، فأخذها. ووجد له من خزائن السلاح ما لايحصى كثرة فقبض جميعَها، وأحرق الدار فلم تعمر بعد ذلك؛ وآثارها إلى اليوم ظاهرة.

ويقال: إنَّ سيف الدولة رأى في المنام أَنَّ حيَّةً قد تطوقتْ على داره فعظُم عليه ذلك، فقال له بعض المفسرين: الحيّة في النوم ماء. فأمر بحفرٍ يُحْفَرُ بين داره وبين قويق، حتى أدار الماء حول الدار.

وكان في حمص رجل ضرير من أهل العلم يفسر المنامات، فدخل على

---

١ ـ من منتزهات حلب، وسلفت الاشارة إلى تحديد مكان قصر سيف الدولة في أنه حيث مركز انطلاق السفريات إلى المحافظات.

٢ ـ من منتزهات حلب. تاريخ حلب لابن الشحنه ـ ط. طوكيو ١٩٩٠ ص٢٤٥ .

سيف الدولة فقال له كلاماً معناه: أنّ الروم تحتوي على دارك. فأمر به فدفع، وأُخرج بعنف. وقضى الله سبحانه أنّ الروم خرجوا، ففتحوا حلب، واستولوا على دار سيف الدولة، فذكر معبّر المنام أنه دخل على سيف الدولة بعدما كان من أمر الروم، فقال له: ماكان من أمر ذلك المنام الملعّن؟.

وكان المعتصمُون بالقلعة والروم بالمدينة تحت السماء ليس لهم ما يظلهم من الهواء والمطر، ويتسلّلون في الليل إلى منازلهم فإن وجدوا شيئاً من قوت أو غيره أخذوه وانصرفوا.

ثم ان نقفور أحرق المسجَد الجامعَ وأكثرَ الأسواق، والدارَ التي لسيف الدولة، وأكثرَ دور المدينة. وخرج منها سائراً إلى القسطنطينية بعد أن ضرب أعناق الأسارى من الرجال، حين قتل ابن أُخت الملك؛ وكانوا ألفاً ومائتي رجل[1].

وسار بما معه ولم يعرض لسواد حلب والقرى التي حولها. وقال: «هذا البلد قد صار لنا، فلا تقصروا في عمارته؛ فَإنّا بعد قليل نعود إليكم».

وكان عدة من سبى من الصبيان والصبايا بضعة عشر ألف صبي وصبية؛ وأخذهم معه.

وقيل: إنَّ جامع حلب كان يُضاهي جامع دمشق في الزخرفة والرخام والفسيفساء ـ وهي الفص المذهب ـ إلى أن أحرقه الدمستق ـ لعنه الله ـ وإنَّ

١ ـ تاريخ يحيى بن سعيد ص٩٧ ـ ٩٩.

سليمان بن عبد الملك اعتنى به كما اعتنى أخوه الوليد بجامع دمشق[١].

وسار الدمستق عنها، يوم الأربعاء مستهل ذي الحجة من سنة إحدى وخمسين وثلاثمائة.

واختلف في السبب الذي أوجب رحيل نقفور عن حلب، فقيل: إنه ورد إليه الخبر أن رومانوس الملك وقع من ظهر فرسه في الصيد بالقسطنطينية، وانهم يطلبونه ليملكوه عليهم.

وقيل: سبب رحيله أن نجا عاد بجمهور العسكر إلى الأمير سيف الدولة فاجتمع به. وجعل يُواصل الغارات على عسكر الروم، وتبلغ غاراته إلى السَعْدِي[٢]؛ وأنه أخذ جماعة من متعلفة الروم. واستنجد سيفُ الدولة بأهل الشام، فسار نحوه ظالم بن السلال العقيلي[٣] في أهل دمشق؛ وكان يليها من قبل الإخشيذية. فكان ذلك سبباً لرحيله عن حلب.

وكان هذا نقفور بن الفقاس الدمستق، قد دوّخ بلاد الإسلام، وانتزع من أيدي المسلمين جملة من المدن، والحصون، والمعاقل؛ فانتزع الهارونية،

---

١ ـ نقل ابن شداد في الأعلاق الخطيرة ج١ ق١ ص١٠٣ ـ ١٠٥ عن ابن العديم وصف المسجد الجامع في حلب.

٢ ـ من منتزهات حلب. ابن الشحنة ص٢٤٥ .

٣ ـ يرجح أن المشار إليه هنا هو ظالم بن موهوب العقيلي الذي ولي دمشق للفاطمين سنة ٣٦٠هـ، حيث يبدو أنه عمل من قبل مع الاخشيذية ثم تعاون مع القرامطة. انظر تاريخ دمشق لابن القلانسي ـ تحقيقي ـ ط. دمشق ١٩٨٣ ص٩ .

وعين زربه ـ كما ذكرناه ـ وكذلك دلوك، وأذنة[1]، وغير ذلك من الثغور.

ونزل على أذنه في ذي الحجة من سنة اثنتين وخمسين، ولقيه نفير طرسوس فهزمهم وقتل منهم مقدار أربعة آلاف، وانهزم الباقون إلى تلّ بالقرب من أذنة؛ فأحاط الروم بهم وقاتلوهم وقتلوهم بأسرهم.

وهرب أهل أذنة إلى المَصِّيصَة[2] وحاصرها نقفور مدة فلم يقدر عليها بعد أن نقب في سورها نقوباً عدة. وقلت الميرة عندهم فانصرف، بعد أن أحرق ماحولها.

وورد في هذا الوقت إلى حلب انسان من أهل خراسان ومعه عسكر لغزو الروم؛ فاتفق مع سيف الدولة على أن يقصدا نقفور وكان سيف الدولة عليلاً فحمل في قبّة؛ فألفياه وقد رحل عن المصّيصة.

وتفرقت جموع الخراساني لشدة الغلاء في هذه السنة بحلب والثغور؛ وعظم الغلاء والوباء في المصيصة وطرسوس حتى أكلوا الميتة.

وعاد نقفور إلى المصيصة وفتحها بالسيف في رجب سنة أربع وخمسين وثلاثمائة. وفتح أيضاً كَفَرْبَيَّا في هذه السنة ومرعش. وفتح طرسوس من أيدي المسلمين في شعبان سنة أربع وخمسين وثلاثمائة[3].

---

١ ـ هي أضنه الحالية في تركيا، أفرد لها ابن العديم بابا في كتابه بغية الطلب ج١ ص١٦٩ ـ ١٧١.

٢ ـ من مدن الثغور، تشتمل على مدينتين بينهما نهرجيجان: مدينة المصيصة من الجانب الغربي من النهر، ومدينة كفربيا من الجانب الشرقي. بغية الطلب ج١ ص١٥٣ ـ ١٦١.

٣ ـ المادة التي رواها ابن العديم عن سقوط طرسوس وثائقية آخرها: «أن نقفور لما صالح أهل =

وكان المسلمون يخرجون في كل سنة ويزرعون الزرع فيأتي بعساكره فيفسده.

فضعفت، وتخلّى ملوك الإسلام عن أَهل الرباط بها؛ وكان فيها فيما ذكر أَربعون أَلف فارس، وفي عتبة بابها أَثر الأسنَّة إلى اليوم. فلما رأَى أَهلها ذلك راسلوا نقفور المذكور، فوصل إليهم، وأجابوه إلى التسليم. وقال لهم: «إنّ كافوراً الخادم قد أرسل إليكم غلة عظيمة في المراكب، فان اخترتم أَن تأخذوها وأنصرفُ عنكم، في هذه السنة، فعلتُ». فقالوا: لا. واشترطوا عليه أَن يأخذوا أَموالهم. فأجابهم إلى ذلك إلا السلاح.

ونصب رمحين جعل على أحدهما مصحفاً، وعلى الآخر صليباً. ثم قال لهم: «من اختار بلد الاسلام فليقف تحت المصحف؛ ومن اختار بلد النصرانية فليقف تحت الصليب». فخرج المسلمون فحزروا بمائة ألف مابين رجل وأمرأَة وصبي؛ وانحازوا إلى أَنطاكية.

ودخل نقفور إلى طرسوس، وصعد منبرها، وقال لمن حوله: «أَين أَنا؟» فقالوا: «على منبر طرسوس» فقال: «لا؛ ولكّني على منبر بيت المقدس؛ وهذه كانت تمنعكم من ذلك».

= طرسوس، وخرجوا منها وتسلمها صعد على منبرها وقال: يامعشر الروم أين أنا؟ قالوا: على منبر طرسوس، فقال: لا بل أنا على منبر بيت المقدس، وهذه البلدة التي كانت تمنعكم من بيت المقدس» وجعلت الروح الدينية المتعصبة التي أظهرتها حملات نقفور والذين تقدموه المؤرخين يطلقون عليها اسم صليبية القرن العاشر. بغية الطلب ج١ ص١٩٤ ـ ١٩٧ .

واستولى بعد موت سيف الدولة في سنة سبع وخمسين على كفر طاب، وشيزر، وحماة، وعِرْقَة[1]، وجبلة، ومعرّة النعمان، ومعرة مصرين، وتيزين[2]، ثم فتح أَنطاكية في سنة ثمان وخمسين؛ على مانذكره بعدُ ـ إن شاء الله تعالى.

وصارت وقعاته للروم والنصارى كالنُزَه والأعياد. وحكم في البلاد حكم ملوك الروم. ولما رجع عن حلب سار إلى القسطنطينية مغذاً، فدخلها في صفر سنة اثنتين وخمسين وثلاثمائة؛ فوجد رومانوس قد مات وجلس في الملك ولداه باسيل وقسطنطين وهما صبيان ووالدتهما «تفانو»[3] تدبرهما.

فلما وصل نقفور سلّموا الأمر إليه فدبّرهما مدة. ثم رأى أنَّ استيلاءه على الملك أصوب، وأَبلغ في الهيبة فلبس الخف الأحمر، ودعا لنفسه بالملك، وتحدَّث مع البطريرك في ذلك، فأشار عليه أن يتزوج تفانو أم الصبيَّين، وأن يكون مشاركاً لهما في الملك؛ فاتفقوا على ذلك وألبسوه التاج.

ثم خافت على ولديها منه؛ فأعملت الحيلة، ورتّبتْ مع يانس بن شمشقيق أن تتزوج به. وبات نقفور في البلاط في موضعه الذي جرت عادته به. فلما ثقل في نومه أدخلت يانس ومعه جماعة، وشكلت رجل نقفور. فلما

١ ـ عرقة: بلدة في شرقي طرابلس بينها أربعة فراسخ. معجم البلدان.

٢ ـ تيزين الآن خربة أثرية في جبل باريشا تتبع منطقة حارم، محافظة أدلب، تشرف على سهل العمق، مهجورة منذ قرون طويلة. المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري.

٣ ـ أرخ لهذه الأحداث وما تلاها المؤرخ البيزنطي ميخائيل بزللوس Michael Psellus الذي ترجم كتابه إلى الانكليزية وطبع تحت عنوان «أربعة عشر حاكم بيزنطي» لندن ١٩٦٦.

دخل يانس قام نقفور من نومه ليأخذ السيف فلم يستطع فقتله. ولم يتزوَّج بها يانس خوفاً منها.

ونعود إلى بقية أخبار سيف الدولة:

فإنه لما رحل الروم عن حلب، عاد إليها ودخلها في ذي الحجة سنة إحدى وخمسين وثلاثمائة. وعمر ماخرب منها؛ وجدّد عمارة المسجد الجامع؛ وأَقام سيف الدولة إلى سنة أَربع وخمسين وثلاثمائة.

وسار إلى ديار بكر بالبطارقة الذين كانوا في أَسره ليفادي بهم؛ وأَخذهم نجا، وسار إلى ميافارقين فاستولى عليها.

فلما وصل سيف الدولة قال: «أروني نجا»؛ فأروه أيَّاه على برج، فوقف تحته، وقال: «يانجا» فقال: «لبيك يامولانا» فقال: «انزل». فنزل في الوقت، وخدمه على رسمه، وخلع عليه، وسلم إليه البلد والبطارقة. وقُتل نجا، قتله غلامٌ لسيف الدولة اسمه قبجاج بحضرته؛ وكان سيف الدولة عليلاً، فأمر به فقُتل قبجاج في الحال.

وسار سيف الدولة بالبطارقة إلى الفداء، ففدى بهم أَبا فراس ابن عمه، وجماعة من أَهله، وغلامه «رقطاش»، ومن كان بقي من شيوخ الحمصيين والحلبيين . ولما لم يبق معه من أَسرى الروم أَحد اشترى بقية المسلمين من العَدوّ كل رجل باثنين وسبعين ديناراً؛ حتى نفد ماكان معه من المال. فاشترى الباقين ورهن عليهم بدنَته الجوهر المعدومة المثل وكاتبه أبا

القاسم الحسين بن علي المغربي جد الوزير[1]، وبقي في أيدي الروم إلى أن مات سيف الدولة، فحمل بقية المال وخلّص ابن المغربي.

ولما توجّه سيف الدولة إلى الفداء ولّى في حلب غلامه وحاجبه قرغويه الحاجب في سنة أربع وخمسين، فخرج على أعمال سيف الدولة مروان العقيلي، وكان من مستأمنة القرامطة.

وكان مروان مع سيف الدولة حين توجّه إلى آمد. وأقام سيف الدولة بكل مايحتاج إليه عسكره، وأنفذ إليه ملك الروم هدية سنيّة، فقتل مروانُ القرمطيُّ رجلاً من أصحاب الرسول، فتلافى سيف الدولة ذلك؛ وسيَّر إلى ملك الروم هديَّة سنيَّة؛ وأفرد دية المقتول؛ واعتذر أن مروان فعل ذلك على سكر، فرد الهدية والتمس إيفاد القاتل، ليقيده به أو يصفح عنه؛ فلم يفعل؛ وانتقضت الهدنة؛ وكان ذلك في سنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة. وولّى بعد ذلك مروان السواحل.

فلما توجّه سيف الدولة إلى الفداء سار إلى ناحية حلب، فأنفذ إليه قرغُويه غلاماً له اسمه بدر فالتقيا غربي كفرطاب؛ فأخذه مروان أسيراً؛ وقتله صبراً؛ وكسر العسكر وملك حلب. وكتب إلى سيف الدولة بأنه من قَبِلِه، فسكن إلى ذلك، وأخذ مروان في ظلم الناس بحلب، ومصادرتهم. فلم تطل مدته؛ وتوفي سنة أربع وخمسين وثلاثمائة، من ضربة ضربه بها بدر

١ ـ ترجم ابن العديم للحسين بن علي بن محمد المغربي، ورجح أنه توفي في حياة سيف الدولة، وأن ابنه علي حل محله. بغية الطلب ٢٥٣٢ ، ٢٧٠٢ ـ ٢٧٠٦ .

حين التقيا بلتّ[1] في وجهه. وعاد الحاجب قرغويه إلى خلافة سيف الدولة.

وكان بأنطاكية رجل يقال له الحسن بن الأهوازي يضمن المستغلات لسيف الدولة، فاجتمع برجل من وجوه أهل الثغر يقال له رشيق النسيمي ـ وكان من القواد المقيمين بطرسوس ـ فاندفع إلى أنطاكية حين أخذ الروم طرسوس، وتولى تدبير رشيق وأطمعه في أن سيف الدولة لايعود إلى الشام. فطمع واتفق مع ملك الروم على أن يكون في حيزه، ويحمل إليه عن أنطاكية في كل سنة ستمائة ألف درهم.

وكان بأنطاكية من قبل سيف الدولة تنج[2] اليمكي أو الثملي؛ فسار رشيق[3] نحوه، فوثب أهل أنطاكية على تنج؛ فأخرجوه؛ وسلموا البلد إلى رشيق. فأطمع ابن الأهوازي رشيقاً بملك حلب، لعلمه بضعف سيف الدولة، واشتغاله بالفداء. وعمل له ابن الأهوازي كتاباً ذكر أنه من الخليفة ببغداد، بتقليده أعمال سيف الدولة، فقُرىء على منبر أنطاكية.

واجتمع لابن الأهوازي جملة من مال المستَغَلّ، وطالب قوماً بودائع ذكر أنها عندهم، واستخدم بتلك الأموال فرساناً ورجالة؛ واستأمن إليه دزبر بن أونيم الديلمي[4] وجماعة من الديلم الذين كانوا مع الحاجب قرغويه بحلب.

١ ـ اللتب بالفارسية: عمود، مطرقة، هراوة، فأس.
٢ ـ هو في تاريخ يحيى بن سعيد «فتح» ص١٠٨.
٣ ـ لرشيق ترجمة مفيدة المعلومات في بغية الطلب ص٣٦٥٦ ـ ٣٦٥٨.
٤ ـ لدزبر بن أونيم ترجمة غنية في بغية الطلب ص٣٤٩٥ ـ ٣٤٩٦.

فحصل مع رشيق نحو خمسة آلاف رجل، فسيّر إليه الحاجب غلامه يُمن في عسكر. فخرج إليه رشيق من أنطاكية، والتقوا بأرتاح[1]؛ فاستأمن يُمن إلى رشيق؛ ومضى عسكره إلى حلب، وتوجّه رشيق إلى حلب، ونازل حلب، وزحف على باب اليهود، فخرج إليه بشارة الخادم في جماعة؛ فقاتل إلى الظهر؛ وانهزم بشارة ودخل من باب اليهود؛ ودخلت خيل رشيق خلفه.

واستولى رشيق على المدينة في اليوم الأول من ذي القعدة سنة أَربع وخمسين وثلاثمائة. ونادوا بالأمان للرعية؛ وقرأوا كتاباً مختلقاً عن الخليفة بتقليد رشيق أَعمال سيف الدولة؛ وأَقام رشيق يقاتل القلعة ثلاثة أَشهر وعشرة أَيام. وفُتح باب الفرج[2]؛ ونزل غلمان الحاجب من القلعة فحملوا على أَصحاب رشيق، فهزموهم، وأَخرجوهم من المدينة. فركب رشيق ودخل من باب أنطاكية، فبلغ إلى القلانسيين؛ وخرج من باب قنّسرين، ومضى إلى باب العراق. فنزل غلمان الحاجب، وخرجوا من باب الفرج وهو الباب الصغير.

ووقع القتال بينهم وبين أَصحاب رشيق، فطعن ابنُ يزيد الشيباني[3]

---

١ - أرتاح: حصن منيع كان من العواصم من أعمال حلب. معجم البلدان.

٢ - قال ابن العديم: «وكان لحلب باب يقال له باب الفرج إلى جانب حمام القصر، كان إلى جانبه القصر المشهور الذي يلي قلعة حلب، فخربه الملك الظاهر» بغية الطلب ج١ ص٥٧ .

٣ - هو في بغية الطلب ص٣٦٥٧ «أبو يزيد الشيباني» «وقيل إن أبا يزيد طعن رشيقاً فوقع إلى الأرض، وضربه حسنش الديلمي واحتز رأسه عبد الله التغلبي».

رشيقاً فرماه؛ وكان ممن استأمن من عسكر سيف الدولة إلى رشيق؛ وأخذ رأسه، ومضى به إلى الحاجب قرغُويه، وعاد الحاجب إلى حالته في خلافة الأمير سيف الدولة.

وعاد عسكر رشيق إلى أنطاكية فرأسوا عليهم دَزبر بن أونيم الديلمي، وعقدوا له الإمارة، واستوزر أبا علي بن الأهوازي، وقبل كل من وصل إليه من العرب والعجم.

وسار إليه الحاجب قرغُويه إلى أنطاكية، فأوقع به دَزبر، ونهب سواده، وانهزم قرغُويه وقد استأمن أكثر أصحابه إلى دَزبر، فتحصّن بقلعة حلب، وتبعه دَزبر فملكها في جمادى الأولى من سنة خمس وخمسين وثلاثمائة.

وأقام بها وابن الأهوازي بعسكره في حاضر قنّسرين، وجمع إليه بني كلاب، وجبى الخراج من بلد حلب وحمص؛ وفوّض إلى القضاة، والولاة، والشيوخ، والعمال الأعمال والولايات.

وجاء سيف الدولة فدخل حلب وعسكره ضعيفٌ فبات بها وخرج إلى دَزبر وابن الأهوازي. وكان سيف الدولة قد فُلج وبطل شقه الأيسر فالتقوا شرقي حلب بـ «سبعين»[1].

فغدرت بنو كلاب بدَزبر وابن الأهوازي حين نظروا إلى سيف الدولة؛

١ ـ اسمها الآن تل سبعين، وهي قرية من سبخة الجبول. المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري. وانظر أيضاً بغية الطلب ص١٩٥٦ ـ ١٩٥٧.

واستأمنوا إليه، فآمنهم؛ ووضع السيف في عسكر دَزبر وضع مُحْنَقٍ مغيظ؛ فقَتل جمعاً كثيراً، وأَسر خلقاً، فقتلهم صبراً. وكان فيهم جماعة ممن اشتراه بماله من الروم، فسبقوه إلى الشام، وقبضوا الرزق من ابن الأهوازي، وجعلوا يقاتلونه، فما أبقى على أَحد منهم. وحصل دَزبر وابن الأهوازي في أَسره. فأما دَزْبَر فقتله ليومه؛ وأَما ابن الأهوازي فاستبقاه أَياماً ثم قتله.

ثم إنّ سيف الدولة قويت علَّته بالفالج، وكان بشيزر، فوصل إلى حلب فأَقام بها يومين أَو ثلاثة. وتوفي يوم الجمعة العاشر من صفر من سنة ست وخمسين وثلاثمائة[1]. وقيل: تُوفي بعسر البول وحُمِل تابوته إلى ميافارقينْ فدفن بها في تربته.

وكان على قضاء حلب إذ ذاك ـ في غالب ظني ـ أَبو جعفر أَحمد بن اسحاق بن محمد بن يزيد الحنفي، بعد أَحمد بن محمد بن ماثل.

ويُنسب إلى سيف الدولة أشعار كثيرة، لايصح منها له غير بيتين، ذكر أَبو القاسم الحسين بن علي المغربي كاتبه ـ وهو جدّ الوزير أَبي القاسم المغربي ـ أَنهما لسيف الدولة. ولم يعرف له غيرهما. وكتب بهما إلى أَخيه ناصر الدولة وقد مدَّ يده إلى شيء من بلاده المجاورة له، من ديار بكر، وكانت في يد أَخيه:

لَسْتُ أَجفو وإن جُفِيتُ ولا أَتـ ـرِكُ حقاً عَلَيَّ في كل حالِ

١ ـ بهامش الأصل: وفات سيف الدولة سنة ٣٥٦، ٩٥٦.

إنَّما أَنتَ والدٌ والأبُ الجا في يُجَازى بالصبر والإحتمالِ

ووزر لسيف الدولة أَبو اسحاق القراريطي[١]؛ ثم صرفه وولى وزارته أَبا عبد الله محمد بن سليمان بن فهد؛ ثم غَلَبَ على أَمره أَبو الحسين علي بن الحسين المغربي أَبو الوزير أَبي القاسم ووزر له.

١ ـ هو محمد بن أحمد بن ابراهيم الاسكافي الكاتب، وزر لمحمد بن رائق، ثم وزر للمتقي لله مرتين، وصودر، وصار إلى الشام، وكتب لسيف الدولة، وكان ظلوماً غشوماً، عاش ستا وسبعين سنة» وتوفي سنة سبع وخمسين وثلاثمائة. العبر للذهبي ـ ط. الكويت ١٩٨٤ ج٢ ص٣١٥ .

[عهد سعد الدولة][1]

وقام بالأمر بحلب الحاجب قرغُويَه غلام سيف الدولة، من قِبل ابن سيف الدولة؛ فبقي بها إلى أَن مضى غلمانُ سيف الدولة إلى ميَّافارقين، فأَحضروا ابنه: سعد الدولة أَبا المعالي شريف بن علي بن عبد الله بن حمدان، وكان مع والدته أم الحسن ابنة أَبي العلاء سعيد بن حمدان بها.

فدخل حلب، يوم الاثنين لعشر بقين من شهر ربيع الأوّل، من سنة ست وخمسين وثلاثمائة؛ وزُيِّنتْ له المدينة؛ وعُقدت له القِباب؛ وجلس على سَرير أَبيه، وَجَلس الحاجبُ قرغُويه على كرسيّ، والمدِّبرُ لدولته وزيرُه أبو اسحاق محمد بن عبد الله بن شهرام كاتب أَبيه.

وقبض أَبو تغلب بن ناصر الدولة بن عبد الله بن حمدان على أَبيه ناصر الدولة، في هذه السنة[2]؛ فامتعض حمدان بن ناصر الدولة لذلك وعصى على

١ ـ أضيف مابين الحاصرتين للتوضيح.

٢ ـ اعتقله بقلعة الموصل حتى توفي «يوم الجمعة الثاني عشر من شهر ربيع الأول سنة سبع وخمسين وثلاثمائة» وقد تجاوز الثمانين. بغية الطلب من ٢٤٣٦ ـ ٢٤٣٧.

أخيه بالرقة والرَّحبة[١].

فسار أَبو تغلب إليه إلى الرقة، وحصره فيها إلى أَن صالحه على أَن يقتصر على الرّحبة، ويسلم إليه الرّقة والرافقة. وكُتب لأبي تغلب توقيعٌ بتقليدِهِ أَعمال ناصر الدَّولة وسيف الدَّولة من المُطيع، وهو بالرَّقة.

وكان قرغويه قد جاء إلى خدمته، وهو يحاصر أَخاه؛ فلما صالح أَخاه قدم حلب جَرِيدةً، وزار ابن عمه سعد الدولة، وعاد إلى الموصل.

---

١ ـ لم تكن هذه محاولة التمرد الوحيدة في صفوف الحمدانيين فقد روى المقريزي في ترجمته لبشارة الاخشيدي مايلي:
«فلما مات سيف الدولة بن حمدان بحلب سار بتابوته إلى ديار بكر بشارة الخادم، وتقي، في جمادى الأولى سنة ست وخمسين وثلاثمائة، وكان بينهما منافرة، فأذاع تقي عن بشارة أنه كاتب حمدان بن ناصر الدولة، وكان قد غلب على الرقة عند وفاة عمه سيف الدولة، وحثه على أخذ حلب، وكتب تقي إلى قرغويه القائم بضبط حلب نيابه عن سعد الدولة أبي المعالي شريف ابن سيف الدولة، فقبض قرغويه على أسباب بشارة بحلب.
فلما بلغ ذلك بشارة داخل تقي ووانسه، فأنس به، وصفي بنيته له، وأطلعه على أنه يريد ديار بكر ليعمل على أبي المعالي شريف ابن مولاه، ويقبض عليه، ويملك التدبير، وضمن لبشارة أنه يسلم له ميافارقين، فأظهر له بشارة القبول، وسار بمسيره إلى قريب من ميافارقين، فكتب بشارة مع من يثق به إلى أبي المعالي يحذره الخروج إلى لقاء تابوت أبيه، ويعرفه ماعزم عليه تقي.
فلما قرب تقي كتب إليه بخبر التابوت وأن يخرج لتلقيه، فأظهر أبو المعالي علة وامتنع عن الركوب، وأخرج كل من في البلد لتلقيه، وضرب تقي مضاربه ولم يدخل المدينة، ووكل بأبوابها الرجال، فطلع بشارة على السور، وغلق الأبواب، وخاطب أصحابه عن الأمير أبي المعالي بكل جميل، فانقلبوا عن تقي، وبطل مادبره، وسلمه إلى بشارة فقتله». الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية ـ ط. دمشق ١٩٩٥ ج١ ص٣٠٠.

وأَقام سعد الدولة إلى أن تجدّد بينه وبين ابن عمه أَبي فراس الحارث بن سعيد بن حمدان ـ وهو خاله ـ وَحْشَة وكان بحمص.

فتوجَّه سعدُ الدولة إليه، فانحاز إلى «صدد»[1]، ونزل سعدُ الدولة بسَلمية، وجمع بني كلاب وغيرهم.

وقدَّم الحاجب قرغُويه وبني كلاب على مقدّمته، مع قطعة من غلمان أَبيه، فتقدّموا إلى صدد. فخرج إليهم أَبو فراسٍ وناوشَهم، واستأمن أَصحابُه؛ واختلط أَبو فراس بمن استأمَن، فأمر قرغُويه بعض غلمانه بالتّركية بقتلِه، فَضَربه بَلتٍ مُضرَّسٍ، فسقط؛ ونزل فاحتز رأسَهُ؛ وحَملهُ إلى سعد الدولة.

وبقيت جثّتُهُ مطروحةً بالبرية، حتى كفَّنهُ رجلٌ من الأعراب، وذلك في شهر ربيع من سنة سبع وخمسين وثلاثمائة. ولطمت أمُّه سخِيَّة حتى قلعت عينها عليه؛ وكانت أم ولد.

وخرج في هذه السَّنة فاثورٌ[2] للرُّوم في خمسة آلآف فارس وراجل؛ فصار إلى نواحي حَلَب؛ فواقعه قرغُويه بعسكر حلب، فأُسِرَ قرغويه، ثم أَفلتَ، وانهزم أَصحابُهُ؛ وأَسر الرُّومُ جماعة من غِلمانِ سيفِ الدَّولةِ.

ثم إنَّ نقفور ملك الروم خرج إلى معرة النُّعمان ففتحها، وأَخرب

١ ـ صدد الآن مركز ناحية تتبع حمص وتبعد عنها ٦٠كم باتجاه الجنوب الشرقي، تكثر فيها الكنائس الأثرية، في وسطها تل أثري. المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري.
٢ ـ الفاثور: الجماعة في الثغر يذهبون خلف العدو في الطلب. القاموس.

جامِعَهَا وأَكثَرَ دورها؛ وكذلك فعل بمعرّة مصرين؛ ولكنه أَمَّنَ أَهلها من القتل، وكانوا أَلفاً ومائتي نفس، وأَسرَهُم، وسَيَّرهُمْ إلى بلد الرومِ.

وسار إلى كفرطاب وشيزر، وأَحرق جامعها؛ ثم إلى حماة ففعل كذلك؛ ثم إلى حمص، وأَسر من كان صار إلى تلك الناحية من الجفلةِ.

ووصل إلى عرقة ففتَحها وأَسرَ أهلَها؛ ثم نفذ إلى طرَابلس وكان أَهلها قد أَحرقوا ربضَها، فانصرف إلى جَبَلة ففتحها؛ ومنها إلى اللاذقيّة؛ فانحدر إليه أَبو الحسين علي بن إبراهيم بن يوسف الفُصيص. فوافقه على رهائن تُدفع إليه منها، وانتَسَب له فعرف نقفور سَلَفَهُ، وجعله سردغُوس[١]. وسلَّم أَهل اللاذقية.

وانتهى إلى أَنطاكية، وفي يده من السبي مائة ألف رأس، ولم يكن يأخذ إلا الصبيان والصَّبَايا والشباب؛ فأما الكهول والمشايخ والعجائز فمنهم من قتله ومنهم من تركه. وقيل بأَنه فتح في هذه الخرجة ثمانية عشر منبراً. وأَما القرى فلا يُحصى عدد ما أَخْرَبَ منها وأَحرَقَ؛ ونزل بالقُرب من أَنطاكية، فلم يقاتلهم، ولم يراسِلْهُم بشيء.

وبنى حصن بَغْرَاس[٢] مقابل أَنطاكية ورتَّب فيه ميخائيل البرجي، وأَمر أَصحاب الأطراف بطاعته.

١ ـ أي ستراتيغوس، وهو الحاكم العسكري للمدينة.

٢ ـ من أشهر القلاع وأكثرها حصانة، تقع على الطريق المؤدية إلى مضيق بيلان فالاسكندرونه. بغية الطلب ج١ ص١٥١ ـ ١٥٢ . المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري.

وتحدَّث الناس أنه يُريد أن يُنازِلَ أنطاكية طول الشتاء، وينفذ إلى حلب أيضاً من يُنازلها. فأشار الحاجب قرغُويه على سعد الدولة أن يخرج من حلب، ولا يتحاصَرَ فيها؛ فخرج إلى بالِس فسَيَّر إليه قرغُويه، وقال له: «امضِ إلى والدتك، فإنّ أهل حلب لايُريدونك، ولايترُكونَك تعود إليهِم».

وحالف قرغُويَه أهل حلب على سعد الدَّولة؛ وتقرَّب إليهم بعمارة القلعة وتحصينِها، وعمارة أسوار البلدة وتقويَتِهَا؛ فيَئِسَ سعدُ الدولة من حلب؛ ومضى أكثرُ أصحابه إلى أبي تغلب بن ناصِر الدَّولة.

وقطع قرغُويه الدعاء لسعد الدَّولة، فعمل على قصد حرَّان والمقام بها؛ فمنَعهُ أهلها منها، وراسَلَهُمْ، وَوَعَدهُمْ بالجميلِ فلم يَسْتجيبُوا له؛ فسألهم أن يتزوَّدَ منها يومَينْ، فأَذنوا له في ذلك. فمضى إلى والدته إلى مَيَّافارقين، وحَرَّان شاغرةٌ يدبّرها أهلها، ويخطبون لأبي المعالي سعد الدولة.

ولما قرب أبو المعالي من ميَّافارقين بَلَغَ والدَتَهُ أن غلمانه وكُتَّابَهُ عملوا على القبض عليها وحملها إلى القلعة، كما فعل أبو تغلب بناصر الدولة؛ فطردَتِ الكُتَّابَ، وأغلقت أبواب المدينة في وجه ابنها ثلاثة أيّام حتى استوثقتْ منه؛ وفتحت له.

وحين علم ملك الروم بتقوية قرغُويه لحلب دخل بلاده.

وأَما قرغُويَه فاستولى على حلب في المحرّم من سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة؛ وأمّر غلامَهُ بكجور؛ وشاركه في الأمر؛ ودُعي لهما على المنابر في عَمَلِهِ. وكتب اسم بكجور على السّكة. وكان يُخاطَبُ قرغُويه بالحاجب، وغلامه بكجور بالأمير.

وحصل زهير غلام سيف الدَّولة بمعرَّة النُّعمان، وكان واليها؛ وانضاف إليه جماعة من غلمان سيف الدَّولة. فأقاموا الدَّعوة بالمعرّة لسعد الدولة؛ وكاتبوا مولاهم سعد الدولة أبا المعالي واستدعوه إلى الشَّام؛ فسار ونزل منبج؛ فاجتمعوا معه. ونزلوا على حلب في شهر رمضان من سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة؛ وحاصروا قرغُويه وبكجور. وجرت بينهم حروب يطول ذكرها.

وكتب قرغُويه إلى الرُّوم، فاستَدْعى بطريقاً كان في أَطراف بلد الرُّوم لنجدته، وهو خادم كان لنقفور ويعرف بالطُّرْبازي[1]؛ فسار نحوه، ثم عدل إلى أنطاكية، وذلك أَنَّ ملك الروم لما نزل ببوقا، ومعه السبي والغنائم ـ على ماذكرناه ـ تَوَافَقَ هو وأَهلها، وكانوا نصارى في أَن ينتقلوا إلى أنطاكية، ويُظهروا أَنَّهم إنّما انتقلوا خوفاً من الرُّوم، حتى إذا حصلوا بها، وصار الرُّوم إلى أَنطاكية وافقوهم على فتحها. ففعلوا ذلك ووافقوا نصارى أَنطاكية، وكاتبوا الطّرْبازي حين خرج بأن أنطاكية خالية، وليس بها سلطان.

وكان أَهلُها من المسلمين قد ضيّعوا سورها، وأَهملوا حراسَتَها؛ فجاء الروم إليها مع الطَربازي ويانس بن شمشقيق، في أَربعين أَلفاً. فأحاطوا بأَنطاكية؛ وأَهلُ بوقا على أَعلى السور في جانبٍ منه، فنزلوا وأَخلوا السّور، فصعده الرُّوم وملكوا البلد، وذلك لثلاث عشرة ليلة خلت من ذي الحجة من سنة ثمان وخمسين.

١ ـ هو في تاريخ يحيى بن سعيد ص١٣٥ «بطرس الاصطراطوبودرج» ـ الستراتيجوس.

ودخَلَ الرُّوم فأحرقوا وأَسَروا وكانت ليلة الميلاد. فلمَّا طلَعَ الروم على جبلها، جعلوا يأخذون الحارس فيقولون له: «كبّر وهلّل»؛ فمن لم يفعل قَتَلُوه؛ فكان الحرّاس يهلِّلون ويكبّرون، والناس لايعلمون بما هم فيه، حتّى ملكوا جميع أَبرجتها، وصاحوا صيحةً واحدةً، فمن طلب بابَ الجنان قُتل أَو أُسِرَ.

واجتَمع جماعة إلى باب البحر فبردُوا القُفل فسلموا، وخرجوا وبنَوا قلعةً في جبلها، وجعلوا الجامعَ صيرةً للخنازير[1]؛ ثم ان البطرك جعله بُستاناً.

ثم إنَّ الطّرْبازي سار إلى حلب، منجداً لقرغويه ويكجور، وأَبو المعالي محاصر لهما؛ فانحاز أَبو المعالي شريف عن حلب إلى خناصرة، ثم إلى معرَّة النُّعمان.

فطمع الرُّوم بحلب فنَازَلُوها؛ وهجَمُوا المدينة من شماليها، وحصروا القلعَة.

فهادنهم قرغُويه على حمل الجزية، عن كل صغير وكبير من سكّان المواضع التي وقعت الهُدنة عليها، دينار، قيمته سِتّة عَشَر دِرْهما إسلاميّة؛ وأَن يحمل إليهم، في كل سَنَةٍ عن البلاد التي وقعت الهُدنة[2] عليها سبعمائة أَلف درهم.

---

١ ـ الصيرة: الحظيرة.

٢ ـ في تاريخ يحيى بن سعيد ص١٣٥ : «وترددت المراسلات بينه وبين أهلها إلى أن تقرر الأمر =

والبلاد: حمص، وجوسية[١]، وسلمية، وحماة، وشيزر، وكفرطاب، وأفامية، ومعرة النّعمان، وحلب وجبل السُّمّاق[٢]، ومعرّة مصرين، وقنّسرين، والأثارب إلى طرف البلاط[٣] الذي يلي الأثارب وهو الرصيف، إلى إرحاب[٤]، إلى باسوفان[٥]، إلى كيمار[٦]، إلى برصايا[٧]، إلى المرج الذي هو قريب عزاز؛ ويمين الحدِّ كلّه لحلب؛ والباقي للرُّوم.

= على صلح وهدنه مؤبدة، ومال يحمل في كل سنة إلى ملك الروم عن حلب وحمص وجميع أعمالها من المدن والقرى، وهي ثلاثة قناطير ذهب عن حق الأرض، وسبعة قناطير ذهب عن خراج هذه الأعمال، وعن كل رجل حالم دينار واحد في السنة، سوى ذوي العاهات، وأن يكون لملك الروم صاحباً مقيما بحلب يستخرج أعشار الامتعة الواردة إليها من البلاد، ويرفعه إلى الملك».

١ ـ اسمها الآن جوسيه الخراب، تقع قرب الحدود اللبنانية، وهي تابعة لمنطقة القصير ـ محافظة حمص، تبعد عن القصير ١١كم إلى الجنوب. وتبعد عن حمص ٣٨ كم إلى الجنوب الغربي منها. المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري.

٢ ـ هو جبل الأربعين الآن.

٣ ـ الطريق الروماني المرصوف، ويوجد الآن مزرعة في منطقة حارم اسمها البلاط. المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري.

٤ ـ إرحاب قرية في جبل سمعان، تتبع ناحية دارة عزة، وتتصل بها بطريق مزفته طولها ٩كم. المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري.

٥ ـ على مقربة من دير سمعان.

٦ ـ تقع كيمار على بعد ١٢ كم من باسوفان.

٧ ـ جبل برصايا: «جبل عال شامخ شمالي عزاز، يشرف على بلد عزاز وكورة الأرتيق، وهو من أبهى البقاع منظرا، وأرقها هواء». واسم هذا الجبل الآن برصة، ويقع على بعد ٥كم شمال مدينة أعزاز، يمتد من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي بطول ٥كم وعرض أقصى ٣,٥كم. بغية الطلب ج١ ص٤٣٧ . المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري.

ومن برصايا يميل إلى الشَّرق، ويتصل وادي أَبي سليمان إلى فج سُنياب[١]، إلى نافوذا، إلى أَوانا، إلى تلّ حامد[٢]؛ إلى يمين السَّاجُور، إلى مسيل الماءِ إلى أَن يمضي ويختلط بالفرات.

وشرطوا أَن الأمير على المسلمين قرغُويه؛ والأمر بعده لبكْجور؛ وبَعْدَهُما ينصب ملك الروم أَميراً يختارُه من سكَّان حلب. وليس للمسلمين أَن ينصبوا أحداً، ولايؤخذ من نصراني جزية في هذه الأعمال، إلا إذا كان له بها مسكن أَو ضيعة.

وإن ورد عسكر إسلاميّ يريد غزو الروم منعه قرغُويَه، وقال له: «امضِ من غير بلادنا، ولاتدخل الهُدنة». فإن لم يسمع أَمير ذلك الجيش قاتله، ومنعه؛ وإن عجز عن دفعه كاتب ملك الروم والطربازي لينفذ إليه من يدفعه.

ومتى وقف المسلمون على حال عسكر كبير كتبوا إلى الملك وإلى رئيس العسكر، وأَعلموهما به لينظروا في أَمرهما.

وإن عزم الملك أَو رئيس العسكر على الغزاة إلى بَلَد الاسلام، تلقَّاهُ

١ ـ تحدث ابن العديم عن مخارج نهر قويق فقال: «والمخرج الآخر يجتمع من عيون ماء من سنياب» وقال ياقوت: وسألت عن سنياب «بحلب فقالوا: لا نعرف هذا الاسم، انما مخرجه من شناذر، قرية على ستة أميال من دابق». بغية الطلب ج١ ص٣٤٧. معجم البلدان ـ مادة قويق.

٢ ـ تل حامد: حصن في ثغور المصيصة، ويرجح أن «حامد» تصحيف «خالد» وتل خالد من القلاع الهامة القريبة من حلب. معجم البلدان.

بكجور إلى المكان الذي يؤمر بتلقيه إليه؛ وأَن يشيّعه في أَعمال الهُدنة؛ ولايهرب مَنْ في الضّياع ليبتاع العسكر الرّومي ما يحتاجون إليه، سوى التبن؛ فانه يؤخَذُ منهم على رسم العساكر بغير شيء.

ويتقدم الأمير بخدمة العساكر الرُّوميَّة إلى الحدّ؛ فإذا خرجت من الحدّ عاد الأمير إلى عمله؛ وإن غزا الرومُ غير ملّة الإسلام سار إليه الأمير بعسكره، وغَزَوْا معه كما يأمرُ.

وأَيّ مسلم دخل في دين النصرانيّة فلا سبيل للمسلمين عليه؛ ومن دخل من النصّارى في مِلَّة الإسلام فلا سبيل للرّوم عليه.

ومتى هرب عبدٌ مسلمٌ أَو نصراني، ذكراً كان أَو أنثى، من غير الأعمال المذكورة إليها، لايستره المسلمون، ويُظْهِرونَه، ويُعطى صاحبُه ثمنَه: عن الرَّجُل ستّة وثلاثون ديناراً؛ وعن المرأَة عشرون ديناراً رومية؛ وعن الصبيّ والصبيَّة خمسّة عَشَر ديناراً؛ فان لم يكن له مايشتريه أَخذ الأميرُ من مولاه ثلاثة دنانير؛ وسلَّمه إليه. فإن كان الهارب معمداً فليس للمسلمين أَن يمسكوه؛ بل يأْخذ الأميرُ حقّه من مولاه؛ ويسلّمه إليهِ.

وإنْ سرق سارقٌ من بلاد الرُّوم، وأخفى هارباً أنفذَهُ الأميرُ إلى رئيس العسكر الروميّ ليؤدِّبَهُ.

وإن دخل رُوميّ إلى بلد الإسلام فلا يمنع من حاكى.

وإنْ دخل من بَلَد الإسلام جاسوسٌ إلى بلد الروم أُخذ، وحُبس. ولايخرب المسلمون حصناً؛ ولايحدثـوا حصناً؛ فـإنْ خرب شيء

أعادُوه. ولايقبل المسلمون أميراً مسلماً؛ ولايكاتِبوا أحداً غير الحاجب وبكجور. فإنْ توفّيا لم يكن لَهُمْ أن يقبَلُوا أميراً من بلاد الإسلام؛ ولايلتمسوا من المسلمين معونةً؛ بل ينصبُ لهم مَنْ يختارهُ من بلاد الهدنة.

وينصب لهم الملكُ بعدَ وفاة الحاجب وبكجور قاضياً منهم، يُجري أحكامهم على رسمهم.

وللرّوم أن يعمروا الكنائس الخربة في هذه الأعمالِ، ويسافر البطارقَةُ والأساقفةُ إليها، ويكرمهم المسلمون.

وإنّ العُشْرَ الذي يؤخَذُ من بلد الرّوم، يجلس عشّار الملك مع عشّار قرغُويه وبكجور فمهما كان من التجارة من الذهب، والفضة، والديباج الروميّ، والقزّ غير معمول، والأحجار، والجوهر، واللؤلؤ، والسندس عشّره عشّار الملك. والثياب، والكتّان، والمزبون[1]، والبهائم، وغير ذلك من التجارات يعشّره عشّار الحاجب وبكجور بعده؛ وبعدّهما يعشّر ذلك كلّه عشّار الملك.

ومتى جاءت قافلةٌ من الرُّوم، تقصد حلب، يكتب الزرروار[2] المقيم في الطرف إلى الأمير؛ ويخبره بذلك لينفذ من يتسلّمها، ويوصلها إلى حلب. وإن

١ ـ ثوب على تقطيع البيت كالحجلة. القاموس.

٢ ـ تحدث ابن الحوقل عن المراتب في القسطنطينية فقال: «ثم الدمستق من بعده، ثم البطارقة وهم اثنا عشر رجلاً لاينقصون ولايزيدون بوجه، وإذا هلك أحدهم قام مقامه من يصلح له، ثم الزراورة وهم كثرة لايحصون كالقواد اللاحقين بالأمراء، ثم الطراخنة» صورة الأرض ـ. بيروت، دار مكتب الحياة ص١٧٨ .

قطع الطريق عليها بعد ذلك، فعلى الأمير أن يعطيهم ماذهب. وكذلك إن قطع على القافلة أَعراب أَو مسلمون في بلد الأمير، فعلى الأمير غرامة ذلك.

وحَلَفَ على ذلك جماعةٌ من شُيوخ البلد مع الحاجب وبكجور؛ وسلم إليهم رهينة من أهل حلب: أبو الحسن بن أبي أسامة؛ وكسرى بن كسور؛ وابن أخت ابن أبي عيسى، وأخو أبي الحسن الخشّاب، وأبو الحسن بن أبي طالب، وأَبو الطّيب الهاشميّ، وأبو الفرج العَطّار، ويُمن غلام قرغويه. وكان المتوسّط في هذه الهُدنة رجلٌ هاشميٌّ من أهلِ حلب يقال له طاهر.

وعادت الروم عن حلب؛ وبقي الحاجب قرغُويه في ولايتها، والتدبير إليه وإلى غلامه بكجور؛ وذلك في صفر من سنة تسع وخمسين وثلاثمائة.

وأقام سعد الدولة أبو المعالي بمعرّة النّعمان ثلاثَ سنين؛ وراسله الحاجب وبكجور ومشايخ حلب، في سنة ثمان وخمسين، على أَن يؤدي إلى الروم قسطاً من مال الهُدنة، وكان القيّم بأَمر أبي المعالي وعسكره رقطاش غلام سيف الدولة؛ وكان قد نزل إليه من حصن برزويه؛ وحمل إليه غلّة عظيمةً وعلوفةً وطعاماً؛ ووسّع على عسكره بعد الضّائقة.

ولم يؤدِّ سعد الدولة ما هو مقرَّر من مال الهدنة على البلاد التي في يده، فخرج الروم وهجموا حمص على غفلة.

وقيل: إن سعد الدولة استولى على حلب في سنة ثلاث وستين، ووصله في شهر ربيع الأول رسول العزيز وأبو القاسم أَحمد بن إبراهيم الرسي من مصر؛ فأقام الدعوة له بحلب في هذه السنة؛ وأَرسل معه إلى مصر في

جواب الرسالة قاضي حلب؛ وأظنه ابن الخشاب الهاشمي.

ووصل إليه بكجور من حلب وهو بحمص؛ فخلع عليه أبو المعالي؛ وولاه حلبّ؛ وأقيمت له الدعوة فيها وفي سائر عملها؛ فوافق بكجور وغلمانَ سيف الدولة على القبض على مولاه قرغويه وقصد أبي المعالي، وقلعه من حمص؛ فقَبَضَ عليه. وسار أبو المعالي إلى حلب.

وقيل: دام الأمر بحلب مردوداً إلى قرغُويه وبكجور، فأحبَّ الأمير أبو الفوارس بكجور الحاجبيّ الكاسكّي التفرد بالأمر دون مولاه؛ وحَدَّث نفسه بالقبض عليه، فقبض عليه وغدرَ به، في ذي الحجة من سنة أربع وستين وثلاثمائة. واستولى على حلب، وانفردَ بالأمر، وجعل الحاجب محبوساً بقلعةِ حلب.

وكان سعد الدولة إذ ذاك بحمص، فحين علم بذلك طمع بحلب، فتوجَّهَ إليها ومعه بنو كلاب، بعد أن أقطعهم بحمص الاقطاع المعروف بالحمصيّ؛ فنزل بهم على معرّة النعمان، وبها زهير الحمدّاني، وقد استولى عليها، وعَصَى على مولاه؛ ففتح باب حُناك[1]؛ ودخلوا منه فقاتلهم زهير، وأخرجهم. ثم أَحرَقوا بابَ حمص؛ فخرج زهيرٌ مسلماً نفسه بعد أن حلف له كبار الحمدانيَّة انّهم لايمكنوا أبا المعالي منه. فلمّا حصل معه غدر بهِ فتَغيّرت

١ ـ نسبة إلى بلدة اسمها حُناك، هي الآن خربة أثرية في جبل الزاوية، تابعة لمنطقة معرة النعمان. المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري.

وُجوه الحمدانيَّة؛ فأمرهم بنهب الحصن فنهبوا ما فيه؛ وأنفذ زهيراً إلى حصن أفامية؛ فقُتِل هناك.

وسار أَبو المعالي؛ ونزل بهم على باب حلب؛ وحاصرها مدةً فاستنجد بكجور بالرّوم؛ وضمن لهم تسليم حلب وأموالاً كثيرةً؛ فتخلّوا عنه. وكان نقفور ـ لعنه الله ـ قد قُتل على ماشرحناه.

وَجَدَّ سعد الدولة في حصارها والقتالِ، فسلم إليه بعض أَهل البلد المرتَبين في مراكز البلد برج باب الجنان؛ ورُميت أبواب الحديد، وفتحها بالسيف فلم يُرق فيها دماً وأَمنَ أَهلها.

وانهزم بكجور إلى القلعة فاستعصى بها، وذلك في رجب من سنة خمس وستين وثلاثمائة.

ثم أَقام سعد الدولة يحاصِر القلعة مدة حتى نفد ما فيها من القُوت؛ فسلّمها بكجور إليه، في شهر ربيع الآخر من سنة سبع وستين وثلاثمائة.

وولّى سعدُ الدولة بكجور حمص وجندها؛ وكان تقرير أَمر بكجور بين سعد الدّولة وبينه، على يد أَبي الحسن عليّ بن الحسين بن المغربي الكاتب، والد الوزير أبي القاسم.

واستقر أَمر سعد الدَّولة بحلب؛ وجَدَّد الحلبيون عمارة المسجد الجامع بحلب؛ وزادوا في عمارة الأسوار في سنة سبع وستين.

وغيّر سعد الدّولة الأذانَ بحلب؛ وزاد فيه: «حيّ علي خير العمل؛

مُحمَّد وعليٌّ خير البَشر». وقيل: إنه فعل ذلك في سنة تسعٍ وستين وثلاثمائة، وقيل: سنة ثمان وخمسين.

وسيّر سعد الدّولة في سنة سبع وستين وثلاثمائة الشريف أَبا الحسن اسماعيل بن النّاصر الحسنّي يهنىء عضد الدّولة بدخوله مدينة السلام، وانهزام بختيار بين يديه؛ فوجّه إليه بتكنية الطائع؛ ووصلته خلعة منه ولقب بسعد الدولة فلبس الخلعة.

ووصل معها خلعٌ من عضد الدَّولة أيضاً؛ وخاطبه في كتابه: «بسيدي، ومولاي، وعدتي» فمدحه أبو الحسن محمّد بن عيسى النّامي بقصيدةٍ أَوّلها:

هوىً فِي الْقَلْبِ لا عِجُهُ دَخِيلُ

وكان أَبو صالح بن نانا الملقّب بالسّديد قد وزر لسعد الدَّولة، فانفصَل عنه في سنة إحدى وسبعين؛ ومضى إلى بغداد فاستوزر مكانه أَبا الحسن بن المغربي.

ونزل فردس الفقاس الدمستقُ على حلب، في شهر جُمادى الأولى من سنة إحدى وسبعين، ووقع الحرب على باب اليهود في اليوم الثاني من نزوله.

وطالب سعدَ الدَّولة بمال الهدنة، وتردّدت المراسلةُ بينهما، واستقرّ الأمر على أَن يحمل إلى الروم كلّ سنة أَربعمائة أَلف درهمٍ فضّة، ورحل في اليوم الخامس من وصوله.

وفي يوم الخميس السَّابع عشر من شهر ربيع الآخر من سنة ثلاث وسبعين وثلاثمائة، نزل بردس الدمستق على باب حلب في خمسمائة ألف مابين فارس وراجل؛ وكان قد ضمن لباسيل وقسطنطين ملكي الروم الأخَوين أن يفتتح حلب، وينقض سورها حجراً حجراً؛ وأنه يحمل سبيها إلى القسطنطينيَّة.

واحتفل جمعاً وحشد من المجانيق والعَرَّادات ما لايُحصى كثرةً. وأقام بالحدث أيَّاماً، يُرهب الناس، ويهوّل عليهم؛ وسعد الدولة بحلب غير محتفلٍ به.

ثم إنّه أقبل وعلى مقدمته ملك الجزرية تريثاويل[1]؛ وعلى ميمنته وميسرته البطارقه في الحديد السابغ؛ فارتاعَ النَّاسُ لذلك؛ وبثّ سراياهُ، وسعد الدّولة قد أمر الغلمان بلبس السلاح؛ فدام على هذا ثلاثة أيام؛ ثم صَفّ لِقتال البلد؛ وسعد الدولة لايُخرج إليه أحداً حتى استحكم طمعُه.

ثم إنَّه أَمَرَ غلمانَهُ بالخروج إليهم في اليوم السابع، فحملوا حملةً لم يُر أشد منها؛ وقتلوا فيها ملك الجزرية تريثاويل؛ وكان عمدة عسكرهم؛ فعند ذلك اشتدَّ القِتَال.

وأمر سعد الدولة عسكره بالخروج إليه، فالتقَوْا في الميدان فرجع عسكره أقبح رجوع، وعليهِ الكآبة؛ وسيّر سعدُ الدَّولة جيشَهُ خلفَه حتَّى بلغت عَسَاكِرُه أنطاكية.

١ ـ كتب بهامش الأصل Taritaouil.

وكان الجيش مع وزيره أبي الحسن عليّ بن الحسين بن المغربي؛ فافتتح في طريقه دير سمعان عنوةً بالسيف؛ وخرَّب دير سمعان؛ وكان بنية عظيمة وحصناً قوياً؛ وقد ذكر ذلك الواسانيّ في بعض شعرِهِ.

وقيل: إنَّ الدمستُق رأى في نومه المسيح،وهو يقول له مهدّداً: «لاتحاوِل أخذَ هذه المدينة، وفيها ذلك الساجد على الترس». وأَشار إلى موضعه في البرج الذي بين باب قنّسرين،وبرج الغَنَم، في المسجد المعروف بمشهد النُّور. فلمّا أصبح ملكُ الرّوم سَأَل عنه فوجده ابن أَبي نمير عبد الرزاق بن عبد السلام العابد الحلبيّ،وكان ذلك سبباً لرحيله عن حلب[1].

وقيل: إنَّه صالح أهل حلب ورَحَل.

١ ـ قال ابن العديم في بغية الطلب ج١ ص٤٦١ ـ ٤٦٢ : «هذا مشهد النور إنما سمي بذلك لأنه رئـي النور ينزل عليه مراراً، قال: وكان ابن أبي نمير العابد يتعبد فيه، فاتفق أن نزل ملك الروم على حلب محاصراًلها،فجاء الحلبيون إلى ابن أبي نمير العابد، فقالوا: ادع الله لنا أيها الشيخ، قال: فسجد على ترس كان عنده،ودعا الله تعالى، وسأله دفع العدو عن حلب، فرأى ملك الروم في منامه تلك الليلة قائلاً يقول له: ارحل عن هذه البلدة،وإلا هلكت، أتنزل عليها وفيها الساجد على الترس في ذلك البرج، وأشار إلى البرج الذي فيه مشهدالنور ـ وهو بالقرب من باب قنسرين في برج من أسوار حلب،فيما بين برج الغنم وباب قنسرين.

فانتبه ملك الروم،وذكر المنام لأصحابه،وصالح أهل حلب، وقال: لا أرحل حتى تعلموني من كان الساجد على الترس في ذلك البرج، فكشفوا عنه فوجدوه ابن أبي نمير،ورحل ملك الروم عن حلب. . . وهذا ابن أبي نمير هو أبو عبيد الله عبد الرزاق بن عبد السلام بن عبد الواحد بن أبي نمير العابد الأسدي».

وقيل: هذا كان في نزول أرومَانُوس على تبّل، سنة إحدى وعشرين وأربعمائة.

وكان ابن أبي نمير من الأولياء الزهّاد والمحدّثين العلماء؛ وتوفي بحلب في سنة خمس وعشرين وأربعمائة؛ وقبرُه بباب قنّسرين.

ويحتمل أن يكون في سنة إحدى وسبعين، حين نزل فردوس على حلب ورحل عنها عن صلحٍ، في سنة اثنتين وسبعين وثلاثمائة؛ فطلب من العزيز أن يوليه دمشق؛ وكاتب العزيز[1] في إنفاذِ عسكرٍ ليأخذ له حلب؛ فأنفذ إليه عسكراً، فنزل على حلب إلى أن نزل الدمستُق أنطاكية؛ فخاف أن يكبسَهُ، فَرَحَل عنها.

ولما يئس الدمستق مِن حلب، وخاف على نفسِهِ أن يقتلَهُ ملك الروم، خرج إلى جهةِ حمص، فَهَرَب بكجور من حمص إلى جوسية، فكاتب الدمستقُ أهل حمص بالأمان؛ وأظهر لهم أنّه يسيرُ إلى دمشق، وأنَّه مهادنٌ لجميع أعمال سعد الدَّولة، فاطمأنوا إلى ذلك؛ وأمرهم بإقامةِ الزادِ والعلوفة.

وهجم حمص في ربيع الآخر من سنة ثلاثٍ وسبعين وثلاثمائةٍ؛ وأحرَقَ الروم الجامع، وكثيراً من البلد.

وكان استوحش أبو المعالي من بكجور، فأمره أن يترك بلده ويمضي. وصعد بكجور إلى دمشق فوليها في هذه السنة - أعني سنة ثلاث - من

---

١ - العزيز الفاطمي ثاني الخلفاء الفاطميين في مصر [٣٦٥ - ٣٨٦هـ/٩٧٥ - ٩٩٦م].

قِبَل المصريين، وجار على أهل دمشق، وظلّم، وجمع الأموال لنفسه، فجرد إليه عسكر من مصر مع منير الخادم في سنة ثمان وسبعين.

وكان بكجور يخاف من أهل دمشق لسوء سيرته؛ فبعَثَ بعض عسكره؛ فكسره منير، فأرسل إليه بكجور وَبَذل له تسليم دمشق، والإنصراف عنها؛ فأجابه إلى ذلك؛ فرحل عن دمشق متوجهاً إلى حُوَّارين، في شهر رجب من سنة ثمان وسبعين.

ومضى إلى الرقة؛ وأقام فيها الدعوة للمصريين[1]. وكان سعد الدَّولة قد انتمى إلى المصريين؛ وأقام الدعوة لهم بحلب، في سنة ستٍّ وسبعينَ وثلاثمائةٍ، ووصلته خِلَعُ العزيز أبي المنصور، في شعبان من هذه السنة فلبسها.

ومات الأمير قرغُويه بحلب في سنة ثمانين وثلاثمائة.

ثم إنَّ بكجور قوي أمره واستفحل؛ وأخذ إليه أبا الحسن عليَّ بن الحسين المغربيّ؛ واستوزره لمباينةٍ حصلت بينَه وبين سعد الدَّولةِ. وعاث على أَعمالِ سعدِ الدَّولة؛ وجَمَعَ إليهِ بني كلابٍ؛ واستغوى بني نمير؛ فبرز مضرب الأمير سعد الدولة، يوم السبت الثاني والعشرين من محرّم سنة إحدى وثمانين، إلى ظاهر باب الجنان.

وسار يوم السّبت سلخ المحرّم، على أربع ساعاتٍ؛ وقد كان بكجور

١ ـ لمزيد من التفاصيل انظر تاريخ دمشق لابن القلانسي ص٥٠ ـ ٥٤ .

سار إلى بالس، وحاصر من كان بها فامتنعوا عليهِ؛ فَقَصدهُ سعدُ الدَّولة، والتقوا على النَّاعورة، في سلْخ المحرّم من سنة إحدى وثمانين وثلاثمائةٍ.

وهزم بكجور، وهرب، واختفى عند رحا القديمي[1] على نهر قُويْق، وبثَّ سعد الدَّولة الناس خلفَهُ، وضَمِنَ لمن جاءَ به شيئاً وافِراً، فظفر به بعضُ الأعراب، وأتى به إلى سعد الدولة، فضرب عنقه صبراً بين يديه، بِبَنْدَرِ النَّاعورة، وصلبه على سبع ساعات مِن يوم الأحد مستهلّ صفر.

ورحل سعد الدّولة يوم الثلاثاء إلى بالس فوجد بكجور قد أخرب ربضها، فأقام بها أربعة أيّام.

ورحل حتّى أتى الرقة، وبها حرم بكجور وأمواله وأولاده، فتلقّاهُ أهل الرّقّة بنسائِهم، ورجالِهم، وصبيانِهم، فأقام بها بقيّة يومه.

ونزل أهل الرقة، فاحتاطوا بحرم بكجُور وأولاده، فآمنهم سعد الدولة، في اليوم التَّاسع من صفر، وتنجَّزت أمورهم إلى يوم الخميس الثَّاني عشر منه. ورضي عن أولاده، واصطنعهم، ووهب لهم أموال بكجُور، وحلف لهم على ذلك، فمدحَهُ أبو الحسن محمد بن عيسى النَّامِي بقصيدةٍ أوّلُها:

غَرَائِزُ الجودِ طَبْعٌ غَيْرُ مَقْصُودِ وَلَسْت عَنْ كَرَمٍ يُرْجَى بِمَصْدُودِ

---

١ ـ تفاصيل ماأوجزه ابن العديم هنا متوفر عند ابن القلانسي ص٥٨ ـ ٦٥، وعنده «ووافى بكجور إلى رحا تعرف بالقيريمي على فرسخ من حلب مما يلي قنسرين».

ولَّما خَرَج أَولاد بكجُور بأموالِهم وآلاتهم استكثرها سعدُ الدَّولة، فقال له وزيره أبو الهيثم بن أَبي حصين: «أَنتَ حلفتَ لهم على مال بكجُور، ومن أين لبكجُور هذا المال؟ بل هذه أموالك». فغدر بهم، ونَكثَ في يمينه، وقبضَ مالَ بكجُور إليه، وكان مقداره ثمانمائة ألف دينار، وصادر نواب بكجُور، واستأصل أموالهم.

ثم عاد إلى حلب فأصابه الفالج في طريقه. وقيل: أَصابه في طريقه قولنج فدخل إلى حلب، وعُولج فبرِئ. ثم جامَعَ جارية له، فأَصابه الفالجُ، واستدعى الطبيب، وطلب يَده ليجُسَّ نبضَهُ، فناولَهُ اليُسرى، فقال: «اليمين» فقال: «ماأَبقتِ اليمينَ يمينٌ» يُشير إلى غدره، ونكثِهِ في اليمين التي حلفها لأصحاب بكجُور.

وكان مبدأ علّته لأربع بقين من جُمادى الأولى، ومات ليلة الأحد لأربع بقين من شهر رمضان من سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة وحُمل في تابوتٍ إلى الرّقة، ودُفن[1] بها.

وكان قاضي حلب في أَيامه أبا جعفر أَحمد بن اسحاق قاضي أَبيه؛ ثم ولي قضاءها رجلٌ هاشميٌّ يقال له ابن الخشاب؛ ثم ولي الشَّريف أبو عليّ الحسن بن محمد الحسيني والد الشَّريف أَبي الغنائم النسَّابة؛ وكان زاهداً عالماً ولاه سعدُ الدَّولة قضاء حلب وعَزَلَ ابن الخشَّاب عنه في سنة ثلاث وستّين؛

١ ـ في ابن القلانسي ص٦٧ : «وحمل تابوته ودفن في المشهد ظاهرها» والمشهد هو للامام علي كرم الله وجهه وبعض شهداء صفين، وهو بجوار مايعرف الآن بباب بغداد في مدينة الرقة.

ودام في ولايته إلى تسع وسبعين وثلاثمائة؛ وولي بعده أبو محمد عُبيد الله بن محمد.

وكان العزيز أرسل إلى سعد الدولة يسأله إطلاق أَولاد بكجور وتسييرهم إلى مصر فأهان الرسول، ولم يقبل الشفاعة، ورد عليه جواب متوعد متهدّد.

[عهد سعيد الدولة][1]

ثم إنَّ غلمان سعد الدولة ملَّكوا ابنه أَبا الفضائل سعيداً؛ ولقبوه سعيد الدَّولة؛ ونصبوه مكان أَبيه في يوم الأحد. وصار المدبّر له وصاحب جيشه من الغلمان الأمير أَبو محمد لؤلؤ الكبير السيفي، فاستولى على الأمور وزوّج ابنته سعيدَ الدولة، فرفع المظالم والرسوم المقرَّرة على الرعيّة من مال الهُدنة. وردّ الخراج إلى رسمه الأوّل؛ وردَّ على الحلبيين أملاكاً كان اغتصبها أَبوه وجدُّه.

وطمع العزيز صاحب مصر في حلب؛ فاستصغر سعيد الدولة بن سعد الدولة، فكتب إلى أَمير الجيوش بنجوتكين التركي؛ ـ وكان أَميرُ الجيوش والياً بدمشق من قبل العزيز ـ وأَمره بالمسير إلى حلب وفتحها، فنزل في جيوشٍ عظيمةٍ، ومدّبر الجيش أَبو الفضائل صالح بن عليّ الرُّوذْبَارِي.

فنزل على حلب في سنة اثنتين وثمانين وثلاثمائة؛ وفتح حمصَ وحماةَ في طريقه، وحصر حلب مدةً، فبذل له سعيدُ الدَّولة أَموالاً كثيرة على أَن يرحل عنه وعلى أَن يكون في الطَّاعة، ويقيم الدعوة، ويضرب السكّة باسم العزيز، ويكتب اسمه على البنود في سائر أعماله.

١ ـ أضيف مابين الحاصرتين للتوضيح .

فامتنع من قبول ذلك وقاتل حلب ثلاثة وثلاثين يوماً، وَضَجِر أَهل حلب فقالوا لابن حمدان: «إمَّا أن تُدبِّر أمر البلد وإلا سلّمناه». فقال: «اصبروا عليَّ ثلاثةَ أيَّام، فإنَّ البرجي والي انطاكية قد سار إلى نصرتي في سبع صلبان»[1]. فبلغ ذلك بنجوتكين، فاستخلف بعضَ أَصحابه وهم: بشارة القلعي، وابن أَبي رمادة، ومعضاد بن ظالم، في عسكر معهم كبير على باب حلب.

وسار فالتقى البرجي عند جسر الحديد، وبنجوتكين في خمسة وثلاثين أَلفاً والروم في سبعين أَلفاً، فانهزم البرجي؛ وأَخذ بنجوتكين سوادَه وقتل مِنْ أَصحابِهِ مقتلةً عظيمةً، وأَسر خلقاً كثيراً[2].

فانحاز ابن أخت البرجيّ إلى حصن عِمّ[3]، فسار بنجوتكين إلى «عِمّ»، فقاتل حصنها، وفتحه بالسيف؛ وأَسر منها ابن أخت البرجي، ووالي الحصن، وثلاثمائة بطريق، وحصل عنده أَلفا فارس وغَنِمَ من «عِمّ» مالاً كثيراً، وأَحرقها وماحولها؛ ووجد في «عِمّ» عشرة آلاف أَسير من المسلمين فخرجوا وقاتلوا بين يديه.

وسار إلى أَنطاكية فاستاق من بلدها عشرة آلآف جاموس، ومن البقر

١ ـ الصليب الراية لحملها شارة الصليب، وقصده هنا أنه توجه نحوه في سبع قطع عسكرية.

٢ ـ قدم ابن القلانسي ص٧٠ ـ ٧١، تفاصيل زائدة على ماأوجزه ابن العديم.

٣ ـ عم الآن في تركيه واسمها يني شهر، وهي مزرعة تتبع قضاء الريحانية لواء الاسكندرونه، تكثر فيها الينابيع التي تشكل بركة عم إلى الجنوب من مدينة الريحانية بـ ٣كم. المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري.

والمواشي عدداً لايحصى؛ وسار من ظاهر أنطاكية في بلاد الروم حتى بلغ مرعش؛ فقتل، وأسر، وغنم، وخرّب، وأحرق.

وعاد إلى عسكره على باب حلب المعروف بباب اليهود، وقاتلها من جميع نواحيها، وكان هذا في جمادى الأولى وجمادى الآخرة، فأقام على حلب إلى انقضاء سنة اثنتين وثمانين وثلاثمائة، وعاد إلى دمشق.

ثم إنَّه عاد، وخرج من دمشق في سنة ثلاث وثمانين وثلاثمائة، ومدّبرُ الجيش أبو سهل منشا بن ابراهيم اليهودي القزّاز؛ فنزلوا شيزر وقاتلوها، وفتحوها، وأمّنوا سوسن الغلام الحمداني ـ وكان والياً بها ـ وجميعَ من كان معه.

وسار بنجوتكين إلى أفامية، فتسلمها من نائب سعيد الدولة ثم [سار] أمير الجيوش بمن انتخبه من العسكر إلى أنطاكية، فغنموا بقراً وغنماً، ورماكاً[1] وجواميس؛ وبلغوا نواحي بوقا، وقطعوا بغراس؛ وعاد العسكر إلى الرّوج[2] ثم إلى أفامية.

وسار إلى دمشق، وسيّر العزيزُ أبا الحسن علي بن الحسين بن المغربيّ الكاتب، الذي كان وزيراً لسعد الدولة أبي المعالي مرة، وفارقه عن وحشة ـ وهو والد الوزير أبي القاسم بن المغربي ـ في المحرم من سنة أربع وثمانين

١ ـ جمع رمكة وهي الفرس تتخذ للنسل.
٢ ـ في معجم البلدان: الروج: كورة من كور حلب المشهورة في غربيها وبين المعرة، ولها ذكر في الأخبار». وأرجح أن يقال: في جنوبي أنطاكية بينها وبين أفامية.

وثلاثمائة، من مصر إلى بنجوتكين ليجعله مدبّر جيشه والناظر في أَعمال الشام إنْ فُتِحَتْ، لِخِبْرَتِهِ بتلك الناحية. وسار معه عسكرٌ كثيرٌ فوصل إلى دمشق.

وسار منها بنجوتكين وابن المغربي في ثلاثين أَلف مقاتل، فوصلوا إلى ظاهر حلب في شهر ربيع الآخر، وضيّق عليها بالحصار، فاستنجد سعيد الدولة ولؤلؤ بالروم، فخرج البطريقُ البرجيّ والي أَنطاكية بعساكر الروم فنزل بالأرواح؛ على المقطعات على المخاض، وبَثَّ سراياه؛ ورتَّب قوماً يغيرون على أَعمال حلب ويمنعون المتعلّفة.

وسار بنجوتكين فنزل مقابلهم، وسار عسكرُ حلب وفيهم الأمير رباح الحمدانيّ وكبار الحمدانية، فنزلوا مع الرّوم على مخاضة أُخرى؛ فقطع المغاربة الماءَ، وعبروا إليهم، وأَنفذ بنجوتكين العرب مع قطعة من عسكره للقاء الحلبيين؛ فحين أشرفوا عليهم انهزموا عن المخاضة، ونهبتهم العرب.

فحين شاهد الروم ذلك انهزموا، وتخلّوا عن البرجي؛ واضطروه إلى الهزيمة؛ وتبعهم المغاربة مع بنجوتكين في يوم الجمعة لست خلت من شعبان سنة أربع وثمانين وثلاثمائة؛ فظفر بهم، وغنم الأموال والرجال والخيل التي لاتحصى؛ وقتل خلقاً كثيراً، وأسر خلقاً كثيراً من الروم، وسار فنزل على عزاز فأخذها.

ثم عاد إلى حصار حلب فبنى مدينة بازائها وشتى بها؛ وآثار العمارة التي تظهر حول نهر قويق هي آثار تلك العمائر؛ ولم يزل على حلب إلى أن انقضت سنة أربع وثمانين؛ وكان حصارهم حلب أحد عشر شهراً، وأكلوا الخيل والحمير.

وأنفذ أبو الفضائل سعيدُ الدولة ولؤلؤ: أبا عليّ بن دُريس إلى باسيل ملك الروم بالقسطنطينية، يستنجدانه؛ وكانت له على حلب قطيعة تُحمل إليه؛ وقالا له: «مانريد منك قتالاً دائما نريد أن تجفله».

فخرج باسيل في ثلاثة عشر ألفاً، وعسكر بنجوتكين لاخبر معهم لباسيل فسير باسيل جواسيس، وقال لهم: «امضوا إلى العسكر، وأعلموهم بي». وكانت دوابّ أمير الجيوش بمرج أفامية، في الربيع؛ فلما أَخْبَرَ الجواسيسُ عسكر أمير الجيوس بوصول باسيل إلى العمق[1]، ضرب جميع آلته بالنار، ورحل إلى قنّسرين، فصار هزيمة.

وجاء باسيل ملك الروم، فنزل موضعهم، فلم يمله؛ وكان قد خرج أبو الفضائل إلى ملك الروم؛ وشكره على مافعل من رحيل بنجوتكين، ومعه هديّة جليلة القدر؛ فقبلها منه، ثم أعادها إلى حلب ووهب له القطيعة التي كانت له على حلب في تلك السنة، فقال قسطنطين لأخيه الملك باسيل: «خذ حلب؛ والشام مايمتنع منك». فقال: «ما تسمعُ الملوكُ أني خرجتُ أُعِينُ قوماً فغدرت بهم». فقال له بعضُ أَصحابه: «ليست حلب غالية بغدرة». فقال الملك: «بلى ولو أنها الدنيا»[2].

١ ـ العمق سهل داخلي في لواء اسكندرونه يقع بين جبال حلب وسمعان وحارم شرقاً، وجبال الأمانوس أو اللكام غربا، وبين اللجة ووادي نهر الأسود شمالاً، وهضبة القصير جنوبا، يبلغ أقصى امتداد له ٣٠كم بين الشمال والجنوب و٢٥كم بين الشرق والغرب، كان يشغل مستنقع العمق منه مساحة ٢٢ ألف هكتار، وبحيرة أنطاكية ١٠ آلاف هكتار، ويجري بالسهل عدة أنهار. المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري.

٢ ـ كان الامبراطور باسيل الثاني عندما سمع بأخبار حصار حلب معسكر بعيداً عن القسطنطينية =

وكان إذا خرج أبو الفضائل إلى ملك الروم أقام لؤلؤ بحلب؛ وإذا خرج لؤلؤ أقام أبو الفضائل. وكان قد ضاق صدر أبي الفضائل لطول الحصار، وأراد تسليم حلب إلى بنجوتكين.

فتوجَّع لؤلؤ فركب إليه أبو الفضائل يعودُهُ، فحجبه ساعةً، فشقّ عليه، وانصرف مغضبا فلحقه لؤلؤ وقال له: «ماكنتُ عليلاً، وإنَّما أردتُ أن أعلمك أنك متى مضيتَ إلى غير هذا البلد انك تحجب على أبواب الناس، وقد شَقَّ عليك أني حجبتُكَ، وأنا عبدك، والبلد بلدك». فرجع إلى قول لؤلؤ.

وعصى رباح السيفيّ بالمعرّة على مولاه أبي الفضائل؛ فخرج إليه مع لؤلؤ في سنة ست وثمانين، وانحاز إلى المغاربة، فخرج أبو الفضائل ولؤلؤ وحصراه مدةً، فورد بنجوتكين لنجدته فانهزما ودخلا حلب.

وخرج بسيل إلى أفامية بعد وقعةٍ جرت للروم مع المغاربة فجمع عظام القتلى من الروم، وصلَّى عليهم ودَفَنَهم، وسار إلى شيزر ففتحها بالأمان من المغاربة، وذلك في سنة تسع وثمانين وثلاثمائة.

وسار ملك الروم إلى وادي حيران[1]، فسبى منه خلقاً عظيماً من

= يحارب البلغار، فترك أرض المعركة، وحث الخطا نحو حلب بمن خف معه من قواته، فقطع مسافة ثلاثمائة فرسخ في ستة عشر يوماً حتى وصل إلى حلب، حيث أخذ القوات الفاطمية على حين غرة وأجبرها على رفع الحصار والانسحاب... انظر كتابي إمارة حلب ـ ط. دمشق، دار الكتاب العربي ص٣٧.

١ ـ كذا بالأصل وأرجح أنها تصحيف حيلان، هذا وقال ياقوت: حيران: كأنه جمع حير، وهو مجتمع الماء، واسم ماء ما بين سلمية والمؤتفكة، ذكره ابو الطيب المتنبي.

المسلمين؛ وخرج إليه أبو الفضائل من حلب إلى شيزر، فأكرمه وقال له: «قد وهبتُ لك حلب». ووهب لأبي الفضائل في جملة ما وهبه سُطَيل ذهب، وقال له: «اشرب بهذا».

ومات أبو الفضائل سعيدُ الدَّولة، ليلة السبت النصف من صفر سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة، سَقَتْهُ جاريةٌ سماً، فمات. وقيل: إنَّ لؤلؤ دسَّ عليه ذلك وعلى ابنته زوجة أبي الفضائل، فماتا جميعاً.

وكان قاضي حلب في أيامه عبيد الله بن محمد بن أحمد القاضي أبا محمد.

وملَّك لؤلؤ السيفي ولديه:

أبا الحسن علياً وأبا المعالي شريفاً ابني سعيد الدولة. واستولى لؤلؤ على تدبير ملكهما، وليس إليهما شيء.

وخاف لؤلؤ على حصن كفر روما[1]، وحصن عار، وحصن أَروَح، أن يقفز[2] فيها، فهدمها جميعاً سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة.

وأحب لؤلؤ التفرد بالملك، فسيّر أبا الحسن وأبا المعالي ابني سعيد الدولة عن حلب إلى مصر مع حرم سعد الدولة، في سنة أربع وتسعين وثلاثمائة. وحصل الأمر له ولولده مرتضى الدولة أبي نصر منصور بن لؤلؤ.

١ - كفر روما: من أشهر حصون منطقة معرة النعمان، وكذلك كما يبدو الحصنين الآخرين. معجم البلدان.

٢ - أي يستولي عليها خلسة أوبطريقة ما، وهذه طريقة للتعبير عرفها عصر ابن العديم.

وقبض لؤلؤ على أحمد بن الحسين الأصفر بخديعة خدعه بها؛ وذلك أنه طلب أن يدخل إليه إلى حلب، وأوهمه أن يصير من قبله؛ فلما حصل عنده قبض عليه، وجعله في القلعة مكرماً، لأنه كان يهوّل به على الروم[1].

وكان هذا الأصفر قد عبر من الجزيرة إلى الشام مظهراً غزو الروم[2]، فتبعه خلقٌ عظيمٌ، وكان يكون في اليوم في ثلاثين أَلفاً ثم يصير في يوم آخر في عشرة آلاف وأكثر وأَقل.

ونزل على شيزر وطال أمرُه فاشتكاه باسيل ملك الروم إلى الحاكم، فسيّر إليه والي دمشق في عسكر عظيمٍ فطرده عنها؛ ودام الأصفر معتقلاً في قلعة حلب إلى أن حصلت للمغاربة في سنة ست وأربعمائة.

وتوفي قاضي حلب أبو طاهر صالح بن جعفر بن عبد الوهاب بن أحمد الصالحي الهاشمي[3]، مؤلف كتاب «الحنين إلى الأوطان»، في سنة سبع وتسعين وثلاثمائة. وكان فاضلاً؛ وأظن أنَّ ولايته القضاء كانت بعد أيام سعيد الدولة، بعد القاضي أبي محمد عبيد الله بن محمد بن أحمد.

---

١ ـ من أنواع المهدي المنتظر، وظهر هذا بين قبائل حلب سنة ٣٩٤/١٠٠٣م ودعا إلى الجهاد ضد الروم، مما سبب اضطراباً في الأراضي البيزنطية، فأوعز الامبراطور باسيل الثاني إلى لؤلؤ بالقبض عليه فغرر به وتخلص منه. انظر كتابي امارة حلب ص٣٦.

٢ ـ كان هناك أصفر آخر نشط في أراضي الجزيرة وقد قبض عليه نصر الدولة ابن مروان حاكم ميافارقين. إمارة حلب ص٣٦.

٣ ـ له ترجمة في مختصر تاريخ دمشق لابن منظور ج١٢ ص٣٢.

وَوَلَّى لؤلؤ قضاءَ حلب في هذه السنة أبا الفضل عبد الواحد بن أحمد بن الفضل الهاشمي.

وتوفي لؤلؤ الكبير بحلب في سلخ ذي الحجة من سنة تسع وتسعين وثلاثمائة. وقيل: ليلة الأحد مستهل المحرّم سنة أربعمائة؛ ودفن بحلب، في مسجده المعروف به، فيما بين باب اليهود وباب الجنان؛ وكانت داره القصر بباب الجنان؛ وله منها إلى المسجد سربٌ يدخل فيه إلى المسجد، فيصلي فيه.

وكان لؤلؤ يعرف بلؤلؤ الحجراجي[1]؛ ويعرف بذلك لأنه كان مولى حجراج، أحد غلمان سيف الدولة؛ فأخذه منه وسمّاه لؤلؤ الكبير. وكان عاقلاً، محباً للعدل، شهماً؛ وظهرتْ منه في بعض غزوات سيف الدولة شهامة، فتقدَّم على جماعةٍ رفقته من السيفية والسعدية.

١ ـ في أخبار الدولة المنقطعة ـ الدولة الحمدانية ـ ص٥٧ : لؤلؤ الحمداني، لؤلؤ الجراحي.

[عهد منصور بن لؤلؤ][1]

وتقرّرتْ إمارة حلب بعده لابنه:

أبي نصر منصور بن لؤلؤ ولقِّب مرتضى الدولة.

وكان ظالماً عسوفاً، فأبغضه الحلبيّون وهجوه هجواً كثيراً فمما قيل فيه:

لَـمْ تُلَقَّب وَإنَّما قِيل فَـألا مُرْتَضَى الدَّوْلَةِ التي أَنْتَ فِيهَا

وسيّر مرتضى الدولة ولديه أبا الغنائم وأبا البركات إلى الحاكم وافدين عليه، فأعطاهما مالاً جسيماً؛ وأقطعهما سبع ضياع في بلد فلسطين، ولقَّب أباهما مرتضى الدولة، وكان ذلك قبل موت لؤلؤ بسنة[2].

وكان لسعد الدولة بن سيف الدولة بحلب ولدٌ يقال له أبو الهيجاء، وكان قد أوصى سعدُ الدولة لؤلؤاً لما مات به؛ فلما أن ملك لؤلؤ خاف منه، وضيّق عليه لؤلؤ ومرتضى الدولة؛ وكان قد صاهر ممهد الدَّولة أبا منصور أحمد بن مروان صاحب ديار بكر على ابنته؛ وأظن ذلك كان في أيام أبيه.

١ ـ أضيف مابين الحاصرتين للتوضيح.
٢ ـ انظر كتابي إمارة حلب ص٣٩.

فخاف أبو الهيجاء من لؤلؤ وابنه مرتضى الدولة، فتحدَّث مع رجل نصراني يعرف بملكونا كان تاجراً وبَزّازاً لمرتضى الدولة، فأخرجه من حلب هارباً، والتجأ إلى ملك الروم فلقبه الماخسطرس.

فلما كثر ظلمُ منصور وعسفُه رغب الرعية وبنو كلاب المتدبّرون ببلد حلب في أبي الهيجاء بن سعد الدولة؛ وكاتبوا صهرهَ مُمَهِّدَ الدَّولة ابنَ مروان في مكاتبة باسيل ملك الروم في إنفاذه إليهم.

فأنفذ إلى الملك يسأله تسيير أبي الهيجاء إليه ليتعاضدا على حلب، ويكون من قبله من حيث لايكلفه إنجاده برجال ولا مال.

فأذن باسيل لأبي اليهجاء في ذلك، فوصل إلى صهره بميَّافارقين، فسيّر معه مائتي فارس وخزانه؛ وكاتَبَ بني كلاب بالانضمام إليه.

وسار قاصداً حلب في سنة أربعمائة فخافه منصور، ورأى أن يستصلح بني كلاب ويقطعهم عنه، لتضعف مُنَّتُهُ؛ فراسلهم ووعدهم بإقطاعات سنية؛ وحلف لهم أن يساهمهم أعمال حلب البرَّانيَّة.

واستنجد مرتضى الدولة بالحاكم، وشرط له أن يقيم بحلب والياً من قبله، فأنفذ إليه عسكر طرابلس مع القاضي عليّ بن عبد الواحد بن حيدرة قاضي طرابلس، وأبي سعادة القائد والي طرابلس، في عسكر كثيف فالتقوا بالنقرة.

وتقاعد العرب عن أبي الهيجاء لِما تقدّم من وعود مرتضى الدولة لهم،

فانهزم أبو الهيجاء راجعاً إلى بلد الروم ونُهِبَتْ خيامهُ وجميعُ ما كان معه.

ثم دخل إلى القسطنطينية فأقام بها إلى أن مات[1].

وكان الحاكم قد كتب لمنصور بن لؤلؤ في شهر رمضان من سنة أربع وأربعمائة سجلًا، وقُرِىء في القصر بالقاهرة، بتمليكه حلب وأعمالها؛ ولقّب فيه بمرتضى الدولة.

وكان في قلعة عزاز غلام من غلمان مرتضى الدولة فاتهمه في أمر أبي الهيجاء، فطلب مرتضى الدولة منه النزول فلم يفعل، وخاف منه وقال: «ماأسلّمها إلا إلى القاضي ابن حيدرة» فسلمها إليه.

وكتب القاضي فيها كتاباً إلى الحاكم، وسلّمها إلى مرتضى الدولة، فنقم عليه، وقتله بعد ذلك.

وأما أبو الهيجاء فأقام بالروم إلى أن مات.

وعاد قاضي طرابلس إلى منصور يطلب منه ما كان وعده به، فدافعه، فرجع إلى طرابلس خائباً..

وكان أبو المعالي بن سعيد الدولة بمصر، فسيَّره الحاكم بعساكر المغاربة إلى حلب، فوصل معرَّة النُّعمان في سنة اثنتين وأربعمائة؛ وأرادت العربُ الغدر به، وبيعَه من مرتضى الدولة، لأنهم أغاروا. وركب يريدهم، فأخذه مضيء الدولة نصر الله بن نزَّال وردَّه إلى العسكر، ورجع فمات بمصر[2].

١ ـ عالجت هذا الموضوع في كتابي إمارة حلب ص٣٩ ـ ٤٢ .
٢ ـ إمارة حلب ص٤٢ .

[قيام الدولة المرداسية][1]

وأما بنو كلاب فانهم طلبوا من مرتضى الدولة ماشرطه لهم من الإقطاع، فدافعهم عنه، فتسلطوا على بلد حلب، وعاثوا فيه، وأفسدوا، ورَعوا الأشجار وقطعوها، وضيّقوا على مرتضى الدولة، فشرع في الاحتيال عليهم، وأظهر الرغبةَ في استقامة الحال بينهم وبينه وطلبهم أن يدخلوا إليه ليحالفهم ويُقطعهم ويحضروا طعامه، واتخذ لهم طعاما.

فلما حصلوا بحلب مدّ لهم السماط وأكلوا وغُلِّقت أبواب المدينة، وقُيِّد الأمراء: وفيهم صالح بن مرداس، وفيهم أبو حامد وجامع ابنا زائدة. وجعل كبار الأمراء بالقلعة، ومن دونهم بالهُرْي. وقَتَلَ منهم أكثر من ألف رجل، وذلك لليلتين خلتا من ذي القعدة من سنة اثنتين وأربعمائة[2].

فجمع مقلِّد بن زائدة مَنْ كان من بني كلاب خارج حلب، وأجفل بالبيوت، ونزل بهم كفر طاب وقاتلها، فرماه ديلميّ اسمه بندار فقتله، في

١ ـ أضيف مابين الحاصرتين للتوضيح .

٢ ـ يعد هذا الحادث مقدمة لنهاية الدولة الحمدانية واسبابها وبداية لقيام الدوله المرداسيه. انظر المعالجة المفصلة لهذه المسألة في كتابي إمارة حلب ص٤٢ ـ ٤٥ .

أوائل سنة ثلاث وأربعمائة. وكان مرتضى الدولة قد أخرج أخويه أبا حامد وجامعاً وغيرهما؛ وجعلهم في حجرة، وجعل فيها بسطاً، وأكرمهم لأجل مقلّد. فلما جاءه خبر قتله أنفذ إليهم يعزّيهم به فقال بعضهم لبعض: «اليوم حبسنا».

وسيّر مرتضى الدَّولة إلى صالح بن مرداس، وهو في الحبس، وألزمه بطلاق زوجته طرود، وكانت من أجمل أهل عصرها؛ فطلَّقها، وتزوجها منصور، وهي أم عطية بن صالح، وإليها ينسب مشهد طرود، خارج باب الجنان، في طرف الحلبة. وبه دفن عطية ابنها؛ ومات أكثر المحبّسين بالقلعة في الضُرّ، والهوان، والقلة، والجوع.

وكان مرتضى الدولة في بعض الأوقات إذا شرب يعزم على قتل صالح، لحنقه عليه من طول لسانه، وشجاعته. فبلغ ذلك صالحاً، فخاف على نفسه، وركب الصعب في تخليصها؛ واحتال حتى وصل إليه في طعامه مبردٌ؛ فبرد حلقة قيده الواحدة، وفكّها وصعبت الأخرى عليه، فشدَّ القيد في ساقه، ونقب حائط السجن؛ وخرج منه في اللَّيل؛ وتدلّى من القلعة إلى التلّ، وألقى نفسه فوقع سالماً ليلة الجمعة مستهل المحرم سنة خمس وأربعمائة.

واستتر في مغارة بجبل جوشن، وكثر الطلب له والبحث عنه، عند الصباح؛ فلم يوقف له على خبر، ولحق بالحّلة؛ واجتمعت إليه بنو كلاب؛ وقويتْ نفوسُهم بخلاصه، وبعد ستة أيام ظفر صالح بغلام لمنصور كان قد

أعطاه سيف صالح، فاستعاده منه وأيقن بالظفر، وتفاءل بذلك[١].

ولما كان في اليوم العاشر من صفر نزل صالح بتلّ حاصد[٢] من ضِياع النقرة يريد قسمتها، بعد أن جمع العرب واستصرخهم؛ وكان يعلم صالح محبة مرتضى الدولة لتل حاصد.

فحين علم منصور بنزول صالح على تلّ حاصد، رأى أن يعاجله قبل وصول المدد إليه، فجمع جُنْدَهُ، وحَشَد جميعَ مَنْ بِحلب من الأوباش، والسُّوقةِ، والنَّصارَى، واليهود؛ وألزَمَهُم بالسَّيرِ معهُ إلى قتالِ صالح؛ فخرجوا ليلة الخميس ثاني عَشَر صفر من سنةِ خمس وأَربعمائةٍ.

وبلغني: أنَّ مرتضى الدَّولة لما وَصَل إلى جبرين[٣] تطَيَّر وقال: جُبِرْنا؛ فلمَّا وصَلَ بوشَلا[٤] قال: شُلِلنَا؛ فلمَّا وَصَل تَلَّ حَاصِد قال: حُصِدْنا.

وأصبح عَلَيْهم يومٌ شديدُ الحرّ فماطلهم صَالح باللّقاء، إلى أن عطش العوام وجَاعُوا؛ وسيَّر جاسُوسا إلى العَسْكر فجاء وأخبره أَنَّ مُعْظم عسكره

---

١ ـ المرجح أن هروب صالح تمَّ على غير هذه الصورة، وأن الأمر دُبّر مع متولي قلعة حلب أو سواه. انظر إمارة حلب ص٤٥.

٢ ـ في منطقة السفيرة ـ محافظة حلب، قرية اسمها الآن تل حاصل واقعة شمال جبل الأحص، فلعلها هي التي عرفت من قبل باسم تل حاصد. المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري.

٣ ـ جبرين مزرعة قرب حلب تبعد عنها مسافة ٨ كم نحو الشرق. المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري.

٤ ـ في منطقة أريحا ـ محافظة ادلب ـ معلم أثري اسمه «بشلله»، فلعله المقصود هنا، المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري.

من اليهود، والنَّصارى؛ وأنَّه سمع يهُودياً يقول لآخر بلُغَتهم: «والك حفيظه اطعَزه واتأخَّر، وإيَّاك يكون خَلفه آخر يطعزك بمطعازه، يخعّبْ بيتك للدَّواغِيث»[1].

فقوِيَ طمع صالح فيهم، وحمل عليهم فكَسرهم؛ وأَسَرَ مرتضى الدَّولة وسالمَ بن مُسْتفاد، أبا المرجَّا[2] الحمدانيّ، وخلقاً غيرهما.

وقُتل جمعٌ كثيرٌ من العسكر ومقدار ألفي راجل من العوام؛ وآثار عظامهم إلى اليوم مدفونة في أرجام حجارة شبيهة بالتلال، فيما بين تلّ حاصد وبُوشلا.

وانهزم أَبو الجيش وأَبو سالم أَخو مرتضى الدَّولة؛ وقصد القلعةَ فَضَبطَها أَبو الجيش المفلُول، وضبط البلد أَخوه أَبو الجيش وأُمّهُ.

وحدّث بنو كلاب أَنَّهم لم يرَوْا ولم يسمَعوا بأشجعَ من مرتضى الدَّولة، وأَنه لو لم يقِف به الحصان ما وَصَلُو إليه، وأَنَّه لما وقف به الحصان لم يُقدم عليه أَحدٌ حتى جاءه صالح، فقال: «إليَّ يامولانا». فَرَمى السَّيف من يده؛ فلما رماه تَقَرّبوا منه؛ وأَخذه صالح فقيَّده بالقيد الذي كان في رجله.

وكان بين هرب صالح وأسره مرتضى الدَّولة أحد وأَربعونَ يوماً. ورأَى صالح أَنّه لاقدرة له على أَخذ البلد لضبطه بأبي الجيش، فرأَى

١ ـ اطعزه: اطعنه، اضربه، ادفعه. يخعب: يخرب. الدواغيث = الدواويث جمع ديوث فيما أرجحه.

٢ ـ لسالم بن مستفاد ترجمة في بغية الطلب ص٤١٦١ ـ ٤١٦٣.

أَن يُوقع الصلح؛ فتراسلوا في ذلك؛ وأَشركوا أَبا الجيش في تقرير ذلك؛ فخرج مشايخ من أَهل حلبَ من أَبي الجيش في حديث الصلح وتقريره.

فلما وصلوا إلى صالح سَلّموا عليه غير هائبين له ولا مبجِّلين، لقرب عهدهم برؤيتهِ أَسيراً حقيراً؛ وكلَّموه بكلام جافٍ؛ وراددوه في شروطٍ شرطها عليهم؛ فأَحسّ منهم بذلك، فقال لهم: «قبل أَن نتفرق بيننا أَمر، اجتمعوا بأَميركم، وشاوروه فيما تتحدثون به معي من الشروط».

قال: فقاموا، ودخلوا على مرتضى الدَّولة، وفيهم الشاهدان اللَّذان شهدا على صالح بطلاق طرود، فوجدوا مرتضى الدَّولة على أَقبح صورة مكشُوف الرأس، على قطعة من كساء خلق، والقيد قد أَثّر في ساقَيْهِ فاحتقروه؛ وعظم صالحُ في أَعينهم؛ فهنأوه بالسَّلامة؛ فقال: «سلامةٌ العطبُ أَصلحُ منها»؛ ثم قال: «إنَّ الأمير صالح يطلب مِنّي طلاق طرُود، فاشهدوا عليّ أَنها طالق؛ ويطلب مِنّي تسليم حلب؛ ولستُ الآن مالكها، فدبّروا الأمرَ على حسب ما تَرَوْنه ويستصوبه أَخي أَبو الجيش، الذِي هو الآن المسَتوْلي على القلعةِ والمدينةِ».

فلم يزالُوا يتردَّدون بينهما؛ ويدخلون إلى حلب، ويُشاورون أَبا الجيش إلى أَن استقرّ الأمر مع صالح بعد التضرّع إليهِ وسؤالهِ باللُّطف في كلام خلاف مابدأوه به على أن يُطلق منصور؛ على أن يحمل إليه خمسين أَلف دينار عيناً؛ ومائة وعشرين رطلاً بالحلبيّ فضةً؛ وخمسمائة قطعة ثياب أَصنافاً مختلفة؛ ويُطلق جميع مَنْ في الحُبوس من بني كلاب وحرمِهم؛ وأَن يُقاسمه

باطن حلب وظاهرها شطرين؛ ويجعل ارتفاع ذلك نِصفين؛ وأن يزوجِهُ مرتضى الدولة بابنته.

فأجاب إلى ذلك ووقعتِ اليمينُ عليه؛ وأَخرج إلى صالح أُمه بجيلا، وزوجتَه أُم الكرم ابنة رباح السَّيفي، وأَولاده منها: أَبا الغنائم، وأَبا علي، وأباالحسن، وأَبا البركات، رهائن على المال.

وأطلق مرتضى الدَّولة فدخل إلى حلب يوم السبت لسبع بقين من صفر سنة خمسٍ وأربعمائة، فلمَّا حمل المال إلى صالح، خلَّى سبيل الرهائن؛ وباع كلّ واحدٍ من العرب ماحصل في يده من الغنيمة والأسارى من الجند وغيرهم من الرعيَّة المسلمين وأَهل الذِّمة لأهاليهم بما اتفق؛ واستَغنى العرب وقويت شوكتُهم.

ولما حصل منصور إلى حلب عاد إلى عادته الأولى في الغدر، ومنع صالحاً ما صالحه عليهِ من ارتفاعِ البلاد والتزوُّج بابنتِهِ؛ فضيّق صالح عليه، وحارَبَهُ، ومنع الميرة أن تدخل إليه حتى ضاقَتْ على الرَّعيّة فكرهوه[1].

وانضاف إلى ذلك أنه وقعت التّهمة بين مُرتضى الدَّولة وبين غلامه فتح القَلعي ـ وكان والي القلعة ـ في العاشر من شهر رجب من سنة ست؛ فاتهمهُ بأنَّه هو الذي هرَّب صالحاً، وتتابع لَوْمُهُ له، وقال: لولا قلّة تحفُّظِهِ وتضجيعه

١ ـ تطور الصراع بين صالح بن مرداس ومنصور بن لؤلؤ، إلى درجة عرضه على الامبراطور البيزنطي باسيل الثاني. انظر امارة حلب من ٤٥ ـ ٤٧ .

في الاحتياط على صالح لما هرب من السّجن؛ وهذه المحن كُلّها بسببه. وتواعده.

وعزم على أَن يوّلي قلعة حلب صاحباً له يعرف بسرور، فأسرَّ ذلك إليه؛ فنمَّ الخبر من سرور إلى رجل يقال له ابن غانم صديق لفتح، فأطلعه على ذلك؛ فخاف فتح القلعيّ منه، فوافق المقيمين معه على العصيان؛ فأجابوه إلى ذلك.

وطلب نزوله فتعلَّل، وأخذ حذره منه؛ ثم كاشفه بالعصيان؛ فصعدت إليه بجيلا والدة مرتضى الدولة وعنَّفته، فلم يُصغ إلى قولها، فقالت له: «كيف تفعل هذا مع ابن سيدك؟» ـ لأنه كان مولى لؤلؤ السّيفي ـ فقال: «كما فعل هو وأبوه بأولاد سيّده» ـ يعني بولدي سعد الدّولة أبي الفضائل وأبي الهيجاء ـ.

ثم أنفذ فتح إليه وقال له: «إمَّا أن تخرج من حلب، وإلا سلمتُ القلعة إلى صالح». فبينا مرتضى الدولة في قصره سنة ست وأَربعمائة، إذ ضربت البوقات والطبول على القلعة، وصاح من فيها: «الحاكم يامنصور؛ صالح يامنصور» فظنّ منصور أن صالحاً قد حصل في القلعة، ففتح باب الجنان؛ وهَرَب هو وأخوه وأَولادُه، ومن تبعه من غلمانه إلى أنطاكية؛ وأخذ معه ماقدر على حمله من المال.

فلما علم أهل حلب بخروجه قصدوا داره؛ فأخذوا منها من الذّهب والفضّة والمراكب والأثاث ثمانين ألفاً من الدّنانير.

وأُخذ في جملة ما نُهِبَ له ثمانية وعشرون ألفاً من الدّفاتر المجلَّدة، وكانت مُفهرسَةً بخطّه في دَرْج؛ ونَهَبُوا دُور إخوته ودُور بعض النّصارى واليهود[1].

وَوَصل مرتضَى الدَّولة إلى أَنطاكية لخمسٍ بقين من شهر رجب، فطالع قطبانُ[2] أنطاكية الملكَ باسيل بهرب منصور إليه؛ فأنفذ إليه يأمره باكرامهِ، وأن يواصلة براتب وإقامةٍ، وكذلك برزقِ أجنادهِ وأَصحابهِ؛ ففعل ذلك، وكان جملتهم سبعمائة رجل من فارسٍ وراجل؛ وأن لاينقصه في المخاطبةِ والكرامة من الرسم الذي كان يخاطبه به في أيَّام امارته، وأمر أن يلقَّب بالماخسطرس.

واستدعى الملك إخوته وابنيّه: أبا الغنائم، وأبا البركات؛ فخلع عليهم؛ وأنفذ على أَيديهم توقيعاًباقطاع عدّة ضياع له ولهم؛ وكان من جملتها شيح لَيْلُون[3]؛ فعمر مرتضى الدولة حصنها، وسكن فيه ليقرب عليه ما يحتاج إلى معرفته من أمور حلب.

أما مرتضى الدولة فانه عمر إلى أَن قدم أَرمانوس من القسطنطينية؛ ونزل على تبّل في سنة إحدى وعشرين وأَربعمائة، وكان معه إذ ذاك، وتوفي بعد ذلك[4].

١ ـ بهذه الواقعة انتهى حكم الدولة الحمدانية فعليا من حلب، ويعتقد أن للخلافة الفاطمية دورها في عصيان فتح على منصوربن لؤلؤ. امارة حلب ص٤٨ ـ ٥٠ .

٢ ـ Catapan أي حاكم.

٣ ـ هي في بغية الطلب ج١ ص٢٣٣ «شيح اللون»، في منطقة أنطاكية.

٤ ـ سترد أخبار حملة الامبراطور رومانوس الثالث على حلب بعد مقتل صالح بن مرداس.

[الحكم الفاطمي لحلب][1]

وأما فتح القّلعي أبو نصر فإنه نادى بشعار الحاكم صاحب مصر؛ وصالَحَ صالِحَ بن مرداس على نصفِ الارتفاع ظاهراً وباطناً؛ وسلَّم إليه حرم منصور وحرم إخوتهِ وأولاده، ليسيّرهم إلى ابن لؤلؤ إلى أنطاكية؛ وفي الجملة بُنته التي وعده أن يزوّجه بها؛ فأخرجهم صالح إلى الحلَّة وضبط عنده بنتَه التي وَعَدُه بتزويجها منه؛ ودخل إليها وأنفذ إليه بقيَّة الحرم.

وتسلّم صالح الأعمال والضّيَاع التي تقرَّر مع ابن لؤلؤ أن يدفعها إليه. واستدعى والي أفامية أبا الحسن عليّ بن أحمد العجميّ المعروف بالضَّيف، فأنزله بالمدينة بالقصر بباب الجنّانِ، في أوائل شعبان من سنة ستَ وأربعمائة.

وبقي «فتح» بالقلعة فأحسن «الضّيفُ» السيرةَ؛ وردّ على الحلبِيّين ما كان قد اغتصبه سيف الدولة وولده من أملاكهم؛ وبالغ في العدل[2].

١ ـ أضيف ما بين الحاصرتين للتوضيح.

٢ ـ كان صالح بن مرداس معاديا لسقوط حلب للفاطميين، وكذلك فعلت الامبراطورية البيزنطية، مما سيؤدي إلى تطورات سريعة تقود نحو تأسيس حكم الدولة المرداسية. امارة حلب ص٥٠ ـ ٥١.

وكاتب «فتح» الحاكم يخبره بما فعل، فوردت مكاتبةُ الحاكم إليه يتضَّمن شكره على مافعل، ولقّبه مبارك الدولة وسعيدها.

وكتب إلى أبي الحسن الضَّيف يأمره بمعاضدتِهِ، ولقّبه سديد الدولة، وكتب إلى صالح بن مرداسٍ يأمره بالاتفاق معهما، ولقَّبه أسد الدولة.

وكتب لأهلِ حلب توقيعاً باطلاق المُكوس والمظالم، والصفح عن الخراج؛ وهو عندي متوّج بعلامة الحاكم عليه: «الحَمْدُ لله رَبِّ العَالَمِينَ». ونسخته:

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

هذا مِن أَمْرِ الإمام الحاكمِ بِأَمْرِ الله أَميرِ المُؤْمنين لجميع أهل حلبَ وأعمالها..

إنَّه لَمَّا انتهى إلى أمير المؤمنين ما أنتم فيه من الظُلْمة المُدلهمّة، وقبيح ظفر[1] من يتولّى أمورَكم في المعاملات وزيادتهم عليكم في الخراج والجبايات، إضعافاً لكم، وعُدُولاً عن سَنَنِ الحقّ بكم، أمر ـ زادَ الله أَمْرَهُ عَلُواً وَنَفَاذاً ـ بإطلاقِ المُؤَن مِنْ دَارِكُورَه ونَظَائِرِها؛ والصَّفْحِ عَن الواجب عليكم مِنْ مَالِ الْخَراج لاسْتِقْبَال سْنَةِ سَبْعٍ وَأَرْبَعمائَة، لِتَعْلَمُوا أَن ضِيَاءَ الدَّوْلةِ النَّبَوِيَّةِ قَدْ لَمَعَ وَظَهَر، وأنَّ حندسَ الظلام قد انجاب وَدَثَر».

وذكر تمامه.

١ ـ كذا بالأصل، وأراها تصحيف «نظر».

وَوَصَل من قبل الحاكم والي طرابلس مُختار الدولة ابن نزال الكُتَامِي ؛ ووالي صيدا مرهف الدّولة بجكم التركي ؛ وكانوا جميعاً في البلد من قبل الحاكم.

ثم كتب الحاكم إلى حسّان بن المفرّج بن الجرّاح الطائي[1] وعشيرته، وسنان بن عُليان الكلبيّ وعشيرته[2]، بالاحتياط على حفظ حلب، وأتبع ذلك بمكاتبة إلى «فتح»، يمنّيه ويعده الجميل إذا سلَّم القلعة. فأجاب إلى تسليمها؛ وأخذ جميع ماكان بها من الذَّخائر لمنصور من عَيْن، وورقٍ، ومتاعٍ، وسلاح.

وكتب بولاية صور، فسلّم القلعة إلى الأمير عزيز الدولة أبي شجاع فاتك، في شهر رمضان من سنة سبع وأربعمائة[3]. وكان الحاكمُ قد خَلَعَ عليه في جُمادى الأولى من سنة سبع وأربعمائة. وحمله على عدةٍ من الخيل بسروج محلاة بذهبٍ مصفّحة؛ وقلّده سيفاً ومنطقةً بمنطقة وسيّره إلى حلب.

وتوجّه «فتحُ» إلى صور. وولّى «الضّيف» بحلب في سنة سبع

١ ـ لحسان بن المفرج ترجمة في بغية الطلب ص ٢٢٣٩ ـ ٢٢٤١.

٢ ـ سترد بعد قليل أخبار الحلف الثلاثي فيما بين صالح بن مرداس وسنان بن عليان، وحسان بن المفرج ضد الخلافة الفاطمية.

٣ ـ بهامش الأصل: مطلب: «وقد كان صالح راسل فتحاً وأشار عليه أن يقيم بالقلعة ويكون هو خارج حلب وأن نتفق على إخراج المغاربة من حلب والاجتماع على حفظها. فعلم أهل حلب بذلك فاجتمعوا تحت القلعة، وقالوا: مانريد إلا المغاربة، ولا رغبة لنا في البادية. وصارت فتنة، فكتب الضيف إلى الحاكم يطلب منه أن يمده بالعساكر لتقوى يده على صالح؛ فسيّر إلى ولاة البلاد يأمرهم بالتوجه إليه هـ.».

وأربعمائة، حين تولّى، القاضي أبا جعفر محمد بن أحمد السمناني الحنفي القضاء بحلب.

وكان عزيز الدولة أرمنياً لبنجوتكين مولى العزيز صاحب مصر. وكان بنجوتكين شديد الشَّغَف به؛ وكان أديباً عاقلاً، كريماً، كبير الهمّة. فولاه الحاكمُ حلبَ وأعمالها؛ ولقّبه أمير الأمراء، عزيز الدولة، وتاج الملّة. ودخل حلب يوم الأحد الثاني من شهر رمضان من سنة سبع وأربعمائة.

وكان مُحبّاً للأدب والشّعر. وصَنَّفَ له أبو العلاء بن سليمان «رسالة الصّاهل والشّاحج» و«كتاب القائف».

وفيه يقول القائد أبو الخير المُفَضَّلُ بنُ سَعِيد العَزِيزيُّ شاعرُه يَمْدَحُهُ، ويذكرُ وقود قلعة حلب ليلة الميلاد، وكان الغيمُ قد ستر النجُوم:

ابقَ للمَعْرُوفِ والأدَبِ ... آمِناً مِنْ صَوْلَةِ النُّوَبِ
يا عَزِيزَ الدَّوْلَةِ الملك الـ ... ـمنتضى للمجدِ والحسَبِ
كيْفَ يَخْشى الدِّينُ حادثةً ... وعزيزُ الدّينِ في حلبِ
سُدَّ مِنْهُ ثَغْرُها بِفَتىً ... لا يشوبُ الجدَّ باللَّعبِ
أضرَمَ العنقاءَ قَلْعَتَهُ ... فَبَدَتْ في منْظرٍ عَجَبِ
لزَّتِ الأرض السَّماء بها ... فَثَنَتْ كشحاً على وَصَبِ
ورمتْها بالشرار كما ... رَمَتِ الغبراء بالشُّهُبِ
أُوقِدتْ تحتَ الغَمَامِ فما ... يَلْقَها مِنْ مُزنَةٍ يَذُبِ
سخَنَتْ حَوْض الحَيَا فَهَمَى ... بجحيم عَنْهُ مُنْسَكِبِ

لـو تـدومُ النَّـارُ نَشْقَـهُ   حَـرُّ مـا يلقَى فلم يصبِ
طلعتْ شَمْسُ النَّهـارِ بِهـا   والـدُّجى مَسْـدولَـةُ الحُجَبِ
فلو أنَّ النـار لاحِقَـةٌ   بـالنُّجوم الزّهـر من كَثَبِ
حـكـتِ الـشـمّاءُغـانـيـةً   حُلِّيَتْ بـالـدُّر والـذَّهَـبِ
حاربتْها الـريح فـاضطَّرَمَتْ   غضْبَـة مِنْ شِـدَّةِ الغَضَبِ
جـاذبـتْها في تـغـيُّـظهـا   شُـعَـلاً مُحْـمَـرَّةَ الـعَـذَبِ
يـا أَمـيرَ الآمـرين ويـا   مُسْتَجـارَ القصْـدِ والـطَّلَبِ
قَدْ نَفَيْتَ اللَّيْلَ عَنْ حَلَبِ   نَفْيَ مَـظلُوم بـلا سَبَبِ
وَتَـركْتَ الشَّمْسَ حـائِـرَةً   في دُجى الظَّلْمَاء لم تَغِبِ

وعزيزُ الدولة هذا، هو الذي جدَّدَ القصر تحت قلعة حلب؛ وتناهى في عمارته؛ وحمّام القصر كانت له، وجعله ملاصقاً لسفح القلعة؛ وقصد بعمارته قربه إلى القلعة، خوفاً مما جرّى لمرتضى الدولة. وكان متّصلاً بالقلعةِ وهو الذي أمر بعمارة القناديل الفِضَّة للمسجد الجامع، وهي باقيةٌ إلى الآن واسمُهُ عليها.

وكلّف عزيزُ الدولة أسدَ الدَّولة صالحَ بن مرداس أَن يحمل والدتَه إلى حلب، لتسكن الأنفس ويعلم العوامّ التئام الكلمة والتضافر على الأعداء، ففعل ذلك في سنة ثمان وأربعمائة.

ثم إنَّ عزيز الدولة تغيّر عليه الحاكم فعصى عليهِ، وضَرَبَ الدينار والدّرهم باسمه بحلب، ودعا لنفسه على المنبر، فأرسل الحاكم إلى الجيوش، وأمرها أَن تتجهزّ إليه في سنة إحدى عشرة وأربعمائة.

فلما بلغ عزيز الدولة ذلك أرسل إلى باسيل ملك الرم يستدّعيهِ ليُسَلّم إليه حلب، فخرج باسيلُ الملك؛ فلمَّا بلغَ موضعاً يعرف بمرج الدّيباج[١]، بلغ عزيز الدولة وفاة الحاكم، فأرسل إلى باسيل يعلمه أنَّهُ قد انتقض ما كان بينهما من الشرَّط، وأنّه إن ظهر كان هو وبنو كلابٍ حرباً له.

فعدل باسيل إلى مناز كرد[٢] فأخذها من الخزر، وكان الناس قد أجفلوا من ملك الرُّوم إلى حلب؛ فكانت هذه الجفلة تسمى جفلة عزيز الدولة لأنها بسببه.

ولما اطمأنَ عزيزُالدَّولة بموت الحاكم، ووصَلتْهُ من الظّاهر الخِلَع من مصر؛ ودخل غلام له يدعى تيزون، وكان هِندياً؛ وكان يميل إليه؛ ودخل في أوّل الليل عليه، وهو نائم في المركز، وفي يده سيفٌ مُجرّد مستور في كمّه ليقتله، فوجد صبياً من رفقته يغمزه فلما رآه الصبيّ حرَّك مولاهُ ليوقِظه، فبادر الهندي، وضربَ عزيزَ الدولة فقتله، وثّنى بالصبيّ، وقتل الهندي. وذلك كله لأربع ليالٍ خلت من شهر ربيع الآخر، سنى ثلاث عشرة وأربعمائة[٣].

وعَمِلَ شاعرُهُ المُفَضَّلُ بن سعيد:

لِحِمَـامِهِ المُقْضِيِّ رَبِّ عَبْـدَهُ ... ولِنَحْـرِهِ المُفْرِيِّ حَـدَّ حُسَامَـهُ

١ ـ واد عجيب المنظر نزه بين الجبال، بينه وبين المصيصة عشرة أميال. معجم البلدان.
٢ ـ بلد مشهور قرب خلاط، كان يعد في أرمينية، ليس بعيداًعن بحيرة وان وفيه ستحصل المعركة الحاسمة بين السلطان ألب أرسلان والامبراطور البيزنطي رومانوس دايجينس.
٣ ـ عالجت ملابسات اغتيال عزيز الدولة في كتابي إمارة حلب ص٥٢ ـ ٥٤ ، ويبدو أنه كان للخلافة الفاطمية دورها الكبير.

وكان الوالي بالقلعة، من قِبَل عزيز الدولة، أَبا النجم بدراً التركيّ مملوكاً كان لبنجوتكين مولى عزيز الدولة فاتك؛ وكانت بينهما في أيام بنجوتكين صداقة ومودّة بحكم المرافقة[1].

فلما تقدّم عزيز الدَّولة قرَّبه واصطفاه، وولاه القلعة بحلب من قبَلِهِ. وقيل: إنه مملوك لعزيز الدّولة، ويعرف ببدر الكبير. وقيل: إنّه هو الذي حمل تيزون على قتلِ عزيز الدّولة؛ فلما قُتِل استولى على البلد، يوم الأحد العاشر من شهر ربيع الآخر سنة ثلاث عشرة وأربعمائةٍ، ولُقِّبَ وفيَّ الدولة وأمينَها. وكان كاتب بدر رجلاً يقال له ابن مدبّر إلى أن وردت العساكر المصرية من جهةِ الظّاهر؛ وزعيمها سديد الدولة علي بن أحمد الضّيف؛ فتسلّم حلب من وفيّ الدّولة بدر.

ولما دخل الضَّيف على بدر بكتابِ الظَّاهر، لطَفَ به، واسترسل إليه، وطرح القيدَ في رجله، وقبضَ عليه، وانزله من القَلْعة، وتسلَّمها منه، فسلَّمها إلى صفيّ الدّولة أبي عبد الله محمد ابن وزير الوزراء أبي الحسن عليّ بن جعفر بن فلاح الكُتَامِيّ، يوم الأربعاء الحادي عشر من شهر رجب سنة ثلاث عشرة وأربعمائة.

وكان صفيّ الدولة هذا شاعراً أديباً؛ وأبوه عليّ وزر للحاكم؛ وجدّه جعفر بن فلاح أحد قواد المصريين؛ ووليت القلعة يمن الدّولة سَعَادة الخادم

١ ـ بهامش الأصل: «وأظن أن عزيز الدولة ولـىّ قضاء حلب في أيامه أبا علي أحمد بن أبي ابراهيم الشريف الحسيني، وأقطعه اللجينة والله أعلم».

المعروف بالقلانسيّ، وكان خادماً بلحيةٍ بيضاء؛ وكان من أفاضِلِ المسلمين؛ فيه الدّينُ والعلمُ؛ وجعل الظّاهر في المدينة والياً، وفي القلعة والياً خوفاً أن يبدو من والي حلب ما بدا مِن عزيز الدّولة فاتك.

وعزل صفيّ الدولة بن فلاح عن حلب، يوم الاثنين النصف من المحرّم سنة أربع عشرة وأربعمائة.

وولّى حلب الأمير سند الدولة أبو محمد الحسن بن محمد بن ثعبان الكتامي الجَيْمُليّ، وكان وأهله من وجوه كُتَامة، وكان والياً بحصن أفامية. وهو الذي كتب إليه أبو العلاء بن سليمان «الرسالة السَّنَدِّية» في مجلَّدٍ واحدٍ، وكان وزيره أبو سعيد مُشْبح.

وتُوّفي سَنَدُالدّولة بمرضٍ ناله بحلب، يوم الخميس لثمانٍ بقين من شهر ربيع الآخر سنة خمس عشرة وأربعمائةٍ.

وكان خبرُ مرضه قد وصل إلى الظّاهر، فكتب إلى أخيهِ سديد الملك أَبي الحارث ثعبان بن محمد بن ثعبان إلى تنّيس[1]، وكان يليها، أن يسير والياً إلى حلب.

فخرج من تنّيس في البحر إلى طرابلس، وسار من طرابلس جريدةً فورد إلى حلب، وقد تُوّفي أخوه. وكان وصوله إلى حلب، يوم الأحد السابع عشر من جمادى الأولى سنة خمس عشرة وأربعمائة.

---

١ ـ تنيس بلدة مابين الفرما ودمياط. معجم البلدان.

وكان قاضي حلب، في سنة خمس عشرة وأربعمائة، أبا أسامة عبد الله بن أحمد بن علي بن أبي أسامة، نيابةً عن ابن أبي العوّام قاضي مصر عن الظّاهر. وولّي القلعة أبو الحارث موصوف الخادم الصقْلابي الأبيض الحاكميّ، من قبل الظّاهر؛ وكان شجاعاً، عاقلاً؛ وأقاما فيها واليين أحدُهما بالمدينة، والآخرُ بالقلعة، إلى أن حالف الأميرُ أبو عليّ صالح مرداس بن ادريس الكلابي سنانَ بن عليان الكلبيّ، وحسّان بن المفرّج بن الجرّاح الطائي على الظّاهر؛ وتحالفوا على احتواء الشّام، وتقاسموا البلاد. فتكون: فلسطين وما يرَسْمِها لحسَّان؛ ودمشق ومايُنسب إليها لسنَان؛ وحلب وما مَعَها لصالح. فأنفذ الظّاهر إلى فلسطين أنوشتكين الدِّزبري[1] والياً، فاجتمع الأمراء الثلاثة على حربه، فهزموه إلى عَسْقَلان[2].

وفتح حسّان الرملة بالسّيف، في رجب سنة خمس عشرة وأربعمائة. وأحرق أكثرها، ونَهَبَها، وسَبَى خلقاً من النّساء والصِّبيان[3].

١ ـ للدزبري ترجمة في المقفى للمقريزي ج٢ ص٣٠٢ ـ ٣٠٦ .
٢ ـ مدينة فلسطينية على ساحل البحر بين غزة وبيت جبرين. معجم البلدان .
٣ ـ عالجت مسألة الحلف الثلاثي في كتابي إمارة حلب ص٧٦ ـ ٨٣ .

[إمارة صالح بن مرداس][1]

وسيّر صالح بن مرداس كاتِبَهُ أبا منصور سليمان بن طَوق، فوَصَلَ إلى معرّة مصرين؛ وغَلَبَ عليها؛ وقبض واليها؛ وقيَّده؛ وسار إلى حلب في جماعةٍ من العرب، لسبع بقين من رجب. فجرى بينه وبين سديد الملك ثعبان وموصوف الخادم، حربٌ في أيامٍ متفرّقة.

وسار صالح بن مرداس إلى حلب، في جمعٍ كثير؛ ونزلها يوم الأحد لسبع عشرة ليلة خلت من شهر رمضان من سنة خمس عشرة وأربعمائة؛ على باب الجنان. وجاب الحلل يوم الاثنين؛ وحاصرَها ستة وخمسين يوماً؛ فوقع خلفٌ بين موصوف الخادم وبين أبي المرجّا سالم بن مستفاد غلام سيف الدَّولة بن حمدان؛ وكان من كبار القوَّاد بحلب؛ وداره بالزَّجاجين، وحمَامُه أيضاً، آثارها باقية إلى وقتنا هذا.

فعزَمَ موصوف على قتل سالمٍ هذا؛ فجمع سالم جمعاً، وفتح باب قنّسرين؛ وخرج إلى صالح، فأخذ منه الأمانَ لنفسه، ولجميع أهل المدينة. وسلمت المدينة إليه، يوم السبت لثلاث عشرة ليلة خلت من ذي القَعْدة.

١ ـ أضيف مابين الحاصرتين للتوضيح.

واحتمى سديدُ المُلك بن ثُعبان في القَصر الملاصق للقلعَة؛ ونُصِبت المنجنيقاتُ والعَرّادات عليهِ وعليها.

ثم إنَّ صالحاً رتّب أبا المرجّا سالم بن المستفاد، وكاتبه سليمان بن طوق على قتالِ القصر والقلعة بحلب.

وسار إلى فلسطين منجداً حسّان بن المفرّج على الدّزبريّ، فإنه جمع، وعاد إليهِ في جيشٍ كثيفٍ، فالتقى الجيشان فكُسر الدّزبريّ، وعاد مفلولاً.

وأما قلعةُ حلب فإنَّ الحلبيين نقبُوها؛ ووصل النقب إلى بئرها المعين؛ وقلّ الماءُ فيها؛ ودام الحصار عليها سبعة أشهرٍ.

وراسل من في القلعة سالماً وسليمان في الصلح في عاشر ربيع الآخر؛ فلم يجيباهم. ونصبوا الصّلبان ثلاثة أيام؛ وَدَعَوْا لملك الرُّومِ؛ ولعنوا الظّاهر؛ ونقر الناقوس؛ وقاتلوا القلعة، ثم نفروا يوم الجمعة ثاني عشر الشّهر، وحملوا المصاحف على أطراف الرّماح في الأسواق؛ ونادوا النَّفير وزحفوا.

فاستأمن جماعة من المغاربة الذين في القلعة، فخلع عليهم، وطيف بهم في المدينة. وبسطت ثياب الدّيباج والسّقلاطون؛ وبدر المال مقابل القلعة، وبُذلت لمن ينزل إلى ابن مستفاد وسليمان مستأمِناً.

١ ـ السقلاطون: نوع من النسيج مصنع من الحرير الموشى بالذهب.

فلمّا يئس أَهلُ القلعة من النجدة نزل رجلٌ أسودُ يُعْرَفُ بأبي جُمعة، وكان عريف المصامِدة إلى المدينةِ، وبقي أياماً ينزل من القلعة ويصعَد فأفسده سالم بن مستفاد وسُليمان بن طَوق.

فلمّا جاء ليطلع القلعة في بعض الأيّام تقدّم موصوفُ الخادم والي القلعة بِرَدّ الباب في وجهه؛ فصاح إلى أَصحابه، فالتفتَ المصامدة والعبيدُ في القلعَة؛ ووقع الصوت إلى أَهل حلب، فطلعُوا إلى القلعَة من كلّ مكان[1].

ودخلَها ابن طَوق وابن مُستَفاد، يوم الاربعاء مستهلّ جمادى الأولى سنة ست عشرة وأربعمائة، وقدم صالح بن مرداس حلب عائداً من كسرة الدزبري. فدخلها يوم السبت ثامن شعبان من السنة، وقبض على موصوف الصقلبيّ وسديد الملك ثُعبان، وأبي الفضل بن أَبي أسامة.

فأما ثُعبان ففدَى نفسه بمالٍ دفعه إلى صالحٍ؛ وأمّا موصوف فضرب رقبته صبراً بين يديه. وأمّا القاضي أبو الفضل بن أبي أُسامة فدَفنه حيّاً في القلعة.

ولمّا جدّد الملك العزيزُأبو المظفّر محمّد بنُ غازي ـ رحمه الله ـ الدار الكبرى التي ابتناها بقلعة حلب، وحفر أساسها؛ وجدوا مطمورة فيها رجلٌ في ساقيهِ لبنة حَديد، وهو جالسٌ فيها قد دُفن حيّاً ولم يبق إلا عظامُهُ، وهو على هيئة القاعد فيها. ولا أشكُّ في أنّه ابن أبي أسامة المذكور؛ والله أعلم.

١ ـ انظر بشأن سقوط حلب لصالح بن مرداس ودور بيزنطة في ذلك كتابي إمارة حلب ص٧٧ ـ ٨٠.

وملك صالح في هذه السنة: حمص، وبعلبكّ، وصَيْدا، وحصن ابن عكار بناحية طرابلس. وكان في يده الرّحبة، ومنبج، وبالس، ورفنّيه[١].

وكان، وهو محبوس بالقلعة عند مرتضى الدولة، قد رأى في المنام كأنّ انساناً قد دخل عليه، فألبسّه قلنسوة ذَهب، ففرّج الله عَنْهُ؛ وخرج من السّجن؛ وكان منه ماذكرنا.

ثمَّ إن الظّاهر سيّر عسكراً مع الدزبريّ وضَمَّ رافع بن أبي الليل إليهِ وقَدَّمَهُ على الكلبيّين[٢]، وجهزّه إلى محاربة حسَّان بن المفرّج الطّائي، لأنّه كان قد أخرب الشام، وعاث، وأفسد.

فلما علم حسّان بقربه استصرخ صالحاً، فتوجّه نحوه؛ فرأى صالحٌ ذلك الشّخص في المنام بعينه، قد دخل عليه وانتزع من رأسِهِ القلنسوة الذَّهَب؛ فتطير من ذلك.

ولما وصل إلى حسّان ونشِبَت الحربُ بينهما وبين الدزبَري، وذلك بالموضع المعروف بالأقْحُوانة[٣] على الأرْدُنّ، طُعِنَ صَالحٌ فسقط عن فرسه،

---

١ ـ حلت محل رفنية بلدة بارين، التي يرسم اسمها الان «بعرين» وهي تتبع ناحية عوج وتبعد عنها ٨,٥ كم إلى الشمال، وتتبع عوج منطقة مصياف، وفي بعرين بقايا قلعتها التاريخية الشهيرة. المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري.

٢ ـ كان سنان بن عليان قد توفي، فتمزقت قبيلة كلب، وتحالف رافع بن أبي الليل مع الدزبري وصاهره، مما أخل بموازين القوى وأدى إلى انهيار الحلف الثلاثي. إمارة حلب ص٨١ ـ ٨٣.

٣ ـ كانت على شاطىء طبرية قرب عقبة أفيق. معجم البلدان.

طَعَنَهُ طريف الفزاري، فرآه رافِعُ بن أبي اللّيل فعرفه، فأجهز عليه، وقطع رأسه، وبادر به الدّزبري.

وقيل: طَعَنَهُ رجُلٌ يقال له ريحان. [وكان] أسد الدّولة صالح [على][1] فرس؛ فما زال يرمح حتى رماه، وجاءه رافع فأخذ رأسه؛ وكان مقتلُه لخمس بقين من شهر ربيع الآخر سنة عشرين وأربعمائة. وقيل: في يوم الأربعاء ثامن جمادى الأولى من السّنة.

وكان قاضي حلب في أيامه القاضي أبا يعلى عبد المنعم بن عبد الكريم بن سنان المعروف بالقاضي الأسود، بعد ابن أَبي أُسامة، ولي قضاءها سنة ست عشرة، واستمرّعلى القضاء في أيام ابنهِ شبل الدّولة.

وكان وزير صالح تاذرس بن الحسن النصراني، فأُخذ في الوقعة وصُلب وكان هذا النصراني متمكِّناً عند صالح؛ وكان صاحبَ السَّيف والقلم.

وقيل: إنّه كان يترجَّل له ـ لعنه الله ـ الولاةُ والقُضاةُ، فمن دونهم إلا القاضي أبا يعلى عبد المنعم بن عبد الكريم بن سنان قاضي حلب، والشيخ أبا الحسن المهذّب بن علي بن المهذّب فانه أراد أن يترجّلا له فحلف أن لايفعل.

١ ـ جاءت الجملة بالأصل مضطربة كما يلي «فرس أسد الدولة صالح، فما زال يرمح حتى» فأعيد تقويمها.

وقيل: إنَّ أهل «حاس»[٢] - قرية بمعرَّة النّعمان - قتلوا حَماه، وكان يقال له الخوري، وكان من أهل تلمنّس لأذّيته لهم؛ فحين سمع تاذرس بقتل حَميه الخوري، خرج في عسكر حلب؛ وطلب أهل «حاس» في الجبال والضّياع؛ وهرب القاتلون إلى أفامية، فلحقهم، فسلّمهم إليه واليها.

فكتب إلى صالح يستأذنه في قتلهم، فأذن له فقتلهم، وصلبهم، فلما أنزلوا عن الخشب ليُصلَّى عليهم ويُدْفَنوا، صلَّى عليهم خلقٌ عظيم.

وقال الناس حينئذٍ، يكايدُون النَّصارى: «قدْ رأينا عليهم طُيوراً بِيضاً، وما هِي إلا الملائكة»، فبلَغَت هذه الكلمة تاذرس - لعنه الله - فَنَقمها على أهل المعرَّة، واعتدها ذنباً لهم.

فاتفق أن صاحت امرأةٌ في الجامع، يوم الجمعة، وذكرتْ أَنَّ صاحب الماخور أَراد أَن يغصبها نفسها، فنفر كلّ من في الجامع إلا القاضي والمشايخ؛ وهَدَمُوا الماخُور، وأخذوا خَشَبَه؛ وكان أَسدُ الدَّوْلَةِ صالح في صيدا، سنة سبع عشرة وأربعمائة.

فلمّا توجَّه إلى حلب، سَنَة ثمان عشرة، لم يزل به تاذرس حتى اعتقل مشايخ المعرَّة وأماثلَها، فاعتقل منهم سبعين رَجُلاً، وقطع عليهم أَلْفَ

---

٢ - حاس: قرية في جبل الزاوية، تتبع ناحية كفرنبل، منطقة معرة النعمان، محافظة ادلب، تبعد آثارها عن المعرة ٩كم إلى الجنوب الغربي منها. المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري.

دينارٍ. وقال له صالح حين لجَّ عليهِ: «أَأَقْتُلُ المُهَذَّبَ أو أَبا المجد، بسبب ماخور! ما أفعل!».

وقد بلغني أنه دُعِيَ لَهُمْ في آمد وميَّافارقين؛ فغلبه على رأيه، فبقوا في الاعتقال في الحصن، سبعين يوماً، إلى أَن اجتاز صالح بالمعرَّة؛ واستدعى أبا العلاء بن سليمان بِظَاهر المعرَّة.

فلما حَصَل عنده بالمجلس قال له الشَّيخ أبو العلاء، ساعياً فيهم: «مَوْلانَا السَّيد الأجل أسد الدولة ومقدَّمها وناصحها، كالنَّهارِ المَاتِعِ، اشْتَدَّ هَجِيرُه، وَطَابَ أَبْرَداه، وَكَالسَّيفِ القَاطِعِ ،لانَ صَفْحُه، وَخَشُنَ حَدَّاه، ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عنِ الجاهِلِينَ﴾[1] فقال صالح: «قَدْ وَهبْتُهُمْ لك أَيُّها الشَّيْخ». ولم يعلم أبو العلاء بما قطع عليهم من المال فأخِذ منهم. ثم قال أبو العلاء شعراً:

تَغَيَّبْتُ فِي مَنْـزِلي بُـرْهَـةً سَتيرَ العُيُوبِ فقيدَ الحَسَدْ
فلمَّا مَضى العُمْرُ إلا الأقلَّ وحُمَّ لرُوحِي فِرَاقُ الْجَسَدْ
بُعِثْتُ شَفِيعاً إلى «صَالِحٍ» وذاك مِنَ الْقَومِ رأيُ فَسَدْ
فَيَسْمَعُ مِنِّيَ سَجْعَ الحَمَامِ وأَسْمَـعُ مِنْـهُ زَئِـيرَ الأَسَـدْ
فَـلا يُعْجِبَنِّيَ هَـذَا النِّفَـاقُ فَكَمْ نَفَقَتْ مِحْنَةٌ ما كَسَدْ[2]

١ ـ سورة الأعراف ـ الآية ١٧٧.
٢ ـ لزوم مالا يلزم ـ ط. دمشق ١٩٨٦ ص٥٣٤. إمارة حلب ص٢٠٩ ـ ٢١١.

[إمارة نصر بن صالح][1]

وَلَمَّا قُتل صالح بن مرداس؛ مَلَك حَلَب بعده ابناه:
معز الدولة أبو علوان ثمال في القلعة، وشبل الدولة نَصر في المدينة.

وأوقعا في هذه السنة على قِيبَار[2] بِقَطَبان أنطاكية ميخائيل الخادم. وكان قَصَدَ بلَدَ حلب بغير أمر الملك ولاطفه ثمالٌ ونصرٌ؛ فلم يرجع عن قَصْد بلد حلب؛ فكبساهُ في قِيبار، وهو يُقاتل حصنها؛ وقتل جماعة من الفريقين؛ وانهزم عسكر الرّوم يوم الخميس لليلةٍ بقيت من جُمادى الآخِرة.

ثم استعطّفاهُ واستقامت الحالُ بينهم[3]؛ وداما على ذلك إلى أن جرى بين مُعزّ الدَّولة ثمالٍ وبين زوجته كلام؛ فَغَضبتْ عليه؛ وخرجتْ إلى الحلَّة بظاهر حلب؛ فأمر ثِمالٌ أن يُصاغ لها لالَكَةٌ[4] من ذهب مرصّعة بالجواهر؛

١ - أضيف مابين الحاصرتين للتوضيح.
٢ - القيبار: حصن بين أنطاكية والثغور. معجم البلدان.
٣ - إمارة حلب ص٨٨ - ٨٩.
٤ - لالك بالفارسية: حذاء، عرف الديك، تاج، اكليل، المعجم الفارسي الكبير لابراهيم الدسوقي شتا. ط. القاهرة - مكتبة مدبولي.

فلما استوت أخذها في كُمِّهِ وخَرَج.

فحين علم نصر ركب واجتاز تحت القلعة، كأنّه يُريدُ الخروج من باب العِراقِ، في جماعةٍ من أصحابِهِ؛ وجَذَبَ سَيْفَه لَمَّا قارَبَ بابَ القَلْعَة؛ وَهَجَمَها فلمْ يُمانِعْهُ أحدٌ من الأجناد لهيبتِهِ؛ وتبعه أصحابُه مُجرّدينَ سُيُوفَهُم؛ فجلس في المركز وقال: «إنَّ من قدَّم أخي عَليَّ فقد أساء؛ لأنّني أَوْلَى بمُداراةِ الرّجال؛ وهو أَوْلَى بمُدارَاة النِّساء».

ومن ذلك اليوم جعِل لأبواب قلعة حلب سلسلة تمنع الرّاكب الصعود فجاءَةً، ورسم أن لايَدخلها أحدٌ مُتَقَلِّداً سيفاً، ولو أنَّه أقربُ النَّاس مودّة إلى مالكها.

فتفرَّد نصر بالأمر في القَلْعَة والبلد، وذلك في سنة إحدى وعشرين وأربعمائة. وكان وزيرهُ أبا الفرج المؤمَّل بن يوسف الشمّاس، الذي يُنْسَبُ إليه حمّام الشمّاس بحلب؛ في الجلُّوم[1]؛ وكان نصرانياً وكان حسن التّدبير، مُحِبّاً لفعل الخير؛ وكان أخوه ناظراً في البلد البرَّاني، فعمره، وعمر المساجد البرَّانية.

فجمع أبو عُلوان ثمال بن صالح الأعراب؛ وعَزَم على منازلة أخيه نصر؛ فسيَّر نصر إلى ملك الرُّوم أرمانوس - وكان قد هلك باسيل في سنة

---

١ - من أحياء حلب القديمة، كان ينفذ إلى ظاهر المدينة بباب أنطاكية غربا وباب قنسرين جنوبا. أحياء حلب وأسواقها لخير الدين الأسدي - ط. دمشق ١٩٨٤ ص١٦٤ - ١٧٢ .

خمس عشرة، وولي أرمانوس ـ يستدعيه إلى حلب فَخَرج على ما قيل في ستّمائة ألف حتّى وصل إلى أنطاكية.

فتوسّط مقدّمو العرب بين نصر وثمال؛ ووفقوا بينهما على أن يكون لنصر حَلَب؛ ولثمال بَالس والرَّحبَة؛ فرجع نصر عمّا كان راسَلَ به ملك الرُّوم.

وأرسل ابن عمه مُقَلّد بن كامل بن مرداس إلى مَلِك الرُّوم، يسأله أن لايقصده، ويحمل إليه من القطيعة ما كان يحمله أولاد سيف الدولة إلى باسيل، فأبى واعتقل مُقَلّد بن كامل عنده؛ فحين تحقّق رجوع نصر عن رأيه الأول جَبُن وضَعُفَ عن مُنازلة حلب.

وسار من أنطاكية إلى قيبار في بضعة عشر يوماً؛ وكسرت سريةٌ له عَرب حلب؛ وكانوا قد طاردوا عسكر الرُّوم، فاستظهر الرُّومُ عليهم، وكان معه ملك البُلغر، وملك الرُّوس، والأبخاز، والخزَر والأرمن، والبجنَاك، والأفرنج.

ونزل الملك بجيوشه على تبّل قريباً من الجبل، في موضع بعيد عن الماء، وضرب على عسكره خَنْدَقاً؛ وكانت أموالُه على سبعينَ جمَّازة؛ وكان قدر موضع عسكره لمن يدور حوله مقدار يوم في يوم للمجدّ الرَّاكب على فرس.

ولقيه في طريقه أبو علوان دفاع بن نبهان الكلابيّ في خيلٍ قليلة؛ فنال من سرَايَاه كلَّ ما طلب؛ وأرسل الملكُ سريّة فيها صناديدُ عسكره إلى عزاز؛

فلقيتها بنو كلاب، فَظَفِروا بها، وقتلوا بَطارقها، وأَسروا جماعةً من أولادِ الملوك الذين معهم، وجسرتْ عليهم بنو كلاب، فحاصروهم في الموضع الذي نزلُوا فيه.

ولقد أخبرَ بعضُ من شاهدهُم أن مقْثاوة كانت قريبةً من العسكر بمقدار رمية سهم، وأن الرُّوم لم يقطعوا منها قثّاءة واحدةً، خوفاً من العرب أن تتخطّفهم.

ولَّما كُسرت السريةُ التي أرسلها الملكُ أجمع رأيه على العود إلى بلادِهِ، واعتذر قائلاً: «لولا عَطَشُ عسكري لبلغْتُ مُرادي». وهجم نصر والعرب على سوقِ الملك فنهبُوه؛ وتأخَّر رحيلُ ملك الرُّوم من منزلتهِ ثلاثة أَيام.

وأَقبل شِبل الدولة نصر في تسعمائة وثلاثة وعشرين فارساً، وقيل في سبعمائة فارس؛ فحين أشرف على الرُّوم ظنّوا أنّها كبسة؛ فانهزموا؛ ومنَحَ الله أكتافَهم يوم الاثنين لسبع ليالٍ خلتْ من شعبان سنة إحدى وعشرين.

ونزع ارمَانوس الملك خُفَّه الأحمر لئلا يُعرف؛ ولبس خُفّاً أَسود ـ ولا يلبس الخُفَّ الأحمر عندهم إلا الملك ـ وهرب. وأَخذ شِبل الدَّولة تاجه وبلاطَه ولُبَّادَهُ؛ وهرب في أرمنٍ كانوا معه حَمَوْه بالسّهام[1].

وأَخذ الرُّوم الطريق إلى الجبل منهزِمين وطلَعُوا فيه، وحصلوا في بلد

---

١ ـ عالجت هذه الأحداث في كتابي إمارة حلب ص٨٧ ـ ٩٦ ، معتمدا على مختلف المصادر، لاسيما البيزنطية منها.

قُورس(١)، وكان للرُّوم. ولَحِقَ بعضُهم بعضاً ولم يبق مع الملك إلا القليل. وقتل المسلمون من بطارقته وغيرِهِم ما لا يُحصى، وأسرُوا مِنْ أولاد الملوك وغيرهم كذلك، واشتَغَل النَّاسُ بالنَّهب، وأَخَذُوا من الدَّواب والثياب والديباج والأمتعة وآلاتِ العسكر ما لايُوصَفُ.

وذُكِر أَنَّ طائفةً من بني قَطَنٍ من نُمَير وردتْ عند الهزيمة؛ فأخذت ثِقل الملك نحواًمن ثلاثمائة بغل محمَّلة،حتّى أَنَّهم تقاسموا الدنانير الأرمانُوسيّة بالقصعة؛ فَحَصَل لكلّ واحدٍ منهم ثماني عشرة حَفنه.

وكان ملك الرُّوم لما رحل طرح النَّار في المنجنيقات والعرَّادات والتّراس؛ ونهب النَّاسُ مِنها ما أَبقَتْهُ النَّار، حتى أَنَّ أكثرَ سقوف بلد حلب جُعِلت التّراسُ عليها عوض الدُّفُوف.

وقيل: إنَّ الناس بحلبَ باتوا على السّور قبل الوقعةِ بيوم، وفيهم ابن نمير العابد، فبات يُصَلّي على السُّور، وسجد في آخر اللّيل،فنامَ وهو ساجدٌ،فرأى في منامه عَلياً ـ عليه السَّلام ـ راكباً، ولباسُهُ أخضرُ،وبيدِهِ رُمحٌ،وهو يقول له: «ارفع رأسك ياشيخ، فقد قضيتُ حاجَتَكَ». فانتَبهَ بقَوْلِهِ فحكى للنَّاس ذلك، فتباشَرُوا به.

وحكي عن مرتضى الدَّولة أنَّه قال: «استدعاني أَرمانوس في آخر تلك

---

١ ـ لعل قورس المعروفة الآن باسم كويري، وتبعد عن حلب مسافة ٣٣ كم. وكانت قورس كالمسلحة لأنطاكية. بغية الطلب ج١ ص٢٦٣ ـ ٢٦٤ .

الليلة التي رأى ابن نمير تلك الرؤيا فيها، فقال لي: لكُم بحلب راهِب. فعلمتُ أنَّه يعني ابن نُمَيْر، فقلتُ: نعم؛ فقال: صفهُ لي! فوصَفْته، وحلّيتُهُ. فقال لي: رأيتُ هذا الرجل بعينه في هذهِ السَّاعة، وكأني قد أشرفتُ على سور هذه المدينة؛ وهو قائمٌ عليه يومي إليَّ بيدِ ويقُول: ارجعْ، فما تصل إلى هذا البلد. وتكرّر ذلك، ولا أَرى أنه يتمّ فيهِ شيء. فلمّا كان من غدٍ كُسرت السَّرية التي أرسلها الملك إلى عزّاز، ثم كانت الوقعةُ والهزيمة بعدَ ذلك».

وقد ذكرنا عن ابن نُمير نحواً من هذه الحكاية، عند منازلة ملك الروم حلب.

وحكى بعض الكتَّاب بحلب: أنه كان في خدمة وثّاب بن محمود بن نصر، عند تاج الدَّولة تتش بن ألب أرسلان، وهو في نوبتيه على ظاهر حماة، فخلع على وَثاب فرجيّة وشقّ، وقال: «هذه مبَاركة أخذها أبي السلطان ألب أرسلان من ديوخانس ملك الرّوم لَمَّا كسره»[1].

قال: فاستدعى وثَاب قحف مينا ظاهراًوباطناً، وقال: «هذا يامولانا مُبارك نشرب به لأن جدّي نصراً أخذه من الملك أرمانوس بناحية عزاز». فقال تاج الدولة: «ياوثّاب لم يكن بدٌ من مساواتي في الافتخار». فقال: «لا بل عرّفتُ مولانا كبر بيتي، وإنّني له كبعض العبيدِ الصِّغار». فقال له بالتركي: «بل أنتَ أخي الكبير». فقام وثاب؛ وقَبَّل الأرضَ قُدّام السّرير، فزاد في إقطاعهِ، وخَلعَ وحمله على مركوبِهِ.

١ ـ لما كسره في معركة منازكرد سنة ٤٦٣ هـ.

وقيل: إنَّ ثمالاً ونصراً حَقَد عليهما ملك الرُّوم ماجرى منهما على ميخائيل بناحية قيبار، فخرج بنفسِهِ، فسيّرا ابن عمهما مقلّد بن كامل يبذلان له الطاعة والخدمة، وكان قد سيّر إليهما يسومهما تسليم حلب، ويقول إنّه يخاف أن تتم عليهما حيلة فتخرج حلب من أيديهما؛ وعرض عليهما عوضاً عنها ما اختاراه؛ فاعتقلا رسوله انتظاراً لما يرد من جَوَاب رسالتهما.

فبلغَهُ ذلك فاعتقل مقلّد بن كامل، وخَرَج بنفسه؛ فأخرجا حرمهما من حلب إلى البرّيةِ خوفاً منه، حتّى كان من أمره ما ذكرناه؛ وكان ثمال في القلعة يحفظها، ونصر باشر القِتَال.

فلما عاد مَلك الرُّوم سار نَصْر وثمال لاحضار حرمهما، فسبق نصرٌ إليها، واستولى عليها، وعوَّض ثمالاً بوساطةِ من توسّط بينهما الرَّحبَة وبالس ومنبج وأعمالها.

وخرج بعد هذه الكسرة قَطَبان أنطاكية الخادم المعرُوف بنَقِيطا ـ وتفسيره بالعربية الدُويك ـ في خلقٍ عظيمٍ، فعاث في البلد العربيّ، وأفسد، وفتح حصن المنيقة، وهجم رفنيّة، وسبى عشرة آلاف من أهلها، ونَقَض أبرجة سُورها في سنة إحدى وعشرين؛ وفتح في سنة اثنتين حصن بني الأحمر، وحصن بني غناج، وغير ذلك من الحصون وخربّها[1].

١ ـ يرجح أن هذه الحصون وجدت مابين منطقة القدموس امتدادا حتى سفوح منطقة جبلة وطرطوس. انظر تاريخ يحيى بن سعيد ص٤١٨ ـ ٤٢٢ ، فالمنيقة سيكون من حصون الدعوة الاسماعيلية، وبدّل اسم بكسرائيل إلى بني قحطان، ومرقيه تحمل الاسم نفسه أو اسم نبع حسان في أحواز طرطوس إلى جانب منتجع الرمال الذهبية.

فراسله شبل الدّولة ولاطفه إلى أن صالحُه، وجعله سفيراً بينه وبين ملك الرُّوم في طلب الهُدنة، فاستقرَّ أن يحمل نصر في كل سَنَةٍ إلى ملك الرُّوم دراهم خمسمائة أَلف درهم، في نجمين من السَّنة، قيمتها ثمانية آلاف مثقال ذهب.

وأطلق الملك مقلّد بن كامل بن مرداس رسول نصر، وأعطاهُ صليباً من ذهب مرصّعاً أماناً لنصر، ووفاءً بالشَّرط.

وسيّر شبل الدولة نَصر شيخَ الدولة أَبا الحسن بن الأيسر إلى الظاهر بمصر؛ وحمل إليه هَدِيّة من جملة ما غنمه من الرُّوم، من الثياب، والصياغات، والأواني، والألطاف الكثيرة. وقاد في صحبته نحو مائة وخمسين رأساً من الدواب، خيلاً وبغالاً، ووقع فعله عندَهُم أحسن موقع[1]. وقَامَ أبو الحسن الجرجرائي بتمهيدِ أمرِهِ.

وأقام ابنُ الأيسر إلى أن توفي الظَّاهر، فخلع المستنصر على ابن الأيسر؛ وسيّر معه خِلعاً لنصر بن صالح، ولقَّبَهُ مُختصّ الأمراء، خاصّة الإمامة، شمس الدَّولة ومجدها، ذو العزيمتين.

وفي أيّام نصر اجتمع بجبل السُّماق قومٌ يُعرفون بالدّرزيّة منسوبون إلى رجل خيّاطٍ أعجميّ؛ وجاهَروا بمذهبهم، وخرَّبوا ما عندهم من المساجد، ودفعوا نبوة الأنبياء، وجحدُوهُم إلا الإمام الحاضر الذي يدعو إليه الدّرزي،

---

١ ـ عالجت هذه القضية في كتابي إمارة حلب ص٩٦ـ ٩٩.

وأحلُّوا نكاح المحارِم، وتفاقَم أَمرُهُم، وتحصنُوا في مغاير شاهِقَة على العَاصي، وانضَوى إليهم خَلقٌ مِنْ فَلاحي حلب، وطَمِعوا بالاستيلاء على البلاد.

فخرج إليهم نقيطا قَطَبان أنطاكية، وحاصَرهم في المغاير، ودخَّنَ عليهم، وساعده على ذلك نَصْر بن صالح صاحب حَلَب، ثُمَّ التمسوا الأمان بعد اثنين وعشرين يوماً، فأخرجُوهم بالأمان؛ وقبضُوا على دُعَاتِهم وقتلُوهم؛ وذلك في شهر ربيع الأول من سنة ثلاث وعشرين وأربعمائة.

وفي هذِهِ السَّنة استوحش سَالم بن مُستَفاد الحمدانيّ من شبل الدَّولة نصر؛ وكان صالح بن مرداس قد ولاه رئاسَة حلب بعد ما سَلَّمها إليه، وقَدَّمه على الأحداث، وأَبقاه نصر بعده على حالِهِ إلى هذا التاريخ واستقرّ عليه أحداث حلب ورعاعها؛ ولبسُوا السلاح؛ وعَوَّلُوا على محاربة القَلْعَةِ.

وكان يتردَّد بين سالم وبين شبل الدَّولة كاتب نصراني يعرف بِتُوما وكان يُحرّف ماينقله عن ابن مُستفاد إلى نصر، ويزيد في التجني، ويسُومُ شططاً لايمكن إجابته إلَيْه، وذلك من غير علم ابن مستَفَاد.

فلما رأى شبل الدَّولة نصر كثْرَة تعدِيهِ حمل نفسَهُ على محاربته، وركب إليهِ؛ فلمَّا رآه الحلبيُّون دَعَوْا لَهُ وانقَلَبُوا إليه، وقَاتَلُوا دار ابن مستفادٍ، فطلب الأمان فحلف له أنه لايجري له دماً وحبَسهُ بالقلعة، ونُهبت دارُه؛ ثم خاف استبقاءه فقتله خنقاً، ليخرج عن يمينه بأنه لم يُجر له دما.

١ - انظر إمارة حلب ص٩٨ - ٩٩.

وتبينَّ لنصرٍ بعد قليلٍ كَذِب ذلك النصرانيّ الكاتب، وما كان يُحرِّفه في رسالته فقبض عليه، وطالبَهُ بمالٍ؛ فلما استصفَى ماله دَخَل عليه بعض أجناد القلعة فخنقه في ذي القعدة. وقيل ذي الحجة من سنة خمس وعشرين وأربعمائة.

ودام نصر بن صالح في مملكة حلب إلى سنة تسع وعشرين وأربعمائة. وقُتل في المصَاف بينه وبين أمير الجيوش الدّزبري.

وذلك أَن أمير الجيوش استقرّ بدمشق، بعد قتله صالح بن مرداس بالأقحوانة؛ فسعى جعفر بن كليد الكُتامِي وَالي حمص في إفسادِ ما بين نصر بن صالح وأنوشتكين الدّزبري. وكان عند أَنوشتكين استعداد لذلك لقتله صالحاً أَباه؛ فشرع جعفر بن كليد يُغري أنوشتكين بنصر، ويحملُهُ على أَذاه حتى خرجا إلى الوحشة والمنافرة.

فكاتب الدّزبري ملك الروم، واستأذَنه في محاربة نصر، واستنقاذ حلب منه، وأن يُؤدّي ما عليه من الحَمْل المقرّر إليه، فأذِنَ له في ذلك، فاستمال الدّزبري جميع العَرب من: الطائيّين، والكلبيّين، وبَعض الكلابيين، وسيّرهم إلى نصر بن صالح ومعهم رافع بن أَبي اللّيل. ومن قبلَهُ من المغاربَة، واجتمع إليه عَلان بن حسَّان بن الجرّاح الطائي.

ورحل الدّزبري قاصداً حماة، وكان عسكره قد تقدّم إلى وادي الملوك، شرقيّ الرّستن؛ فحين عَرف نَصر بخروجهم جَمع بني عمِّه وعسكره؛ ونَزَل تلّاً غربيّ سَلَمية، والتَقوا فكُسِر نصر وأَصحابه، وشَرَع في جمع مَنْ قَدَر

عليهِ، واستنجد بشبيب بن وثّاب أخي زوجته.

ورَحَل الدّزبري عَقيب الوقعة الأولى إلى حَماة، فدخلها، ونهبها. ثم رحل منها فالتقوا عند تلّ فاس، غربي لَطمِين[1]، فانهزم ثمال بن صالح.

وثبتَ نصر في خواصّ أصحابِهِ، وقاتل قتالاً شديداً، فطُعِنَ وَوَقَعَ، واحتُزّ رأسُهُ في نصف شعبان. وقيل: لسبع عشرة ليلة بقيت منه، من سنة تسع وعشرين وأربعمائة.

وحمل رأسُه إلى الدّزبريّ فحملهُ، وتأسّفَ عليه، وأَظهر عليه حُزناً، وأَنفذ من تسلَّم جثته فصُلبتْ في حَماة على الحصن، ثم أَمر بانفاذ ثياب، وطيب، وتكفين الجثَّة في تابوت، ودَفنها في المسجد؛ فنقلها مقلد بن كامل لَمَّا مَلَك حماة إلى قلعة حلب.

وقيل: إنَّ الذي قتله ريحان الجويني، وأجهز عليه هفتكين التركي المعروف بالسروري. وتأمّل المنجّمون الوقت والزمان الذي قتل فيه أَبوه فكان بين قتله وقتل أَبيه أَربعة أَيام، يريد من السنين الشمسيّة[2].

---

١ ـ لطمين الآن احدى قرى محافظة حماة، وتبعد عنها مسافة ٣٦كم.
٢ ـ انظر معالجة هذه المسألة في كتابي إمارة حلب ص٩٩ ـ ١٠١.

[عهد أنوشكتين الدزبري][1]

ولما هَرَب ثمال بن صالح وَصَلَ إلى حلب، ومعه شَبيب بن وثّاب، في يوم الثلاثاء سادس عشر شَعبان؛ فملكها ثمال، وَوَعدُه مشايخها بالمعونة والنّصر، فخوّفه خليفَة بن جابر الكعبي، وقال له: «ربّما خذلتك عشيرتك وَقَعَد بك أهل البلد، ولم يمكنك الثبات والمقاومة، ولا الانصراف على حال السّلامة». وأراد بذلك غَشّهُ لا نُصحَهُ.

وكان أمير الجيوش قد سيّر في أثرهم إلى حلب عسكراً يقدُمُهُ طُغَان المظفّري، فخاف ثمال من المقّام بحلب، وولّى بقلعة حلب مقلّد بن كامِل بن مرداس، وبالمدينة خليفة بن جابر الكعبيّ.

وأطلق للتجّار ديوناً كانت لهم على أخيه مقدارها ثلاثون ألفاً ذهباً، ليستميل الناس بذلك إلى طاعته؛ وأخذ أولاد أخيه، وأخذ شبيبٌ[2] زوجةَ أخيه ـ أختَه غلويّة المعروفة بالسيّدة ـ وأخذا من المالِ وَالآنية الذّهَب والفِضّةِ والثّياب ما قدرا عَلى حَملِهِ؛ وسَارُوا إلى الجزيرة.

١ ـ أضيف مابين الحاصرتين للتوضيح.
٢ ـ شبيب بن وثاب النميري، وأخته علوية بنت وثاب زوج نصر وام محمود بن نصر.

وقيل: إنّ السيّدة أَخذتْ من القلعة عند قتل نصر خمسين ألف دينارٍ، وأَخذَ ثمال ثلاثين ألفاً، وسار ثمال يستنجد بأخوَالِهِ بني خفَاجة.

ووقعت الفتنة بحلب، ونُهِبتْ دار السُّلطان، وأموال التجار. وكان رسول ملك الرُّوم قد وَصَل إلى حلب فَنَهَبَ العامَّةُ متاعَهُ ودَوَابَّهُ.

وأَما طغان فانّه لما وصل بالعسكر إلى حلب نزل على المدينةِ، فراسلَهُ خليفَة بن جابر الكعبيّ ومن وافَقَهُ من الحلبيّين في تسليم البلد؛ فتسلّمه في يوم السبت الرَّابع من شهر رمضان.

وأنفذ رسولاً إلى الدّزبريْ يعلمه بذَلِكَ؛ فأغذّ السَّير إلى حلب، وَوَصَل إليها في عدةٍ قليلةٍ، واجتاز في طريقهِ بمعرّة النُّعمان، فالتقاهُ أَهلها، فأكرَمُهمْ وَسأَلهم عن أَبي العلاء بن سُليمان. وقال لهم: «لأسيرنَّ فيكم بسيرة العُمَرَيْن». واجتمَعَ عنده بالمعرّة كثير من العرب، فخشي منهم، فأركب رجلاً من أصحابِهِ جَمَلاً، ونادى بمعرَّة النُّعمان وبظَاهِرِها: «من لم يأخُذْ معه قوت ثلاثة أَيَّامٍ فلا يلومنَّ إلا نفسهُ». فلم يبق من العَرب أحدٌ حولَهُ؛ وظن كُلٌّ منهم أنه يطلب حلّتَهُ.

وتمَّ أَمير الجُيُوش إلى حلب، فدخلها يوم الثلاثاء السابع من شهر رمضان، والقلعة مستعصِيَةٌ على أَصحابهِ في يد سيف الدَّولة مُقلد بن كامِل بن مردَاس، وقد احتوى على الأموال التي بها، واستولى على جمهورها.

فتردّدت الرسل بينَه وبين مُقَلّد حتى قرّر له عمّا في القلعة ثمانين ألف دينار، وثياباً، وفُرُشاً، وآلات فضّة، مكراً وخديعة وأن يأخذ المقلّد الباقي،

وقنع الدّزبري بذاك؛ وأفرج له عن نزولِهِ وخُروجِهِ فسلَّم مقلّد القلعَة وصعِدَ إليها أمير الجيوش، يوم الثلاثاء لثمانٍ بقين وقيل لسبع بقين من شهر رمضان.

وأَقام مُقَلّد يوماً واحداً بعد نزوله من القَلْعَة؛ وهَرَبَ بما معه من الأموالِ خوفاً من غدر الدّزبري به؛ ولحق بحلَّتِهِ وبثمال بن صالح بالجزيرة؛ ونادى الدِّزبري في مدينة حلب بأن يخرج منها جميع الجند والحواشي الذِين كانوا يخدمون ابن صالح.

واجتَمَع النَّاس من سائر البلدان ليهنئوه بالفتح؛ وجلس لِلهناء في القَصْر ببابِ الجنان؛ وعَيَّد عيد الفِطر بحلب؛ فَذُكِر أَنّه لم يُر بحلب عيدٌ أَحسن منه، لكثرة ما أظهر فيهِ من العُدَّةِ والآلة؛ وأحسَنَ إلى أَهل حلب؛ وأمر بِرَدِّ ما كان صالح اغتصبَه من أملاك الحلبيّين؛ وتزوج بنت منصور بن زغيب. وَوَلّى بقلعَة حلب مملُوكيْن له: أحدهما يُقال له فاتك، والآخر سبكتكين؛ وولّى بالمدينةِ غُلامَهُ رضيّ الدَّولة بنجوتكين.

ثمّ قصد بالس ومَنبج؛ فأخذهما. ورام أَخذ الرَّحبَة فلم يقدر عليها. وأَقامَ بحلب إلى أَن عيّد عيد الأضحى، وسار إلى دمشق. ومدحَهُ ابن حَيُّوس بقصيدةٍ يذكر فيها قَتْل نصر، يقولُ فيها:

وَلَمّا طَغَى «نَصرٌ» أَتَحْتَ لَهُ الرَّدَى   وَلَمْ يُنْجِهِ الجَمْعُ الكَثِيرُ وَلا الْحَشْدُ

وَبأُخرى يذكرُ فيها فيها فتح حلَب، أَوَّلها:

١ ـ ديوان ابن حيوس ـ ط. دمشق ١٩٥١ ج١ ص١٧٣.

هَلْ بَعْدَ فَتْحِكَ ذَا لِبَاغٍ مَطْمَعُ لله هذَا الْعَزْمُ مَاذَا يَصْنَعُ[١]

وَوَلَّى قضاء حلب أَبا الوليد سُليمان بن خلف البَاجِي سنةً واحدةً[٢]؛ ثم وليه بعدهُ القاضي أَبو الحسن أَحمد بن يحيى بن زُهَيْر بن أبي جَرَادة - جدّ جدّ أَبي -[٣].

ومات شبيب بن وثّاب النُميري في سنة إحدى[٤] وثلاثين وأَربعمائة. واستولى أُخواه مُطَاعِن وَقوَام على ما كان في يده من الجزيرة؛ وكانت أخته السيّدة علويّة - امرأة نصر - مُقيمة بالرّافقة؛ فتحيّلت على غُلام أَخويها الوالي بالرافقَة إلى أَن أخرَجته؛ واستولَت على البلد، وتزوجتْ بثمال لتقيم هيبتَها به، ويحفظ أَمرها.

وَوَقَع في هذه السَّنة وقعة بين عسكر الرّوم وعسكر حلب، فكسر عسكر أَنطاكية الحلبيّين؛ وعاد الدّمستق إلى أَنطاكية، ودخل طغان حلَب، وحصل ثمال بن صالح في الرّقة، وخشي الدِّزبري من قربه إلى حلب، فاشترى قلعة دوسر[٥] ليكون مطلا عليه. وراسل نصر بن مروان صاحب مَيَّافارقين في أَن يُزوّج ابنته لابنه، فَأَجابَهُ إلى ذلك، فاستوحشَ المصريُّون منه

١ - ديوان ابن حيوس - ج١ ص٣٣٧.
٢ - لأن الباجي عاد إثر هذا إلى الأندلس.
٣ - هذه هي المرة الأولى التي دانت فيها جميع بلاد الشام للفاطميين انظر كتابي إمارة حلب ص١٠٥ - ١٠٩.
٤ - بهامش الأصل: بلغ مقابلة وسماعا بخط المؤلف.
٥ - هي قلعة جعبر القائمة الآن في وسط بحيرة سدّ الفرات في سورية.

لذلك، وأنفذ إلى مصر ليحضر زوجتَه وابنته، فلم يُطلقهما الوزير.

وَثَقُل على الوزير الجرجرائي فتح الدِّزبري حلب، لأنه لم يكن برأيه؛ وأنكر ذلك فقال الدِّزبري: «قد خرف الوزير»، وبسط لسانه فيه بالكلام القبيح، فكاتَبَ وُلاةَ الشَّام بترك الانقياد له؛ وكتب توقيعاً عن المستنصر لثمال بن صالح بحلب؛ وشرط عليه أن يحمل جَميع ما بقلعَتِها من المال إلى المستنصر.

وكاتب أَجناد دمشق، وأَغراهم بِهِ فثارُوا عليه، وأحدقُوا به بقصر كان له في ظاهر دمشق؛ فهرب من دمشق ليلاً؛ ومعه ثلاثمائة صبيٍّ من غلمانِه الأتراك ليس لواحدٍ منهم لحيةٌ، وعلى وسط كل واحد منهم ألف دينارٍ؛ وأحدقتْ به بنو كلاب فلم يَقْدِروا عليه.

ونزل بحصن المعرة، ثم سار منها إلى حلَب؛ ولَقِيَهُ عسكره بها في أراضي سَرْمين، فدخَل حلَب في شهر ربيع الآخر من سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة.

وشرع ثمال بن صالح في جَمع عشيرتِهِ، وحشد من أَجابه من العرب وغَيْرهم لمنازلة حلَب؛ وطمع في الدِّزبري. فرأى بنفسِهِ الذُلّ لَمَّا لم يكن له طاقةٌ بدفعِهِمْ، وزاد هَمُّه وغَمُّه، حَتَّى مَرِض مرضاً حاداً؛ ومات بعد ثلاثة أيّام، يوم الأحد النصف من جُمادى الأولى سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة. ودُفِنَ بحلب؛ ثم نُقِلَ مِنها إلى البيت المقدّس، في سنة ثمان وأربعين

وأربعمائة[1].

فَدّبر البلد بعده مملوكُه رضيّ الدولة بنجوتكين التّركيّ أبو منصور، بَقِيَّةُ جُمادى الأولى وثمانية وعشرين يوماً من جُمادى الآخرة؛ فوصل معزّ الدّولة أبو علوان ثمال بن صالح بالتَّوقيع الذي سَيَّره إليه المستنصِر، فسلَّم بنجوتكين وأهل المدينة إليه، لليلتين بقيتا من جُمادى الآخرة من سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة، بعد أن نزل إليها ومعه مُقَلّد ابن عَمّه في جَمَاعَةٍ، وقاتلوها أيَّاماً، واستَظْهَرَ الحلبيّون عليهم، فَرَحَلُوا إلى ناحية قنّسرين.

وجرَى بين الحلبيّين والمَغاربة عربدة، وقُتل بينهم جماعةٌ، ونُهبت أهرَاء السُّلطان، وطلع أصحاب الدِّزبري إلى القلعة خوفاً على أنفُسِهم، فلم يمكنهم سبكتكين من دُخولها، فنزلوا في القَصر تحت القلعة.

واستدعى الحلبيون ثمالاً ومقلّداً. فورد مُقلّد في مُقَدّمِتِه من قنّسرين، فتسلَّمها يوم الاثنين لليلتين بقيتا من جُمادى. وَوَصَلَ ثمال يوم الثلاثاء، فدخلها واجتمع إليه أحداثُها. واعتصم سبكتكين بالقلعة شهراً وسَلَّمها إليه.

وقيل: إنه بقي بها إلى النصف من صفر سنة أربع وثلاثين وأربعمائة؛ وان القلعيِّين رَمَوْا على الحلبيّين، وأتوا على عَدَدٍ كثيرٍ منهم، وأصلح الحلبيّون المنجنيقات، وقاتَلُو بها القصر الذي تحت القلعةِ، ونَقَبُوه، وخربوا حيطانه مما يلي المدينة مع قطعةٍ من سُور المدينةِ من ناحية باب العِرَاق.

١ ـ بحثت في حقبة حكم الدزبري من مختلف الجوانب في كتابي إمارة حلب ص١٠٩ ـ ١١١ .

وثبتَ سبكتكين على الحَصار مُدّة سبعة أَشهرٍ، واستنصر الفريقان[1] ونفد ما مع آل مرداس من المالِ، ووقَع المرض في القلعيّين فأَفناهم، وأَيس الباقُون من نُفوسِهم فجَنحُوا إلى التَّسليم، واصطلحوا على شروط منها أَن لايعرض لأحدٍ من القلعيّين بمساءةٍ، وانتظَمَ الأمر وسلَّمها سبكتكين بجميع ما فيها بعد أَن أَخذ لنفسِهِ ثلاثين ألف دينار، ولورثة الدِّزبري اثنين وثلاثين ألف دينار.

١ ـ راسل ثمال الامبراطورية البيزنطية وطلب تأييدها. إمارة حلب ص١١٣

[إمارة ثمال بن صالح][1]

واستقرّ مُلْكُ حلب:

لمعزّ الدَّولة أَبي العلوان ثمال بن صالح بن مرداس.

وَوَصلَهُ تشريف من المستنصِر في سنة ستّ وثلاثين. ودرّت الأرزاق في أيامِه على النّاس، وأحسنَ السِّيرة معهم، وَجَاد بالعَطَاء.

وظهرَ في أيّامِه ببعلبك رَأس يحيى بن زكريّا في حجر منقورٍ فَنُقِل إلى حمص ثم إلى حلب، فوضِعَ بمقام ابراهيم ـ صلى الله عليه ـ بقلعةِ حَلب في سنة خمس وثلاثين وأربعمائة.

وكان ثمال لَمّا طَاوَلَ حصار قَلعة حلب قد رغب إلى تدورا ملكة الرّوم، وسيّر رسولاً يلتمس نُصرتها وإعانتها وانتماءه إليها، فرتبت ثمالاً ماخسطرس على حلب، ومقلّد ابن عمه بسطرخس، وجعلت له واجب الماخسطرية عن حلَب؛ ورتّبت صالح بن ثمال، ومنيع بن مُقَلّد، ومحمود بن نصر، وعطّية وحسناً أَخوي ثمال، بَطارِقة. ورتَبت السّيدة علويّة أم محمود بطريقة؛ وأَطلقَت لجماعتهم واجبات هذه المراتب؛ وسَيَّرت إليهم هدايا كثيرة؛

١ ـ أضيف مابين الحاصرتين للتوضيح .

وشَرَطت على ثمال أن يحمل في كلّ سنة ماكان يحمله أَخوه نَصر، على الشُروط المشروطة علَيه[1].

وكانَ المستنصر قَد وقّع لثمال بحلب على أَن يحمل إليه جميع ما بقلعَتِها من المال ـ على ما ذكرناه ـ فلمّا استولى ثمال على حلب حمل إلى المستنصر من ذلك مائتي أَلف دينار؛ وأَفْرَدَ برسم عمارة القَلْعة ومساكنها ومصانِعها خمسةً وسَبْعين أَلف دينار؛ وإقامة العوض عما استنفد من العُدَّة وَهَلك من أَصحاب الأسلحة باستعمالها والابتذال لها في الحرب ثلاثين ألف دينار؛ وما أخذه من آلات ذهب وفضّة وغيرها خمسة عشر ألف دينار.

فلمّا علم المستنصِر بذلك شَقّ عليهِ ذلك، وَوَقَعَتِ الوحشَةُ بينه وبَين مُعزّ الدّولة ثمال، فعصى ثمال على المستنصر، فسَيَّر المستنصر إليه إلى حلب الأمير ناصر الدَّولة أَبا محمد الحسن بن الحُسَين بن الحسَن بن حَمدان[2]، ومعه عبد العزيز بن حمدان، وشُجاع الدولة بن كُليد.

وكان ناصِر الدَّولة بن حمدان قد ولّي دمشق من قبل المستنصر بعد الدِّزبري، فوصلوا إلى حلب بعد أَن فتحوا حماة ومعرّة النُّعمان، في سنة تسع وثلاثين وأَربعمائة؛ فطاف بحلب ولم ينزل بها؛ فخرج أَهل حلب لقتاله، فهزمهم واختَنق منهُم في الباب ـ على مايُقال ـ سَبعة عشر أَلف نفسٍ.

١ ـ انظر إمارة حلب ص١١٣ ـ ١١٤ .
٢ ـ هو الحسن بن الحسين بن الحسن بن عبد الله بن حمدان، ناصر الدولة بن ناصر الدولة. ترجم له ابن العديم في بغية الطلب ص٢٣٢٩ ـ ٢٣٣٣ .

وعاد ناصر الدّولة فنزل بصلدِي ـ قرية قريبة من حلب على نهر قويق ـ فجاءهم سيل في اللّيل لم يُسمع بمثله، فغرق أكثر المضارب، وأتلف الرجال، وأهلك الدّواب المشبوحة، فانهزم ناصِر الدّولة عن حلب إلى دمشق، فقبضَ عليه الأمير منير الدّولة بها في شهر رجب من سنة أربعين وأربعمائة، وسُيّر إلى مصر[1].

وكان مُعزّ الدّولة ثمال قد خاف من الحلبيّين أن يسلموا البلد إلى أبي محمد بن حمدان حين توجّه إلى حلب؛ فقبض أعيان الحلبيين ـ ومنهم قاضي حلب أبو الحسن بن أبي جَرادة ـ واعتقلهم بالقلعَة سنة أربعين، فلمّا كفي أمر ابن جمدان أطلقَهُم في سنة اثنتين وأربعين وأربعمائةٍ.

وقتَل مُعزّ الدَّولة منهم الشريف أبا علي محمد بن محمد بن صالح المحبره بسعاية ابن الأيسر به، دُون الباقين؛ فانّ ابن الأيسر صَعِد إلى مصر رسولاً فتحقَّق براءة الباقين من تُهمة تَتَطَرق إليهم.

ووصل شُجاع الدولة بن كُلَيْد والي حمص، في سنة أَربعين وأَربعمائة عائثاً على بلد حَلَب، فخرج إليه مُقَلّد بن كامل بن مرداس وأَبو الوفاء حِفاظ المعرّي، في جمعٍ من الكلابيين ورجَّالة الحلبيّين والفلاحين، فالتقَوا بكفر طاب.

ومضى ابن كليد لينهزِم، فلحِقته بنُو كلاب، فقُتِل في هذه المرّة شُجاع

١ ـ إمارة حلب ص١١٤ ـ ١١٥ .

الدّولة بن كليد والي حمص؛ قتله جعفر بن كامِل بن مرداس، وحمل رأسه إلى حلب. وكان المنجّم رأى أنّه يدخل إلى حلب، فدخلها قِطعاً، وانهزمت عساكِرُهُ.

فسار مُقلّد بن كامل إلى حماة ففَتَحها بعد أن قاتل حصنها أيّاماً؛ ثم سار إلى حمص ووجد ابن منْزُو قد أتاها في عسكر من دمشق، فانهزم إلى باطن حمص، وقاتل قتالاً عظيماً فقلّ عليه الماء، فخرج ابن منزو إليهم بالأمان.

ثم إنّ المستنصر سَيَّر الأمير أبا الفضل رفق[1] الخادم الى جيش كثيفٍ إلى حلب، في سنة إحدى وأربعين، وقيل سنة اثنتين. ونزل على حلب على مشْهَد الجف، فقاتلهُ الحلبيّون، فانكسر عليها وجُرح وأُخِذ أسيراً، فمات في قلعَةِ حلب في الأسر.

وسَيَّر مُعزّ الدّولة كلّ من بقي من أصحابه مأسوراً إلى مصر؛ ففي ذلك يقُول الأمير أبو الفَتح بن أَبي حصينة:

يَا رِفقُ رِفْقاً رُبَّ فَحْلٍ غَرَّهُ ... ذَا المشْرَبُ الأهْنَى وَهَذَا المَطْعَمُ
حَلَبٌ هِيَ الدُّنيَا تَلَذُّ وَطَعْمُهَا ... طَعْمَانِ شَهْدٌ في الْـمَذَاقِ وَعَلْقَمُ
قَدْ رَامها صِيدُ المُلُوكِ فَمَا انثَنَوْا ... إلا وَنَارٌ في الحَشَا تَتَضَرَّمُ[2]

١ ـ لرفق الخادم ترجمة في بغية الطلب ص٣٦٧٤ ـ ٣٦٧٨ .
٢ ـ ديوان ابن أبي حصينة ـ ط. دمشق ١٩٥٦ ، ج١ ص٢٤٧ .

وكان رفقٌ لمَّا نزل على حلب داهن عليه العرب الكلبيّون، فأشار عليه عسكره أَن يرحل عن حلب إلى صلدع فلم يفعل؛ فأُشِير عليه أَن يقبضَ على أمراء طيء وكلب فلم يفعل، فقيل له أَن ينشيء سجلا عن السلطان بانّه قد أقطعَ الشام لمعزّ الدّولة، ويعود بهيبتِه فلم يَفْعَل؛ فلمّا رآه أمراء العسكر لايلتفتُ إليهم، ولايقبل مشُورتهم، وَوَقع القِتال، انهزم العرب فانهزَم العسكر معهم، فسيّر رفق إليهم وأَمرهم بالعَوْد فلم يلتفتُوا.

وخرج من حلب خيلٌ يسيرة فشاهدوا رحيل العسكر فظنوا أنه حيلة فاتبعوهم، وغنموا منهم. وخرج من بحلب فلحقُوا رفق الخادم، في طرف جبل جَوشن، وجرح ثلاث جراحات، وأُخِذ والضَّرب القويّ برأسه، فمات في القلعةِ ودُفِن في مَشهد الجفّ. ونهب من العسكر شيء عظيمٌ من الأموال والقماش والدَّواب[1].

ثم أَن معزّ الدَّولة ثمالاً استمال المستنصر بعد هذه الوقعة، ولاطفه، وحمل القِسْط إلى مصر على يد شيخِ الدَّولة عليّ بن أحمد بن الأيسر، وسَيَّر معَهُ ولده وثّاب وزوجتَه علويّة بنت وثّاب المعروفة بالسيّدة، وسيَّر معه من مال القلعة أَربعين أَلف دينار، وهَدَايا، وألطافاً فاخرة، وتُحفاً جليلة.

فلمَّا وصلتْ أكرمها المستنصِر غايةَ الإكرام، وحضَرتْ بين يديه،

---

١ ـ استنجد ثمال ببيزنطة، واستجاب الامبراطور قسطنطين التاسع إلى طلب ثمال، فبعث رسولا إلى القاهرة يطلب ايقاف حملة رفق ويهدد بالتدخل لصالح ثمال. إمارة حلب ص١١٦ ـ ١١٩.

فقبَّلت الأرضَ، وقالتْ: «خصّك الله ياأمير المؤمنين بأفضل تحيَّة وسلام». فردَّ عليها أفضل ردٍّ؛ وسألها عمن خلّفته بالشام، فقالت: «في نعيم وخيرٍ إنْ أنعمتَ عليهم بأمان وذمام، حَسْبَما جرت به عادة هذا البيت المُنِيف من الإحسانِ والإكرام».

فأعجبَهُ منها سرعة جَوابها وحُسْن تَوصُّلها، وقال لها: «أَنت المسمَّاة بالسَّيدة» فقالت: «نعم، سَيِّدة قومي وأَمَتُك ياأمير المؤمنين، صلواتُ الله عليكَ». فقال: «ماخَيَّب الله من فَوَّض تدبير أمره إليكِ في هذِهِ الرِّسالة». ثم أمرَها أَن تُمل على كاتبها تذكرة ليوّقع لها بجميع ما تقترحه توقيعاً مُفرداً، وتوقيعاً بحلب وسائر أعمالها لمعزّ الدَّولة.

وأمر لمعزّ الدَّولة بتشريف ولجميع بني عمّه، وأفاض عليها ما غمرها وجميع أصحابها وحاشِيتها؛ وعادت بمقْصُودها[1].

ولما وَرَدتْ زَوجة معزّ الدَّولة إلى حلب سكن مُعزّ الدَّولة إلى ذلك، واطمّأنّ، ونشر العدل، وطابَتْ قلوب الرَّعيَّة. وولى وزارته في سنة اثنتين وأربعين وأربعمائة رجلاً من أهل الرّحبَة يقال له أَبو الفضل ابراهيم بن عبد الكريم بن الأنباري، ولقَّبه الثقة الكافِي؛ وكان رجلاً حسن السّياسة.

وسَيَّر ثمال شيخَ الدّولة عليّ بن أحمد بن الأيسر، في سنة ثلاث وأربعين، رسولاً إلى القسطنطينية بالمالِ المقَرّر عليهِ في كلّ سنة، وبهدية

١ ـ انظر إمارة حلب ص١١٩ .

فشاهدوا من سَدَادِهِ وكمال مُروءَتِهِ مَا أَوْجَبَ لهم أن ميَّزوه عن غيره من الرّسل، وأكرموه، وجعلوه بسطرخس في مرتبة مُقَلَّد بن كامِل، وجَعلوا مُقلداً ماخسطرس في مرتبة ثمال، وجعلوا ثمالاً ابريدرس[١]؛ وسَيّروا إليه هديّة سنّية عِوَضاً عن هَدِيّته.

ومات قاضي حلب أَبو الحسن بن أبي جرادة في سنة خمسٍ وأربعين، فولّى القضاء بحلب القاضي أبا محمد كسرى بن عبد الكريم بن كسرى وإليهِ يُنسب آدر بني كسرى[٢] بحلب.

ثم قَدِم الوزير فخر الدَّولة أبو نصر محمَّد بن محمَّد بن جهير حلب فاستوزَره مُعِزّ الدَّولة، وفَوَّض أموره جميعَها إليه، فاستقامتْ، وتَضاعف ارتفاعه، وضَبَط أموالَه، فحُسِدَ على مكانِه، وقُربه منه، فسُعِي به إلى معز الدّولة. وكان معز الدّولة له وفاء وذمة فنبَّهه على ماسعي به عليهِ، فاستأذَنَهُ في المفارقة فَفَسح له في ذلك، فسارَ من حَلب سنة ستّ وأَربعينَ وأَربعمائةٍ، وقصَدَ ابن مروان.

فولّى معزّ الدَّولةِ وزارته سَديدَ الدَّولة أبا القاسم هبة الله بن محمد بن

١ ـ Protoproedrus منصب رفيع أبدع في القرن الحادي عشر للميلاد. انظر Cambridge Medieval History, VoL4, Part2 , P22.

٢ ـ حيث قامت المدرسة الصلاحية في محلة سويقة علي، وأسست المدرسة من قبل الأمير المملوكي صلاح الدين يوسف بن الأسعد الدوادار [ت ٧٤٥هـ]. الآثار الاسلامية والتاريخية بحلب ص٢٢٨ ـ ٢٢٩ .

الرعْبَاني الرحبي إلى أن سلّم حلب إلى المستنصر؛ وسافر ابن الرعباني إلى مصر، فولاه المستنصر وزارة مصر عشرة أيّام، ثم عَزَله، ثم أعاده إلى الولاية فأقام فيها عشرة أيام وانصرف.

وَوَصلت الخِلع والتشريف من مصر لثمال، في محرم سنة سبع وأربعين وأَربعمائة، على يَدَي أَبي الغنائم صالح بن علي بن أبي شيبة، فمدحه أبو القاسم هبة الله بن فارس المؤدّب بقصيدة أَوَّلها:

لا زَالَ طَوْعاً لأمْرِكَ الأمَمُ وَلا خَلَتْ مِنْ دِيَارِك النِّعَمُ

وتنكّر مُعزّ الدَّولة ثمال لثقتِهِ وأَمينهِ شيخ الدَّولة عليّ بن أَحمد بن الأيسر، وقد ساء رأيه فيه، فَصَرَفه عمَّا كان يتولاه من أمورِه، وأقام مقامه سالماً ومسلماً ابني علي بن تَغْلب. واستوحش ابن الأيسر من المقام بحلب خوفاً على نفسه فتسبّب في أَن سار إلى مصر.

وأرسل ثمال سالماً إلى تدورا الملكة بهدِّية، والتمِس منها الزيادة في مرتبته، فقبلتْ هديَتَه، وعوضتْه عنها، وأَجابته إلى مُلْتمسه، وجَعلَت سالماً بسطرخس عوضاً عن ابن الأيسر.

واندفع البساسيري[1] المتَغلّب على بغداد إلى الشام، في سنة سبع وأَربعين وأَربعمائة، منهزماً من طغرلبك؛ وحَصَل في أَرض الرّحبة، ووصل

١ - للبساسيري ترجمة في بغية الطلب ص ١٣٤٧ - ١٣٥٧ . كما وعالجت مسألة قيام هجرة الغز وتأسيس السلطنة السلجوقية وإثر ذلك ثورة البساسيري في كتابي مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية - ط. دمشق ١٩٧٣ ص١٣ - ١٢٤ .

في قُل من الرّجال، فلقيَهُ مُعزّ الدّولة ثمال وأكرمه وحمل إليهِ مالاً عظيماً.

وحَدَّث بعضُ العرب مِن بني كلاب أنّهم لم يروا مثله في الشَجاعة والمكر والحيلة؛ وكان إذا ركبَ مُعزّ الدَّولة قفز إليه، ليُمسك له الرّكاب، ويُصْلح ثيابَهُ في السَّرج، وهمَّت بَنُو كلاب بالقَبْض عَلَيْه فمنعهم مُعِزّ الدَّولة. ثُمَّ ندم بعد ذلك فإنه تَقَدَّم إلى بالس، وشَتّى بشطّ الفُرَات؛ واجتمعت إليه العربُ والأتراك، ففَزِع منه مُعزّ الدّولة؛ وكان قد عرض عليه معزّ الدولة أولاً مفاتيح الرّحبة فلم يأخُذها منه؛ ثم طلبها منه في هذه الحالة ليجعَل فيها مالَهُ وأهله، في سنة ثمان وأربعين، فسلّمها معز الدولة إليه.

وكان مُعزّ الدولة كريماً معطاء حليماً. فمّما يحكي مِن كَرَمِه: أَنَّ العرب اقترحُوا عليه مَضيرة[1]، فتَقَدَّم إلى وكيله أن يطبخها لهم، وسأله: «كم ذَبحتَ لأجلها؟» فقال: «سبعمائة وخمسين رأساً». فقال: «والله لو أتممتَها ألفاً لوهبتُ لك ألفَ دينار».

واستغنى أهل حلب في أيّامه، حتى أَنَّ الأمير أبا الفتح بن أبي حصينَة امتدحه بقصيدةٍ، شكا فيها كثرة أولاده، وكان له أربعة عَشَر ولداً، قال فيها:

جَنَيْتُ عَلَى نَفْسي بنفسي جِنَايَةً ... فَأَثْقَلْتُ ظَهْري بالذي شَبَّ مِن ظَهْري
عِدَادُ الثُّرَيّا مِثْلُ نِصْفِ عِدَادِهم ... وَمَنْ نَسْلُهُ ضِعْفُ الثُّرَيّا مَتَى يُثْري
وَأَخْشَى اللَّيَالي الغَادِرَاتِ عَلَيْهم ... لأَنَّ اللَّيَالي غَيْرُ مَأْمُونَةِ الْغَدْرِ

١ ـ المضيرة أن تطبخ اللحم باللبن.

وَلي مِنْكَ إقطَاعٌ قَدِيمٌ وَحَادِثٌ تَقَلَّبْتُ فيهِ تَحْتَ ظِلّكَ مِنْ عُمْرِي
وَما أنا بِالْمَمْنُوعِ مِنْهُ وَلا الَّذِي أخافُ عَلَيْهِ مِنْكَ حَادِثَةً تَجْرِي
وَلَكِنَّنِي أبْغِيـهِ مُلْكـاً مُخَلَّداً خُلُودَ القَوافِي الْبَاقِيَاتِ عَلَى الدَّهرِ(١)

فأمر مُعزّ الدَّولة بإحضار شهودٍ، أَشْهَدَهم بتمليكه ضَيْعَتَيْن مِنْ أَعمال حَلَب وَمَنبج، مُضَافَتَيْن إلى ما كان له من الإقطاع؛ فَأَثْرى وحَسُنَت حالُه؛ وعمر بحلب داراً؛ وكتب على رُوْشَنِها(٢):

دَارٌ بَنَيْنَاهَا وَعِشْنَا بِهَا في نِعْمَةٍ من آلِ مِرْدَاسِ
قَوْمٌ مَحَوْا بُؤسي وَلَمْ يَتْرُكُوا عَلَيَّ لِلأيَّامِ مِنْ بَاسِ
قُلْ لِبَنِي الدُّنْيَا ألا هَكَذَا فَلْيَفْعَلِ النَّاسُ مَعَ النَّاسِ(٣)

فَكَتب معِزّ الدَّولةِ له داراً إلى جانبِ دارِهِ؛ وهي الآن لبعض الشراف بحلب بالبلاط، تجاه المسجد؛ والدّار التي بناها إلى جَانبها مُقَابِل حَمَّام الوَاسَاني(٤).

ومِمّا يُحكى عَنْ مُعزّ الدَّولة: أنَّ فَرَّاشاً من جُملةِ الحفدَةِ صَبَّ يوماً من الأيَّام على يدِهِ ماء بِإبريقٍ كانَ في يَدِهِ، فَصَادَفَتْ أنبُوبة الإبريق بَعْض ثنَّيته،

١ ـ ديوان ابن أبي حصينة ج١ ص٣٥١ ـ ٣٥٢ ، وفيه أن القصيدة قيلت في مدح عطية بن صالح.
٢ ـ الروشن: الشرفة.
٣ ـ ديوان ابن أبي حصينة ج١ ص٣٦٠ ـ ٣٦١ ، وفيه أنه قالها في مدح نصر بن صالح.
٤ ـ كانت في محلة سويقة علي، وهي قد زالت تماماً بعد فتح طريق إلى القلعة سنة ١٩٤٥ . الآثار الاسلامية والتاريخية في حلب ص١٧٦ ـ ١٧٧ .

فكسرتها وسَقَطتْ في الطَّسْتِ، فَهَمَّ بِهِ الغِلْمان فَمنَعهم، وأَمَر بِرَفعها، وَعَفَا عنه، فقال ابن أبي حصينَة:

حَلِيمٌ عَنْ جَـرَائِمِنَـا إِلَيْـهِ وَحَتَّى عن ثَنِيَّتِهِ انقِلاعَـا[1]

وَلَمَّا اتسع الرِّزقُ على مُعِزّ الدَّولة، ولم يَبْقَ لَهُ عَدُوٌّ يَقْصِدُهُ، اضطَرَبَ عليه بَنُو كلابٍ، وامتَدَّتْ أعينُهُم إلى ما في يَدِه، واستَقَلُّوا ما كان يَصِل منهُ إِلَيْهِم، وأكْثَرُوا في العَنَتِ لهُ، وقَالُوا: «لولانا ما صَرْتَ إلى ما صِرْتَ إِلَيْهِ، وَمَا أَنْتَ بِأَحقّ منَّا بذلكَ، فينبغي أن تَفْرِضَهُ على جميعِنَا».

وَأَوجبَ الزيادة في ذلك أَنَّ معزّ الدَّولة في سنة تسعٍ وأَربعين، سلم الرقة والرافقة إلى منيع بن شبيب بن وثّاب النُميري، لأنّها كانتْ لأبيه وكانت عمَّتهُ السيّدة زوجة معزّ الدولة ـ وكانت قبله عند أخيه شبل الدولة، فولدت له محمود بن نصر ـ وهي التي أَخذتها من غلمان أبيها، على ماذكرناه؛ فأعادها إلى منيع؛ فكثُر اشتطاط بني كلابٍ وفسادُهم.

فكاتَب مُعزّ الدَّولَة المستنصر في تسليم حلَب إليهِ؛ وطلَب أَن يُعوّضهُ عنها أَماكن تبعُد عن مواطِن الكلبيّين، ليأمنَ شرّهم وتزول منّتهم عنه؛ فأجابهُ المستنصِر إلى ذلك؛ وعَوَّضه عنها بيروت، وعكّا، وجُبَيل[2].

وأَنفذ المستنصر نُوَّابه فتسلَّموها منه؛ وهُمْ: مكينُ الدَّولة أَبو عليّ

١ ـ ديوان ابن أبي حصينة ج١ ص١٦٨ .

٢ ـ لم تكن الأمور بهذه البساطة، بل ارتبطت بحركة البساسيري مع أسباب أخرى، انظر إمارة حلب ص١٢٠ ـ ١٢٤ .

الحسّن بن عليّ بن ملهم بن دينار العقيلي، وعين الدَّولة أَبو الحسن عليّ بن عقِيل، والقاضي أَبو محمّد عبد الله بن عياض قاضي صُور، تسلَّموا البلد والقلعَة، في ذي القعدة من سنة ثمان وأَربعين وأَربعمائة.

وقد كان أَبو علي بن ملهم مقِيماً برفنية؛ فقلّد الحرب والخراج بحلب. وفي اللَّيلة التي سلَّمها مُعزّ الدَّولة إليهم احتَرقَ المركز الشرقي بالقلعةِ، وولّوا في قلعة حلب رجلاً يعرف بركن الدولة.

وَصعِد مُعزّ الدَّولة مع عَين الدَّولة وقَاضي صُور إلى مصر، فَلَقي من المستنصر من الكرامة والحباء ما لم يلقَهُ وافدٌ منه ولا من آبائِه؛ وجَعَل له كُلَّ يوم، إلى أَن وصل إلى مصر، ثلاثمائة دينار، وأُعطي ما لم يُعط أحد منَ المال والجوهر والآلة؛ وكان إذا ركب السُلطانُ حجبَهُ، وكان ذنب دابّته عند رأسِ دابّة السلطان.

واعتلّ معزّ الدَّولة بمصر، فركب السلطَان، فوقَفَ ببابِ دارهِ حتّى خَرَجَ إليهِ وسَأَلَه عن حاله.

[إمارة محمود بن نصر الأولى][1]

وأما ابن ملهم:

فإنّه أقام بحلَب، وعدَلَ في الرَّعيَّة، وأَحسن السِّيرة، وبَسط وجهه ويده لهم، ورخصتْ الأسعار في أَيّامه، وبنى كثيراً من أَبرجة سور حلب؛ إلى أَن تجمَّعَتْ بنو كلابٍ وامتدَّتْ أطماعهم إلى حلَب. وذلك أَن البساسيري كان من المنتَمِين إلى المصريّين، وَدَعا لهم ببغداد، في سنة إحدى وخمسين وأَربعمائة فعاد السلطان طُغْرُلْبَك، وجمع جموعاً عظيمةً، ولَقي البساسيري فقَتله، وكانت الرَّحبة في يده ـ على ما ذكرنَاهُ.

فسار الأمِيرُ أَسَد الدَّولة أبو ذؤابة عطيَّة بن صالح إلى الرَّحبة، فأخذ جميع ماتركه البساسيري بها، من السلاح الذي لم يُر مثلهُ، كثرةً وجَودة، وأَموالاً جزيلَة كانت للبساسيري؛ ثم ولَى فيها بعض أصحابه[2].

فطَمِع بنُو كلاب حينئذٍ في حلَب، وقَوي جأشُهم، وقَدمُوا عليهم:

---

١ ـ أضيف مابين الحاصرتين للتوضيح .

٢ ـ انظر إمارة حلب ص١٢٤ ـ ١٢٥ .

الأمير محمُود بن نصر بن صالح.

لأنَّ حَلَب كانت لأبيهِ شبل الدَّولة؛ فسار إليها محمُود ببني كلابٍ، في جُمادى الأولى سنة اثنَتين وخمسِين وأَربعمائة؛ ونَزَل عليها، وقاتَلها، وأَقام عليها سَبْعة أَيَّام، ومعهُ منيع بن مقلّد بن كامِل؛ ثم رحَلَ عنها.

فطلَب الأحداثُ من مكين الدَّولة مالاً يُنفِقُهُ فيهم، فقال: «قد أَخَذْتُم واجبكم المقرَّر على الكمال، وتسلَّفتُم أَيضاً؛ فلا تطمعوا في وُصول شيء آخر إليكم». فعَصى أَحداثُ[1] حلب عليه، وغَدَروا بِهِ، وأَنفذُوا إلى محمُود بن نَصر بن صَالح فردُّوهُ.

فلمّا قَرُب منهم محمُود، وَثَب أهل حلَب على دار الشريف القاضي مُعتمد الدَّولة يَحيى بن يَزيد بن يحيى الحُسيني الزَّيدي، وكان قاضي الشّام، وعلى دار رَجُلٍ يُعرفُ بالظَّهير جلال الدَّولة؛ وكانا مكرمين لأهل حلَب؛ فنهبُوا دَاريْها؛ وأَخرَجُوهما رَاجِلين، حُفاة، مُكَشّفي الرُّؤوس إلى الضِّيَاع العربيَّة، وكان من جملتهم: كندي، وابن الزغِري، وابن عنتر، وابن النَّاقِد.

وَوَصَل محمُود ببني كلابٍ، فسلَّمُوا إليهِ حلَب يوم الاثنين مُستهلَّ جُمادى الآخرة سنة اثنتين وخمسِين وأَربعمائةٍ؛ وانحاز مَكين الدَّولة بن ملهم

---

١ ـ عالجت مسألة أصل منظمة الأحداث، وتكوينها وأدوارها في كتابي إمارة حلب ص٢١٥ ـ ٢٢٠.

إلى القَلعَة، وتحصَّن بها، وأنفذَ إلى مصر رَسُولاً، فطلبَ النَّجدة والإعانة، فوصل الأمِير ناصِر الدَّولة أبو علي الحُسَين ابن الأمير ناصر الدَّولة الحسن بن الحسين بن حمدان ـ وهو ولد ناصر الدَّولة الذي نازل حلَب أوّلاً في أيّام مُعزّ الدَّولة ـ وَقَدم في عسكر ضَخم في جُيوش المَغاربة، حتى نَزَل حمص لنُصرة أَصحاب القلعة؛ فسارَتْ إليه بنُو كلاب وبنُو خَفَاجَة، وكانوا جيراناً لهم بالظَّعن، في خلق كبير.

فَرجعَ ناصِر الدَّولة بن حمدان إلى بعلَبك، وهمَّت بنُو كلابٍ باتّباعه، فأبى عليهم أَسَد الدَّولة أبو ذُؤابة عطِيَّة بن صالح بن مرداس، وانحازَ عنهم فافترقُوا، ورجعوا إلى قنّسرين.

وأَقبل ناصِر الدَّولة حتى نَزَل أفامية، واستَدعَى مَن قَدَر عليهِ مِن بني كلابٍ، واستحلَفَهُم أَربعِينَ يميناً، وخَلَع عَلَيْهِم خلَعاً فاخِرة، وسار بَعْد أَن استوثَقَ منهم، فلمّا وصل إلى سرمين أَجفَلت بنُو كلاب ومحمُود إلى الشّرق، وأَجفَلَ أَحدَاث حلَب منها؛ وحَصَلُوا مَعَ بني كلابٍ، وذلك ليلَة الاثنين السَّابع مِنْ رَجَب من السنَة.

ونَزَل مكين الدَّولة ابن ملهم وأَصحابه من القَلْعَة، فنهبُوا المدينة، وقَتَلُوا مَن وَجَدُوا مِنْ أَحدَاثها، وعِدَّتُهمْ أَربعون رجلاً، وصلبوا في محال حَلب جماعة من القَتلى، ونَهَبُوا كُلَّ موضعٍ جليلٍ يعرفُونَهُ بالمدينةِ، وقياسِر الوكلاء، وأَموال التجار، وغير ذلك.

وَوَصَل ناصر الدَّولة أَبو عليّ الحسين فنزل حَلَب، وأَراد أَن ينهبها، فقيل

له: «إنَّ أَصحاب مكين الدَّولة قد سَبقوك؛ ولم يَبْق لكَ ولأصحابك إلا الاسم بلا فائِدَة» فامتَنَع من النَّهب. وقال: لابد من أَهل المدينةِ أن يقسطوا لي خمسين أَلف دينار، عوضاً عن ترحيل محمود عنهم، فبذَلُوا له خدمَة فلم يفعَل، وقال: «أَنا أَمضي إلى الفنيدِق وأُقابل محموداً على فعله، وأَعُود أَنتقِم من الحلبيّين».

فسار عن حلَب في مقدار خمسة عشَر أَلف فارس، ومحمود في دُون الألفَين؛ ونزلُوا على الفنيدق وهو المعروف الآن بتلّ السلطَان[1]؛ وانهزمَت بنُو كلبٍ وبنُو طيء؛ وبقي العسكر وحَدهُ؛ وقَلَّ الماء عَلَيْهم، فكُسِروا. وأسر الدُّنَيْن بن أبي كلب الجهبلي الكلابيّ ناصر الدَّولة، وأمكنَتْهُ الهزيمة فلم ير على نفسهِ أن يولي، وأسر كل مقدم كان في عسكره.

وقتلت بنُو كلاب أَكثرَ عسكره، وغنمُوا كلما كان في العسكر، ولم يسْلَم مِنْهم إنسان بالجُملة إلا عارياً.

وبعد ذلك علم محمود بن نصر بن صالح بِأَسْرِ الأمير ناصر الدّولة، فاشتراهُ من الدُنَين بألفين وسبعمائة دينار؛ وقيل: بأقل من ذلك.

وأَسَر رجل يقال له جبر من بني كلاب أَخا ناصر الدَّولة، فاشتري

١ ـ تل السلطان قرية تعرف أحيانا باسم المرج الأحمر، وهي واقعة في سهول ادلب الشرقية، وتتبع ناحية أبي الظهور، وتبعد عنها مسافة ٧كم إلى الشمال الغربي. المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري.

أيضاً بمالٍ كثير، وكانت الكسرة في يوم الأربعاء سَلخ شهر رجب سَنَة اثنتين وخمسين وأربعمائة[١].

وَوَصَل وقت الكسرة أسد الدَّولة أبو ذؤابة عطيَّة بن صالح بن مرداس إلى حلب، وتَسلَّم المدينَة من المغاربة، يَوم الخميس؛ ودار فيها ساعةً، ونزل عند شافِع بن عجل بن الصُّوفي في دارِهِ، التي هي الآن مدرسة القاضي بهاء الدين بن شداد.

وقيل: إن [ابن] ملهم استدعاه، وسَلَّم المدِينَةَ، وفرَّجَ الله عن أهل حَلَب[٢]. وَقَدِم الأمير محمُود بن نَصر إلى المدينَةِ، فانهزَم عطيّة منه آخر النّهار من يوم الخميس مُستهَلّ شعبان؛ وتَسلَّم محمُود البلَد يومَ الجمعَةِ الثاني مِن شعبَان سَنَة اثنتين وخَمسين وأربعمائة، وَهَذا من أغرب الاتفاقات أن يَملك حلَب ثَلاثة من الملوك في ثَلاثةِ أَيّام مُتَتَابِعَة.

وأَيس مكين الدَّولة بن ملهم وركن الدّولة والي القَلعة، من حلَب وَمن نَجدة تصِل إليهما من مصر بَعد هذه الكسرَةِ فأنفذا من استحلَف محمود بن

١ ـ هناك بعض الشكوك حول تفاصيل هذه الرواية والتواريخ فيها، لأنه من غير المعقول أن نتصور أنه يمكن في مدة قدرها اثنان وثلاثون يوماً انجاز الأعمال التالية:
توجه رسول من حلب إلى القاهرة حاملاً طلب المساعدة، استجابة القاهرة بإصدار الأوامر إلى والي دمشق ليقوم بواجب التفريج عن حلب، قيام هذا الوالي باطاعة ماصدر إليه من أوامر بتشكيل جيش فيه مابين عشرة آلاف إلى خمسة عشر ألفاً من العساكر وقيادته نحو حلب! من أجل معالجة هذه المسألة انظر إمارة حلب ص١٢٦ ـ ١٢٩ .
٢ ـ يبدو أن عطية جاء بناء على اتفاق مسبق. امارة حلب ص١٢٩ .

نَصر على شرُوط اشترطَاهَا عَلَيْهِ، وسلَّما إليه القلعة في عاشر شَعْبَان من هذه السنة، بعد أن أخذا أولاد بني كلاب: ولد محمود بن نَصر، ووَلَد شبل بن جَامِع، ووَلَد محمود بن زائدة، وولد منصور بن زُغَيب، وجعلاهم في حصن أفامِية رهينةً على أنفسهما وعسكرهما وأموالهما ثم سيّرهم مع الأمراء في الرّوج إلى أفامية سالمين؛ وأخذُوا أولادهم الرهائن ورجعوا إلى حلب.

وأما ناصر الدَّولة، فبقي في أسر محمُود إلى أن قدم البلدَ عمّه معزّ الدَّولة، فاصطنعه منيع بن وَثَّاب؛ وخلَّى سبيلَه في سنة ثلاث وخمسين.

وسيّر محمُود كل من كان في أسره من الأمراء والقوَّاد إلى مصر، بعد أن أحسن إليهم، وشلَّت يَدُ ناصر الدَّولة في وقعة الفنيدق، فلمّا وصل إلى مصر ولاه المستنصر دمشق، فقال أبو الحسن عَليّ بن عَبْد العزيز الحلبي الفُكيك فيهِ:

عَلَى حَلَبٍ بِه حُلِبَتْ دِماءٌ وَحُكِّمَ فِيكُمُ الرُّمْحُ الأصَمُّ
وَقَدْ أَرْسَلْتَهُ وَالِي دِمشْقٍ يدٌ شَلا وَأَمْرٌ لا يَتِمُّ

وفي ذلك يقُولُ أبو نَصر منصور بن تميم بن الزنكَل السرميني من قصيدةٍ، يذكر فيها مآثر بني كلابٍ:

أَلَيْسَ هُمُ رَدُّوا ابنَ حَمْدانَ عُنْوَةً عَلَى عَقبهِ لا يَتَّقُونَ العَواقِبَا
أَلَيْسَ ابْنُه يَوْمَ الفنيْدِقِ قَادَهُ دُنينُ أَبِي كَلْبٍ وَعَرَّاهُ سَالِبا

ولما أخذ محمُود حلبَ من ابن ملهم، كانَ عمّه مُعزّ الدَّولة بمصر، فصرَفَه المستَنْصِر عَن عَكَّا وَبيروت وجُبَيْل، وقالَ له: «إنَّ هذه الأماكن

أَخْذتَها عوضاً عن حَلَب، وقد عَادَتْ إلى ابن أخيك، فتَمضي إلى حَلَب وتَستعِيدهَا مِنهُ»، فقال: «إنَّ نُوَّابَكُم فَرَّطُوا فأعِينوني بمالٍ». فأعانوه على ذلك بمال، وسَيَّروهُ، وقرّروا ألقَابهُ: «الأجلّ، الأعَزّ، تاج الأمراء، عِماد المُلْك، سيف الخلافة، عَضد الإمامَة، بهَاء الدَّولة العَلوِية، وزعيم جُيُوشها المستَنْصريَّة، عَلَم الدِّين ذُو الفَخْرين مصْطَفى أمير المؤمنين».

فعاد مُعزّ الدَّولة إلى حلب، وجَمع قوماً مِن عشِيرَتِهِ، بَعدَ أن كاتبُهم حين وَصَلَ إلى حمص، فأجَابُوه، ولقِيَهُ أكثرهُمْ بحمص وبعضهم بحماة، فلمَّا نزل معرَّة النُعمان، أقَام بها ثمانية أيّام، وضيّق العَرب على النّاس، وكان ذلك في قُوّة الشّتاء، فنزلوا منازل الناس.

وسيَّر محمُود الشيخَ أبا مُحمَّد عبد الله بن مُحمَّد الخفاجي رسَولاً إلى ملك الرُّوم، يستَنْجدُه على عمّه وبقي عندهُمٍ إلى أن ملك ثمال حَلَب؛ وكتب الخفاجي إلى حَلَب القصيدة المشهورة:

هذَا كِتَابي عَنْ كَمَالِ سَلامَةٍ[1]

وَرَحلَ ثمال، فنَزَلَ حَلَب مُحَاصِراً لابن أخيه مَحْمُود، فأغلَق محمُود باب حلب في وجههِ؛ وعَمِلَ قوم منَ الأحداثِ؛ وفَتَحُوا لمعزّ الدَّولة باب قنّسرين.

وَدَخَل أصحابه إلى أن وَصَلُوا دَرب البنَات، فنَزَل مَحمُود من القلعَة،

---

١ ـ طبع ديوان ابن سنان الخفاجي في بيروت سنة ١٣١٦هـ وكانت نسخة منه موجودة في المكتبة الظاهرية، فقدت ولم أستطع الحصول على نسخة أخرى في سورية، علماً أنني وقفت على نسخة موجودة في مكتبة معهد الدراسات الشرقية والأفريقية بلندن.

وعاد أخرجهُم ولم يُقْتَلْ منهم واحِد، وقَبَض على من كان سبَب ذلك من الأحدَاث وَهُم: ابن حيُّون، وابن المغازلي؛ وذلك في ذي الحجّة من سنة اثنتين وخمسين وأربعمائة.

وَوَصل منيع بن شَبِيب بن وَثَّاب إلى حلَب لنصرة محمُود ببني نُمَيْر، وَحَصَل مع محمُود بالقَلعَة، فرَحَل مُعزّ الدَّولة عن حلب؛ وَنَزل منيع ببني نُمَيْر مُدَّة عشرين يَوْماً في ضيافَةِ محمود، وأَشَار على محمود باطلاق ناصر الدَّوْلَةِ بن حَمْدان ففَعَل، وخلَع عليهِ، وقَادَ خَيْلاً كثيرةً إليهِ، وسَيَّرَهُ إلى مصر.

وسار محمُود إلى الحانُوتَة[1] ليجمَعَ العَربَ على عمِّهِ فعاد مُعزّ الدَّولة ثاني يَوم مَسيره، ونَزَل على حَلب، ثم رحَل طالباً لمحمُود فلقيه، وكسَرَهُ، وانهزم محمُود، وَدَخَل حلب في ثلاث فوارس آخرَ صَفَر؛ وأسر مُعزّ الدَّولة أكثرَ عسكره، والأحداث الذين كانوا مَعَهُ، وهم: كندِي، وصُبْح، وابن الأقراصي، والشُّطَيْطي، واللَّباد. واستأمَن منهمُ صُبْح إلى القلعَة، فَحَبسه نائب محمُود، وقَيَّده خيفَة مِن حيلةٍ تتمُّ عليه.

وقصد محمُود حُسام الدَّولة منِيع بن مُقَلّد، وقال له: «أنتَ كُنْتَ مُسَاعدي ومعَاضدي في كسر العسكر المصري الواصِل مع ناصِر الدَّولة وأوثر أيضاً أن تُساعِدني على عمِّي» فاسْتَمْهَلهُ إلى غَدِ ذلك اليوم، وَرَحل في اللَّيْل

---

١ ـ الحانوته أو تل الحواصيد، قرية في هضبة حلب تتبع منطقة جبل سمعان. المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري.

طالباً مُعزّ الدَّولة، وقال لنائبه: «تقولُ لمحمُود: عَمُّك هُو الشيخُ الكبيرُ، والعَرَبُ تأنفُ من معاضدة الوَلَد عَلَى الوَالدِ، بَلْ أنَا برَحِيلي أصلح الأمر بينكما إن شاء الله».

فأمر محمُود كاتبه أبا العلاء صاعِد بن عيسى بن سُمَّان النَّصْرَانيّ بأن يعمل شعراً، يذكره فيه بعهدِهِ، ويعتب عليهِ في اطراح ودّهِ، فكَتب إلَيْهِ:

أَلا أَيُّها السَّاري تَخُبُّ بِرَحْلِهِ ... قَصِيرة فَضْلِ النِّسْعَتَيْنِ إذا تَسْري
تَحمَّلْ - هَدَاكَ الله - عَنِّي رِسالةً ... إذَا بَلَغتْ يَوْماً شَفَيْتُ بِهَا صَدْرِي
إلى مَعْشَرٍ إنْ تُنْحَ نَحْوي سِهَامُهمْ ... فَأَخْطأ مِنْهَا مَا تَوغَّل في صَدرِي
وَخُصَّ حُسَام الدَّوْلَةِ ابن مُقَلَّدٍ ... أَخَا الغارَةِ الشَّعْوَاء وَالْكَرَمِ الدُّثْرِ
وَمَنْ عَلِقَتْ كَفَّايَ حَبْلَ وِدَادِهِ ... وَمَا خِلْتُ أَنْ تَغْتَالَه نُوَبُ الدَّهْرِ
تَذَكَّرْ - هَدَاك الله - يَوْماً أَظَلَّنا ... بِهِ المَوتُ في ظِلِ الرُّدَيْنِيَّةِ السُّمْرِ
لَقَدْ غَالَنِي في وِدِّكَ الدَّهْرُ بَعْدَ مَا ... غَدَوْتُ أَرَاهُ وُهو مِنْ أَنْفَسِ الذُّخرِ
وَحَاشَا لِذَاكَ الْعَهْدِ مِنْ بَعْدِ مَا غَدَا ... نَقِي الْحَوَاشِي أَنْ يُدَنَّسَ بِالغدْرِ
وَأَنْتَ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ نُفُوسُهُمْ ... تَرَى الغدْرَ بِالإِخْوَانِ ضَرْباً مِنَ الكُفْرِ
سَأُصْفِيكَ مَا صَافَيْتَ يَوْماً بِحِفْظهِ ... وَآمُل انْ ضَيَّعْتَنِي عَاجِلَ النَّصْرِ
وَأَنْتَ عَلِيمٌ أَنَّنِي غَيْرُ جَازِعٍ ... إذَا مَا رَمَانِي الدَّهْرُ بِالنُّوَبِ الغُبْرِ
وإنّي إذَا ما يَدْجُ لَيْلُ خُطُوبِهَا ... أُصَدِعُهُ بِالسَّيْفِ عَنْ فَلَقِ الْفَجْرِ
وَمَا الْـمَوْتُ إلا خُطَّةٌ حُمَّ وَقْتُها ... وَأَكْرَمُها مَا كانَ في طَلَبِ الْفَخْرِ
أَبَى الله وَالأَصْلُ الذي طَابَ فَرْعُهُ ... إلى الْيَوْمِ إعْطَاءَ الْقِيَادِ عَلَى قَسْرِ

وَأَخْسَرُ مَنْ تَلْقَاهُ فِي النَّاسِ صَفْقَةً   فَتَى عِنْدَ مَجْدٍ لا يَرِيشُ وَلا يَبْرِي
فَلا تَحْتَقِرْ ذَنْباً جَنَيْتَ عَلَى الْوَفَا   وَلا تَعْتَذِرْ مِنْهُ فَما لَكَ مِنْ عُذْرِ

فقال منيع بن مَقَلّد وأبو العُلوان ثمال لمّا وصلت هذه القصيدة: «من أين لمحمُود هذِهِ الفَصَاحة؟ ومن له بالشِّعر؟». فقيل: «إن هذا شعر أبي العلاء بن سُليمان النَّصراني». فقال منيع بن المُقلّد: «لقد ألبسني هذا النّصراني من العار طوقاً لايبلى، ولئن عشتُ لأقابلنَّهُ بما يكون له أهلاً».

وتردّدت الرُّسل بين ثمال ومحمُود، في تسليم حَلَب، وتَوَّسط بينهما مشَايخ العشيرة، وقالُوا: هذا بمنزَلةِ والدك، فتأخُذ من الأعمال ماشِئتَ. فأجابهم محمُود: بأنَّ هذا صحيح، ولكنه ضَيَّعَ مملكتَنا وإرثنا، وقد استعدتها بسيفي، وبَذَلتُ فيها مهجتي. فاعترف له مُعزّ الدولة بِذَلك؛ وضَمِنَ له معيشةً بخمسين ألف دينار، وثلاثين ألف مكوك غلَّة. وشَهِدَ مشَايخ العشيرَة بها.

وعَادَ محمُود إلى حلَب في آخر ربيع الأوّل وقد استَقَرّ الصُلح بينهما يوم الأربعاء الرابع والعشرين من شهر ربيع الأول من سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة. وَفُتحت أبواب البلد عند دُخوله؛ ثم خَرج إلى عمه[1] إلى المخيم، واستركبه يوم الاثنين مستهلَ ربيع الآخر من سنة ثلاث وخمسين وأَربعمائة، وداخله القلعة، وسَلَّمها إليهِ، وسار محمود ليحضر أهله من الحلَّة.

---

١ ـ بالأصل «عمله» وهو تصحيف واضح.

ولما استقرّ مُعزّ الدَّولة بِالقَلعَة، نفى من الحلبيّين الأحداث العُتق جَماعَة، وصَلَب مِنهم خمسَة عشر رجلاً. وكاتَب المستنصر بظَفَرِه بحلَب، فَسَيَّر إليه الخلَع مع ظفَر المستَفادِي، ولأخِيه ولأولادهِ، ولحُسَام الدَّولَةِ منيع بن مُقلّد. ولما وصل ظَفر رأى المصَلَّبين من الأحداثِ فَسأَل فيهم فَدُفِنوا.

ولَمَّا ملك مُعزّ الدَّولة حلب جاء أبو العَلاء بن سُمان ليُسَلِّم عليه، فحمل عليه ليطعَنَه، فطرح نفسهُ من بغلَته، وغَيَّب شَخْصَهُ عَنْهُ، وسار إلى أنطاكية، وصار بها أسقفاً إلى أن مات.

وفسَدَ ما بين مَنيع بن وَثّاب وبين ثمال. وكانَ منيع بالرّحبة، فسيّر ثمال أخاهُ أسد الدّولة عطيَّة بن صالح، في شعبّان من سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة، لدفعِ منيع عنها؛ فأخذها عطِيَّة، وأقامَ بها، وعصى على أخيه ثمال، وعاد محمُود إلى حلب من الحلَّة بأمه السيِّدة، واجتمع بعمّه معزّ الدَّولة، وسارتِ السيّدةُ، وأصلحَت مابين أخيها منيع وبَيْنَ زوجها مَعزّ الدَّولة[1].

وفي المحرّم من سنة أربع وخمسين وأربعمائة، عمر الرُّوم حصن قسطُون[2] وحصن عَيْن التَمر[3]، فسار مُعزّ الدَّولة في جُمادى الأولى لغزوهم،

١ ـ امارة حلب ص١٣٠ .

٢ ـ قسطون قرية في الجزء الشمالي من سهل الغاب عند أقدام السفح الغربي لجبل الزاوية، قربها تل أثري يحمل الاسم نفسه. المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري.

٣ ـ لم أقف على عين تمر في بلاد الشام، وتشير المصادر المتفرقة أن بيزنطة أرادت تحصين خط=

ففتح حصن أرتاح، فراسلُوه في الصُّلح، فأرسَلَ إليهم شافِع بن الصُّوفي يقول: «لا أجيبُ إلى الصُّلحِ إلا على أن تَهدموا الحصنَيْن المجدّدين، وأن يكون لَيْلُون للمسلمين، لا علقة لهم فيهِ، ويحملون عن حصن أرتاح مالاً ويردّهُ عليهم» فضمنوا ذلك.

فَرَحَل في الثَّاني من جُمادى الآخرة، ودَخل إلى حلبِ، ولم يَفِ الرُّوم إلا ببعضِ ماضَمِنوا له من الشُّروط.

وبلَغَ مُعزّ الدَّولة أن قوماً من أحداثِ حلَب مضوا إلى أنطاكية، وتحدّثُوا مَعَ واليها في تسليم معرّة مصرين، والتَدرّج منها إلى غيرها، وقالوا لهُ: «حزبُنا في حلب وأصحابُنا تَحت أوامرنا». فلمَّا صحَّ عند مُعزّ الدَّولة ذلك، طلَبهُم وأحضر منهم قوماً وَقَتَلَهُمْ. وهم: ابن أبي الريحان، وابن مطر، وابن الشَّاكري، وبهلُول؛ وصَلَبهم، وتَرَكَ باقيهم؛ وذلك في شهر رَمضان من سنة أربع وخمسين.

وكبس الرُّوم في شوّال مريمين[1] العقبة، وأحرقُوها، ونَهبُوها، وأدركهُم الأمير منصور بن جَابر، والأمير حارثة بن عبد الله؛ وظفرُوا بالرُّوم على كثرتِهم وقلَّة المسلِمين؛ فقتلُوا من الرُّوم مقدار ألف وخمسمائة.

= الثغور بدليل الخبر في أن ثمال بن صالح غزا البيزنطيين وافتتح أرتاح، والمثير للانتباه تغيير ثمال لموقفه من بيزنطة، ولعل أسباب ذلك تغير موازين القوى إثر ظهور الغز وشروعهم باجتياح الأراضي البيزنطية، وادراك ثمال بعد عودته من القاهرة، أن الخلافة الفاطمية باتت عاجزة عن ممارسة أدنى تهديد ضد حلب. إمارة حلب ص ١٣٠ ـ ١٣١ .

١ ـ عدّ ياقوت مريمين من قرى حلب المشهورة.

وسار معزّ الدَّولة، في العشرِ الثَّاني من شَوّال، للغزْو فنزل قيبار، وفتحها، ونهبَها، وقتل الرجال، وسَبى النساء والصبيان. ثم مرض معزّ الدَّولة في العشر الأوّل من ذي القَعْدة، من سنة أربع وخمسين وأربعمائةٍ؛ واضطرب البلَد، فبلَغه ذلكَ، فاستدعى أخاه أَبا ذُؤابة عَطِيَّة بن صالح؛ وَوَصىَّ لَهُ بحلب، وولاه الأمر.

وتُوفي يوم الخميس لستّ بَقِين من ذي القَعدة سَنَة أربع وخمسين وأربعمائة. ودُفِنَ في مقَامِ ابراهيم الفوقاني بالقلعَة، داخل الباب الغربي؛ وعمل عليه ضريح؛ وبَقِيَ إلى أيَّام الملك رضوان[1]؛ وقُلع وبُلِّطَ عَليْه.

---

١ ـ رضوان بن تتش. سترد أخباره في العصر السلجوقي.

[إمارة عطية بن صالح][1]

وجلس أخوه:

أسدُ الدَّولة عطِيَّة بن صالح بن مرداس

في منصبهِ يوم الجمعة، فَبَلَغ ذلك محمود بن نَصر بن صالح وهو في حلّتِه فلم يرضَ بالوصيَّة، وأرسل إلى عطية يقول له: «إنَّ معزّ الدَّولة شرَط على نفسِهِ أن يردَّ عليَّ البلد عند مَوتِهِ لمَّا تسلَّمه مِنّي، وأنا أخذتُه بسيفي مِنَ المصريّين عَنْ غَلَبةٍ وقَهْر؛ وهو إرْثي عَنْ أبي». وعرف ذلك مشايخ العشيرة واجتمعُوا على صحّة ماذكره، وسَاعَدُوهُ عَلَى مُنَازَلَة حَلب، فكان في كُلّ وَقتٍ يَقصدَها ويَرْعَى زرعها ويأخذ مَا في ضواحيها ويرحَلُ عنها.

فجاء في رجب من سَنة خمسٍ وخمسين وأربعمائةٍ، ونزل بحلَّته عَلى عَيْنَ سَيْلم، فخرج إليه أسدُ الدَّولة عَطّية فكسره، ونهبَ حلَّتهُ وانهزَمَ محمود.

١ ـ أضيف مابين الحاصرتين للتوضيح.

٢ ـ وقعت عين سيلم على مسافة ثلاثة أميال من حلب، وكانت العرب تنزلها. معجم البلدان.

ثم إنَّه تجمع إليهِ شبلُ الدَّولة بن جامع، ومُحمد بن زُغَيب، وغيرهُما من بني كلاب، ونزَلوا على قنّسرين ـ وعطِية نازل على السَعدِيَ بباب حلب ـ فلم يقدرُوا على النّزول على حلب.

فسار إليهم سَيف الدَّولة منيع بن مقلَّد بن كامِل فقوِيَ جَأش محمود بهِ لأنه كان ذا مال عَظِيم. وكان كريماً يطعم العربَ ويعلق على خيلهم، ويخلَع ويهب، فلما حصل معهم نزلوا على حلب. وحاصروا حلب شهوراً فضرب حجر المنجنيق منيع بن مقلد فقتله.

وقيل: إن رَجُلاً حقيراً ضرب صدغه بمقلاعٍ فيه حجر، فبقي أيَّاماً، ومات؛ وذلك في العشر الأول من شوّال سنة خمس وخمسين وأربعمائة.

وأوصى منيع بجميع مالِهِ وما يملكه لخاله أسد الدَّولة أبي ذؤابة عطِيَّة الذي كان يُحارِبُهُ. وكان إقطَاعُهُ يرتفع منه كل سنة ثمانونَ ألف دينار؛ وكان له في حصن يقال له المجدّد، ثلاثمائة ألف دينار، وسلاح وآلة بمالٍ عظيم.

وكان أبو الحسن عليّ بن محمد بن عيسىَ العمري الحلبي وزير منيع؛ وكان عطية قد دعاه إلى خدمته فامتنع، فلما مات منيع عاد أبو الحسن العمري إلى حلب فقبض عليه عطية، وقتله لِحقده على مافعله من امتناعه من خدمته.

ولعله احتجَ بأنه حمل منيعاً على حِصَار حلب مع محمود؛ وبعد أن قتله صلبه؛ ورثاه أبو محمد الخفاجي بأبياتِهِ التي يَقُول فيها:

ومعـذل جارٍ عَـلَى غلوائـه يروى حديث نَداه عن أَعْدَائِهِ

واستوزر عطية أبا الحسن عليّ بن يوسف بن أَبي الثريا الذي داره الآن مدرسة ابن أبي عصرون[1] بحلب. ثم صالح عطية بن مرداس ابن أخيه محموداً؛ على أن يدفع لمحمود إقطاعاً بخمسة وعشرين ألف دينار؛ من ذلك: سَرمين وباقي الاقطاع في بلد حلب من الأرتيق[2]؛ وتحالفا على ذلك وتَّماه.

وفي نصف جمادى الأولى سنة ست وخمسين وأربعمائة، سلم ثابت بن معز الدولة إلى ابن عمه محمود معرة النعمان وكفرطاب وحماة، وكان فيها من قبل عمه.

وذلك أن بني كلاب تجمعوا بأرض شيزر: شبل بن جامع بن زائدة، ومحمود بن زائدة، ومنصور بن محمد بن زغيب، وحسين بن كامل بن حسين بن سليمان بن الدوح، وجماعة معهم من سبيعة وذؤيبة؛ وأجمع رأيهم على الوثوب على بلدان أسد الدولة عطية.

فأخذوا حماة وكفرطاب؛ وأتوا إلى معرّة النعمان وفيها شهم الدولة خليفة بن جبهان، فأخذ منهم أماناً وسلَّمها، وسارُوا حتَّى نزلوا قريباً من

١ ـ ماتزال هذه المدرسة تحمل الاسم نفسه في محلة الفرافرة في حلب. الآثار الاسلامية والتاريخية في حلب ص٢٢٦ ـ ٢٢٨.

٢ ـ ذكر ابن العديم في بغية الطلب ج١ ص٤٣٧، هذه الكورة وقال إنه يشرف عليها وعلى عزاز جبل برصايا.

حَلب، فسار عطية من حلب يكبس محموداً، وكان بتل خالد[1] فظفر به محمود، وعاد عطية منهزماً إلى حلب.

ونزل محمود ببني كلاب على حلب، ومنعوا منها الميرة، وحصروها، وقاتلوها قتالاً كثيراً، وأشرفتْ على أمر عظيم من الجوع وقلة ما يدخلها. وكان أسد الدولة عطية قد أرزق أحداثها، فمنعوا باقي أهلها من التسليم.

فلما رأى أسد الدولة ضعف البلد صالح ابن أخيه محموداً. فكان لعطية حلب والرحبة وبالس ومنبج وعزاز وقنسرين. وسلّم بعد ذلك ما كان في يده غير هذه المواضع المذكورة إلى ابن أخيه محمود بن صالح، ووقع الصلح على ذلك.

واستدعى عطية ابن خان وكان في ديار بني مروان مغاضباً لأبيه ملك الترك، وكانت الروم تمده بالخلع والدنانير إكراماً لأسد الدولة عطية لأنه كان مهادنهم، فقدم ابن خان إلى عطية في ألف قوس فأكرمهم وأضافهم.

فلما حصل ابن خان على باب حلب - وكان هذا أول دخول الترك إلى الشام - تجمعت بنو كلاب إلى محمود بن نصر بن صالح؛ وقصدوا حلب فرأى محمود أنه لاطاقة لهم بالترك فانهزم.

ومشى السفراء بين محمود وبين عطية، فانعقد الصلح بينهما على أن يأخذ عطية: حلب والرحبة ومنبج وعزاز وبالس وأعمال ذلك؛ ويأخذ محمود

١ - كتبت هذه الصفحة بخط مختلف، والكلمة مطموسة وهذه أقرب قراءة لها، وتل خالد قلعة قرب حلب. معجم البلدان.

ابن أخيه من الأثارب قبلة واقطاعه الذي كان قديماً وما كان في يده في أيام مُعز الدَّولة ثمال. وتمّ ذلك في المحرّم من سنة سبع وخمسين وأربعمائةٍ.

وخرج عطيّة بالأتراك وأحداث حلب إلى الغزو، ففتح كمنون، وسبى أهلها، وعاد إلى حلب غانماً. ودخل ابن خان حلب فخاف الحلبيون وعطية منه؛ فأغرى بهم الأحداث من أهل حلب فنهبوهم ليلاً، في صفر من سنة سبع وخمسين وأربعمائة، وقتلوا منهم جماعة، ونهبوا خيولهم وسلاحهم وماقدروا عليه من رحلهم.

وركب ابن خان منهزماً ـ وكان ظاهر البلد ـ وصاح تحت القلعة: «أليس قد غدرت بي وبأصحابي ياعطية، والله لأنزلك منها على أقبح قضية». وسار إلى الشرق فعبرتْ طائفة منهم إلى الجزيرة فنهبتهم بنو نمير، ورجع الباقون فصادفوا عسكراً للروم في بطريق لهم يعرف بالنحت، فلم يجدوا بداً من شق عسكر الروم، وكان في عشرين ألفاً ففتح لهم الروم طريقاً بينهم ليطبقوا عليهم فعبروا سالمين.

وقتلوا من الروم خلقاً عظيماً، وكان السالم منهم نحواً من مائة وخمسين رجلاً، فركبت عليهم العرب بنو قريظ وربيعة بن كعب وغيرهم، فأشار أمير منهم يقال له قمار على الملك أن يموت كريماً، ولا يثق بالعرب فلم يفعل. والتجأ إلى منصور بن جابر فغدر به بعد أن كان أعطاه مقنعة زوجته ومخصرته؛ وقتل قمار وجماعة.

وسلم ابن خان في جماعة فلحق بمحمود، ونزل عليه وهو بسرمين؛

فأمنهم؛ وبعث بهم إلى معرة النعمان. ثم أن محموداً سير ولده إلى أنطاكية رهينة، فوجّهوا قطعة منهم، وتلقّاه بالجنايب في كلّ منزلٍ بمراكبها، وجعلوا له كلّ يوم خمسين ديناراً، وخلعوا عليه وعلى أصحابه خلعاً سنية، ووهبوا له في جملة ما وهبوا دبوس ذَهَبٍ وزنه ثلاثمائة مثقال.

وسار محمود بمن جمعَهُ من العرب، ومعه ابن خان التركي ومن انضوى إليه من التركمان، إلى مرج دابق، فخرج عطية إليهم، وجمع جموعاً كثيرة من العوفيين وغيرهم، وقصد محموداً والتركمان، في يوم الخميس حادي عشر جمادى الآخرة سنة سبع وخمسين، فالتقوا، فانهزم عطية إلى حلب، وتبعه محمود بمن معه.

ونزل على حلب محاصراً لها وفيها عمه عطية وجاءه ظفر المُسْتَفادي رسولاً من المستنصر، وهو محاصر حلب، ولقبوه عظيم أمراء العرب عضد الدولة، سيف الخلافة، ذو الفخرين؛ وكان يلَّقب أولاً عزّ الدَّولة، وشمسها؛ فبقي محاصراً حلب مائة يوم ويومين.

ثم سلّمها إليه عمه أسد الدولة بن صالح بعد حصار شديد وجوع عظيم؛ وأخذ عمه عطية الرحبة، وعزاز ومنبج؛ وبالس، وجميع الضياع التي شرقي حلب وشماليها؛ وأخذ محمود حلب وقبليها؛ واصطلحا صلحاً خالصاً ذلت به لهما العرب[1].

---

١ ـ يعد دخول ابن خان حدثاً هاماً في تاريخ حلب وبلاد الشام، وقد عالجت هذه المسألة وتقصيت ماورد في مختلف المصادر حول ابن خان هذا. إمارة حلب ص١٣٣ ـ ١٣٦ .

[إمارة محمود بن نصر الثانية][1]

وَدَخَلَها محمُودُ بن نَصْر يوم السَّبت النصفَ من شهر رمضان سنة سبع وخمسين وأربعمائة، واستقرتْ ألقابُه: الأجلّ، شرفُ أمراء العرب، سيفُ الخلافة، معزّ الدّولة وفخرُها، وعضدُها، ناصرُ الملك، ذو الحَسَبَيْنْ[2].

ومَضَى عَطيّةُ إلى الرَّحبة وكانتْ ألقابَ عطيّة خالصةُ الأمراء، عمدةُ الإمامة، عضدُ الخلافة، أسدُ الدّولة وسيفُها، ذو العزيمتين.

وأقطع محمُودُ معرَّةَ النّعمان الملكَ هرونَ بن خانَ ملكَ التُرك؛ فدخل

١ ـ أضيف مابين الحاصرتين للتوضيح.

٢ ـ رأيت منذ سنوات في قلعة حلب حجراً ملقى داخل مسجد حلب حجمها ٥١×٣١سم عليه نقش مؤلف من خمسة أسطر جاء يه:
- بسم الله الرحمن الرحيم (أمر بعمله الأمير)
- الأجل تاج الملوك ناصر الدين شر (ف)
الأمة ذو الحسبين خالصة أمير المؤمنين أبو سلامة محمود بن نصر بن صالح. سنة خمس وستين وأربعمائة.
وعرف محمود بذي الحسبين لأن أباه من كلاب وأمه من نمير.

المعرَّة يومَ الأربعاء السّابعَ عشر من شوال، سنة ثمان وخمسين واربعمائة، وَوَصل معه إليها من التُّرك، والدّيلم، والكُرد، والأوج[1] مقدار ألف رَجُلٍ مع حاشِيَتهم فَنَزل بالمُصَلَّى.

فلما رؤي أعفَ منهمُ عن البَساتين والكُروم وغيرها، ولم يكونوا يأخذون من أحدٍ شيئاً إلا بثمنِهِ؛ وسقَوْا دَوابَّهم الماء بثمنِهِ. وفزعتِ العَرَبُ منه فزعاً عظيماً؛ ثم استدعي إلى حلب وعوّض معرّة النّعمان.

وخرج محمود بنُ نصرٍ بابن خان والتّركمان، في سنة تسع وخمسين، ومعه بنو عوف من بني أبي بكر بن كلاب، فنزل المعشيرة[2] ـ من بلد حماةَ ـ ثم أَتى حَمَاة؛ وَوَطيء جميعَ العَرَب وَأذلَّها.

وكانت العرب تُطلبُ فتنةً تقع بينه وبين عمّه عطيّة بن صالح، وكان بحمص، فظنّت بنو كلاب أنّه يُحاربُه؛ فلم يفعل عطيّة، لمعرفتهِ بغَدْر العَرَب به مرةً بعد أُخرى؛ وأراد أن لاينهدِم مجدُ آلِ مرداس.

وفي هذه السَّنة سلّم حسين بن كامِل بن الدّوح «حِصْنَ أَسْفُونا»[3] إلى نُوّابِ المصريّين، بعد أن نَهَبَ عسْكر التّرك «حناك»[4] وجميع ضياعِهِ بالشّام.

---

١ ـ الأوج اسم أطلق على المسلمين من سكان الثغور البيزنطية الاسلامية.

٢ ـ لعل المعيشرة هي العشارنة الحالية إلى الغرب من شيزر على العاصي.

٣ ـ أسفونا الآن تل أثري في جبل الزاوية، ناحية كفر نبل، منطقة معرة النعمان يقع شمال غرب قرية اسمها سفوهن. المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري.

٤ ـ حناك ـ كما سلف القول ـ خربة أثرية في جبل الزاوية تتبع منطقة معرة النعمان.

ووقع الوباء العظيم بحلب، حتّى أنه مات في رجب منْ هذِه السَّنَة زهاء عن أربعة آلاف فضلاً عن سائر الشّهور.

وفيها طَلَعتْ طائفةٌ كبيرةٌ من التّرك، فنزل بَعْضُها على دُلُوكٍ وتقدم منهم نحوُ ألفٍ، فَنَهبُوا بلدَ أنطاكيةَ عن آخِرِه؛ وأخذوا نحو اربعين ألف جاموس. وقيل أكثر، حتى أنّ الجاموس كان يُباع بدينار، وأكثرهُ بدِينَارَيْنِ وَثَلاثة. وأما البقر، والغنم والمعز، والحمير، وَالجَواري، فلم يقع على ذلك إحصاء من الكثرة. وكانت الجارية تُباع بدينَاريْنِ والصبيّ بتطبيقة نِعَالٍ للخيل.

وخرب بلد الرُّوم خَراباً لم يسمع بمثلهِ؛ وبقيت الغلات في البَيادر ما لها من يَرْفَعُها مِنهم، حتّى كان الفَلاحونَ وسائر العَوَامّ يمضي الواحد منهُم ويأخذ مايريدُ، فلا يَجدُ من يُدافِعه عن ذاك؛ لإنَّ الرُّومَ تحصّنُوا في الحُصُون والجبالِ، والمَغاير، وتَركوا بيوتهم على حالِها لم يأخذُوا مِنها شيئاً، لأنّ التُّرك أتَوْهم على غَفْلَةٍ، وكان ذَلِكَ في شوال.

وكان مُقدّمُهم أفشين بن بكجي، وَكان قد غَضِبَ عليه العادل ألب أرسلان بسبب خادم كان زعيم بعض عساكِره، فقتله الأفشين. وقطع الفُرات إلى بَلَد الرُّوم، ثم خرج إلى أعمال حَلَب، وباع الغَنائم التي كانت مَعَهُ.

ونَزَلَ في سَنَة سِتّين حول أنطاكية؛ وضاق الشّيء فيها حتى بلغت

الحنطة قفيزين[١] بدينار. فلمّا لم يَبْقَ شيءٌ دون فتحها أَتَتْه كتب العادِل ألب أرسلان من العِرَاق بالرّضا عنه. وقيل إنّ أَصحاب مؤونة السّوق بحلب حَصَل في دفاترهم نحو سعبن ألف مملوكٍ ومملوكة سِوى مابيع بغير مَؤونة في بلد الرُّوم وسائر البُلْدان، وأَخَذَ من أصحاب أنطاكية مائة ألف دينار، ومثلها من ثياب الدّيباج والآلة وسار إلى العراق في جُمادى الآخرة من السنة.

وفي هذه السّنة سَلّم أميرٌ من أمراء المغاربة يعرف بابن المرأة حصن أَسفُونَا إلى الأمير عزّ الدّولة محمُود بن نصر بن صالح. وتوّلى ذلكَ الأمير سديد المُلك أبو الحسن عليّ بن مُنْقذ.

وفي يوم الثّلاثاء السّابع والعشرين من شعبان، فُتحت أرتاح بالسّيْف؛ ونهب جميع ما فيها وما في حصنها من الأموال والذَّرَاري؛ وكان فيها خَلْقٌ عظيمٌ من النّصرانيّة لأنَّ جميع من كان في تلك المواضع منهم حَصَل بها لأنّها كانت الكرسيَّ لهم هُناك. وقتل من رجالها نحو ثلاثة آلاف رجل؛ وَقَدْ كان الملكُ ابن خَان حاصَرها زُهاء خمسة أشهر.

وأتى عسكرٌ عظيمٌ من عساكر الرّوم، فَنَزَلَ على باب أنطاكية ليُصالح الملك ابن خان عن أرتَاح وغيرها من بلاهم؛ فلم يتمّ بينهم صُلْحٌ. وإنّما كان غَرض العَسكر أنْ يَدُسَّ إلى أنطاكية غلّة حُمِلَتْ إلى السُّوَيْدَاء[٢] لتقويتها.

وكان فتح أرتاح فتحاً عظيماً لأنّ عملها قريبٌ من أعمال الشّام، من

١ - القفيز: مكيال يساوي ثمانية مكاكيك، ويسع المكوك صاعاً ونصف الصاع.
٢ - السويداء هي ميناء السويدية ميناء أنطاكية على البحر المتوسط.

الفُرات إلى العاصي إلى أفامية إلى باب أنطاكية إلى الأثارب. وقيل بأنهم أحصوا إلى شهر رمضان من هذه السنة أنَّه افتقد من الرّوم في الدّرب إلى أفامية بحساب قتلاً وأسراً ثلاثمائة ألف نفر.

وخَرَج ملك الرّوم في سنة إحدى وستّين وأربعمائة إلى ديار الشام فأخذ كثيراً من أهل منبج، وهَرَب أهلها من حصْنها فَأَخَذَهُ، وشَحَنَهُ رجالاً وغلةً وعدّةً. وسار إلى عَزَاز فوقف عليها ساعة، ورَجَع جَاولاً، وسلّط الله عَلَيْه وعلى أصحابه الغَلاء، والعلّة، والوباء. فذكر ملك الرُّوم للقاضي القضاعي رَسول المصريّين أنّه مات له في يوم واحد ثَلاَثَة آلاف من خيله سوى عسكره.

وقيل: إنّ منبج بقيتْ في بلَدِ الرُّوم سبع سنين، وهذا الملك هو يوجانس[1]. ولا يبعُد عندي أنّه الذي عناه هرقل بقَوله: «لا يعود إليك روميٌّ إلا خائفاً حتّى يولد المولود المشئوم، وياليتهُ لا يولد».

وفي يوم السَّبت أوّل شعبان من هذه السنة، جمع قَطَبان أنطاكية ودوقسها المعروف بالنحت جموعاً كثيرة. وطلَع إلى حصن أسفُونا بعَمْلة عملها عليه قومٌ يُعرفونه ببني ربيع من أهل جوزن ففتحوه، وقتلوا كثيراً من رجالِهِ وكانوا ثمانين رجلاً، وأسروا الباقين. وكان الوالي به رجلاً من الأتراك يعرف بنادِر.

---

١ ـ اسمه رومانوس الرابع، ومعنى لقب ديوجانس: حامي الثغور أو الحدود، وسيقع في أسر السلطان ألب أرسلان في معركة منازكرد.

وبلغ الخبرُ إلى الأمير عزّ الدّولة محمود بن نصر بن صالح، وهو يسير في الميدّان بظاهِر مدينة حلب؛ فسار في الوقت يوم الاثنين في التُّرك والعرب؛ ولم يدخُل البلد، واجتمع عليه خَلْقٌ عظيمٌ سمع من يحزرهم بخمسين ألفاً؛ فحاصره سبعة أيّام، وفتحه يوم السّبت، وقتلَ جميع رجالِهِ، وكانوا ألفين وسبعمائة؛ وفي ذلك يقول أبو محمّد الخفاجي:

إنْ أَظْهَرَتْ لِعُلاكَ «أَنْطَاكِيَّةٌ» حُزْناً فقد ضَحِكَتْ عَلَى قَطَبانِهَا
بَعَثَ البَرِيدَ مُخَبِّراً عَنْ وَثْبَةٍ ما كان أَحْوَجَهُ إلى كِتْمَانِها
لَمَّا أَطلَّ لَـهُ لِواؤُك خـافِقاً عرفَتْ وُجُوه الذُّلِ في صُلْبَانِها

وفيه يقول أبو الفضل عبد الواحد بن محمّد الحلبيّ الربعي:

رَدَدْتَ عَلَى الاسلامِ شَرْخَ شَبَابِهِ وَكَادَتْ عَلَيْهِ أَنْ تُقَامَ المَآتِمُ
وظَنَّ طُغَاةُ الرُّومِ مُنْذُ أَغَبَّهُم نِزَالُكَ أنا حينَ ذَاكَ نُسَالِمُ

ثم إنَّ محموداً هَادن الرُّوم في هذه السَّنة على أن اقترضَ منهم أربعةَعَشَرَ ألف دينار، وعلى أن يجعل ولده «نصراً» رهناً عليها، ويهدم حصن أسفُونا. فأخرج ثابت ابن عمّه معزّ الدّولة وشبل بن جَامِع، وجمعَا النّاس من معرّة النعّمان وكفر طاب وأعمالهما؛ وخربا حصن أسفُونا.

ووقعتْ فتنة بحلبَ بين الحلبيّين والأتراك، وقُتِل من الأتراك نحو أربعين رجلاً، ومن الحلبيين عشرة. وَوَصَل في سنة اثنتين وستّين وأربعمائة صندق التركي خارجاً من بلد الرّوم، ومعه عسكر عظيم؛ وَدَخَلَ إلى بلَد

حلب مِنَ الأرتيق إلى الجزْر إلى بلد معرّة النعّمان وكفرطاب إلى حماة وحمص إلى رفنية.

وشتوا في هذه السّنة فنهبوا الضِّيَاع وسَبَوا منها، وعاقَبُوا مَنْ وُجِدَ هناك، وفتحوا جبَابَ الغَلّة وَمَدَافنها. وقطع القطائع الكثيرة على مواضِع امتَنعتْ عليه.

ولقي أَهْلُ الشَّام مِنْ عسكره شِدّةً عظيمةً، وهو أوّلُ نَهْبٍ وفسادٍ جَرى بالشّام من الأتراك. ولما انقضى زمنُ الشِّتاء عاد إلى بلَد الرّوم بعد أن أكرمَهُ محمود بن نصر بتُحفٍ وهَدَايا حَمَلَهَا إِلَيهِ.

ثمّ إنّ محمود بن نَصْر بن صالح راسل في هذه السّنة السلطان العادِل ألب أرسلان، واستقرّ الأمر بينهما فأجاب مَشَايخ البلَد إلى ذلك فَلبِسَ المؤذّنونَ والخطيبُ السَّواد، وخطب للامامِ القائِم، وبَعْدَه للسّلطان ألب أرسلان، وبعده لمحمود، ولقّب الأمير الأجلّ حُسام الدَّولة العبّاسية، وزَعِيم جيوشها الشَّاميّة تاج المُلوك، ناصر الدّين شَرف الأمّة ذو الحسَبّيْن خالِصَة أمير المؤمنين.

وأمر ابن خان الأتراك بالوُقوف على بابُ الجَامع وقَتْل كُلّ من يخرجُ ممتنعاً من الصّلاة وسَماع الخُطبة؛ فسأله الشّيوخ ألا يَفْعَل خَوْفاً مِنْ وقوع

١ ـ الجزر كورة من كور حلب تقع بينها وبين أنطاكية.

٢ ـ للسلطان ألب أرسلان ترجمة واسعة في بغية الطلب كنت قد نشرتها في ملاحق كتابي مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية ص٢٧٨ ـ ٢٩٣ .

فتنة. وأخذَتِ العامّة الحصر التي في الجامع، وقالوا: «هذه حصر عليّ بن أبي طالب فليجيء أبو بكر بحصرٍ حتى يُصَلّي عليها النّاس». وكان ذلك يوم الجُمعة التّاسع عشر من شوّال سنة اثنّتين وسِتّين وأربعمائة.

ومَدَحه الشّيخُ أبو مُحمّد بن سَنان الخفاجِيّ الحلبيّ بقصيدةٍ طويلةٍ، يقولُ فيها:

مَا يَصْنَعُ الْحسبَ الْكَرِيمَ بِعَاجِزٍ يُبْنَى لَهُ الشَّرَفُ الرَّفِيعُ وَيَهْدِم

على أن يخطب محمود بحلّب للإمام القائم خَليفة بغداد وبعده للسّلطان العَادِل ألب أرسلان وبعده لنفسِه؛ فوصَلَ إليه نقيبُ النّقباء أبو الفوارس طراد بن علي الزينبي لإقَامة الدَّعوة العبّاسية، ومعه الخِلَع من القائم بأمر الله ومن السّلطان.

فجمع محمُود أهل حلب وقال لهم: «قَدْ ذهبتْ دولة المصريّين وهذه دولة جديدة، ومملكة سديدة ونحنُ تحتَ الخَوْف منهم، وهم يستحلّون دماءكم لأجل مذهبكم، والرأي أن نُقيم الخطبة خوفاً من أن يجيئنا وقت لاينفعُنا فيه قول ولابذلٌ».

وكان ناصر الدّولة بن حمدّان قد تغلّب على مصر، وَوَقَع بينَه وبين جماعةٍ من الأمراء بمصر وحشَة؛ فأنفَذَ إليه الفقيه أَبا جعفر محمد بن أحمد البخاري المعروف بقاضي حلب ـ وأظنّ ناصر الدولة قلّده قضاءَ حلب حين وردها؛ ووقعت به وقعة الفُنَيْدِق، والسلطان ألب أرسلان حين حاصر حلب وهو معه فعُرِف بذلك ـ أرسله ابنُ حمدان رسولاً إلى السلطان ألب أرسلان

يستدعي عساكره ليسلّم إليه ديار مصر ويغيّر الدعوة؛ وذلك في سنة اثنتين وستّين.

فلمّا ورد عليه الرسول إلى خراسان جهز العساكر العظيمة التي تملأ الفضاء، وَوَصل معها على طريق ديار بكر، ونَزَل الرّها في أوّل سنة ثلاث وستّين، وأقام عليها نيّفاً وثلاثين يوماً.

وسَيَّر الفقيه أبا جعفر قاضي حلب المذكور رسولاً إلى محمود بن نَصَر بن صالح يستدعيه إلى وطء بِساطه وخدمته أسوةً بمَنْ وَفَد عَلَيْهِ مِن المُلُوك مثل: شرف الدولة مسلم بن قريش، وابن مروان، وابن وثّاب، وابن مزيد، وأمير التّرك والديّلَم. فلم يُجِبْ محمود إلى ذَلك، وخاف منه.

فسار عن الرُّها إلى الشّام قاصداً محمود بن نصر، فقطع الفُرات في النِّصف من شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وستّين وأربعمائة، من نَهْر الجوز[1]؛ ونَزَل على بعض المروج فأَعْجَبَهُ، فقال له الفقيه أبو جعفر قاضي حلب: «يامَوْلانا أحْمَد الله تعالى على هذِهِ النّعْمة؛ وهي أنَّ هذا النهر لم يقطعْهُ قطُّ تركيٌّ إلا مملوك. وأنتَ قد قطَعْتهُ مَلِكاً». فأحضرَ الأمراءَ والأتراكَ وأمرهُ بإعادَة القَوْلِ. قال: فَأَعْدتُهُ، فحمد الله تعالى حمداً كثيراً.

ونَزَل بنقرة بني أسد إلى أرض قنَّسرين إلى الفُنَيْدِق. وكان نقيب النقباء بِحَلب لم يَنْفَصِلْ عنها بعد إقامة الدَّعْوَةِ، فسألهُ محمود أن يَخْرُجَ إلى

١ ـ نهر الجوز: ناحية ذات قرى وبساتين ومياه بين حلب والبيرة على الفرات. معجم البلدان.

السُّلْطَان، ويُصْلِحَ أَمْرَهُ معه، فخرج مُسْتَفْسِراً ومتوسّلاً. وتلطّف الأمر، وأحسن السفارة. وخاطب السّلطان بأنّه قريب العهد بالخطبة للخليفة، وقد لبس تشريفه.

فقال السّلطان: «أي شَيْء تساوي خطبتُه للخليفة ولبسُ تشريفه، مع ماسبق من شَقِّهِ الْعَصَا وخروجِهِ عن الطّاعة!» وأبى قبول الشّفاعة فيه بدون وطء محمود بساطه.

فخاف محمُود ولم يجب إلى ذلك، وتمادى الأمر نحو شهرين. وحَصَّن محمود حلب وجفَّل الناسَ من سائر الشام إليها، وحَصَل الرّعبُ في قُلُوبهم هيبةً. لما اجتمع إليهِ من العساكر الجمة، والجيوش الكثيفة الضخمة. وكان الأمر بخلاف ما ظَنَّ الناسُ؛ فإنَّهُ لما أيس من خُروج محمود إليه عَادَ من الفُنيدق وكانتْ خيمتُه على ذلك التَّلِّ فعرف بتلّ السّلطان من ذلك اليوم.

وَنَزَل على حلب في آخر جمادى الآخرة من السَّنة، وكانت الخيامُ والعساكرُ مِن حلب إلى نقرة بني أسد، إلى عزاز، إلى الأثارب، متقاربةً بعضها من بعضٍ، ولم يتَعَرَّض أحدٌ من العَسكر بمالِ أحدٍ، ولاسُبِيَتْ حَرمة، ولا قاتل حصناً.

وبَلَغَني أنَّ عسكره العَظيم لم يأخذ عليقةَ تبنٍ من فَلاح إلا بثمنهِ، وأقام مُحاصِراً حَلَب شهراً ويومين. ولم يقاتلها غيرَ يوم واحدٍ، وقصد المُطَاوَلَة بالبلد بَعْدَ أَنْ أَشْرَفَ على الأخذ، وقال: «أخشى أَنْ أَفتحَ هذا الثغر بالسّيف

فيصير إلى الرّوم». ونُقِبَ بُرْجُ الغَنَم، وَعُلّق(١)، فظَفِرَ أهلُ حلب بمن دَخَلَ ذلك النّقب وأخذوا بعضهم، ووقع الرَّدْمُ على الباقين.

وعصّب الحلبيون بُرْجَ الغَنَم بشقة أطلس، وكان السلطان نازلاً بميدان باب قنّسرين، فسأل عَنْ ذلِك فقيل: «هؤلاء الحلبيّون يقولون على سبيل المزح: قد صَدّع البُرج رأسهُ من حجارة المنجنيق فقَدْ عصَّبُوه». فغَضِبَ، وفرّق في تلك الليلة ثمانين ألف فَرْدة نشّاب خلنج(٢)، غير مارماه بَقِيَّة العسكر.

وأصبح وأمر بالزّحف فَجَدَّ النَّاسُ في قِتال البلد، وحمل السّلطان بنفسه في ذلك اليوم، فوقعت يدُ فرسه في خسف كان هناك، وأصاب في الحال رأس فرسه حجر المنجنيق فرَكِبَ غيرَه؛ وعاد، وصرف النَّاس عن الحرب بعد أن أشرف البلد على الأخذ إبقاء لحُرمة البلد، وكان عسكره دائراً بالبلد من جميع وجوهه.

ثم إنَّ السّلطان راسل الأمراء من بني كلاب وأحضرهم من البرّيَّة، فوصَلوا إليه، وعوّل على تقليد بعضهم وتَرْكه في مُقابلة محمود وعَوده لأجل مابلغه من ظهور ملك الرّوم إلى بلاد أرمينية عازماً على قصد خُراسان.

وَلَمَّا علم محمود بأنّ البلد قد أشرفَ على الفتح، وعَلِمَ بوصُول الأمراء من بني كلاب، وأنَّه إنْ تَم ذلِك خرج الشَّامُ مِنْ يدِهِ، فراسل السُّلَيماني ـ

١ ـ أي حشي بالأخشاب لسند الثغرة قبل اشعال النار فيها بغية انهيار البرج.
٢. الخلنج حتى الآن بالدارجة: الجديد الذي لم يستخدم بعد.

وكان يتردّد إليه في الرّسالة ـ يُعلمه أنّه قد عزم على وَطْء بساط السّلطان وخِدمته خوفاً مما أَشْرَفَ عليه.

فَخَرج إلى السُّلطان بنفسه، ومعه والدته علويَّة، المعروفة بالسيّدة، في أوّل شعبان؛ وأَخذَ مفاتيح البلَد معه، فدخلا والعسكر سِماطان بينَ يَدَيْه، فخدماه، وسلّما عليه، فأكرمهما، وأحسن اليهما، وقال للسيِّدة: «أنتِ السيّدة؟» قالت: «سَيْدةُ قومي» ـ وقد ذكرنا أنّه جَرى لَهَا ذلِكَ مع المُستَنْصِر.

وأطلق لهُ البلد، وشَرَّفَهُ، وخلع عَلَيْه، وكَتَب له توقيعاً بحلب، وتردّد خُروج محمود إلى خدمته مَرَّةً بعد أخرى؛ وقرّر معه السُّلطان أن يخرج بعسكرِهِ، ويضيف إليه السّليماني، وأَنْ يتوجَّهَا إلى بلاد دمشق والأعمال المصريّة لِفَتْحها فَفَعل ماأمَرَهُ به، وعاد السُّلطان إلى بلاده[1].

وقيل: إنّه خَلَّف ابنَه مع فوْج من عساكره بكُورَة حَلَب، وقصد ملك الرُّوم، وأَسرع في السَّير لأنَّه بلغه أَنَّ ملك الرُّوم خرج في جموعٍ لاتُحصى؛ وأنه وَصَل إلى قاليقَلا ـ وهي أرزن الرّوم ـ فوَصَل السّلطان إلى أذربيجَان حين بلغه أَنَّ ملك الرُّوم قد أخذ على سمْتِ خلاط، وكان السّلطان في خَوَاصِّ جُنْدِهِ، وجموعُ عَساكِرِه بعيدةٌ عنه، ولم يَرَ العَوْدَ إلى بلاده؛ فسيَّر وزيرَه نظامَ المُلك وَزَوْجته الخَاتُون إلى تبريز مع أَثْقالِهِ.

---

١ ـ عالجت هذه الحوادث وبحثت فيها اعتماداً على مختلف المصادر في كتابي امارة حب ص١٣٨ ـ ١٤٣.

٢ ـ أرزن: مدينة قرب خلاط. معجم البلدان.

وبَقِيَ في خمسة عشر ألف فارس من نُخْبَةِ عسكرِهِ مع كل واحدٍ فرسُه وجَنِيبُهُ؛ والرُّوم في زُهاء ثَلاثمائة ألفٍ أو يزيدُونَ مابَيْنَ فارس وراجلٍ، من جموعٍ مختلفةٍ منَ الرُّوم، والرُّوس، والخزَر، واللان، والغُزّ، والقفجق، والكرج والأبخاز، والفرنج، والأرمن. وفيهم خمسة آلاف جَرْخي[1]؛ وفيهم ثلاثون ألف مُقَّدمٍ مابين دوقس، وقومص، وبطريق.

فرأى السُّلطان أنّ الإمهال للحشد والجَمْع مُضِرٌّ؛ فركب في نُخْبَتِهِ وقال: أَنَا أَحْتَسِبُ نَفْسِي عِنْدَ الله؛ وهي إمّا السعادة بالشهادة، وإمَّا النصر ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ الله مَنْ يَنْصُرُهُ﴾[2]. ثم سار مرتّبا جيشَه قاصداً جموعَ الرُّوم.

وكانَ ملك الرُّوم قد قدم مقدّما في عشرين ألف مدرع من شجعان عسكره، ومعه صليبُهم الأعظم؛ فوصل إلى خلاط، فنهب وسبى، فخرج إليه عسكر خلاط، ومعه صندُق التركي الخارج إلى بلد حلب، في سنة اثنتين وستّين ـ على ما قَدَّمْنَا ذكْرَه ـ فكسره صنْدق؛ وأَسَرهُ، وصادف ذلِك وُصول السّلطان، فأمر بِجَدْعِ أَنْفِهِ.

وعَجَّل إنفَاذَ الصَّلب الذي كان في صُحْبته إلى نِظام المُلك، وأمره بتعجيل إنفاذِهِ إلى «دار السَّلام» مُبَشّراً بالفَتْح؛ وتَلاحق عسكرُ الرُّوم، فَنَزَلُوا علي خلاط مُحَاصِرين لها؛ ونَزَل المِلكُ على مَنَازِكِرد فسلّمُوها إليه بالأمان خوفا

١ ـ الجرخ آلة عليها قوس ثقيل يرمي السهام أو النفط.
٢ ـ سورة الحج ـ الآية: ٤٠ .

من معرّة جَيُوشه إن استَوْلوا عليهم؛ وذلك في يوم الثلاثاء رابع ذي القعدة، سنة ثلاث وستّين وأربعمائة.

فلما كان يوم الأربعاء سَيَّر أهلَ منازكرد، وخرج بنفسه ليشيعهم وهو في جُمُوعِهِ ووافق ذلك وصُول العسكر السُّلطّاني، وَوَقعت العَين في العَين، فحَمل المسلمون حملةَ رَجُلٍ واحد، فردّوهم على اعقابهم. وشرع أهلُ منازكرد يتسلَّلون من بينهم فقَتَل الرُّومُ بَعْضَهم، ونجا البَاقون، وترك الرُّوم طريقَهم الذي كانوا سالكيه، وعاد ملكهم فنزل في مَضَاربِهِ بين خلاط ومَنازكرد؛ وباتُوا ليلَتُهْم على أعْظمِ قلق وأشَدِّه.

فلمّا أصْبَحُوا بُكرة الخميس وَصَل السلطانُ ألب أرسلان في بقيَّة عساكره، فنزل على النّهر، وملك الرُّوم على موضع يُعْرَفُ بالرّهوة في مائتي ألف فارس، والسّلطان في خمسة عشر ألف؛ فأرسل السّلطان رسولاً حَمَّله سُؤالاً وضراعة، ومقصوده أن يكشف أمرهم، ويختَبِرَ حَالَهم ويقول لملك الرّوم: «إنِ كُنْتَ ترغبُ في الهدنة اتمَمْنَاها، وإن كنتَ تَزْهَدُ فيها وَكلنا الأمرَ إلى الله عزّ وجل».

فظنَّ الرُّومي أنّه إنّما أرسله عن ضرورةٍ فأَبَى واستكبر، وأَجاب بأنّي سوف أجيب عن هذا الرأي بالريّ؛ فغاظ السّلطانَ جوابَهُ، وانقطعت المراسلةُ بينهما.

وأقام الفريقان يوم الخميس على تعبئة الصّفوف، فقال أبو نصر محمد بن عبد الملك البُخَاريّ الحنفي فقيه السُّلطان وإمامُه: «أنتَ تُقاتِلُ عَنْ

دين الله الذي وعد بإظهاره على الأديان، فالقَهُم يومَ الجُمعة بعد الزَّوال، والنَّاسُ يَدعُون لَكَ على المنابر في أقطار الأرض».

فلما أصبحوا يومَ الجمعة ركب السّلطان بجمُوعه وَركب الرّوم فتواقفوا، فلمّا حان وقتُ الزَّوال نَزَل السُّلطان عن فرسه، وأَحْكَمَ شدّ حزامِهِ؛ وتضَرَّع بالدُّعاء إلى الله تعالى، ثم رِكبَ وفرّق أصحابَه فِرَقاً كُلّ فرقةٍ منهم لها كمينٌ؛ ثمّ استقبل بوَجْهِهِ الحربَ.

وحَمَل ملكُ الرُّوم بجمعهِ، فاستطرَدَ المسلمونَ بَيْنَ أيديهم، وَاستَجَرُّوا الرُّوم إلى أن صَار الكَمِينُ مِنْ وَرَائهم؛ ثُمَّ خرج الكمينُ مِنْ خَلفِهم، ورَدّ المسلمون في وُجُوهِهم؛ فأَنْزَل الله نَصْرَهُ؛ وكُسِرَت الرُّوم، وأُسِرَ المَلِكُ، واستولَى المُسلمون على عَسَاكِرِهم، وَغَنِموا ما لايُعَدُّ كثرةً ولايُحصى عَدداً وَعُدَّةً.

وقيد المَلِكُ أَسيراً بَيْنَ يَدَي السُّلْطَان، فأقامه بَيْنَ يَدَيهِ. ومعه بازِي وكلبُ صَيْدٍ.

وكانت مع الرُّوم ثلاثةُ آلاف عجلَة تحمل الأثقَالَ والمنجنيقات، وَكان مِنْ جُمْلَتِهَا منجنيقٌ بِثَمَانِية أَسْهُمٍ تحمِلُهُ مائة عجلَة؛ ويمدّ فيهِ ألفٌ ومائتا رَجُلٍ، وَزْنُ حَجَرِهِ بالرّطلِ الكبير قنطار؛ وحمل العسكر من أموالهم ما قدَرُوا علَيْهِ.

وسقَطَتْ قِيمَةُ المَتاعِ والسّلاحِ والكراع، حتى بيعت اثنتا عشرة خوذة بسُدس دينارٍ؛ ولم يسلَمْ مِنْ عَسِكَرِ الرُّوم إلا العَسْكرُ الذي كان مُحاصراً

خلاط، فلما بلَغَتْهم الكَسْرةُ رحَلُوا عن البلد جَافِلين؛ فاتبعَهُم المُسلمونَ وتخطَّفُوا أطرَافهم، فلم يُلْوِ أَوَّلُهم على آخِرِهمْ.

فَمِنْ عَجيبِ الاتفاق ما حُكي: أنَّه كان لِسَعْد الدّولة كوهرائين مملوك أهداهُ لِنِظام الملك، فَرَدَّهُ عليه فجعل يُرَغِبُهُ فيه، فقال نظام المُلك: «وماذا عسى أن يكون من هذَا المملوك يأتِينا بملكِ الرُوم أسيراً»، مستهَزِئاً بِهِ.

ثمّ رَحَل السُّلطَانُ إلى أذربيجَان، والمَلِكُ في قَيْدِهِ، فأَحضرَه السُّلطانُ بين يدَيْه، وسأله عن سَبَبِ خُروجه وتَعْريضِهِ نفسَهُ وعسكره لهذا الأمر؛ فذكر أنه لم يُرد إلا حَلَبَ، وكلّما جرى عَلَيَ كان محمود السببَ فيه والباعث عليه، فقال: «اصدقني عما كنتَ عازماً عليه أن لو ظَفِرْتَ بي» فقال: «كنتُ أجعلُك مع الكِلاب في ساجُور».

فقال السلطان: «ما الذي تؤثر أن يُفعل بك؟» فقال: «انظُر عاقِبةَ فسَاد نيّتي واختر لنَفْسِك» فرقَّ له قلبُ السُّلطان، فَمَنَّ عليه، وأطْلَقَهُ، وأكْرَمَهُ، وخَلَع عليه بعد أن شَرَطَ علَيْهِ أنْ لا يَتَعَرَّض لشيءٍ من بلاد الاسلام، وأن يُطلق أسرى المسلمين كلهم، وسَيَّرَهُ إلى بلادِهِ، وسَيَّر مَعَهُ قِطْعةً من العسكر توصله.

فلمَّا انصرف ديوجَانس إلى قسطنطينية خلعوه من المُلك، ولم يَتمَّ له ماأراد. وقيل: إنَّه كحل، ومات بعد مدّة. ولَمْ يُنْقَلْ أَنَّهُ أُسِر للرُّوم ملِكٌ في الإسلام قبل هذا[1].

١ ـ جمعت أخبار هذه المعركة الحاسمة من مختلف المصادر عربية وغير عربية، ومن ثم قمت=

وأمَّا محمُود بن نصر بن صالح فإنَّه سار بعسكره بَعْدَ رحيل السّلطان عن حلب، ومعه بنو كلاب والسّليماني، في شعبان من هذه السّنة، فنزلوا بالقرب من بَعلبكّ قاصدين دمشق وبلادها ـ وبها يومئذ ابن منزو الكتاميّ ـ حسب ماتقدّم السلطانُ إليه، وأقام محمود ليتبينّ مايفعل.

وكان عمُّه عطيّة بنُ صالح قد صارَ مع الرُّوم مستنجداً بهم على ابن أخيه محمود؛ وبعد أن قصد المصريّين فلم يحصل على شيءٍ منهم. فخرج عطيَّة مع النحت دوقس أنطاكية وعسكر الرُّوم؛ فهجموا معهُ مَعرَّة مصرين وأحْرَقُوا بعضَها، وقَتَلوا من قَدرُوا عليه.

وبلغ الخبر محموداً وهو في أرض بعلبكّ فعاد إلى حلب، وسار السُلَيْماني ليَلْحَقَ بالسُّلطان ألب أرسلان؛ واتصلت غاراتُ الرّوم على الشَّام، فاستنجد محمود «بقرلُو التركيّ» ومن معه من الأمراء بفلسطِين، وهم: ابن أخي الملك ابن خان، وأتسز بن أوق[1] وإخوته. وكانوا أوّل من طلع من التّرك إلى بلاد فلسطين، وفتحوها، وأقاموا بها فنزلوا إلى محمود مُنْجدينَ له، وأَقَاموا إلى أن تفرّق عسكر الرّوم.

ودخل عطيّة عمّ محمود إلى قُسْطَنْطِينِّية، فسَقَطَ مِنْ سَطْح كان نائِما

= بدراستها بموضوعية وتفصيل. انظر كتاب مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية ص١٤٠ ـ ١٥١.

١ ـ لأتسز بن أوق ترجمة في المقفى للمقريزي كنت قد نشرتها في كتابي مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية ص٢٦٥ ـ ٢٦٨.

عليه وهو سكران؛ فماتَ سنة أربع وستّين ـ وسار محمود إلى الرّحبة فأخذها ـ وحُمل إلى حلب ودُفِنَ بها غربيّ باب الجنان، في مشهد أمه طَرود قبلي بُستان النّقْرة، وصَلى عَلَيْه ابنُ أخيه محمود. ثمَّ عاد الأتراك بعد أن حَمَل إليهم محمود مالاً وخيلاً.

وفي سنة أربع وستِّين وأربعمائة، تغيَّرت أخلاق محمود بعد رحيل السّلطان، وتنكّر لأصحابه؛ وتَغَيّر على وزيره أبي بِشْر النَّصراني؛ وكان هو الذي ساعده بماله حتى ملك حَلَب، واستجذب العربَ إليه، وكان القائد أبو الحسن بن أبي الثريا ـ الذي كان وزير عطيّة ـ قد سَعَى به ليليَ وزارة محمود، وطالبه بمالٍ جليلٍ.

وكان محمود قد رغب في جمع المال، وَغَلَب عَلَيْهِ حُبُّ الدنيا فذكر له أبو بشر أنه عاجز عن أداء ماطُولِبَ به، وأنّه ممَّا لاتَصِلُ يده إليه ولا إلى بعضه. فأمر محمود بقَتْلِ وَلَدٍ كان لأبي بشرٍ وبقتْلِ أخيه؛ فقُتِلا وقُطع رأساهما، وعلّقا في عُنُقِهِ؛ فسُمِعَ أبو بشرٍ وهُو يقولُ:

وَيْحَ دَهرِي مَا أمرَّه   ما وفى خيرٌ بشرّه

وحلف أبو بشر أنه بعدما فعله بابنه وأخيهِ لايظهر له شيئاً من ماله. وقال: كُلّ مَنْ عِنده شيءٌ مودَعٌ فهو في حلّ مِنْه وسَعة.

وندم محمود على مافَعَلَ، وأراد الرّجوع له؛ وأرسل إليه شافِع ابن الصُّوفي أن يقرّر عليه شيئاً ويطلقَهُ فامتنع.

واتَّفَق أنّ محموداً اصطبحَ، وقُدّم إليه طَعامٌ بعد سكره، فأنْفَذَ منه لأبي بشر مع فَرَّاشِه؛ فقامَ قائماً وقبَّل الأرضَ، وشكر وَدَعا. فعرفَ ابن أَبي الثّريا، فركب، وَلَقِيَ الفَرَّاشَ وَدَفَعَ إليه مائَة دينار؛ وسأله أن يقول لمحمود: «إنَّ هذا شيخٌ خرفٌ لأنه لم يَقْبَلْ طعامَ مَوْلانا، وقال: كافأه الله وعجّل عَلَيْهِ». ففعل الفرّاشُ ذلك.

ودخل ابن أبي الثّريا عقيبة على محمُود؛ وجاراه في حديثٍ لا يتعلّق بأبي بشر فلم يُقبِلْ عَلَيْهِ، ووجده مملوء القَلْب غَيْظاً من جَوَاب الفرّاش. فقال ابن أبي الثّريا: «الله لا يُشغِل لمولانا خاطراً، فما أراه منبسطاً في مجلسه ولامُصغياً إلى المملوك». فحدّثَهُ بما قال الفرّاش، فقال يامولانا: «لم تزل إليه محسناً وَيُقابِلُكَ بالإساءة فكيف يكونُ بعدما جَرى عليه وعلى ابنه وأخيه ماجرى؟ وأنا أدري أنك تريد ماله؛ وقد تكرّر قولُه أنَّه لايُعطيك شيئاً». قال محمود: «هذا سَيْفي وَخاتمي، خُذْهما وامضِ إليه فان لم يقرّ بشيءٍ فاقْتُلْهُ».

فقام ابن أبي الثُّرَيَّا مِنْ عِنْدِه بذلك، واشتغل محمود بالشرب فلها عنه؛ وأحضر ابنُ أبي الثريا أبا بشر فلم يُطالبه بمالٍ بل قال له: «ما زلتَ تتجلّدُ حتّى صرتَ إلى هذهِ الحال». فقال: «ياقائدَ السُّوء قد علمتُ أنّ هذا كلّه مِنْ سَعْيك؛ والأجَلُ لامَرَدّ له، وهذا موتُ الشّهَدَاء؛ ولكنْ استعِدّ لِرجْلِكَ بِحَبْلٍ، فستموتُ مِيتَةَ الكِلابِ، وتُجَرُّ جِيفَتُكَ إلى الخَنْدق».

وقُتل أبو بشر، ورُمي وَسْط بِئرٍ بُستان القَصْر. وصَعد الوزير أبو نَصْر بن النحَاس ثاني يَوْم قَتْل أبي بشْر إلى خدمة محمود، فقال له سرّاً:

«تمضي إلى أبي بشر لتَقْرير ما عليه، ويُطْلَق». فقالَ: «يامَوْلانا أوَما قَدْ قَتَلْتَهُ». ؟ فأطْرَقَ محمود ساعَة وقال: «تَمَّت عَلَيَّ وَعَلَيْهِ الحيلةُ، وَيَجِبُ يا أبا نَصْر أَنْ تَكْتُمَ هذا الأَمْر».

قال أبو نصر: « فما حَدَّثْتُ بِهِ إلا بَعْد مَوْت محمود». واستقلّ ابن أبي الثريا بوزارة محمود.

وأما سديدُ الملك أبو الحسن بن مُنْقِذ فَإِنَّهُ استَشْعَرَ مِنْ تاج الملوك أن يَقْبِضَهُ ـ وكان أخاهُ من الرّضاعة ـ فاجتمع بِاسْبَاسَلار[1] أبي حرب ـ المعرُوف، بخريبة الفافا ـ وكان صاحب سِرّ محمود وَنَدِيمه، وكان لابن منقذ إليه إحسانٌ كثيرٌ وصنائع جَمَّةٌ؛ فقال له: «قد استشعَرْتُ مِنْ تاج المُلْوكِ فَانظُر ماتعمله معي». فقال: «تُكَلّفُني أنْ يقول الأمير أُريدُ أَقْبِضُ على فُلانٍ فأخبرك بذلِك؛ لا والله، ولكن أنا أُنفِذُ إليك مَعَ عَجُوزٍ عِنْدي أَلْفَيْ دينار؛ فإذا نَفَذَتْ طَلَبْتُها منكَ فشأنك وَنفسك».

فبقِيَتْ تلك الدّنانير عندَهُ مُدَّةً ثُمَّ نَفَّذَ العجوزَ يَطْلُبُها، وكان قد أصلح حاله للسَّفر، فدفع إليها الدّنانير، ورَكِبَ مِنْ يومه، وخرج من حلب إلى كفر طَاب فاستصحَب منها ماأراد.

وسَيَّر حُسَيْنْ بن كامِل بن الدوخَ إلى سديد المُلك بن مُنْقِذ يسأله الاجتماع به فاجتمعا؛ فقال له حسين: «ايش رَأيك في الدُّخول إلى حلب؟»

---

١ ـ الاسباسلار أو الاسفهلار فارسية تعني القائد.

فقال: «ماأقولُ لك شيئاً لأنّ لك مالا عظيماً، فإنْ أشرْتُ عليكَ بِتَرْكه كُنْتُ مَلُوماً عِنْدَك، ولكنّي أقولُ لكَ ماأعملُ، وأنتَ تَرى رأيَك. واللهِ لانَظَرْتُ محموداً أبداً»!.

وسار إلى طرابلس فكتب محمود إلى ابن عمار يأمُرهُ بالقَبْضِ عَلَيْهِ، ويَبْذُل له ثلاثة آلاف دِرْهمٍ ورفنية فلم يظفر بهِ.

وسار ابن منقذ حتى وصل إلى طرابلس في سنة خمس وستّين، فلقي ابنَ عَمّار وأخاهُ، فكاتبهما محمودٌ فتنكّرا له.

وعزم ابن مُنْقذٍ على الطلُوع إلى مصر، فاتفق مَوْت أمين الدَّولة ابن عمّار فشدّ ابن مُنقذ مِنْ جلال الملك علي بن عمار وعَاضَدَهُ بمماليكهِ ومن طَلَع مَعَه من أهل كفرطاب؛ فأخرجوا أخا أمين الدَّولة؛ وتولّى جلال الملك؛ وعظم محلّ ابن مُنْقذ عندَهُ حتّى كان حكمه في طَرابلس مثله. وكاتَبَهُ محمود بتطييب قَلْبه، فلم يثق به، ولم يَعُدْ إلى حلب حتّى مات.

وقيل: إنّ ابن النحاس، كاتِب محمود، كَتَب إليه كتاباً من نفسه يضْمَنُ له فيه الرّضا عن محمود، وكتب في آخره: «إنّ شاء الله» وشَدَّدَ النّون من «إنّ»؛ ففطن ابنُ منقذ بأنه أراد قوله تعالى: ﴿إنَّ المَلأَ يَأْتَمِرُون بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾[1] فكتَبَ جوابَهُ: «وكتب إنّا الخادم» وكسر الألف، وشدّد النُونَ من «إنّا»؛ ففطن ابنُ النَّحّاس بأنّه أراد قوله تعالى: ﴿إنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبداً ما داموا فِيها﴾[2].

١ ـ سورة القصص ـ الآية: ٢٠ .
٢ ـ سورة المائدة ـ الآية: ٢٣ .

وأما محمود فإنه لما يئس من عَوْد أبي الحسن بن مُنْقِذ قَبَض على أملاكه جميعها. وأمّا حُسَيْنُ بن الدّوخ فانه دَخَل إلى حلب فقتله محمود ولم يُمْهلهُ.

وكان محمود قد خَطَر له أن يُوَلي في كُلّ قَلْعَةٍ من قِلاعه رجلاً من أَهل حلب، وتكون ذريته وأهله تحت يده، وطلب من الوزير ابن أبي الثريا أن يختار له من يُوليه عَزاز، فقال: «لا أجِدُ لذلك إلا أبا محمد بن سنَان الخفاجيّ». وكان أبو نصر ابن النحاس حاضراً، فصوّب الرأي فيهِ.

فأحضره محمود وَوَلاهُ بعد أن امتنع ثُمَّ أجَاب.

ثُمّ إنّه استوحش عليه فاستدعاه محمود عدّة دفعات إلى حلب، فتعلل عليه ولم يحضر، وكان أبو نصر بن النحّاس صَديقَه وكان كاتِب محمود؛ فكان يكتب إليه ويحذّره.

فأمرَهُ في بعض الأيَّام أَنْ يكتب إليه كِتاباً يتلطّفه ويأمُرُهُ بالحضور والكتاب عَنْ أَبي نصر؛ لأنّه كان يعلم مابينهما من المودّة؛ وأَمَرَهُ أن يضمن له عَنْ محمود كلّ خير؛ وأَمَرَهُ أَنْ يكتب الكِتاب بين يديه، ولم يقع له أن يُلْغز فيه شيئاً.

قال أبو نصر: «فما قدرتُ أن أعملَ فيه سوى أن شدَدتُ النُّون من (إن شاء الله)؛ وتناهيتُ في لفظ الكِتاب، وقُلتُ: لو عرفت ضدّ ما كتبتُ لما كنتُ بصورة من يغُشُّه». وأخذ محمود الكتاب وَوَقَفَ عليه، وكرّر فيه نظرهُ فرآه كافياً شافياً، فأَمَرَ بِالصَاقِهِ وعُنْوانه؛ وَدَفَعه لبعض أصحابه وَوَصَّاهُ أن يقول: «هذا كتاب دفعه إليَّ أبو نصر بِدَارِهِ». وسار الفرَّاش.

فلما وقف أبو محمد عليه كّرر فيه نظره، وبقي متعجّباً منه، ويقول: «أخي أبو نصر أعطاك الكتاب بِدارِه أم بالديوان أم بالقلعة قدّام الأمير؟» فقال: «بَلْ بِدارِه» فقال: «ماهذا صحيح!» فحلف له فلم يُصَدِقْه إلى أن قال: «وقعتُ على المعنى». وكتب جوابه يذكر فيه شُكْر أَبي نصر، وأنّه مهتمٌّ بالحُضور عندد زوال حُمّى جسمه. ثم إنّه كاتَبَ أَبا نصرٍ خفيَةً، وأعلمه أنه عَثَر على المعنى في تشديد «إنّ».

وقد ذكرنا أنه جرى له ذلك مع ابن مُنْقذٍ فيحتمل أن يكون وقع ذلك معهما جميعاً.

ثم إنّ محموداً أفكر وقال: «ما أعرف قتله إلا منك»؛ فقال: «كيف؟» قال: «تمضي إليه اليوم ومعك ثلاثون فارساً يقفون لك في بعض الطّريق، وتقدم منك إليه من يُعلمهُ بوصُولكَ ومعَك في رانِكَ هذه الخشكنانة[1] ومعك أنت خشكنَان غيره؛ فإذا فعلتَ ذلك لابُدّ أن يَنزل ويلتقيك من قَلعة عَزَاز، ويَعرض عليك الصُعُود والنُّزول عنده، فقل له: أنا مُوجل ومُسْتَحْلَفٌ أن لاأنزل على الأرض، ولا آكل لَكَ طَعَاماً؛ وطَوِّل الحديث مَعَهُ إلى أن تَعْلَم أنه قد جاع؛ ثم اذكر أنتَ الجوعَ واخرج لك خشكنانَة من الذي معك؛ ثم أخرج المسمومَة فادفعْها إليه، وكُل أنتَ التي لك، وتَحدَّثْ معه ويكُونُ حديثكما على فرَسَيْكما وأنتما بمَعْزِلٍ من أصحابكما، وطَوّلْ معه الحديث ولاتبرَحْ حتّى يستَوْفي أكلَها، وعلامَةُ صِدقكَ مَوْتُه؛ وإلا ضَرَبْتُ عُنقك».

---

١ ـ من أنواع الخبز يصنع من الدقيق والزبد والفستق والسكر أو سواه.

قال أبو نصر بن النحاس: فنزل عَلَيَّ مِنْ ذلك أمرٌ تمنيتُ الموتَ مَعه، فخرجتُ وأنا على غايةٍ من الجَزَع والتأسُّف كيف قضى الله ذلك على يَدِي، وجَعَلْتُ دَفْعَةً أُعوِّلُ على الهرب؛ ثُمّ إنّي أفكِّر في أَولادي وأهلي، وإنّني إنْ فعلتُ ذلك أهلكتُهم لِعلْمي بظُلْم صاحبي؛ ثُمَّ إنَّ الفرسان مُتَوَكّلَةٌ بي.

فلمّا اجتمعتُ بِهِ فَعلتُ ماذكره لي، ثُمَّ وَدَّعْتُهُ عند استيفاء أكل الخشكنانة، ورجَعْتُ مِنْ مَوضِعي مُبادِراً؛ وأَبْعَدْتُ من أرض عَزاز، وَرَكِبْتُ جنيباً كان معي، وَجَدَّيتُ في السَّيرِ خوفاً مِنَ الطَّلَبِ.

وصَعد أبو محمد إلى المركز، فوجَدَ مغصاً شديداً ورعْدةً؛ ثُمَّ قال: «قَتَلَني أَخي أَبُو نَصرٍ اطلبوهُ». فركبتِ الخيلُ خلفَه فلم تلحقْهُ.

وَوَصَل أبو نصرٍ فاجتمع بِمحمود، فعرّفه ماجرى. فلمّا كان من ذلك الغَد وصل رسول من عَزَاز يستدعي الشَّريف النقيبَ أبا المعالي الفَضْل بن مُوسى وابنه سنان بن أبي محمّد الخفاجيّ، وجماعةً من أهله. وذكر الرسول أنه في السِّياق، فمنَع محمودٌ وَلَدَهُ من الخُروج؛ وَأَمَر الشّريفَ أن يتولّى القلعَة إلى أن يُنْفِذَ إليها والياً؛ فولاها بعد خمسة أيام واحِداً مِن أصحابه.

وتوفي أبو محمد في قلعة عزاز في سنة سِتٍّ وستّين وأربعمائة؛ وقيل سَنة أربع وستِّين ـ وهو الصّحيحُ ـ وَحُملَ إلى حلب؛ وصَلَّى عليه الأميرُ محمودُ بن صالح؛ وقيل: إنه تُوفي سنة ثلاثٍ وستّين ـ والأوَّل أصحُّ ـ وَلَمَّا أحسَّ بالموت عَمِل:

خَفْ مَنْ أَمِنْتَ وْلا تَرْكَن إلى أَحَدٍ   فَما نَصَحْتُك إلا بَعْدَ تَجْريبِ

إنْ كَانَتِ التُّرْكُ فِيهِمْ غَيْرَ وَافيةٍ فَمَا تزيدُ على غَدْرِ الأعَارِيبِ
تَمَسَّكُوا بِوَصَايَا اللُّؤْمِ بَيْنَهُمُ وَكَادَ أَن يَدرُسُوها في الْمَحَارِيبِ

وقيل: إنَّه كان كتبها أبو محمد من عَزاز إلى سديد الملك بن مُنْقذ، ويذكر له في كتابِهِ أَحْوالَهُ ولِجاجَ مَحْمُود في طلبه، وتَغَيُّرَ نِيَّتِهِ فِيهِ، وخوفَه من غائلته وظُلْمه.

وفي سنة خمس وستِّين وأربعمائة ـ وقيل في شوّال سنة أربع وستِّين ـ وَفَدَ أبو الفِتْيان بن حَيُّوس على محمود بن نصر بن صالح، وكان سديدُ الْمُلك بن مُنْقذ اجتَمَع به بطرابلس، ورأى نُفُور بني عَمَّار منه لأجْل مَيْله إلى الدّولة المصريّة، فأشار عليه أن يقصدَ محموداً بحلب، فقصدهُ صُحْبَةَ نَصْر بن سَديد الملك بن مُنْقذ، فأحضره محمود.

وكان قد جلس في مجلسه وأمرَ باحْضَار الشَّراب فَشَرِب أقداحاً، ثم قال: «ارفعوا الخَمْرَ فَإِنَّ ابنَ حيُّوس يحضرني مُمتَدِحاً، وفي نفسي أن أَهبَهُ جائزةً سنيّةً فإنْ كانَ الشَّرَابُ في مجلسي قيل وَهبَهُ وهو سكران» فرُفِعَ. وحَضَر الأميرُ أبو الفِتْيان فأنشدهُ قصيدتَهُ الميميّةَ التي أَوَّلُها:

قِفُوا في القِلَى حَيْثُ انْتَهَيتُم تَذَمُّماً وَلا تَقْتَفُوا مَنْ جَارَ لَمَّا تَحَكَّمَا
أَرَى كُلَّ مُعْوجِّ المَوَدَّة يُصْطَفَى لَدَيْكُمْ، وَيَلْقَى حَتْفَهُ مَنْ تَقَوَّمَا

وهي قصية طويلة، أَحْسَنَ فيها كُلَّ الإحسان، وذكر إشارَة ابن منقذِ عليه بقَصدِهِ فقال:

سَأشكُرُ رَأْياً مُنْقِذِياً أحَلَّني ذَرَاكَ فقد أوْلى جَميلا وَأنْعَمَا(١)

فوهب له ألف دينارٍ ذهباً في صِينيَّة فِضَّة، وجعلها له رسماً عليه في كل سنةٍ.

واحتفر الخندق بحلب فجاءه أُبو الفِتْيان فقال: «هذِه أعمال يَعْجِزُ عنها كسْرَى وَذُو الأكْتاف». فقال محمود: «ما كان الأميرُأَبُو الحْسَن ينفذُك حتّى سألته ذلك»(٢).

واجتمع بباب محمود بن نصر جماعةٌ من الشُّعراء، فلم تصل إلى واحدٍ منهم جائزةٌ غير ابن حيّوس، فكَتَب إليه ابنُ الدُّوَيدَةِ، المعروف بالقاق:

على بَابِكَ المَيْمُونِ مِنا عِصَابَةٌ مَفَالِيسُ فَانْظُرْ في أُمورِ المْفَالِيسِ
وَقَدْ قَنِعَتْ مِنْكَ العِصَابةُ كُلُّها بِعُشْرِ الذِي أعطيتَه لابنِ حَيُّوسِ
وَمَا بَيْنَنَا هذا التَّفَاوُتُ كُلُّهُ وَلكِنْ سَعِيدٌ لا يُقَاسُ بِمَنْحُوسِ

فقال محمودُ: «والله لَوْ قَالَ بِمثلِ الّذي أعطيتَهُ لأعطيتُهم مِثْله». ثُمَّ أَمَرَ لهم بالجائزة مائة دينار أو أكثر.

وقَصَد الرُّومُ ناحِيَة عَزاز في جموعهم، فخرج محمُود إليهم في عِدَّةٍ قليلة تناهز ألف فَارس، فاندفع الرُّوم بَيْنَ أَيديهم، وقصدوا أنطاكية واحتَمَوْا بها في سنة أربع وستّين. وافتتح محمُود قلعة السِّن(٣) في تاسع شهر ربيع الآخر سنة ستّ وستّين.

١ - ديوان ابن حيوس ج٢ ص٥٩٨ - ٦٠٦.
٢ - الجملة مطموسة بالأصل ولعل هذه القراءة هي الصحيحة.
٣ - قلعة قرب سميساط.

وَمَرِضَ محمودُ بن نَصْر بن صَالح بحلب في جُمادى الأولى من سنة سبع وستِّين وأربعمائة. وحدثت بهِ قُروح في المَعَا كانت سَبَبَ مَنِيَّتِهِ.

وكان محمود في أول مُلْكِهِ حسنَ الأخلاق، لَيِّنَ الجانب، كريم النفس، عفيفاً عن الفُروج والأموال، ثم تنكّر وزَادَ عليه حُبُّ الدّنيا، وَجَمع المالَ فلحقهُ من البُخْل ما لايُوصَف.

[إمارة نصر بن محمود][1]

وأوصى بحلب لابنه شَبيب ـ وكان أَصْغَرَ أَوْلاِه ـ فلم يُنفذ أصحابُه وصِيَّتَهُ؛ وَمَلّكوا حلبَ وَلَدَه الأميرَ نَصْرَ بنَ محمود؛ وجدُّه لأمِّه الملك العزيز بن جَلال الدّولة بن بويه؛ وأُحصي ماوُجد في خزائن محمود فكانت قيمتُه من العَيْنْ والمَتَاعِ والآلات، والثِّيابِ، والمراكب ألف ألف وخمسمائة ألف دينار.

وأَمِنَ الناس في أيام نَصْر. وكانت سيرتُه أصلَح من سِيرَة أبيه، وأحسن إلى أهلِ حَلَب؛ وأطلق مَنْ كان في اعتقالِ أبيهِ منْ أحْدَاثِهم، وعَمَّ النَّاسَ بجُوده، وكان بَحراً للمكارم إلا أَنَّهُ كان لايستطيع أن يَرى أحداً يأكُل طَعَامَه مع كرمه وجُوده.

ودخل عليه أبو الفِتْيَان بن حَيُّوس حين وَلِيَ حَلَب فأنشَدهُ القصيدةَ التي أوَّلُها:

كَفَى الدِّينَ عِزًّا ما قَضَاهُ لَكَ الدَّهْرُ فَمَنْ كانَ ذَا نَذْرٍ فَقَدْ وَجَبَ النَّذْرُ

١ ـ أضيف مابين الحاصرتين للتوضيح .

اعتذر فيها عن تَأَخُّرِهِ عن سَلَفِهِ فقال:

تَبَاعَدْتُ عنكم حرفةً لازَهَـادَةً وسِرْتُ إليكُم حينَ مَسَّني الضُرُّ
فجادَ ابنُ نَصْرٍ لي بِأَلفٍ تَصرَّمَتْ وَإِنّي لأَرْجُو أَنْ سَيُخْلِفُها نَصْرُ[1]

فأَطْلَقَ له نصرٌ أَلفَ دينارٍ، وقال: «وَحَيَاتِي، لو قال سيُضْعِفُهَا نَصْرٌ لأَضعَفْتُهَا». ولم يزل يُواصل ابنَ حيوس بالحباء وجزيل العطاء، وأنشده ابن حَيُّوس يَوْماً بَديهاً وقد خَرَج ينظر المَدَّ في قُوَيْق:

أَرَى الأَرْضَ تُثْني بالنَّباتِ عَلَى الْحَيَا وَلَوْ تَسْتَطيعُ النُّطْقَ خَصَّتْكَ بِالْحَمْدِ
بك افترَّتِ الأَيَّام عَنْ نَاجِذِ الغِنَى وَغَرَّدَ طَيْرُ العَيْشِ في الزَّمَن الرَّغْدِ
عَهِدْنا مُدُودَ الأَرْض تأتي بُحُورها ولم نَرَ بَحْراً قطُّ سَارَ إلى مَدِّ[2]

فأعطاه صلةً جزيلةً.

وجَهّز نصرٌ عساكرَه إلى منبج صحبة أحمد شاه[3]، وكانت في أيدي الروم؛ فحصرها مدةً؛ وأيس واليها من نَجدةٍ تأتيهِ، فسلَّمَها في صفر من سنة ثَمان وستِّين وأربعمائة، فقال في ذلك ابنُ حيّوس من قصيدةٍ:

وطَـريـدَة للدَّهْـرِ أَنْتَ رَدَدْتَهـا قَسْراً فَكُنْتَ السَّيْفَ يَقْطَعُ مُغْمَدا[4]

وَوَصل في سنة ثمان وستِّين وأربعمائة أتسز بن أوق التركي إلى أعمال

---

١ ـ ديوان ابن حيوس ج١ ص٢٤٢ ـ ٢٤٩ .
٢ ـ ديوان ابن حيوس ج١ ص١٩٧ .
٣ ـ لأحمد شاه ترجمة في بغية الطلب نشرتها في ملاحق مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية ص٢٥١ ـ ٢٥٣ .
٤ ـ ديوان ابن حيوس ج١ ص٢٠٥ .

حلب القبلية؛ ونزل العَاصي على الجَلالي؛ وجفل أهلُ الشّام بين يديه ـ وكان قد سمّى نفسهُ الملك المعظَّم ـ فنَهَبَ كُلَّ ماقدر عليه، ومَلَكَ رَفَنية، وسلّمها إلى أخيه جاولي، وتردَّدَتْ سراياه في جميع الشّام، وتمادى فساده.

وتَردَّدت الرُّسُلُ بينه وبين نصر بن محمود صاحب حلب، فلم يستقرَّ بينهما أمر، وعاد إلى دمشق فتسلَّمها[١].

واعتمد جَاولي مُدَّة مقَامه برفنية إساءة المجاورة؛ وشَنّ الغاراتِ والأذى في الأعمال القبلية من عمل حلب؛ فجهزّ إليه نَصر بن محمود عسكر حلب ومقدّمهم أحمد شاه التُّركي، وذكر أنه شيبانيّ فسار إليه، والتقَوا بأَرض حماة، فكسره جَاولي وغنم عسكره.

وعاد أحمد شاه ونزل مَذْكين[٢] وجمع إليه مَن سَلِم من عسكره، فلما اجتمعوا عوّلوا على العوة إلى حلب، فقال لهم أحمد شاه: «ما بقي لنا وجه إلى حلب بعد هذه الكسرة، فإن راجعتُم الحرب وأظفرنا الله بهم كان الأمر لنا بحكم الظَّفَر، وإنْ أبيتُم فأنا أَسِيرُ إلى الفُرَات وأَستدعِي أهلي، فما لي وجه ألقى به نصر بن محمود؛ وإنما أعطى وَمَنح وأكرم لمثل هذا الموقف».

فأجمعوا أمرهم على معاوَدَة الحرب فَأَسْرى من موضعه إلى عسكر جَاولي، وكبسه، فاستثار منهم؛ ونهب عسكره، وأسر منهم ما يزيد عن ثلاثمائة

١ ـ مر سقوط دمشق لأتسز بن أوق بعدة مراحل، وقد آذى المدينة كثيرا وأنهكها. انظر مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية ص١٥٧ ـ ١٦٥.

٢ ـ لم أقف لهذا الموقع على ذكر في المصادر المتوفرة، ويبدو أنه في أحواز رفنية.

نفس؛ وسيّرهم في الوثاق إلى حلب مُشاةً؛ وهرب جاولي إلى رفنية؛ وسار بعد ذلك إلى أخيه بدمشق.

وكان نصر حين ملك حلب واستقر بها أَمر بقتل وزير أبيه أبي الحسن عليّ بن أبي الثريا القائد، صاحب الدّار التي هي المدرسة العصرونية؛ فقُتِل وكان راكباً تحت القلعة، وهو في حَشَمِهِ على بغلتهِ، وعُمل في رجله حَبْلٌ وجُذِبَت جُثّتُه من تحت القلعة إلى باب أنطاكية، جزاء على مافعله بأبي بشر، وصَدَقَ فألُ أبي بشرٍ فيه ـ على ما ذكرناه ـ وكان نصر قد اتّهمه بأنه أشار على أبيه أن يوليَ أخاه الأصغر شبيباً، وكذلك قتَلَ نصرٌ ناجيةَ بن عليّ أحدَ ولاة أبيه.

واستوزر نصرٌ أبا نصر محمد بن الحسن التميميّ المعروف بابن النحّاس الحلبيّ، وبقي وزيراً بعده لسابق أخيه إلى أن اعتقله، ثمّ أطلق. وكان أبو نصر كاتباً لمحمود قبل وِزَارَتِهِ.

وفي يوم عيد الفِطْر من سنة ثمان وستّين وأربعمائة، عَيَّد نصر بن محمود، وهو في أحسن زِيّ، وكان الزمان ربيعاً والأرض نضرة؛ واحتفل الناس في عيدهم وتجمّلوا بأفخر ملابسهم؛ ودخل عليه ابنُ حيُّوس فأنشده قصيدةً منها:

ضَفَتْ نِعْمَتَانِ خَصَّتَاكَ وَعَمَّتَا حَدِيثُهما حَتّى القِيَامَةِ يُؤْثَرُ[1]

١ ـ ديوان ابن حيوس ج١ ص٢٦٩ .

وَقَبَضَ نَصْرٌ على الأمير أحمد شاه التُركّي، واعتقله في القلعة؛ وجَلَس فَشَرب إلى العَصر؛ وحَمَلَه السُّكْرُ على الخروج إلى الأتراك، وسكناهم في الحاضر، وأراد أن ينهبهم، وحَمَل عليهم، فرماه تركيّ بسهم في حلقه فقتله، وتبعه أصحابه فوجدوه قد مات؛ وذلك يوم الأحد مستهلّ شوال من سنة ثمان وستّين وأربعمائة. وكان نصر أهوج[1].

١ ـ امارة حلب ص١٥١ .

[إمارة سابق بن محمود][1]

وزحفتِ الأتراك إلى البلد وكان والي القلعة رجلاً يقال له وَرْد، وعنده الأمير سديد المُلك أبو الحسن بن مُنقذ، وكان قد عاد من طرابلس إلى حلب في أيام نَصر؛ وعندهما جماعة من الخواصّ؛ فلما علموا بذلك استدعَوْا أخاه سابقَ بن محمود[2].

وحمل من العَقَبة[3]، وكان ساكناً بها في الدّار التي تُنسب إلى عزيز الدَّولة فاتك، ورُفِع إلى القلعة بحَبْل مِن السُّور، وهو سكران، ونادَوْا بشِعَاره، وأَطاعه الأجنَادُ، وأشاروا عليه باطلاق أحمد شاه فأطلقه في الحال، وخلع عليه.

فنزل أحمد شاه إلى العسكر بالحاضر فسكَّن النائرة[4]، وأَخْمَد الفتنة،

١ ـ أضيف مابين الحاصرتين للتوضيح .

٢ ـ لسابق ترجمة في بغية الطلب سلف لي نشرها في ملاحق مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية ص٣٩٧ ـ ٤٠٤ .

٣ ـ يقال لها عقبة بني المنذر، وكانت من أشرف نواحي حلب وأفضلها. أحياء حلب وأسواقها للاسدي ص٢٨٠ .

٤ ـ النائرة: الفتنة.

واستقرَّت قاعِدَةُ سابق؛ ولُقِّب عزّ الملك أبو الفضائل، ودخل عليه ابن حَيُّوس فأنشده قصيدة أولها:

عَلَيَّ لَها أَنْ أَحْفَظَ الْعَهْدَ والودّا وَإنْ لَمْ يُفِدْ إلا القَطِيعَةَ والصَدّا[1]

فأطلَق له سابق ألف دينار، وجعل له في كل شهر ثلاثين ديناراً، وكان سابق من متخلِّفي بني مرداس.

ولما مَلَكَ سابقٌ اجتمعتْ بنو كلابٍ إلى أخيه وَثّاب؛ وعَوّلُوا على معونته عليه وأخذ حلب له من أخيه سابق وانضاف إلى وثّاب أخوه شَبِيب بن محمود، ومبارك بن شبل ابن خالهما، وعامّة بني كلاب.

فلمَّا تحقّق سابقٌ ذلك استدعى أحمد شاه أمير الأتراك، وكان في ألف فارس وشاوره، فأنفذ أحمد شاه إلى رجل من الأتراك يعرف بابن دملاج ـ واسمه محمّد بن دملاج ـ في يوم الأربعاء مستهلّ ذي القعدة، من سنة ثمان وستِّين.

وتَحَالَفُوا وخَرَجُوا إلى وثّاب وبني كلاب، في يوم الخميس مستهلّ ذي الحجة من سنة ثمان وستين وأربعمائة، وكان بنو كلاب في جمعٍ عظيمٍ ماجتمعوا قط في مثله. يُقال إنَّهم يُقاربون سبعين ألف فارس ورَاجلٍ، وكانوا قد عَاثُوا في بلد حلب، وكانوا نزولاً بقنّسرين، فعند معاينتهم الأتراك انهزموا من غير قتال وخلّفوا حلَلَهم وكلّ ما كانوا يملكونه وأهاليهم وأولادهم.

١ ـ ديوان ابن حيوس ج١ ص١٤٤ .

فغنم أحمد شاه وأصحابُه ومحمَّد بن دملاج وأصحابُه كلّ ماكان لبني كلاب. فيقال: إنهم أخذوا لهم مائة ألف جمل وأربعمائة ألف شاة، وسَبَوْا من حرمهم الحَرَائر جماعة كبيرة، ومن إمائهم أكثر، وكل ما كان في بيوتهم. وعَفَوْا عن قتل عبيدهم المقَاتِلة، وكانوا يزيدون عن عَشرة آلاف عبد مُقاتل فلم يَقْتُلُوا أحداً منهم، وكان الذي غنمه التُّرك من العَرَب في ذلك اليوم ما لا يُحصى كثرةً؛ وأسروا جماعة منهم.

وعاد أحمد شاه بالأسرى إلى حلب فتقدّم سابق بن محمود باطلاقهم، وأنزل أخْتَه زوجَة مبارك بن شبل في دارٍ، وأكرمها لأنّها كانت فيمن أُخِذَ ذلك اليوم.

وبعد هذه الهزيمة بثلاثة عشر يوماً دعا محمد بن دملاج التركي أحمد شاه، فخرج إليه، وكان نازلاً شمالي حلب؛ فلما أكلوا وشربوا قبض محمَّد بن دملاج على أحمد شاه وأسره؛ وكان في نفر قليل فأقام في أسره تسعة أيام.

١ ـ امارة حلب ص١٥٢ ـ ١٥٣ .

[التسلط التركماني][1]

ثمَ إن سابق بن محمود اشترى أحمد شاه من محمَّد بن دملاج بعشرة آلاف دينار وعشرين فرساً، يوم السَّبت الرابع والعشرين من ذي الحجة من السَّنة.

فعند ذلك سار وثّاب بن محمود ومبارك بن شبل، وحامد بن زُغيب، إلى السّلطان أبي الفتح ملك شاه بن ألب أرسلان؛ وحضروا عنده، وشَكَوْا إليه حالهم، وسألوه أن يعينهم على سابق، ويكشف عنهم مانزل بهم منه.

وأنكر السّلطانُ ذلك وَوَعَدهم بِما طابَتْ به نفوسهم، ووقع لهم باقطاعهم في الشّام؛ وأقطع الشَّام لأخيه تاج الدولة تُتُش، وأمره بالمسير إلى الشَّام في أَوائل سنة سبعين وأربعمائة.

وتقدَّم السّلطان ملك شاه إلى أفشين بن بكجي، وصندق التركي، ومحمَّد بن دملاج، وابن طوطو، وابن بريق، وغيرهم، من أمراء التّرك بالكون مع تَاج الدَّوْلة والمسير في خدمته.

١ ـ أضيف مابين الحاصرتين للتوضيح .

فسار تاج الدّولة ومعه وثّاب بن محمود، ومبارك بن شبل وحامد بن زُغيب، حتّى وصل إلى ديار بكر، وتواصَلت إليه الأمْدَاد مع المذكورين. وكان أحمد شاه قد حصر أنطاكية مُدَّةً ومعه عسكر حلب واشتدّ الغلاء بها في هذه السَّنة، واستقرّتِ الحالُ على خمسة آلاف دينار مُقاطعةً، فأخذها، ورحل عنها إلى حلب.

ولما قربَ تاج الدّولة من الشّام هرب جماعة الأتراك المُقيمين بِحَاضِر حلب مع أحمد شاه إلى حِصْن الجِسرْ ـ وكان ابن مُنقِذ جَدَّد عمارته ليضايق به شَيْزَر، ويقطعَ المادّة عنها من بلد الرّوم؛ وأذن له سابق بن محمود في ذلك، فجدّد في هذه السَّنة ـ فتركوا أموالهم وأَهاليهم بهذا الحصنِ، وعادوا إلى خدمتهم بحلب، ولم يأمنوا أهل حلب أن يتركوا حرَمَهم عندهم لما كانوا فَعلُوه بابن خان؛ وتغيَّر الهواء بالجسر عليهم، فهلك عامّتهم بهذا الموضع.

وأما تاج الدولة تتُش فإنه أقام بالمروج إلى أن وصلته بنو كلاب بالظَّعْن، ونَزَلوا حلب في سنة إحدى وسبعين وأربعمائة.

ووصل شرف الدّولة أبو المكارم مُسْلم بن قُريش في عسكر كثير بأمر ملك شاه، ونزل معه على حلب مُعيناً له، وحصروها ثلاثة أشهر وعشرين يوماً؛ وكان نزولُه على حلب لثلاث خلون من ذي القعدة من سنة إحدى وسبعين وأربعمائة. وكان القِتَال عليها مُتّصلاً.

وقُتل أحمد شاه مقدّم الأتراك بحلب بطعنة أصابته في الحرب، وكان هوى شرف الدولة أبي المكارم مع سابق، وكان يسير إليه في الباطن بما يقوّي

نفسَه، وكان يُنْكِرُ على بني كلاب خلْطَتهم بعسكر التُّرك.

فاستأذن بنو كلابٍ تاجَ الدّولة في رحيل الظعّون فأذِنَ لهم فأَحسّ شرف الدَولة أبو المكارم بتغيّر النيّة فيه، وتحقيق التهمة به من مراسلة سابق وأهل حلب، فاستأذن تاج الدّولة في الرّحيل، ورحل. وجعل عُبورَ عسكره على بابِ حلب، وباع أصحابهُ أَهل حلب كلّ ماكان في العسكر عصبيةً وتقْويةً لهم، وقوّى نفوسَهم ونفسَ سابق.

وسار بعد أن قويَ أهل حلب بما ابتاعوه من عسكره بعد الضّعف الشديد إلى بلاده؛ وأشار عَلَى مُبارك ووثّاب وشَبيب بالاحتياط على أنفسهم أو الهرب إلى حلب.

ولم يكُ بقي مع تاج الدّولة من بني كلاب غيرهم في نفرٍ يسير، فكاتبهم سابق وتألفهم وقَالَ لهم: «إني إنّما أذبُّ وأُحامي عن بلادكم وعِزّكم، ولو صار هذا البلد إلى تُتُش لزالَ مُلْكُ العَرَب وذلّوا» وجرت أمور أوحشتهم من الأتراك؛ فهربوا إلى حلب بعد أن قُتل أصحابُهم قبل الهزيمة وبعدها، وصاروا إلى سابق.

وكتب سابقٌ إلى الأمير أبي زائدة محمد بن زائدة قصيدةً من شعر وزيره أبي نصر بن النَّحاس، يعرّفه ما هو فيه من الضّيق، ويسألُه الإقبالَ عليه والقيامَ بمعونته؛ ويحذّره من التخلّف عنه، فيكون ذلك مسبباً لزوال ملك العرب، ويعتب عَلَيْه في التوقف عنه فيما كان جرى مع أحمد شاه التركيّ، والقصيدةُ هي:

دعوتُ لِكَشْفِ الخَطْبِ والخَطْبُ مُعْضِلٌ
فلبَّيتَني لَمَّا دَعَوْتُ مُجاوِبَا
وَوَفّيتَ بالعَهْدِ الذي كَانَ بَيْنَنَا
وفاءَ كريمٍ لَمْ يَخُنْ قَطُّ صَاحِبَا
وَمَا زِلْتَ فَرّاجاً لِكُلِّ مُلِمَّةٍ
إذا المحرَبُ الصِّنْديد ضَجَّع هَائبا
فَشَمِّرْ لَهَا وَانْهَضْ نُهوضَ مُشَيِّعٍ
لَهُ غَمَراتٌ تَسْتَقِلُّ النَّوَائِبا
وَقُلْ لِـ «كِلابٍ»: بَدَّدَ الله شَمْلَكُم
أَوَيْحَكُمُ مَا تَتَّقُونَ الْمُعَايبا!
أَتَسْتَبْدِلونَ الذُّلَّ بالعِزِّ مَلْبَساً
وَتُمْسُونَ أَذْنَاباً وكُنْتُمْ ذُوَائِبا
وَمَا زِلْتُم الآسادَ تَفْتَرِسُ الْعِدَى
فَمَا بَالُكُمْ مَع هؤلاء ثَعَالِبا
ثِبُوا وَثْبَةً تَشْفي الصُّدورَ مِنَ الصَّدَا
ولا تُخْجِلُوا أَحْسَابَنا والْمَنَاقِبا
وَلا بُدَّ مِنْ يَوْمٍ نُحَكِّمُ بَيْنَنَا
وَبَيْنَ العِدَى فِيهِ القَنا والقَوَاضِبَا
أَرَى الثَّغْرَ رُوحاً أَنتُمُ جَسَدٌ لَهُ
إِذَا الرُّوحُ زَالَتْ أَصْبَحَ الجِسْمُ عَاطِبَا

وَقَـدْ ذُدتُ عَنْـهُ طَـالِبـاً حِفْظَ عِـزِّكُمْ
إبـاءً ولاقَيْتُ الـمَـنَـايَـا الـسَّـوَاغِـبـا
وَهَـا أنـا لا أَنْفَـكُّ أَبْـذُلُ، في حِمَى
حِمَـاكـم مُجِـدًّا، مُـهْـجَـتي والـرَّغَـائِـبـا
أَأَدْخَـرُ مَـالي عَـنْـكُـم وذَخَـائِـري
إذاً بِتُّ عَنْ طُـرْقِ الـمَكَـارِمِ عَـازِبـا
شَكَـرْتُ صَنيـعَ «ابن الـمُسَيِّبِ» إذْ أَتى
يَـجُـرُّ مَـغَـاوِيـراً تَسُـدُّ الـسَّبَـاسِـبـا[1]

وَمِنْهَا:

أَيـا راكـبـا يَـطْوي الفَـلاةَ بِـجَسْـرَةٍ
هَـمَـلَّعـةٍ[2] لُـقِّـيـتَ رُشْـدَكَ رَاكـبـا
ألا أَبْلِغْ «أبـا الـرَّيَّـان» عَني أَلُـوكَـةً
تُـزيـحُ مِنَ الإيـلافِ مـا كَـانَ وَاجِبـا
أَخـاً شَخْصُه لا يَبْـرَحُ الدَّهـرَ حَـاضِـراً
تُـمَـثِّـلُهُ عَـيْـني وإن كَـانَ غَـائِـبـا
مَـتَى تَجْـمَـع الأَيَّـامُ بَـيْـني وَبَـيْـنَـهُ
أَشُـدّ عَلَيْـهِ مَـا حَيِيتُ الـرَّواجِـبَـا[3]

١ ـ السباسب: المفازات.
٢ ـ الجسر من الابل: العظيم ومؤنثها جسرة، والهملع السريع، ومؤنثها الهملعة.
٣ ـ الرواجب: مفاصل أصول الأصابع.

وَأَهْـدِ إلى «شِبْـلٍ» سَـلامِي وقُـلْ لَـهُ:

لَـكَ الخَـيْرُ دَعْ مَـا قَـدْ تَقَـدَّم جَانِبَـا
فَـتِـلْكَ حُـقُـودٌ لَـوْ تَـكَـلَّم صَـامِـتٌ

لَجَـاء إلـيهـا الـدَّهْـرُ مِـنْهُـنَّ تَـائِـبـا
وَقَـدْ أَمْكَنَتْكُم فُـرْصَـةٌ فـانْهَضـوا لهـا

عِـجَـالا وإلا أَعْـوَزَ الـدرّ جَـالِـبـا
فَـإنِّي رَأَيْـتُ الْـمَـوْتَ أَجْمَـلَ بـالْـفَـتَى

وأَهْـوَنَ أَنْ يَـلقَى الْـمُـنَـايَـا مُجَـاوِبَـا

وكان قد بلغ «سابقاً» أنَّ أميراً من أمراء خراسان يقال له تركمان التّركيّ قد توجَّه مُنجداً لتاج الدَّولة، ومعه عسكر، فأخرَجَ سابقُ منصورَ بن كامل الكلابي ـ أحدَ أمراء بني كلاب ـ من حلَب ليلاً، وأعطاه كتابَه إلى الأمير أبي زائدة، وفيهِ هذه الأبيات؛ ومعه بعض أصحاب سابق ومعهم مالٌ.

فلمَّا وقف الأمير أبو زائدة محمد بن زائدة على هذه الأبيات، اتّفق مع منصور ونائب سابق، وجَمَعُوا ما يزيد عن ألف فارسٍ وخمسمائة راجلٍ من بني نُمَيْر، وقُشَيْر، وكِلابٍ، وعُقَيْلٍ، وكلّ ذلك بتدبير الأمير شرف الدَّولة أبي المكارم ومَشُورَتِهِ.

ووَفد بهم الأميرُ أبو زائدة، وَوَصَلُوا إلى «وادي بُطْنَان». واتّفق وصولُ

المعروف بتركمان التُّركي في ألف فارس من الغُزّ، ومعهُ جملة من العُدَدِ لمُحَاصَرَة حلب ومعونة تُتُش.

وعبر تُرْكمان على طريق الفَايا، فسار الأمير أبو زائدة بِمَنْ مَعَهُ من الجمع؛ ولقوا تركمان في أرض الفايا، فَأَوْقعُوا به وكَبَسُوا عسكَره، وقَتَلُوه، ونَهَبُوا ما كان فيه بأسره وجميعَ ما كان للتجّار الواصلين في صُحْبَتِهِ، واتَّصَلَ هذا الخَبَرُ بِتَاج الدَّوْلَة وهو مُنَازِلٌ حَلَبَ، فرَحَل عنها إلى الفُرات، وتوجّه نحو ديار بكر وشتى بها.

ثم عاد وقطع الفُراتَ، وتَسَلَّم مَنَبج وحِصْنَ الفايا وحِصْنِ الدَّير، وشَحَنَها بالرّجال، وسارَ بِالعَسْكَر إلى حِصْن بزاعَا،وكان صاحبه شِبل بن جَامِع؛ وبعض رجال هذا الحصن ممّن كانتْ له النكاية العظيمة في عسكر تُركمان، فقاتله تاج الدَّولة، وفَتَحه بالسَّيْف، وقتَل كافَّةَ مَنْ كان فيه، ونَهَبَه وشَحَنه بالرّجال.

ورحل إلى عَزاز وقد انضوى إلى قلعتها خلقٌ عظيم، ومَنَعهم الوالي بها من الصُّعُود إليها فالتجئوا إلى سَنْدِ القلعةِ بأقمشتهم، والنَّاسُ عليها؛ وأساء الوالي بها ـ وكان اسمه عيسى ـ التدبيرَ والسياسة.

فَزَحَفَ العسكر إلى القلعة؛ وقاتلها؛ وضربها بِالنار، فاحترقَتْ أقمشةُ

١ ـ بزاعا: بلدة من أعمال حلب في وادي بطنان بين منبج وحلب ـ معجم البلدان. وتتبع بزاعة الآن منطقة الباب، وتطل على وادي الذهب الذي يتجه من الشمال الشرقي نحو الجنوب الغربي نحو مملحة الجبول. المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري.

الناس، وغلاتهم، وحرمُهم، وأولادهم؛ وأشرفَتْ على الأخذ. وخرج قومٌ من الحريق إلى عسكر تاج الدّولة فأمَّنهم، وتقدَّم إليهم بالعودة إلى ضياعهم.

وَرَحَل الملك تاج الدولة إلى جبرين قُورَسْطَايا(١)؛ فأخذها وشحنها بالرّجال؛ فخرج الأمير أبو زائدة محمد بن زائدة مِن حلب في الليل؛ ووصل إلى ضَيْعة تعرف بكَرْمِين(٢)، فوجَدَ بِها خَمسين فارساً من الغُزّ، فقَتَلوا أكثرهم، وغنموا كلّ ما كان معهم، وعادوا إلى حلب سالمين.

فأسرى تاج الدولة في الليل من جبرين عندَ ذلك في جميع عسكره، وهم ملبسون مُستعدّون، فصبّحوا حلب صباحاً، وأغاروا عليها، فخرج عسكرُ حلب فالتقوا على الخنَّاقيّة على باب حلب. ثم إنّ بعض عسكر حلب انهزموا لغير موجب؛ وهزم الله عسكر تُتُش بغير قتال.

وكان الأمير أبو زائدة محمد بن زائدة وابن عمه شبل بن جامع بن زائدة في قَدر خمسين فارساً مقابلهم، فحملوا عَلَيْه، واتَّفَقَتْ هزيمتُهم، فقتلوا من الغُزّ جماعة وغَنِمُوا.

ولو عاد عسكر حلب في اثرهم ماكان أفلتَ منهم إلا من سَبَق به فَرَسُه. وشاع لمحمَّد بن زائدة في ذلك اليوم ذكرٌ جميلٌ.

---

١ ـ سلف بي القول: إن جبرين تبعد عن حلب مسافة ٨كم نحو الشرق. المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري.

٢ ـ اسمها الآن كفر كرمين على مقربة من خان العسل الذي يبعد عن حلب ١٠كم باتجاه الجنوب الغربي. المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري.

وتقدّم الأميرُ محمَّد بنُ زائدة إلى الشيخ أبي نصر منصور بن تميم المعروف بابن زَنكل أن يجيب أبا الفضائل سابقَ بن محمود عن القصيدة التي أنفذها إليه، ويعرّفه ما لبني كِلابٍ من الأيّام المعروفة، ويذكر هذه الوقائع، فعمل:

دَعَـوْتَ مُجيبـاً نـاصِحـاً لَـكَ مُخْلِصـاً
يَـرَى ذاكَ فَـرْضـاً لا مَحَـالَـة وَاجِبـا
فـلبيَّـتُ لا مُـسْـتَـنْـكـفـاً جَـزِعـاً وَلا
هِـدَانـاً[1] إذا خَـاضَ الكَـريهَـةَ هَـائِبـا

ومنها:

ولَمَّـا دَعَـاني المُـدرِكيُّ ابْـنُ صَـالِـحٍ
شققـتُ، وَلَمْ أَرْهَبْ؛ إلَيْـهِ الكَـرائبـا
أُسَـابِقُ صَرْفَ الـدَّهـرِ في نَصْرِ «سـابِق»
إلى «تُـرْكُمَـانِ» التُّـركِ أُزْجِي النَّجَـائِبـا
فلمَّا الْتَقَيْـنَـاهُمْ غَـدَا البَعْضُ سَـالِبـاً
لأنـفُسِـهِمْ، والـبَـعْضُ لِـلْمَـالِ نَـاهِـبـا
فَيَـا لَـكَ مِنْ يَـوْمٍ سَـعِيـدٍ بِـيُمْـنِـهِ
عَنِ الثَّغْـرِ أَضْحى عَسْكَرُ الضـدّ هَارِبـا
وَكَـانَ يَـرَى في كَفِّـهِ الـشَّـامَ حَـاصِـلاً
ويَـومُ «بُـزاعَـا» رَدَّ مَـا ظَنَّ خَـائِبـا

١ - الهدان: الأحمق، الوخم الثقيل في الحرب.

وَلَيْلَةَ «كَرْمِين» تَرَكْنا كِرَامَهُمْ
كَضَأْنٍ بها لاقَتْ مع القِدْرِ قاصِبا
وَفي يَوْمِ «خُنَّاقِيَّةٍ» قَدْ خَنَقْتُهُمْ
بِعِشْيرِ ذُلٍّ رَدَّ ذَا الشَّرْخِ شائِبا
عَطَفْتُ لَهُمْ إذْ خَامَ مَنْ خَام مِنْهُمُ
بِفِتْيانَ كالعِقْبانِ شَامَت تَوالِبا[1]
فَلِلّهِ قَوْمي الصَّادرُونَ لو انْثَنَوْا
مَعي، أَوْ فَريقٌ كُنْتُ لِلْجَمْعِ ناكِبا
فَوَلَّوْا وَقِضْبَانُ المَخافَةِ فيهِمُ
مُسَابِقَةٌ أرمَاحَنا وَالْقَوَاضِبا
فَكَمْ فَارِسٍ مِنْهُمْ تركْنَا مُجَدَّلاً
يُبَاشِرُ تُرْبُ القَاعِ مِنْهُ التَّرائِبا
وَإذْ أَيْقَنُوا أَنْ لَيْس لِلْكَسْرِ جَابِرٌ
تَوَلَّوْا وَعَنْ «جِبْرِينَ» حَثُّوا الرَّكَائِبا
وَخَلَّوْا بِها كَسْباً حَوَوْهُ، وَأَبْصَرُوا
سَلامَتَهُمْ مِنَّا أَجَلَّ مَكَاسِبَا

وأما تاج الدولة تُتُش فإنّه رحلَ من جِبْرين، وسارَ إلى دمشق فملكها؛ وتسلّمها من أتسز بن أوق التّركيّ[2]، ثم فسح من عسكره أفشين التركيّ،

١ ـ التولب: ولد الحمار.
٢ ـ انظر حول استيلاء تتش على دمشق كتابي مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية ص١٦٤ ـ ١٦٥.

ومعه أكثر العسكر؛ وعاد شمالاً ونَهَب عسكرُه ضياعاً في أعمال بعلبكّ.

وَوَصَل رفنيّة في اليَوْم العاشر من جُمادى الأولى، وفيها جماعةٌ كثيرةٌ من التّجّار والقوافل متوجّهين إلى طرابلس، فهجَمَها بَغْتَةً؛ وقَتَلَ مِّمن كان بها جَماعةً، واستباحَ أموالَهم وحريمهم، وأقام بها عَشْرَة أيام.

ثم سار فنزل حِصْنَ الجسر، فأكرمَهُ أبو الحسن بن مُنْقِذ فأعلَمَهُ بما عوَّل عليه من نَهْب الشّام، فسأَله في بلدة كفرطاب ألا يعترِضَها فأَجابهُ.

وسار فنزل قَسْطُون فجرَى أمرها في النهب والعقُوبة مجرى رفنيّة، وأقام بها نيفاً وعشرين يوماً. ثم تنقّل وعسكره بالمنجنيقات على أبراج جَبَل السُّمَّاق[1] وغيرها؛ حتى لم يبقَ بها موضعٌ ولا برجٌ إلا افتتحه وأهلكه؛ واستباح حَريمهم وأولادَهم، واستغرق أحوال أهل سرمين والمعرّة بالقطائع، وطلع إلى جبل بني عُلَيْم[2] فلم يتمّ له بها شَيءٌ.

وسار فنزل ضياع معرّة النُّعمان الشرقية بالمنجنيقات، ففتح أبراجَها وحُصونَها بالسَّيف، وأخذ مَا لايمكن إحصاؤُه، وغَلَب أهلَها فهلك منهم خلقٌ؛ ونزل تلّ منس، وقطع عليها خمسة آلاف دينار، ولم يتمكّن من أخذها.

وانتقل إلى عمل معرّة النعمان ففعل مثلَ ذلك؛ وسار إلى معرتارح[3] ـ

١ ـ هو جبل الأربعين هذه الأيام.
٢ ـ هو جبل الزاوية فوق بلدة أريحا.
٣ ـ معرتارح: من نواحي كفر طاب، في شماليها. تاريخ معرة النعمان لمحمد سليم الجندي ـ ط. دمشق ١٩٩٤ ج١ ص٢٠ .

من بلد كفرطاب ـ فتحصَّن أهلها في أبراجها؛ وتعذّرت عَلَيْه فأحرقها، وهلَك جَميعُ من كان فيها.

وبلغ تاج الدَّوْلة ذلك، وهو بدمشق، فأسرع السَّير إلى أن وَصَل إلى ظاهر كفرطاب يطلب أرسلان تاش، فوجده قد رَحَل إلى بلاد الروم، فعاد إلى دمشق وسكن الناس في طريقه.

وحين رَجع أفشين من الشّام ولم يبقَ في أعمال حلب ضيعة مسكونة من بلد المعرة إلى حلب، توجه إلى بلد أنطاكية فأخرب ماقدر عليه، ونهب وسبى ماوجده، وحُمل إليه من أنطاكية مالٌ؛ وتوّجه إلى الشرق بعد امتلاء صدره وصدر عسكره من النَّهب.

وجرى من هذا الحادث بالشَّام أمر لم يسمع بمثله، وتلف أهله بعد ذلك بالجوع. ووُجد قومٌ قد قَتَلوا قوماً وأكلوا لحومهم؛ وبيعت الحنطة ستة أرطال بدينارٍ وما سوى ذلك بالنسبة.

وجَلا من سلم من الشام إلى بلد شرف الدولة أبي المكارم مُسلم بن قُرَيش، فأحسن إليهم وتصدّق عليهم؛ وكان ذلك الاحسانُ منه أكبر الأسباب في مملكته حلب.

ولَمَّا جَرى هذَا الحادثُ طَمِعَ شَرَفُ الدَّولة في الشَّام؛ وكاتبه سابق بن محمود يبذل له التّسليم إليه؛ وَوَفدتْ عليه بنو كلاب بأسرها، فتوجّه إلى حلب، ونَزَل بالس[1] يوم عيد النَّحر من سنة اثنتين وسبعين وأربعمائة.

١ ـ هي بلدة مسكنة الحالية في سورية.

ونزل حلب في السّادس عشر من ذي الحجة، سنة اثنتين وسبعين وأربعمائة فغلّقت أبوابها في وجهه، وكان عند سابق أخواه شَبيب ووثّاب بحلب، فلم يمكّناه من التّسليم، فلم يقاتلها، وأهلها يحرصون على التّسليم إليه لما هم فيه من الجُوع وعَدمِ القوُت.

وكان مع شرف الدّولة في عسكره غلّةٌ كثيرة وقُوّةٌ تجوز الحدَّ، وتزيد عن الوصف. وكان الرَّئيس بحلب ونقيب الأحداث بها الشريف حسن بن هبة الله الهاشميّ، المعروف بالحتيتي، وكان ولده أبو منصور قد خرج مع عسكر سابق لِقِتَال بعض الأتراك المخالفين في بيت لاها[1] فأسروه؛ وبقي أسيراً في الموضع مع خطلج أحد أصحاب أحمد شاه.

فلمَّا وَصَل شَرَفُ الدَّوْلَة إلى حلب وَفَد التُّرك كلُّهم عليه؛ وتقرَّبوا إليه بِوَلَدِ الشَّريف الحتيتي.

وقيل: إنَّه طلبه منهم فَلَمَّا حضر عنده خلع عليه، وأطلقه فدخل البلد، وأخذ معه جماعة من أصحابه، وفتح باب حلب، ونادى بِشِعَار شرف الدَّولة في اليوم السادس والعشرين من ذي الحجة، من سنة اثنتين وسبعين وأربعمائة.

وتسلَّمها، وَدَخَل أصحابُه إليها، وقَلَع أبوابها جميعها، وفَتَح بابَ

١ ـ يقال لبيت لاها الغربي جبل اللكام، وهو مسكن العباد والزهاد، وفيه من الفواكه المباحة مايقتاتون به، وهو يفصل بين الثغور الشامية والجزرية. بغية الطلب ج١ ص٤٣٩ .

أربعين[1] ـ وكان مسدوداً ـ وأحسن إلى كافَّة أهلِها، وخَلَع على أحداثهم، وتصدَّق بمال كثيرٍ وغلَّة.

وكان سديد الملك بن منقذ قدْ وَفَد على شرف الدَّوْلة ونزل معه على حلب، وكان شرف الدولة قد عزم على الرَّحيل من حلب لما حَلَّ بهم من الضجر ومصابرة أهل حلب؛ وغَلَتِ الأسْعار عندهم حتى صار الخبز ستَّة أرطال بدينار.

وفَرَّ سديدُ المُلك أبو الحسن بنُ منقذ مِن سور القلعة، فاطلع إليه صديق له من أهل الأدب، فقال له: «كيف أَنْتُم» فقال: «طُوْلُ جُبّ» خوفاً من تفسير الكلمة. فعاد ابنُ منقذ وهو يقلِّب هذا الكلام فصحّ له أنّه قصد بكلامه أنّهم قد ضعفوا. وأَوجس أنَّها كلمتان، وأنَّ قوله: «طول» يريد به: «مَدَا» و«جُبّ» يريد به «بير» فقال «مَدّابير والله». فأعلم شرَف الدَّولة بذلك فقَوَّى نفسَهُ فَملكها.

ولَمَّا فُتحت المدينة انحاز سابقٌ إلى القلعة، وأخواه شَبِيب ووثّاب في القصر، لضيق القلعة؛ وشرف الدَّولة محاصرٌ للقلعة بالمنجنيقات والعساكر. ولم يبقَ بالشَّام وحصون جَبل بَهْرَاء[2]، وحِمْص، وفَامية شيزر ومن لم يَفِدْ على السِّلطان إلا وَفَد عَلَيه.

١ ـ وصف ابن العديم هذا الباب، وتحدث عن سبب تسميته. بغية الطلب ج ١ ص ٥٥ ـ ٥٦.

٢ ـ جبال اللاذقية أو العلويين.

ودبّر شَبِيب ووثّاب، وهما في القصر على سابقٍ وقفزا في القلعة، وصاح الأجناد بها: «شبيب يامنصور». وقبض سابق وحُبس؛ وتسلَّم شبيبٌ ماكان بها من مالٍ وسلاحٍ.

ثم وقعت السِّفارة بينهم وبين شرف الدَّوْلة على أن أقطع شبيباً ووثَّاباً قلعتي عزاز والأثارب وعدّة ضياع. وأقطع سابق بن محمود مواضِع أخر في أعمال الرَّحْبه، وأن يتزوج منيعة بنت محمود أخت سابق، وكان السَّفير بينهم في ذلك الأمير سديد الملك عليّ بن منقذ؛ وبتدبيره جرى ذلك.

ووافق ذلك أنّ غار الماءُ في قلعة حلب؛ ونزل منها أولاد محمود وانْقَضَتْ دَوْلَةُ آلِ مِرْدَاس.

وكان الوزير لسابق بن محمود الشَّيْخَ أبا نصر محمد بن الحسن بن النّحّاس وعَزَلَه، واعتقله مُدَّةً ثُمَّ أَطْلَقَهُ.

وولّى وزارته أبا مَنْصُور عيسى بن بُطرس النَّصرانيّ فامتنع؛ فأُلْزِمَ بها؛ ووَزَر له في النّصف من شوّال سنة تسع وستّين وأربعمائة[1].

---

١ ـ إمارة حلب ص١٦١ ـ ١٦٤.

[إمارة مسلم بن قريش العقيلي][1]

وتسلَّمها أبو المكارم في شَهر ربيع الآخر من سنة ثلاث وسبعين وأربعمائة، بعد حصار أربعة أشهر للقلعة. وقال ابن أبي حصينة يُهنىء شَرَفَ الدَّوْلَةِ بِفَتْحِ القَلْعَة:

لَقَدْ أَطَاعَكَ فِيها كُلُّ مُمْتَنِعٍ   خَوْفَ انْتِقَامِكَ حَتَّى غَارَتِ الْقُلُبُ[2]

ولَمَّا مَلَك شَرَفُ الدَّوْلة حلبَ أحسن إلى أهلها، وخَفَّف عنهم أثقالاً كثيرة، وصفح عن كُلَفٍ كانت عليهم في أيام بني مرداس. ونُقِلَتِ الغلاتُ إلى حلب، فرخصَت الأسعار بعد الغلاء الشّديد.

وفي يوم تَسَلُّمِه القلعة ودُخوله إليها دخل بزوجته منيعة أخت سابق، في اليوم والسَّاعة، وهو اتّفاقٌ لم يُسمع بمثلِه، ففتح حصنين وقال في ذلك أبو نصر بن الزَّنْكَل يمدح شرفَ الدَّوْلَة:

فرعتَ أمنع حصن وافترْعتَ بهِ   نعم الحَصَانُ ضُحىً من قبل يعتدل
وحُزْتَ بدرَ الدُّجى شمسَ الضُّحى   فعلى مثليْكما شرفاً لم تُسْدَلِ الكلل

١ ـ أضيف مابين الحاصرتين للتوضيح.
٢ ـ ديوان ابن أبي حصينة ج١ ص٣٧٧.

ومدحه ابنُ حَيُّوس بالقصيدة التي أوَّلُها:

مَا أَدْرَكَ الطَّلَبَاتِ مِثْلُ مُتَمِّم إنْ أقْدَمَتْ أعْداؤه لم يُحجِمِ

فلما وصل إلى قوله:

أنْتَ الَّذي نَفَقَ الثَّناءُ بسُوقِهِ وَجَرى النّدى بِعُروقِهِ قَبْلَ الدَّم[1]

اهتزّ شرفُ الدَّولة وأمره بالجلوس، فأتمّها جالساً وأجازه بألفي دينار وقريةٍ.

وقيل: أنّه لما مدحه ابنُ حيوس قال له أبو العزّ بن صدقة البغدادي وزيرُ شرفُ الدّولة: «هذا رجلٌ كبير السنّ ولم يبق من عمره إلا القليل، فأرى أن تعظم له الجائزة فتحصل على الذكر الجميل»؛ فأقطعه الموصل جائزة له.

فمات في هذه السنة قبل أن يصل إليها وترك مالاً جزيلاً فقيل لشرف الدولة: «هذا لا وارث له إلا بيت المال». فقال «والله لايدخل خزانتي مالٌ قد جمعه من صِلات الملوك انظروا له قرابة». فسألوا عن ذلك فوجوا له من ذوي الأرحام بنت أخٍ فأعطاها ماله جميعه وهي بنتُ أخيه أبي المكارم محمّد بن سلطان بن حيّوسٍ.

ولما سَفَرَ ابن منقذ في تسليم حلب وتسلّمها شرف الدّولة وعد ابن منقذ وعوداً جميلة، ومنّاه أماني حسنَة وأكرمه غاية الاكرام.

---

١ ـ ديوان ابن حيوس ج٢ ص٥٦٩ مع فوارق.

ونقل شرف الدّولة إلى الشّام من الغلال ما ملأ الأهراء، وعاد بالرِّفق على الناس؛ وكذلك نقل إليها من سائر الحبوب ومن البقر والغنم والمعز والدجاج شيءٌ كثير.

وعاش الناس في أيامه ورخصت الأسعار بحسن تدبيره. وتسلّم حصن عزاز من واليها عيسى. وتسلَّم حصن الأثارب بعد حصَار وحرب؛ وكذلك الحصُون التي كانت في أيدي أصحاب تاج الدّولة من أعمال حلب التي افتتحها.

وَصَفَتْ له جميع أعمال حلب، وقال لسديد الملك: «أمضِ في دَعَةِ الله فأنا سائر إلى بلادي. ويجبُ أن تصلح حالك فأنا أصِلُ وأبلغك كل ماتُؤثِرُهُ». ورجع إلى بلاده، وجعل أخاه عليّ بن قريش بحلب مع قطعة من عسكره بحلب.

وكاتبَ السُّلطان أبا الفتح ملك شاه يعلمه بما جَرى، ويسأله في تقرير شيء يحمله من الشّام فأُجيب إلى ذلك.

ووصل أبو العزّ بن صَدَقة البغدادي وزير شَرف الدّولة إلى حلب لجمع أموالها في سنة أربع وسبعين وأربعمائة؛ وعدل عما كان ابتدأ به من العَدْل والاحسان، وصَادر جماعةً، وضاعف الخراج.

وكان شَرف الدَّولة بالقادسيَّة، فدخل الحمام وهي ملاصقة لدارِهِ، فوثب عليه مملوكان برسم خِدمته، فجعلا في حلقه أنشوطة ليخنقاه، وانتظرا صاحباً لهما يدخل بسكِّين؛ فصَاح شرفُ الدَّولة، فسمعت صياحَهُ زوجته

خاتُون أخت السُّلطان ألب أرسلان، فخرجتْ إليه فانهزما عنه. ومرض من ذلك أياماً، وأُخذا وقُتِلا.

ولمَّا بلغ ذلك أبا العز بن صدقة البغدادي عاد من حلب إلى القادسيَّة. وكان سديد الملك ابن منقذ قد عمر قلعة الجْسر[1]، وقصد مضايقة شيزر وبها أسقف البَاره[2] وضَيَّق عليه إلى أن راسله واشتراها مِنه، واستحلفه على أشياء اشترطها عليه[3].

ولم يزل ابن منقذ يعده الجميل ويتلطَّف له إلى أن سلم إليه حصن شَيْزَر ليلة الأحد النصف من شهر رجب من سنة أربع وسبعين وأربعمائة.

ووفى له ابن منقذ بكلّ ما عاهده عليه، فثقل ذلك على شرف الدّولة وحسد ابن منقذ على شيزر فسار عسكر حلب مع مؤيّد الدّولة عليّ بن قريش إلى شيزر، ونزلوا عليها في يوم الجمعة خامس ذي الحجة سنة أربع وسبعين وأربعمائة، بعد مراسلاتٍ جَرَتْ فلم يجب ابن منقذ إلى ما التمس منه.

وكان عليّ بن قريش قد أخذ في طريقه حِصناً لابن منقذ يقال له أسفُونا غربيّ كفرطاب، وكان ابن منقذ قد تأهب للحصار، وحمل من الجسر إلى شيزر مايكفي لمن فيه مدة طويلة من سائر الأشياء.

وحصره عليّ بن قريش مدة إلى أن وصل شرف الدّولة بنفسه، فنزل

١ - على مقربة من شيزر.

٢ - البارة الآن قرية في وسط جبل الزاوية، تتبع منطقة أريحا - محافظة ادلب. المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري.

٣ - انظر كتابي مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية ص١٦٨ - ١٨٧.

على شيزر يوم الأربعاء سلخ المحرم من سنة خمس وسبعين وأربعمائة.

ثم رحل عنها إلى حمص يوم السبت ثالث صفر، وأقام عسكره على شيزر، فتطارح ابن منقذ عَلَيه، وسيَّر ابنه أبا العساكِر وامرأته منصورة بنت المطوع وأُختَه رفيعة بنت منقذ إلى حمص؛ فَدَخلوا عليه، وحملوا إليه مالاً، فأنفذ إلى عسكره، ورحَّله عن شيزر في الثامن والعشرين من صفر من السنة.

ولما وصل شرف الدّولة إلى حماة قبض على جميع الأتراك الذين بالشام وأخذ منهم الحصون التي كانت في أيديهم، وهي: بَيْت لاها، وتل أعذى، وهاب، وكفرنبل[1]. وقبض على وثّاب وشبيب ابني محمود، وأخذ منهما قلعة عزاز والأثارب، وأطلقهما بعد ذلك، وحمل الأتراك، وحبسهم في الرحبة فَدَاموا بها إلى أن قُتِل.

وقبض شرف الدّولة على أكثر أقطاع بني كلاب بالشام؛ وعاد إلى حلب؛ وقبض على حسن بن وَثَّابٍ النُّمَيْري أمير بني نمير، وكان قد حصره بسروج[2] في العام الخالي فسلَّمها إليه بعد أن عَوَّضه عنها بنصيبين فاعتقله بحلب مدة وقتله.

وفي نزوله على شيزر، وقتاله حصن الجسر، وفعل وزيرِه أبي العزّ، ابن

١ ـ ماتزال بعض هذه الأماكن تحتفظ بأسمائها في منطقة معرة النعمان.
٢ ـ سروج الآن إلى الشمال من عين العرب على الحدود السورية التركية، وهي تابعة لمحافظة حلب. المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري.

صدقة من المصادرة، يقول أبو المَعَافى سالم بن المهذّب المعرّي[١].

أَمُسْلِمٌ لا سلمْتَ مِنْ حَادِثِ الرَّدَى   وَزَرْتَ وَزيراً ماشَدَدْتَ بهِ أَزْرا
رَبِحْتَ وَلم تَخْسر بِحَرْبِ ابْنِ مُنْقِذٍ   مِنَ الله والنَّاسِ المَذَمَّةَ وَالوِزْرا
فَمُتْ كمداً «فالجسرُ» لستَ بِجَاسِرٍ   عَلَيهِ؛ وَعَايِنْ شَيْزَراً أَبَداً شَزْرا

فبلغت الأبيات شرف الدَّولة، فقال: «من يقولُ هذا فينا؟» قالوا: «رجل من أهل المعرّة يقال له ابن المهذّب». قال: «ما لنا وله اكتبوا إلى الوالي بالمعرّة يكفّ عنه، ويُحسنُ إليه فربّما يكون قد جار عليهِ وأحوجه إلى أن قال ما قال».

وعاد شرف الدّولة إلى الجزيرة، وقد جَرَتْ منه هذه الحوادث، وأجحف ببني كلاب، فأجمع رأي وَثَّاب وشبيب ابني محمود، وخَلف ابن ملاعب الأشهبي صاحب حمص[٢]، وأبي الحسن بن مُنقذ، ومنصور بن الدّوح على مكاتبة الملك تاج الدّولة بدمشق، وشكَوْا أحوالهم، وعرضوا عليه خدمتهم، وأطمعوه في الشّام.

فسار من دمشق إلى الشام وقصد ناحية أنطاكية وأقام عليها مُدَّةً، واتّصل به خبر شرف الدّولة وما هو عليه من الجمع والتّأهّب، واجتماع

١ ـ له ترجمة في بغية الطلب ص ٤١٤٦ ـ ٤١٥٠ ،وكان شاعراً مجيداً، بينه وبين الأمراء بني منقذ مودة واختلاط.

٢ ـ شغل خلف بن ملاعب دوراً هاماً في أحداث هذه المرحلة، وفي أثناء نشاطات الحملة الصليبية الأولى، له ترجمة في بغية الطلب، كنت قد نشرتها في ملاحق كتابي مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية ص٣٨٠ ـ ٣٨٥ .

العَرب إليه من بني نمير، وعقيل، والأكراد، والمولدة، وبني شيبان، للنّزول على دمشق، والمضايقة لها والطمع في تملّك دمشق؛ فعاد تاج الدّولة إلى دمشق. وخرج عسكر مع بعض أصحاب شرف الدّولة إلى أعمالها، ورتّبوا ولاتَهم فيها وساروا إلى حماة، وبها وَثّاب بن محمود، فلقي عسكر شرف الدولة وكبسه وقتل منه جماعةً، وعاد من سلم منهم إلى حلب.

فنزل وثّاب بن محمود ومنصور بن كامل بن الـدّوح وابن ملاعب وابن منقذ على معرّة النّعمان، وقطعوا كثيراً من شجرها، ورعوا زرعها بالظعون، وَقَلبوه بالفدن، وقَاتلوها أيَاماً، ولم يمكنهم أهلها من فتحها خوفاً منهم.

وبلغ شرف الدَّولة ذلك كله، فسار ومعه أكثر بني كلاب وبني نمير، وبعض بني عُقيل؛ ووصله بعض بني طّيءٍ وكَلْب وعُليْم؛ ونزل في بالس في محرّم سنة ستّ وسبعين.

وسار إلى دمشق وحاصرها، وقاتل دمشق في بعض الأَيّام وخرج إليه عسكر دمشق، وحمل عليه حملةً صادقة فانكشف عسكره وتضعضع، وعاد كل فريق إلى مكانه.

وعاد عسكر دمشق بحملةٍ أُخرى، فانهزمتِ العَرَبُ، وثبت شرف الدّولة مكانه، وأشرفَ على الأسر، وتراجع إليه أصحابه؛ وكان قد ظَنَّ أنَّ

١ ـ عالجت مسألة حصار دمشق من قبل مسلم بن قريش في كتابي مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية ص١٨٨ ـ ١٩١ .

العسكر المصريَ ينجده فَخَاف أمير الجيوش من مَيْل العَرب إليهِ فتثاقل عنه.

وورد عليه من حرّان خبر أزعجه؛ وذلك أنّه كان قد تسلّمها من يحيى بن الشَّاطر أحد عبيد ابن وَثَّاب النُّميْري، وكان يليها لعلّي بن وَثّاب الطفل، وكان وثّاب يعدل فيهم ويرفق بهم، فولّى فيها جعفر العُقَيْلي، فعدَل عمّا كان وثّاب يسلكه من العَدْل، وأظهر مذهب التَشيّع والاعلان بهِ؛ وكان يتولى الحكم بها القاضي ابن جلبة، فاتّفق مع أهل حرّان على العصيان على شرف الدّولة، وكاتبوا يحيى بن الشَّاطِر الّذي تسلَّمها منه مسلم، فوصل إليهم ومعه ابن عطية النميري وجماعة، ووثبوا على أصحاب شرف الدّولة فهربوا إلى الحصن، وقاتلهم ابن جلبة ومن انضم إليه.

فسيّر الوالي جماعة إلى شرف الدّولة يعلمه بالحال، فبعضُهم أخذ بالقرب من حَرَّان، وبعضهم أَخذه أصحاب تاج الدّولة؛ فعرف تاج الدّولة الخبر قبل معرفة شرف الدولة فقويت نفسه.

وعرف شرف الدّولة ذلك واستضر عسكره بتواصل الغارات عليه عندما قويت نفس تاج الدّولة، وكان ذا مكرٍ وخديعة، فرحل إلى مرج الصّفر[1]، وأوهم أنه يسير مقتبلاً لأمر عزم عليه، وقلق أهل دمشق لذلك.

ثم رحل مشرّقاً في البرّيّة على وادي بني حصين ونزل شرقيّ حماة، وراسل ابن ملاعب، وطيَّب نفسه إلى أن نزل فخلع عليه؛ وقرّر معه أن يكون بينه وبين تاج الدّولة ردءاً يمنع من الأذية في بلاده، فأجابه إلى ذلك؛

١ ـ إلى الجنوب من دمشق فيما بين خان ذي النون وقرية شقحب.

وخلع عليه شرف الدولة وأكرمه وطيّب نفسه.

وسار شرف الدّولة إلى حرّان بعد أن أشرف الحصن على الأخذ، فقاتل حرّان، ونقب نقوباً في سورها وثلم ثلمتين، وأقام عليها شهرين؛ ومضى أبو بكر ابن القاضي ابن جلبة ويحيى بن الشّاطر.

واستنجدا بجماعةٍ من الأتراك فسيّر ابن عَمّه ثروان بن وُهيْب فكسرهم وأسر منهم خلقاً عبر بهم على حرّان وسيّرهم إلى بلاده.

وهجَم حرّان بالسَّيف من الثلمتين وهم يقاتلون ولم تَسكن الحرب حتى أعطى لؤلؤ الخادم الأمان، وأمن أبا بكر ابن القاضي وكان قد عاد إلى البلد، فحينئذٍ تفرّق النّاس.

ونهب عسكر شرف الدّولة البلد، وقطع عليهم ألف دينار، وقبض على خلق منهم، وقتل ابن جلبة وولديه وثلاثة وتسعين رجلاً صبراً، وصَلَبهم، وصلَب ابن جلبة أمامَهم، ولم يفِ له بعهده، وذلك كله في سنة ستّ وسبعين[1].

وَوَصَل ابن جهير[2] وزير القائم ليتسلّم ديار بكر ومعه عسكر من ملك شاه ـ وكان ابن جهير قد وزر مرّةً لثمال بن صالح، ثُمّ وزر لابن مروان، ثمّ للقائم ـ فوصل ابن مروان إلى شرف الدَّولة، واستنجده عليه فأنجده، فالتقوا

١ ـ مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية ص١٩١ ـ ١٩٢.

٢ ـ درست حياة فخر الدولة محمد بن محمد بن جهير ونشاطاته في الجزيرة في كتابي مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية ص١٩٣ ـ ١٩٦.

على آمد، فكسرهم ابن جهير، وأخذ أموال شرف الدَّولة، وأسر أصحابه، وأطلقَ من أسر مِن بني عقيل.

ثم إنّ ابن جهير بثّ سراياه في أعمال شَرف الدَّولة فعاثتْ في بلاده، ونَهَبت؛ وذَلك في سنة سبع وسبعين.

ووصله[١] مالٌ من حلب فتقوّى به؛ وسار إلى الرَّحبة وسيّر عمه مقبل بن بدران رَسُولاً إلى مصر يطلب معونتهم، ويبذل لهم الطاعة، وكاتب السّلطان ملك شاه يذكّره بخدمته وطاعته ويذكر مافعله ابن جهير.

فلما عرف ملك شاه ذلك وانفاذه عمّه إلى مصر سار إلى الموصل ومعه نظام الملك ـ وكان نظام الملك يميل إلى شرف الدّولة، ويشير بالإحسان إليه والصفح عنه ـ وكاتب الوزيرُ نظامُ الملك شرفَ الدَّولة يُشير عليه بالوفود على السّلطان، ووعده بما طابَت به نفسه، فسار من الرّحبة إليه، ولقيه نظام الملك على مراحل مِن الموصل.

فترجّل شرفُ الدّولة وقبَّل يده؛ وكان في محفَّة لمرض مَنَعَهُ من الرّكوب، فأمره بالرّكوب، وقال له: «ذَهَبَ خوفُك وشُرِحَ صَدْرُكَ، وحُقِّق أَمَلُك». وكان قد استصحب معه كلّ ماقدر عليه من بقايا ذخائره وأمواله وخيله عقيب هذه النَّكبة العظيمة[٢].

---

١ ـ الضمير عائد هنا إلى مسلم بن قريش.

٢ ـ النكبة العظيمة هي أن مسلم بن قريش هزم من قبل ابن جهير هزيمة ساحقة، وهرب مسلم والتجأ إلى آمد، مما جعل ابن جهير يسرع باستدعاء السلطان ملكشاه، فسارع بالتحرك نحو =

ودَخَل على السّلطان فأكرمه وأحسن إليه، وأجابه إلى كلّ ما طلبه؛ وسامحه بما كان بقي عليه من مقاطعة الشّام؛ وجَدَّد له التّوقيع بالبلاد الشّامية والجَزَرية وكلّ ماكان في يده؛ وقرّر معه مسير ولده محمد وان يكون في عسكره، وكاتب أخاه تاج الدّولة أن لايعرض لبلاده، وكان قد توجّه إليها، وسار أبو العزّ ابن صدقة إلى حلب لانجادها عليه، وبلغه خروج عسكر من مصر فرجع من لطمين.

وفي سنة سبع وسبعين وأربعمائة، شرع سليمان بن قطلمش في العمل على أنطاكية والاجتهاد في أخذها إلى أَنْ تَمّ له ماأراد.

فأسرى من نيقيه في عسكره، وعبر الدُّروب وأوهم أن الفلاردوس استدعاه، وأسرع السَّير إلى أن وصل أنطاكية ليلاً، فقتل أهل ضيعة تعرف بالعمرانيَّة جميعهم لئلا ينذروا به، وعلقوا حبالاً في شرفات السّور بالرّماح، وطلعوا مما يلي باب فارس؛ وحين صار منهم على السّور جماعة نزلوا إلى باب فارس وفتحوه.

ودخل هو وعسكره من الباب وأغلقوه، وكانوا مائتين وثمانين رجلاً، وذلك يوم الأحد العاشر من شعبان؛ وقيل يوم الجمعة الثامن، ولم يشعر بهم أهل البلد إلى الصبّاح.

= الجزيرة، لكن ابن قريش تدبر أمره مع أرتق قائد قوات ابن جهير، وخرج ناجياً بحياته من آمد، مما غير موازين القوى مجدداً. مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية ص١٩٤ ـ ١٩٥ .

وصاح الأتراك صيحةً واحدة فتوَّهم أهل أنطاكية أنه عسكر الفلاردوس حتى قاتلوهم فانهزموا وعلموا أن البلد قد هُجم فبعضهم هرب إلى القلعة وبعضهم رمى بنفسه من السُّور فنجا.

واستقلّ سليمان عسكره فوصل إليه ابن منجاك في ثلاثمائة فارس، ولم يزل عسكره يتواصل حتى قوي، فأمن النَّاس ورَدَّهم إلى دورهم، وردّ أكثر السَّبي، وصلّى المسلمون يوم الجمعة خامس عشر شعبان في القسيان[1]، وأذّن فيه ذلك اليوم مائة وعشرة من المؤذنين وخلق كثير من أهل الشَّام.

وكان يوم فتحها أوّل يوم من كانون الأول؛ وكان فتحُ الرُّوم لها أول ليلة من كانون الثاني لثلاث عشرة ليلة خلت من ذي الحجة من سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة.

ووُجد خطّ بعض المنجمين وهو ابن أخت الصَّابي على ظهر كتاب عند القاضي أبي الفضل بن أبي جرادة يقول: «ذكر المخبر عن أخذ مدينة أنطاكَّية أنّ دخول العدو - يعني الرّوم - إليها في وقت كذا وكذا من اللَّيل؛ فان صحّ قولُ المخبر فإنها تثبت في أيدي الرّوم مائة وتسع عشرة سنة».

وكان قد وقف على هذا الخطّ محمود بن نصر بن صالح؛ وقد ذكر في مجلسه، وأظنّ ذلك حين نزل الأفشين التركيّ على أنطاكية، وخاف محمود من أن يملك أنطاكية فلم يتفق فتحُها حينئذ، وكان الأمر كما ذكر المنجِّم، ففتحها سليمان بن قطلمش عند تمام المدّة.

١ - القسيان: كاتدرائية أنطاكية.

وأقام سليمان بن قطلمش يُحاصر قلعة أنطاكية إلى الثاني عشر من شهر رمضان من السّنة وفتحها بالأمان ليقيها من القتل والسّبي، ونهب التُرك من أنطاكية مايفوت الاحصاء ويزيد عن الوصف.

وسكنها سليمان بعسكره وفتح الحصون المجاورة لها، بعضها عن طوع وبعضها عن استدراج.

وصار لسليمان من نيقية إلى طرابلس، وملكَ الثّغور الشّامية، وكان حسن السيرة في جنده وعسكره جواداً بماله، فمال إليه الناس لذلك. ولما فتح أنطاكية أهدى إلى شرف الدّولة من الغنيمة هدّية حسنة.

ولما استقرّ حال شرف الدّولة مع ملك شاه واطمأن عاد إلى القادسيَّة، وناصف الجُند في أرزاقهم، ونقصها عَلَيهم، فصار أكثرهم إلى سليمان، وتركوه فأقطعهم؛ وأحسن إليهم وسبّب لهم أرزاقاً تكفيهم.

وكان جماعة من أصحاب بني مرداس يخافون شرف الدَّولة وهم متفرقون في الشَّام فصاروا إليه.

وكان من ضياع أنطاكية وأعمالها مواضع عدة تغَلّب محمود والأتراك عليها، وقبضوها من الرّوم لضعفهم، وصارت في أعمال حلب، فقبضها سليمان وأقطعها وغيرها مما يجاور أعمال أنطاكية.

وكان الشريف حسن الحتيتي رئيس حلب وغيره من أصحاب شرف الدَّولة خافوا منه لَمَّا استقر حاله مع السّلطان أن يتمّ له الصلح مع ابن

قطلمش فيتفرغ لهم ويقبضهم، ويستأصل أموالهم؛ فتوصّلوا إلى المفاسدة بينهما بمن صار في حلّته من أهل الشام ليشتغل عنهم شرف الدولة.

وكان لأبي المكارم قطيعة على أنطاكية يحملها الروم إليه فطمع بها من سليمان فلم يجبه إلى ذلك وقال: «تلك جزية كانت على الروم لتمسك عن جهادهم، وقد قمتُ أنا بفريضة الجهاد، وصارت أنطاكية للمسلمين فكيف أؤدي عنها إليك جزية؟». ففسد مابينهما لذلك.

وسار شبيب بن محمود ومنصور بن الدوح وجماعة من بني كلاب إلى أنطاكية، وحضروا عند سليمان، ووعدهم ووعدوه بما لم يقبح من بعضهم لبعض؛ وأخذوا قطعة من عسكره؛ وخرجوا فعاثوا في بلاد شرف الدّولة، ثم إنّهم خافوا منه فهربوا إلى أسفُونا.

وتواصلتْ غاراته على بلد حلب وسَرْمين وبزاعا وقبض شرف الدّولة على وزيره أبي العزّ بن صدقة وصادره وحَبَسه، وسيّر ابن الحلزون إلى حلب ليدبّر أمرها؛ فوصل إلى حلب، وراسل سليمان في الصّلح.

وقبض على عليّ بن قريش بأمر أخيه شرف الدّولة، وصادره على عشرة آلاف دينار، وأخذ منه منبج لأنها كانت أقطاعه، فعند ذلك ازدادت وحشة الشّريف وغيره لما شاهدوه من فعله بأخيه. وكذا كانت سيرته في أصحابه. وبهذا الطريق فسد حاله؛ وأما رعيّته فكانوا معه على أجمل حال وأحسنه.

وحيث تحقّق شرف الدّولة اختلال حلب ونواحيها بغارات سليمان جمع

عسكره وانضاف إليه بعض الأتراك، ووصل إلى عَزاز في صفر من سنة ثمان وسبعين وأربعمائة.

وأشير عليه بالنّزول على حَلَب ومراسلة سليمان في الصُّلح، فامتنع واستدعى بني كلابٍ فَوَصَلُه منهم جماعةٌ من أعيانهم وفرسانهم، وسار فنزل على نهر عفرين بموضع يقال له قُرْزَاحل[1].

ووَصَل سُليمان من أنطاكية في أربعة آلاف فارس، وكان شرف الدَّولة في عدّةٍ تزيدُ عن ستة آلاف ليس فيهم مناصح؛ وجاء شرف الدّولة بطيخ فنزل هو وبعض بني عمه وأكلوا، فقال ابن عمه:

كُلُوا أَكلةً مَنْ عَاشَ يُخْبِرُ أَهْلَهُ   وَمَنْ مَاتَ يَلْقى الله وَهْوَ بَطِينُ

فقال شرف الدَّولة: «قَتَلْتَنا فأُلُكَ يابنَ العَمّ».

والتقوْا في آخر نهار السَّبت، لستّ بقين من صفر سنة ثمان وسبعين وأربعمائة، والشَّمس في وجوه عسكر شرف الدولة؛ وكان اللقاء بغتة في غير وقت يظن فيه؛ فانهزم عسكر شرف الدَّولة، وجاءته طعنةٌ فقُتل[2]. ولما طُعِنَ قَالَ: «ياشام الشّؤم» وأتّهم بعض أصحابه بقتله. وكان القتل بين الفريقين قليلاً لأن أصحاب شرف الدّولة لم يثبتوا معه لقبح رأيهم فيه. ورحل سليمان

١ ـ اسمها الآن قرزيحل، وهي قرية بجبل سمعان، تتبع منطقة عفرين، محافظة حلب، وتبعد عن عفرين ٧كم، وهي إلى الجنوب الشرقي منها.

٢ ـ ثبت مع مسلم في القتال أحداث حلب فقط، وكانوا ستمائة، فقد أربعمائة منهم حياتهم، وهم يحاولون تغطية انسحاب ابن قريش. مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية ص١٩٩ ـ ٢٠١.

ونزل بظاهر حلب، وحمل شرف الدّولة، وطرحه على باب حلب فدُفِنَ هناك.

وانفرد الشريف أبو علي الحسن بن هبة الله الهاشمي المعروف بالحتيتي بتدبير حلب وسالم بن مالك العقيلي بالقلعة(١).

وكان القاضي بحلب في أيام شرف الدولة القاضي كسرى بن عبد الكريم بن كسرى وتولى قضاء حلب في سنة اثنتين وأربعين وأربعمائة ومات في أيام أبي المكارم مُسلم بن قُريش؛ فولي قضاءها أبو الفضل هبة الله بن أحمد بن أبي جرادة ـ وهو ابن بنت كسرى المذكور، وابن القاضي أبي الحسن المتقدم قبل كسرى ـ وكان أبو المكارم شرف الدّولة يخاطبه بابن العمّ لكونهُ عقيلياً؛ والقاضي عُقيلي. ومن شعر أبي المكارم بن قُريش:

إذا قرعَتْ رِجْلي الرّكاب تَزَعْزَعَتْ لَهَا الشمّ واهتزّ الصعيدُ إلى مصر

ومن شعره أيضاً:

الدَّهْرُ يَوْمَانِ ذَا أَمْنٌ وَذَا خَطَرٌ وَالْمَاءُ صِنْفَانِ ذَا صَافٍ وَذَا كَدِرُ(٢)

وأما سليمان بن قطلمش فإنّه حاصر حلب مدّة ، ثم ترددَّت الرّسل إلى أهل حلب في التّسليم ، فاستقرَّت الحالُ بينهم على موادعةٍ مدةً .

وسيّر سليمان بن قُطلُمش قطعةً من عسكره لاتباع العرب الذين كانوا

١ ـ لسالم بن مالك ترجمة في بغية الطلب كنت قد نشرتها في ملاحق كتابي مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية ص٤٠٥ ـ ٤٠٧ ، وهو مؤسس حكم الأسرة العقيلية في قلعة جعبر.
٢ ـ بهامش الأصل: بلغ مقابلة بخط المؤلف رحمه الله.

مع شرف الدَّولة ، فهربوا ، ولحقهم شدّة عظيمة من دخول البريّة في حزيران .

وتوجّه سليمان إلى معّرة النعمان وكفرطاب ، وتسلَّمهما ، ثمّ سار إلى شيزر ، فقاتلها وقرّر أمرها على مال يحمل إليه ، وأخذ لطمين ، وشحنها بالرّجال ، وعدل أصحابه بالشام عما عرف من سيرة العرب .

وجرت بالمعرّة أسباب وصل لأجلها حسن بن طاهر وزير سليمان ، في النصف من جُمادى الأولى ، يطلب أصحابه فثارت فتنة بالبلد ، وأخرجوه منه فخرج لوقته ، وأصبح قاتل البلد ، وقتلَ جماعةً من أهله في الحرب ، وأمن الناحية الغربية ، وأمن الباقي منها وقطع على أهل البلد عشرة آلاف دينار .

وأما بلاد شرف الدَّولة فملكها من بعده أخوه إبراهيم ، ما خلا حلب ؛ وكاتب مَنْ بِحَلب في تسليمها إليه فلم يجيبوه .

وأما الشَّريف حسن الحتيتي فإنّه كان متقدم الأَحداث ورئيسهم ، فعمر لنفسه في صفر من سنة ثمان وسبعين قلعة الشَّريف المنسوبة إليه ، وبنى عليها سوراً دائراً ، وفصل بينها وبين المدينة بسور وخندق خوفاً على نفسه أن يسلمه أهل حلب ، وكانوا يبغضونه ، ويكرهون ولايته عليهم .

واتّفق الشَّريف وسالم بن مالك صاحب القلعة الكبيرة على أن كاتبا السّلطان ملكشاه يبذلان له تسليم حلب إليه ، ويحثَّانه على الوصول أو وصول نجدة تدفع سليمان بن قطلمش .

وعمر سليمان بن قطلمش قلعة قنّسرين وتحول إليها وتزوج منيعة بنت محمود بن صالح زوجة مسلم بن قريش .

ونزل على حلب وطال انتظار الشّريف حسن لنجدة تصله من السّلطان ، فاجتمع بمبارك بن شبل أمير بني كلاب ، واتفقا على أن سار مبارك بن شبل إلى تاج الدّولة تُتُش يستدعيه إلى حلب ليتسلّمها .

وعرفه ما استقرّ بينه وبين الشريف الحُتيتي عن تسليمه حلب ، ورغبة الكافة في مملكته ، ففرح بذلك وجمع العسكر ، وخرج من دمشق في المحّرم من سنة تسع وسبعين وأربعمائة إلى حلب ، فحصر حصن سليمان بن قطلمش في قنّسرين .

ووصل إلى تاج الدّولة جماعة من بني كلاب ، ورحل إلى النّاعورة وعوّل على مراسلة الشريف حسن فان سلم إليه وإلّا عَادَ لحربه ، فبادر سليمان وهو نازل في عسكره على حلب ، وعارضه في طريقه على عَيْن سَيْلم[1] ، وتراءى العسكران ، فدبّر أرتق عسكر تاج الدّولة أحسن تدبير ، والتقوا فانهزم عسكر سليمان .

وقتل سليمان ، وأسر وزيره الحسن بن طاهر وخلق من عسكره في يوم الأربعاء الثّامن عشر من صفر ، فأطلق تاج الدّولة الوزير ومن أسر ، وغنم عسكرُه والعرب الذين معه جميع ما كان في العسكر .

---

١ - بينها وبين حلب ثلاثة أميال . معجم البلدان .

واختلف في قتل سليمان ، فقيل : عارضه فارس من فرسان تاج الدَّولة فرماه في صدغه بسهم فقتله .

وقيل : بأنه لما يئس من النّصرة نزل عن فرسه ، وقَتَل نفْسَه بسكِّين خفِّه ، وقيل : إنّ المصامدة تَتَبَّعَتْ أسلاب القتلى فظفروا بدرع مرّصع بالياقوت والعقيان النفيس .

ونمى الخبر إلى تاج الدولة ، فأحضره فقال : «هذا يشبه سلب الملوك» ، وسار إلى الموضع وإذا به مختلط بدمه فقال : «يشبه أن يكون هذا» . وقد كان قال لهم : «لا تبيِّنوه لي حتى أريكموه من بين القتلى» ، فقيل له : «ومن أين علمت ذلك ؟» فقال : «قدمه تشبه قدمي وأقدام بني سلجوق تتشابه» .

ثم قال بلسانه : «ظلمناكم ، وأبعدناكم ونقتلكم !» ثم مسح عينيه واغتمّ لقتله ، وترّحم عليه ، وأحضر أكفاناً نفيسة فكفّنه ، وصلّى عليه ، وحمله إلى حلب فدفنه إلى جانب مُسلم بن قريش قبل أن ينقل مسلم إلى سرّ من رأى ، وقيل : دفن معه في قبرٍ واحد .

ولما جرى ما جرى من قتل سليمان وسار تاج الدّولة إلى حلب عدل الشّريف حسن الحتيتي عما كان اتّفق عليه مع مبارك بن شبل ، وامتنع من تسليم حلب إلى تاج الدّولة ، واحتجّ بأنَّ كُتُبَ ملكشاه وَصَلَتْه بتجهيز العساكر إليه .

فأقطع تاج الدَّولة بلد حلب وأعمالها لعسكره إلاَّ ما كان لبعض العرب الّذين وفدوا عليه ، فانّه أقرَّه في أيديهم ؛ ثم رحل إلى مَرْج دابق[1] وأقام أيّاماً .

ثم عاد ونازل حلب ؛ فعمد رجل من تجار حلب يعرف بابن البرعوني الحلبيّ ، وراسل تاج الدَّولة في تسليم حلب إليه ، ورفع بعض أصحابه بحبال إلي بعض أبراج السور ، وساعده قومٌ من الأحداث ونادوا بشعار تاج الدّولة في ذلك الموضع ، وتسامع النّاسُ فنادَوْا بشعاره في البلد جميعه ، وذلك في ليلة السَّبت السَّادس والعشرين من شهر ربيع الأوَّل من السَّنة .

فانهزم هبةالله أبو الشريف حسن من قلعة ابنه إلى القلعة الكبيرة إلى سالم بن مالك[2] ، وبقي الشَّريف حسن في قلعته المجدّدة ، ومعه فيها رجال من أحداث حلب ، فخافوا على أهلهم بحلب ، فخرجوا منها وبقي الشريف حسن في قلعته في نفر قليل ، فطلب الأمان فأمّنه تاج الدَّولة بوساطة ظهير الدّين أرتق .

وخرج إلى أرتق وصار عنده بماله وأهله ، وسلَّم القلعة إلى تاج الدّولة تتش ، وسيّره أرتق إلى بيت المقدس بماله فأقام به .

وعصى سالم بن مالك بالقلعة الكبيرة ، وكان شرف الدَّولة بن قريش

١ ـ دابق قرية قرب حلب من أعمال عزاز بينها وبين حلب أربعة فراسخ ، عندها مرج معشب نزه كان ينزله بنو مروان ، وبه قبر سليمان بن عبد الملك . معجم البلدان .

٢ ـ انظر ترجمة سالم في بغية الطلب ص ٤١٥٧ ـ ٤١٥٩ . وكنت قد نشرتها في ملاحق كتابي مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية ص ٤٠٥ ـ ٤٠٧ .

لما ولّاه فيها أوصاه أن لا يسلّمها إلّا إلى السلطان ملكشاه ، فالتزم بوصيَّته ، وامتنع أن يسلّمها إلى تُتُش .

وأقام تُتُش بمدينة حلب إلى اليوم السَّابع والعشرين من شهر ربيع الآخر ، وأحسن إلى أهلها ، وخلع على أحداثها ، فوصله الخبر أنَّ السلطان ملكشاه وصلت عساكره إلى نهر الجوز[1] قاصدين مدينة حلب ، فسار تاج الدّولة إلى دمشق ، وترك بعض أصحابه بقلعة الشريف ومعه عدّة في اليوم المذكور ، ومعه قوم من بياض حلب ، فأقام نائبه أياماً يسيرة ، ثم سار ولحقه في دمشق .

ووصلت عساكر ملكشاه حلب مع برسق وبوزان وغيرهم ، ونزل بعضهم إلى بلد الرّوم ، وامتدوا فيما بينها وبين أنطاكية ؛ ووصل بعضهم إلى حلب ، وسارع أهل حلب وسالم بن مالك ومبارك بن شبل إلى طاعة الواصل وخدمته .

ثم إنّ السلطان وصل بعدهم إلى الرّها فسلَّمها إليه الفلاردوس[2] وأسلم على يده ، وسار منها إلى قلعة دوسر - وهي المعروفة بجعبر - فتسلَّمها في طريقه من جعبر بن سابق القُشيري ، وقتله لما بلغه عنه من الفساد وقطع الطَّريق .

---

١ - نهر الجوز جزء من نهر الفرات كان يعبر منه نحو الغرب . انظر بغية الطلب ص ١٩٧٤ .

٢ - هو فيلارتيوس براخاموس ، كان بالأصل أرمنياً من قادة الإمبراطور رومانوس داجينس ، انظر كتاب «الرها المدينة المباركة» ترجمة عربية ، ط . حلب ١٩٨٨ ص ٢٧٣ .

وسار حتّى وصل حلب في الثَّالث والعشرين من شعبان من سنة تسع وسبعين وأربعمائة .

وتسلَّم حلب وقلعتها وسائر قلاع الشَّام ، وعوّض سالم بن مالك عن قلعة حلب بقلعة دوسر ، وأقطعه معها الرَّقة وعدّة ضياع .

وتوّجه السّلطان إلى أنطاكية فتسلَّمها من الحسن بن طاهر وزير سليمان بن قطلمش ، ورتب بأنطاكية يغي سيان بن ألب في عسكر واستخدم حسن بن طاهر في ديوانها ، وتمّ إلى السّويديّة[1] ، وصلّى على البحر ، وحمد الله على ما أنعم عليه مِمَّا تملكه من بحر المشرق إلى بحر المغرب .

وعاد إلى حلب ، ورتّب بها الأمير قسيم الدّولة أقسنقر[2] ومعه عسكر ، واستخدم بها تاج الرّؤساء ابن الخَّلال في جمع الأموال .

ووصل إليه الشَّريف حسن الحتيتي وهو بحلب يلتمس العودة إلى حلب ، ويذكر خدمته وما جري عليه ، فتظلَّم منه أهل حلب فلم يأذن له السّلطان فيما التمسه .

وكان هذا السُّلطان من أعظم الناس هيبة وأكثر الملوك عدلاً حتى أنّ أحداً لا يقول : إنّ أحداً من ذلك العالم العظيم من عسكره ـ وحزره أربعمائة

١ ـ ميناء مدينة أنطاكية على شاطىء البحر المتوسط .

٢ ـ انظر ترجمته المنتزعة من بغية الطلب في ملاحق مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية ص ٢٦٩ ـ ٢٧٧ .

ألفٍ ـ أخذ لأحدٍ من الرّعايا قسراً وظلماً ما يساوي درهماً واحداً ؛ حتى أنّ البازيار الّذي له اقتنص طائرين من الدّجاج من الأثارب[1] طعماً للبزاة في الطّريق ، فعلم بذلك فعظم عليه حين رآه وهدّده حتى أعادها إلى صاحبها بعد عوده من أنطاكية .

وخرج هذا السّلطان إلى ضياع معرّة النّعمان يتصيّد ، وبات بضيعة بينه وبين المعرّة ثلاثة فراسخ ، فابتاع منها أصحابه ما احتاجوه بأوفى ثمن ؛ ووضع السّلطانُ في هذه السّنة المكوس من جميع بلاده ، ولم يبقَ من يستخرجُ مكساً في مملكته .

وأقام السّلطان بحلب إلى أن عَيَّد بها عيد الفطر ، وعاد منكفئاً إلى الجزيرة ، وقد قرّر ولاية حلب ، وولّى بقلعتها نوحاً التركي ، وبلغه عصيان تِكِش[2] بترمذ فسار السّلطان، وقطع مابين حلب ونيسابور في عشرة أيّام ، وعاد منكفئاً إلى الجزيرة وقد قرّر ولاية حلب لقسيم الدّولة أقسنقر التركي في سنة تسع وسبعين وأربعمائة ، وجعل معه أربعة آلاف فارس ومكّنه فيها .

وقيل إنّه مملوك لملكشاه ، وقيل إنه لصيق وانّ اسم أبيه أل ترغان ، وولّى على جمع المال بحلب في الديوان تاج الرؤساء أبا منصور بن الخّلال

١ ـ الأثارب قلعة معروفة بين حلب وأنطاكية ، تبعد عن حلب ثلاثة فراسخ . معجم البلدان .
٢ ـ هو أخو السلطان ملكشاه . انظر حول عصيانه الكامل لابن الأثير ط . القاهرة مطبعة الإستقامة ـ ج ٨ ص ١٣٦ .

الرحبيّ ، وقال شاعر حلبيٌّ فيه وفي الوزير ابن النّحاس :

قَدْ زنجرَ العَيْشُ على النَّاسِ   مَا بَيْنَ «خَلَّالٍ» وَ«نَحَّاسِ»

فأحسن قسيم الدولة في حلب السِّيرة وأجمل السِّياسة وأقام الهيبة ، وأفنى قطّاع الطريق ، وتتبع الذُعَّار في كلّ موضع فاستأصل شأفتهم .

وعمرت حلب في أيامه بسبب ذلك لورود التجار والجلّابين إليها من كل مكان .

وحكى لي والدي ـ رحمه الله ـ : أنّه استأصل أرباب الفساد إلى حدّ بلغ به أن نادى في قرى حلب وضياعها أن لايغلق أحدٌ بابه ، وأن يتركوا آلاتهم الّتي للحرث في البقاع في اللّيل والنّهار .

فخرج متصيِّداً فمرّ على فلّاح وقد فرغ من عمله ، وأخذ آلة الحرث معه إلى منزله ، فانفرد من عسكره ، وقال له : «ألم تسمع مناداة قسيم الدولة بأن لا يرفع أحدٌ من أهل القرى شيئاً من آلة الحرث ؟» فقال : «بلى والله ـ حفظ الله قسيم الدّولة ـ والله لقد أمنّا في أيّامه من كل ذاعرٍ ومفسدٍ ، وما رفعتُ هذا خوفاً عليها ممّن يأخذُها ، وإنّما ههنا دويبة يقال لها ابن آوى إذا تركنا هذه العدّة ههنا جاءت وأكلت هذه الجُلود التي عليها» .

فلما عاد قسيمُ الدولة أمر بالصيّادين وبثّهم في أقطار بلد حلب لصَيد بنات آوى حتى أَفْنَوْها من ضواحي حلب ، وكان ذلك سبباً لِقلَّتها في بلد حلب إلى يومنا هذا ، دُون غيرها من البلاد .

وفي أيّام قسيم الدَّولة جدَّد عمارة منارة حلب الموجودة في زماننا هٰذا ، وجددت في سنة اثنتين وثمانين وأربعمائة .

وجرى خُلف بَيْنْ لَطِمِين[١] وبين نَصر بن عليّ بن منقذ في سنة إحدى وثمانين ، فخرج أقسنقر إلى شيزر ، وقَتل مِن أهلها مائةً وثلاثين رجلاً ، وعاد إلى حلب بعد أن نَهب رَبضهَا ، واستقّرت الموادعة بينه وبين نصر صاحب شَيزر .

وكان أقُسنْقُر قد تزوّج خاتون دايَة السّلطان ملكشاه[٢] وكانت جالسةً معه في بعض الأيّام في داره بحلب ، وفي يده سكّين فأومأ بها إليها على سبيل المداعبة والمُزاح ، فوقعتْ في قلبها للقضاء المحتوم غير متعمدٍ لها ؛ فماتتْ وَحَزِن عليها حزناً شديداً ؛ وتأسّف لفقدِها ، وحملها في تابوت لتُدفن في مقابر لها بالشَّرق ؛ وخرج من حلب لتوديع تابوتها في مستهلّ جُمادى الآخرة .

وتسلَّم أقسُنقر حصن[٣] برزويَه ، في شعبان سنة اثنتين وثمانين وأربعمائة ، من الأرمن ـ وهو آخر ما كان قد بقي في أيدي الكفّار من أعمال أنطاكية ـ وأقام في يده تسعة أشهر ، وهدَمه في ربيع الأوَّل من سنة ثلاث وثمانين .

١ ـ تتبع قرية لطمين ناحية محردة في محافظة حماه وتبعد عن حماه مسافة ٣٦ كم .
٢ ـ في ترجمة أقسنقر ـ مدخل ص ٢٦٩ : «داية السلطان ادريس بن طغان شاه ، وحظي عند السلطان ملكشاه» .
٣ ـ حصن قرب السواحل الشامية على سن جبل شاهق . معجم البلدان .

وكتب ولاةُ الشَّام إلى السلطان ملكشاه يشكون ما يلقونه من خَلف بن مُلاعب بحمص من قطع الطّريق وإخافة السَّبيل ، فكتبَ إلى قسيم الدَّولة ويغي سيان وبوزان صاحب الرُّها ، فساروا في عساكرهم ، فحاصروها وضايقوها ففتحوها ؛ وأعطاها السّلطان تاج الدّولة تتش .

ونَزَل قسيم الدَّولة على أفامية ، فأخذها من خلف بن مُلاعب وسلَّمها إلى نصر بن منقذ .

ثمّ إنَّ السّلطان أمر بحمل ابن ملاعب في قفص حديدٍ إلى أصبهان ، فحبسه إلى أن مات ملكشاه ؛ وتوجّه إلى مصر وعاد إلى الشَّام ، واحتال حتى ملك أفامية بالحيلة بعد ذلك .

ولما فتحت حمص تسلَّمها قسيم الدَّولة إلى أن ورد عليه أمرُ السّلطان بتسليمها إلى تتش[1] .

ومات السّلطان ملكشاه ببغداد في اللَّيلة السَّادسة عشر من شوّال سنة خمس وثمانين وأربعمائة ، وكان أقسُنقر قد خرج وافِداً عليه ، فلما بلغه الخبر عَاد إلى حلب ، وخطب لابنه محمود مدّةً يسيرة ، ثم إنّه خطب بعد ذلك لتاج الدّولة تتش ـ على ما يُذكر ـ[2] .

---

١ ـ لخلف بن ملاعب ترجمة مفيدة المعلومات في كتاب بغية الطلب ، سلف ونشرتها في ملاحق كتاب مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية ص ٣٨٠ ـ ٣٨٥ .

٢ ـ انظر تفاصيل هذا الموضوع في كتابي مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية ص ٢٢١ ـ ٢٢٨ .

ولما عاد إلى حَلب قَبَض على شبل بن جامع أمير بني كلاب وعلى ولده مبارك ، واعتقلهما بالقلعة ، وراسل تاجُ الدّولة قسيمَ الدّولة ويغي سيان وبوزان وجذبهم إلى طاعته ، والكون في جُملته ليسيروا معه إلى بلاد أخيه ليفتحها ، ويأخذ المملكة فأجابوا إلى ذلك ، وخطبوا له في أعمالهم .

فسار في أوّل سنة ستّ وثمانين ، وسار إليه قسيمُ الدّولة ويغى سيان وبوزان ، ووثق به أق سُنقر ، وفَتَح تاجُ الدَّولة الرّحبة ونصيبين ، فجمع ابراهيم بن قريش وتأهَّب للقاء تاج الدّولة .

والتقى العسكران على دارا[1] ، وعاد كُلّ فريق إلى موضعه ، فركب الأميرُ قسيم الدَّولة في خلقٍ من العسكر ، وحمل حتّى توسّط عسكر ابراهيم فلم يثبت العرب ، وتبعه باقي العسكر ، فقتل منهم ما يقارب عشرة آلاف .

وأسر ابراهيم بن قريش وعمه مقبل وغيرهم . فقتلهم تاج الدَّولة صبراً وسُبِيَتِ الحُرم ، وقَتل جماعةٌ من نساء العرب نفوسَهن .

وأمر تاج الدّولة بعد ذلك بجمع الأسرى وَوَهَبهم من محمَّد بن شرف الدَّولة ـ وكان قد صار في جُملته قبل الحرب ـ وأقطعه نصيبين[2] .

وعظُمت هيبة تاج الدَّولة بعد هذه الوقَعَة ، وراسلته زوجةُ أخيه تحثّه

١ ـ دارا بلد في لحف جبل بين نصيبين وماردين . معجم البلدان .
٢ ـ لمزيد من التفاصيل ، أنظر مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية ص ٢٢٢ ـ ٢٢٣ .

على الوُصول ؛ واستقرَّ الحال على أن تتزوَّجه ؛ فسار عند ذلك بعد أن تسلَّم من ابن جهير آمد وجزيرة ابن عمر ، حتى وصل إلى تبريز ، ففسخ عنه قسيم الدَّولة أق سُنقر صاحب حلب وعماد الدولة بوزان وسارا إلى بركيارق ليكونا في خدمته - وكان بالقرب من الريّ[1] .

وكان سبب نفار قسيم الدَّولة وبوزان تقريب تاج الدَّولة يغي سيان وميلهِ إليه ؛ وقيل : لأنّه لم يُولهما شيئاً من البلاد الّتي افتتحها ، فرجع تاج الدَّولة إلى ديار بكر ، وشحنها بالرّجال ، وسار منها إلى سروج فأخَذَها وولّى فيها بعضَ ثقاته .

ووصله الخبر بوصول أق سنقر وبوزان إلى باب السُّلطان بركيارُق ، وإكرامه لهما ، وأنّهما وجدا خاله مستولياً على أمرِه ، فقتلاه وبعض الأمراء .

فانبسطت يدُ بركيارُق ، واستقامت أحوالُه ، وخاطبه أق سنقر وبوزان أن يسير معهما إلى بلادهما حلب والرّها وحرّان ، لئلا يجري عليهما حادثٌ من تاج الدَّولة عند عودته ، وضمنا له أن يكونا بينه وبين تاج الدَّولة ؛ فسار معهما إلى الرّحبة ، وعقد بينهما وبين عليّ بن شرف الدَّولة حِلْفاً .

وسار عليّ بن قريش ، ومعه جماعة من بني عقيل وقطعة من عسكر السّلطان بركيارقُ مع قسيم الدَّولة ؛ فأوصلوه إلى حلب ، فدخلها في شوّال من سنة ستّ وثمانين وأربعمائة .

١ - الري الآن ضاحية لمدينة طهران .

وسار بوزان إلى بلاده ، وعَاد مَنْ كان معهما إلى السّلطان .

وأما تُتُش فانّه قطع الفراتَ وتوجّه إلى أنطاكية ، وأَقام بها مع يغي سيان مدَّة ، فغلتْ بها الأسعار ، فسار إلى دمشق في ذي القعدة من هذه السّنة .

وكان وثّاب بن محمود مع نفر يسيرٍ من بني كلابٍ ، فأنفذ أق سنقر بعد مسير تُتُش إلى دمشق مَنْ أَحَرقَ حصنَ أسفُونا وحصن[1] القبَّة ، وقبض اقطاع وثّاب .

وفي سنة سبع وثمانين ، قبض على الوزير أبي نصر محمّد بن الحسن بن النحاس بسعاية المجنّ بركات الفُوعي به إلى قسيم الدّولة . ولم يزل به إلى أن أمره بخَنْقه ، وهو معتقل عنده ، فخنقه في هذه السّنة .

وفي شهر ربيع الأوّل من سنة سبع وثمانين وأربعمائة ، خرج تاج الدّولة تتش من دمشق ، ومعه خلقٌ عظيمٌ من العرب ، ولقيه يغي سيان بعسكر أنطاكية بالقرب من حماة وأقاموا هناك أياماً ؛ وزوَّج ولده الملك رضوان من ابنة يغي سيان ، وسيّره عائداً إلى دمشق .

وسار تاج الدّولة بعساكره فنزل تلمنس[2] ، وأَقام بها أَياماً ، فوصلهُ الخبرُ بوصول كربوقا صاحب الموصل وبوزان صاحب الرّها ، ويوسف بن

١ ـ قرب معرة النعمان . معجم البلدان .

٢ ـ تتبع تلمنس الآن منطقة معرة النعمان في محافظة أدلب السورية وتبعد عن المعرة مسافة ٦ كم وعن أدلب ٤٥ كم .

أبق صاحب الرّحبة ، في ألفين وخمسمائة فارس إلى حلب ، لنجدة أق سنقر ، فعدل تاج الدولة إلى الحانوتة ، ورحل إلى النّاعورة ، وعوّل على قصد الوادي[1] ، وأن يسير منه إلى أعمال أنطاكية ؛ وأخذَ العسكرُ دوابَّ النقرة و [أحرق] بعض زرعها[2] .

فخرج أق سنقر ومَنْ وصله من النَّجدة وجماعة كثيرة مع شبل بن جامع ومبارك بن شبل من بني كلاب ـ وكان قد أطلقهما من الاعتقال في هذه السَّنة ـ ومحمَّد بن زائدة في جماعته وجماعة من أحداث حلب والديّلم والخراسانيّة ؛ وعدّة عسكره تزيد عن ستَّة آلاف فارسٍ وراجل ، في أحسن أهبة وأكمل عدّة .

وقصد عسكر الملك تاج الدَّولة ، يوم السبت تاسع جمادى الأولى من السَّنة ، والتقوا على «سَبْعين»[3] ، وكان أوّل من قطع السواقي التي كانت بين العسكرين وبرز للحرب أق سنقر ، ورتّب مصاف عسكره .

وبقي عسكر بوزان وكربوقا لم يتمكن من قطع السواقي ، فيختلطون بالعسكر ، ولم يستنصح أق سنقر العرب الّذين معه ؛ وخاف ميلهم إلى تاج الدَّولة ، وكان عسكر تاج الدَّولة في مثل هذه العدّة من العَرب والرجّالة ،

١ ـ وادي بزاعا . انظر مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية ص ٢٧٢ .
٢ ـ أضيف ما بين الحاصرتين من ترجمة آق سنقر . مدخل ص ٢٧٢ .
٣ ـ سبعين قرية قريبة من حلب . معجم البلدان .

وكان التّرك معه في قلّة لأنَّ أصحابه وخواصّه كانوا متفرقين في البلاد التي افتتحها .

وحمل عسكر تاج الدَّولة على عسكر أق سنقر فلم يثبت لحظةً واحدةً ، وانهزمت العَرَبُ وبوزان وكربوقا نحو حلب فدخلاها ، واستأمن يوسف بن أبق إلى تاج الدَّولة .

وأُسر أق سنقر وجماعةٌ من خواصه ووزيره أبو القاسم بن بديع ، وأحضر بين يدي تاج الدَّولة أسيراً ، فقتله صبراً ، وقال له تاج الدَّولة : «لو ظفرت بي ما كنتَ صنعتَ ؟» قال : «كنتُ أقتلُك» فقال له : «فأنا أحكمُ عليك بما كنتَ تحكُم عليَّ» فقتله .

وحكى وثّاب بن محمُود قال : «جَلَس تاجُ الدَّولة ، وطلب قسيمَ الدَّولة ، فأُحْضِر مكشوفَ الرَّأس ، مكتوفاً ، فقام تاجُ الدَّولة ، وكلَّمه كلاماً كثيراً ، فلم يردّ عليهِ جَواباً ، فضربَهُ بيده أُطار رأسه» .

وحملَ رأسه إلى حلب والي دمشق ، ودفن جسَدَهُ في القُبَّة التي على سطح جبل قَرَنْبِيَا[1] ، غربيّ الْمَشهد الذي ابتناه بِقَرَنْبِيا ؛ ثم نقله ابنُه زنكي لَمَّا فتح حلب إلى مدرسة الزجّاجين[2] ، وَوَقَّف شامر ـ قرية مِنْ بلدِ حلب ـ على من يقرأ على قبرهِ .

١ ـ مشهد قائم بين حلب وقرية النيرب . الآثار الاسلامية في حلب لأسعد طلس . ط . دمشق ١٩٥٦ ص ٢٤١ .
٢ ـ انظر حولها الآثار الاسلامية ص ٩٠ ـ ٩١ ذلك أنها درست .

واختار قسيمُ الدَّولة وقتاً للخروج إلى اللّقاء ، وهو وقت قِران زُحَل للمريّخ في بُرجِ الأَسد ـ وهو طَالعُ بيت السُّلطان بحلب ـ وكان مُوقِناً بالظَّفر ، فخرج وأمرهم أن يلحقُوهُ بالجبال لكتافِهم بها ، وكان تاجُ الدَّولة قد عزم على ما ذكرناه ؛ ولم يكن مُؤْثراً لقاءه ؛ فنصره الله تعالى كما شاء وأَراد ؛ لا رادّ لأَمره ، ولا معَقِّب لحكمه ، ولا تأثير لشيءٍ في ملكُوتِهِ .

وأُسِرَ شبلُ بن جامع أَميرُ بني كلاب فوهبه تاجُ الدَّولة لابن أخيه وثّاب بن محمُود .

وعوَّل بُوزان وكربوقا على الاعتصام بحلب ، وانتظارِ النَّجدة من بركيارُق ؛ لأَن كتابَ الطَّائر وصل إلى حلبَ يُخْبرُ بوصول النَّجدةِ إلى المَوْصل ، وقرَّروا مع الأَحدَاثِ ذَلِك .

فوصل تاجُ الدَّولة بعسكره إلى حلب ، وتَحَيَّر أَهلُها فيما يفعلونه ، فبادر قومٌ من الأَحداثِ ممَّنْ لَا يعرف وَلَا يذكر ففتحوا بابَ أَنطاكية .

ودخل وثّاب بْنُ محمود في مُقدّمة أَصحاب تاج الدَّولة إلى حلب ، وسكن البلد ، فنزل الوالي بِقَلْعَة الشَّريف ، وسلَّمها إلى تاج الدَّولة فدخلها ، وباتَ بها ، فراسلَهُ نُوحُ والي القلعة الكبيرة ، وسلَّمها إليه بعد أَن تَوَثَّق منه ، وطلع تَاجُ الدَّولة إليها في الحادي عشر من جمادَى الأُولى من السَّنة[1] .

---

١ ـ ٤٨٧ هـ/ ١٠٩٤ م .

وقبضَ تاجُ الدَّولة على بوزان فَضرَب رقبتَه صَبْراً ، وأَخذَ كربوقا واعتقله بحمص ، وأَقطع الشَّام لِعَسْكرِهِ ، وأَقطع معرَّة النُّعمان واللَّاذقية ليغي سِيان ، ورَتَّب أَبا القاسم بْنَ بديع وزيراً بحلب .

وأَقامَ ثَلاثَةَ أَيَّام ثُمَّ تَوجَّه فَقطع الفُرَاتَ ، وتسلَّم حرَّان ، وسار إلى الرُّها فتسلَّمها ، وقيل : بأَنَّ واليها امتنع مِنْ تسليمها إلَّا بِعَلاَمَةٍ مِنْ بُوزان ، وأنَّ بوزان كان مَحْبُوساً بحلب ، فأنفذ إليه مَنْ قَطَعَ رَأْسَهُ وَرَمَاهُم به ، فسلَّموا الرُّها إليهِ ، وتسلَّم ديارَ بكر .

وسارَ إلى مَيَّافَارقين فَقَتَل بَني جَهيرِ بعد أَن قطع رُؤوس أَولادِهم وعَلَّقَها في رقابهم .

وَعَدَل عَن الموصِل ، وسار للقاء زَوجة أَخيهِ خاتون الجَلاليَّة لإتمام ما كان استقرَّ بينهما فماتت في الطريق .

وتوجّه تاجُ الدَّولة إلى الرَّي ، فوصله خلقٌ كثيرٌ مِن التركمان وعساكر أَخيه ، وَمَلَك كُلَّ بلدةٍ مَرَّ بها ، وخطبَ له على منابر الإسلام : الشَّام والفرات ، وبَغْداد .

وعِنْدَ وُصُولِه إلى هَمَذان كتب إلى ولَدِهِ الملك رضوان يَسْتَدْعيهِ مِنْ دمشق فَتَوجَّه إليهِ وَمَعَهُ بقيَّة مَنْ تخلّف مِنْ أَصحابه بالشَّام .

ودخل تاجُ الدَّولة الرَّي وملكها في المحرَّم سنة ثمان وثمانين وأَربعمائة، وخَرَج بركيارق من أَصبهان ، والتَقَوا على خمسة فراسخ من

الرَّي في يوم الأحد السَّابع عَشَر مِنْ صفر ، فانهزم عسكرُ تاج الدَّولة تُتُش واستبيح ونُهب ، وقُتِلَ ذلك اليوم تاجُ الدَّوْلَة وخواصُّهُ في الحرب .

وقَتَل تاجَ الدَّولة بعضُ أَصحاب قسيم الدَّولة بعد أَن اصطنعَهُ وقربَّه ، ضَربَة بنُشَّابَة في ترقوتِهِ اليُسرى فوقع ؛ وقُطِع رأْسُه وطيف به العسكر ، ثُمَّ حُمِل إلى بَغْداد فَطِيف به ، وتفرَّق مَنْ سَلِم منهم إلى مواضعهم .

وَوَصَلَ الخبرُ إلى ولده الملك رضوان ، وهو نازلٌ على الفُرات بِعَانة[1] متوجهاً إلى والده ، فقلق وخاف مِنْ وُصول مَنْ يطلبه فحطَّ خِيَمَهُ في الحال[2] .

ورَحَل مُجدّاً حتَّى وصل حلب في جماعةٍ من غلمانه وحاشِيته ؛ وترك باقي عسكره مِنْ ورائه ، فسلم وزيرُ أبيه أبو القاسم بنُ بديع إليه المدينةَ والقلعة ؛ وصعد إليها ؛ وأخذُوا الأهبَة لِمَنْ يَقْصِدُها .

ووصل إليه إلى حلب من الفَلّ أُخوه أبو نَصرٍ دُقاق[3] وجناح الدَّولةُ حُسين[4]، فاستولى جناح الدَّولة على تدبير مُلكِ الملك رضوان؛ وكان تاج

١ ـ عانة بلد مشهور على الفرات بين الرقة وهيت يعد في أعمال الجزيرة . معجم البلدان .
٢ ـ لرضوان ترجمة مطولة في كتاب بغية الطلب كنت قد نشرتها في ملاحق كتابي ـ مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية ـ ص ٣٨٧ ـ ٣٩٦ .
٣ ـ لدقاق ترجمة في تاريخ ابن عساكر ، انظرها في كتاب المدخل ص ٣٨٦ .
٤ ـ لجناح الدولة حسين ترجمة في بغية الطلب كنت قد نشرتها في ملاحق كتابي المدخل ص ٣٧٦ ـ ٣٧٩ .

الدَّولة قد جعله مدبّراً لَهُ ، وهو أتابكُه في حياته ، وَجَعَل دُقاق مع أتابك ظهير الدين .

وَلَمَّا افتتح ديار بكر سلَّمَها إلى ظهير الدِّين ، وشمس المُلوك دُقاق معه ، ولم يَزَل بها إلى أن سارَ إلى الرَّيّ فسَارَا معه .

وعاد دُقاق إلى حلب فأقام بها مدَّةً يَسيرة ، وراسَلَهُ الأمير ساوتكين الخادم ـ وكان نائب تَاج الدَّولة بدمشق في حفظ القَلْعَةِ والبلد ـ [وَقَرَّرَ][1] لدقاق مملكة دمشق سرّاً ، وخاف من أخيه رضوان ، فخرج من حلب وَهَرب إلى دمشق من غير أن يعلَم به أحدٌ . وَجدَّ في السَّيْر ، وتبعه رضوان ، وأَنْفَذَ خَلْفَهُ عدّةً من الخيل فَفَاتَهم ، فدخل دمشق فسارع ساوتكين إلى طاعته ، وصارتْ دمشقُ وبلادُها بحكمه .

وقتل رضوانُ أُخويه : أبا طالب وبهرام آبني تتش ، وكان أتابك طُغْتِكين مُعْتَقَلاً عند السُّلطان بركيارق ، وقبض في الوقعة فطلبوا منه كربوقا والجماعة الذين معه ، وكانوا في يد رضوان فاتّفق رأيُهم أن يسيروا عضب الدّولة أبق بن عبد الرَّزَّاق إلى رضوان لاستخلاص كربوقا .

وكان أبق أيضاً مِنْ جملة من قُبض عليه من الجماعة الذين كانُوا مع تُتُش فخاطبُوا السُّلطان في إطلاقه وتَسييره فأجابهم إلى ذَلك ، وسيَّره إلى حلب ، فلمَّا وصله أَكْرَمَهُ رضوان وأطلق كربوقا في شعبان وسيَّره مكرماً .

---

١ ـ انظر لمزيد من التفاصيل ترجمة رضوان ـ المدخل ص ٣٩١ ـ ٣٩٥ .

فأطلق بركيارق أَتابكَ طُغْتِكين[1] وجميع من كان في اعتقاله من خواصّ تاج الدَّولة ، ووصل دمشق فابتهج دقاق بوصوله وقويت نفسه ؛ وألقى تدبير أموره إليه ، فقام فيها أحسن قيامٍ .

فاستأذن عضبُ الدَّولة الملك رضوان في الوصول إليهِ فأذن له ، وقرَّر معه قرب العودة إلى حلب وترك اقطاعه بحلب على حاله ، فوصل دمشق واختار المقام بها ، وكتب إلى أصحابهِ بعَزَاز يأمرهم بتسليمها إلى رضوان فسلّموها .

ولَمَّا وصلت هذه الأَخبار وثب أهل أفامية على حِصنها فأخذُوهُ من الأتراك ، وقتلوا بَعْضَهم ، وكان تاجُ الدَّولة قد أخذه من ابن منقذ ، وسار جماعةٌ مِنْ أهلها إلى مصر يستدعون والياً من قِبَلهم [لميلهم][2] إلى الإسماعيلية ونُفورهم من التُّرك .

ووصل خلَف بْنُ مُلاعب في سنة تسعٍ وثمانين وأربعمائةٍ وتسلمها ، وعاد إلى الفساد وقَطْع الطريق ، وقتل خَلْقاً من أفامية .

وأمَّا الملكُ رضوان فإنَّه خَرج في سنة ثمان وثمانين من حلب ، ومعه جناح الدَّولة حسين ، ووصله يغي سيان ويوسف بن أبق مِنْ أنطاكية بعسكرهما ، وتوجهوا إلى الرُّها ، ومعهم رهائن أهلها ليتسلمها الملك رضوان من المُقيمين فيها من أصحاب والده .

١ ـ لطغتكين ترجمة قصيرة في تاريخ ابن عساكر ، نشرتها في ملاحق ـ المدخل ص ٤٠٨ .
٢ ـ أضيف ما بين الحاصرتين لاستقامة السياق ـ أنظر ترجمة خلف بن ملاعب .

فلمّا نزلوا الرّها أراد يغي سيَان ويوسف أن يقبضا جناحَ الدَّولة ويتفرَّدا بتدبير رضوان ، فهرب منهما ، وقطعَ الفُرَات ، وَوَصل حلبَ ، وتبعه رضوان ، فدخل حلبَ ، وهرب رهائن الرّها من العسكر ودخلوها ، وعاد يغي سيان ويوسف بن أبق ، وقد استوحش رضوان منهما .

وكتب رضوان إلى سكمان ـ واقطاعه سروج ـ يستدعيه إلى حلب لمعونته ، فسار وقطع الفُرات فلقيه يوسف بن أبق في عدّةٍ وافرةٍ فخافة سكمان ، فأظهر موافقته وصار معه .

وخاف جناحُ الدَّولة من اجتماعهم ، وكان عقيب وُصُول رضوان من الرُّها قد سَيَّر جماعةً من عسكر حلب إلى معرَّة النُّعمان مع عضب الدَّولَةِ لأخذها من يغي سِيان .

وكاتب وثّاب بن محمود فوصل ببني كلابٍ لمساعدَتِهِ على أخذ المعرّة ، فأخرجوا ابن يغي سيان وأصحابه منها ، وتسلّموها .

وعاد عضبُ الدَّولة ووثّاب ، فلمّا وصلا حلبَ حدث ما ذكرناه من أمر سكمان ويوسف بن أبق ، فخرج جناحُ الدَّولة بالعسكر ، فلقيه يوسف بالقرب من مَرج دابق فهَرَب يُوسف ونهبوا عسكره ، وأعانهم على ذلك

---

١ ـ سكمان بن ارتق . انظر المدخل ص ٣٨٨ . ومن المفيد مقارنة ما جاء هنا بما جاء في الترجمة لوجود بعض التعارض .

٢ ـ سروج بلدة قريبة من حران من ديار مضر . معجم البلدان .

سكمان ، ودخل يوسف أنطاكية . وعاد جناح الدَّولة وسكمان ووثّاب وأبق إلى حلب .

وأقطع الملك رضوان معرَّة النُّعمان سكمان بن أرتق وأعمالها ، ثم سار رضوان وسكمان لقصدِ دمشق وانتزاعها من أخيه دقاق ، وترك جناح الدولة بحلب .

فَلَمَّا نزلا دمشق ، وَصل إليهما أن دُقاق قبض على نجم الدين إيلغازي ابن أرتق ، واعتقله لتهمة وقعت به ، فعاد الملك رضوان إلى حلب ، وسار سكمان إلى بيتِ المقدس وتسلّمها من نُواب أخيه وأقام بها .

وَرَاسَلَ يوسف بن أبق الملك رضوان واستأذنه في الوصول إلى خدمته فأذن له ، ووصل حلب وسكنها .

ثُم خافَ رضوان وحسين منه فتقدَّما إلى بركات بن فارس رئيس حلب المعروف بالمجن[1] بقتله ، فهجم عليه وأصحابه فَقَتَلُوه ونهبوا دارَه وأخذوا رأسه ، وسيَّروه إلى بزاعا ومَنبج ، فتسلموها من أصحابه ، وقبضوا على اقطار أخيه وأصحابها ؛ وهربوا من حلب ، وكان الملك قد تَوَهَّم منه الارتداد عن الاسلام .

ثم أنّ رضوان وجناحَ الدَّولة خرجا في سنة تسع وثمانين إلى تَلّ باشر ؛ وشيح الدّير[2] ، وفتحاها بالسّيف من أصحاب يغي سِيان ، وأغارا على

١ ـ المجن الفوعي ، مقدم أحداث حلب . انظر المدخل ص ٣٨٨ ـ ٣٩٢ .
٢ ـ انظر بغية الطلب ص ٣٢١ ـ ٣٢٢ ، ٤٧٤ .

أعمال أنطاكية ، وعادا إلى حلب ، وسارا في أول شهر رمضان منها إلى دمشق .

فسار يغي سيان مُنجداً لدقاق فضعفَت نَفْس رضوان ولم يتمكن من العودة ، فسار إلى بيت المقدس ، فتبعه دقاق وطغتكين ويغي سيان وأقامُوا متحابسين مدة .

وأشرف عسكر رضوان على التّلف فانْفَصَلَ عنه جناحُ الدَّولة ، وهرب على طريق البرية إلى حلب ، وتبعه الملك رضوان بعد مدّةٍ وحَصَلا بجميع العساكر بحلب .

وَعَادَ دُقاق وطغتكين إلى دمشق ويغي سيان إلى أنطاكية . وعاد سكمان بن أرتق من القدس على البرّية حتّى وصل حلب على البرية في المحرَّم من سنة تسعين وأربعمائة .

واجتمع بجناح الدَّولة واتفقا على قصد بلاد يغي سيان فخرج دُقاق وطُغتكين ، فوصلا حَمَاه وعاثَ العسكرُ في بلدها ووصلهما يغي سيان ، وساروا إلى كفرطاب في الثّاني من ربيع الأوَّل ، فقاتلوها ، ونهبوها ، وقرّروا على أهلها مالاً .

وهرب أصحاب سكمان من المعرّة فتسلّمها يغي سيان وقرّر عليها مالاً ، وتنقَّل العسكر في الجَزْر[1] وغيرها من أعمال حلب ، فاستنجد رضوان

١ ـ الجزر كورة من كور حلب وقعت بينها وبين أنطاكية . معجم البلدان .

بسليمان بن إيلغازي صاحب سُمَيْسَاط[١] فوصل بعسكرٍ كثيرٍ إلى حلب .

وجمع رضوان مَنْ قَدَرَ عليهِ من التُّرك والعرب وأحداث حلب ، ونزل عسكر دُقاق بقنّسرين .

ونزل عسكرُ حلب بحاضر قنِّسرين فاتّفق الأمر على أن يجتمعوا على نَهر قُويق ويتحدّثوا ، فاجتموا وتحدّثوا ، والنهر بينهم ؛ فلم يتَّفق الصُّلْحُ ، فقال يغي سيان لسكمان : «هؤلاء المُلوك يقتتلون على ملكهم ، أنتَ يا بيَّاع اللَّبن دخولُك معهم لأيِ صِفة ؟» قال : «غداً تُبصر ايش أنا» .

فأصبحُوا والتقوا يوم الاثنين خامس شهر ربيع الآخر من سنة تسعين وأربعمائة فَأَبلى سكمان بَلاءً حسناً .

ولم تزل الحرب بَينهم إلى آخر النهار ، فانهزم يغي سيان إلى أنطاكية ، ودقاق وطغتكين إلى دمشق ؛ وأسر في الحرب اصباوه[٢] ، فاعتقل بحلب ثم أطلق ، فهرب إلى دمشق ولم يقتل من العسكر إلَّاالقليل .

وَقَتَل الفلاَّحون في الطَّريق وقتَ الهزيمة مِنَ الأرمن الذين كانوا مع يغي سيان جماعةً كثيرةً ، وتغيّرت نيّة الملك رضوان على جَناح الدَّولة حسين

---

١ ـ سميساط مدينة على شاطىء الفرات ، هي الآن في تركيا . معجم البلدان ـ الأعلاق الخطيرة ـ قسم الجزيرة ـ ص ٨٠١ .

٢ ـ من أمراء التركمان وقادة جيوشهم وهو عند ابن الأثير في الكامل : ٢٢٨/٨ «أصبهبذ صباوو» .

فَهَرب من حلب إلى حمص ، وخرج من حلب ليلاً ومعه زوجته أُمّ الملك رضوان ؛ وأقام بحمص لأنها كانت في يده وحَصَّنها .

ووصل يغي سيان إلى حلب عقيبَ ذلك ، وخدم رضوان ، ودبّر أمره ، وتزوَّج رضوان ابنة يغي سيان خاتون جيجك[1] .

وعوّل رضوان على قصد جناح الدّولة بحمص ، وقصد دقاق بدمشق ، وَوَصَلَهُ رسولُ الأفضل[2] من مصر يدعوه إلى طاعة المُستعلي وإقامة الدَّعوة له ، وعلى يده هدّية سنيّة من مصر ، وَوَعَده بأن يُمدَّه بالعساكر والأموال .

فتقدم بالدَّعوة للمصريين على سائر منابر الشّام التي في يده ، ودعا الخطيبُ أبو تراب حيدرة بن أبي أسامة بحلب للمُستعلي ثُمّ للأفضل ثم لرضوان ، في يوم الجمعة السَّابع عشر من شهر رمضان من هذه السَّنة .

وكان قد ولّى الخطابة أبا تُراب وعَزَل جَدَّ أبي غانم أبا محمَّد بن هبة الله بن أبي جرادة عن القضاء والخطابة بحلب ، لأن توليته كانت على قاعدة أبيه من بغداد في سَنَة ثمان وثمانين وأربعمائة .

وكان أبوه القاضي أبو الفضل هبة الله قد مات في هذه السَّنة المذكورة ، وهو على القضاء والإمامة بحلب .

١ ـ انظر المدخل ص ٣٨٨ .
٢ ـ الأفضل بن بدر الجمالي أمير الجيوش المتحكم بالخلافة الفاطمية . انظر المدخل ص ٣٩٢ .

وولى رضوان قضاء حلب في سنة تسعين القاضي فضل الله الزَّوزني العجمي الحنفي ، وسَيَّره رسولا إلى مصر ، وناب عنه في القضاء حال غيبته أبو الفضل أحمد بن أبي أسامة الحلبي ، ودامت الدَّعوة بحلب إلى رجب من سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة . وقيل : لم تَدُم أكثر من أربع جمع[١] .

وأعادها رضوان للإمام المستظهر ثم للسّلطان بركيارق ثمَّ لنفسه ، ولم يصحّ له مما التمسة من المصريين شيءٌ .

وأعاد القضاءَ والخطابة إلى جدّ أبي أبي غانم على قاعدته الأولى ، في سنة خمس وتسعين وأربعمائة ، حين قُتل الزَّوزَنيّ ، وكان خرج من بين يدي رضوان ، فقِتل في بعض الدُّروب ؛ وكان أزرى على الباطنيّة وعلى معتقدهم فقيل إنّهم قتلوه .

ولما سار رضوان ويغي سيان وصلا إلى شيزر متوجّهين إلى حمص لقصد[٢] حمص ، فتواصلت الأخبارُ بوصول خَلق من الفرنج قاصدين أنطاكية ، فقال يغي سيان : «عودُنا إلى أنطاكية ولقآء الفرنج أولى» ، وقال سكمان : «مسيرُنا إلى ديار بكر وأخذها من المتغلّبين عليها ونتقوى بها ، وأُنزل أهلي بها ونعود إلى حمص أولى» ؛ واختلفوا .

فسار الملك رضوان نحو حلب جفلاً وكان معه وزيره أبو النّجم بن بديع أخو وزير أبيه تتش أبي القاسم ، وكان قد ولّاه وزارته حين ملك

١ - انظر تاريخ دمشق لابن القلانسي ص ٢١٧ .
٢ - في تاريخ دمشق لابن القلانسي ص ٢١٧ «لمعاودة النزول على دمشق» وهو الأقوم .

حلب ، فاتهماه أنه هو الذي يفسد حال رضوان ، فطلع إلى حصن شيزر، وأقام به عند ابن منقذ خشية من يغي سيان وسكمان ، فلما سارا عن شيرز سار إلى حلب ولحق بالملك رضوان بها .

ولما عاد رضوان مُغاضباً ليغي سيان وسكمان عَادَ[1] والأمراء من شيزر إلى أنطاكية، وبلغهم نزول الفرنج البلاّنة ونهبها[2] .

ولما دخل يغي سيان أنطاكية أخرج ولديه شمس الدَّولة ومحمداً ، فسار أحدهما إلى دقاق وطغتكين يستنجدهما ، وبثَّ كتبه إلى جناح الدَّولة ووثاب بن محمود وبني كلاب ، وسار محمَّد ابنه إلى التركمان وكربوقا وأمراء الشرق وملوكه ، وسارت كتبه إلى جميع أمراء المسلمين .

وفي ثامن شهر رمضان ، وصل من قبرس إلى ميناء اللاذقية اثنتان وعشرون قطعة في البحر ، فهجموه وأخذوا منه جميع ما كان للتجّار ؛ ونهبوا اللاّذقية ، وعادوا ، وَوَصَلت الفرنج إلى الشّام ، واعتبروا عسكرهم فكانوا ثلاثمائة ألف وعشرين ألف إنسان ، لأنَّهم وصلوا من جهة الشمال .

وفي اليوم الثَّاني من شوّال نزلت عساكر الفرنج على بغراس[3] وأغاروا على أعمال أنطاكية ، فعند ذلك عَصى من كان في الحصون والمعاقل المجاورة لأنطاكية ، وقتلوا مَنْ كان بها ، وهرب مَنْ هَرَب منها .

١ ـ الضمير يعود هنا إلى يغي سيان . انظر ابن القلانسي ص ٢١٨ .

٢ ـ انظر ابن القلانسي ص ٢١٨ .

٣ ـ بغراس : مدينة في لحف جبل اللكام بينها وبين أنطاكية أربعة فراسخ ، على يمين القاصد إلى أنطاكية من حلب . معجم البلدان .

وفعل أهل أرتاح[1] مثل ذلك واستدعوا المدد من الفرنج ، وهذا كله لقُبْح سيرة يغي سيان وظلمه في بلاده .

ونزل الفرنج على أنطاكية لليلتين بقيتا من شوال من سنة تسعين وأربعمائة .

وخرج في المحرّم من سنة إحدى وتسعين وأربعمائة نحو ثلاثين ألفاً من الفرنج إلى أعمال المسلمين ببلد حلب ، فأفسدوا ونهبوا وقَتَلُوا مَنْ وجَدُوا .

وكان قد وَصَل الملك دقاق وأتابك ومعهما جناح الدَّولة ، ونَزلوا أرض شيزر ، ومعهم ابن يغي سيان وهم سائرون لانجاد أبيه ، فبلغهم خبر هذه السريّة ، فساروا إليها بقطعة من العسكر ، فلقوهم في أرض البارة[2] فقتلوا منهم جماعة .

وعاد الفرنج إلى الروج[3]،وعرجوا منه إلى معرّة مصرين[4]، فقَتَلُوا مَن وجدوا وكسروا منبرها ، وحين عاد العسكر الدمشقي من البارة فارقهم ابن يغي سيان ووصل إلى حلب يستنجد بالملك رضوان ، فأخذ عسكر حلب وسكمان ، ودخل بهما إلى أنطاكية فلقيهم من الفرنج دون عدّتهم ، فانهزم

---

١ - أرتاح اسم حصن منيع كان من العواصم من أعمال حلب . معجم البلدان .
٢ - بليدة في منطقة أريحا محافظة ادلب السورية ، كان بها حصن ، ما زالت خرائبها شاهدة على عظمة ماضيها ، انظر معجم البلدان وانظر الخبر أيضاً عند ابن القلانسي ص ٢١٩ .
٣- الروج من كور حلب المشهورة في غربيها . معجم البلدان .
٤ - معرة مصرين من قرى محافظة ادلب وتتبع إداريا لها وتبعد عن ادلب مسافة ١٠ كم .

عسكر المسلمين إلى حارم[1] وذلك في آخر صفر ، وتبعهم عسكر الفرنج إلى حارم فانهزموا إلى حلب ، وغلب أهل حارم من الأرمن عليها .

وفي شهر ربيع الأول من السّنة وصل خلقٌ من الأرمن إلى تل قبّاسين بناحية الوادي فقَتَلُوا مَنْ فيه، وخرج المسلمون الذين بالوادي وجماعة من الأتراك تبعوهم وقتلوا منهم جماعة ، والتجأ الباقون إلى بعض الحُصونَ الخربة ، فأدركهم عسكر حلب فقاتلهم يومين ، وأخذوهم فقتلوا بعضهم ، وحمل الباقي أسرى إلى حلب فقُتِلُوا ، وكانوا يزيدون عن ألف وخمسمائة .

ولما نَزَلَ الفرنجُ ـ لَعَنهُم الله ـ بأنطاكية جعلوا بينهم وبين البَلَد خندَقاً لأجل غارات عسكر أنطاكية عليهم وكثرة الظّفر بهم ، ولا يكاد يخرج عسكر أنطاكية ويعود إلاّ ظافراً .

وجعل يغي سيان النّاس على البُعد والقُرب ، وكان حسن التّدبير في سياسة العسكر .

وجمع كربوقا صاحبُ المَوصل عسكراً عظيماً ، وقطع به الفرات ، ووصل دُقاق وطُغتكين وجناح الدولة ، ووصل سكمان بن أرتق ، وفارق رضوان وسار مع دُقاق .

ووصل وثّاب بن محمود ومعه جماعة من العرب ووصلوا تل منس وقاتلوها لأنه بلغهم أنهم كاتبوا الفرنج وأطمعوهم في الشّام ، وقَرَّر عليهم

١ ـ حارم الآن من مناطق محافظة ادلب وتبعد عن ادلب مسافة ٥٣ كم .

دقاق مالاً أخذ بعضَه ورهائن على الباقي ، وسيَّرهم إلى دمشق .

وسار دقاق بالعساكر إلى مرج دابق ، واجتمع بكربوقا فيه في آخر جُمادى الآخرة ، ورحلوا منه نحو أنطاكية .

فلما كان ليلة الخميس أوّل ليلة من رجب واطأ رجلٌ يُعرَف بالزَّرَّاد من أهل أنطاكية وغلمان له على برج كانوا يتولّون حفظه ؛ وذلك أن يغي سيان كان قد صادَر هذا الزَّرَّاد وأخذ مَاله وغَلَّته ، فحمله الحنقُ على أن كاتب بيمند وقال له : «أنا في البُرجِ الفُلاني ، وأنَا أُسلِّمُ إليك أنطاكية إنْ أُمنتني وأعطيتني كذا وكذا» . فبذل له ما طلب ، وكتم أمرهُ عن باقي الفرنج .

وكان بعسكر الفرنج تسعة قوامص مقدّمين عليهم كندفري ، وأخوه القمص ، وبيمند ، وابن اخته طنكريد وصَنجيل وبَغدوين وغيرهم ، فجمعهم بيمندُ وقالَ لهم : «هذه أنطاكية إنْ فتحناها لمن تَكُونُ ؟» فاختلفوا ، وكُلٌّ طلبها لنفسه ، فقال : «الصَّوابُ أن يحاصرها كُلُّ رجلٍ منا جُمعة ؛ فَمَنْ فُتِحَت في جمعته فهي له» ، فرضوا بذلك .

فلما كانت نوبتُه دّلى لهم الزَّرَّاد ـ لَعَنَه الله ـ حَبْلاً ، فطلعوا من السُّور ، وتكاثروا ، ورَفَع بعضهم بعضاً وجاءوا إلى الحراس ، فقتلوهم ، وتَسَلَّمه بيمند بن الانبرت[1] .

١ ـ معلومات ابن العديم هنا على درجة عالية من الدقة ، والانبرت هو الامبراطور ، أرادبه والد بوهموند جويسكارد النورمندي ، وهناك خلاف حول أصل وشخصية الزراد . انظر وقارن وليم الصوري ـ تاريخ الحروب الصليبية ـ ترجمتي ـ ط . بيروت ١٩٩٠ ص ٢٧٩ ـ ٣٣٢ .

وطَلَع الفرنج في سحرة هذه اللّيلة إلى البلد وصاح الصَّائح من ناحية الجبل ، فتوهّم يغي سيان أنَّ القلعة قد أُخذَت فخرج من البلد في جماعة منهزمين فلم يسلم منهم أحد .

ولَمَّا حَصَل بالقرب من أرمناز ومعه خادم من غلمانه وقع عن ظهر فرسه ، فحمله الخادم الذي كان معه ، وأركبه ، فلم يثبت على ظهر الفرس ، وعاد فسقط ، وأدركه الأرمن ؛ فهرب الخادم عنه ، وقَتَله الأرمن وحملوا رأسه إلى الفرنج .

واستشهد في ذلك اليوم بأنطاكية ما يفوتُ الإحصاء ويجاوزُ العَدَد ، ونُهبت الأموالُ والآلات والسّلاح ؛ وسُبي مَن كان بأنطاكية ، وَوَصَل هذا الخبرُ إلى عِمّ وانّب[1] ، فهَرَب مَنْ كان بها من المسلمين وتسلمها الأرمن .

وبلغَ الخبرُ إلى دُقاق وكربوقا ومن كان معهما ، فرحلوا إلى أرتاح ، وسار بعضهم إلى جسر الحديد[2] وقَتَلُوا مَنْ كان فيه من الفرنج ، وتوجّهوا نحو أنطاكية ، فعرفوا أنَّ قلعتها باقية في أيدي المسلمين ، فأعلموا العساكر الإسلامية بذلك ، فوصلوا إلى أنطاكية سحرة يوم الثلاثاء سادس رجب ، فانهزم مَنْ كان بظاهر البلد من الفرنج إليها .

١ - إنب : حصن من أعمال عزاز من نواحي حلب . وعم قرية غناء بين حلب وأنطاكية . معجم البلدان .

٢ - انظر وليم الصوري ص ٣٣٣ - ٣٣٦ ، وجسر الحديد كان مقاماً على العاصي انظر خريطة أنطاكية ص ١٢٤ من وليم الصوري .

ونزل المسلمون بظاهرها مِمَّا يلي الجبل ، ودخلوا البلد من ناحية القلعة ، وقاتلوا الفرنج في جبل المدينة ، وأشرف الفرنجُ على التَّلف فبنوا سُوراً على بعض الجبل يمنعُ المسلمين من النزول إليهم ، وأقاموا أيّاماً ، وعدم القوت عندهم .

واحتوى كربوقا على كثير ممّا كان في قلعة أنطاكية ، وولّى فيها أحمدَ بن مروان ، وترادفتْ رُسُل الملك رضوان في أثناء ذلك إلى كربوقا ، فَتَوهَّم دُقاق من ذلك ، وخَافَ جناح الدَّولة من أصحاب يوسف بن أبق وأخيه .

وجَرَت بين الأتراك والعرب الّذين مع وثّاب منافرةٌ عادوا لأجلها ، وَتَفَرَّق كثير من التّركمان بتدبير الملك رضوان ورسالته .

وتخيَّل بعضُ الأمراء مِنْ بعض ثم اجتمع رأيهم على التَحوُّل إلى المنازلة في السَّهل بظاهر أنطاكية ، فنزلوا باب البحر ، وجَعَل المسلمون بينهم وبين البلد خندقاً .

وأكل الفرنج بأنطاكية الميتات والدّواب ، فخرجوا من أنطاكية يوم الاثنين السَّادس والعشرين من شهر رجب .

فأشار وثّاب بن محمود أن يمنعوا من الخروج ، وأشار بعض الأمراء أن لا يمكنوا من الخروج بأجمعهم ويُقْتَلوا أوّلاً فأوّلاً ، فلم يعرّج المسلمون على شيء من ذلك لأنهم أيقَنوا بالظَّفر بالفرنج ، وخَرَجُوا بأجمعهم في خلْق عظيم .

وعاثَ التّركمان في العسكر فانهزم ، وتوهّم الفرنج أن ذلك مكيدة

فتوقفوا عن تبعهم ، فكان ذلك سبباً لسلامة من أراد الله سَلاَمَته ؛ ولم يَبْقَ غير كربوقا ومعه أكثر عسكره ، فأحرق سرادقة وخيامَه وانهزم نحو حلب .

وقُتل من المطوعة والغلمان والسُّوقة خلقٌ كثير ، ولم يُقتل مذكورٌ ، ونُهب من المسلمين من الآلات والخيام والكراع والغلاَّت ما لا يُحصى ، ومَن انقطع من العسكر نَهَبَهُ الأرمن[1] .

وعَادَ الفرنج إلى قلعة انطاكية ، وبها أحمد بن مروان ، فراسَلَهُ الفرنج وأمّنوه ، ومَن كان معه ، وسَلّمها إليهم يومَ الأَحد الثّاني من شعبان من السّنة ، وأنزلوهُ في دارٍ بأنطاكية وأطلقوا أصحابَهُ وسَيَّرُوا مَعَهم مَنْ يُوصِلهم إلى أعمال حلب ؛ فخرج الأرمنُ فأخذوا بعضَهم وَقَتَلُوا بعضهم ، ولم يَسْلَمْ منهم إلاَّ القليل .

وَلَمَّا وَصَل كربوقا إلى حلب خرج إليه الملك رضوان ، وحمل له خياماً وغيرها ، ورحل عنها ، وعاد عسكَرُ دمشق إليها وتفرَّقت العساكر .

وبعد أيّام مِن هذه الوَقْعَة خَرج جماعةٌ من الفرنج في شعبان ، وزَحَفُوا مع أهل تلمنس وجميع نَصارى بلد المعرَّة على المعرَّة وقاتلُوها ، فوصلتْ قِطعةٌ من عسكر حلب إليهم ، فالتَقَوا بَيْنَ تلّ منس والمعرّة ، فانهزم الفرنج وبقي الرجَّالةُ منهم ، فَقُتِل منهم زائداً عن ألفِ رجل ، وَحُمِلَتْ رُؤوسهم إلى معرَّة النُّعمان .

---

١ - انظر يوميات صاحب أعمال الفرنجة في كتابي الحروب الصليبية - ط . دمشق ١٩٨٤ ص ٢٣٩ - ٢٦١ . وليم الصوري ص ٣٣٧ - ٣٦٤ .

وفي هذه السَّنة ـ وهي سنة إحدى وتسعين ـ في جُمادى الأولى عَزل الملك رضوان وزيره أبا النجم هبة الله بن محمد بن بديع ؛ وولّى وزارته أبا الفضل هبة الله بن عبد القاهر بن الموصول . وكان أبو الفضل حسَن السّيرة جواداً كثير المعروف والصَّدقات ، ووافق ذلك شدة الغلاء والجوع بحلب ، حتّى أكلوا الميتات ، فأخرج غلّة كثيرة ، وتصدَّق بها على النَّاس .

وقيل : إنَّه كان يخرج في كل سنة صدقة وبرّاً ثلاثة آلاف مكوك غلّة سوى ما يُطلقه لمن يسأله معونته من الوفودِ والضّيوف ، وغير ما يُطلقه من العَيْن والوَرقِ وغير ما كان يعتمدُ من افتكاك الأسرى من المسلمين .

وفيها قَتل الملكُ رضوان رئيسَ حلب بركات بن فارس الفوعي المعروف بالمجنّ ، وكان هذا المجن أوّلاً من جُملة اللّصوص الشُطّار وَقُطَّاع الطّريق الذُعَّار فاستتابه قسيمُ الدَّولة أق سنقر ، وولَّاه رئاسة حلب لشهامته وكفايته ومعرفته بالمفسدين ، وكان في حال اللّصوصية يُصَلّي العشاء الآخرة بالفُوعة[1] ، ويَسري إلى حلب ويسرق منها شيئاً ويخرج ، وَيُصَلّي الفجرَ بالفُوعة فاذا اتهم بالسّرقة أحضر مَنْ يَشْهَد له أنّه صَلّى العِشاء بالفُوعة والصُبح فيبرئونه .

واستمرَّ على رئاسة حلب في أيّام قَسِيم الدَّولة وأيّام تاج الدَّولة وبعده في أيّام رضوان ، وامتدَّت يَدُه وحكم على القُضاة والوزراء ومَنْ دُونَهم ، وهو الَّذي قتل الوزير أبا نصر بن النّحاس في أيام قَسِيم الدَّولة .

١ ـ الفوعة الآن من قرى محافظة ادلب وتبعد عنها مسافة ١٣ كم .

وبلغني أنه حنق عليهِ بسَبَبِ حُصرٍ أراد شراءَها فاشتراها المجنّ ، فشقَّ على أبي نصرٍ . فَسَيَّرها المجنّ إليه ، فردَّها عليه أبو نصر ، وتكلّم في حقِّه بكلام قبيحٍ فحنق بسببها على ابن النَّحاس ، فاعتقله بعد ذَلِك عندَه وخَنَقَهُ .

وكانَ كثيرَ السّعَاية في قَتْل النُّفُوسِ وسَفْكِ الدِّماء وَأَخذ الأَموال وارتكاب الظُّلم ، فعَصَىَ على الملك رضوان ، ثم ضعف واختفى بعد أن حصر رضوان في قلعة حلب في سنة تسعين وأربعمائة .

فأمر رضوان منادياً نادى بالقلعة بأن الملك قد ولَّى رئاسة حلب صاعد بن بَديع فانقلب الأَحداث عنه لبغضهم إيّاه ، ومضَوا إلى صاعِد فاختفى المجنّ ، ثم ظهر عليه فعجل الله المكافأة له على قبيح فعله .

وسلّط عليهِ الملك رضوان فسَجَنه في ذي القعدة من سنة تسعين وعذَّبه عذاباً شديداً بأنواع شتى ، وأراد بذلك أن يستصفي ماله . فممّا عذّبه به أنّه أحمى الطسْتَ حتّى صار كالنَّار ، ووضعه على رأسه ، ونَفَخ في دبره بكير الحدّاد ، وثُقب كعابه ، وضَرب فيها الرُّزز والحَلق .

ولَمَّا وضع النّجار المثقَب على كعبه قَطَع الجلْد واللَّحْم ولم يَدُر المِثقب ، فلطَمه المَجَنُّ وقال : «ويلَك لا تعرف ! أحضر خشبةً ، وضَعْها على الكعب» . فأحضرَ خشبةً ووضعَها على كعبة ، فدار المثقب ونزل وَنَزَل ، وثقب الكعب .

فلما فرغ قِيل له : «كيفَ تَجد طعمَ الْحديد ؟» فقال : «قُولوا للحديد كيف يَجِدُ طَعْمي» ، ولم يُقرّ المجنّ مع هذا كلّه بدرهمٍ واحدٍ ، ولم يحصل للملك رضوان من ماله إلَّا ما أقرَّ به غلامٌ أَوْ جاريةٌ ؛ وذلك شيء يسير ، واستغنى جماعة من أهل حلب من ماله .

ولما طال الأَمر على رضوان أشِير عليه بقَتْله ، فأخرج إلى ظاهر باب الفرج من نحو الشّرق ، ومعه ابنان له شابان مقتبلاً الشباب ، فقُتِلا قبله ؛ وهو ينظُر إليهما ولا يتكلم .

ثم قتل بعد ذلك في سنة إحدى وتسعين ، وسلّمت رئاسة حلب إلى صاعد بن بديع ، ولما قُدم المجنّ للقَتْل صاحَ بصَوت عالٍ : «يا مَعْشَر أهل حلب ، مَنْ كان لي عنده مَالٌ ، فهُوَ في حِلٍّ منه» .

وكان ابنُ بديع من أولاد الدَّيْلَم الّذين كانوا في أيّام سَيف الدَّولة ، وولد أبوه بحلب .

وفي سنة إحدى وتسعين وأربعمائة عصَى عُمر والي عَزاز على الملك رضوان فَخَرَج عسكر حلب وحَصَره ، فاستنجد بالفرنج ، فوصل صَنجيل بعسكرٍ كبيرٍ ، فعادَ عَسْكَرُ حلب فنهب صنجيل ما قَدر عليه وعَاد إلى أنطاكية ، وأخذ ابنَ عُمَرَ رهينةً ، فمات عنده ، فوقع الملك رضوان على عُمر إلى أن أَخَذَه من تلّ هراق[1] فسلَّم إليه عَزاز وأقام عنده بحلب مدَّةً ، ثم قتله .

١ ـ انظر حوله الأعلاق الخطيرة لابن شداد ـ قسم حلب ـ ط . دمشق ١٩٩١ ج ٢ ص ٦٤ .

وخرج صنجيل في ذي الحجَّة ، وحصر البارة فقل الماءُ فأخذها بالأمان ، وغَدَر بأهلها ، وعاقب الرّجال والنّساء ، واستصفى أموالهم وسبى بعضاً وقتل بعضاً ، ثم خرج بقيّة الفرنج من أنطاكية والأرمن الّذين في طاعتهم والنّصارى ، وانضموا إليه ، ووصلوا إلى معرّة النّعمان لليلتين بقيتا من ذي الحجة في مائة ألف .

وحصروا معرّة النُّعمان في سنة اثنتين وتسعين ، وقطعوا الأشجار ، واستغاث أهلها بالملك رضوان وجناح الدولة فلم ينجدهم أحد .

وعمل الفرنج بُرجاً من خشبٍ يحكم على السّور وزحفوا إلى البلد ، وقاتلوه من جميع نواحيه حتى لصق البُرج بالسّور فكشفوه وأسندوا السَّلالم إلى السّور وثبتَ النَّاس في الحرب من الفجر إلى صلاة المغرب ، وقُتِل على السُّور وتحته خلقٌ كثير ، ودخلوا البلد بعد المغرب ليلة الأحد الرَّابع والعشرين من محرَّم سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة .

ودخل عسكر الفرنج ـ جميعُه إلى البلد ، وانهزم بعضُ الناس إلى دورٍ حصينةٍ ، وطلبوا الأمان من الفرنج فأمّنوهم ، وقَطَعوا على كل دار قطيعة ، واقتسموا الدُّور ، وهجموها وناموا فيها ، وجعلوا يهدّئون النّاس حتى أصبح الصبح ، فاخترطوا سيوفَهم ، ومالوا على النّاس ، وقَتلوا منهم خلقاً ؛ وسبوا النّساء والصّبيان .

وقُتل فيها أكثر من عشرين ألف رجل وامرأةٍ وصبيّ ، ولم يسلم إلّا القليل مِمّن كان في شيزر وغيرها من بني سُليمان وبني أبي حُصين

وغيرهم ، وقتلُوا تَحْت العُقوبة جمعاً كثيراً ، فاستخرجوا ذَخائِر النَّاس ، ومنعوا النَّاس من الماء ، وبَاعُوا مِنْهم فهَلك أكثر النَّاس من العَطَش ، وملكوها ثلاثةً وثلاثين يوماً بعد الهجمةِ ، ولم يُبْقوا ذخيرةً بها إلَّا استخرجُوها .

وهَدَمُوا سورَ البَلَد وأحرقوا مساجدَه ودُورَه وكسروا المَنَابِرَ[1] . وعَاد بيمند إلى أنطاكية وقمص الرّها إليها ، وفي هذه السّنة فَتحوا بيت المقدس وفعلوا فيها كما فعلوا بالمعرّة[2] .

وفي سنة ثلاث وتسعين ، وَصَل مُبارك بن شبل أمير بني كلاب في جمع كثير من العرب فخالف الملك رضوان ، وَرَعَوْا زَرع المعرَّة ، وكفر طاب ، وحماة ، وشيزر ، والجسر ، وغَيْرَ ذَلك .

وخَلَتِ البلادُ ، ووقع الغَلَاء في بلد حلب ، ولم يزرع شيء في بلدها ، وسلّط الله الوباء على العَرب ، فماتَ شبلٌ ومُبارك ولده ، واضمحلت دولة العرب .

وتوّجه الملك رضوان في سَـلْخ رجب من هذه السّنة إلى الأثارب وأقام عليها أيّاماً ، وتوّجه إلى «كلاَّ» في الخامس والعشرين من شعبان لإخراج الفرنج منها ، فاجتمع مَن كان في الجزر وزردنا وسَرمين مِن الفرنج

---

١ ـ انظر الحروب الصليبية ص ٢٦٨ ـ ٢٧١ .

٢ ـ انظر الحروب الصليبية ص ٢٧٨ ـ ٢٨٢ .

والتقَوا ؛ فانهزم رضوان ، واستبيح عسكرهُ ، وقُتل خلقٌ كثيرٌ وأُسر قَريبٌ مِن خمسمائة نفسٍ وفيهم بعضُ الأمراء[1] .

وعاد الفرنج إلى الجزر وأخذوا برج كفر طاب[2] وبُرج الحاضر ، وصار لهم من كفر طاب إلى الحاضر ، ومن حَلب غرباً سوى تلّ منس فإنّ أصحابَ جناح الدَّولة كانوا بها .

وسار رضوان عقيب هذه النَّكبة إلى حمصَ مُستنجداً بجناح الدّولة فأجابه ، وعاد إلى حلب ومعه جناح الدَّولة ، وقد عاد الفرنج إلى أنطاكية ، فأقام جناح الدَّولة بظاهر حلب أيّاماً ، فلم يلتفت إليه رضوان فعاد عنه إلى حمص .

وتجمع الفرنج بالجزرْ وسرمين وأعمال حلب وجمعوا العُدد والغِلال لِحصَار حلب ، وعولوا على حصارها في سنة خمس وتسعين ، وقيل قبلها .

ووصل بيمند وطنكريد إلى قرب حلب فنزلوا المُشرفة ـ من الجانب القبلي على نَهر قُويق ـ لما بلغهم مِن ضعف رضوان وتمزيق عسكره ، وعزموا أن يبنوا مشهد الجفّ ، ومشهد الدّكّة ، ومشهد قرنبيا حصوناً ، وأن يُقيْموا على حلب ويستغلوا بلدَها .

فأقاموا في تَدبير ذَلك يوماً أو يومين فبلغهم خروج أنوشتكين

---

١ ـ انظر المدخل ص ٣٩٢ .
٢ ـ تبعد خرائب كفرطاب عن خان شيخون ـ الى الغرب منها ـ قرابة ٣ كم .

الدَّانشمند ، وأنه قد نازل بَعْضَ معاقل الفرنج ، وهي ملطية فعادوا للدَّفع عنها .

فخرج الدَّانشمند فلقي بيمند وجمعاً من الفرنج بأَرض مرعش فأسره ، وقتل عسكره ، ولم يُفلت منهم أحدٌ ، فخيَّب الله ظنَّ الفريج ، وهربوا من أعمال حلب ، وتركوا جميع ما كانوا أعدّوه ، فخرج رضوان وأخذ الغلال التي جمعوها ، ونزل سرمين .

وسار جناح الدّولة إلى أسفونـا وبه جماعةٌ من الفرنج فهجمه وقَتَل جميع من فيه ، وسار إلى سرمين فكبس عسكر الملك رضوان ونهبه ؛ وانهزم رضوان وأكثر عسكره وأسر الوزير أبا الفضل بن الموصول وجماعةً وحملهم إلى حمص .

وطلب الحكيم المنجِّم الباطني فلم يظفر به ، وكان هذا الحكيم قد أفسد ما بَيْنَهُ وَبَين رضوان واستمال رضوان إلى الباطنية جدّاً ، وظهر مذهبهم في حلب ، وشايعهم رضوان وحفظ جانبهم ، وصار لهم بحلب الجاهُ العظيم والقُدرة الزَّائدة ، وصارت لهم دارُ الدَّعوة بحلب في أيامه ، وكاتبه الملوك في أمرهم ، فلم يلتفت ولم يرجع عنهم ؛ فوصل هذا الحكيمُ حلب سالماً في جملة من سلم في هذه الوقعة .

واستغلَّ جناحُ الدَّولة سرمين ومعرَّة النُّعمان وكفرطاب وحماة ، وفدى الوزير ابن الموصول نفسهُ من جناح الدولة بأَربعة آلاف دينار ، وفدى أصحاب الملك نُفُوسهم أيضاً بمالٍ حملوه إليه .

ولم يبق في أيدي المسلمين في سنة خمس وتسعين إلاّ حصن بَسرفُوث[1] ـ من عمل بني عليم ـ وتسلم دُقاق الرَّحبة في سنة ست وتسعين وأربعمائة ، وكان المُقيم بها زوج آمنة بنت قيماز[2]، وكان قيماز من أصحاب كربوقا فمات ، وكانت الرّحبة له ، وكان جناح الدَّولة قد خرج إليها فوجد الأمر قد فات ، فعاد ونزل النّقرة وخرج إليه رضوان إلى النقرة واصطلحا ، وأخذه معه إلى ظاهر حلب ، وضرب له خياماً ، وأقام في ضيافته عشرة أيام ، ولم يصفُ قلب أحدٍ منهما لصاحبه .

وسار جناح الدَّولة إلى حمص فسَيَّر الحكيم المنجِّم الباطني ثلاثة أعجام من البَاطِنِّية فاغتالوه ، وقد نزل يوم الجمعة الثاني والعشرين من شهر رجب ، لصلاة الجمعة فقتلوه ، وقتلوا بعض أصحابه وقُتلوا ، وقيل : إنَّ ذلك كان بأمر رضوان ورضاه .

وبقي المنجِّم الباطني بعده أربعة وعشرين يوماً ومات ، وقام بَعْدَهُ بأمِر الدَّعوة الباطنيّة بحلب رفيقه أبو طاهر الصَّائِغ العجميّ .

وَوَصل صنْجيل الفرنجي وَنَزل حمص بَعْد قتل جناح الدَّولة بثلاثة أيّام ، فَسَيَّرت زوجتُه خاتون أم الملك رضوان تستدعيه لتسلم إليه حمص ويدفع الفرنج ، فكرهَ المقدَّمُون ذلك ، وخافوا منه لسُوءِ رأْيه فيهم ، وسيَّروا

١ ـ انظر الأعلاق الخطيرة ـ قسم حلب ـ ج ٢ ص ١٣٨ .
٢ ـ انظر ابن القلانسي ص ٢٢٩ .

إلى نواب دُقاق إلى دمشق ، وكان دُقاق بالرّحبة فسار أيتكين الحلبي من دمشق ودخلها وطلع القَلعة .

ووصل رضوان إلى القُبَّة[1] فبلغه الخَبَر وعاد وَرَحَل صنجيل عَنْها بعد أن قرَّر عليهم مالاً ، ووصل دُقاق فتسلّم حمص وأحسَن إلى أهلها وَنَقل أهل جناح الدَّولة وأولاده إلى دمشق ، وسلم حمص إلى طغتكين .

وسارَ والي عَزاز وأغار على الجُومة ـ وهي من عَمل أنطاكية ـ فخرج عسكر أنطاكية وعسكر الرُّها فنزلوا المسلميّة[2] ، وقتلوا بعض أهلها ، وقطعوا على عدّة مواضع قطائع أخذوها ، وأقاموا ببلَد حلب أياماً ، وراسلوا الملك رضوان .

واستقر الحال على سبعة آلاف دينارٍ وعشرة رُؤوس من الخيل ، ويطلقون الأسرى ما خلا مَن أسَروه على المسلمية من الأمراء ، وذلك في سنة ستّ وتسعين .

ثم خرج الفرنج من تلّ باشِر ، وأغاروا على بلد حلب الشمالي والشّرقي ، وأحرقوه ، وتكرر ذلك منهم ، ونزلوا على حصن بَسَرْفُوث ، وفتحوه بالأمان ، ووصلوا إلى كفرلاثا[3] ، فكبسهم بنو عُليم فانهزموا إلى بَسَرفُوث .

---

١ ـ قبة ابن ملاعب «وهي حصن دثر في طرف بلد حلب ، بينها وبين سلمية» . معجم البلدان .

٢ ـ المسلمية من قرى منطقة جبل سمعان في محافظة حلب وتبعد عن حلب مسافة ١٥ كم .

٣ ـ بلدة من نواحي حلب بينها يوم واحد . معجم البلدان .

ووقع بين الفرنج وبين سكمان وجكرمش وقعة عظيمة استظهر فيها المسلمون ، وهلك الفرنج ، وأسر القُمص ، وغنم المسلمون غنيمةً عظيمةً[١] .

وكان الملكُ رضوان قد سار إلى الفُرات ينتظر ما يكون من خبر الفرنج ، فلما وصله الخبر أنفذ إلى الجزر وغيره من أعمال حلب الّتي في أيدي الفرنج ، فأمرهم بالقبض على مَن عندهم من الفرنج ، فوثب أهل الفُوعة وسَرمين ، ومعرّة مصرين وغيرها ، ففعلوا ذلك .

وطلب بعض الفرنج الأمان من رضوان فأمّنهم من القتل ، وحملهم أسرى ، ولَم يبقَ بأيدي الفرنج غير الجبل و«هَاب»[٢] ، وحُصُون المعرَّة ، وكفرطاب ، وَصوران[٣] .

فوصل شَمسُ الخَواص وفتح صورَان ، فهرب مَن كان بلطمين وكفرطاب وبلد المعرّة والبارة إلى أنطاكية ، وسلَّموها إلى رضوان وأصحابه ما خَلَا «هَاب» .

واسترجع رضوان بالس[٤] والفايا ممن كان بها من أصحاب جناح الدَّولة

---

١ ـ لمزيد من التفاصيل انظر ابن القلانسي ص ٢٣٢ .
٢ ـ هاب قلعة عظيمة من العواصم . معجم البلدان .
٣ ـ ما تزال تحمل هذا الاسم تبعد عن حماه مسافة ١٨ كم إلى الشمال منها .
٤ ـ اسمها الآن مسكنة تبعد عن حلب مسافة ٩٠ كم . والفايا كورة بين منبج وحلب . معجم البلدان .

وجرى بحماة خُلفٌ ؛ وخافوا من شمس الخواص ، فكاتَبوا رضوان ، وسلّموها إليه وسلمية ، فأمنت أعمالُ حلب وتراجع أهلها إليها وقوي جأشُ رضوان .

واتّصلت غارات عسكر حلب إلى بلد أنطاكية ، وعرف بيمند ضعفه عن حفظ البلد ، وأنّه لم يُفلت من وقعة سكمان إلا في نفر قليل ، وخاف من المسلمين فَصار إلى بلاده في البحر يستنجد بمن يخرج بهم إلى البلاد ، واستخلف ابن أخته طنكريد يُدبّر أمرَ أنطاكية والرّها[1] .

ومَاتَ الملكُ دُقاق سنة سبع وتسعين في رمضان ، وأوصى بالملك لولدٍ له صغير اسمه تتش[2] ، وجعل التدبير إلى أتابك طغتكين ، فتوجّه الملكُ رضوان نحوَ دمشق ، وحَاصرها ، وقرّر له الخُطبة والسكّة ، فلم تستتب أموره وعاد إلى حلب .

ثم إنّه خرج في شهر رجب في سنة ثمان وتسعين ، وجمع خلقاً كثيراً ، وعزم على قصد طرابلس مَعُونةً لفَخر المُلك بن عمّار على الفَرنج النّازلين عليه .

وكان الأرمن الذين في حصن أرتاح قد سَلّموه إلى الملك رضوان لجور الأفرنج ، فخرج طنكريد من أنطاكية لاستعادة أرتاح ، وخرج جميعُ من في

---

١ ـ أنطاكية نعم أما الرها فكانت دويلة قائمة بذاتها لها حاكمها .
٢ ـ انظر ترجمة دقاق منتزعة من تاريخ دمشق لابن عساكر . المدخل ص ٣٨٦ .

أعماله من الفرنج معه ، ونزل عليها ، فتوجّه نحوه رضوان في عساكره وجموعه وجميع من أمكنه من عمل حلب والأحداث .

فَلَمَّا تقاربا نشبت الحربُ بين الفريقين فثبت راجلُ المُسلمين وانهزمتِ الخيل ، ووقَعَ القتل في الرجالة فلم يسلم منه إلاّ من كتب الله سلامته ، ووصل الفَلُّ إلى حلب ، وقتل من المسلمين مقدار ثلاثة آلاف ما بين فارس وراجل ، وهرب من بأرتاح من المسلمين .

وقصد الفرنج بلد حلب فأجفل أهله ، ونهب من نهب وسبى من سبى ، وذلك في الثالث من شعبان .

واضطربت أحوال بلد حلب من ليلُون إلى شيزر ، وتبدّل الخوف بَعد الأمنِ والسّكون ، وهَرَب أهلُ الجزر وليلون إلى حلب ، فأدركهم خيلُ الفرنج فسبوا أكثرهم ، وقتلوا جماعة .

وكانت هذه النَّكبةُ على أعمال حلب أعظم من النَّكبة الأولى على كلاً . ونَزَل طنكريد على تلّ أعذىٰ ـ من عمل لَيْلُون ـ وأخذه وأخَذَ بقيَّة الحصون الّتي في عمل حلب . ولم يبق في يد الملك رضوان من الأعمال القبلية إلاَّ حماة ومن الغربيّة إلاّ الأثارب ، والشَّرقية والشّمالية في يده ، وهي غير آمنة .

وسيَّر أبو طاهر الصَّائغ الباطني جماعةً من الباطنيَّة من أهل سرمين إلى خلف بن مُلاعب بتدبير رجلٍ يُعرف بابن القنج السَّرميني ، من دعاة الاسماعيلية ، فقتلوه ووافقهم جماعَة من أهل أفامية ، ونقبوا سورَ الحصن ، ودخلوا منه ، وطَلَع بعضهم إلى القلَّة فأحسَّ بهم ، فخرج فطعنهُ أَحدُهُم

بخشت[1]فرمى بنفسه ، فطُعن أُخرى فمات ؛ ونادوا بشعار الملك رضوان .

ووصل أبو طاهر الصَّائغ إلى الحصن عقيب ذلك وأقام به ، وسار طنكريد إلى أفامية ، فقطع عليها مالاً أخذه ، وعاد فوصله مصبح بن خلف بن ملاعب وبعض أصحابه ، فأطمعوه في أفامية ، فعاد ونزلها ، وحاصرها فتسلَّمها في الثَّالث عشر من مُحرّم من سنة خمسمائة بالأمان .

وقتل ابن القنج السَّرميني بالعقوبة ، ولم يف لأبي طاهر الصَّائِغ بالأمان ، وحمله معه أسيراً فاشترى نفسه بمال ، ودخل حلب .

وفي سنة إحدى وخمسمائة ، عصى ختلغ بقلعة عزاز ، واستقرّ أن يُسلّمها إلى طنكريد ، ويعوّضهُ عنها موضعاً غيرها ، فسار رضوان إليها فتسلم عزاز منهُ .

وبَلَغَ رضوان ، في سنة إحدى وخمسمائة ، ما ذُكر بِهِ من مشايعة الباطنيَّة ، وأنّه لُعن بذلك في مجلس السُّلطان مُحمَّد بن ملكشاه ، فأمر أبا الغنائم ابن أخي ابن القنج الباطنيّ الذي عمل في قتل ابن مُلاعب ما دبر الخروج من حلب فيمن معه ، فانسلّ وخرج بجماعة من أصحابه بعد أن قُتل أفرادٌ منهم .

وفي سنة إحدى ـ وقيل : اثنتين ـ وخمسمائة اجتمع جَاولي سقَاوه وجوسلين الفرنجي ، على حرب طنكريد صاحب أنطاكية ؛ واستنجد

١ ـ الخشت من أنواع النبل أو الخناجر .

طنكريد بالملك رضوان ، فأمدّه بعسكر حلب والتقوا ، فقُتِلَ من الفرنج جماعة .

وَوَصَل إلى جَاولي من أخبره أنَّ الفرنج يريدون الاجتماع عليه فمال على أصحابه من الفرنج وقتل فيهم ، وهرب بعد أن قتلهم عن آخرهم وهلك جميع رجالة طنكريد وأكثر خيله .

وعاد إلى أنطاكية وعاد عسكر حلب إلى رضوان ، فتسلَّم بالس من أصحاب جَاولي ، وخرج بيمند من بلاده ومعه خلق عظيم ، ثم عاد وتوفي سنة أربع وخمسمائة ، وكفي المسلمون شره .

وفي سنة ثلاث وخمسمائة ، كاتب السُّلطانُ الأمير سكمان القطبي صاحب أرمينية ومودود صاحب الموصل ، يأمرهما بالمسير إلى جهاد الفرنج ، فجمعَا وسارا ، ووصل إليهما نجمُ الدّين إيلغازي بن أرتق في خلق كثير من التّركمان ، فرَحَلوا إلى الرّها فنَزَلُوا عليها وأحدقُوا بها في شوّال من هذه السَّنة .

فاتّفق الفرنج كلّهم ، وأزالوا ما كان بينهم من الشَّحناء ، وكان المسلمون في جمعٍ عظيمٍ ، فتصافى طنكريد وبغدوين وابن صنجيل بعد النّفار ، وقصدوا إنجادَ مَنْ بها مِن الفرنج ، وأحجموا عن العبور إلى الجانب الجَزري لكثرة مَنْ به مِنْ عساكر المسلمين .

فاندفع المُسلمون عن الرّها إلى حرَّان ليعبر الفرنج ويتمكنوا منهم ، وَوَصلهم عَسْكر دمشق .

فحين عبر الفرنج وَبَلَغَهُم خَبَرُ المُسْلِمينَ عادوا ناكصين على الأَعْقَاب إلى شاطىء الفُرات ، فنهض المُسلمون في أَثرهم ، وأدركتهم خيول الإسلام ، وقد عبر الأجلادُ مِنهم ، فغنم المُسلمون جُلَّ سَوَادِهِم وأكثَرَ أثقالهم ، واستباحوهم قتلاً وأسراً وتغريقاً في الماء ، وأقام المُسلمون بإزائهم على الفرات .

ولما عَرف الملكُ رضوان هزيمة الفرنج عن الرّها خرج ليتسلَّم أعمالَ حلب الّتي كانت في أيدي الفرنج ، وقَاتَل ما امتنعَ عَلَيْهِ منها ، وأغار على بلد أنطاكية وغَنِم منها ما يجلّ قَدْرُه ، وكان بينه وبينهم مهادنَةٌ نَقَضَها .

وكاتب الفرنجُ رضوان يُوهِنُونَ رأْيَه في نقض الهُدنة ، فلمّا تحقَّق سلامة طنكريد وعَوْدَهُ رَجَع إلى حلب .

وعاد الفرنجُ مِن الفُرات فقصدوا بلد حلب من شرقيّها ، فقتلوا مَنْ وَجَدُوا ، وسَبَوْا أهل النّقرة ، وأخذوا ما قدروا عليه من المواشي .

وهَرَب النَّاسُ نحو بالس ، وعاد طنكريد ، فنزل على الأثارب[1] ، وطيَّب قلوبَ الفلاَّحين مِن المسلمين ، وأمَّنَهم ، ونَصَب على الأَثارب المناجيق وكبشاً عظيماً ينطح به شرفات الأسوار فيلقيَها ، فخرب أسوارها وكان يسمع نطحه مِنْ مَسيرة نِصف فرسخ ،

وبذل رضوانُ لطنكريد في الموضع عشرين ألف دينار على أن يَرْحل فامتنع، وقال: «قد خسرتُ ثلاثين ألف دينار، فان دفعتُموها إليَّ وأطلقتم

١ ـ الأثارب من قرى محافظة حلب ـ منطقة جبل سمعان .

كلَّ عبد بحلب منذ ملكت أنطاكية فأنا أرحل» . فاستعظم ذلك واتّكل على الحوادث .

وكان الّذي بقي في القلعة مقدار مائة دينار ، وأخذها الخازِنُ على وَسطِه ، وهَرَب إلى الفرنج ، وهرب جماعَةٌ أخر من المسلمين إليهم فكتبوا إلى الملك رضوان كتاباً على جناح طائر يُخبرونه بما تجدَّد من قُوَّة الحصار وقلَّة النفقة وقَتْلِ الرّجال ، وأَرْسَلوا الطَّائر فسقط في عسكر الفرنج ، فَرَمَاهُ أَحَدُهم بنُشَّابَةٍ فقَتَلَهُ .

وحُمِلَ الكِتابُ إلى طنكريد ، ففرح وقويت نفسه ، وَبَذل رضوان المَال المطلوب له على أن يكون أقساطاً ويضع عليه رَهَائنَ فَلَمْ يَفْعَل ، ويَئِسَ مَنْ في الأثارب من نجدةٍ تصل إليهم فسلّموها إلى طنكريد في جمادى الآخرة منها ، وأمن أهلها وخرجوا منها .

ثم صالح رضوان على عشرين ألف دينار وعشرة رؤوس من الخيل ، وقبضها وعاد إلى أنطاكية .

ثم عاد وخرج إلى الأثارب ، وقد أدركت الغلّة ، وضعفتْ حلب بأخذِ الأثاربِ ضَعْفاً عظيماً ، وطلب من حلب المقاطعة التي قررها على حلب وأسرى من الأرمن كان رضوان أخذهم وقت إغارته على بلد أنطاكية ، والفرنج على الفرات ، فأعادهم إليه ، وطلب بعضَ خيل الملك رضوان فأعطاه ، وطلب حُرم الفلاَّحين المسلمين من الأثارب ، وكانوا وقت نزول طنكريد على الأثارب حصلوا بحرمهم في حلب فأخرجهنّ إليه .

وضاق الأمْرُ بأهل حلب ، ومضى بعضهم إلى بغداد واستغاثوا في أيام الجمع ، ومنعوا الخطباء من الخطبة مستصرخين بالعساكر الإسلامية على الفرنج .

وقلَّت المغلَّات في بلد حلب ، فباع الملك رضوان في يوم واحد ستّين خربةً من بلد حلب لأهلها بالثَّمن البخس ، وطلب بذلك استمالتهم ، وأن يلتزموا بالمقام بها بسبب أملاكهم ، وهي ستّون خربة معروفة في دواوين حلب إلى يومنا هذا ، غير ما باعه في غير ذلك اليوم من الأملاك[1] .

ولذلك يَقال ان بَيْع الملك من أصحّ أملاك الحلبيين لأنّ المصلحة في بيعها كانت ظاهرةً لاحتياج بيتِ المال إلى ثمنها ، ولعمارة حلب ببقاء أهلها فيها بسبب أملاكهم .

ولما استصرخ الحلبيّون العساكِرَ الاسلامية ببغداد وكسروا المنابر ، جهّز السّلطانُ العساكِرَ للذبّ عنهم ، فكان أوّل مَنْ وصلَ مَوْدُود صاحب المَوْصل بعسكره إلى شَبَخْتَان ؛ ففتح تَلّ قُرَاد[2] وعدّة حُصون .

ووصل أحمديل الكُرديّ في عسكرٍ ضخم وسكمان القُطبي ، وعبروا إلى الشّام فنزلوا تلّ باشر ، وحصروها حتى أشرفت على الأخذ ، وكان طنكريد قد أخذ حصن بِكِسْرَائيل[3] ، وتوّجه مُغيراً على بلد شَيّزر ونازلها .

١ ـ أملاك بيت المال . المدخل ص ٣٨٩ .
٢ ـ تل قراد حصن في بلاد الأرمن قرب شبختان . معجم البلدان .
٣ ـ غير اسمه الآن إلى بني قحطان ، كان يقع أمام جبلة . معجم البلدان .

وشرع في عمارة تلّ ابن مَعْشر[1] وضرَب اللَّبن وحَفَر الجِبَاب ليُودع بها الغلَّة ، فلما بلغه نزول عساكر السُّلطان محمَّد على تلّ باشر رحل عنها . وأمّا العساكر الإسلامية النازلة على تلّ باشر فانّ سكمان مات عليها ـ وقيل : بَعْدَ الرَّحيل عنها ـ وأشرف المسلمون على أخذها فتطارح جوسلين الفرنجي صاحِبُها على أحمديل الكردي وحَمَل إليه مالاً ، وطلب منه رحيل العسكر عنه فأجابه إلى ذلك .

وكتب الملكُ رضوان إلى مودود وأحمديل وغيرهما : «إنني قد تلفتُ وأريدُ الخُروج مِنْ حلب ، فبادِرُوا إلى الرَّحيل» ، فَحَسَّنَ لهم أحمديل الرَّحيل عنها بعد أن أشْرَفُوا على أخذها ، ورحلوا إلى حلب ، فأغلق رضوان أبوابَ حلب في وجوههم ، وأخذَ إلى القلعة رهائنَ عنده من أهلها لئلاَّ يسلّموها .

ورتَّب قوماً من الجند والباطنيَّة الّذين في خدمتِه لحِفْظِ السُّور وَمَنْع الحلبيين من الصّعود اليه ، وبقيَت أبوابُ حلب مُغْلَقَةً سَبْعَ عشرة ليلة .
وأقام النَّاسُ ثلاث ليالٍ ما يجدون شيئاً يقتاتون به ، فكثرت اللّصوص مِن الضّعفاء ، وخاف الأعْيَان على أنفسهم .
وساء تدبيرُ الملك رضوان فأطلق العوامّ ألسنتهم بالسبّ له وتعييبه ، وتحدثوا بذلك فيما بينهم ، فاشتد خوفه من الرعية ان يسلموا البلدَ ، وَتَرَكَ الرُّكُوبَ بينهم .

١ ـ هو العشارنة في محافظة حماة في منطقة الغاب .

وضبر[1] انسانٌ من السُّور فأمَر به فضُربَتْ عُنقه، وَنَزَعَ رَجُلٌ ثوبَهُ ورَماهُ إلى آخر فأَمَر به فأُلقي مِن السّور إلى أسفل ، فعاثَ العسكَر فيما بقي سالماً ببلد حلب بعد نهب الفرنج له وسبيهم أهله .

وبَثَّ رضوان الحراميّة تتخطّف مَن ينْفَرِدُ مِنَ العساكر فيأخذونه ، فرحلوا إلى معرَّة النُّعمان في آخر صَفَر من سنة خمس وخمسمائة ، وأقاموا عليها أياماً وَوَجَدُوا حولها ما ملأ صدورهم مِمّا يحتاجون إلَيْهِ من الغَلَّات وما عجزوا عن حمله .

وكان أتابك طغتكين قد حَصَل معهم ، فراسل رضْوان بعضَهم حتى أفسد ما بينه وبينهم ، فظهر لأتابك منهم الوحشة ، فصار في جملة مَوْدود صَاحب الموصل ، وثَبَتَ له مَوْدُود ، وَوَفَى له .

وحَمل لهم أتابك هَدَايا وتُحَفاً من مَتَاع مصر ، وَعَرَض عليهم المسير إلى طرابلس والمعونة لهم بالأموال ، فلم يعرجوا ؛ وسار أحمديل وبرسق بن برسق وعسكر سكمان نحو الفُرات ، وبقي مودود مع أتابك ، فرحلا من المعرّة إلى العاصي فنزلا على الجَلَالي .

فنَزَل الفرنج أفامية : بغدوين وطنكريد وابن صنجيل ، وساروا لِقَصد المسلمين ، فخرج أبو العساكر بْنُ منقذ من شيزر بعسكره وأهله ؛ واجتمعُوا بمودود وأتابك وساروا إليهم .

---

١ ـ أي قفز .

ونَزَلُوا قبلي شَيزر والفرنج شماليّ تَلّ ابن معشر ، ودارت خيولُ المسلمين حولهم ومنعوهم الماء ، والأتراك حول الشرائع بالقسي تَمنعهم الورد ، فأصبحُوا هاربين سائرين ، يَحمي بعضهم بعضاً .

ووصل إلى حلب في هذه السّنة في شهر ربيع الأوّل من سنة خمس وخمسمائة ، رجل فقيهٌ تاجر كبير يقال له أبو حرب عيسى بن زيد بن محمد الخُجَندي ، ومعه خمسمائة جمل عليها أصناف التجارات ، وكان شديداً على الباطنيَّة أَنْفَق أموالاً جليلة على من يقاتلهم ، وكان قد صحبه من خراسان باطنيّ يُقال له أحمد بن نصر الرَّازي وكان أخوه قد قتله رجال الخُجَندي .

فدخل أحمد إلى حلب ، ومضى[1] إلى أبي طاهر الصَّائغ العجمي رئيس الباطنيَّة بحلب ، وكان متمكّناً من رضوان ، فصعد إلى رضوان ، وأَطْمَعُه في مال الفقيه أبي حرب ، وأراه أنَّه بريءٌ من التّهمة في بابه ، إذ هُوَ معروف بعداوة الباطنيَّة .

فطمع رضوان في ماله وطار فرحاً ، وبعث غلماناً له يتوكّلوا به ، وسَيَّر أبو طاهر الباطنيّ معه جماعة من أصحابه، فبينا أبو حرب الخجندي في غلمان له يستعرض أحمالَهُ وحوله جماعةٌ من مماليكه وخَدَمِهِ إذ هجم عليه أحمد بن نصر الرّازي في جماعةٍ من أصحاب أبي طاهر الباطنيّ ، فقال لغلمانه : «أليس هذا رفيقنا ؟» فقالوا : «هُوَ هُوَ» . فوقعوا عليه فقتلوه .

---

١ ـ في ترجمة رضوان ـ المدخل ص ٣٩٠ : «واستدل على أبي الفتح الصائغ رئيس الملاحدة بها» .

وقُتل الجماعةُ الّذين معه من أصحاب أبي طاهر الباطنيّ العجمي بأسرهم ، ثم قال أبو حرب : «الغِياث بالله من هذا الباطنيّ الغادر ، أمنّا المخاوفَ ورآنا إلى أن جئنا إلى الأمنة ، فبعث علينا من يقتلنا» .

فأخبر رضوان بذلك فأبلس ، وصار السّنة والشيعة إلى هذا الرجل ، وأظهروا إنكار ما تمّ عليه . وعبث أحداثُهم بجماعة من أحداث الباطنيَّة فقتلوهم ، ولم يتجاسر رضوان على إنكار ذلك .

وكاتَبَ الفقيه أبو حرب أتابكَ طغتكين وغيره من ملوك الاسلام فتوافت رسلُهم إلى رضوان يُنكرون عليه ، فأنكر وحَلَف أنه لم يكن له في هذا الرجل نيّة .

وخرج الرّجل عن حلب مع الرّسل فعاد إلى بلده ، ومكث الناس يتحدّثون بما جرى على الرجل ونقص في أعين الناس ، فتوثّبوا على الباطنيَّة من ذلك اليوم .

ثم إنَّ رضوان حين ضعف أمره بحلب رأى أن يستميل طغتكين أتابك إليه ويستصلحه ، فاستدعاه إلى حلب عندما أراد أن ينزل طنكريد على قلعة عزاز ، وبذل له رضوان مقاطعة حلب عشرين ألف دينار وخيلاً وغير ذلك ، فامتنع طنكريد من ذلك ، فوصل طغتكين أتابك ، وتعاهدا على مساعدة كلّ منهما لصاحبه بالمال والرّجال .

واستقرّ الأمر على أن أقام طغتكين الدَّعوة والسكَّة لرضوان بدمشق ، فلم يظهر منه بعد ذلك الوفاء بما تعاهدا عليه .

ومات طنكريد في سنة ستّ وخمسمائة ، واستخلف ابن اخته روجار وأدّى إليه رضوان ما كان يأخذه منه طنكريد وهو عشرة آلاف دينار .

ووصل مودود إلى الشّام ، واتفق مع طغتكين على الجهاد ، وطلب نجدة من الملك رضوان فتأخّرت إلى أن اتّفق للمسلمين وقعةٌ استظهروا فيها على الفرنج ، ووصل عقيبَها نجدة للمسلمين من رضوان ، دون المائة فارس ، وخالف فيما كان قرّره وَوَعد بِهِ ، فأنكر أتابك ذلك ، وتقدَّم بابطال الدَّعوة والسكَّة باسم رضوان من دمشق في أوّل ربيع الأوّل من سنة سبع وخمسمائة .

وكان رضوان يحب المال ، ولا تسمح نفسه باخراجه حتّى كان أمراؤه وكتَّابه ينبزونَهُ بأبي حبَّة ، وهو الَّذي أفسد أحواله وأضعف أمره .

ومَرِضَ رضوان بحلب مرضاً حادّاً وتوفي في الثَّامن والعشرين من جُمادى الآخرة سنة سبع وخمسمائة ، ودُفِن بمشهد الملك ، فاضّطرب أمرُ حلب لوفاته وتأسَّف أصحابهُ لفقده ، وقيل : إنَّه خلَّف في خزانتِه من العين والآلات والعُروض والأواني ما يبلغ مقداره ستّمائة ألف دينار .

وملك حلب بعده ابنهُ ألب أرسلان ، ويُعْرَفُ بالأخرس ، وعمرُهُ ستّ عشرة سنة ، وأمُّه بِنْتُ يَغي سيان صاحب أنطاكية ، وكان في كلامِه حَبْسَةٌ وتمتمةٌ فلذلك عُرف بالأخرس ، وكان مُتَهَوِراً قليل العقل ، ووضع عن أهل حلب ما كان والده جدّده عليهم من الرّسوم والمُكوس .

وقبضَ على أَخَوَيْهِ مَلك شاه ومُبارك ، وكان مُبارك من جاريةٍ وملك

شاه من أمّه ، فَقَتَلها ، وكذلك فعل أبوه رضوان بأخويه ؛ فانظر إلى هذه المُقابَلة العجيبة ، وقبضَ جماعةً من خواصّ والدِه فقَتَل بَعْضَهم ، وأخذ أموال الآخرين .

وكان المتولّي لتدبير أُمُوره خادمٌ لأبيهِ يقال له لؤلؤ اليايا ، وهو الذي أنشأ خانكاه[1] البلاط بحلب ، وكان قبل وصوله إلى رضوان خادماً لتاج الرّؤساء ابن الخّلال ، فدبر أسوأ تدبير مع سوء تدبيره في نفسه .

وكان أمرُ الباطنيَّة قد قَوي بحلب في أيّام أبيه ، وتابعهم خلقٌ كثيرٌ على مَذْهَبِهم طلباً لجَاهِهِم ، وصار كلُّ مَنْ أراد أن يحمي نفسُه من قَتْلٍ أَوْ ضَيْمٍ التجأ إليهم .

وكان حسام الدّين بن دملاج وَقْتَ وَفاة رضوان بحلب ، فصاروا مَعَهُ ، وصار ابراهيم العجمي الدّاعي من نُوَّابه في حفظ القُلَيْعة بظاهر بالنس .

فكتب السُّلْطان مُحَمَّد بن ملك شاه إلى ألب أرسلان وقال له : «كان والدُك يُخالفني في الباطنيَّة ، وأنتَ وَلَدِي فَأُحِبُّ أن تَقْتُلَهم» .

وشرع الرّئيس ابن بديع متقدّم الأحداث في الحديث مع ألب أرسلان في أمرهم ، وقرّر الأمر معه على الإيقاع بهم ، والنكاية فيهم ، فساعده على ذلك .

---

١ - بقاياها في سوق الصابون بحلب . انظر الآثار الإسلامية والتاريخية في حلب ص ٢٥١ - ٢٥٣ .

فقبض على أبي طاهر الصائِغ وقتله ، وقَتَل اسماعيلَ الدَّاعي وأخا الحكيم المنجِّم والأعيانَ من أهل هذا المذهب بحلب ، وقبضَ على زُهاء مائتي نفسٍ منهم .

وحَبَسَ بعضَهم واستصفَى أموالهم ، وشفع في بعضهم فَمِنْهم مَن أُطلق ومنهم مَنْ رُمي من أعلى القلعة ، ومنهم من قُتِل . وأفلتَ جماعةٌ منهم فتفرّقوا في البلاد ، وهرب إبراهيم الدَّاعي من القليعة إلى شيزر ، وخرج حسام الدين بن دملاج عند القبض عليهم فمات في الرقة .

وطلب الفرنج من ألب أرسلان المقاطعة التي لهم بحلب ، فدفعها إليهم من ماله ، ولم يكلّف أحداً من أهل حلب شيئاً منها .

ثمّ إنّ ألب أرسلان رأى أن المملكة تحتاج إلى مَن يدبّرها أحسن تدبير ، وأشار خدمُه وأصحابُه عليهِ بأنْ كاتَب أتابكَ طغتكين أمير دمشق ، ورغب في استعطافِه ، وسأله الوُصولَ إليهِ ليدبْر حلب والعسكر ، وينظرُ في مصالح دَولتِهِ ، فأجابه إلى ذلك ، ورأى موافقَتهُ لكونِه صبياً لا يخافه الكفّار ولا رأي له ، فدعا له على منبر دمشق بعد الدَّعوة للسُّلطان وضُربت السّكة باسمِه ، وذلك في شهر رمضان .

وأوجبت الصُّورةُ أن يخرج ألب أرسلان بنفسِه في خواصّه ، وقصد أتابك إلى دمشق ليجتمع معه ، ويؤكد الأمر بينه وبينه ، فلقِيه أتابك على مرحلتينْ ، وأكرمه ووصل معه وأنزله بقلعة دمشق .

وبالغ في إكرامه وخدمته والوقوفِ على رأسِه ، وحمل إليهِ دست ذهبٍ

وطيراً مرَصّعاً وعدّة قطع ثمينة ، وعدّة من الخيل ، وأكرم من كان في صحبته[1] .

وأقام بدمشق أيّاماً وسار في أوّل شوّال عائداً إلى حلب ، ومعه أتابك وعسكره ، فأقام عنده أياماً واستخلص كمشتكين البعلبكي مقدّم عسكره ، وكان قد أشار عليهِ بعض أصحابه بقبضِهِ ، وقبضِ جماعة من أعيان عسكره وقبض الوزير أبي الفضل بن الموصول ، ففعل ذلك ؛ فاستوهَب أتابك منه كمشتكين فوهَبه إيّاه .

وقَبَض على رئيس حلب صاعِد بن بديع ، وكان وجيهاً عند أبيهِ رضوان ، فصادَرَهُ بعد التّضييق عليهِ حتى ضرب نفسَهُ في السجن بسكين ليقتل نفسه ، ثمّ أطلقه بعد أن قرّر عليهِ مالاً ، وأخرجه وأهلَهُ من حلب ، فتوجّه إلى مالك بن سالم إلى قلعة جعبر .

وسلّم رئاسة حلب إلى ابراهيم الفراتي ، فتمكّن ولُقِّب ونُوّه باسمِه ، وإليهِ تُنْسَب عرصة ابنِ الفُرَاتي بالقُرب من باب العراق بحلب ، ثمّ رأى أتابك من سوء السيرة وفساد التدّبير مع التقصير في حقّه والاعراض عن مَشُورته ما أنكره ، فعاد من حلب إلى دمشق ، وخرجت معه أمّ الملك رضوان هرباً منه .

وساءت سيرةُ ألب أرسلان ، وانهمك في المعاصي واغتصاب الحُرَم

١ ـ انظر تاريخ دمشق لابن القلانسي ص ٣٠٢ ـ ٣٠٣ . ترجمة ألب أرسلان المنتزعة من بغية الطلب ـ في ملاحق الجزء الأول من المدخل ص ٢٩٤ ـ ٢٩٧ .

والقتل[1] ، وبَلَغَنا أنَّهُ خرج يوماً إلى عين المباركة متنزهاً ، وأخذ معه أربعين جارية ، ونَصَب خيمةَ ، ووطئهنَّ كلَّهن .

واستولى لؤلؤ اليايا على الأمر ، فصادر جماعة من المتصرّفين ، وأعاد الوزارة إلى أبي الفضل بن الموصول ، وجمع ألب أرسلان جماعةً من الأمراء ، وأدخلهم إلى موضع بالقلعة شبيهٍ بالسّرداب لينظروه ، فلمّا دخلوا اليه قال لهم : «ايش تقولون في مَنْ يضرب رقابكم كلكم ههنا ؟» فقالوا : «نحن مماليكك وَبِحكمك» . وأخذوا ذلك منه بطريق المزاح ، وتضرّعوا له حتى أخرجهم .

وكان فيهم مالك بن سالم صاحب قلعة جعبر فلمّا نزل سار عن حلب وتَركها خوفاً على نفسه .

وخاف منه لؤلؤ اليايا فقتله بفراشه بالمركز بقلعة حلب ، في شهر ربيع الآخر من سنة ثمان وخمسمائة ، وساعَدَهُ على ذلك قراجا التركي وغيره .

ولزم لؤلؤ اليايا قلعة حلب وشمس الخواصّ في العسكر ، ونصب لؤلؤ أخاً له صغيراً عمره ست سنين ، واسمه سلطان شاه بن رضوان ، وتولّى لؤلؤ تدبير مملكته ، وجَرَى على قاعدته في سوء التّدبير .

وكاتب لؤلؤ ومقدّمو حلب أتابك طغتكين وغيره يستدعونهم إلى حلب لدفع الفرنج عنها ، فلم يجب أحد منهم إلى ذلك .

---

١ ـ الذي أبلغ ابن العديم هذا هو بدران بن حسين بن مالك بن سالم العقيلي . المدخل ص ٢٩٥ .

ومن العجائب أن يخطب الملوك لحلب فلا يوجد من يرغبُ فيها ، ولا يمكنه ذبّ الفرنج عنها ، وكان السبب في ذلك أنَّ المقدّمين كانوا يريدون بقاء الفرنج ليثبت عليهم ما هُم فيه .

وقلّ الربيع ببلد حلب لاستيلاء الفرنج على أكثر بلدها والخوف على باقيه ، وقلّت الأموالُ واحتيج إليها لصرفها إلى الجُند ، فباع لؤلؤ قرىً كثيرةً من بلدِ حلب ، وكان المتولّي بيعَها القاضي أبا غانم محمّد بن هبة الله بن أبي جرادة قاضي حلب ، ولؤلؤ يتولّى صرفَ أثمانها في مصالحِ القلعة والجندِ والبَلَد .

وقَبض لؤلؤ على الوزير أبي الفضل بن الموصول ، واستأصَل مالَه ، وسار إلى القلعة فأقام عند مالك بن سالم ، واستوزَر أبا الرَّجاء بن السَّرطان الرحبي مدَّة ، ثم صادره وَضرَبه ، وطلب أبا الفضل بن الموصول فأعاده إلى الوزارة بحلب .

وجاءت زلزلة عظيمة ليلةَ الأَحد ثامن وعشرين من جُمَادى الآخرة من سنة ثمان بحلب وحرّان وأنطاكية ومرعش والثّغور الشامية ، وسقط برجُ بابِ أنطاكية الشّمالي وبَعضُ دُور العَقَبة وقَتَلَت جَمَاعةً .

وخربت قلعة عَزاز ، وهرب واليها إلى حلب ، وكان بينه وبين لؤلؤ مواحشَةٌ ، فحين وَصل إلى حلب قَتَله وأنفذ إليها مَنْ تداركها بالعمارة والتَّرميم ، وخرب شَيءٌ يسيرٌ في قَلعة حَلب ، وخرب أكثر قلعة الأَثارب وَزَرْدنا .

وقيل : إنَّ مؤذن مسجد عزاز كان حارساً بالقلعة ، فحرس وَنَام على بُرج المسجد بالقلعة ، فلما جاءت الزَّلْزَلَةُ ألقته على كتف الخَندق وهو نائمٌ لم يعلم بها ، فاجتاز به جماعةٌ فظنّوه ميّتاً ، فأخذوا عنه اللّحاف فانتبه وسألهم فأخبروه بما جرى .

وصار شمس الخواصّ مقدَّمَ عسكر حلب ، ومتولّي أقطاع الجند ، وكانت سيرتُه إذ ذاك صالحة ، وكان لؤلؤ في أوّل أمره مقيماً بقلعة حلب لا ينزلُ منها ويدبّر الأمور ، فكتب إلى السُّلطان على سبيل المُغَالَطة يبذل له تَسْليم حلب والخزائن التي خلّفها رضوان وولده ألب أرسلان ، ويطلب إنفاذ العساكر إليه .

فوصل برسق بن برسق مقدّم الجيوش ومنكوبرس[1] وغيرهم من أمراء السّلطان في سنة تسع وخمسمائة ، فتغيّرت نيّة لؤلؤ الخادم عمّا كان كتب به إلى السّلطان ، وكتب إلى أتابك طغتكين يستصرخه ويستنجده ، ووَعَده تسليم حلب اليه ، وأن يعوّضه طغتكين من أعمال دمشق ، فبادر إلى ذلك[2] .

ووصل حلب ، والعساكر السّلطانيّة ببالس متوجّهين إلى حلب فرحلوا

١ ـ كذا بالأصل وجاء في الكامل لابن الأثير ج ٨ ص ٢٧١ : «برسق بن برسق صاحب همذان ومعه الأمير جيوش بك والأمير كنتغدي» .
٢ ـ لم يذكر ابن القلانسي هذا الخبر لكن أكده ابن الأثير ج ٨ ص ٢٧١ مع المزيد من التفاصيل الهامة .

منها إلى المعرّة ، ووصلهم الخبر أنَّ ذلك اليوم وصل أتابك إلى حلب فأعرضوا عن حلب ، وساروا إلى حماة فتسلَّموها .

وتسلّموا رفنية[1] من أولاد علي كرد ، وسلَّموها إلى خير خان بن قراجا ، فخاف طغتكين من عساكر السلطان أن يَقصِدَ دمشق ، فأخذ عسكر حلب ، وشمس الخواص ، وايلغازي بن أرتق ، واستنجد بصاحب أنطاكية روجار وغيره مِنْ مُلُوك الفرنج ونزلوا أجمعين أفامية .

ونزلت العساكر السّلطانية أرض شيزر ، وجعل أتابك يريّث الفرنج عن اللّقاء خوفاً من الفرنج أن يكسروا العساكر السّلطانية فيأخذوا الشّام جميعه ، أو ينكسروا فتستولي العساكر السّلطانية على ما في يده .

وخاف الفرنج وضاقتْ صدورُ أمراء عسكر السّلطان من المصابرة ، فرحلوا ونزلوا حصن الأكراد وأشرف على الأخذ ، فاتّفق أتابك والفرنج على عَوْدِ كلّ قوم إلى بلادهم ، ففعلوا ذلك .

وتوّجه أتابك إلى دمشق ، وعاد عسكر حلب وشمس الخواص إلى حلب ، فقبض عليه لؤلؤ الخادم واعتقله فعادت عساكر السُّلطان حينئذٍ عن حصن الأكراد ، وساروا إلى كفر طاب ، وحصروا حصناً كان الفرنج عمروه بجامعها وأحكموه ، فأخذوه وقتلوا مَنْ فيه ، ورحلوا إلى معرّة النّعمان .

---

١ ـ ما تزال بقايا رفنية قائمة قرب بلدة بعرين (بارين) على الطريق الذي يصل مصياف بحمص ، هذا وما أورده كل من ابن القلانسي ص ٣٠٦ وابن الأثير ج ٨ ص ٢٧٢ بشأن رفنية يخالف رواية ابن العديم هذه ، ويوضح ابن الأثير أن الذي استولى عليه عسكر السلطان ثم آل إلى خير خان هو مدينة حماه ، وهو الصحيح .

وأمن الترك وانتَشَرُوا في أعمال المعرّة واشتغلوا بالشُّرْب والنَّهب وَوَقع التّحاسُدُ فيما بينهم ، ووصل رسول من بزاعا مِن جِهَة شمس الخواص يستدعيهم لتسليم بزاعا ، ويقول إنّ شمس الخواص مقبوض عليه عند لؤلؤ الخادم ، ولؤلؤ يكشف أخبار العساكر ويطالع بها الفرنج ، ورحل برسق وجامدار صاحب الرّحبة نحو دانيث[1] يطلبون حلب ، فنزل جامدار في بعض الضّياع .

ووصل برسق بالعسكر إلى دانيث بكرة الثلاثاء العشرين من شهر ربيع الآخر ، والفرنج يعرفون أخبارهم ساعةً فساعة ، فَوَصَلهم الفرنج ؛ وقصدوا العسكر من ناحية جبل السّماق ، والعسكر على الحال التي ذكرناها من الانتشار والتفرُّق ، فلم يكن لهم بالفرنج طاقة ، فانهزموا من دانيث إلى تلّ السّلطان[2] .

واستتر قوم في الضّياع مِن العسكر فَنَهبهم الفلاّحون وأطلقوهم ، وغنم أهل الضّياع مِمّا طرحوه وقتَ هزيمتهم ما يفوتُ الإحصاء ، وأُخذ الكفَّار مِنْ هذا ما يفوتُ الوصف ، وغَنموا من الكراع والسّلاح والخيام والدَّوَابّ وأَصناف الآلات والأَمتعة ما لا يحصى ، ولم يقتل مُقَدَّمٌ ولا مذكورٌ .

---

١ ـ دانيث بلد من أعمال حلب بين حلب وكفر طاب . معجم البلدان .
٢ ـ تل السلطان موضع بينه وبين حلب مرحلة نحو دمشق ، وفيه خان ومنزل للقوافل وهو المعروف بالفنيدق . معجم البلدان . ويبعد تل السلطان عن ادلب ٤٧ كم .

وقُتِل منَ المُسلمين نحو خمسمائة وأُسر نحوها واجتمع العَسْكر على تلّ السّلطان ، ورحلوا إلى النّقرة مخذولين مختلفين ، ونزلوا النّقرة ؛ وكان أونبا[١] قد طلع أصحابه إلى حصن بزاعا ، وكان قد تقدَّم العسكر إليها ، فلمّا بَلَغَهم ذلك نَزَلوا ووصلوا إلى العسكر .

وتوجَّهت العساكر إلى السّلطان وإلى بلادهم ، وَوَصل طغتكين مِنْ دمشق فتسلم رفنية[٢] مِمَّن كانوا بها ، وأطلق لؤلؤ شمسَ الخواص من الاعتقال ، وسلَّم إليه ما كان أقطعه من بزاعا وغيرها ، فوصل إلى طغتكين فردّ عليه رفنية ، وعاد إلى دمشق واستصحبه معه .

وأما لؤلؤ الخادم فانَّه صار بعد مُلازمة القلعة يَنْزِلُ منها في الأحيان ويركبُ ، فاتّفق أنّه خرج في سنة عشر وخمسمائة بعسكر حلب والكِتاب إلى بالس ، وهو في صورة متصيّد ، فلمّا وصل إلى تحت قلعة نادر قتله الجُند[٣] .

واختلفَ في خُروجه ، فقيل : إنّه كان حَمَل مالاً إلى قلعة دَوْسَر ، وأودعه عند ابن مالك فيها ، وأراد ارتجاعه منه والعَوْد إلى حلب ، وكان السُّلطان قد أقطع حلبَ والرّحبة أق سنقر البرسقي[٤] ، فواطأ جماعة من

١ ـ كذا وعند ابن الأثير ج ٨ ص ٢٧٢ «جيوش بك» .
٢ ـ يتوافق هذا مع ما أورده ابن القلانسي ص ٣٠٦ وابن الأثير ص ٢٧٢ .
٣ ـ في ترجمة ألب أرسلان بن تتش روى ابن العديم «فلما وصل إلى دير حافر» ، وأورد ابن الأثير ج ٨ ص ٢٧٩ أنه قتل سنة ٥١١ هـ وأعطى المزيد من التفاصيل ، ومن أجل قلعة نادر وهي قرب بالس انظر الأعلاق الخطيرة ـ قسم حلب ـ ج ٢ ص ٢٥ . هذا ودير حافر مركز ناحية تابعة لمنطقة الباب في محافظة حلب ، ويبعد عن حلب مسافة ٥٠ كم .
٤ ـ للبرسقي ترجمة جيدة في بغية الطلب ص ١٩٦٣ ـ ١٩٧٠ .

أصحابه على أن أظهروا مفارقته ، وخدموا لؤلؤاً وصاروا من خواصِهِ ، وواطَأهم على قتل لؤلؤ ، وأمَّل أنَّهم إذا قتلوه تصحّ له أُقطاع حلب فقتلوه .

وسار بعضُهم إلى الرّحبة فأعلمه ، فأسرع أق سنقر البرسقي المسير إلى حلب من الرّحبة ، وانضاف بعض عسكره إلى بقيّة القوم الّذين قتلوه ، وطمعوا في أخذ حلب لأنفسهم ، وساروا إليها فسبقهم ياروقتاش الخادم - أحد خدم الملك رضوان - ودَخَلَ حَلب .

وقيل : إنّ لؤلؤاً كان قد خاف فأَخذ أمواله ، وخرج طالباً بلاد الشّرق للنجاة بأمواله ، فلمّا وصل إلى قلعة نادر قال سنقر الجكرمشيّ : «تتركونه يقتل تاج الدَّولة ويأخذُ الأَموال ويمضي !» وصاح بالتّركية : «أرنب أرنب» فضربُوه بالسِهام فَقَتلُوه .

ولَمَّا خَرَج عن حلب أقامت القلعة في يد آمنة خاتون بنت رضوان يَوْمَيْنْ إلى أن وَصَل ياروقتاش[1] الخادم مُبادراً فدخل حلب وَنَزَل بالقَصْر ، وأخرجَ عسكر حلب ، وأوقع بالّذين قَتَلُوا لؤلؤاً ، وارتجع ما كان أُخذوه من عسكر حلب وانهَزَم بعضُ مَنْ كان في النّوبة فالتقَوا أَق سنقر في بالس في أوَّل محرّم سنة إحدى عشرة وخمسمائة .

ولم يتسهَّل للبرسقي ما أَمّلَ وراسل أهل حلب ومَنْ بها في التّسليم إليه فلم يجيبوه إلى ذلك .

١ ـ ياروقتاش هو شمس الخواص المتقدم ذكره ، انظر ابن الأثير ج ٨ ص ٢٧٩ .

وكاتب ياروقتاش الخادم نجم الدّين إيلغازي بن أُرتُق لِيَصِل مِنْ ماردين ويدفع أق سنقر ، وكاتَب روجار صاحب أنطاكية أيضاً فوصل إلى بلد حلب ، وأخذ ما قَدر عليه من أعمال الشّرقية ، فحينئذٍ أيس البرسقيّ من حلب ، وانصرف من أرض بالس إلى حمص فأكرَمَه خير خان صاحبُها ، وسار معه إلى طغتكين إلى دمشق فأكرمه ، ووعده بانجاده على حلب .

وَهادَنَ ياروقتاش صاحبَ أنطاكية روجار ، وحمل إليه مالا وسلّم إليه حصن القُبَّة ، ورتّب مسيرَ القوافل من حلب إلى القبلة عليه ، وأن يؤخذ المكس منهم له .

ثم إنّ ياروقتاش طلع إلى قلعة حلب ، وعزم على أن يعمل حيلةً يوقعها بالمقدّمين ويملكها مثل لؤلؤ ، فقَبض عليه مقدّمو القلعة بأمر بنات رضوان بعد تمام شهر من ولايته ، وأخرجوه من حلب وَوَلّوا في القلعة خادماً من خدم رضوان .

وردَّ أمر سلطان شاه وتقدمة العسكر وتدبير الأمور إلى عارض الجَيْش العميد أبي المعالي المحسن بن الملحّى ، فدبّر الأُمور وساسها ، وضعفت حلب وَقَلَّ ارتفاعُها وخربت أعمالُها .

ووصل إيلغازي بن أرتق إلى حلب فأنزلوه في قلعة الشّريف ، ومنعوه من القلعة الكبيرة ، واستولى على تدبير الأمور وتربية سلطان شاه في سنة إحدى عشرة وخمسمائة ، وسلّموا اليه بالس والقليعة .

وقبض على أبي المعالي بن الملحّى ، وقصر ارتقاع حلب عما يحتاج إليه ايلغازي والتّركمان الذين معه ، ولم ينتظم له حال ، واستوحش من أهل حلب وجُنْدها فخرج عنها إلى ماردين ، وبقيت بالس والقُليعة في يده ، وأخرج ابن الملّحى من الاعتقال وأُعيد إلى تدبير الأمور .

وأفسد الجُند الّذين ببالس في أعمال حلب فاستدعوا الفرنج ، وخرجَ بعضُ عسكر حلب ومعهم قطعةٌ من الفرنج وحصروها ، فوصل إيلغازي في جمع من التركمان إليها ، فعاد عسكر حلب والفرنح عن بالس وباعها لابن مالك ، وعاد إلى ماردين ، وبقي تمرتاش ولدُه رهينةً في حلب .

ووصل في هذه السّنة أتابك طغتكين وأق سنقر البرسقي إلى حلب ، وراسلَ أهلها في تسليمها فامتنعوا من إجابته ، وقالوا : «ما نُريد أحداً من الشّرق» وأنفَذوا واستدعَوا الفرنج من أنطاكية لدفعه عنهم ، فعاد أق سنقر إلى الرّحبة وأتابك إلى دمشق .

واشتدّ الغلاء بأنطاكية وحلب ، لأن الزّرع عَرِقَ ولَحِقَه هَوَاءٌ عند إدراكه أتلفَهُ ، وَهَرب الفلاّحون للخَوف ، واستدعى أهلُ حلب ابن قراجا من حمص ، فرتّب الأمور بها ، وحصّنها ، وسار إلى حلب ، ونزل في القَصر خوفاً من إيلغازي لِمَا كان بينهما[1] .

وخَرَجَ أتابك إلى حمص ، ونهب أعمالها وشَعَّثها ، وأقام عليها مُدَّة ، وعاد إلى

١ ـ كان خير خان قد أسر إيلغازي سنة ثمان وخمسمائة وذلك أثناء نزوله على حمص . انظر ابن القلانسي ص ٣٠٥ .

دمشق لحركة الفرنج ، وخرجت قافلةٌ من حلب إلى دمشق فيها تجار وغيرهم ، وحملوا ذَخائرهم وأموالهم لما قد أشرفَ عليه أهلُ حلب ، فلمّا وصلوا إلى القبّة نزل الفرنج إليهم ، وأخذوا منهم المكس ، ثم عادوا وقَبضوهم وما مَعَهم بأسرهم ، ورفعوهم إلى القبَّة ، وحملوا الرجال والنساء بعد ذلك إلى أفامية ، ومَعرَّة النّعمان ، وحبسوهم ليقرّوا عليهم مالاً .

فراسلهم أبو المعالي بن الملحى ورغّبهم في البقاء على الهدنة وأن لا ينقضوا العهد ، وحمل إلى صاحب أنطاكية مالاً وهدّية ، فردّ عليهم الأحمال والأثقال وغير ذلك ، ولم يعدم منه شيء .

وقوي طمعُ الفرنج في حلب لعدم النجد وَضَعْفها ، وغدروا ونقضوا الهدنة ، وأغاروا على بلد حلب ، وأخذوا مالاً لا يُحصيه إلّا الله ، فراسل أهل حلب أتابك طغتكين ، فوعدهم بالإنجاد ، فكسره جوسلين وعساكر الفرنج ، وراسلوا صاحب الموصل وكان أمرُه مضطرباً بعد عوده من بغداد .

ونزل الفرنج بعد عودهم من كسرة أتابك على عزاز ، وضايقوها وأشرفت على الأخذ ، وانقطعت قلوبُ أهل حلب إذ لم يكن بقي لحلب معونة إلّا من عزاز وبلدها ، وبقيّةُ بلد حلب في أيدي الفرنج ، والشرقيّ خراب مُجدب ، والقوتُ في حلب قليلٌ جداً ، ومكوك الحنطة بدينار ، وكان إذ ذاك لا يبلغ نصف مكوك بمكّوك حلب الآن ، وما سوى ذلك مناسب له .

ويئس أهل حلب من نجدةٍ تصلهم من أحد من الملوك ، فاتّفق رأيهم

على أن سيَّروا الأَعيانَ والمقدّمين إلى إيلغازي بن أُرْتُق ، واستدعوه ليدفع الفرنج عنهم وظنُّوا أنَّه يصل في عسكر يفرّج به عنهم ، وضمنوا له مالاً يقسطونه على حلب يصرفه إلى العساكر .

فوصل في جندٍ يسير والمدبّر لحلب جماعةٌ من الخدم ؛ والقاضي أبو الفضل بن الخشّاب هو المرجوع إليه في حفظ المدينة والنظر في مصالحها ؛ فامتنع عليه البلد ، واختلفت الآراء في دخوله ، فعاد فلحقه القاضي أبو الفضل بن الخشّاب وجماعة من المقدّمين ، وتلطّفوا به ولم يزالوا به حتَّى رجع .

ووصل إلى حلب ، ودخلها ، وتسلَّم القلعة ، وأخرج منها سائرَ الجند وأصحاب رضوان وأنزل سلطان شاه بن رضوان وبنات رضوان في دارٍ مِنْ دُورِ حلب .

وقبض على جماعةٍ ممّن كان يتعلّق بالخدم ويخدمهم ، وأخذ منهم ما كان صار إليهم من مال رضوان ومال الخدم الّذين استولَوْا على حلب بعده .

وراسل الفرنج في مالٍ يحمله عن عَزاز ليرحلوا عنها ، فلم يلتفتوا لقوّة أطماعهم في أمر الاسلام ؛ وكان إيلغازي يعجز بحلب عن قُوتِ الدَّواب ، وحلب على حدّ التّلف .

فلما عرف مَنْ بِعَزاز ذلك ويئسوا من دفع الفرنج سلّموها إلى الفرنج ، وراسلهم مَنْ بحلب في صُلْحٍ يستأنفونه معهم ، فأجابوا إلى ذلك لطفاً مِنَ

الله بهم ، على أن يسلّموا إلى الفرنج تلّ هراق ويُؤَدُّون القطيعة المستقرّة على حلب عن أربعة أشهر ، وهي ألف دينار ، ويكون لهم من حلب شمالاً وغرباً .

وزرعوا أعمال عَزاز وقوّوا فلاحها وعادوا إلى أنطاكية وصار يدخل إلى حلب ما يتبلّغون به من القُوت .

وسار إيلغازي إلى الشّرق ليجمع العساكرَ ويعودَ بها إلى حلب ؛ وسارت الرّسل إلى ملوك الشّرق والتّركمان يستنجدونهم .

وكان ابنُ بديع رئيس حلب عند ابن مالك بقلعة دَوْسر ، فنزل إلى إيلغازي ليطلب منه العود إلى حلب ، فلمّا صار عند الزّورق ليقطع الماء إلى العسكر وَثَب عليه اثنان من الباطنيّة فضرباه عدّة سكاكين ، وَوَقع ولداه عليهما فقتلاهما ، وقتل ابن بديع وأحد ولديه وجرح الآخر ، وحمل إلى القلعة فوثب آخر من الباطنيّة وقتله ، وحمل الباطني ليقتل فرمى بنفسِه في الماء وغرق . وتوجّه إيلغازي إلى ماردين ومعه أتابك ، وراسلا مَنْ بَعُد وقَرُب من عساكر المسلمين والتّركمان ، فجمعا عسكراً عظيماً ، وتوجّه إيلغازي في عسكر يزيد عن أربعين ألفاً في سنة ثلاث عشرة وخمسمائة ، وقطع الفُرات مِنْ عَبْرِ بَدايا وسنجه[1] .

وامتدت عساكرُه في أرض تلّ باشر وتلّ خالد وما يقاربهما ، يقتل

١ ـ سنجة نهر يجري بين حصن منصور وكيسوم وهما من ديار مضر ، وعلى هذا النهر قنطرة عظيمة . معجم البلدان .

وينهب ويأسر ، وغنموا كلّ ماقدروا عليه ، ووصل مِنْ رُسُلِ حلب مَنْ يستحثّه على الوصول لتواصلُ غارات الفرنج من جهة الأثارب واياس أهلها من أنفسهم ، فسار إلى مرج دابق ثمّ إلى المسلمية ، ثمّ إلى قنّسرين في أواخر صفر من سنة ثلاث عشرة وخمسمائة .

وسارت سراياه في أعمال الرّوج والفرنج يقتلون ويأسرون ، وأخذوا حصن قسطون في الرُّوج ، وجمع سرجال صاحب أنطاكية الفرنج والأرمن وغيرهم ، وخرج إلى جسر الحديد ، ثمَّ رحلوا ونزلوا بالبلاط بين جبلين ، مما يلي درب سرمدا ، شمالي الأثارب ، وذلك في يوم الجمعة التّاسع من شهر ربيع الأول .

وضجر الأمراء من طُول المقام ، وإيلغازي ينتظر أتابك طغتكين ليصل إليه ويتفقا على ما يفعلانه ، فاجتمعوا وحثُّوا إيلغازي على مُناجزة العدوّ فجدّد إيل غازي الأيمان على الأمراء والمقدّمين أن يُناصِحُوا في حربهم ، ويصابروا في قتال العدوّ ، وأنَّهم لا ينكلُون ويبذلون مُهَجَهم في الجهاد ، فحلفوا على ذلك بنفوسٍ طيبةٍ .

وسار المُسلمون جرايد ، وخلّفوا الخيام بقنّسرين ، وذلك في يوم الجمعة السَّادس عشر من شهر ربيع الأوّل ، فباتوا قريباً من الفرنج وقد شرعوا في عمارة حصن مطلّ على تل عفرين والفرنج يتوهّمون أن المسلمين ينازلون الأثارب أو زرْدَنا ، فما شعروا عند الصبح إلاّ ورايات المسلمين قد أقبلت ، وأحاطوا بهم من كل جانب .

وأقبل القاضي أبو الفضل بن الخشّاب يُحَرِّض النّاس على القتال ، وهو راكب على حَجر[1] وبيده رمحٌ ؛ فرآه بعض العسكر فازدراه وقال : «إنَّما جئنا من بلادنا تبعاً لهذا المعمّم !» فأقبل على الناس ، وخطبهم خطبة بليغة استنهض فيها عزائمهم ، واسترهف هممهم بين الصفَّين ، فأبكى النّاس وعَظُم في أعينهم .

ودار طغان أرسلان بن دملاج مِن ورائهم ونزل في خيامهم ، وقَتَل من فيها ونهبها ، وألقى الله النصر على المسلمين ، وصار من انهزم من الفرنج وقصد الخيام قُتل .

وحَمل التُّرك بأسرهم حملةً واحدةً من جميع الجهات صدقُوهم فيها ، وكانت السّهام كالجراد ، ولكثرة ما وقع في الخيل والسَّواد من السّهام عادت منهزمةً وغُلِبَت فُرسانها ، وطُحِنَت الرَّجالَةُ والأتباع والغلمان بالسّهام ، وأخذوهم بأسرهم أسرى .

وقُتِل سرجال في الحرب ، وفقد من المسلمين عشرون نفراً منهم سليمان بن مبارك بن شبل ، وسلم من الفرنج مقدار عشرين نفراً لا غير ، وانهزم جماعة من أعيانهم .

وقُتِل في المعركة ما يقارب خمسة عشر ألفاً من الفرنج ، وكانت الوقعة يوم السبت وقت الظهر ، فَوَصَل البشير إلى حلب بالنَّصر ، والمصافّ قائمٌ ،

١ ـ الحجر : الأنثى من الخيل . القاموس .

والنَّاس يصلُّون صلاة الظهر بجامع حلب ، سمعوا صيحةً عظيمةً بذلك من نحو الغرب ، ولم يصل أحدُ من العسكر إلى نحو صلاة العصر .

وأُحْرَق أهلُ القرى القتلى من الفرنج ، فوجد في رماد فارس واحدٍ أربعون نصل نشّاب ، ونزل إيلغازي في خيمة سرجال ، وحمل إليه المسلمون ما غَنِموه ، فلم يأخذ منهم إلَّا سلاحاً يُهديه لملوك الإسلام ، وردَّ عليهم ما حملوه بأسره .

ولمَّا حضر الأسرى بين يدي إيلغازي ، كان فيهم رجلٌ عظيم الخلقة مشتهراً بالقوّة ، وأسره رجلٌ ضعيفٌ قصيرٌ قليلُ السّلاح ، فلمَّا حضر بين يدي إيلغازي قال له التركمان : «أما تستحي يأسُرك مثل هذا الضّعيف وعليك مثل هذا الحديد ؟» فقال : «والله ما أُخذني هذا ، ولا هو مولاي وإنَّما أخذني رجلٌ عظيمٌ أعظم مني وأقوى ، وسلَّمني إلى هذا ؛ وكان عليه ثوب أخضر وتحته فرس أخضر»[1] .

وتفرّقت عساكر المسلمين في بلد أنطاكية والسويدية وغيرهما يقُتلون ويأسرون وينهبون ، وكانت البلاد مطمئنّة لم يبلغهم خبر هذه الوقعة ، فأخذ المسلمون من السَّبي والغنائم والدّواب ما يفوتُ الاحصاء . ولم يبقَ أحد من التّرك إلَّا امتلأ صدره ويداه بالغنائم والسَّبْي .

ولقي بعضُ السَّرايا بَغدوين الرويس وابنَ صنجيل في خيلهما بالقرب من جبلة ، وقد توجها لنصره سيرجال صاحب أنطاكية ، فأوقع بهم التّرك ،

١ـ أي أن آسره كان من الملائكة .

وقتلُوا جماعةً وغَنموا ما قدروا عليه ، وانهزم بغدوين وابنُ صنجيل ، وتعلّقوا بالجبال .

ورحل إيلغازي إلى أرتاح ، وبادر بغدوين فدخل أنطاكية ، وسلّمت إليه أختهُ زوجةُ سرجال خزائنَه وأمواله ، وقبض على أموال القتلى ودورِهم ، وأخذها وزوَّج نِساء القتلى بمن بقي ، وأثبتَ الخيلَ ، وجَمَعَ وَحَشدَ واستولى على أنطاكية ، ولو سبقه إيلغازي إلى أنطاكية لما امتنعت عليه .

ووصل أتابك إلى نجم الدِّين بِأرتاح ، فعاد ونزل الأثارب ، وهجم الرَّبَض ونهبه ، وقتل مَنْ قدر عليه ، وخرج أحداثٌ مِنْ حلبَ ونهبوا حصنها فطلبوا الأمان فأمّنهم بعد أن استأخذت ، وسيَّرهم إلى مأمنهم .

ورحل منها إلى زَرْدَنا وكانوا قد حصَّنوها وأحكموا عمارتها ، وقاتلها فطلبوا الأمانَ فأمّنهم ، وسيّرهم إلى أنطاكية فلقيهم بعضُ التّركمان ، فنهبوهم وقتلوا بعضهم ومَضَوا إلى أهلهم .

وكان صاحبُ زَرْدَنا لَمَّا بلغه منازلتها ، حَمَل بغدوين والفرنج على الخُروج لاستنقاذها ، وقد عرفوا تفرّق التّركمان بالغنائم وعودهم إلى أهلهم ، وأن إيلغازي في عدّةٍ قليلةٍ ، فبلغه ذلك فجدّ في قتالها حتى أخذها ـ كما ذكرناه ـ ورتَّب أصحابَه بها ، وتوجّه بمن بقي معه واستصحب معه عسكر أتابك وطغان أرسلان بن دملاج جرايد إلى دَانيث بعد أن ردَّ الأثقال والخيام إلى قنّسرين .

ووصل إلى دانيث في يومه ، فوجد الفرنج قد نَزَلوها يوم فتحِهِ زَرْدَنا في

مائتي خيمة وراجلٍ كثير ، وقيل إنّهم كانوا يزيدون على أربعمائة فارس سوى الرّجالة ، وذلك في رابع جُمادى الأولى ، والتَقَوْا فحمل صاحب زَردنا وأكثَرُ خيل الفرنج على عسكر دمشق وحمص وبعض التركمان ، فكشفوهم وانهزموا بين أيديهم ، وسار ليتدارك أمر زَردنا ، ويكبس الأثقال والخيامَ فعرف أخذها وتسيير الأثقال إلى قنّسرين فعاد .

وحمل بقيَّة المسلمين على بغدوين ومَنْ كان معه ، فقتلوهم وردّوهم على أعقابهم ، فحينئذ حمل إيلغازي وطغتكين وطغان أرسلان فيمن بقي من الخواصّ على الفرنج ، فكسروهم وقتلوا أكثر الرَّجالة وبعض الخيّالة ، وتبعوهم إلى أن دخلوا إلى حصن هاب ، وغنموا أكثر ما كان معهم .

وعاد نجم الدّين وطغتكين وطغان أرسلان إلى دانيث ، فوجدوا صاحب زَردنا والفرنج قد عادُوا بعد أن هَزَموا مَنْ كان بين أيديهم من المسلمين ومعرفة أخذ المسلمين زَردنا ، فلقوهم وقتلوا منهم جماعةً كثيرةً ، وانهزم الباقون إلى هاب ، وعاد التّرك بالظّفر والغنيمة .

وحين بلغ مَن بقنّسرين مع الأثقال هَزيمةَ من كان في مقابلة صاحب زَردنا رحلوا إلى حلب ، وانزعج أهلُ حلب غاية الانزعاج ، فوصلَهم البشيرُ بعد ساعتَيْن بما بَدَّل غمهم سروراً وهمّهم حبوراً .

وكان البشيرُ مِن الفرنج قد مضى إلى بلادهم وأخبر بكسرة صاحب زَردنا للمسلمين ، فزيّنوا بلادهم ، وأظهروا فيها الجذل والمسرَّة فوصل ابنُ

صنجيل مِن الكسرة بعد ذلك ، فانقلب سرورهُم حزناً وراحتهم تعباً وعناء .

وكان صاحب زَردنا ، وهو القومص الأبرص واسمُه رونارد[١] ، قد سقط عن فرسه ، فأدركه قومٌ من أهل جبل السمّاق من أهل مَرْيمين[٢] ، فقبضوه وحملوه إلى إيلغازي بظاهر حلب ، فأنفذه إلى أتابك طغتكين ، فقتله صبراً .

ثم دخل إيلغازي إلى حلب ، وأحضر الأسرى فأفرد أصحاب القِلاع والمقدَّمين وابنَ بيمند صاحب أنطاكية ورسول ملك الروم ونفراً يسيراً مِمَّن كان معه مال فأخذه وأطلقهم ، وبقي من الأسرى نيَّف وثلاثون رجلاً بذلوا من المال ما رَغِب عنه ، فقتلهم بأسرهم .

وتوجّه من حلب إلى ماردين في جُمادى الأولى من سنة ثلاث عشرة وخمسمائة ، ليجمع من التّركمان مَن يعود به إلى بلد حلب ، وكانت حلب ضعيفةً عن مقَامه فيها ، فخرج الفرنج إلى بلد المعرة ، فسبوا جماعةً ، وأدركهم جماعة من التّرك فرجعوا[٣] .

ثم خرج بغدوين من أنطاكية في عسكره ونزل على زور ، غربيّ البارة ـ وهو حصن كان لابن منقذ وسلّمه إليهم ـ ولما جَرَت الوقعة الأولى

١ ـ رينوماسيور . انظر حوله وليم الصوري ج ١ ص ٥٨٢ .
٢ ـ مريمين من قرى منطقة جسر الشغور محافظة أدلب وتبعد عن ادلب ٨٥ كم .
٣ ـ قارن وليم الصوري ج ١ ص ٥٧٩ ـ ٥٨٢ .

على البلاط عاد وأخذه ، فقاتله بغدوين ، وأخذه في جُمادى الأولى ، وأطلق مَنْ كان فيه .

ورحل إلى كفر روما[1] فأخَذَ حصنها بالسَّيف ، وقتل جميع من كان فيه ، ووصلوا إلى كفر طاب ، وقد أحرق ابن منقذ حصنها ، وأخذ رجاله منه خوفاً منهم ، فرمُّوه ، ورتّبوا رجالهم فيه ، وساروا إلى سرمين ومعرّة مصرين فتسلّموها بالأمان ، ثم نزلوا زَردنا ، ورحلوا عنها إلى أنطاكية .

ومع هذا فغارات عسكر حلب متواصلة على ما يقرب منهم ، وتعود بالظفَّر والغنيمة .

ووصل جوسلين إلى بغدوين خاله وَقْت أخذه سَرمين ، فأقطعه الرّها وتلّ باشر ، وسيّره إليهما ، فأسرى إلى وادي بطنان دفعتين ، وَإلى ما يلي الفُرات من جهة الشّام ، وقتل وسَبى ما يقارب ألف نفس ، وأغار جوسلين على منبج والنّقرة وأعمال حلب الشرقية ، وأخذ كلّ ما وجده من [دواب] ، وأسر رجالاً ونساء ، وأسرى إلى الرّاوندان[2] يتبع طائفةً من التّركمان كانت قطعت الفُرات ، فاقتتلوا فانهزم الفرنجُ وقُتل منهم جماعةٌ .

وفي صفر من سنة أربع عشرة وخمسمائة ، وقعت مشاحنة بين والي الأثارب بلاق بن اسحاق صاحب نجم الدين إيلغازي وبين الفرنج فأسرى ومعه جماعة من عسكر حلب إلى أنطاكية ، فلقيهم عسكر أنطاكية

١ ـ كفرروما قرية من قرى معرة النعمان . معجم البلدان .
٢ ـ الراوندان قلعة حصينة من نواحي حلب . معجم البلدان .

فكسرهم ، وعاد فتبعه الفرنج والتَقَوْا ما بين تُرمانين [1] وتلّ أعذى ، من فرضة لَيْلُون .

ووصل في هذه السَّنة إيلغازي بجمعٍ كثير من التُركمان ، وقطع الفرات في الخامس والعِشرين من صفر ، وتوجّه إلى تلّ باشر ، وأقام أياماً ولم يقاتلها ، ورحل إلى عزاز يريد أخذها ، ولم يمكّن أحداً من التركمان من تشعيث ضياعها ، ورحل إلى أنطاكية وأقام عليها يوماً واحداً ، وأقام في أعمال الرّوم أياماً يسيرة .

ثم خرج إلى قنسرين فتشوشّت قلوب التركمان لأنهم أمّلوا من الغنائم مثل السَّنة الخالية ، ولم يُقاتِل بهم حصناً ، ولا غنموا شيئاً ، وباع الأسرى الّذين أسرهم في الوقعة الأولى ، فعادوا إلى بلادهم ، وبالغوا في التشفّي من المسلمين والقتل والسَّبي .

وجَرى مِنْ نجم الدين إساءَةٌ إلى بعض التركمان على شيء أنكره عليهم ، فبالغ في هوانِهم وحلَق لحى بعضهم ، وقَطَع أعصابَهم ، فتفرّق عسكره وبقي نفرٌ يسيرٌ متفرّقين في أعمال حلب .

فطمع الفرنج وخرجوا إلى دانيث ، فوصل طغتكين وعسكرُ دمشق ، واجتمعوا مع إيلغازي في عسكر يُقاوم الفرنج ، فساروا إلى الفرنج ، وهم في ألف فارس وراجل كثير ، فدار التّرك حولهم فلم يخرج منهم أحدٌ ، وكرهوا

---

١ ـ ترمانين الآن أحدى قرى منطقة حارم ، محافظة ادلب ، وتبعد عن ادلب مسافة ٧٦ كم .

أن يعودوا على أعقابهم فتكون هزيمة ، فساروا نحو معرّة مصرين لا ينفرد منهم فارسٌ ولا راجل .

وأشرف التّرك على أخذهم ، ومَن خرج منهم قُتل ، ومن وقفت دابّته تركها وأخذت ، ولا يقدرون على الماء وهم على حالة الهلاك ، وإيلغازي وطغتكين يردّان الناس عنهم بالعصا ، فنزلوا بقرب معرّة مصرين ، وعاد التّرك عنهم إلى حلب ، وعادوا إلى أنطاكية .(١)

وصالحهم إيلغازي إلى آخر سنة أربع عشرة ، على أنَّ لهم المعرّة وكفرطاب والجبل والبارة ، وضِياعاً من جَبَل السُّمَّاق برسم هاب ، وضياعاً من ليلون برسم تل أعذى ، وضياعاً من بلد عَزاز برسم عزاز .

وسار نجم الدّين إيلغازي إلى ماردين ليجمع العساكر ، وهَدَم إيلغازي زَردنا في شهر ربيع الأوّل ، وكان أهل حلب قد شَكَوْا إليه تجديدَ رسوم جدّدت عليهم في أيّام رِضوان ، لم تجر بها عادة في دولة العرب ولا دولة المصريّين ولا في أيّام أق سنقر ، فأمر بكشفِ مقدارها ، فأخبر أنّها مبلغ اثني عشر ألف دينار في كلّ سنة ، فرَسم بحذفها ، وَوَقَّع لهم بذلك ، وكتب لوحاً بذلك ، وسَمَّره على باب الجامع وذلك في هذه السنَّة .

---

١ ـ مزج ابن العديم هنا كما فعل قبله ابن القلانسي ص ٣٢٠ ، وابن الأثير ج ٨ ص٢٩٤ ، الروايات حول معركة دانيث لسنة ٥١٣ هـ/ ١١١٩ م ومعركة دانيث الثانية لسنة ٥١٤ هـ/ ١١٢٠ م التي انتصر فيها الفرنجة حسب رواية وليم الصوري ج ١ ص ٥٨٣ ـ ٥٨٥ .

وخرج الفرنج فقبضوا على الفلاَّحين الّذين تحت أيديهم في هذه الأعمال من المسلمين وعاقبُوهم وصادروهم ، وأخذوا منهم من الأموال والغلاّت ما تقوَّوا به ، وكانت الضِّياع الّتي في أيدي المسلمين قد عمرت ، واطمأنوا بالصّلح ، فغدر اللّعين جوسلين ، وَخَرج فأغار على النّقرة والأحصّ ، واحتجّ بأنه أسر له والي منبج أسيراً ، وأنّه كاتب في ذلك فلم ينصف ، وذلك في شوّال ، وقتل وسبى وأحرق كل ما في النّقرة والأحص ؛ ونزل الوادي وعاثَ فيه .

ثم سار إلى تلّ باشر ، ثمَّ عاد وحشد وخرج وعمل كفعله الأول ، وأخذ في غارته الأولى المشايخ والعجايز والضعفاء ، فنزع عنهم ثيابهم وتركهم في البرد عُراةً ، فهلكوا بأجمعهم .

فأنفذ والي حلب إلى بَغدوين في ذلك ، وقال : «إنَّ نجم الدّين لم يترك هذه البلادَ خاليةً من العساكر إلاّ ثقةً بالصلح» فقال : «ما لي على جوسلين يد» . وتتابعت من جوسلين غاراتٌ متعددة .

ثم خرج الفرنج من أنطاكية عقيب ذلك ، وأغاروا على بلد شَيزر وأخذوا ما لا يُحصى ، وأسروا جمعاً ، وطلبوا المقاطعة التي جرَت عادتُهم قبل الوقعة بأخذها ، فبذل لهم ابنُ منقذ ذلك على أن يردّوا ما أخذوه ، فلم يجيبوه إلى ذلك ، فجعل لهم مالاً حمله ، وصالحهم إلى آخر السَّنة .

وهرب ملكُ العرب دبيس بن صدقة الأسديّ من المسترشد والسلطان محمود ، فوصل إلى قلعة جَعْبر ، فأكرمه نجم الدَّولة مالك ، وأضافَه ، ثمَّ

بسار إلى إيلغازي إلى ماردين ، وتزوَّج ابنَته فاشتدّ به وأجاره ، ووصل معه الأموال العظيمة والنّعمة الوافرة ، وحمل إليه إيلغازي ما يفوتُ الإحصاء .

فاشتغل إيلغازي بدبيس عن العبور إلى الشَّام ، فخرب بلد حلب ، واستولى الفرنج على معظمه، وأغار جوسلين إلى صِفِّين[1]، وسبى العربَ والتركمانَ ، ونزل بزاعا وقاتلها ، وأحرق بعضَ جدارها ، وصونع على شيَء ودخل بلده .

ثم هجم الفرنج ، في صفر من سنة خمس عشرة وخمسمائة ، الأثاربَ ، وقتلوا جماعةً وأحرقوها وأسروا من لم يعتصم بالقلعة .

ثم إنّهم في ربيع الآخر من السَّنة ، نزلوا نواز[2] ، وزحفوا إلى الأثارب ثانيةً ، وأحرقوا الدُّور والغلَّة ، وسار بغدوين ، وأغار على حلب ؛ وأخذ الناس والدواب من حاضر حلب ومن الفنادق ، وأخذ ما يجلّ قدرُه من الماشية ، وأسر نحواً من خمسين أسيراً ، وصاح الصائحُ فخرج نفرٌ يسيرٌ من العسكر فظفروا بالفرنج وخلّصوا المواشي ، وعاد الفرنج إلى أعمالهم .

وكان النائب بحلب شمس الدّولة سليمان بن نجم الدين إيلغازي ، وكان إيلغازي قد وَلّى رئاسةَ حلب ، في سنة أربع عشرة في رجب ، مكي بن

١ ـ تتوافق هذه الرواية مع ما أراده باختصار ابن القلانسي ص ٣٢٣ ، لكن ابن الأثير تحدث في ج ٨ ص ٢٨٩ عن نشاط جوسلين في منطقة طبرية ، وصفين هي منطقة أبي هريرة قرب الرقة حالياً .

٢ ـ قرية كبيرة في جبل السماق في بلد حلب . معجم البلدان .

قرناص الحمويّ ، وجعله بين يديه ، فكتب إلى ولده ونوّابه يأمرهم بصُلح الفرنج على ما يريدون ، فصالحوهم على سرمين والجزر ولَيلون وأعمال الشمال على أنها للفرنج ، وما حول حلب للفرنج منه النّصف ، حتى أنّهم ناصفوهم في رحى الغربية[١] وعلى أن يهدم تلّ هراق بحيث لا يبقى للفئتين فيه حكم ، وطلبوا الأثارب فأجاب إيلغازي إلى ذلك ، فامتنع مَن كان فيها من التّسليم فبقيت في أيدي المسلمين .

وكان الذي تولى الصلح جوسلين وجفري ، وكان بَغدوين في القدس ، فلما وصل رضي بذلك ، وشرع في عمارة دَيْر خراب قديم ، بالقرب من سرمدا[٢] ، وحصّنه ثمّ أطلقه لصاحب الأثارب سيرألان دمسخين .

وأمر إيلغازي ولده باخراب قلعة الشّريف المجدّدة بحلب وإخراج مَن كان فيها من جُند رضوان ، فأخرجهم شمس الدّولة وابن قرناص بعُذر الإغارة على أعمال الفرنج ، وأغلقت أبواب حلب في وجوههم ، وتولى الرئيس مكيّ بن قرناص خَرَابها في جُمادى الآخرة .

واستنجد الملك طغرل بإيلغازي بن أُرتق على الكرج وملكهم داود ، فسار إليه في عالمٍ عظيمٍ ومعه دُبَيْس بن صدقة ، فكسرهم المسلمون ، ودخلوا وراءهم في الدَّرب ، فكرَّ الكرج عليهم في الدَّرب ، فانهزم المسلمون

١ ـ لعلها كانت قرب باب الجنان .

٢ ـ سرمدا قرية تابعة لمنطقة حارم في محافظة ادلب وتبعد عن ادلب مسافة ٦٤ كم .

وتبعهم الكرج قتلاً وأسراً ، ونُهب لِدُبَيس ما مقداره ثلاثمائة ألف دينار ، ووصل مع نجم الدين إيلغازي إلى ماردين سالماً[1] .

وأنفذ إيلغازي إلى ابنه سليمان بحلب يلتمس منه أشياء ، فَقُبِّحَ بذلك عنده ، وقيل له أشياء أوجبت عصيانه على والده ، فعصى وأخرج الملوك : سلطان شاه وابراهيم وغيرهما من حلب ، فمضوا إلى قلعة جعبر ، ومدَّ يده في مصادرة أهل حلب وظلمهم والفساد .

وقيل : إن دُبيس بن صدقة لما سار مع إيلغازي إلى الكرج سأل إيلغازي في الطَّريق أن يَهب له حلب وأن يحمل إليه دُبيس مائة ألف دينار يجمع بها التركمان ويعاضده حتى يفتح أنطاكية ، فأجابه إيلغازي إلى ذلك ، وأخذ يده على ذلك .

فلما وقعت كسرة الكرج بدا له من ذلك ، فأنفذ إلى ولده سليمان ، وكان خفيفاً ، وقال له : «أظهر أنك قد عصيتَ عليّ حتى يبطل ما بيني وبين دُبيس» . فحمله الجهلُ على أن عصى ونابذ أباه ، ووافقه مكيّ بن قرناص والحاجب ناصر ، وهو شحنه حلب وغيرهما .

وقبض سليمان حجّاب أبيه فصفعهم وحلق لحاهم ، ومدّ يده إلى أموال النّاس وظلمهم ، فطمع الفرنج وقرَّبهم سليمان ، فنزلوا زردنا وعمروها لابن صاحبها كليام بن الأبرص .

---

١ ـ أوسع التفاصيل حول هذه الواقعة عند ابن الأزرق الفارقي انظر الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية ص ٥٢٣٠ ـ ٥٢٣٣ .

ثم سار الفرنج إلى باب حلب ، فكبسوا في طريقهم حاضرَ طَيّء وغيرها ، فخرج إليهم الحاجب ناصر والعسكر فكسروهم وقتلوا منهم جماعة .

وخرج بغدوين في جمادى الآخرة ، فنازل خناصرة ، وأخذها وخرّبها ، وحمل باب حصنها إلى أنطاكية ، ونزل برج سينا ففعل به كذلك ، وكذلك فعل بغيرهما من حصون النّقرة والأحصّ ، وسبى وأحرق ونهب .

وعاد فنزل صِلدع ـ على نهر قُويَق ـ وخرج إليه اتزز بن تُرك طالباً منه الصّلح مع سليمان ، فقال : «على شرط أن يعطيني سليمان الأثارب حتى أحفظه ، وأنا أذبّ عنه وأقاتل دونه» ، فقال له : «ما يجوز أن يسلّم ثغراً من ثغور حلب في بدوّ مملكته ، بل التمس غير هذا ممّا يمكن ليوافقك عليه» فقال له : «الأثارب لا يقدر صاحب حلب على حفظها ، فانّي قد عمرتُ عليها الحصون بما دارت ، وأنا أعلمكم أنّها اليوم تشبه فرساً لفارس قد عطبت يداها ، وللفارس هُري شعير[1] ، يعلفُها رجاء أن تبرأ ويكسب عليها ، فنفد هُري الشَّعير ، وعطبت الفرس ، وفاته الكسب» . ثمّ رحل نحوها ، فحصرها ثلاثة أيّام ، واتّصل به ما أوجب رحيله إلى أنطاكية .

ولما بلغ إيلغازي إصرار ولده على العصيان ضاقت عليه الأرض ، وأعمل في الوصول إليه وأخذ حلب منه ، فكاتبه أقوام وعرفوه أن ما بحلب من يدفعه عنها ، فسار حتى وصل إلى قلعة جعبر فضعفت نفس ابنه سليمان

١ ـ الهري بيت كبير يجمع فيه طعام السلطان . القاموس .

عن العصيان على أَبيه ، فأنفذ إليه من استحلفه على الصّفح عنه والاحسان إليه وإلى من حَسَّنَ له العصيان مثل ابن قرناص وناصر الحاجب ، وأكّد الأيمانَ على ذلك .

ودَخل حلب في أول شهر رمضان فخرج الناس للقائه ، ودخل إلى القصر ، وأحسن إلى أهل حلب ، وسامحهم بشيء من المكوس ، وصرَف الشّحنة الّذي كان يؤذي الناس في البلد .

وقبض على الرّئيس مكي بن قرناص وعلى أهله ، وشقَّ لسانه وكحله وأخذ ما وُجد له ، وسلّم أخاه إلى من يعذّبه ويستصفي ماله .

وكحل ناصر الحاجب ، فعني به مَنْ تولّى أمره فسلمت إحدى عينيه ، وعرقب طاهر بن الزائر ، وكان من أعوان الرئيس مكي .

وأعاد الملوكَ أولاد رضوان من قلعة جعبر إلى حلب ، وخطب بنت الملك رضوان ، وتزوّج بها ، ودخل بها بحلب ، وولّى رئاسةَ حلب سليمان بن عبد الرزّاق العجلاني البالسي ، وولّى ابن أخيه بدر الدَّولة سليمان بن عبد الجبار نيابته في حلب ، وصالح الفرنج مدّة سنة كاملة ، وأعطاهم من الضياع ما كان في أيديهم أيّام مملكتهم الأثارب وزردنا .

وسار في محرّم من سنة ستّ عشرة وخمسمائة إلى الشرق ليجمع العساكر ، فمات وزيرهُ بحلب أبو الفضل بن الموصول في صفر وولي الوزارة أبو الرجاء بن السرطان .

وعبر إيلغازي وبلك في سابع عشر شهر ربيع الآخر الفُرات ـ وكان بلك غازي ابن أخيه بهرام بن أرتق ، واستدعاه من أعمال الرُّوم وبيده عدة قلاع بالقرب من ملطية ـ وصحبتهما عدّة من التُّركمان دون ما جرت عادته باستصحابه ، فعزل أبا الرجاء بن السرطان عن الوزارة ، وقبض عليه لسعاية سُعي به إليه عليه .

ونَزلَ إيلغازي زَردنا ، نَزَل عليها في العشرين من جُمادى الأولى ، وحصرها أياماً وأخذ حوشها ، وكان صاحبها قد سمع حين عبر إيلغازي الفُرات أنه ينزلها ، فجمع أصحابه واستحلفهم على المصابرة من وقت نزولهم على مدَّة خمسة عشر يوماً ، وحلف هُو لهم على أن ينجدهم ، ومضى على أن يستجيش ، فان جازتْ هذه المدّة ولم يصلهم فإنّه يبتاعُ دماءهم بكلّ ما يملكه ، وقال لهم : «والله لكم عليّ من الشاهدين ، لئن لم يخلصكم إلا إسلامي إنْ قبلَه أسلمتُ على يديه لخلاصكم» .

وخرج حتى وصل إلى بغدوين صاحب أنطاكية ، وهو بأكناف طرابلس في حكومة بينه وبين صاحبها ، فأخبره بعبور إيلغازي وبما بلغه من قصده زَردنا ، فقال : «مذ حلفنا له وحَلَف لنا ما نكثْنا ، وحفظنا بلده في غيبته ونحن شيوخ ، وما أظنه يَغْدِرُ ، بل ربّما قصد طرابلس أو قصدني في القدس ، لأنني ما صالحته إلاّ على أنطاكية وأعمالها ، بل يجب أن تعود إلى أفامية وكفرطاب وتكشف ما يتجدد» . فعاد وكشف الأمر .

وسيّر إلى بغدوين فأعلمه بنزوله إلى زردنا ، فصالح صاحب

طرابلس ، وشرط عليه الوصول إليه . ووصل أنطاكية ، واستدعى جوسلين ، ونصب المسلمون مجانيق أربعة على زَردنا ، وأخذوا الفصيل الأوّل ، فَوَصل الفرنج بعد أربعة عشر يوماً من مُنازلة المسلمين لها ، فنزلوا تحت الدَّيْر .

وبلغ الخبر إيلغازي ، فترك زردنا وتوجّه نحوهم ، فنزل نَوَاز ، وطلب أن يخرج الفرنج من المضيق إلى السَّعة فلم يخرجوا ، فرحل إلى تلّ السّلطان ، وأتابك طغتكين في صحبته ، فخرج الفرنج فنزلوا على نواز وهجموا ربض الأثارب وأُحرقوا البيدر والجدارْ .

ودخل صاحبُها يوسف بن ميرخَان قلعتَها ، ونزلوا أُبين ، ورحلوا منها فنزلوا دانيث ، وأقاموا عليها فلم يصلهم أَحد ، فعادوا إلى بلادهم ، فعاد إيلغازي فنزل زَردنا ، وهجم الحوش الثّاني ، وقتل جماعة من الفرنج .

فعاد الفرنج ونزلوا تحت الدَّيْر ، فرحل إيلغازي إلى نواز ، وأَقام ثلاثة أَيام يزاحف الفرنج وهم لا يخرجون إلى الصَّحراء ، فاتّفق أَن أَكل إيلغازي لحم قديدٍ كثيراً وجوزاً أَخضر وبطيخاً وفواكهَ ، فانتفخ جوفُه وضاق نَفَسُه ، واشتدَّ به الأمر ، فرحل إلى حلب ، وتزايد به المرض ، فسار طغتكين إلى دمشق وبلك غازي إلى بلاده .

ودخل إيلغازي ليَتداوى بحلب ، فنزل القصر ، ولم يخلص من علَّته ، وخرج عسكر حلب في أَلف فارس إلى نُبل[1] من عمل عزاز ، ومعهم

١ ـ نبل من قرى أعزاز في محافظة حلب وتبعد عن حلب مسافة ٢٢ كم .

أمراء منهم دَولت بن قتلمش ، فنهبوا وعادوا ؛ فوقع عليهم عند حربل[1] كليام في أربعين فارساً ، فانهزم المسلمون وقتل منهم جماعة .

وفي شهر رجب من هذه السنة ، ظفر بلك غازي باللّعين جوسلين وابن خالته قلران[2] بالقُرب من سروج ، فأسرهما وأسر ابن أخت طنكريد ، وقد كان أسره في وقعة ليلون ، واشترى نفسه بألف دينار وأسر ستّين فارساً .

وطلب جوسلين وقلران أن يسلّما ما بأيديهما من المعاقل فلم يفعلا ، وقالا : «نحنُ والبلاد كالجمال والحدج ، متى عقر بعير حُوِّل رحلُه إلى آخر ؛ والذي بأيدينا قد صار بيد غيرنا» . فأخذهما ومضى إلى بلده .

وَوَصَل الفرنج بعد ذلك من تلّ باشر في شعبان ، وكبسوا تلّ قبّاسين[3] فخرج النائب ببزاعا مع أهلها فالتقوا ، وانهزم المسلمون وقتل منهم تسعون رجلا .

وأمّا إيلغازي فأقام أياماً ، وصَلح مِنْ مرضه ، وسار إلى ماردين ، ثم خرج منها يريد ميّافارقين ، فاشتدّ مرضُهُ في الطّريق ، وتوفّي بالقرب من ميّافارقين بقرية يقال لها «عجولين» ، في أول شهر رمضان من سنة ستّ عشرة وخمسمائة .

---

١ ـ حربل من قرى منطقة أعزاز في محافظة حلب وتبعد عن حلب مسافة ٢٠ كم .
٢ ـ أو في التفاصيل حول هذا الموضوع في نص السرياني المجهول ، انظر كتابي الحروب الصليبية ص ٤٨٤ ـ ٤٨٩ .
٣ ـ تل قباسين من قرى العواصم من أعمال حلب . معجم البلدان .

وملك ابنُه سليمان ميّافارقين ، وابنُه تمرتاش ماردين ، وابنُ أخيه بدر الدّولة سليمان بن عبد الجبار بن أُرتق حلب ، ولما سمع صاحب أنطاكية بوفاته حشد عسكره وجماعة من الأرمن ، ونزل وادي بزاعا ، وعاث فيه وأفسد ما قدر عليه ، وحمل إليه أهلُ «الباب» من الوادي مالاً وخدموه .

فرحل إلى بالس وقاتلها بالمنجنيقات ، وقرّروا على بالس مع ابن مالك مالاً يحمل إليه ، فأسرف في الطلب وكان ببالس جماعة من التركمان ومن خيل حلب ، فخرج أهلها والخيل التي عندهم واقتتلوا ، فقُتِل من الفرنج جماعةٌ من المقدّمين ، وظفر المسلمون أحسن ظفر .

فرحل بغدوين إلى الوادي وقد وصل [سليمان بن] إيلغازي فحصر البيرة[1] وتسلّم حصنها على أن يؤمّن أهلها على أنفسهم فأخذهم وسار بهم إلى أنطاكية ، وتتابعت غارات الفرنج حول حلب إلى آخر سنة ستّ عشرة وخمسمائة .

وولّى بدر الدَّولة سليمان الوزارة بحلب أبا الرَّجاء سَعْدالله بن هبةالله بن السّرطان ، في صَفَر ، بعدما قبضَ عليه إيلغازي ـ كما تقدم ذكره ـ

وجدّد بدرُ الدَّولة المدرسة الّتي بالزجَّاجين بحلب ، المعروفة ببني

---

١ ـ البيرة بلدة في تركية الآن ـ اسمها بيرة جك ـ على الفرات قرب سميساط . الأعلاق الخطيرة ـ قسم الجزيرة ـ ج ٢ ص ٧٦٩ .

العجمي[١] ، بإشارة أبي طالب بن العجمي . وذكر لي أنّه عزم على أن يقفها على الفرق الأربع ، ونقل آلتها من كنيسة داثرة كانت بالطَّحّانين بحلب .

وفي العاشر من شهر صفر من سنة سبع عشرة وخمسمائة ، استقر الصّلح بين بدر الدّولة صاحب حلب وبين بغدوين صاحب أنطاكية ، وعلى أن يسلّم بدر الدولة إليه قلعة الأثارب فتسلموها ، وصارت لصاحبها أولاً سير ألان دمسخين ، وبقيتْ في يده إلى أن مات ، وكانت في يد الحاجب جبريل بن برق ، فعوَّضه بدر الدَّولة عنها شِحنكيّة حلب .

وفي يوم الأربعاء تاسع عشر صفر ، سار بغدوين صاحب أنطاكية ليقاتل نور الدَّولة بلك بن بهرام بن أُرتق ، وكان محاصراً قلعة كركر[٢] ، فالتقيا على موضع اسمه «اروش» بالقرب من قنطرة سنجة ، فكسره نور الدَّولة بلك ، وأسره ، وقتل معظم عسكره ومقدّميه ونهب [خيمة] ، وفتح [كركر] بعد جُمعة ؛ وكان في دون عدّة الفرنج ، وجعل بغدوين في خرتبرت[٣] مع جوسلين وقلران .

ثمّ إنّ نور الدولة بلك عبر الفُرات ونزل على حلب وضايقها ، ونزل

١ ـ تسمى الآن بجامع أبي ذر في محلة الجبيلة . الآثار الإسلامية والتاريخية في حلب ص ١٩٢ .

٢ ـ كركر أو جرجر : حصن وبلدة قرب ملطية بين سميساط وحصن زياد (خرتبرت) غربي الفرات تولاها الخراب . اللؤلؤ المنثور ص ٥١٨ .

٣ ـ ويعرف أيضاً باسم حصن زياد بأرض أرمينية بين آمد وملطية . اللؤلؤ المنثور ص ٥٠٦ . ومن أجل الأسرى انظر وليم الصوري ص ٥٩٠ ـ ٥٩١ . مع نص السرياني المجهول .

من قبليِّها ، ثم انتقل إلى بانقوسا[١] وأقام أيّاما ، ورحل إلى أرض النّيرب ، وجبرين[٢] وأمر بحرق الغلّة وأخذ الدّواب .

ومضى قطعة من عسكره إلى حدادين[٣] ، فأخذ أحدهم عنزاً ، فرماه بعض فلاّحي الضيعة بسهم فقتله فحصرت مغارتها وأخذت بعد أن أمتنع أهلها من التسليم ، فدخّنوا على المغارة فاختنق بها مائة وخمسون .

وخنق في مغارة تلّ عبّود وتعجين جماعة وسبوا نساء عقر بوز[٤] وأولادها وباعوا بعضهم واستعبدوا بعضاً وأخذ لاهل حلب جشير[٥] خيل ثلاثمائة رأس ، وكان حريق الزرع من رهقات بلك وكان سبباً للغلاء العظيم .

وفي صباح يوم الثلاثاء ، غرة جمادى الأُولى من سنة سبع عشرة وخمسمائة ، تسلّم مدينة حلب سلّمها إليه مقلّد بن سقويق بالأمان ومفرّج بن الفضل ، ونودي بشعار بلك من عدّة جهات ، وكسر باب أنطاكية ، وأخربت ثلمة من غربي باب اليهود .

وفي يوم الجمعة رابع الشهر تسلّم القلعة وجلس بها بعدما نزل بدر الدَّولة منها بيوم ؛ وقرر حالها ، وأخرج سلطان شاه بن رضوان ، وسيّره إلى حرّان ، وكان قد فتحها في شهر ربيع الآخر خوفاً منه .

١ ـ بانقوسا : جبل في ظاهر حلب من جهة الشمال . معجم البلدان .
٢ ـ جبرين : قرية على باب حلب . معجم البلدان .
٣ ـ حدادين من قرى منطقة جبل سمعان في محافظة حلب وتبعد عن حلب مسافة ١٦ كم .
٤ ـ عقر بوز من قرى منطقة جبل سمعان في محافظة حلب وتبعد عن حلب مسافة ٣٦ كم .
٥ ـ الجشير : المواشي على أنواعها .

ثم أنّه سار إلى البارة وهجمها ، وأسر الأسقف الّذي بها وقيّده ، ووكّل به[1] ، ورحل إلى كفرطاب فغفل الموكّل به فهرب إلى كفرطاب ، فعزم على قتال حصنها واسترجاع الأسقف في يوم الثلاثاء الثاني عشرة من جمادى الآخرة .

فوصله مَنْ أخبره أن بغدوين الرّويس وجوسلين وقلران وابن اخت طنكريد وابن أخت بغدوين وغيرهم من الأسرى الّذين كانوا مسجونين بجب خرتبرت عاملوا قوماً من أهل حصن خرتبرت فأطلقوهم ، ووثبوا على الحصن فملكوه ، وأخذوا كلّ ما كان لنور الدَّوْلة فيه وكان جملة عظيمة ، فقال جوسلين : «كنا قد أشرفنا على الهلاك والآن فقد خلصنا ، والصواب أن نمضي ونحمل ما قدرنا عليه» . فما سمحتْ نفس بغدوين بترك الحصن والخروج منه[2] .

فاتّفق رأيهم على خروج جُوسلين ، وحلَّفوه على أنَّه لا يُغيّر ثيابه ولا يأكل لحماً ولا يشرب إلّا وقت القربان إلى أن يجمع جموع الفرنجة ويصل بهم إلى خرتبرت ويخلّصهم .

وأما بلك فإنّه سار حتّى نزل على خرتبرت ففتحه بالسَّيف في ثالث وعشرين من رجب ، وقتل كل من كان به من أصحابه الّذين كفروا نعمته

---

١ ـ قارن واستفد من السرياني المجهول .
٢ ـ مع نص السرياني المجهول انظر وليم الصورى ص ٥٩١ ـ ٥٩٥ .

ومن كان فيه من الفرنج ، ولم يستبق سوى بغدوين الملك وقلران وابن أخت بغدوين ، وسيّرهم إلى حرّان وحبسهم بها .

وأما جوسلين فمضى إلى القدس ، واستنجد بالفرنج ، ووصلوا تلّ باشر ، فسمعوا خبر فَتْح خرتبرت بالسّيف فسار إلى الوادي وقاتل بزاعا وأحرق بعض جدارها ثم أحرق الباب وقطع شجره ، وأحرق ما سواه من الوادي .

ثم نزل حيلان[1] ثم حلب من ناحية «مشهد الجفّ» من الشمال ؛ وخرّب المشاهد والبساتين ، وكسر الناس عند «مشهد طرود» بالقرب من بستان النقره؛ وقتل وسبى مقدار عشرين نفراً .

ثمّ رحل ونزل الجانب الغربي في البقعة السوداء ، وخرب مشاهد الجانب القبلي وبساتينه ، ونَبَش الضريح الذي بـ«مَشْهد الدكّة»[2] فلم يجد فيه شيئاً فألقى فيه النـار ، والحلبيّون في كل يوم يقاتلونه أشدّ قتال ، ويخسر معهم في كلّ حركة .

ثم رحل يوم الثلاثاء مستهلّ شهر رمضان ، ونزل السعدي[3] ، وقطع شجره ، وافترقوا منه وسار كلّ إلى بلده ، ووجد في منازلهم التي نزلوها نيف وأربعون حصاناً موتى ، ونبش النّاس منهم موتى جماعة .

---

١ ـ حيلان : قرية قرب حلب تخرج منها عين فوارة كثيرة الماء سيقت إلى حلب . معجم البلدان .

٢ ـ اسمه الآن الشيخ مُحَسِّن . الآثار الإسلامية ص ٥٦ ـ ٥٨ .

٣ ـ انظر الأعلاق الخطيرة ـ قسم حلب ـ ج ١ ص ٣٧١ ـ ٣٩٩ .

فأمر القاضي ابن الخشّاب بموافقة من مقدّمي حلب أن تهدم محاريب الكنائس الّتي للنصارى بحلب ، وأن يعمل لها محاريب إلى جهة القبلة وتغيّر أبوابها ، وتتّخذ مساجد : ففُعِل ذلك بكنيستهم العظمى ، وسُمّي مسجد السرّاجين[١] : وهو مدرسة الحلاويين الآن . وكنيسة الحدادين : وهي مدرسة الحدادين[٢] الآن ؛ وكنيسة بدرب الحراف : وهي مكان مدرسة ابن المقدّم[٣] . ولم يترك للنّصارى بحلب سوى كنيستين لا غير ، وهي الآن باقية .

هذا كلّه ونور الدّولة بلك غائب عن مدينة حلب في بلاده .

ثم إنَّ جوسلين خرج في تاسع عشر شهر رمضان إلى الوادي والنّقرة والأحصّ ، وأخذ ما يزيد عن خمسمائة فرس كانت في العزيب[٤] ، حتّى لم يبق بحلب من الخيّالة خمسون فارساً لهم خيل ، وأخذ من الدّواب البقر والغنم والجمال ما لا يُحصى ، وقتل وسبى وخرب ما أمكنه وعاد إلى تل باشر .

وخرج سير ألان في عسكر أنطاكية من الأثارب حتى وصل الحانوتة[٥] وحلفا ، وأخذ ما كان بقي من خيل في العزيب في الجانب القبليّ ، وذلك مقدار ثلاثمائة فرس ؛ وأخذ قافلة كانت واصلةً من شيزر بغلّة .

١ ـ هو الآن المدرسة الحلوية . الآثار الإسلامية ص ٥٢ ـ ٦٢ .
٢ ـ انظر الآثار الإسلامية ص ٢٥٢ .
٣ ـ هي في محلة الجلوم . انظر الآثار الإسلامية ص ٦٧ ـ ٦٨ .
٤ ـ العزيب من الإبل والشاء التي عزب عن أهلها في المرعى ، وإبل عزيب لا تروح على الحي . القاموس .
٥ ـ الحانوتة الآن اسمها تل الحواصيد ، وتبعد عن حلب مسافة ٦٠ كم .

ثم عبر جوسلين من الفُرات إلى شَبخْتان وأغار على تركمان وأكراد، فأخذ من الغنم والخيل ما يزيد على عشرة آلاف وسَبَى وقتل ، ومَنْ سَلِم له فرس من عسكر حلب يخرجون مع الحراميَّة ولا يقطعون الغارات على بلادهم ، ويحضرون الأسارى مرّة بعد أخرى .

ثم أغار جوسلين على الجَبُّول ، وما حولها ، وأخذ دوابّ كثيرة وتوجّه إلى دير حافر ، فخنق أهلها بالدّخان في المغاير ، وفتح المقابر ، وسلب الموتى أكفانهم .

وفي يوم الأربعاء سادس عشرين من ذي القعدة ، عبر بلك إلى الشَّام وقبض على نائب بهرام داعي الباطنية بحلب ، وأمر بإخراجهم من حلب فباعوا أموالهم ورحالهم وخرجوا منها .

ثم إنّ الأمير نور الدّولة بلك جمع العساكر ، ووصله أتابك طغتكين بعسكر دمشق وعسكر أق سنقر البرسقيّ ، وعبروا حتى نزلوا على عزاز ، وضايقوها بالحصار ، وأخذوا عليها نقوباً إلى أن سهل أمرها ، فتجمّع الفرنج وقصدوا ترحيل المسلمين عنها فالتقى الجيشان ، وهزم المسلمون ، وتفرّقوا بعد قتل مَن قُتل وأسر من أُسر .

وعمّر بلك حصن الناعورة بالنّقرة وحصن المغارة ـ على شطّ الفرات ـ وتزوّج بالخاتون فرخنده خاتون بنت رضوان ، وعَرَّس بها في ثالث وعشرين ذي الحجَّة من سنة سبع عشرة وخمسمائة .

وفي المحرّم من سنة ثماني عشرة وخمسمائة ، تنكّر بلك على رئيس حلب

سليمان العجلاني وجعل عليها رجلاً من أهل حرّان اسمه محمد بن سعدان ، ويعرف بابن سعدانة ، وكثر الأمن من الدّعّار وقطّاع الطريق عند قدوم بلك حلب ؛ وأقام الهيبة العظيمة ؛ وتقدّم بفتح أبواب حلب ليلاً ونهاراً ، وحسم مادّة أرباب الفساد . وقال للحارس : «إنّ عدتُ سمعتُك تصيح ضربتُ عنقَك !» .

ونقل بغدوين ومَنْ كان معه من حبس حرَّان ، فحبسه في قلعة حلب .

وتوّجه في شهر صفر فرقةٌ من أصحابه الأتراك إلى ناحية عَزاز فوقع بينهم وبين الفرنج وقعةٌ عند مشحلا[1] ، وظَفِر بهم الأتراك ، وقتلوا منهم أربعين رجلاً من الخيَّالة والرجّالة وأخذوا أسلابهم ، ووصل الباقون عَزاز وما فيهم إلاّ من جُرح جراحاً عدَّة .

وانقطع المطر في كانونين ونصف شباط ، ثم تدارك فأخصب الزرع واستغلّ الناس ، وكان بحلب غلاء شديد .

وفي صفر من سنة ثماني عشرة وخمسمائة ، تنكَّر نور الدولة بلك على حَسَّان بن كمشتكين صاحب منبج لشيء بلغه عنه، فأنفذ قطعةً من عسكره مع ابن عمه تمرتاش بن إيلغازي بن أرتق ، وتقدَّم إليهم أن يمروا على منبج ، ويطلبوا من حَسَّان أن يخرج معهم للإغارة على تلّ باشر فإذا خرج

١ ـ مشحلا : قرية من نواحي اعزاز من أعمال حلب . معجم البلدان .

قبضوه ، ففعلوا ذلك ، ودخلوا منبج ، وعصى عليهم الحصن ودخله عيسى أخو حسان .

وسُير حسان فحُبس في حصن بالو[1] بعد أن عوقب وعُرّي ، وسحب على الشوك فلم يُسلّمها أخوه .

وكتب عيسى إلى جوسلين : «إن وصلتَني وكشفتَ عني عسكر بلك سَلَّمْتُ إليكَ منبج» . وقيل : إنه نادى بشعار جوسلين بمنبج ، فمضى إلى بيت المقدس وطرابلس وجميع بلاد الفرنج ، وحشد ما يزيد على عشرة آلاف فارس وراجل ، ووصل نحو منبج ليرحل بلك عن منبج .

فسار إليه بلك لمّا قرب من منبج ، والتقيا يوم الاثنين ثامن عشر شهر ربيع الأوّل ، واقتتل العسكران ، وانهزم الفرنج ، وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون إلى آخر النهار .

وحمل فيهم بلك ذلك اليوم خمسين حملةً يفتك فيهم ويخرج سالماً ، يضرب بالسيوف ويطعن بالرماح ولا يكلم ، وعاد إلى منبج فبات مصلّياً مبتهلاً إلى الله تعالى لما جدده على يده من الظفر بالفرنج .

وأصبح يوم الثلاثاء تاسع عشر ربيع الأول قتل كلّ أسير أسره في الوقعة ، ثم زحف نحو الحصن ليختار موضعاً ينصب فيه المنجنيق ، وعليه بيضة وبيده ترس .

---

١ ـ بالو : قلعة حصينة وبلدة من نواحي أرمينية بين أرزن الروم وخلاط . معجم البلدان .

وكان قد عزم على أن يستخلف ابنَ عمه تمرتاش بن إيلغازي على حصار منبج ، ويطلع منجداً لأهل صور ، فإنَّ الفرنج كانوا في مضايقتها[١]، وفي تلك المضايقة أخذوها، فبينا كان بلك قائماً يأمر وينهى إذ جاءه سهم من الحصن ، وقيل : إنّه كان من يد عيسى فوقع في ترقوته اليسرى فانتزعه وبصق عليه ، وقال : «هذا قتل المسلمين كلهم» ، ومات لوقته .

وقيل : بقي ساعات وقضى نحبه ـ رحمه الله ـ وحُمل إلى حلب ، ودفن بها قبليّ مقام ابراهيم[٢] ـ عليه السَّلام ـ.

ووصل حسام الدين تمرتاش بن إيلغازي إلى حلب يوم الأربعاء العشرين من شهر ربيع الأوّل ، ودخل القلعة ونصب علمه ، ونادى الناس بشعاره .

وسار سليمان بن إيلغازي من ميّافارقين إلى خرتبرت وحصون بلك ، وهي نيّف وخمسون موضعاً فتسلّمها .

وسار داود بن سكمان ، فأخذ حصن بالو وأطلق حسَّان بن كمشتكين فعاد إلى منبج .

فأمّا تمرتاش فإنَّه لمَّا ملك حلب ألهاه الصّبى واللعب عن التشمير والجدّ والنظر في أمور الملك ، ففسدت الأحوال ، وضعف أمر المسلمين بذلك ،

---

١ ـ انظر ابن القلانسي ص ٣٣٦ ـ ٣٣٧ .
٢ ـ اسمه الآن مقام الصالحين . الآثار الإسلامية ص ٥٢ ـ ٥٣ .

واستوزر أبا محمّد بن الموصول، ثم عزله وصادره في رجب من سنة ثماني عشرة واستوزر أبا الرَّجاء بن السَّرطان ، وولى الرئاسة بحلب فضائل بن صاعد بن بديع .

وسيّر إلى حرَّان فحمل منها سلطان شاه بن رضوان ، وكان بلك أسكنه بها ؛ فاعتقله في دار بقلعة ماردين وكان فيها طاقة فتدلّى منها بحبل وهربَ إلى دارا ، ثم رحل منها إلى حصن[1] كيفا إلى داود بن سكمان .

وفي العشر الأواخر من ربيع الأول سار نائب جوسلين من الرها وأغار على ناحية شبختان ونهبها فسار إليه نائب تمرتاش عمر الخاص وكان نائبه وربيب أبيه إيلغازي وركب خلفه في ثلاثمائة فارس فلحقه على مرج اكساس، فقاتله وهزمه وقتله ، وقتل أكثر من كان معه من الفرنج ، وعاد غانماً ، وأنفذ رؤوسهم وما غنمه إلى تمرتاش إلى حلب .

وولاّه تمرتاش شحنكية حلب ، وهو المدفون في القُبَّة التي مقابل باب مشهد ابراهيم ـ عليه السلام ـ واسمه مكتوب على جهاتها الأربع .

وولّى قلعة حلب رجلاً يقال له عبد الكريم .

وفي غرة جمادى الأولى من هذه السنة استقرَّ الأمر بين الملك بغدوين صاحب أنطاكية ـ وكان في سجن بلك بحلب ـ وبين تمرتاش بن إيلغازي على تسليم الأثارب وزردنا والجزر وكفرطاب ، وعلى تسليم عزاز وثمانين ألف دينار ، وقدَّم منها عشرين ألف دينار .

١ ـ بلدة عظيمة مشرفة على دجلة بين آمد وجزيرة ابن عمر . اللؤلؤ المنثور ص٥٠٧ .

وحلف على ذلك وعلى أن يُخْرِجَ دُبيْس بْنَ صَدَقَة[١] من النَّاس ، وكان قد وصل دبيسٌ منهزماً من المسترشد بعد أن كسره المسترشد ، وقتل خلقاً من عسكره فترك بلاده ، وحمل ما قدر عليه من العين والعروض على ظهور المطايا ؛ ووفد على ابن سالم بن مالك بن بدران إلى قلعة دوسر ، واستجار به فأجاره ، وغاضب المسترشد والسلطان محموداً في أمره .

وكاتب دُبَيْس قوماً من أهل حلب ؛ وأنفذ لهم جملة دنانير ، وسامهم تسليمها إليه ، وكشف ذلك رئيسها فضائل بن صاعد بن بديع ، فأطلع على ذلك تمرتاش بن إيلغازي ، فأخذهم وعذّبهم وشنق بعضهم ، وصادر بعضاً ، وأحرق بعضاً .

وكان المتوسّط حديث بغدوين مع تمرتاش الأمير أبو العساكر سلطان بن منقذ ، وسيّر أولاده وأولاد إخوته رهناً عن بغدوين إلى حلب .

وفكّت قيود بغدوين وأحضر إلى مجلس تمرتاش ، وتواكلا وتشاربا وخلع عليه قبآء ملكياً وقلنسوة ذهب وخفافاً وراناً[٢] ؛ وأُعيد عليه الحصان الذي كان أخذه منه بلك يوم أسره ، فركبه ، وسار إلى شيزر يوم الأربعاء رابع جُمادى ، فبقي عند أبي العساكر حتى أحضر جماعة رهناً على الوفاء بما شرطه لتمرتاش وهم : ابنته ، وابن جوسلين ، وغيرهما من أولاد الفرنج ، وعدّتهم اثنا عشر نفراً ، وحمل العشرين ألف دينار التي عجّلها .

---

١ ـ لدبيس ترجمة مفيدة في بغية الطلب ص ٣٤٧٨ ـ ٣٤٩٣ .
٢ ـ ما يشد حول الساق .

وقبض صاحبُ شيزر الرَّهائن ، وأطلق بغدوين من سجن شيزر ، في يوم الجمعة سابع عشر شهر رجب ، فخرج ـ لعنة الله ـ وغدر بتمرتاش وأنفذ إليه يقول : «البطريك الذي لا يمكن خلافه سألني عما بذلت ، وما الذي استقرّ ، فحين سمع حديثَ عزاز وتسليم حصنها منّي أبى ، وأمرني بالدفع عنها وقال : إنّ خطيئتك تُلزمني ، ولا أقدر على خلافه» . فتردّدت الرُسل بينهما فلم يستقرّ على قاعدة .

وخالط دبيس جوسلين وبغدوين ، وصافاهم وصافوه بوساطة الأمير مالك بن سالم صاحب قلعة جعبر ، واتّفق دبيس والفرنج على قواعد تعاهدوا عليها منها أن تكون حلب لدبيس والأموال والأرواح للفرنج مع مواضع من بلد حلب تكون للفرنج ؛ وتقدّم دبيس إلى مرج دابق فخرج إليه حسام الدّين تمرتاش فكسره .

وسار تمرتاش من حلب عندما علم بغدر الفرنج به إلى ماردين ، في الخامس والعشرين من شهر رجب ، ليستنجد بأخيه سليمان بن إيلغازي وبجمع العساكر ، وبقي بنو مُنْقِذ رهائن بقلعة حلب عند تمرتاش ، وأولاد الفرنج رهائن عند أبي العساكر بن منقذ بشيزر .

والرسل مع هذا تتردَّدُ بين تمرتاش وبغدوين إلى أن عادت الرسل في ثامن عشر شعبان مخبرة بنقض الهدنة ، وبخروج بغدوين إلى أرتاح قاصداً النزول على حلب .

ورحل بغدوين من أرتاح حتى نزل على نهر قويق وأفسد كلَّ ما كان

عليه ، ثمّ رحل فنزل على باب حلب ، في يوم الاثنين السادس والعشرين من شعبان ، وهو السادس من تشرين الأوّل .

وخرج دبيس وجوسلين من تلّ باشر ، وقصدا ناحية الوادي ، وأفسدا القُطْنَ والدُخْن ، وسائر ما كان به وقوّم ذلك بمائة ألف دينار ، ورحلا ونزلا مع بغدوين على حلب ، ووصل إليهم الملك سُلْطَان شاه بن رضوان .

ونزل بغدوين مقدّم الفرنج من الجانب الغربي من حلب في الحلبة ، ونزل جوسلين على طريق عزاز وما يجاوره يمنة ويسرة . ونزل دبيس وسلطان شاه بن رضوان ممايلي جوسلين من الشّرق ؛ وفي صحبة دبيس عيسى بن سالم بن مالك .

ونزل يغي سيان بن عبد الجبَّار بن أُرتق صاحب بالس ممايلي دبيس من الشّرْق ، وكانت عدّة الخيم ثلاثمائة : للفرنج مائتا خيمة ، وللمسلمين مائة خيمة .

وأقاموا على حلب يزاحفونها ، وقطعوا الشجر وخربوا مشاهد كثيرة ، ونبشوا قبور موتى المسلمين ، وأخذوا توابيتهم إلى الخيم وجعلوها أوعيةً لطعامهم ، وسلبوا الأكفان ، وعمدوا إلى من كان من الموتى لم تنقطع أوصاله ، فربطوا في أرجلهم الحبال ، وسحبوهم مقابل المسلمين .

وجعلوا يقولون : «هذا نبيّكم محمد» وآخر يقول : «هذا عليّكم» وأخذوا مصحفاً من بعض المشاهد بظاهر حلب وقالوا : «يا مسلم أبصر

كتابكم». وثقبه الفرنجي بيده، وشدَّة بخيطين، وعمله ثفرا[1] لبرذونه؛ فظل البرذون يروثُ عليه، وكلّما أبصر الروث على المصحف صَفَّق بيديه وضحك عجباً وزهواً.

وأقاموا كلّما ظفروا بمسلم قطعوا يديه ومذاكيره ودفعوه إلى المسلمين؛ والمسلمون يفعلون بمن يأسرونه من الفرنج كذلك.

وربّما شنق المسلمون بعضهم، ويخرج الغزاة من باب العراق، ويسرقونهم من المخيم، ويقطعون عليهم الطّرق، ويقتلون ويأسرون. ويصيح المسلمون على دبيس من الأسوار: «دبيس، يا نحيس». والرسل تتردد بينهم في الصّلح، ولا يستتب إلى أن ضاق الأمر بالمسلمين جدّاً.

وكان بحلب بدر الدَّولة سليمان بن عبد الجبّار والحاجب عمر الخاص، ومعهما مقدار خمسمائة فارس، والذي يتولّى تدبيرها وهو في مقام الرئاسة القاضي أبو الفضل بن الخشّاب، وتولّى حفظ المكان وبذل المال والغلال.

فاتفقوا على أن سيَّروا جدّ أبي قاضي حلب القاضي أبا غانم محمد بن هبة الله بن أبي جرادة ونقيب الأشراف وأبا عبدالله بن الجلي فخرجوا ليلاً، ومضوا إلى تمرتاش إلى ماردين مستصرخين إليه ومستغيثين به فوجدوه وقد مات أخوه سليمان بن إيلغازي صاحب ميافارقين في شهر رمضان، وسار تمرتاش إلى بلاده ليملكها، واشتغل بملك تلك البلاد عن حلب.

١ ـ الثفر: الجلدة التي توضع تحت الذيل ويربط بها حلس الدابة.

وكانت الرسلُ مترددةً بينه وبين أق سنقر البرسقيّ صاحب الموصل في اتّفاق الكلمة على قصد الفرنج وكشفهم عن حلب ؛ فاشتغل بهذا الأمر عن هذا التقرير ، والحلبيون عنده يمنّيهم ويمطلهم .

ولما خرج الحلبيُّون من حلب بلغ الفرنج ذلك فسيَّروا خلفهم من يلحقهم ، فلم يدركهم وأصبحوا في صباح تلك اللَّيلة وصاحوا إلى أهل حلب : «أين قاضيكم ؟ وأين شريفكم ؟» فأُسْقِط في أيديهم إلى أن وصل منهم كتابٌ بخبر سلامتهم .

وبقي الحلبيّون عند تمرتاش يحثّونه على التَّوجّه إلى حلب ، وهو يعدهم ولا يفعل ، وهم يقولون له : «نريد منكَ أن تصلَ بنفسك ، والحلبيون يكفونك أمرهم» .

فضاق الأمر بالحلبيّين إلى حدٍّ أكلوا فيه الكلاب والميتات ، وقلَّتِ الأقواتُ ، ونفد ما عندهم ، وفشا المرض فيهم ، فكان المرضى يئنّون لشدّة المرض، فإذا ضرب البوق لزحف الفرنج قام المرضى كأنما أنشطوا من عقال ، وزحفوا إلى الفرنج وردُّوهم إلى خيامهم ، ثم يعودون إلى مضاجعهم .

فكتب جدّي أبو الفضل هبة الله بن القاضي أبي غانم كتاباً إلى والده يخبره بما آل أمر حلب إليه من الجوع ، وأكل الميتات ، والمرض ؛ فوقع كتابه في يد تمرتاش فغضب وقال : «انظروا إلى هؤلاء يتجلَّدون عليّ ، ويقولون إذا وصلتَ فأهل حلب يكفونك أمرهم ، ويغرّرون بي حتى أصل في قلَّة ، وقد

بلغ بهم الضعف إلى هذه الحالة» .

ثمّ أمر بالتّوكيل والتّضيق عليهم ، فشرعوا في إعمال الحيلة والهرب إلى أق سنقر البرسقيّ ، ليستصرخوا به فاحتالوا على الموكّلين بهم ، حتى ناموا وخرجوا هاربين ، فأصبحوا بدارا[1] .

وساروا حتى أتو الموصل، فوجدوا البرسقي مريضاً مدنفاً، والناس قد مُنِعوا من الدّخول عليه إلّا الأطبّاء ، والفرُّوج يدقُّ له لشدّة الضعف ، ووصل إلى دبيس من أخبره بذلك ، فضرب البشارة في عسكره ، وارتفع عنده التكبير والتهليل ، ونادى بعض أصحابه أهل حلب : قد مات من أمّلتم نصره ، فكادت أنفس الحلبيّين تزهق .

واسؤذن للحلبيّين على البرسقيّ فأذن لهم ، فدخلوا إليه ، واستغاثوا به ، وذكروا له ما أهل حلب فيه من الضرّ ، فأكرمهم ـ رحمه الله ـ وقال لهم : «ترون ما أنا فيه الآن من المرض ، ولكن قد جعلتُ لله علي نذراً إن عافاني من مرضي هذا لأبذلنَّ جهدي في أمركم ، والذبّ عن بلدكم ، وقتال أعدائكم» .

قال القاضي أبو غانم قاضي حلب: فما مضى ثلاثة أيام بعد ذلك حتى فارقته الحمى ، فأخرج خيمته ، ونادى في العساكر بالتأهب للجهاد إلى حلب .

---

١ ـ مدينة الآن بتركية هي في لحف جبل بين نصيبين وماردين . معجم البلدان .

وبقي أياماً وعملَ العسكر أشغاله وخرج ـ رحمه الله ـ في عسكر قويّ ، فوصل إلى الرَّحبة ، وكاتب أتابك طغتكين صاحب دمشق ، وصمصام الدّين خير خان بن قراجا صاحب حمص .

ورحل إلى بالس ، وسار منها إلى حلب فوصلها يوم الخميس لثمان بقين من ذي الحجة من سنة ثماني عشرة .

ولما قرب من حلب رحل دبيس ناشراً أعلامه البيض إلى الفرنج عند قربه من حلب ، وتحوّلوا إلى جبل جَوْشَن كلّهم ، وخرج الحلبيّون إلى خيامهم فنهبوها ونالوا منها ما أرادوا .

وخرج أهل حلب والتقَوا قسيم الدولة عند وصوله ، وسار نحو الفرنج فانهزموا بين يديه من جبل جوشن ، وهو يسير وراءَهم على مهل حتى أبعدوا عن البلد .

فأرسل الشالشنية[١] ، وأمرهم أن يردّوا العسكر ، فجعل القاضي ابن الخشَّاب يقول له : «يا مولانا لو ساق العسكر خلفهم أخذناهم ، فانهم منهزمون والعسكر محيطة بهم». فقال له: «يا قاضي تَعْلَم أنَّ في بلدكم ما يقومُ بكم وبعسكري لو قُدّر علينا ـ والعياذ بالله ـ كسرةُ ؟» فقال : «لا» . فقال : «ما يؤمننا أن يرجعوا علينا ويكسرونا ، ويهلك المسلمون ، ولكن قد كفى الله شرَّهم وندخل إلى البلد ونقوّيه وننظر في مصالحه ، ونجمع لهم إن شاء الله ، ونخرج إليهم بعد ذلك»[٢] .

---

١ ـ حملة شارات وأعلام كانوا يقومون بوظيفة مراقبة أمن الجيش ونظامه .
٢ ـ لمزيد من التفاصيل انظر ترجمة آق سنقر البرسقي في بغية الطلب ص ١٩٦٣ ـ ١٩٧٠ .

ورجع ودخل البلد وتسلَّم قلعتها ، ونظر في مصالح البلد وقوّاه ، وأزال الظلم والمكوس وعدل فيهم عدلاً شاملاً وأحسن إليهم إحساناً كاملاً .

وكتب لأهل حلب توقيعاً باطلاق المظالم والمكوس ، نسخته موجودة ، بعدما كان الحلبيّون مُنوا به من الظّلم والمصادرة من عبد الكريم والي القلعة ، وعمر الخاص والي البلد ، وتسليطهما الجند والأتراك على مصادرة الناس بحيث أنهم استصفوا أموالهم من الأكابر والصدور وغيرهم في حالة الحصار .

وأما الفرنج فانهم توجّهوا إلى الأثارب ودخلوا أنطاكية .

وشرع النّاس في الزّرع ببلد حلب في الثّاني عشر من شباط وجعلوا يبلّوا الغلّة بالماء ، ويزرعونها فنبتت وتداركت عليها الأمطار فأخصبت ، وجاءت الغلّة من أجود الغلال وأزكاها .

وأطلق البرسقيّ بني منقذ من الاعتقال بقلعة حلب ، ورحل إلى تلّ السّلطان في سنة تسع عشرة وخمسمائة ، في أواخر المحرّم ، وأقام به ثلاثة أيام ، ورحل إلى أن وصل إلى شيزر في سابع صفر ، وتسلّم أولاد الفرنج من ابن منقذ ، وباعهم بثمانين ألف دينار حُمِلَتْ إليه .

وأقام بأرض حماة أياماً حتى وصل إليه أتَابك طغتكين ، فرحل في عساكره التي لا تحدّ كثرةً ، ونزل كفرطاب فسلّمت إليه يوم الجمعة ثالث شهر ربيع الآخر ، وسلّمها إلى صمصام الدين خيرخان بن قراجا ، وكان قد

وصل إليه من حمص والتقاه بتلّ السلطان .

وسار إلى عزاز وقاتلها ، ونقبت قلعتها فقصدهم الفرنج ، فالتقوا سادس عشر ربيع الآخر ، وكسر البرسقي كسر عظيمة ، واستشهد جماعةٌ من المسلمين من السُّوقة والعامة ، ولم يقتل من الأمراء والمقدّمين أحد .

ووصل أق سنقر البرسقي سالماً إلى حلب ، وأقام على قنَّسرين أياماً ، وتفرّقت العساكر إلى بلادهم ، ووصل أمير حاجب صارم الدّين بابك بن طلماس ، فولّاه البرسقي حلب وبلدها ، وعزل عنها سوتكين والياً كان ولّاه .

ووقعت الهدنة بين البرسقيّ والفرنج على أن يناصفهم في جبل السُّماق وغيره مما كان بأيدي الفرنج ، وسار البرسقيّ إلى الموصل فلم يزل الفرنج يعلّلون الشحن والمقطعين بالُمحال في مغلّ ما وقعت الهدنة عليه إلى العشرين من شعبان من السّنة .

وسار بغدوين إلى بيت المقدس والرسولُ خلفه يُعلمه بأن الفرنج لا يمكنون أحداً من رفع شيءٍ من الصَّيَافي ؛ وأخذ بعض متصرفي المسلمين بعض الارتـفاع من بعض الأماكن والهدنة على حالها ، فتجمّع الفرنج ونزلوا رفنية .

وخرج شمس الخـواص صاحبها طالباً أق سنقر البرسقيّ مستصرخاً به ، وسَلَّمها إليهم ولده المستخلف فيها في آخر صفر من سنة عشرين وخمسمائة ، وقصدوا بلد حمص فشعّثوه .

فجمع البرسقيّ العساكر وحشد ، وسار نحو الشَّام لحربهم حتى وصل الرّقة في أواخر شهر ربيع الآخر ، وسار إلى أن نزل بالنّقرة على النَّاعورة في الشهر المذكور ، وأقام به أيّاماً والفرنج يراسلونه ، فراسله جوسلين على أن تكون الضّياع ما بين عزاز وحلب مناصفةً وأن يكون الحرب بينهما على غير ذلك ، فاستقرَّ هذا الأمر .

وكان بدر الدَّولة سليمان بن عبد الجبَّار وشهريار بك ابن عمه ، قد توجَّها مع جماعة من التركمان إلى المعرّة فأوقعوا بعسكر الفرنج ، وقتل المسلمون منهم مائة وخمسين ، وأسروا جفري بلنك ، صاحب بَسَرْفوث ، من جبل بني عليم ، وأودع في سجن حلب .

وكان قد سيّر البرسقيّ ولده عزّ الدين مسعوداً منجداً لصاحب حمص ، فاندفع الفرنج عنها فعاد عزّ الدين إلى والده ، فتركه بحلب ، وعزل بابك عن ولايتها وولّاها كافور الخادم إلى أن ينظر فيمن يوليه إياها ولاية مستقلة .

ورحل قسيم الدولة إلى الأثارب في الثامن مِنْ جمادى الآخرة من سنة عشرين ، وسيّر بابك بن طلماس في جماعة من العسكر والنقَّابين إلى حصن الدير المجدّد فوق سرمدا ففتحه سلماً .

وقتل من الخيَّالة بعد ذلك خمسون فارساً ، ونهب العساكرُ الغلال والفلاحين في سائر البلد الذي وصلت الغارات إليه ، ورفعوا الغلَّة جميعها إلى حلب ، وزحفوا إلى قلعة الأثارب ، وخربوا الحوشين ، ولم يتيسر فتحها .

ووصل بغدوين من القدس في جموع الفرنج ، ووصل إليه جوسلين ، ونزلوا عِم[1] وأرتاح ، وسيّروا إلى البرسقيّ : «ترحل عن هذا الموضع ، ونتّفق على ما كنّا عليه في العام الخالي ، ونعيد رفنية عليك» ، فتجنّبَ الحرب ، وخشي أن يتم على المسلمين ما تمَّ على عزاز فصالحهم إلى أن فرّج الخناق عن الأثارب ، وخرج صاحبها بماله ورجاله .

فغدر الفرنج وقالوا : «ما نصالح إلاّ على أن تكون الأماكن التي ناصفنا فيها في العام الماضي لنا دون المسلمين» . فامتنع من ذلك وأقام على حلب أياماً والرسل تتردد بينهم ، فلما لم تتفق حال عاد أق سنقر ، ونزل قنسرين ، ورحل إلى سرمين ، وامتدت العساكر إلى الفوعة ودانيث .

ونزل الفرنج على حوش معرَّة مصرين ، فأقاموا كذلك إلى نصف رجب ، ونفدت أزواد الفرنج ، فعادوا إلى بلادهم ، ثم عاد البرسقي وفي صحبته أتابك طغتكين ، وكان وصل اليه وهو على قنسرين فدخلوا من العسكر ونزلوا باب حلب .

ومرض أتابك فعملت له المحفَّات ، وأوصى إلى البرسقي ، وتوجه إلى دمشق ، وسلَّم البرسقي حلب وتدبيرها إلى ولده عزّ الدين مسعود ، فدخل حلب ، وأجمل السيرة وتحلّى بفعل الخير .

وسار أبوه إلى الموصل ، فدخلها في ذي القعدة سنة عشرين

---

١ ـ عِمّ : قرية غناء ذات عيون جارية وأشجار متدانية بين حلب وأنطاكية ـ معجم البلدان .

وخمسمائة ، وقصد الجامع بها ليصلّي فيه يوم الجمعة تاسع ذي القعدة ، وقصد المنبر ، فلما قرب منه وثب عليه ثمانية نفر في زيّ الزّهاد ، فاخترطوا خناجر وقصدوه وعليه درع من الحديد ، وحوله جمع عظيم وهو متحفظ منهم ، فسبقوا أصحابه إليه ، فضربوه حتى أثخنوه وحُمل جريحاً فمات من يومه .

وقُتلَ مَنْ كان وثب عليه من الباطنيَّة غير شاب واحد كان من كفرناصح[1] ـ ضيعة من عمل عزاز ـ فإنَّه سلم ، وكان له أم عجوز فلما سَمِعَتْ بقتل البرسقي وقتل من وثب عليه وكانت قد علمت أنَّ ابنها معهم فرحت واكتحلت وجلست مسرورة فوصلها ابنها بعد أيام سالماً فأحزنها ذلك ، وجَزَّت شعرها وسوَّدت وجهها .

وقيل : إنّ البرسقي قَتَل بيده منهم ثلاثةً، وكان البرسقي ـ رحمه الله ـ قد رأى تلك الليلة في منامه عدّة من الكلاب ثاروا به فقتل بعضها ، ونال منه الباقون أذى شديداً ، فقصَّ رؤياه على أصحابه ، فأشاروا عليه بترك الخروج من داره عدّة أيام ، فقال : «لا أترك الجمعة لشيء أبداً» ، وكان من عادته أن يحضر الجمعة مع العامة ـ رحمه الله ـ وكان وزير البرسقيّ المؤيد بن عبد الخالق ، وكان قدم معه حلب حين قدمها .

وملك عزّ الدين مسعود حلب عند ورود الخبر عليه بقتل أبيه في سنة

١ ـ ما تزال كفر ناصح تحمل الاسم نفسه وهي في منطقة جبل سمعان ـ محافظة حلب وتبعد عن حلب مسافة ٣٣ كم . انظر بغية الطلب ١٩٦٨ ـ ١٩٧٠ حيث المزيد من التفاصيل .

عشرين ، واستوزر المؤيد وزير أبيه وولَّى فيها من قِبَلِهِ الأمير تومان .

وسار من حلب في سنة إحدى وعشرين وخمسمائة إلى السلطان محمود وهو ببغداد ، فسأله أن ينعم عليه ببلاد أبيه ، فكتب له منشوراً بذلك ، فوصل إلى الموصل وملكها ، ثم نزل إلى الرّحبة قاصداً إلى الشام ؛ وكان يظن أنّ قاتل أبيه قومٌ من أهل حماة ، فأضمر للشّام وأهله شرّاً عظيماً .

ورجع عما كان عليه من الأفعال المحمودة والإقبال على مجاهدة الفرنج ، وبلغ طغتكين عنه أنّه يقصده ، فتأهّبَ له فلمّا نزل بظاهر الرّحبة امتنع واليها من تسليمها ، فحاصرها أيّاماً فسلمها الوالي إليه ، ونزل فوجده قد مات فجأة ، وقيل : سقي سماً فمات .

وندم الوالي على تسليم الرّحبة ، وكان قد وصلتْ قطعةٌ من العسكر لتقوية حلب فمنعهم تُومان من الدُّخول إليها ، فوقع الشرّ بينه وبين رئيس حلب فَضَائل بن بديع ، ودَاخَلَهم إلى حلب .

فوصل إلى حلب ختلغ أبه[1] السُّلطانيّ غلام السُّلطان محمود ، ومعه توقيع مسعُود بن البرسقي بحلب ، كَتَبَه قبل وصوله إلى الرّحبة فلم يقبله تُومان والي حلب فعاد ختلغ أبه إلى الرّحبة ، ـ وقد جرى فيها ما ذكرناه من موت مسعود ـ.

فعاد ختلغ أبه على فوره إلى حلب فتسلَّمها من يد تومان ، آخر جُمادى

١ ـ له ترجمة مفيدة في بغية الطلب ص ٣٢١٦ ـ ٣٢١٩ .

الآخرة ، وصعد إلى قلعتها بطالعٍ اختاره له المنجّمون ، فأخذه الطَّمع في أموال النَّاس ، وصادر جماعةً من أهل حلب ، واتّهمهم بودائع المجنّ الفوعي ، رئيس حلب المقتول في أيّام رضوان .

وقبض على شرف الدّين أبي طالب بن العجمي وعمّه أبي عبدالله ، واعتقلهما بحلب ، وثقب كعاب أبي طالب وصادره ، فعاد فعلُه القبيحُ عليه بالبوار ، وضلّ رأي منجّمه في ذلك الاختيار .

وقام أهل حلب عليه فحصروه ، وقدَّموا عليهم بدر الدَّولة سليمان بن عبد الجبّار ، ونادى أهلُ حلب بشعار بدر الدَّولة ، وساعده على ذلك رئيسُ حلب فضائلُ بن صاعد بن بديع ، وقبض على أصحاب ختلغ أبه ، وذلك في الثاني من شوَّال .

وقصد حلب في تلك الحال ملك أنطاكية وجوسلين فصانعوه على مال حتّى رحل[1] ؛ وضايقوا القلعة وأحرقوا القصر ، ودخل إليهم إلى المدينة الملك ابراهيم بن رضوان ؛ ووصل اليهم حسَّان صاحب منبج ، وصاحب بزاعا ؛ ودام الحصار إلى النّصف من ذي الحجَّة .

وكان أتَابك عماد الدّين زنكي بن قسيم الدَّولة أق سنقر قد ملك الموصل بتواقيع السُّلطان محمود ، فَسَيَّر إليه شهاب الدّين مالك بن سالم صاحب قلعة جعبر ، وأعلمه بأحوال حلب وحصارها ؛ فسيّر أتابك إليها

١ ـ انظر بغية الطلب ص ٣٢١٨ .

عسكراً مع الأمير سنقر دراز والأمير الحاجب صلاح الدّين حسن[1] .

ودخل الأميرُ صلاح الدّين فأصلح الحالَ ، وَوَفَّق بينهما على أن استدعيا أتابك زنكي من المَوْصل ، فَتَوَجَّهَ بالجيوش إلى حلب ، وقيل : إنَّ بدر الدَّولة وختلغ سارا إليه .

١ ـ كذا بالأصل وهذه الرواية مشوشة صوابها ما رواه ابن العديم نفسه في بغية الطلب ص ٣٢١٨ ـ ٣٢١٩ : «نصف ذي الحجة وصل الأمير سنقر دراز والأمير حسن قراقش وجماعة أمراء في عسكر قوي إلى باب حلب واتفق الأمر على يسير بدر الدولة وخطلبا إلى باب الموصل إلى المولى الاصفهسلار الملك عماد الدين قسيم الدولة زنكي بن قسيم الدولة آق سنقر إلى الموصل ، فلمن ولى عاد إلى منصبه ، وأقام بحلب الأمير حسن قراقش مع الأمير الحاجب صلاح الدين العمادي ، فوصل إلى حلب ، وأطلع إلى القلعة والياً من قبله ، ورتب الأمور» .

زبدة الحلب
من
تاريخ حلب

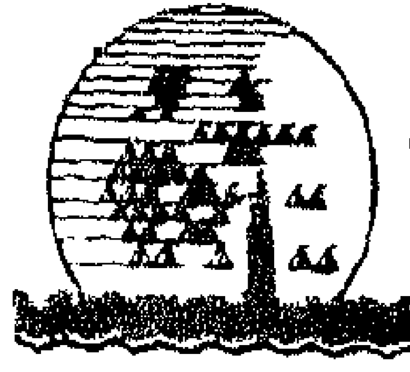
تأليف

المولى الصاحب كمال الدين أبي القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله
ابن العديم

٥٨٨ هـ - ٦٦٠ هـ

الجزء الثاني

المعهد الفرنسي بدمشق
للدراسات العربية



زبدة الحلب
من
تاريخ حلب

تأليف

المولى الصاحب كمال الدين أبي القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله
ابن العديم
٥٨٨ هـ – ٦٦٠ هـ

عُني بنشره وتحقيقه ووضع فهارسه

سامي الدهان
دكتور دولة في الآداب من باريس
عضو المجمع العلمي العربي بدمشق

الجزء الثاني
٤٥٧ هـ – ٥٦٩ هـ

كلمة الناشر

تأليف زبدة الحلب ـ طريقتنا في التحقيق ـ حوادث هذا الجزء ـ ثناء وأمل

مقدمة الجزء الثاني

عرضنا في مقدمة الجزء الأول لحياة ابن العديم ، وتطرقنا إلى تحليل آثاره على شيء من الاختصار ، لئلا نتجاوز ما يرسم للمقدمات من بحث ودراسة ، على أن ميدان القول ما يزال فسيحاً واسعاً في دراسة الرجل والبحث في أدبه وعلمه . فنحن لم نبسط الكلام في أسلوب ابن العديم أو إنشائه كما يبدو من كتابه « زبدة الحلب » ، ولم نتحدث عن ميله إلى الشعراء والأدباء في هذا الكتاب ، ولم نحكم على مختاراته في الأدب أو أحكامه على الحوادث أو تحليله لشخصيات الحاكمين أو وصفه للمعارك أو عنايته بأخبار القضاة ورجال الدين ، فلذلك كله كتاب سنصدره في حياة هذا المؤرخ وفي آثاره لعصره وبعد عصره .

ونحن إنما نريد هنا أن نقدم بين يدي هذا الجزء برهاناً جديداً على ما قلناه في طريقة تأليفه للتاريخ . فقد بينا من قبل أن الرجل استعرض مصادر التاريخ قبله ، فاختار منها أولاً نصوصاً نقلها إلى تاريخه الكبير « بغية الطلب » ، وبوّبها وجعلها على الحروف في تراجم الرجال كما فعل الخطيب البغدادي وابن عساكر الدمشقي . وقد ذكر في هذه التراجم عنوانات الكتب التي نقل عنها وأسماء مؤلفيها ، ثم وصف لنا كيف وصلت إليه ، وأين وقعت له ، في أمانة علمية عُرف بها الحفاظ الثقات في علم الحديث .

فلما أراد أن يلخّص كتابه الكبير وأن يرتب تاريخه على السنين عاد إلى « بغية

الطلب » فنقل بعض النصوص ، وحذف منها أسماء الرواة والمؤلفين وكتبهم ، واكتفى غالباً برواية واحدة للحادثة الواحدة ؛ فكان كتابه هذا زبدة لتاريخ حلب ، يحمل بين طياته ما في المصادر المختلفة من عبارات وإشارات وروايات في أسلوب موجز مقتضب . وهو في هذا كغيره من المؤرخين لزمانه ، ولكن النقد العلمي لم يتطرق اليهم ، فلم يبيّن مبلغ ما وضعوه ومقدار ما نقلوه ، وأين تقع شخصيتهم المستقلة ، وما هي أحكامهم الأصيلة !

* * *

ولم نشأ أن تخلو الزبدة من هذا النقد فرحنا نفتش عن التواريخ التي وصلت إلينا مخطوطة أو مطبوعة ، لنوازن بينها وبين ابن العديم ، ولنصل إلى مدى قربه من هذه المصادر أو بعده عنها ، لعلنا نعرف له يده في هذا الكتاب وجهده في هذا التأليف . وقد وفقنا حيناً إلى اكتشاف مصادره ، وأخفقنا أحياناً في العثور على الكتب التي اعتمدها في صدر القرن السابع الهجريّ . ذلك لأن المكتبة العربية أصابتها نكبة التتار سنة ٦٥٧ هجرية قبل وفاة الرجل ، فمزّقت مصادره وفرقت كتبه ، وحالت بيننا وبين معرفة خزانته لعصره. ولم يصل إلى علمنا ما كان في بيته من تواريخ ، وما وقع له من دواوين شعرية وكتب أدبية . ولا شك في أن هذه الخزانة كانت قيّمة غنيَّة تهدى إليها المؤلفات من مشارق العالم الاسلامي ومغاربه . ولا شك في أن صاحبها القاضي الأديب ، والوزير السفير ، والمؤرخ الوجيه خير من يقتني الكتب وينصرف إليها ، وكتابه «البغية» دليل على ما نقول.

لذلك عولنا في حواشي هذا الجزء على « بغية الطلب» نسألها بيان النصوص وتفصيلها وكمالها ، ثم رجعنا إلى ابن القلانسي والعظيمي وابن الأثير وابن واصل وابن الجوزي وأبي شامة وأبي الفداء وابن تغري بردي ، فنقلنا كثيراً من عباراتهم إذا كانت تحمل تفصيلاً وتذييلاً وإيضاحاً ، وأثبتنا الأسماء عن هذه المصادر حين أردنا تمامها بذكر الأب والجد والكنية واللقب والنسبة إلى البلد والإقليم والعرق ، وذلك لنوضح ما أورده ابن العديم في الزبدة موجزاً موغلاً في الايجاز حتى ليخيل

للقارىء أن الرجل وضعه لأنداده وأقرانه وزملائه واخوانه من معاصريه والمتمرسين بالتاريخ العربي القريب . فلما بعدت الشقة وضربت بيننا وبين هذه الحوادث ثمانية قرون غابت معالم القوم وأوصافهم وعاداتهم ومعاركهم وحروبهم ، فاختلطت علينا الأسماء التركية وثقلت الألقاب الأعجمية ، وانقطع ما بيننا وبين أساليب المؤرخين لذلك الزمان حتى لقد حسبنا أنهم يكتبون في ايجاز مخلّ أو اقتضاب مملّ أو ينشئون في عبارة غريبة أو جمل غامضة .

* * *

وابن العديم في هذا كغيره من مؤرخينا ، ولكنّ الناشر يجب أن يحترز لهذه النصوص القديمة فيرسل بين يديها مواكب من نصوص مختلفة للحادثة نفسها تخفف من جفاف العبارة وغموض الحادثة وعري الاسم ، خدمة للقارىء المعاصر والشادي الناشئ ، والدارس المستقصي ، وخاصة في تأريخ حقبة كهذه التي يصفها هذا الجزء .

وهذه الحقبة تحفل بالأحداث الجسيمة ، فقد تغلغل فيها العنصر التركي في الحكم والادارة ، وأطبقت على البلاد جيوش الفرنج مغيرة من كل فج عميق ، وقامت في السكان ريح الطائفية وهبّت بين الحكام شهوة الملك والسلطان .

وقد أحصى ابن العديم هذا كله ، فبسط في هـــذا الجزء حال حلب ، بل سوريا الشمالية ، في عهد المرداسيين والعقيليين وتحدث عن ملكشاه ، ورضوان بن تتش ، وألب أرسلان ، وإيلغازي بن أرتق ، وعماد الدين زنكي ، ونور الدين محمود ؛ فكانت هـــذه الحقبة عصراً كاملاً (٤٥٧هـ — ٥٦٩هـ) بدأ في منتصف القرن الخامس وانتهى بعد منتصف القرن السادس ، شهدت فيه هذه البلاد خصاماً بين الأمراء وحرباً بين الدويلات والأمارات ودسائس وفتناً بين الشيعة والسنة ، فلاحت الباطنية وظهرت الدعوات المختلفة ، وزاد في ذلك اختلاف الأتراك فيما بينهم على حكم حلب ، ثم اضطراب الصداقة بين مصر والشام ، وقيام الخلاف بين بغداد وحلب ؛ والافرنج يتقلبون على أساليب مختلفة في القتـــال والسياسة ،

يتقربون إلى بعض أبناء البلاد، ويختصمون فيما بينهم ، وينقلبون على الروم أحياناً، ويشتركون معهم على غزو البلاد حين تسكن الخصومة ويموت التنافس .

وهذا كله يبعث في تاريخ هذه الفترة بالشام حياة ونشاطاً يخيل معه للقارئ أن البلاد لم تعرف إلا الحرب والقتل والضرب والتنكيل والتعذيب والشنق والانتقام، فكأن « الزبدة » سفر للمعارك تصف الكرّ والفر والانكسار والانتصار ، أو كأنها كتاب في تاريخ الأتراك والروم والفرنج أو معجم لأعلامهم ، فهو يعجّ بالأسماء التركية والألقاب الأعجمية والكنى التركمانية والمراتب الدينية .

والكتاب على إيجازه ثمين لأنه سجّل كلّ ما وقع ، ولم يغفل من الأحداث السياسية والحربية إلاّ ما يخرج عن حدود ما رسمه لكتابه من بلاد حماة وحمص وشيزر وحلب والجزيرة ، فقد جعله لسورية الشمالية وخصّه بذكر قراها وجبالها وأنهارها ومدنها ، فأصبح مرجعاً هاماً لهذه المنطقة ، ولا نعرف له مثيلاً بين تواريخنا.

وقد عرف له المستشرقون هذا القدر فنشروا قسماً منه وترجموه ، وعُني ده مينار وبلوشه بهذا الجزء خاصة فنقلا بعضاً منه إلى الفرنسية ، ونشرا صفحات منه ، ولكننا نظهره هنا للمرة الأولى في ثوبه العربيّ كاملاً كما وضعه ابن العديم ، ليضاف إلى تواريخنا العربية ويقف بينها في خدمة التاريخ والأمجاد .

***

ولقد عنينا بهذا الجزء كعنايتنا بالذي ظهر قبله ، بوّبناه على طريقة كتابه الكبير « بغية الطلب » فقد توفي الرجل قبل أن يبلغ أمنيته من الزبدة ، فلم يفعل لها كما فعل لكتابه الأول ، لذلك قمنا بهذه الأمانة وأدينا هذه الرسالة ، فجعلناه على أقسام ، وجعلنا الأقسام على مقاطع وعناوين صغيرة وكبيرة ، واستخدمنا الترقيم ، وضبطنا بالشكل حيث مسّت الحاجة إلى ذلك ، وشرحنا الكلمات الصعبة ، وحققنا الأعلام ، وحدّدنا على وجه التقريب مواقع البلدان ، وعدنا إلى دواوين الشعراء ، وتحمّلنا كلّ تضحية وعناء في سبيل ابن العديم راضين مغتبطين ، لأننا نؤدي زكاة العلم . وقد سعدنا بصحبته ونعمنا بالجهد فيه ، فحمل إلينا رضى كثيراً

وخيراً وفيراً ، فتفضل كثير من النقاد والأدباء بالكتابة عنه والثناء عليه ، وأغدقوا من جميل الكلام وكريم العبارة مما نحمله محمل الرضى والتشجيع ، فحفزوا خطواتنا المتواضعة في إكمال تحقيقه ونشره والتعليق عليه . وكان علينا أن نسجّل أسماءهم هنا شاكرين لهم ما أظهروا من عطف وما أبدوا من تأييد بمقالاتهم في صحف الغرب والشرق أو برسائلهم الخاصة . ولكننا نعجز عن ردّ الثناء وبسط الأسماء . ونكتفي بأن نسجّل فوزاً للنصوص القديمة ، فقد ربحت أصدقاء وكسبت مؤمنين ينتصرون لهذه الفئة التي تعمل جاهدة في إظهار التراث القديم على وجه علمي يجمع إلى الأمانة والصحة وفرة الفهارس والمسارد ودقة التعليقات والتحقيقات ، فقد حان للعرب أن يجمعوا آثارهم وأن يبوبوها وأن يبنوا دراساتهم وبحوثهم الجديدة على أساس متين من هذه النصوص التي تظهرنا على ما خفي من تاريخنا وحضارتنا ، وتكمل الناقص من معلوماتنا وتسد ثغرة فاضحة في كتبنا .

ونحن نرجو أن يقع هذا الجزء من النفوس موقع أخيه فقد بذلنا له كلّ ما نستطيع ، وعملنا في سبيله وفاق خطتنا التي وصفناها « في حرص بالغ وخوف مسرف وشك ملحّ » لنتقرب من الكمال في خدمة الكتاب ، ونستهدف للصّواب في إبرازه على أحسن وجه ، لا نريد من ذلك إلا وجه الوطن واللغة والتاريخ ، والله من وراء القصد له الحمد والشكر والمنة .

دمشق الشام في ٢٩ جمادى الآخرة ١٣٧٣
و ٥ آذار ١٩٥٤

سامي الدهان

بيان الرموز المستعملة في هذه الطبعة

ص : صفحة

ج : جزء

ط : طبعة

و : وجه الورقة من المخطوط

ظ : ظهر الورقة من المخطوط

الاصل : نسخة باريس المخطوطة رقم ١٦٦٦

[ ] : وضعنا بينهما ما رأينا إضافته للسياق من غير ان تدل النسخة على وجود نقص أو غموض .

<> : وضعنا بينهما ما أكملنا به نقصاً دلّت عليه النسخة أو طمساً لم يقرأ .

‖ : للدلالة على نهاية الصفحة وبدء الصفحة التالية في مخطوطة الأصل .

[...] : وضعناهما في الهامش للدلالة على رقم الورقة من مخطوطة الأصل مع بيان وجه الورقة أو ظهرها .

(وفي فهرسي الكتب والأعلام بيان بالمختصر من أسماء الكتب ومؤلفيها)

زُبْدَةُ الحَلَبْ
مِن
تاريخ حلب

تأليف

المولى الصاحب كمال الدين عمر بن أحمد بن هبة الله

ابن العديم

الجزء الثاني

حوادث السنين

من ٤٥٧ هـ إلى ٥٦٩ هـ

القسم الرابع عشر

ذكر
حلب في أيام محمود بن نصر بن صالح

حكم محمود في حلب - حرب الروم وآل مرداس - ألب أرسلان ومحمود - حاشية محمود وشعراؤه

٤٥٧ هـ - ٤٦٧ هـ

حكم محمود في حلب

نهاية عطية

وَدَخَلَهـا[١] محمودُ بنُ نَصْر يوم السَّبت النصفَ من شهر رمضان سنة سبع وخمسين وأربعمائة ، واستقرتْ ألقابُه: الأجلّ ، شرفُ أمراء العرب ، سيفُ الخلافة ، معزّ الدّولة وفخرُها ، وعضدُها ، ناصرُ الملك ، || ذو الحَسَبَيْن[٢] . [٨٣ و]

ومَضَى عَطيّةُ إلى الرَّحبة[٣] وكانتْ ألقابَ عطيّة < خالصةُ >[٤] الأمراء ، عمدةُ الإمامة ، عضدُ الخلافة ، أسدُ الدّولة وسيفُها ، ذو العزيمتين .

وأقطع محمودُ معرَّةَ النّعمان الملكَ هٰرونَ بْنَ خانَ ملكَ التُّرك[٥] ؛ فدخل المعرّة يومَ الأربعاء السّابعَ عشر من شوال ، سنة ثمان وخمسين

---

(١) أي مدينة حلب – وقد ذكر ابن القلانسي في ذيل تاريخ دمشق ٩٣ : « سنة سبع وخمسين وأربعمائة : في هذه السنة نزل الأمير محمود بن شبل الدولة بن صالح على حلب ثالث دفعة ومعه الأمير ابن خان التركي وأقام عليها إلى انتصاف شهر رمضان ».

(٢) انظر الجزء الأول الذي طبعناه من زبدة الحلب سنة ١٩٥١ ص ٢٩٧ : « ولقبوه عظيم أمراء العرب ، عضد الدولة سيف الخلافة ، ذو الفخرين . وكان يلقب أولاً عز الدولة وشبهها » – ولقبه فيما يرد من الصفحات هو عز الدولة ، انظر ١٢، ١٤

(٣) الرّحبة : بينها وبين حلب خمسة أيام – انظر زبدة الحلب ١ /٩٣ بالحاشية.

(٤) هذه الكلمة مطموسة في الأصل المخطوط لم يبق منها إلّا [. . .صة] ؛ فلعلها كما أثبتنا ، وقد مرّ بنا في زبدة الحلب ١ /٢٦٨ لقب نصر بن صالح بن مرداس وهو : « مختص الأمراء ، خاصة الإمامة » – انظر ما يلي بالصفحة ١٨ .

(٥) مرّ بنا اسم الرجل في زبدة الحلب ١ /٢٩٤ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦.

وأربعمائة ، وَوَصل معه إليها من التُّرك ، والدّيلم ، والكُرد ، والأُوج[1] مقدار ألف رَجُلٍ مع حاشِيَتِهم فَنَزل بالمُصَلَّى.

فما رؤي أعفّ منهم عن البَساتين والكُروم وغيرها ، ولم يكونوا يأخذون من أحدٍ شيئاً إلّا بثمنِهِ ؛ وسقَوْا دَوابهم الماء بثمنِهِ . وفزعتِ العَرَبُ منه فزعاً عظيماً ؛ ثمّ استدعي إلى حلب وعوّض معرّة النّعمان.

وخرج محمودُ بْنُ نصرٍ بابن خان والتّركمان ، في سنة تسع وخمسين ، ومعه بنو عوف من بني أبي بكر بن كلاب ، فنزل المشيرة — من بلد حماةَ — ، ثم أتى حَماة ؛ وَوَطئ جميعَ العَرَب وَأذلّها .

وكانت العربُ تطلبُ فتنةً تقع بينه وبين عمّه عطيّة بن صالح ، وكان بحمص ، فظنّت بنو كلاب أنه يُحاربُه ؛ فلم يفعل عطيّة ، لمعرفتِهِ بغَدْر العَرَب به مرةً بعد أُخرى ؛ وأراد أن لا ينهدِم مجدُ آلِ مرداس .

وفي هذه السَّنة سلّم حسين بن كامِلْ بن الدّوح « حِصْنَ أَسفُونا »[2] إلى نُوّابِ المصريّين ، بعد أن نَهَبَ عسكر التّرك « حناك »[3] وجميع ضياعِهِ بالشّام .

ووقع الوباء العظيم بحلب ، حتّى أنه مات في رجب من هذه [٨٣ ظ] السَّنَة || زهاء عن أربعة آلاف فضلًا عن سائر الشّهور .

---

(١) في معجم البلدان لياقوت ١ / ٢٩٧ : « الأُوج : بالضم ثم السكون وجيم — قرية صغيرة للخرلخية ، وهم صنف من الأتراك مما وراء سيحون ».

(٢) في معجم البلدان لياقوت ١ / ٢٦٩ : « أَنفُونا : بالفتح ثم السكون وضم الفاء وسكون الواو ونون وألف — اسم حصن كان قرب معرّة النعمان بالشام افتتحه محمود بن نصر بن صالح بن مرداس الكلابي »

(٣) حصن كان بمعرة النعمان وخرب سنة ٢٠٩ هـ — انظر زبدة الحلب ١ / ٦٦ بالحاشية .

وفيها طَلَعتْ طائفةٌ كبيرةٌ من التّرك ، فنزل بَعْضُها على دُلوكٍ[١] وتقدّم منهم نحوُ ألفٍ ، فنَهَبُوا بلدَ أنطاكيةَ عن آخِره ؛ وأخذوا نحو أربعين ألف جاموس . وقيل أكثر ، حتى أنّ الجاموس كان يُباع بدينار ، وأكثره بدينَارَيْنِ وَثلاثة . وأما البقر ، والغنم ، والمعز ، والحمير ، وَالجَواري ، فلم يقع على ذلك إحصاء من الكثرة . وكانت الجارية تُباع بدينَارَيْنِ والصبيّ بتطبيقة[٢] نِعَالٍ للخيل .

انكسار الروم

وخرب بلد الرُّوم خَراباً لم يسمع بمِثْلِهِ ؛ وبقيت الغلّاتُ في البَيادِر ما لها من يرفَعُها مِنهم ، حتّى كان الفَلّاحونَ وسائر العَوّامّ يمضي الواحد منهُم ويأخذ ما يريدُ، فلا يجدُ من يُدافِعه عن ذلك ؛ لِأنَّ الرُّومَ تحصّنُوا في الحُصُون والجبالِ ، والمَغاير ، وتركوا بيوتهم على حالها لم يأخذُوا مِنها شيئاً ، لانّ التُّرك أتَوْهم على غَفْلَةٍ ، وكان ذَلِكَ في شوّال .

وكان مُقدّمُهم أفشِين بن بكجي ، وَكان قد غَضِبَ عليه العادل ألب أرسلان بسبب خادم كان زعيم بعض عساكره ، فقتله الأفشين . وقطع الفُرات إلى بَلَد الرُّوم ، ثم خرج إلى أعمال حَلَب ، وباع الغَنائم الّتي كانت مَعَهُ .

ونَزَلَ في سَنَةَ سِتّين حول أنطاكية ؛ وضاق الشيء فيها[٣] حتى

---

(١) دُلُوك : بليدة من نواحي حلب بالعواصم – انظر زبدة الحلب ١ /٥٧ بالحاشية .

(٢) انظر في معاني هذه الكلمة بمعجم دوزي ٢ /٢٥ ومن معانيها : قطعة من حديد أو نحاس توضع على سرج الخيل ، أو تستعمل للنعال .

(٣) خبر هذه الطائفة ورد كذلك في تاريخ العظيمي ، مخطوطة استانبول بالورقة ١٨١ و : ٥ سنة ستين وأربعمائة : وجاء بالشام سحابٌ عظيم أتلف النبات ، وجاء بعده

بلغت الحنطة قفيزين[1] بدينار. فلمّا لم يَبْقَ شيء دون فتحها أتته كتب العادِل ألب أرسلان من العِراق بالرّضا عنه. وقيل إنّ أصحاب مؤونة السّوق بحلب حَصَل في دفاترهم نحو || سبعين ألف مملوك ومملوكة [٨٤ و] سِوى ما بِيع بغير مَؤونة في بلد الرُّوم وسائر البُلدان، وأخِذ من أصحاب أنطاكية مائة ألف دينار، ومثلها من ثياب الدّيباج والآلة. وسار إلى العراق في جُمادى الآخرة من السّنة[2].

وفي هذه السّنة سَلّم أميرٌ من أمراء المغاربة يعرف بابن المرأة حصن أَسفُونَا إلى الأمير عزّ الدّولة محمُود بن نصر بن صالح. وتولّى ذلكَ الأمير سديد المُلك أبو الحسن عليّ بن مُنقذ.

حرب الروم وآل مرداس

وفي يوم الثّلاثاء السّابع والعشرين من شعبان[3]، فُتحت أرتاح[4] بالسّيف، ونهب جميع ما فيها وما في حصنها من الأموال والذّراري؛ وكان فيها خَلْقٌ عظيم من النّصرانيّة لأنّ جميع من كان في تلك

سيل ارتفاعه ثلثون ذراعاً » - وفي ابن الاثير ٨/١٠٦ خبر زلازل وخراب في الشام، وكذلك في ذيل تاريخ دمشق ص ٩٤.

(١) القفيز: مكيال ثمانية مكاكيك؛ والمكوك يسع صاعاً ونصفاً، والقفيز من الأرض: قدر مئة واربع واربعين ذراعاً ج أقفزة وقفزان.

(٢) نقل هذا الخبر وترجمه المستشرق هونيغمان في كتابه بالألمانية عن حدود الامبراطورية البزنطية ص ١١٨.

(٣) ساق هونيغمان خبر هذا الفتح في ١٧ شعبان - انظر كتابه ص ١١٩.

(٤) أرتاح: حصن كان من العواصم في أعمال حلب تحت منعطف نهر عفرين - انظر زبدة الحلب ١/١٦٩ بالحاشية - وفي تاريخ العظيمي بمخطوطة استانبول بالورقة ١٨١و: « فتح الأفرنج طليطله، وخرج ملك الروم إلى عزاز ومنبج ففتحها وفتح ارتاح ونهب الافشين عمورية، وفتح الروم حصن اسفونا ».

المواضع منهم تحصّل بها لأنّها كانتْ الكرسيّ لهم هُناكَ. وقتل من رجالها نحو ثلاثة آلاف رجل؛ وقَدْ كان الملكُ ابن خَان حاصرها زُهاء خمسة أشهر.

وأتى عسكرٌ عظيمٌ من عساكرِ الرّوم، فنَزَلَ على باب أنطاكية ليُصالِح الملك ابن خان عن أرتاح وغيرها من بلادهم؛ فلم يتمّ بينهم صُلحٌ. وإنّما كانَ غرض العَسْكر أنْ يَدُسّ إلى أنطاكية غلّة حُمِلَتْ إلى السُّوَيْداء[1] لتقويتها.

وكان فتح أرتاح فتحاً عظيماً لأنّ عملها قريبٌ من أعمال الشّام، مِن الفُرات إلى العاصي إلى أفامية[2] إلى باب أنطاكية إلى الأثارب[3]. وقيل بأنهم أحصوا إلى شهر رمضان من هذه السنة أنّه افتقد من الرّوم في الدّرب[4] إلى أفامية بحساب قتلًا وأسرًا ثلاثمائة ألف نفر.

وخَرَج ملك الرّوم في سنة إحدى ‖ وستّين وأربعمائة إلى ديار [٨٤ ظ] الشام فأخذ كثيرًا من أهل منبج، وهَرَب أهلها من حصنها فأَخَذَهُ، وشَحَنَهُ رجالًا وغلّةً وعدّةً. وسار إلى عَزاز[5] فوقف عليها ساعة،

---

(١) في معجم البلدان لياقوت ٣/ ١٩٧ : «السُّوَيْداء : تصغير سوداء، بلدة مشهورة في ديار مضر بالضاد المعجمة قرب حرّان بينها وبين بلاد الروم، فيها خيرات كثيرة وأهلها نصارى أرمن في الغالب» – وقد علّق هونيغمان ١٣٦ على موقعها في الحاشية فقال ما ملخصه إنها بالأرمنية Sevaverak، وإنها اليوم Siverak ومن شاء التفصيل فليرجع الى هذا الكتاب.

(٢) أفامية : كورة من كور حمص – انظر زبدة الحلب ١/ ١٧١ بالحاشية.

(٣) الأثارب : قلعة بين حلب وحمص – انظر زبدة الحلب ١/ ١٣٣ بالحاشية.

(٤) في معجم البلدان لياقوت ٢/ ٥٦٢ : «الدَّرْبُ : إذا أطلقتَ لفظ الدّرب أردتَ به ما بين طرسوس وبلاد الروم لأنه مضيق كالدرب».

(٥) عزاز : بليدة في شمالي حلب – انظر زبدة الحلب ١/ ١٦٥ بالحاشية.

ورجع جاولاً، وسلّط الله عليه وعلى أصحابه الغلاء، والعلّة، والوباء. فذكر ملك الرّوم للقاضي القضاعي رسول المصريّين أنّه مات له في يوم واحد ثلاثة آلاف من خيله سوى عسكره.

وقيل: إنّ منبج بقيتْ في بلدِ الرّوم سبع سنين، وهذا الملك هو ديوجانس[1]. ولا يبعُد عندي أنه الّذي عناه هرقل بقوله: «لا يعود إليك روميٌّ إلّا خائفاً حتّى يولد المولود المشئوم، ويا ليتهُ لا يولد»[2].

وفي يوم السَّبت أوّل شعبان من هذه السنة، جمع قَطَبان أنطاكية ودوقسها المعروف بالنحت[3] جموعاً كثيرة. وطلَع إلى حصن أسفُونا بعَمْلة عملها عليه قوم يُعرفون ببني دبيع من أهل جوزن[4] ففتحوه، وقتلوا كثيرًا من رجالِهِ وكانوا ثمانين رجلًا، وأسروا الباقين. وكان الوالي به رجلًا من الأتراك يعرف بنادِر.

هدنة الروم

وبلغ الخبرُ إلى الأمير عزّ الدّولة محمود بن نصر بن صالح، وهو يسير في الميدان بظاهر مدينة حلب؛

---

(١) في الأصل المخطوط: «اليزدوجانس» – وقد ذكر الواقعة هونيغمان في كتابه ١١٩، وقال انه القيصر: «ديوجانس» Kaiser Romanos Diogenes – وقد ذكره ابن العديم بالورقة ٨٩ ظ الآتية باسم «ذيوجانس» فلعله هنا من تصحيف الناسخ حين عمي عليه الاسم الاعجمي.

(٢) لما انكسر الروم في الشام فصل هرقل عنه وعلا على شرف والتفت ونظر الى سورية وقال: «عليك السلام يا سورية سلام لا اجتماع بعده، ولا يعود اليك روميّ أبدًا إلّا خائفًا، حتى يولد المولود المشئوم ويا ليته لا يولد» – انظر زبدة الحلب ١ / ٣٥.

(٣) وقع الاسم هنا من غير نقط وقد مرّ بنا في زبدة الحلب ١ / ٢٩٦ اسم بطريق للروم يعرف بالنحت ولكننا لم نهتد في المصادر الاخرى إلى حقيقة لفظه، وهونيغمان ترجم النص ص ١٢١ كما يلي Dux von Anṭakiya من غير ذكر لاسمه.

(٤) لم نقع على ذكر لهذا الموقع في معاجم البلدان.

فسار في الوقت يوم الاثنين في التُّرك والعرب ؛ ولم يدخُل البلد ، واجتمع عليه خَلْقٌ عظيمٌ سمع من يحزرهم بخمسين ألفاً ؛ فحاصره سبعة أيام ، وفتحه يوم السّبت ، وقتلَ جميع رجالِهِ ، وكانوا ألفين وسبعمائة ؛ وفي ذلك يقول أبو محمّد الخفاجي[1] :

إنْ أظهَرَتْ لِمُلاكَ « أنطاكيَّةٌ » حُزْناً فقَدْ ضَحِكَتْ عَلَى قَطَبانِها[2]
بَعَثَ البَرِيدَ مُخَبِّرًا عَنْ وَثْبَةٍ ما كان أحوَجَهُ إلى كِتْمَانِها [٨٥ و]
لمـا أطلّ لَهُ[3] لِواؤُكَ خافِقاً عرفَتْ وُجوهَ الذُّلِّ في صُلْبانِها

وفيه يقول أبو الفضل عبد الواحد بن محمّد الحلبيّ الربعي :

رَدَدْتَ عَلَى الاسلامِ شَرْخَ شَبابِهِ وَكَادَتْ عَلَيْهِ أنْ تُقَامَ المَآتِمُ
وظَنَّ طُغَاةُ الرُّومِ مُنْذُ أغِبُّهُم نِزَالُكَ أنّا حينَ ذاكَ نُسَالِمُ

ثم إنّ محمودًا هادن الرُّوم في هـذه السَّنة على أن اقترضَ منهم أربعة عشرَ ألف دينار ، وعلى أن يجعل ولده « نصرًا » رهنًا عليها ، ويهدم حصن أسفُونا . فأخرج ثابت ابن عمّه معزّ الدّولة وشبل بن جامع ، وجمعا النّاس من معرّة النّعمان و كفرطاب[4] وأعمالها ؛ وخربا حصن أسفُونا .

(١) جاءت هذه الأبيات في قصيدة من ديوان أبي محمد عبدالله بن سعيد بن يحيى بن سنان الخفاجي ، نسخة كوپريلي بالورقة ٧٦ ظ ، ومطلع القصيدة ومقدمتها في الديوان كما يلي :

« وقال يمدح شرف أمراء العرب سيف الخلافة أبا سلامة محمود بن نصر بن صالح ابن مرداس ، وكتب إليه يذكر مسيره إلى حصن اسفونا وقد ظفرت الروم به واستنقاذه منهم وقتل من كان فيه ، وذلك في شعبان سنة احدى وستين وأربعمائة :

أمّا ظباك فقد وفت بضمانِها فمتى تجُودُ بها على أجفانِها ؟ »

(٢) في زبدة الحلب : « حربًا » – في ديوان الخفاجي : « حزنًا » .

(٣) في زبدة الحلب : « لما أطلّ » – وفي ديوان الخفاجي : « لما أظلّ له » .

(٤) كفرطاب : بلدة بين المعرة وحلب – انظر زبدة الحلب ١ / ٩٠ بالحاشية .

ووقعتْ فتنة بحلبَ بين الحلبيّين والأتراك ، وقُتِـل من الأتراك نحو أربعين رجلًا ومن الحلبيين عشرة . ووَصل في سنة اثنتين وستّين وأربعمائة صندق التركي[1] خارجاً من بلد الرّوم ، ومعه عسكر عظيم ؛ وَدَخلَ إلى بلَد حلب مِنَ الأُرتيق[2] إلى الجزْر[3] إلى بلد معرّة النّعمان وكفرطاب إلى حماة وحمص إلى رفنية[4] .

وشتوا في هذه السّنة فنهبوا الضِّيَاع وسَبَوا منها ، وعاقبُوا مَنْ وُجِدَ هناك ؛ وفتحوا جِبَابَ الغَلّة وَمَدَافنها . وقطع القطائع الكثيرة على مواضِع امتنعَتْ عليه .

ولقي أهْـلُ الشّام مِنْ عسكره شِدّةً عظيمةً ، وهو أوّلُ نَهْبٍ وفسادٍ جَرى بالشّام من الأتراك . ولما انقضى زمنُ الشّتاء عاد إلى بلَد الرّوم بعد أن أكرمَهُ محمود بن نصر بتُحفٍ وهَدَايا || حَمَلَهَا إليْهِ . [٨٥ ظ]

ألب أرسلان ومحمود

ألب ارسلان

ثمّ إنّ محمود بن نَصْر بن صالح راسل في هـذه السّنة السلطان العادِل ألب أرسلان[5] ، واستقرّ الأمر بينهما

(١) هو صُنْدَق التركي — ولمعرفة الأعلام والأقوام الواردة في هذا القسم انظر المصدر الآتي :
C. Cahen, *Byzantion*, IX, pp. 613-642.

(٢) الأُرتيق : بالضم والفتح — كورة من أعمال حلب — انظر زبدة الحلب ١ / ٢٩٣ بالحاشية — وارجع إلى المصدر التالي :
M. Hartmann, *Das Liwa*....

(٣) في معجم البلدان لياقوت ٢ / ٧١ : « الجزر أيضاً كورة من كور حلب » — انظر في دوسو ٢١٣ .

(٤) رفنيّة : كورة ومدينة من أعمال حمص — انظر زبدة الحلب ١ / ٢٣٠ بالحاشية ، وارجع الى دوسو ٩٨ : « Rafanée » .

(٥) هو أبو شجاع محمد بن جغرى بك داود بن ميكائيل بن سلجوق بن دقاق الملقب

على أن يخطب محمود بحلب للإمام القائم خليفة بغداد[١] وبعده للسلطان العادل ألب أرسلان وبعده لنفسه؛ فوصل إليه نقيب النقباء أبو الفوارس طراد بن علي الزينبي[٢] لإقامة الدعوة العباسية، ومعه الخلع من القائم بأمر الله[٣] ومن السلطان.

فجمع محمود أهل حلب وقال لهم: «قد ذهبت دولة المصريين! وهذه دولة جديدة، ومملكة سديدة ونحن تحت الخوف منهم، وهم يستحلون دماءكم لأجل مذهبكم والرأي أن نقيم الخطبة خوفاً من من أن يجيئنا وقت لا ينفعنا فيه قول ولا بذل»[٤].

عضد الدولة ألب أرسلان، وهو ابن أخي السلطان طغرلبك - وكانت ولادته سنة ٤٢٦هـ. - ووفاته ٤٦٥ هـ؛ ومدة ملكه تسع سنين، وألب أرسلان بفتح الهمزة وسكون اللام وبعدها باء موحدة، وهو اسم تركي معناه شجاع أسد، فألب: شجاع - وأرسلان: أسد. - انظر وفيات الأعيان في ترجمته ٣/٦٦، وكذلك في المنتظم لابن الجوزي ٨/٢٧٩ - وارجع إلى سيرته في الكامل لابن الأثير ٨/١١٣.

(١) في الكامل لابن الأثير ط. مصطفى محمد بالقاهرة ٨/١٠٨ «ثم دخلت سنة ثلاث وستين وأربعمائة - في هذه السنة خطب محمود بن صالح بن مرداس بحلب لأمير المؤمنين القائم بأمر الله والسلطان ألب ارسلان، وسبب ذلك أنه رأى اقبال دولة السلطان وقوتها وانتشار دعوتها» - انظر ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي ٩٨.

(٢) في تاريخ ابن خلدون ٣/٤٧٠: «وكتب بذلك إلى القائم فبعث إليه نقيب النقباء طراد بن محمد الزينبي بالخلع» - وصحيح اسمه في المنتظم كذلك ٩/١٠٦ طراد ابن محمد بن علي، فجده علي، ولي نقابة العباسيين بالبصرة ثم انتقل إلى بغداد، ولد ٣٩٨ هـ - وتوفي ٤٩١ هـ ودفن فيها - وقد ورد اسمه في كبار المشايخ بكتاب طبقات الحنابلة طبعة الاستاذين لاووست والدهان ١/١١٧، ٢٤٠، ٢٦٤ - انظر الكامل لابن الأثير ٨/١٠٨.

(٣) القائم بأمر الله هو عبدالله بن القادر بالله ويكنى أبا جعفر - ولد سنة ٣٩١ هـ - وتوفي ٤٦٧ هـ؛ بويع بالخلافة ٤٢٢ هـ - انظر المنتظم لابن الجوزي ٨/٥٧، ٢٩١

(٤) في الكامل لابن الأثير ٨/١٠٨: «فجمع اهل حلب وقال هذه دولة جديدة ومملكة شديدة، ونحن تحت الخوف منهم، وهم يستحلون دماءكم لأجل مذاهبكم، والرأي أن نقيم الخطبة قبل أن يأتي وقت لا ينفعنا فيه قول ولا بذل».

فأجاب مَشايخ البلَد إلى ذلك فَلبِسَ المؤذِّنونَ والخطيبُ السَّواد، وخطب للامام القائِم، وبَعْدَه للسّلطان ألب أرسلان، وبعده لمحمود، ولقّب الأمير الأجلّ حُسام الدّولة العبّاسية، وزَعِيم جيوشها الشّاميّة تاج المُلوك، ناصر الدّين، شرف الأمّة ذو الحسَبَيْن خالِصَة أمير المؤمنين[1].

وأمر ابن خان الأتراك بالوُقوف على باب الجامع، وقَتْل كُلّ من يخرجُ ممتنعاً من الصَّلاة وسَماع الُخطبة؛ فسأله الشّيوخ ألاّ يَفعَل خوْفاً مِنْ وقوع فتنة. وأخذَتِ العامّة الحصر الّتي في الجامع، وقالوا: «هذه حصر عليّ بن أبي طالب فليجيء أبو بكر بحصرٍ حتّى يُصَلّي عليها النّاس[2]». وكان ذلك يوم الُجمعة التّاسع عشر من شوّال سنة اثْنَتَيْن وستّين وأربعمائة.

[٨٦ و] ومَدَحه الشّيخُ أبو مُحمّد بن سَنان الخفاجيّ الحلبيّ بقصيدةٍ طويلةٍ، يقولُ فيها[3]:

مَا يَصْنَعُ الْحسَبُ الْكَرِيمُ بِعَاجِزٍ   يُبْنَى لَهُ الشّرَفُ الرَّفِيعُ وَيَهْدِمُ[4]

---

(١) ورد هذا الخبر مختصراً في الكامل لابن الأثير بالصفحات المذكورة قبل قليل.

(٢) في الكامل لابن الأثير ٨/١٠٨: «وقالوا هذه حصر علي بن أبي طالب فليأت أبو بكر بحصر يصلي عليها الناس».

(٣) وردت هذه القصيدة في ديوان أبي محمد عبدالله بن سنان الخفاجي، بنسخة كوبريلي في الورقة ٧٩و. يتقدمها قوله: «وقال يمدحه أيضاً ويذكر دعاءه للخليفة القائم بأمر الله في حلب وأعمالها، ولُقّب بحسام الدولة العباسية وزعيم جيوشها الشاميّة وذلك في صفر سنة ثلث وستين وأربعمائة:

قَد غادَرَ الشُّعَراءُ مَنْ يَتَرَنَّمُ   إنْ كان يُسْمَعُ ما أَقُولُ ويُفْهَمُ

(٤) في مخطوطة الأصل عندنا: «يبنى له الشريف» وهو لا شك سهو من الناسخ لا يستقيم مع روايته البيت أخذناه عن المخطوطة والبيت قاله في معرض هجاء لرئيس الروم.

وكان ناصر الدّولة بن حمدان قد تغلّب على مصر ، ووَقَع بينَه وبين جماعةٍ مِن الأمراء بمصر وحشَة ؛ فأنفَذَ إليه الفقيه أبا جعفر محمد بن أحمد البخاري المعروف بقاضي حلب[١] – وأظنّ ناصر الدولة قلّده قضاء حلب حين وردها ؛ ووقعت به وقعة الفُنَيدِق[٢] ، والسلطان ألب أرسلان حين حاصر حلب وهو معه فعُرِف بذلك – أرسله ابنُ حمدان رسولًا إلى السلطان ألب أرسلان يستدعي عساكره ليسلّم إليه ديار مصر ويغيّر الدعوة ؛ وذلك في سنة اثنتين وستّين .

فلمّا ورد عليه الرسول إلى خراسان جهز العساكر العظيمة التي تملأ الفضاء ، ووَصل معها على طريق ديار بكر ، ونَزَل الرّها[٣] في اوّل سنة ثلاث وستّين ، وأقام عليها نيّفًا وثلاثين يومًا .

رسول السلطان

وسَيَّر الفقيه أبا جعفر قاضي حلب المذكور رسولًا إلى محمود بن نَصْر بن صالح يستدعيه إلى وطء بساطه وخدمته أسوةً بمَنْ وَفَد عَلَيْه مِن المُلوك مثل : شرف الدولة مسلم بن قريش ، وابن مروان ، وابن وثّاب ، وابن مزيد ، وأمير الترك والدّيلَم . فلم يُجِبْ محمود إلى ذلك ، وخاف منه .

فسار عن الرُّها إلى الشّام قاصدًا محمود بن نصر ، فقطع الفُرات

(١) هو محمد بن أحمد بن حامد بن عبيد البيكندي أبو جعفر القاضي من أهل بخارى كان عارفًا بعلم الكلام على مذهب المعتزلة داعية إليه – ذكر ذلك القرشي في الجواهر المضيئة ٢/ ١٠ ونقل عن ابن النديم : « إنه مات سنة اثنين وثمانين وأربعمائة وقد جاوز التسعين » وهو المعروف بقاضي حلب ، دفن في مقبرة باب حرب ببغداد .

(٢) الفنيدق : من أعمال حلب كانت به عدة وقعات – انظر زبدة الحلب ١/ ٢٧٨ بالحاشية .

(٣) الرُّها : مدينة بالجزيرة بين الموصل والشام – انظر زبدة الحلب ١/ ٢٥ بالحاشية .

في النِّصف من شهر ربيع الآخر سنــة ثلاث وستّين وأربعمائة، من نَهْر الجوز[١]؛ وتَرّل على بعض المُروج فأعجَبَهُ، || فقال له الفقيه أبو جعفر قاضي حلب: « يا مَولانا احمَــد الله تعالى على هٰذِهِ النِّعمة؛ وهي أنَّ هذا النهر لم يقطعْهُ قطُّ تُركيٌّ إلا مملوكٌ. وأنتَ قد قطَعْتَهُ مَلِكًا»[٢]. [٨٦ ظ]
فأحضرَ الأمراءَ والأتراكَ وأمرهُ بإعادَةِ القَوْلِ. قال: فأعدتُهُ، فحمد الله تعالى حمدًا كثيرًا.

وتَرّل بنقرة[٣] بني أسد إلى أرض قِنَّسرين إلى الفُنَيــدِق. وكان نقيبُ النقباء بحَلَب لم يَنفَصِلْ عنها بعد إقامة الدَّعْوَةِ، فسألهُ محمود أن يَخْرُجَ إلى السُّلْطَان، ويُصْلِحَ أَمْرَهُ معه، فخرج مُستَفسِرًا ومتوسّلًا. وتلطّف الأمر، وأحسن السفارة. وخاطب السّلطان بأنّــه قريب العهد بالخطبة للخليفة، وقد لبس تشريفه.

فقال السّلطان: « أيُّ شَيْءٍ تساوي خطبتُه للخليفة ولبسُ تشريفه، مع ما سبق من شَقِّهِ العَصَا وخروجِهِ عن الطّاعة!» وأبى قبول الشّفاعة فيه بدون وطء محمود بساطه[٤].

---

(١) في معجم البلدان لياقوت ٢/١٥١: «نهر الجوز: ناحية ذات قرى وبساتين ومياه بين حلب والبيرة التي على الفرات، وهي من عمل البيرة في هذا الوقت. وأهل قراها كلهم أرمن».

(٢) في وفيات الأعيان لابن خلكان ٢/٤٦: «وقال المأمون في تاريخه: قيل إنه لم يعبر الفرات في قديم الزمان ولا حديثه في الاسلام ملك تركي قبل ألب أرسلان فانه أول من عبره من ملوك الترك».

(٣) في معجم البلدان لياقوت ٤/٨٠٤: «النُّقْرة: يروى بفتح النون وسكون القاف، ورواه الأزهري بفتح النون وكسر القاف – وقال الأعرابي: كل أرض منصوبة في وهدة فهي النقرة».

(٤) في الكامل لابن الأثير ٨/١٠٩: «فقال له محمود صاحب حلب اسألك الخروج إلى السلطان واستعفاءه لي من الحضور عنده، فخرج نقيب النقباء وأخبر السلطان

حصار حلب

فخاف محمود ولم يجب إلى ذلك ، وتمادى الأمر نحو شهرين . وحصّن محمود حلب وجفّل الناسَ من سائر الشام إليها ، وحصَل الرّعبُ في قُلُوبهم هيبةً له ، لما اجتمع إليهِ من العساكر الجمّة ، والجيوش الكثيفة الضخمة . وكان الأمر بخلاف ما ظَنّ الناسُ ؛ فإنّهُ لما أيس من خُروج محمود إليه عادَ من الفُنيدق وكانت خيمتُه على ذلك التّلِ فعرف بتلّ السّلطان[1] من ذلك اليوم.

ونَزَل على حلب في آخر جمادى الآخرة من السّنة ، وكانت الخيامُ والعساكرُ مِن حلب إلى نقرة بني أسد ، إلى عَزاز ، إلى الأثارب ، متقاربةً بعضها من بعضٍ ؛ ولم ‖ يتعرّض أحدٌ من العَسكر بمالِ أحدٍ ، [٨٧ و] ولا سُبِيَتْ حرمة ، ولا قاتل حصناً .

وبَلَغني أنّ عسكره العَظيم لم يأخذ عليقةَ تِبنٍ مِنْ فلّاح إلّا بثمنهِ ، وأقام مُحاصِرًا حَلَب شهرًا ويومين . ولم يقاتلها غيرَ يوم واحدٍ ، وقصد المطاوَلة بالبلد بَعْدَ أنْ أشرَفَ على الأخذ ، وقال : « أخشى أنْ أفتحَ هذا الثغر بالسّيف فيصير إلى الرّوم » . ونُقِبَ بُرجُ الغَنَم ، وعُلِّق ، فظفِرَ أهلُ حلب بمن دَخَلَ ذلك النّقب وأخذوا بعضهم ، ووقع الرَّدْمُ على الباقين .

وعصّب الحلبيون بُرجَ الغَنَم بشقة أطلس ، وكان السلطان نازلًا بميدان باب قنّسرين ، فسأل عَنْ ذلك فقيل : « هؤلاء الحلبيّون

بأنه قد لبس الخلعة الناجية وخطب . فقال : أي شيء تساوى خطبتهم وهم يؤذنون (حيّ على خير العمل) ولا بد من الحضور ودوس بساطي » .

(١) تلّ السلطان هو الفنيدق ، وقد مرّ تحديد موقعه – انظر زبدة الحلب ١/٢٧٨ بالحاشية.

يقولون على سبيل المزح : قد صَدّع البُرج رأسَهُ من حجارة المنجنيق فقد عَصَبُوه » . فغَضِبَ ، وفرّق في تلك اللّيلة ثمانين ألف فَرْدة نشّاب خلنج[١] ، غير ما رماه بَقِيّة العسكر .

وأصبح وأمر بالزّحف فَجَدَّ النّاسُ في قِتال البلد ، وحمل السّلطان بنفسه في ذلك اليوم ، فوقعت يدُ فرسه في خسف كان هناك ، وأصاب في الحال رأس فرسه حجر المنجنيق[٢] فركِبَ غيرَه ، وعاد ، وصرف النّاس عن الحرب بعد أن أشرف البلد على الأخذ إبقاء لحرمة البلد ، وكان عسكره دائرًا بالبلد من جميع وجوهه .

ثم إنّ السّلطان راسل الأمراء من بني كلاب وأحضرهم من البرّيّة ، فوصَلوا إليه ، وعوّل على تقليد بعضهم وتَرْكه في مُقابلة محمود وعَوده لأجل ما بلغه من ظهور ملك الرّوم إلى بلاد أرمينية عازماً على قصد خُراسان .

[٨٧ ظ] ولمّا علم محمود بأنّ البلد قد أشرفَ || على الفتح ، وعَلِمَ بوُصول الأمراء من بني كلاب ، وأنه إنْ تمّ ذلك خرج الشّامُ مِنْ يدِهِ ، فراسل السُّلَيمانيّ — وكان يتردّد إليه في الرّسالة — يُعلمه أنه قد عزم على وَطْء بساط السّلطان وخدمته خوفاً مما أشرفَ عليه .

فخَرج إلى السّلطان بنفسه ، ومعه والدته علويّة ، المعروفة

(١) الخَلَنج : شجر كالطرفاء وزهره أحمر وأصفر وأبيض ، وحبّه كالخردل ، وهو فارسيّ معرّب .

(٢) أورد ابن الأثير هذا الخبر في إيجاز على عادته ٨/١٠٩ : « فامتنع محمود من ذلك فاشتد الحصار على البلد ، وغلت الأسعار ، وعظم القتال وزحف السلطان يوماً وقرب من البلد فوقع حجر منجنيق في فرسه » .

بالسيّدة[١]، في أوّل شعبان ، وأخذ مفاتيح البلد معه، فدخلا والعسكر سِماطان بينَ يدَيه ، فخدماه ، وسلّما عليه ، فأكرمها ، وأحسن اليهما ، وقال للسّيدة : « أنتِ السّيدة ؟ » قالت : « سَيّدةُ قومي »[٢] — وقد ذكرنا أنّه جرى لها ذلكَ مع المُستنصِر — .

وأطلق لهُ البلد ، وشرّفَهُ ، وخلع عَلَيه ، وكَتب له توقيعاً بحلب ، وتردّد خُروج محمود إلى خدمته مَرّةً بعد أخرى ؛ وقرّر معه السُّلطان أن يخرج بعسكرِه ، ويضيف إليه السّلياني ، وأنْ يتوجّها إلى بلاد دمشق والأعمال المصريّة لِفَتحِها فَفَعل ما أمرَهُ به ، وعاد السُّلطان إلى بلاده .

الروم والسلطان

وقيل : إنّه خَلّف ابنَه مع فوْجٍ من عساكره بكُورَة حَلَب ، وقصد ملك الرُّوم ، وأسرع في السّير لأنّه بلغه أنّ ملك الرُّوم خرج في جموعٍ لا تُحصى ؛ وأنه وَصل إلى قاليقَلا[٣] — وهي أرزن الرّوم[٤] — . فوَصل السّلطان إلى

(١) في الكامل لابن الأثير ٨ / ١٠٩ : « فلما عظم الأمر على محمود خرج ليلاً ومعه والدته منيعة بنت وثاب النميري فدخلا على السلطان وقالت له هذا ولدي فافعل به ما تحب ، فتلقاهما بالجميل ، وخلع على محمود وأعاده إلى بلده » — والخبر في ذيل تاريخ دمشق ٩٩ مختصر جدًّا ، وكذلك في وفيات الأعيان ٢ / ٦٦ — وأما تاريخ العظيمي مخطوطة استانبول بالورقة ١٨١ ظ فتورد عن الحادثة : «وخرجت أمه السيّدة إلى السلطان وخرج محمود ووطئ بساطه فأنعم عليه بالبلد » — وهنا نلاحظ أن ابن الأثير وابن العديم وحدهما أوردا اسم السيدة زوجة نصر وأم محمود ، وقد مر بنا في الجزء الأول من زبدة الحلب في محلات كثيرة اسم هذه السيّدة ، وهو « علوية » لا « منيعة » كما يورد ابن الأثير واوصاف الذكاء والنجابة هنا تنطبق عليها في كل ما روي عنها .

(٢) انظر زبدة الحلب ١ / ٢٦٧ : « فأعجبه منها سرعة جوابها وحسن توصلها وقال لها : أنت المسماة بالسيّدة فقالت : نعم سيّدة قومي وأمتك يا أمير المؤمنين ! »

(٣) في معجم البلدان لياقوت ٦ / ١٩ : « قاليقلا : بأرمينية العُظمى من نواحي خلاط ثم من نواحي منازجرد » .

(٤) في معجم البلدان لياقوت ١ / ٢٠٥ : « أرزن : مدينة مشهورة قرب خلاط

أذربيجان[١] حين بلغه أنَّ ملك الرُّوم قد أخذ على سمْتِ خلاط[٢]، وكان السّلطان في خوَاصِّ جُنْدِهِ، وجموعُ عساكِرِهِ بعيدةٌ عنه، ولم يَرَ العَوْدَ إلى بلاده؛ فسيَّر وزيرَه نظامَ الملك وزَوْجته الخاتُون إلى تبريز[٣] مع أثقالِهِ[٤].

[٨٨ و] وبَقِيَ في خمسة عشر ألف فارسٍ من نُخْبَـةِ عسكرِهِ || مع كل واحدٍ فرسُه وجَنِيبُهُ[٥]؛ والرُّوم في زُهـاء ثلاثمائة ألفٍ أوْ يزيدُونَ ما بَيْنَ فارس وراجلٍ، من جموعٍ مختلفـةٍ منَ الرُّوم، والرُّوس، والخزَر[٦]، واللّان[٧]، والغُزّ[٨]، والقفجق[٩]، والكرج

ولها قلعة حصينة وكانت من أمر نواحي أرمينية، وأما الآن فبلغني أن الخراب ظاهر فيها» – ثم يقول ياقوت: «وأرزن الروم بلدة أخرى من بلاد أرمينية أيضاً أهلها أرمن» ولكنه لا يحدد موقعها، بل يضطرب في ذلك ويتردد في الفصل.

(١) في معجم البلدان لياقوت ١/١٧١: «أذربيجان: بالفتح ثم السكون وفتح الراء وكسر الباء الموحدة وياء ساكنة وجيم وهي اقليم واسع ومن مشهور مدائنها تبريز وهي اليوم قصبتها وأكبر مدنها» وهي تتصل من الشمال ببلاد الديلم من أرض الفرس.

(٢) في معجم البلدان لياقوت ٢/٤٥٧: «خلاط: بكسر أوله وآخره طاء مهملة – البلدة العامرة المشهورة ذات الخيرات الواسعة.. وهي قصبة أرمينية الوسطى».

(٣) في معجم البلدان لياقوت ١/٨٢٢: «تِبْرِيز: بكسر أوله وسكون ثانيه وكسر الراء وياء ساكنة وزاي - كذا ضبطه أبو سعد – وهو أشهر مدن أذربيجان، وهي مدينة عامرة حسناء ذات أسوار محكمة بالآجر والجصّ».

(٤) في الكامل لابن الاثير ٨/١٠٩: «فسيّر الأثقال مع زوجته ونظام الملك إلى همذان».

(٥) الجنيب: كل طائع منقاد، والجنيبة: الدابّة تُقاد

(٦) الخزر: بلد بين بحر الخزر والروس، يسمى باسم النهر الذي يجري عليه – انظر زبدة الحلب ١/٢٦٠ بالحاشية، وارجع الى معجم البلدان لياقوت ٢/٤٣٦.

(٧) في معجم البلدان لياقوت ٤/٣٤٣: «اللّان: آخره نون – بلاد واسعة في طرف أرمينية قرب باب الأبواب مجاورون للخزر... وهم نصارى تجلب منهم عبيد أجلاد».

(٨) الغُزّ: من أجناس الأتراك – انظر كتاب البلدان للهمذاني ص ٣٢٩.

(٩) لعله الخفجاخ او الخفشاق كما في كتاب البلدان للهمذاني بالصفحة المذكورة؛ وهم صنف من الأتراك كذلك – وقد رسمه كاهن Qipčāq .

والأبخاز[١]، والفرنج، والأرمن. وفيهم خمسة آلاف جَرْخي[٢]؛ وفيهم ثلاثون ألف مُقَدَّمٍ ما بين دوقس، وقومص[٣]، وبطريق.

فرأى السُّلطان أنّ الإمهال للحشد والجَمْع مُضِرٌّ؛ فركب في نُخْبَتِهِ وقال: أنا أَحْتَسِبُ نَفْسِي عِنْدَ اللهِ؛ وهي إمّا السعادة بالشهادة، وإمّا النصر[٤] ﴿ وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ ﴾[٥]. ثم سار مرتّباً جيشَه قاصدًا جموعَ الرُّوم.

وكانَ ملك الرُّوم قد قدم مقدّماً في عشرين ألف مدرع من شجعان عسكره، ومعه صليبُهم الأعظم؛ فوصل إلى خلاط، فنهب وسبى، فخرج إليه عسكر خلاط، ومعه صندُق التّركي الخارج إلى بلد حلب، في سنة اثنتين وستّين — على ما قدّمْنا ذِكْرَهُ — فكسره صنْدق؛ وأَسَرَهُ، وصادف ذلِك وُصول السّلطان؛ فأمر بِجَدْعِ أَنْفِهِ[٦].

وعَجَّل إنفَاذَ الصَّليب[٧] الّذي كان في صُحْبته إلى نِظام المُلك،

(١) الكرج هم الأبخاز، وقد ذكر مسالك الممالك للاصطخري ١٩١: «ان الأبخاز قوم من أرمينية ولهم مدينة باسمهم» – والكرج عند الافرنج Géorgiens.

(٢) الجرْخ: آلة عليها قوس يرمي السهام أو النفط، ج جُرُوخ – والجَرْخيُّ: هو الذي يرمي بهذه الآلة – انظر معجم دوزي ١ / ١٨٢.

(٣) في الأصل: «مومص» ولعلها محرفة عن «قومص» وقد ترجم كامن الى الفرنسية هذه المراتب فقال: « Ducs, comts ou patrices. »

(٤) في الكامل لابن الأثير ٨ / ١٠٩: «وقال لهم: إنني أقاتل مُحتسباً صابراً فان سلمت فنعمة من الله تعالى وان كانت الشهادة فان ابني ملكشاه ولي عهدي» – انظر المنتظم لابن الجوزي ٨ / ٢٦١.

(٥) القرآن الكريم – سورة الحج ٢٢ / ٤٠ وتمامها: «ولَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إنَّ اللهَ لَقَويٌّ عَزِيزٌ».

(٦) في الكامل لابن الأثير ٨ / ١٠٩: «فانهزمت الروسية وأسر مقدمهم وحمل الى السلطان فجدع أنفه» – انظر شذرات الذهب ٣ / ٣١١.

(٧) في ابن الأثير: «وأنفذ بالسلب إلى نظام الملك» – في المنتظم لابن الجوزي

وأمره بتعجيلِ إنفاذِهِ إلى «دار السَّلام» مُبَشِّراً بالفَتْحِ؛ وتَلاحق عسكرُ الرُّوم، فنَزَلوا على خلاط مُحاصِرين لها؛ ونَزَل المَلِكُ على مَنازكِرد[1] فسلّمُوها إليه بالأمـان خوفاً من معرّة جُيُوشه إنِ استَوْلوا عليهم؛ وذلك في يوم الثّلاثاء رابع ذي القعدة، سنة ثلاث وستّين وأربعمائة.

فلما كان يوم الأربعاء سَيَّر أهلَ منازكرد، وخرج بنفسه ليشيّعهم وهو في جُمُوعِهِ وحُشُودِهِ || ووافق ذلك وُصول العسكر السُّلْطَانيّ، ووَقعت العَينُ في العَين، فحَمل المسلمون حملةَ رَجُلٍ واحد، فردّوهم على أعقابهم. [٨٨ ظ]

وشرع أهلُ منازكرد يتسلّلون من بينهم فقَتَل الرُّومُ بَعْضَهم، ونجا البَاقون، وترك الرُّوم طريقَهم الّذي كانوا سالكيه، وعـاد ملكهم فنزل في مَضَارِبِهِ بين خلاط ومَنازكرد؛ وباتُوا ليلَتَهم على أعظمِ قلقٍ وأشدِّهِ.

نصرة السلطان

فلمّا أصبَحُوا بُكرة الخميس وَصَل السلطـانُ ألب أرسلان في بقيّة عساكره، فنزل على النّهر، وملك الرُّوم على موضع يُعْرَفُ بالزّهوة[2] في مائتي ألف فارس، والسّلطان

٨/٢٦١ : «وأخذ الصليب وهربوا بعد أن اثخنوا قتلًا وجراحاً، وحمل مقدمهم الى السلطان فأمر بجدع أنفه وأنفذ الصليب وكان خشباً وعليه فضة وأقطاع من الفيروزج».

(١) منازكرد أو منازجرد : بلد بين خلاط وبلاد الروم، في شمالي بحيرة وان — انظر زبدة الحلب ١/٢١٩ بالحاشية.

(٢) في الأصل المخطوط عندنا «بالزهراء» ولم نقع عليه في معاجم البلدان — وفي المنتظم لابن الجوزي ٨/٢٦١ : «فالتقيا بموضع يقال له الزهرة.» — والزهوة كما في معجم البلدان لياقوت ٢/٨٨٠ ما اطمأن وارتفع ما حوله، ثم يحدّد أنه صحراء قرب خلاط، فلعلّ الاسم هنا هو الزّهوة لا الزهراء لقرب الأوّل من مواقع الحرب المذكورة ولأنه يوافق كذلك ما في مرآة الزمان لسبط ابن الجوزي بحاشية الصفحة ١٠٢ من ذيل تاريخ دمشق : «في موضع يعرف بالزهو بين اخلاط ومنازجرد» — لذلك صححنا الاسم في المتن كما ترى.

في خمسة عشر ألف[1] ؛ فأرسل السّلطان رسولًا حمّله سُؤالًا وضراعة، ومقصوده أن يكشف أمرهم ، ويختبرَ حالَهم ويقول لملك الرّوم: « إنْ كُنتَ ترغبُ في الهدنة أتممْناها ، وإن كنتَ تزهدُ فيها وَكلنا الأمرَ إلى الله عزّ وجلّ[2] » .

فظنّ الرّوميّ أنّه إنّما أرسله عن ضرورةٍ فأبَى واستكبر، وأجاب[3] بأنّي سوف أجيب عن هذا الرأي بالري[4] ؛ فغاظ السّلطانَ جوابُهُ ، وانقطعت المراسلةُ بينهما .

وأقام الفريقان يوم الخميس على تعبئة الصّفوف ، فقال أبو نصر محمد بن عبد الملك البُخاريّ الحنفي فقيه السّلطان وإمامُه : « أنتَ تُقاتِلُ عَنْ دينِ الله الّذي وعد بإظهاره على الأديان[5] ، فالقَهُم يومَ الجُمعة بعد الزّوال، والنّاسُ يَدعُون لكَ على المنابر في أقطار الأرض ».

فلما أصبحوا يومَ الجمعة ركب السّلطان بجموعه وَركبت الرّوم

(١) يختلف عدد المحاربين في المصادر ؛ وابن الجوزي يورد تفصيلات يحسن الرجوع اليها ٨ / ٢٦١ .

(٢) في المنتظم لابن الجوزي ٨ / ٢٦١ : « فراسل السلطان ملك الروم بأن يعود الى بلاده ، وأعود أنا فتتم الهدنة بيننا التي توسطنا فيها الخليفة ، وكان ملك الروم قد بعث رسوله يسأل الخليفة أن يتقدم إلى السلطان بالصلح والهدنة . فعاد جواب ملك الروم بأني قد انفقت الأموال الكثيرة للوصول إلى مثل هذه الحالة » .

(٣) في المنتظم : « هيهات لا هدنة إلّا بالري ولا رجوع إلا بعد أن أفعل ببلاد الاسلام مثل ما فعل ببلاد الروم » .

(٤) الريّ : مدينة مشهورة بينها وبين نيسابور مائة وستون فرسخاً – انظر معجم البلدان لياقوت ٢ / ٨٩٢ .

(٥) في الكامل لابن الأثير ٨ / ١٠٩ : « فقال له امامه وفقيهه ابو نصر محمد بن عبد الملك البخاري الحنفي : إنك تقاتل عن دين وعد الله بنصره واظهاره على سائر الأديان وأرجو أن يكون الله تعالى قد كتب باسمك هذا الفتح فالقهم يوم الجمعة. . . » – انظر تفصيل ذلك فيما يلي من سطور بعد هذه الجملة .

فتواقفوا ، فلمّا حان وقتُ الزَّوال نَزَل السُّلطان عن فرسه[١] ، وأحكَمَ [٨٩ و] || مَدَّ حزامِهِ ، وتضَرَّع بالدُّعاء إلى الله تعالى ، ثم رَكِبَ وفرّق أصحابَه فِرَقاً كُلّ فرقةٍ منهم لها كَمِينٌ ، ثمّ استقبل بوَجْهِهِ الحربَ .

انكسار الروم

وحَمَل ملكُ الرُّوم بجمعِهِ ، فاستطرَدَ المسلمونَ بَيْنَ أيديهم ، وَاَسْتَجَرُّوا الرُّومَ إلى أن صار الكَمِينُ مِنْ وَرَائهم ، ثُمّ خرج الكمينُ مِنْ خَلْفِهم ، ورَدّ المسلمون في وُجوهِهم ، فأَنْزَلَ اللهُ نَصْرَهُ ، وكُسِرَتِ الرُّومُ ، وأُسِرَ المَلِكُ ، واَستولى المُسلمون على عَساكِرِهم ، وَغَنِموا ما لا يُعَدُّ كثرةً ولا يُحصى عَدَدًا وَعُدّةً[٢] .

وقيد المَلِكُ أسيرًا إلى بَيْنَ يَدَي السُّلطان ، فأقامه بَيْنَ يَدَيهِ ومعه بازِي و كلبُ صَيْدٍ .

وكانَتْ مع الرُّوم ثلاثةُ آلاف عجلَة تحمل الأَثقَالَ والمنجنيقات ، وَكان مِنْ جُمْلَتِهَا منجنيقٌ بِثَمَانيةِ أسهُمٍ تحمِلهُ مائة عجلَة ، ويمدّ فيهِ ألفٌ ومائتا رَجلٍ ، وَزِنُ حَجَرِهِ بالرّطلِ الكبير قنطار ، وحمل العسكر من أموالهم ما قدَرُوا عليهِ .

وسقَطَتْ قِيمَةُ المَتاعِ والسِّلاحِ والكراع ، حتى بيعت اثنتا عشرة خوذة بسُدس دينارٍ ، ولم يسلَمْ مِنْ عَسكَرِ الرُّوم إلّا العَسْكرُ الّذي كان مُحاصرًا خلاط ، فلما بلَغَتْهُم الكَسْرَةُ رَحلوا عن البلد جَافِلين ، فاتبعَهُم المُسلمونَ وتخطّفُوا أطرَافَهم ، فلم يُلْوِ أَوّلُهم على آخِرِهم .

(١) في الكامل ، والمنتظم : « وعقد ذنب فرسه بيده » .

(٢) في الكامل لابن الأثير ٨ / ١١٠ : « فانهزم الروم وقتل منهم ما لا يحصى حتى امتلأت الأرض بجثث القتلى وأسر ملك الروم » .

فَمِنْ عَجِيبِ الاتّفاقِ ما حُكِيَ : أنه كان لِسَعْدِ الدّولة كوهرائين[1] مملوكٌ أهداه لِنِظام المُلك، فَرَدَّهُ عليه فجعل يُرَغِّبُهُ فيه، فقال نظام المُلك : « وماذا عسى أن يكون من هٰذا المملوكِ! يأتينا بملكِ الرُّوم أسيرًا » ، مستهزئًا بِهِ .

ثم أُنسِيَ هٰذا الحديث || إلى أنْ كان في هٰذه الحادثة فاتّفق وُقوعُ [٨٩ ظ] ملِكِ الرُّومِ في أمرِ ذلك الغُلامِ، فخلع السُّلطانُ عَلَيْهِ، وبالغ في إكرامِهِ، وحكّمَهُ في طلبِهِ واقتراحِهِ[2]، فَطَلَبَ بشارة غَزْنة[3]، فكتب له بذلك .

ثمّ رَحَل السُّلطانُ إلى أذربيجان، والمَلِكُ في قَيْدِهِ، فأحضَرَه السُّلطانُ بين يدَيْه[4]، وسأله عن سَبَبِ خُروجه وتَعْريضِهِ نفسَهُ وعسكره لهذا الأمرِ؛ فذكر أنه لم يُرِد إلّا حَلَبَ، وكلّما جرى عَلَيَّ كان محمود السببَ فيه والباعث عليه، فقال : « اصدقني عما كنتَ

(١) في الأصل المخطوط عندنا : « كوهرابين » – وفي ابن الأثير :« كوهرائين » – وفي المنتظم : « الكهر – أي الخادم » – وهو سعد الدولة كوهرائين قُتل سنة ٤٩٣هـ ؛ وكان في ابتداء أمره خادمًا للملك أبي كاليجار بن سلطان الدولة بن بويه انتقل اليه من خوزستان – انظر ابن الأثير ٨/١٩٤ ، والنجوم الزاهرة ٥/٩٣.

(٢) في المنتظم لابن الجوزي ٨/٢٦٣ : « وخلع على الذي أسره وحجبه وأعطاه ما اقترحه » – وفي هذا المصدر تفصيل واسع يحسن الرجوع إليه لاكمال ما جاء عند ابن العديم هنا .

(٣) في معجم البلدان لياقوت ٣/٧٩٨ : « غزنة : بفتح أوله وسكون ثانيه ثم نون هكذا يتلفظ بها العامة ، والصحيح عند العلماء غزنين ويعربونها فيقولون جزنة . . . – وهي مدينة عظيمة وولاية واسعة في طرف خراسان ، وهي الحد بين خراسان والهند.»

(٤) في الكامل لابن الأثير ٨/١١٠ : « فلما أحضر ضربه السلطان الب ارسلان ثلاثة مقارع بيده ، وقال له : الم ارسل اليه في الهدنة فأبيت فقال دعني من التوبيخ وافعل ما تريد » – في المنتظم ٨/٢٦٢ :« فتقدم السلطان باحضاره فاحضر بين يديه فضربه بيده ثلاث مقارع أو أربعًا ورفسه مثلها . . .»

عازماً عليه أن لو ظَفِرْتَ بي » فقال : « كُنتُ أجعلُك[١] مع الكِلاب في ساجُور »[٢] .

فقال السلطان : « ما الذي تؤثر أن يُفعل بك ؟ » فقال : « انظر عاقِبةَ فَسَاد نِيّتي واختر لنَفْسِك[٣] ! » فرقّ له قلبُ السُّلطان ، فَمَنَّ عليه ، وأطْلَقَهُ ، وأكْرَمَهُ ، وخَلَع عليه بعد أن شَرَطَ علَيْهِ[٤] أنْ لا يَتَعَرَّض بشيء من بلاد الاسلام ، وأن يُطلق أسرى المسلمين كلهم ، وسَيَّرَهُ إلى بلادِهِ ، وسَيَّر مَعَهُ قِطْعَةً من العسكر توصله[٥] .

فلمّا انصرف ديوجانس إلى قسطنطينية خلعوه من المُلك[٦] ، ولم يَتِمّ له ما أراد . وقيل : إنّه كحل ، ومات بعد مدّة . ولَمْ يُنْقَلْ أَنَّهُ أُسر للرُّوم مَلِكٌ في الاسلام قبل هذا .

حاشية محمود وشعراؤه

وأمّا محمود بن نصر بن صالح فإنّه سار بعسكره بَعْدَ رحيل

---

(١) في ابن الأثير : « فقال : افعل القبيح » – في المنتظم : « قال : القبيح » .

(٢) الساجور : خشبة تعلق في عنق الكلب يقاد بها .

(٣) في الكامل لابن الأثير ٨ / ١١٠ : « قال له : فما تظن أنني أفعل بك : قال إما أن تقتلني واما ان تشهرني في بلاد الاسلام والاخرى بعيدة وهي العفو وقبول الاموال واصطناعي نائباً عنك » – انظر تفصيل حديثها في المنتظم لابن الجوزي ٨ / ٢٦٣ .

(٤) في المنتظم وفي ابن الاثير شروط مفصّلة منها انه فداه بالف ألف دينار وخمسمائة ألف دينار وأن يرسل اليه عساكر الروم اي وقت طلبها ، وأن يطلق كل اسير في بلاد الروم – انظر الصفحات المذكورة قبل هذا الكلام في كل من المصدرين .

(٥) في ابن الأثير : « وسيّر معه عسكراً أوصلوه الى مأمنه وشيعه السلطان فرسخاً » – في المنتظم : « وأنفذ حاجبين ومائة غلام يسيرون معه إلى قسطنطينية وشيعه نحو فرسخ » .

(٦) في ابن الأثير : « وأما الروم فلما بلغهم خبر الوقعة وثب ميخائيل على المملكة فملك البلاد » – في المنتظم : « ولما بلغ الروم ما جرى حالوا بينه وبين الرجوع الى بلادهم

السّلطان عن حلب، ومعه بنو كلاب والسّلياني، في شعبان من هذه السّنة، فنزلوا بالقرب من بَعلبكّ قاصدين دمشق وبلادها ــ وبها يومئذ ابن منزو الكتاميّ ــ حسب ما تقدّم السلطانُ إليه، وأقام محمود ليتبيّن ما يفعل.

وكان عمّه عطيّة بنُ صالح قد || صارَ مع الرُّوم مستنجدًا بهم على [٩٠ و] ابن أخيه محمود؛ وبعد أن قصد المصريّين فلم يحصل على شيء منهم. فخرج عطيّة مع النحت دوقس أنطاكية وعسكر الرُّوم؛ فهجموا معهُ مَعرّة مصرين[1] وأحرَقُوا بعضها، وقَتلوا من قَدرُوا عليه.

وبلغ الخبر محمودًا وهو في أرض بعلبكّ فعاد إلى حلب، وسار السُّلَيماني[2] ليَلحَقَ بالسُّلطان ألب أرسلان؛ واتصلت غاراتُ الرّوم على الشّام، فاستنجد محمود «بقرلو التّركيّ» ومن معه من الأمراء بفلسطين، وهم: ابن أخي الملك ابن خان، وأتسز بن أوق[3] وإخوته. وكانوا أوّل من طلع من التّرك إلى بلاد فلسطين، وفتحوها، وأقاموا بها فنزلوا إلى محمود مُنجدين له، وأقاموا إلى أن تفرّق عسكر الرُّوم.

موت عطية

ودخل عطيّة عمّ محمود إلى قُسطَنطِينيّة، فسَقَطَ مِنْ سَطح كان نائِمًا عليه وهو سكران؛ فماتَ سنة أربع وستّين؛

ــــــــ

وملكوا غيره فأظهر الزهد ولبس الصوف» – انظر كذلك في مرآة الزمان لسبط ابن الجوزي بحاشية ذيل تاريخ دمشق بالصفحة ١٠٣ – ١٠٦.

(١) معرة مصرين: كورة بنواحي حلب.

(٢) هو ايتكين السلياني شحنة بغداد – انظر ابن الأثير ٨ / ١١١.

(٣) هو اتسز بن أوق الخوارزمي من أمراء السلطان ملكشاه – وقد جاءت ترجمته في تاريخ ابن عساكر لدمشق ط. الشام ١٣٣٠ هـ ٢ / ٣٣١ وقد قتل سنة ٤٧١ هـ. وابن الأثير ٨ / ١٢٣ يقول ان الشاميين يسمونه «الاقسيس»، والشائع انه أتسز وهو اسم تركي.

وسار محمود إلى الرَّحبة(١) فأخذها ؛ وحُمِل إلى حلب ودُفِنَ بها غربيّ باب الجنان(٢) ، في مشهد أمه طَرود(٣) قبليّ بُستان النّقرة ، وصَلى عَلَيْه ابنُ أخيه محمود . ثمَّ عاد الأتراكُ بعد أن حَمَل إليهم محمود مالًا وخيلًا .

أبو بشر النصراني

وفي سنة أربع وستّين وأربعمائة ، تغيَّرت أخلاق محمود بعد رحيل السّلطان ، وتنكّر لأصحابه ؛ وتغَيّر على وزيره أبي بِشر النَّصراني ؛ وكان هو الذي ساعده بماله حتى ملك حَلَب ، واستجذب العربَ إليه ، وكان القائد أبو الحسن بن أبي الثريا ـــ الذي كان وزير عطيّه ـــ قد سَعَى به ليليَ وزارة محمود ، وطالبه بمالٍ جليلٍ .

[٩٠ ظ] وكان محمود قد رغب في جمع المال ، وَغَلَبَ عَلَيْهِ حُبُّ || الدنيا فذكر له أبو بشر أنه عاجز عن أداء ما طُولِبَ به ، وأنه ممّا لَا تَصِلُ يده إليه ولا إلى بعضه . فأمر محمود بقَتْلِ وَلَدٍ كان لأبي بشرٍ وبقتل أخيه ؛ فقُتِلا وقُطع رأساهما ، وعلّقا في عُنُقِـهِ ؛ فسُمِعَ أبو بشرٍ وهُو يقولُ :

وَيْحَ دَهرِي مَا أمرَّه ما وفى خيرٌ بشرّه(٤)

وحلف أبو بشر أنه بعد ما فعله بابنه وأخيهِ لا يظهر لـه شيئاً من

(١) الرحبة : بينها وبين حلب خمسة أيام : انظر زبدة الحلب ١ /٩٣ بالحاشية.

(٢) باب الجنان يقع في الجانب الغربي من حلب.

(٣) مرّ ذكر هذه المرأة في زبدة الحلب ١ / ٣٠٢ ، وهي زوجة صالح بن مرداس أم عطيّة ، وإليها ينسب مشهد طرود خارج باب الجنان في طرف الحلبة.

(٤) وقع العجز في الأصل : «ما وفى خيره بشره» وهو بهذا أقرب إلى الشعر العاميّ ، فلعله كما صوّبنا.

ماله . وقال : كلّ مَنْ عِنده شيءٌ مُودَعٌ فهو في حلّ مِنْه وسَعَة .

وندم محمود على ما فَعَلَ ، وأراد الرّجوع له ؛ وأرسل إليه شافِع ابن الصُّولي أن يقرّر عليه شيئاً ويطلقَهُ فامتنع .

واتّفَق أنّ محمودًا اصطبحَ ، وقُدِّم إليه طَعامٌ بعد سكره ، فأنفَذَ منه لأبي بشر مع فرَّاشِه ؛ فقامَ قائمًا ، وقبّل الأرضَ ، وشكر وَدَعا . فعرف ابن أبي الثريا ، فركب ، ولَقِيَ الفرَّاشَ وَدَفَعَ إليه مِائةَ دينار ؛ وسأله أن يقول لمحمود : « إنّ هذا شيخٌ خرفٌ لأنه لم يَقْبَلْ طعامَ مَوْلانا ، وقال : كافأه الله وعجّل عَلَيْهِ » . ففعل الفرّاشُ ذلك .

ودخل ابن أبي الثّريا عقيبه على محمُود ؛ وجاراه في حديثٍ لا يتعلّق بأبي بشر فلم يُقبِلْ عَلَيْهِ ، ووجده مملوء القَلْب غَيْظًا من جَواب الفرّاش . فقال ابن أبي الثّريا : « الله لا يُشغِل لمولانا خاطرًا ، فما أراه منبسطاً في مجلسه ولا مُصغياً إلى المملوك » . فحدّثَهُ بما قال الفرّاش ، فقال يا مولانا : « لم تزل إليه محسناً وَيُقابلك بالاساءة فكيف يكونُ بعدما جَرى عليه وعلى ابنه وأخيه ما جرى ؟ وأنا أدري أنك تريد ماله ؛ وقد تكرّر قولُه أنه لا يُعطيك شيئاً » . قال محمود : « هذا سَيْفي || وَخاتمي ، خُذْهما وامض إليه فان لم يقرّ بشَيءٍ فاقتُلْهُ » . [٩١ و]

فقامَ ابن أبي الثّريّا مِنْ عِنْدِه بذلك ، واشتغل محمود بالشرب < فَنَهم >[١] منه ؛ وأحضر ابنُ أبي الثريا أبا بشر فلم يُطالبه بمالٍ بل قال له : « ما زلتَ تتجلّدُ حتّى صرتَ إلى هذه الحال » . فقال : « يا قائدَ السُّوء قد

(١) طمست معالم هذه الكلمة في الأصل المخطوط ، فرأينا أن أقرب كلمة إلى الرسم والمعنى : « نَهِم » أي أفرط وبالغ .

علمتُ أنّ هذا كلّه مِنْ سَمْيك ؛ والأجلُ لا مَرَدّ له ، وهـذا موتُ الشُّهَدَاء ؛ ولكنْ استعِدّ لِرِجْلِكَ بِحَبْلٍ ، فستموتُ مِيتَةَ الكِلابِ ، ويُجَرُّ جِيفَتُكَ إلى الخندق » .

مقتل أبي بشر

وقُتل أبو بشر ، ورُمي وَسْط بِئْرٍ بُستان القَصْر . وصعد الوزير أبو نَصْر بن النحّاس ثاني يَوْم قَتْـل أبي بشر إلى خدمة محمود ، فقال له سرًّا : «تمضي إلى أبي بشر لتقرير ما عليـه ، ويُطلَق» . فقالَ : «يا مَوْلانا وَما قَدْ قَتَلْتَهُ» . فأطْرَقَ محمود ساعَة وقال: « تَمّـت عَلَيّ وَعَلَيْهِ الحيلةُ ، وَيَجِبُ يا أَبَا نَصْر أَنْ تَـكْتُمَ هذا الأَمْر». قال أبو نصر : « فما حَدَّثْتُ بِهِ إِلّا بَعْد مَوْت محمود » . واستقلّ ابن أبي الثريا بوزارة محمود .

خبر ابن منقذ

وأما سديدُ الملك أبو الحسن بن مُنْقِذ فإنّهُ استَشْعَرَ مِنْ تاج الملوك أن يَقْبِضَهُ ــ وكان أخاهُ من الرّضاعة ــ فاجتمع بِأَسْبَاسَلار[1] أبي حرب ، المعروف ، بخريبة الفايا[2] ، وكان صاحب سِرّ محمود وَنَدِيمه ، وكان لابن منقذ إليه إحسانٌ كثيرٌ وصنائعُ جَمَّةٌ ؛ فقال له : « قد استشعَرْتُ مِنْ تاجِ المُلوكِ فَانْظُرْ ما تعملـه معي » . فقال :« تُـكَلّفُني أنْ يقول الأمير أُريدُ أَقبِضُ على فُـلانٍ فأخبرك بذلِك ! لا ؛ والله ، ولكن أَنا أُنفِذُ إليك مَعَ عَجُوزٍ عِنْـدي أَلْفَيْ دينار ؛ فاذا نَفِدَتْ طَلَبْتُها منكَ فشأنك وَنفسك » .

فبقِيَتْ تلك الدّنانير عندهُ مُدَّةً ثُمّ نَفَذَ العجوزَ يَطْلُبُهـا ، وكان

(١) في الأصل : «اسباسلار» – وهي مثل اسفهسلار ، انظر في معناها صبح الأعشى ٣: ٤٨٣.
(٢) في الأصل : « خريبة الفافا» ولم نقع عليه في المصادر الأخرى ، ويخيّل إلينا أنه مصحّف ، فلعله « خريبة الفايا » .

قد أصلح حاله || للسَّفر ، فدفع إليها الدّنانير ، ورَكِبَ مِنْ يومه ، وخرج [٩١ ظ] من حلب إلى كفرطاب فاستصحَب منها ما أراد .

وسَيَّرَ حُسَيْن بن كامِل بن الدَّوح إلى سديد المُلك بن مُنْقذ يسأله الاجتماع به فاجتمعا ؛ فقال له حسين : « ايش رَأْيك في الدُّخول إلى حلب ؟ » فقال : « ما أقولُ لك شيئاً لأنّ لك مالًا عظيماً ، فإنْ أَشرْتُ عليكَ بِتَرْكه كُنتُ مَلوماً عِندَك ، ولكنّي أقولُ لكَ ما أعملُ ، وأنتَ ترى رأيك . واللهِ لا نَظَرْتُ محمودًا أبدًا » ! .

وسار إلى طرابلس فكتب محمود إلى ابن عمار[1] يأْمُرُهُ بالقَبْضِ عَلَيْهِ ، ويَبْذُل له ثلاثة آلاف دِرْهمٍ وَرَقِيَّة فلم يظفر بهِ .

وسار ابن منقذ حتى وصل إلى طرابلس في سنة خمس وستّين ، فلقي ابنَ عمّار وأخاهُ ، فكاتبهما محمودٌ فتنكّرا له .

وعزم ابن مُنْقذٍ على الطُّلوع إلى مصر ، فاتّفق مَوْت أمين الدَّولة ابن عمّار فشدّ ابن مُنقذ مِنْ جلال الملك عليّ بن عمار[2] وعاضَدَهُ بمماليكِهِ ومن طَلَع مَعَه من أهل كفرطاب ؛ فأخرجُوا أخا أمينِ الدَّولة ؛ وتولّى جلال الملك ؛ وعظم محلّ ابن مُنقذ عندَهُ حتى كان حكمه في طَرابلس مثله . وكاتَبَهُ محمود بتطييب قَلْبه ، فلم يثق به ، ولم يَعُدْ إلى حلب حتّى مات .

(١) في الأصل : « إلى ابن عمرون » ؛ ولعل الناسخ سها فجعلها كذلك ، فنحن لا نعرف من هو ابن عمرون ، وأصحّ منها أن تكون « ابن عمّار » كما يفهم من السياق فالعبارة مكررة .

(٢) انظر الكامل لابن الأثير ٨ / ١١١ – وفي النجوم الزاهرة ٥ / ١١١ : « فلما توفي قام مكانه ابن أخيه جلال الملك أبو الحسن بن عمارة ، وضبط البلد أحسن ضبط ولم يظهر لفقد عمه أثر كفايته » .

ابن النحاس

وقيل : إنّ ابن النحاس، كاتِب محمود، كَتَب إليه كتاباً من نفسه يضْمَنُ له فيه الرّضا عن محمود، وكتب في آخره: « إنّ شاء الله»[1] وشدَّدَ النّون من « إنّ »؛ ففطن ابنُ منقذ بأنه أراد قوله تعالى : ﴿ إنّ المَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بكَ لِيَقْتُلُوكَ ﴾[2] فكَتَبَ جوابَهُ : « وكتب إنّا الخـادم » وكسر الألف، وشدّد النُّونَ من « إنّا » ؛ ففطن || ابنُ النَّحّاس بأنّه أراد قوله تعالى : ﴿ إنّا لَنْ نَدخُلَهَا أَبدًا ما داموا فِيها ﴾[3]. [٩٢ و]

وأما محمود فإنه لما يئس من عَوْد أبي الحسن بن مُنقِذ قَبَضَ على أملاكه جميعها . وأمّا حُسَيْن بن الدّوح فانه دَخَل إلى حلب فقتله محمود ولم يُمْهِلْهُ .

ابن سنان الخفاجي

وكان محمود قد خَطَر له أنْ يُوَلّي في كُلّ قَلْعَةٍ من قِلَاعه رجلًا من أهل حلب، وتكون ذريته وأهله تحت يده، وطلب من الوزير ابن أبي الثريا أن يختار له من يُوليه عَزاز، فقال : « لا أجدُ لذلك إلّا أبا محمد بن سنَان الخفاجيّ » . وكان أبو نصر ابن النحاس حاضرًا ، فصوّب الرأي فيهِ .

(١) وردت هذه الحكاية في كتب التاريخ على أنها بصدد الشاعر أبي محمد عبدالله ابن سنان الخفاجي، وابن العديم نفسه يتردد في حكايتها عن ابن منقذ أو الخفاجي ثم يقول لعلها وقعت للاثنين جميعًا – انظر ما يلي من صفحات ، وارجع كذلك إلى فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي في ترجمة الخفاجي ١/٢٣٣.

(٢) القرآن الكريم – سورة القصص ٢٨ / ٢٠ وكمال الآية : « وَجاءَ رَجُلٌ مِن أقصى المَدِينَةِ يَسْعَى قالَ يا مُوسى إنّ المَلَأَ يأتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فاخْرُجْ إنّي لَكَ مِن النّاصِحِين »

(٣) القرآن الكريم – سورة المائدة ٥ / ٢٣ وكمال الآية : « قالُوا يا مُوسَى إنّا لن نَدْخُلَها أبدًا ما دامُوا فيها فاذْهَبْ أنت وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إنّا هَهُنا قاعِدُون »

فأحضره محمود ووَلّاهُ بعد أن امتنع ثُمّ أجاب .

ثُمّ إنّه استوحش عليه فاستدعاه محمود عدّة دفعات إلى حلب ، فتعلّل عليه ولم يحضر ، وكان أبو نصر بن النحّاس صديقَه وكان كاتِب محمود ؛ فكان يكتب إليه ويحذّره .

فأمَرَهُ في بعض الأيّام أنْ يكتب إليه كِتاباً يتلطّفه ويأمُرُهُ بالحضور والكتاب عَنْ أبي نصر ؛ لأنه كان يعلم ما بينهما من المودّة؛ وأمَرَهُ أن يضمن له عَنْ محمود كلَّ خير ؛ وأمَرَهُ أنْ يكتب الكِتاب بين يديه ، ولم يقع له أن يُلغز فيه شيئاً .

قال أبو نصر: « فما قدرتُ أن أعملَ فيه سوى أن شدّدتُ النّون من (إن شاء الله)؛ وتناهيتُ في لفظ الكِتاب، وقُلتُ: لو عرفت ضدّ ما كتبتُ لما كنتُ بصورة من يغشّه » . وأخذ محمود الكتاب ووَقَفَ عليه ، وكرّر فيه نظرهُ فرآه كافياً شافياً ، فأمَرَ بإلصاقِهِ وعُنوانه ؛ وَدَفَعه لبعض أصحابه ووَصّاهُ أن يقول: « هذا كتاب دفعه إليّ أبو نصر بدارِهِ » . وسار الفرّاش .

فلما وقف || أبو محمد عليه كرّر فيه نظره ، وبقي متعجّباً منه ، [٩٢ ظ] ويقول: « أخي أبو نصر أعطاك الكتاب بِدارِه أم بالديوان أم بالقلعة قدّام الأمير ؟ » فقال: « بَلْ بداره » فقال: « ما هذا صحيح ! » فحلف له فلم يُصَدِّقه إلى أن قال: «وقعتُ على المعنى» . وكتب جوابه يذكر فيه شُكْرَ أبي نصر ، وأنّه مهتمّ بالحُضور عند زوال حُمّى جسمه. ثم إنّه كاتَبَ أبا نصرٍ خفيَةً، وأعلمه أنه عثَر على المعنى في تشديد «إنّ».

وقد ذكرنا أنه جرى له ذلك مع ابن مُنْقذٍ فيحتمل أن يكون وقع ذلك معهما جميعاً[1].

ثم إنّ محموداً أنكر وقال : « ما أعرف قتله إلّا منك » ؛ فقال : « كيف ؟ » قال : « تمضي إليه اليوم ومعك ثلاثون فارساً يقفون لك في بعض الطّريق ، وتقدم منك إليه من يُعلمهُ بوصُولكَ ومعَك في رانِكَ هذه الخشكنانة[2] ومعك أنت خشكنَان غيره ؛ فإذا فعلتَ ذلك لا بُدّ أن يَنزل ويلتقيك من قلعة عَزَاز ، ويَعرض عليك الصُّعُود والنُّزول عنده ، فقل له : أنا مُوجل ومُستَحْلَفٌ أن لا أنزل على الأرض ، ولا آكلَ لكَ طَعَاماً ؛ وطَوِّل الحديث مَعَهُ إلى أن تَعلَم أنه قد جاع ؛ ثم اذكر أنتَ الجوعَ واخرج لك خشكنانَة من الّذي معك ؛ ثم أخرج المسمومَة فادفعْها إليه ، وكُل أنتَ الّتي لك ، وتَحدَّثْ معه ويكُونُ حَديثُكما على فرَسَيْكما وأنتما بمَعزِلٍ من أصحابكما ، وطَوّلْ معه الحديث ولا تبرَحْ حتّى يستَوْفِي أكلَها ، وعلامَةُ صِدقك مَوْتُه ؛ وإلّا ضَرَبْتُ عُنقك » .

موت الخفاجي

قال أبو نصر بن النحاس : فنزل عَلَيَّ مِنْ ذلك أمرٌ تَمَنَّيتُ الموتَ معه ، فخرجتُ وأنا على غايةٍ من الجَزَع والتأسّف كيف قضى || الله ذلك على يَدِي ، وجعَلتُ دَفْعَةً أُعوِّلُ على [١٣ و]

(١) ارجع إلى الصفحة ٣٦ السابقة .

(٢) الخشكنانة : نوع من الخبز يصنع مع الزبدة والفستق وهو كالحلوى المعروفة في الشرق ، وفي الفارسية تعني ما يسميه الغربيون « بسكويت Biscuit » انظر معجم دوزي ١ /٣٧٣ في كلمتي « خُشْكُنانج وخُشْكُنانك » .

الهرب ؛ ثُمّ إنّي أفكّر في أولادي وأهلي ، وإنّني إنْ فعلتُ ذلك أهلكتُهم لِعِلْمي بظُلْم صاحبي ؛ ثُمّ إنّ الفرسان مُتَوَكّلَةٌ بي .

فلمّا اجتمعتُ بهِ فَعلتُ ما ذكره لي، ثُمّ وَدَّعتُهُ عند استيفاء أكل الخشكنانة ، ورجَعْتُ مِنْ مَوْضِعي مُبادِرًا ؛ وأبعَدتُ من أرض عَزاز ، وَرَكِبتُ جنيباً كان معي ،وَجَدّيْتُ في السَّيرِ خوفاً مِنَ الطَّلَبِ .

وصعد أبو محمد إلى المركز ، فوجَدَ مغصًا شديدًا ورِعْدةً ؛ ثُمّ قال : « قَتَلَني أخي أبو نَصرٍ اطلبوهُ » . فركبتِ الخيلُ خلفَه فلم تلحقْهُ .

وَوَصل أبو نصرٍ فاجتمع بمحمود ، فعرّفه ما جرى . فلمّا كان من ذلك الغَد وصل رسول من عَزاز يستدعي الشّريف النقيبَ أبا المعالي الفَضل بن مُوسى وابنه سنان بن أبي محمّد الخفاجيّ ، وجماعةً من أهله. وذكر الرسول أنه في السِّياق ، فمَنَع محمودٌ وَلَدَهُ من الخُروج ؛ وَأمرَ الشّريفَ أن يتولّى القلعَة إلى أن يُنفِذَ إليها والياً ؛ فولاّها بعد خمسة أيام واحِدًا مِن أصحابه .

وتوفّي أبو محمد في قلعة عزاز في سنة سِتٍّ وستّين وأربعمائة[1] ؛ وقيل سَنة أربع وستّين – وهو الصّحيحُ – وَحُمِلَ إلى حلب ؛ وصلّى عليه الأميرُ محمودُ بن صالح ؛ وقيل : إنه تُوُفّي سنة ثلاث وستّين – والأوّلُ أصحُّ – ولَمّا أحسّ بالموت عَمِل :

(١) انظر ترجمة أبي محمد الخفاجي في فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي ١/٢٣٣ ، وهو عبدالله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي الشاعر الأديب كان يرى رأي الشيعة وقد عصى بقلعة عزاز من أعمال حلب – ارجع إلى تمام الحكاية عند ابن شاكر الكتبي .

خَفْ مَنْ أَمِنْتَ وَلَا تَرْكَنْ إِلى أَحَدٍ   فَمَا نَصَحْتُكَ إِلَّا بَعْدَ تَجْرِيبِ
إِنْ كَانَتِ التُّرْكُ فِيهِمْ غَيْرَ وَافِيَةٍ   فَمَا تَزِيدُ على غَدْرِ الأَعَارِيبِ
[٩٣ ظ] ‖ تَمَسَّكُوا بِوَصَايَا اللُّؤْمِ بَيْنَهُمُ   وَكَادَ أَنْ يَدْرُسُوها في المَحَارِيبِ (١)

وقيل: إنَّه كان كتبها أبو محمد من عَزاز إلى سديد الملك بن مُنقذ، ويذكر له في كتابِهِ أحوالَهُ ولِجَاجَ محمُود في طلبه، وتَغَيُّرَ نِيَّتِهِ فِيهِ، وخوفَه من غائلته وظُلمه.

ابن حيوس

وفي سنة خمس وستّين وأربعمائة – وقيل في شوّال سنة أربع وستّين – وَفَدَ أبو الفِتْيان بنُ حَيُّوس (٢) على محمود ابن نصر بن صالح، وكان سديدُ المُلك بن مُنقذ اجتَمع به بطرابلس، ورأى نُفُور بني عمّار منه لأجل مَيْله إلى الدّولة المصريّة، فأشار عليه أن يقصدَ محمودًا بحلب، فقصدهُ صُحْبَةَ نَصْر بن سَديد الملك بن مُنقذ، فأحضره محمود.

وكان قد جلس في مجلسه وأمرَ بإحضار الشَّرابِ فَشَرِبَ أقداحًا، ثم قال: « ارفعوا الخمرَ فإنَّ ابنَ حيُّوس يحضرني مُمتَدِحًا، وفي نفسي أن أهبَهُ جائزةً سنيّةً فإنْ كانَ الشَّرابُ في مجلسي قيل وَهَبَهُ وهو سكران » فرُفِعَ. وحضَرَ الأميرُ أبو الفِتْيان فأنشدهُ قصيدتَهُ الميميّةَ الّتي أوّلُها (٣) :

(١) وردت هذه الأبيات في فوات الوفيات ١ / ٢٣٣.

(٢) هو أبو الفتيان محمد بن سلطان بن محمد بن حيّوس الغنوي الدمشقي الملقب بمصطفى الدولة الشاعر المشهور، أحد الشعراء الشاميين المحسنين ولد سنة ٣٩٤ هـ – وتوفي ٤٧٣ هـ – انظر وفيات الأعيان ١ / ١٠، ومقدمة ديوان ابن حيّوس صنعة الأستاذ خليل مردم بك، بدمشق ١٩٥١.

(٣) وردت هذه القصيدة في الديوان المطبوع ٢ / ٥٩٨ – ٦٠٦.

قِفُوا في القِلَى حَيْثُ انْتَهَيْتُمْ تَذَمُّماً ، وَلَا تَقْتَفُوا مَنْ جَارَ لَمَّا تَحَكَّمَا
أَرَى كُلَّ مُعْوَجِّ المَوَدَّةِ يُصْطَفَى لَدَيْكُمْ ، وَيَلْقَى حَتْفَهُ مَنْ تَقَوَّمَا

وهي قصيدة طويلة ، أَحسَنَ فيها كُلَّ الإحسان ، وذكر إشارة ابن منقذٍ عليه بقصدِهِ فقال :

سَأَشكُرُ رَأْياً مُنْقِذِيّاً أَحَلَّنِي ذَرَاكَ فقد[1] أَوْلَى جَمِيلاً وَأَنْعَمَا

فوهب له أَلفَ دينارٍ ذهباً في صِينيَّة فِضَّة[2] ، وجعلها لـه رسماً عليه في كل سنةٍ .

واحتفر الخندق بحلب فجاءه أبو الفِتْيان فقال: « هذِهِ أعمال يَعْجِزُ عنها كِسْرَى || وَذُو الأَكْتاف » . فقـال محمود : « ما كان الأمير أَبُو [٩٤و]
الحَسَن < ينفذُك حتّى عملت >[3] واجتمع ببابِ محمود بْن نصر جماعةٌ من الشُّعراء ، فلم تصل إلى واحدٍ منهم جائزةٌ . غير ابن حيّوس ، فكتب إليه ابنُ الدُّوَيْدَةِ ، المعروف بالقاق[4] :

عَلى بَابِكَ المَيْمُونِ[5] مِنّا عِصَابَةٌ مَفَالِيسُ فَانْظُرْ في أُمُورِ المَفَالِيسِ
وَقَدْ قَنِعَتْ مِنْكَ العِصَابَةُ كُلُّها بِعُشْرِ الَّذِي أعطيتَه لِابْنِ حَيُّوسِ
وَمَا بَيْنَنَا هٰذا التَّفَاوُتُ[6] كُلُّهُ وَلٰكِنْ سَعِيدٌ لَا يُقَاسُ بِمَنْحُوسِ

(١) في الديوان المطبوع : « لقد أولى ».

(٢) في الكامل لابن الأثير ٨/١٢٤ : « وأمر له بما كان يعطيه أبوه وهو ألف دينار في طبق فضة ».

(٣) هذه الجملة مطموسة في الأصل من أثر الرطوبة وبلل المداد ، ولعلّها كما رسمنا.

(٤) في الكامل لابن الأثير ٨/١٢٤ : « وكان على بابه جماعة من الشعراء فقال بعضهم : » – وابن الدويدة هو أبو الحسن أحمد بن محمد المعرّي كما في الوفيات ١/١١.

(٥) في ابن الأثير ٨/١٢٤ ، والمنتظم ٨/٣٠٥ : « على بابك المعمور » – وفيات : « على بابك المحروس ».

(٦) في ابن الأثير : « هذا التقارب » – وفي المنتظم كذلك : « هذا التفاوت ».

فقال محمودُ: «والله لوْ قالَ بِمِثلِ ٱلّذِي أعطيتَهُ لأُعطيتُهم مِثله». ثُمَّ أمَرَ لهم بالجائزة مائة دينار أو أكثر[1].

وقَصَد الرُّومُ ناحيَة عَزاز في جموعهم، فخرج محمُود إليهم في عِدَّةٍ قليلة تناهز ألف فَارس، فاندفع الرُّوم بَيْنَ أيديهم، وقصدوا أنطاكية واحتَمَوْا بها في سنة أربع وستِّين. وافتتح محمُود قلعــة السِّنّ[2] في تاسع شهر ربيع الآخِر سنة ستّ وستِّين.

وفاة محمود

وَمَرِضَ محمودُ بْن نَصْر بن صَالح بحلب في جُمادى الأولى من سنة سبع وستّين وأربعمائة. وحدثت بِهِ قُروح في المَعَا كانت سَبَبَ مَنِيَّتِهِ[3].

وكان محمود في أول مُلكِهِ حسنَ الأخلاق، لَيِّنَ الجـانب، كريم النفس، عفيفاً عن الفُروج والأموال، ثم تنكّر وزَادَ عليه حُبُّ الدّنيا، وَجمع المالَ فلحقهُ من البُخْل ما لا يُوصَف.

(١) في ابن الأثير: «فقال: لو قال بمثل الذي أعطيته لأعطيتهم ذلك وأمر لهم بمثل نصفه».

(٢) السنّ: قلعة بالجزيرة قرب سميساط – انظر زبدة الحلب ١/١٠٦ بالحاشية؛ وهونيغمان ١٢٢ بالحاشية حيث يرسمها «Sennum».

(٣) في المنتظم لابن الجوزي ٨/٣٠٠: «سنة ٤٦٨ هـ – توفى محمود بن نصر بن صالح أمير حلب كان من أحسن الناس نزل بها في سنة سبع وخمسين؛ وقوي على عمه، وكان عطيّة قد ملكها بعد أخيه نصر فحاصره فخرج منها» – وفي النجوم الزاهرة ٥/١٠٠ «وفيها توفي محمود بن نصر بن صالح صاحب حلب ويعرف بابن الروقلية ... وسبب موته أنه عشق جارية لزوجته وكانت تمنعه منها فماتت الجارية فحزن عليها حتى مات بعد يومين».

القسم الخامس عشر

ذكر
حلب في أيام نصر بن محمود بن صالح

حكم نصر في حلب - بين نصر والأتراك - حاشية نصر

٤٦٧ هـ - ٤٦٨ هـ

حكم نصر في حلب

وأوصى بحلب لابنه شَبيب(١) — وكان أصغَرَ أولادِه — فلم تنفذ أصحابُه وصِيَّتَهُ، وَمَلَّكوا حلبَ وَلَدَه الأميرَ نَصْرَ بْنَ محمود؛ وجدُّه لأمِّهِ الملك العزيز ابن جَلال|| الدّولة بن بويه؛ وأُحصي ما وُجد في خزائن [٩٤ ظ] محمود فكانت قيمتُه من العَيْن والمَتاعِ والآلات، والثِّيابِ، والمراكب ألف ألف وخمسمائة ألف دينار.

وأَمِنَ الناس في أيام نَصْر. وكانت سيرَتُه أصلَح من سِيرَة أبيه، وأحسن إلى أهل حَلَب؛ وأطلق مَنْ كان في اعتقالِ أبيهِ منْ أحدائِهم، وعَمَّ النَّاسَ بجُوده. وكان بَحْرًا للمكارم إلا أنَّهُ كان لا يستطيع أن يَرى أحدًا يأكل طَعَامَه مع كرمه وجُوده.

ودخل عليه أبو الفِتْيان بْنُ حَيُّوس حين وَلِيَ حَلَب فأنشدهُ القصيدةَ الّتي أوَّلُها(٢): ابن حيوس

كَفَى الدِّينَ عِزًّا ما قَضَاهُ لَكَ الدَّهرُ فَمَنْ كانَ ذَا نَذْرٍ فَقَدْ وَجَبَ النَّذْرُ

اعتذر فيها عن تَأَخُّرِهِ عن سَلَفِهِ فقال:

---

(١) في المنتظم لابن الجوزي ٨/٣٠٤ : «سنة ٤٦٩ هـ — وكان قد توفي محمود بن نصر صاحب حلب، ووصّى لابنه شبيب بالبلد والقلعة فلم يتم ذلك وأعطيها ولده الأكبر واسمه نصر فسلك طريق أبيه في كرمه» — انظر ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي ١٠٨ — وفي النجوم الزاهرة ٥/١٠١ : «وكان يكره نصرًا ويحب شبلًا، والعساكر تحب نصرًا، فلا زالوا حتى ملك نصر وخلع شبل» ويلاحظ أنه صحّف شبيبًا إلى شبل.

(٢) انظر ديوان ابن حيوس المطبوع ١/٢٦٢ — ٢٦٩.

تَبَاعَدتُ عنكم حرفةً لا زَهَادَةً ... وسِرْتُ إليكم حينَ مَسَّني الضُرُّ
فجادَ ابنُ نَصْرٍ لي بألفٍ تَصَرَّمَتْ ... وَإنّي لأَرْجو أنْ سَيُخْلِفُها نَصرُ[(١)]

فأَطْلَقَ له نصرٌ ألفَ دينارٍ، وقال: «وَحَيَاتي، لو قال سَيُضْعِفُهَا نَصرٌ لأَضعَفْتُهَا[(٢)]». ولم يزل يُواصل ابنَ حيّوس بالحباء وجزيل العطاء، وأنشده ابن حَيُّوس يَوْمًا بَديهًا وقد خَرَجَ ينظر المَدَّ في قُوَيْق[(٣)]:

أَرَى الأَرْضَ تُثْني بالنَّبَاتِ عَلَى الْحَيَا ... ولَوْ تَسْتَطِيعُ النُّطْقَ خَصَّتْكَ بِالْحَمْدِ[(٤)]
بِكَ افتَرَّتِ الأَيَّام عَنْ نَاجِذِ الغِنَى ... وَغَرَّدَ طَيْرُ العَيْشِ في الزَّمَنِ الرَّغْدِ
عَهِدْنا مُدُودَ الأَرْضِ تأتي بُحُورها[(٥)] ... ولم نَرَ بَحْرًا قطُّ سارَ إلَى مَـدِّ

[٩٥ و] || فأعطاه صلةً جزيلةً.

بين نصر والأتراك

وجَهّز نصرٌ عساكرَه إلى منبج صحبةَ أحمد شاه، وكانت في أيدي الروم، فحصرها مدةً، وأيس واليها من نجدةٍ تأتيه، فسلّمها في صفر من سنة ثَمَانٍ وستِّين وأربعمائة، فقال في ذلك ابنُ حيّوس من قصيدةٍ[(٦)]:

(١) في الديوان: «وجاد ابن نصر... واني علم أن سيُخلفها نصر» — وأما رواية المنتظم لابن الجوزي ٨/٣٠٤ فهي كما يلي:
«وكان لمحمود بن نصر سجيّة ... وغالب ظني أن سيخلفها نصرُ»
(٢) في تاريخ العظيمي بالورقة ١٨٢ ظ: «فأطلق له ألف دينار وقال له: لو قلت سيضعفها نصر لاضعفتها لك يا أبا الفتيان» — انظر وفيات ٢/١١ — والصفحة ٤٣ السابقة.
(٣) قويق هو نهر مدينة حلب، ذكره الشعراء، وخصّه الصنوبريّ بقصائد كثيرة — انظر زبدة الحلب ١/٧٦ بالحاشية.
(٤) انظر ديوان ابن حيّوس المطبوع ١/١٩٧.
(٥) في الديوان: «نأتي بحارها».
(٦) انظر ديوان ابن حيّوس المطبوع ١/٢٠٥ ومطلعها:

وطَريدَةٍ للدَّهرِ أنتَ رَدَدْتَها   قَسْراً فكُنْتَ السَّيفَ يَقْطَعُ مُغْمَدَا

ووَصل في سنة ثمانٍ وستّين وأربعمائة أتسز بن أوق التركي إلى أعمال حلب القبلية ، ونزل العاصي على الجلالي ، وجفل أهلُ الشّام بين يديه — وكان قد سمّى نفسهُ الملك المعظّم[1] — فنَهَبَ كُلَّ ما قدر عليه ، ومَلَكَ رَفَنِية[2] ، وسلّمها الى أخيه جاولي ، وتردّدتْ سراياه في جميع الشّام ، وتمادى فساده .

وتَردّدت الرُّسلُ بينه وبين نصر بن محمود صاحب حلب ، فلم يستقرّ بينهما أمر ، وعاد إلى دمشق فتسلّمها .

واعتمد جَاولي مُدّة مقامه برفنيّة إساءة المجاورة ، وشَنّ الغارات والأذى في الأعمال القبلية من عمل حلب ، فجهّز إليه نَصر بن محمود عسكر حلب ومقدّمهم أحمد شاه التُّركي ، وذكر أنه شيبانيّ فسار إليه ، والتقوا بأرض حماة ، فكسره جَاولي وغنم عسكره .

وعاد أحمد شاه ونزل مَذْكين[3] وجمع إليه مَن سَلِم من عسكره ، فلما اجتمعوا عوّلوا على العودة إلى حلب ، فقال لهم أحمد شاه : « ما بقي لنا وجه إلى حلب بعد هذه الكسرة ، فان راجعتم الحرب وأظفرنا اللهُ بهم كان الأمر لنا بحكم الظَّفر ، وإنْ أبيتُم ذلك فأنا أسِيرُ إلى

« شرف الملوك عدت مماليك المدى   فبقيت محروساً على رغم العدا »

(١) يسميه ابن الأثير ٨/١٢٦ : الإقسيس وهو أتسز بن أوق كان يلقب بالمعظم وكان من خيار الملوك وأجودهم سيرة وأصحهم سريرة .

(٢) رفنيّة : بلدة صغيرة ذات قلعة قد دثرت ، وهي على مرحلة من غربي حماة — انظر زبدة الحلب ١ / ٢٣٠ بالحاشية .

(٣) مذكين : لم نقع على موقعها فيا بين أيدينا من معجم البلدان .

[٩٥ ظ] الفُرَات وأستدعِي أهلي ، فما لي وجه ألقى به نصر || بن محمود ؛ وإنما أعطى وَمَنح وأكرم لمثل هذا الموقف » .

فأجمعوا أمرهم على معاوَدَة الحرب فَأَسْرى من موضعه إلى عسكر جَاولي ، وكبسه ، فاستثار منهم ؛ ونهب عسكره ، وأسر منهم ما يزيد عن ثلاثمائة نفس ؛ وسيَّرهم في الوثاق إلى حلب مُشاةً ؛ وهرب جاولي إلى رفنيّة ؛ وسار بعد ذلك إلى أخيه بدمشق .

حاشية نصر

وكان نصر حين ملك حلب واستقر بها أمرَ بقتل وزير أبيه أبي الحسن عليّ بن أبي الثريا القائد ، صاحب الدّار التي هي المدرسة العصرونية ؛ فقُتِل وكان راكباً تحت القلعة ، وهو في حَشَمِهِ على بغلتِهِ ، وعُمِل في رجله حَبْلٌ وجُذِبَت جُثَّته من تحت القلعة إلى باب أنطاكية ، جزاء على ما فعله بأبي بشر ، وصدَقَ فألُ أبي بشرٍ فيه — على ما ذكرناه[1] — وكان نصر قد اتّهمه بأنه أشار على أبيه أن يوليَ أخاه الأصغر شبيباً ، وكذلك قتلَ نصرٌ ناجيةَ بْنَ عليّ أحدَ ولاة أبيه .

واستوزر نصرٌ أبا نصر محمد بن الحسن التميميّ المعروف بابن النحّاس الحلبيّ ، وبقي وزيرًا بعده لسابق أخيه إلى أن اعتقله ، ثمّ أطلق . وكان أبو نصر كاتبًا لمحمود قبل وِزَارَتِهِ .

وفي يوم عيد الفِطْر من سنة ثمان وستّين وأربعمائة ، عَيَّد نصر بن محمود ، وهو في أحسن زِيّ ، وكان الزمان ربيعًا والأرض نضرة ؛

(١) انظر ما سبق بالصفحة ٣٩٦ .

واحتفل الناس في عيدهم وتجمّلوا بأفخر ملابسهم ؛ ودخل عليه ابنُ حيّوس فأنشده قصيدةً منها[1] :

ضَفَتْ نِعْمَتَانِ خصَّتَاكَ وَعَمَّتَا   حَدِيثُهما حَتَّى القِيَامَةِ يُؤْثَرُ

[٩٦ و] || وقَبَضَ نصرٌ على الأمير أحمد شاه التُركيّ ، واعتقله في القلعة ؛ وجلس فشرب إلى العَصر ؛ وحمّلَه السُكْرُ على الخروج إلى الأتراك ، وسكناهم في الحاضر ، وأراد أن ينهبهم ، وحَمَل عليهم ، فرماه تركيّ بسهم في حلقه فقتله ، وتبعه أصحابه فوجدوه قد مات ؛ وذلك يوم الأحد مستهلّ شوال من سنة ثمان وستّين وأربعمائة . وكان نصر أهوج .

موت نصر

(١) ارجع الى ديوان ابن حيّوس المطبوع ١ /٢٦٩ ومطلع القصيدة :
« هل العدل إلّا دون ما أنت مُظهرُ   أو الخيرُ إلّا ما تُذيعُ وتُضمرُ »

القسم السادس عشر

ذكر

حلب في أيام سابق بن محمود بن صالح

الحرب بين الترك والعرب - حكم ملكشاه - مسلم بن قريش في حلب

٤٦٨ هـ — ٤٧٢ هـ

الحرب بين الترك والعرب

وزحفتِ الأتراكُ إلى البلد وكان والي القلعة رجلًا يقال له وَرْد، وعنده الأمير سديد المُلك أبو الحسن بن مُنقـذ، وكان قد عاد من طرابلس إلى حلب في أيام نَصر؛ وعندهما جماعة من الخواصّ؛ فلما علموا بذلك استدعَوْا أخاه سابقَ بن محمود.

ملك سابق

وحمل من العَقَبة[1]، وكان ساكنًا بهـا في الدّار التي تُنسب إلى عزيز الدّوْلة فاتك[2]، ورُفِع إلى القلعة بحَبْل من السُّور، وهو سكران، ونادَوْا بِشِعَاره، وأطاعه الأجنادُ، وأشاروا عليه باطلاق أحمد شاه فأطلقه في الحال، وخلع عليه.

فنزل أحمد شاه إلى العسكر بالحاضر فسكَّن الثائرة، وأخْمَد الفتنة، واستقرَّتْ قاعِدَةُ سابق؛ ولُقِّب عزّ الملـك أبو الفضائل، ودخل عليه ابن حَيُّوس فأنشده قصيدة أولها[3]:

عَلَيَّ لَها أنْ أحفَظَ العَهْدَ وَالودّا وَإنْ لَمْ يُفِدْ إلا القَطِيعَةَ وَالصدّا[4]

فأطلَق له سابق ألف دينار، وجعل له في كل شهر ثلاثين دينارًا، وكان سابق من متخلِّفي بني مرداسٍ.

---

(١) العقبة : حيّ من أحياء حلب القديمة يقع في الغرب منها
(٢) هو عزيز الدولة أبو شجاع فاتك – مر خبره في زبدة الحلب ١ / ٢١٥ وما يليها.
(٣) انظر ديوان ابن حيّوس المطبوع ١ / ١٦٦.
(٤) في الديوان : « إلّا القطيعة والبُعدا ».

ولما مَلَكَ سابقٌ اجتمعتْ بنو كلابٍ إلى أخيه وثّاب ؛ وعوّلوا على معونته عليه وأخذ حلب له من أخيه سابق || وانضاف إلى وثّاب [٩٦ ظ] أخوه شَبِيب بن محمود ، ومبارك بن شبل ابن خالهما ، وعامّة بني كلاب .

فلمّا تحقّق سابقٌ ذلك استدعى أحمد شاه أمير الأتراك ، وكان في ألف فارس وشاوره ، فأنفذ أحمد شاه إلى رجل من الأتراك يعرف بابن دملاج — واسمه محمّد بن دملاج — في يوم الأربعاء مستهلّ ذي القعدة ، من سنة ثمان وستّين .

حرب وثاب

وتحالفوا وخرجوا إلى وثّاب وبني كلاب ، في يوم الخميس مستهلّ ذي الحجة من سنة ثمان وستين وأربعمائة ، وكان بنو كلاب في جمعٍ عظيمٍ ما اجتمعوا قط في مثله . يُقال إنهم يُقاربون سبعين ألف فارس وراجلٍ ، وكانوا قد عاثوا في بلد حلب ، وكانوا نزولاً بقنّسرين[1] فعند معاينتهم الأتراك انهزموا من غير قتال وخلّفوا حلَلهم وكلّ ما كانوا يملكونه وأهاليهم وأولادهم .

فغنم أحمد شاه وأصحابه ومحمّد بن دملاج وأصحابه كلّ ما كان لبني كلاب . فيقال : إنهم أخذوا لهم مائة ألف جمل وأربعمائة ألف شاة ، وسَبَوْا من حرمهم الحَرائر جماعة كبيرة ، ومن إمائهم أكثر ، وكل ما كان في بيوتهم . وعفَوْا عن قتل عبيدهم المقاتلة ، وكانوا يزيدون عن عشرة آلاف عبد مُقاتل فلم يَقتُلوا أحداً منهم ، وكان

(١) قنّسرين : مدينة قديمة ورد اسمها في التوراة ، انظر موقعها في معجم البلدان ٤/١٨٤ ، وارجع إلى زبدة الحلب ١/ ٣٠ بالحاشية .

الّذي غنمه التُّرك من العَرَب في ذلك اليوم مـا لا يُحصى كثرةً ؛ وأسروا جماعة منهم .

وعاد أحمد شاه بالأسرى إلى حلب فتقدّم سابق بن محمود باطلاقهم، وأنزل أختَه زوجة مبارك بن شبل في دارٍ، وأكرمها || لأنّها كانت فيمن [٩٧ و] أخِذَ ذلك اليوم.

وبعد هذه الهزيمة بثلاثة عشر يومًا دعا محمد بن دملّاج التركي أحمد شاه ، فخرج إليه ، وكان نازلًا شمالي حلب ؛ فلما أكلوا وشربوا قبض محمَّد بن دملّاج على أحمد شاه وأسره ؛ وكان في نفر قليل فأقام في أسره تسعة أيام.

حكم ملكشاه

ثمّ إن سابق بن محمود اشترى أحمد شاه من محمَّد بن دملّاج بعشرة آلاف دينارٍ وعشرين فرساً ، يوم السَّبت الرابع والعشرين من ذي الحجة من السَّنة .

فعند ذلك سار وثّاب بن محمود ومبـارك بن شبل ، وحامد بن ابن زُغيب ، إلى باب السّلطان أبي الفتح ملك شاه[1] بن ألب أرسلان؛ وحضروا عنده ، وشكَوْا إليه حالهم ، وسألوه أن يعينهم على سابق ، ويكشف عنهم ما نزل بهم منه .

(١) يرسم ابن العديم أحيانًا اسم السلطان على كلمتين هكذا «ملك شاه» وكذلك يفعل كثير من المؤرخين ويرسمه حينًا كلمة واحدة «ملكشاه» وقد قبلنـا الوجهين معًا . وملك شاه هو أبو الفتح بن الب ارسلان بن محمد بن داود بن ميكائيل بن سلجوق بن دقاق الملقب جلال الدولة ، توفي سنة ٤٨٥هـ . – انظر وفيات الأعيان ٢ / ١٢٥

وأنكر السّلطانُ ذلك ووَعَدهم بما طابَتْ به نفوسهم، ووقع لهم باقطاعهم في الشّام؛ وأقطع الشّام لأخيه تاج الدولة تُتُش[1]، وأمرهُ بالمسير إلى الشّام في أوائل سنة سبعين وأربعمائة.

وتقدّم السّلطان ملك شاه إلى أفشين بن بكجى، وصندق التركي، ومحمّد بن دملاج، وابن طوطو، وابن بريق[2]، وغيرهم، من أمراء التّرك بالكون مع تاج الدّولة والمسير في خدمته.

خبر تتش

فسار تاج الدّولة ومعه وثّاب بن محمود ومبارك بن شبل وحامد بنُ زغيب، حتّى وصل إلى ديار بكر، وتواصلت إليه الأمداد مع المذكورين. وكان أحمد شاه قد حضر أنطاكية مُدّةً ومعه عسكر حلب|| واشتدّ الغلاء بها في هذه السّنة، واستقرّتِ الحالُ [٩٧ ظ] على خمسة آلاف دينار مُقاطعةً، فأخذها، ورحل عنها إلى حلب.

ولما قرب تاج الدّولة من الشّام هرب جماعة الأتراك المُقيمين بحاضِر حلب مع أحمد شاه إلى حِصْنِ الجِسْر – وكان ابن مُنقِذ جَدّد عمارته ليضايق به شَيْزَر[3]، ويقطعَ المادّة عنها من بلد الرّوم؛ وأذن له سابق بن محمود في ذلك، فجدّد في هذه السّنة – فتركوا أموالهم وأهاليهم بهذا الحصن، وعادوا إلى خدمتهم بحلب، ولم يأمنوا أهل حلب أن يتركوا حرَمهم عنده لما كانوا فَعلوه بابن خان؛ وتغيّر الهواء بالجسر عليهم، فهلك عامّتهم بهذا الموضع.

(١) هو تاج الدولة أبو سعيد تتش بن ألب ارسلان بن داود بن ميكائيل بن سلجوق ابن دقاق السلجوقي، انظر في ترجمته وفيات الأعيان ١ / ٩٦، وابن عساكر ٣ / ٣٦٠.

(٢) لم نقع على تراجم لهؤلاء الأعلام فيما بين أيدينا من مصادر التاريخ.

(٣) شيزر: كورة بالشام قرب المعرة، بينها وبين حماة يوم – انظر زبدة الحلب ١ / ٨١ بالحاشية.

وأما تاج الدولة تتُش فإنه أقام بالمروج الى أن وصلته بنو كلاب بالظَّعْن ، ونَزَلوا حلب في سنة إحدى وسبعين وأربعمائة .

مسلم بن قريش

ووصل شرف الدّولة أبو المكارم مُسْلم بن قُريش[1] في عسكر كثير بأمر ملك شاه ، ونزل معه على حلب مُعيناً له ، وحصروها ثلاثة أشهر وعشرين يوماً ؛ وكان نزوله على حلب لثلاث خلون من ذي القعدة من سنة إحدى وسبعين وأربعمائة . وكان القِتَال عليها مُتصلاً .

وقُتل أحمد شاه مقدّم الأتراك بحلب بطعنة أصابته في الحَرب ، وكان هوى شرف الدّولة أبي المكارم مع سابق ، وكان يسير إليه في الباطن بما يقوّي نفسَه ، وكان يُنْكِرُ على بني كلاب خلطَتهم بعسكر التُرك.

[٦٨ و] فاستأذن بنو كلابٍ تاجَ الدّولة في رحيل الظّعون فأذِنَ || لهم فأحسّ شرف الدّولة أبو المكارم بتغيّر النيّة فيه ، وتحقيق التهمة به من مراسلة سابق وأهل حلب ، فاستأذن تاج الدّولة في الرّحيل ، ورحل . وجعل عُبورَ عسكره على بابِ حلب ، وباع أصحابهُ أهل حلب كلّ ما كان في العسكر عصبيةً وتقويةً لهم ، وقوّى نفوسَهم ونفسَ سابق .

وسار بعد أن قوِيَ أهل حلب بما ابتاعوه من عسكره بعد الضّعف الشديد إلى بلاده ؛ وأشار عَلَى مُبارك ووثّاب وشبيب بالاحتِياط على أنفسهم أو الهرب إلى حلب .

---

(١) هو شرف الدولة مسلم بن قريش بن بدران بن المقلد بن المسيب العقيلي صاحب الموصل أحبه الحلبيون وأطاعوه ، وهو من امراء العرب المغاوير ، به خُتم الامراء العرب الذين حكموا حلب ، فقد حكمها بعده الأتراك – انظر حاشية الصفحة (٦٩) الآتية .

ولم يكُ بَقي مع تاج الدّولة من بني كلاب غيرهم في نفرٍ يسيرٍ، فكاتبهم سابق وتألفهم وقالَ لهم: «إنّي إنّما أذبُّ وأحامي عن بلادكم وعِزّكم، ولو صار هذا البلد إلى تُتُش لزالَ مُلكُ العَرَب وذلّوا». وجرت أمور أوحشتهم من الأتراك؛ فهربوا إلى حلب بعد أن قُتل أصحابُهم قبل الهزيمة وبعدها، وصاروا إلى سابق.

شعر ابن النحاس

وكتب سابقٌ إلى الأمير أبي زائدة محمد بن زائدة قصيدةً من شعر وزيره أبي نصر بن النّحاس، يعرّفه ما هو فيه من الضّيق، ويسألُه الإقبالَ عليه والقيامَ بمونته؛ ويحذّره من التخلّف عنه، فيكون ذلك مسبباً لزوال ملك العرب، ويعتب علَيْه في التوقّف عنه فيما كان جرى مع أحمد شاه التركيّ؛ والقصيدةُ هي:

دعوتُ لِكَشْفِ الخطْبِ والخطْبُ مُعْضِلُ
فلبّيْتني لمّا دَعوْتُ مُجاوِبَا

وَوَفّيتَ بالعَهْدِ الّذي كانَ بيْننَا
وفاءَ كريمٍ لمْ يَخُنْ قطُّ صاحِبَا

[٩٨ ظ] ‖ وَمَا زِلتَ فرّاجاً لِكُلِّ مُلِمَّةٍ
إذا المحرَبُ الصِّنْديد ضَجَّع هائبا[1]

فَشَمِّرْ لهَا وَانْهَضْ نُهوضَ مُشَيِّعٍ[2]
لَهُ غَمراتٌ تَستَقِلُّ النَّوائِبا

(١) المِحرَبُ: صاحب الحروب وقيل الشديد الحرب الشجاع – وضجّع في الأمر: قصّر فيه.
(٢) المُشَيَّعُ: الشجاع، كأنّه قد شُيّع قلبه بما يركب كل هول.

وَقُلْ لِـ «كِلَابٍ» : بَدَّدَ اللهُ شَمْلَكُم
أَوَيْحكُمُ مَا تَتَّقُونَ المَعَايِبا !
أَتَسْتَبْدِلونَ الذُّلَّ بالعِزِّ مَلْبَساً
وَتُمْسُونَ أَذْنَاباً وكُنْتُمْ ذَوَائِبا
وَمَا زِلْتُمُ الآسادَ تَفْتَرِسُ العِدَى
فَمَا بَالُكُمْ مَعْ هؤلاءِ ثَعَالِبا
ثِبُوا وَثْبَةً تَشْفِي الصُّدورَ مِنَ الصَّدَا
ولا تُخْجِلوا أَحسَابَنا والمَنَاقِبا
وَلَا بُدَّ مِنْ يَوْمٍ تُحَكِّمُ بَيْنَنَا
وَبَيْنَ العِدَى فِيهِ القَنا والقَوَاضِبَا
أَرَى الثَّغرَ رُوحاً أَنتمُ جَسَدٌ لَهُ
إِذَا الرُّوحُ زَالَتْ أَصْبَحَ الجِسْمُ عَاطِبَا
وَقَدْ ذُدْتُ عَنْهُ طَالِبًا حِفْظَ عِزِّكُمْ
إِباءً ولاقَيْتُ المَنَايَا السَّوَاغِبا
وَهَا أَنَا لا أَنفَكُّ أَبْذُلُ ، في حِمَى
حِمَاكم مُجِدًّا ، مُهْجَتِي والرَّغَائِبا (٣)
أَأَدخَرُ مَالي عَنكُمُ وذَخَائِرِي
إِذَا بِتُّ عَنْ طُرْقِ المَكَارِمِ عَازِبا

(٣) الرَّغَائب : نفائس الأموال التي يرغب فيها ، والعطاء الكثير .

شَكَرْتُ صَنِيعَ «ابْنِ الْمُسَيِّبِ» إذْ أَتَى
يَجُرُّ مَغَاوِيرًا تَسُدُّ السَّبَاسِبَا(١)

وَمِنْهَا:

أيَا رَاكِبًا يَطْوِي الفَلَاةَ بِجَسْرَةٍ
هَمَلَّعَةٍ لُقِّيتَ رُشْدَكَ رَاكِبَا(٢)

أَلَا أَبْلِغْ «أَبَا الرَّيَّان» عَنِّي أَلُوكَةً
تُرِيحُ مِنَ الإِيلَافِ(٣) مَا كَانَ وَاجِبَا

أَخًا شَخْصُهُ لَا يَبْرَحُ الدَّهْرَ حَاضِرًا
تُمَثِّلُهُ عَيْنِي وَإِنْ كَانَ غَائِبَا

مَتَى تَجْمَعُ الأَيَّامُ بَيْنِي وَبَيْنَهُ
أَشُدُّ عَلَيْهِ مَا حَيِيتُ الرَّوَاجِبَا(٤)

وَأَهْدِ إلَى «شِبْلٍ» سَلَامِي وَقُلْ لَهُ:
لَكَ الْخَيْرُ دَعْ مَا قَدْ تَقَدَّمَ جَانِبَا

[٩٩ و] ‖ فَتِلْكَ حُقُودٌ لَوْ تَكَلَّمَ صَامِتٌ
لَجَاءَ إِلَيْهَا الدَّهْرُ مِنْهُنَّ تَائِبَا

وَقَدْ أَمْكَنَتْكُمْ فُرْصَةٌ فَانْهَضُوا لَهَا
عِجَالًا وَإِلَّا أَعْوَزَ الدَّرَّ جَالِبَا

(١) السباسب: ج سَبْسَب – وهي المفازة أو الأرض المستوية البعيدة.
(٢) الجسر من الابل: العظيم ومؤنثها جَسْرة – والهَمَلَّع: الجمل السريع ومؤنثها الهملعة.
(٣) ألف إيلافًا: تعوّد، وأحبّ، وأنس.
(٤) الرَّوَاجب: واحدها الراجبة، وهي مفاصل أصول الأصابع.

فإنّي رأيتُ الموتَ أجملَ بالفتى
وأهونَ أنْ يلقى المنايا مُجاوِبا

وكان قد بلغ «سابقًا» أنّ أميرًا من أمراء خراسان يقال له تركمان التركيّ قد توجّه مُنجِدًا لتاج الدّولة، ومعه عسكر، فأخرجَ سابقُ منصورَ بن كامل الكلابيّ – أحدَ أمراء بني كلاب – من حلَب ليلًا، وأعطاه كتابَه إلى الأمير أبي زائدة، وفيهِ هذه الأبيات، ومعه بعض أصحاب سابق ومعهم مالٌ.

تركمان التركي

فلمّا وقف الأمير أبو زائدة محمد بن زائدة على هذه الأبيات، اتّفق مع منصور ونائب سابق، وجمَعُوا ما يزيد عن ألف فارسٍ وخمسمائة راجلٍ من بني نُمَيْر، وقُشَيْرٍ، وكِلَابٍ، وعُقَيْلٍ، وكلّ ذلك بتدبير الأمير شرف الدّولة أبي المكارم ومَشُورَتِهِ.

ووَفد بهم الأميرُ أبو زائدة، ووَصلوا إلى «وادي بُطنَان»[1].
واتّفق وصولُ المعروف بتركمان التُّركيّ في ألف فارس من الغُزّ، ومعه جُملة من العُدَدِ لمحاصرَة حلب ومعونة تُتُش.

وعبر تُركمان على طريق الفَايا[2]، فسار الأمير أبو زائدة بِمَنْ مَعَهُ من الجمع، ولقوا تركمان في أرض الفايا، فأوْقَعُوا به وكَبَسُوا عسكرَه، وقتَلوه، ونَهَبُوا ما كان فيه بأسره وجميعَ ما كان للتجّار الواصلين في صُحْبَتِهِ، واتّصلَ هذا الخبرُ بتاج الدّولة وهو مُنازِلٌ حلَبَ، فرَحَل عنها إلى الفُرات، وتوجّه نحو ديار بكر وشتى بها.

(١) وادي بُطنان : بين منبج وحلب – انظر زبدة الحلب ١ /٨٨ بالحاشية .
(٢) الفايا : كورة بين منبج وحلب كذلك قرب وادي بطنان – انظر زبدة الحلب ١ /٦٨ بالحاشية .

ثم عاد وقطع الفُرات، وتَسَلَّم مَنبِج وحِصْنَ الفـايا[١] وحِصْنِ الدَّيْر، وشَحَنَها بالرِّجال، وسارَ بالعَسْكَر [٩٩ ظ] إلى حِصْن بزاعَا[٢]، وكان صاحبه شِبل بن جَامِع، وبعض رجال هذا الحصن ممّن كانتْ له النكاية العظيمة في عسكر تُركمان، فقاتله تاج الدَّولة، وفَتَحه بالسَّيْف، وقتَل كافَّة مَنْ كان فيه، ونَهَبه وشَحَنه بالرِّجال.

ورحل إلى عَزاز وقد انضوى إلى قلعتها خلقٌ عظيم، ومَنَعهم الوالي بها من الصُّعُود إليها فالتجئُوا إلى سَنَدِ القلعةِ بأقْمشتهم، والنَّاسُ عليها، وأساء الوالي بها ــ وكان اسمه عيسى ــ التدبيرَ والسياسة.

فَزَحفَ العسكر إلى القلعة، وقاتلها، وضربها بالنار، فاحترقَتْ أقمشةُ الناسِ، وغلّاتُهم، وحرمُهم، وأولادُهم، وأشرفَتْ على الأخذ. وخرج قومٌ من الحريق إلى عسكر تاج الدّولة فأمّنهم، وتقدَّم اليهم بالعودة إلى ضياعهم.

ورَحل الملك تاج الدولة إلى جبرين قُورَسْطَايا[٣]، فأخذها وشحنها بالرِّجال، فخرج الأمير أبو زائدة محمد بن زائدة مِن حلب في الليل، ووصل إلى ضَيْعة تعرف بكَرْمِين[٤]، فوجَدَ بِها خَمسين فارساً من

(١) في الاصل: «حصن اليافا» وهو سهو من الناسخ وصحيحه ما أثبتنا تمشياً مع السياق.

(٢) في معجم البلدان لياقوت ١/٦٠٣: «بزاعة - سمعتُ من اهل حلب من يقوله بالضمّ والكسر ... وهي بلدة من أعمال حلب في وادي بطنان بين منبج وحلب، بينها وبين كل واحدة منها مرحلة».

(٣) في معجم البلدان ٢/١٩: «جبرين قورَسْطايا: بضم القاف وسكون الواو وفتح الراء وسكون السين المهملة وطاء مهملة وألف وياء وألف – من قرى حلب من ناحية عزاز ويعرف أيضاً بجبرين الشمالي».

(٤) كرمين: هي كفر كرمين الحالية، الواقعة على طريق حلب بعد قرية خان العسل، وهي في النصوص السريانية كفر كرما Kafr Kerma كما في دوسو ٣٢٠.

الغُزّ ، فقتَلوا أكثرهم ، وغنموا كلّ ما كان معهم ، وعادوا إلى حلب سالمين .

فأسرى تاج الدولة في اللّيل من جبرين عندَ ذلك في جميع عسكره ، وهم ملبسون مُستعدّون ، فصبّحوا حلب صباحاً ؛ وأغاروا عليها ، فخرج عسكرُ حلب فالتقوا على الخنّاقيـة[١] على باب حلب . ثمّ إنّ بعض عسكر حلب انهزموا لغير موجب ؛ وهزم الله عسكر تُتُش بغير قتال .

وكان الأمير أبو زائدة محمد بن زائدة وابن عمه شبل بن جامع بن زائدة في قَدْر خمسين فارساً مقابلهم ، فحملوا عَلَيْه ، واتّفقَتْ هزيمَتُهم فقتلوا من الغُزّ جماعة وغَنِمُوا .

ولو عاد عسكر حلب || في اثرهم ما كان أفلتَ منهم إلّا من سَبَق [١٠٠ و] به فَرَسُه . وشاع لمحمَّد بن زائدة في ذلك اليوم ذكرٌ جميلٌ .

وتقدّم الأميرُ محمَّد بنُ زائـدة إلى الشيخ أبي نصر منصور بن تميم المعروف بابن زَنكل[٢] أن يجيب أبا الفضائل سابقَ بن محمود عن القصيدة التي أنفذها إليه ، ويعرّفه ما لبني كِلَابٍ من الأيّام المعروفة ، ويذكر هذه الوقائع ، فعمل :

دَعوْتَ مُجيباً ناصِحاً لَكَ مُخلِصاً
يَرَى ذاكَ فَرْضاً لَا مَحالة وَاجِبا

(١) الخناقية : من متنزهات حلب يجري تحته نهر قويق ، ذكره ابن العديم في زبدة الحلب ١ / ١٣٨ وابن الشحنة ٢٥٦

(٢) مرّ بنا شعر الرحل في بني كلاب – انظر زبدة الحلب ١ / ٢٨١ وعلقنا عليه حينذاك بأننا لم نقع على ترجمة للشاعر .

فلبّيتُ لا مُستَنكِفاً جزِعاً ولا
هِدَاناً[1] إذا خاضَ الكَريهَةَ هَائِبا

ومنها :

ولمّا دَعاني المُدرِكيُّ ابنُ صالحٍ
شَققتُ ، ولَمْ أرْهَبْ ؛ إلَيْهِ الكَرائبا[2]

أسابقُ صَرْفَ الدَّهرِ في نَصْرِ « سابِق »
إلى « تُرْكُمَانِ » التُّركِ أُزجِي النَّجائبا

فلمّا الْتَقيْناهُمْ غَدَا البَعْضُ سالِباً
لِأنفُسِهِمْ ، والبَعْضُ لِلمَالِ نَاهِبا

فيَا لَكَ مِنْ يَوْمٍ سَعيدٍ بيُمْنِهِ
عَنِ الثَّغرِ أضحى عَسْكَرُ الصَّدِّ هارِبا[3]

وَكَانَ يَرَى في كَفِّهِ الشَّامَ حَاصِلاً
ويومُ « بُزاعَا » رَدَّ ما ظَنَّ خَائِبا

وَلَيْلَةَ « كَرْمِينٍ » تَرَكْنا كِرَامَهُمْ
كَضَأنٍ بِها لاقَتْ مع القدْرِ قاصِبا[4]

وَفي يَوْمِ « خُنَاقِيَةٍ » قَدْ خَنَقْتُهُمْ
بِعِثيَرٍ[5] ذُلٍّ رَدَّ ذَا الشَّرْخِ شَائِبا

(١) الهدَان : الأحمق الجافي ، الوخم الثقيل في الحرب . ج : هُدُن .
(٢) الكرائب : ج. كريبة : وهو الداهية الشديدة .
(٣) الصَّدّ : بالفتح والضم : الجبل وناحية الوادي والشعب .
(٤) القاصب : الجزّار .
(٥) العِثْيَر : التراب والعجاج .

عَطَفْتُ لَهُمْ إذْ خَامَ مَنْ خَامَ(١) مِنْهُمُ
بِفِتْيَانَ كَالْعِقْبَانِ شَامَتْ تَوَالِبا(٢)
فَلِلّٰـهِ قَوْمِي الصَّادِرُونَ لَوِ انْثَنَوْا
مَعِي ، أَوْ فَرِيقٌ كُنْتُ لِلْجَمْعِ نَاكِبا
فَوَلَّوْا وَقِضْبَانُ الْمَخَافَـةِ فِيهِمُ
مُسَابِقَةٌ أَرْمَاحَنـا وَالْقَوَاضِبَا
فَـكَمْ فَارِسٍ مِنْهُمْ تَرَكْنَا مُجَدَّلا
يُبَاشِرُ تُرْبُ الْقَاعِ مِنْهُ التَّرَائِبَا
‖وَإِذْ أَيْقَنُوا أَنْ لَيْسَ لِلْكَسْرِ جَابِرٌ [١٠٠ظ]
تَوَلَّوْا وَعَنْ «جِبْرِينَ» حَثُّوا الرَّكَائِبا
وَخَلَّوْا بِها كَسْباً حَوَوْهُ ، وَأَبْصَرُوا
سَلَامَتَهُمْ مِنَّـا أَجَل مَـكَاسِبَا

أعمال تتش

وأما تاج الدولة تُتُش فإنّه رحلَ من جِبْرِين ، وسارَ إلى دمشق فملكها ؛ وتسلّمها من أتسز بن أوق التركيّ ، ثم فسح من عسكره أفشين التركيّ ، ومعه أكثر العسكر ؛ وعاد شمالًا ونَهَب عسكرُه ضياعاً في أعمال بعلبكّ .

ووَصل رفنيّة في اليَوْم العاشر من جُمادى الأولى ، وفيها جماعةٌ كثيرةٌ من التّجّار والقوافل متوجّهين إلى طرابلس ، فهجَمها بَغْتَةً ؛ وقَتَل ممّن كان بها جماعةً ، واستباحَ أموالَهم وحريمهم ، وأقام بها عشَرَة أيام .

(١) خام : نكص وجبن ، أو كاد كيدًا فرجع عليه .
(٢) التولب : ولد الحمار . ج : توالب – وانظر جمهرة اللغة ٣/ ٤٩٠

ثم سار فنزل حِصْنَ الجسر ، فأكرمَهُ أبو الحسن بنُ مُنْقذ فأعلَمَهُ بما عوّل عليه من نَهْب الشّام، فسأله في بلدة كفرطاب ألّا يعترِضَها فأجابهُ.

وسار فنزل قَسْطُون[1] فجرَى أمرها في النهب والعقُوبة مجرى رفنيّة، وأقام بها نيفًا وعشرين يومًا. ثم تنقّل وعسكره بالمنجنيقات على أبراج جَبَل السُّمَّاق[2] وغيرها ؛ حتى لم يبقَ بهـا موضعٌ ولا برجٌ إلا افتتحه وأهلكه ؛ واستباح حَريمهم وأولادَهم، واستغرق أحوال أهل سرمين[3] والمعرّة بالقطائع، وطلع إلى جبل بني عُلَيْم[4] فلم يتمّ له بها شَيْءٌ.

وسار فنزل ضياع معرّة النُّعمان الشرقية بالمنجنيقات، ففتح أبراجَها وحُصونَها بالسَّيف ، وأخذ مَا لا يمكن إحصاؤُه ، وغَلَب أهلَها فهلك منهم خلقٌ ؛ ونزل تلّ منس[5] ، وقطع عليها خمسة آلاف دينار ، ولم يتمكّن من أخذها .

[١٠١ و] وانتقل إلى عمل معرّة النعمان ففعل مثلَ ذلـك || ؛ وسار إلى معرتارح[6] ـــ من بلد كفرطاب ـــ فتحصَّن أهلها في أبراجها ؛ وتعذّرت عَلَيْه فأحرقها ، وهلَك جميعُ من كان فيها .

---

(١) في معجم البلدان٤/٩٧ : « قَسْطُون – حصن كان بالروج من أعمال حلب » ، وهي من قرى جسر الشغور اليوم – انظر دوسو ١٦٩ وما يليها من صفحات .

(٢) جبل السُّمّاق : جبل عظيم من أعمال حلب الغربية ، في شمالي معرة النعمان – انظر زبدة الحلب ١/١٦٤ بالحاشية .

(٣) سَرْمين : بلدة من أعمال حلب تقع غربي قنسرين وشمالي معرة النعمان على خمسين كيلومترًا من الجنوب الغربي لحلب – انظر زبدة الحلب ١/١١٩ بالحاشية .

(٤) جبل بني عليم : هو جبل الزاوية نفسه بل هو جبل اريحا ؛ كما يرى دوسو في كتابه عن طوبوغرافية سورية ص ١٩٩ .

(٥) تلّ مَنّس : حصن قرب معرة النعمان بالشام – انظر زبدة الحلب ١/٩٠ بالحاشية.

(٦) معرتارح : لم نقع على مكانها في معاجم البلدان التي بين أيدينا .

وبلغ تاج الدّولة ذلك، وهو بدمشق، فأسرع السّير إلى أن وَصل إلى ظاهر كفرطاب يطلب أرسلان تاش، فوجده قد رَحل إلى بلاد الروم، فعاد إلى دمشق وسكن الناس في طريقه.

وحين رَجع أفشين من الشّام ولم يبقَ في أعمال حلب ضيعة مسكونة من بلد المعرة إلى حلب، توجه إلى بلد أنطاكية فأخرب ما قدر عليه، ونهب وسبى ما وجده، وحُمل إليه من أنطاكية مالٌ؛ وتوجّه إلى الشرق بعد امتلاء صدره وصدر عسكره من النّهب.

وجرى من هذا الحادث بالشّام أمر لم يسمع بمثله، وتلف أهله بعد ذلك بالجوع. ووُجد قومٌ قد قتلوا قوماً وأكلوا لحومهم؛ وبيعت الحنطة ستة أرطال بدينارٍ وما سوى ذلك بالنسبة.

وجَلا من سلم من الشام إلى بلد شرف الدولة أبي المكارم مُسلم ابن قُرَيش، فأحسن إليهم وتصدّق عليهم؛ وكان ذلك الاحسانُ منه أكبر الأسباب في مملكته حلب[1].

مُسلِمُ بنُ قُرَيشٍ في حَلَبٍ

ولمّا جرى هٰذا الحادثُ طَمِعَ شَرَفُ الدّولة في الشّام؛ وكاتبه سابق ابن محمود يبذل له التّسليم إليه؛ وَوَفدتْ عليه بنو كلاب بأسرها، فتوجّه إلى حلب، ونَزل بالس[2] يوم عيد النَّحر من سنة اثنتين وسبعين وأربعمائة.

(١) في الكامل لابن الأثير ٨/١٢٧ : « سنة ٤٧٢ هـ – في هذه السنة ملك شرف الدولة مسلم بن قريش العقيلي صاحب الموصل مدينة حلب، وسبب ذلك أن تاج الدولة تتش بن الب ارسلان حصرها مرة بعد أخرى فاشتد الحصار بأهلها، وكان شرف الدولة يواصلهم بالغلّات وغيرها. »

(٢) بالس : بلدة بين حلب والرقة – انظر معجم البلدان ١/٤٧٧.

ونزل حلب في السّادس عشر من ذي الحجة، سنة اثنتين وسبعين وأربعمائة || فغلقت أبوابها في وجهه[1]، وكان عند سابق أخواه شَبيب [١٠١ظ] ووثّاب بحلب، فلم يمكّناه من التّسليم، فلم يقاتلها، وأهلها يحرصون على التّسليم إليه لما هم فيه من الجُوع وعَدمِ القُوت.

وكان مع شرف الدّولة في عسكره غلّةٌ كثيرة وقُوّةٌ تجوز الحدّ، وتزيد عن الوصف. وكان الرّئيس بحلب ونقيب الأحداث بها الشريف حسن بن هبة الله الهاشميّ، المعروف بالحتيتي[2]، وكان ولده أبو منصور قد خرج مع عسكر سابق لِقتال بعض الأتراك المخالفين[3] في بيت لاها[4] فأسروه، وبقي أسيرًا في الموضع مع خطلج أحد أصحاب أحمد شاه.

فلمّا وَصل شَرفُ الدّوْلَة إلى حلب وَفَد التّركُ كلُّهم عليه، وتقرّبوا إليه بِوَلَدِ الشّريف الحتيتي.

وقيل: إنّه طلبه منهم فلَمّا حضر عنده خلع عليه، وأطلقه فدخل البلد، وأخذ معه جماعة من أصحابه، وفتح باب حلب، ونادى بِشِعَار شرف الدّولة في اليوم السادس والعشرين من ذي الحجة، من سنة اثنتين وسبعين وأربعمائة.

وتسلّمها، وَدَخَل أصحابُه إليها، وقَلَع أبوابها جميعها، وفَتَحَ بابَ

(١) في الكامل لابن الأثير ٨/١٢٧: «فلمّا رحل عنها تاج الدّولة استدعى أهلها شرف الدولة ليسلموها إليه فلما قاربها امتنعوا من ذلك».

(٢) في ابن الأثير: «وكان مقدمهم يعرف بابن الحتيتي العباسي».

(٣) رواية الكامل لابن الأثير ٨/١٢٧ تختلف عن هذا حيث يقول: «فاتفق ان ولده خرج يتصيد بضيعة له فأسره أحد التركمان.

(٤) بيت لاها: هو جبل اللكام — انظر زبدة الحلب ١/٩٠ بالحاشية.

أربعين[1] ــ وكان مسدودًا ــ وأحسن إلى كافَّة أهلها، وخلَع على أحداثهم، وتصدَّق بمال كثيرٍ وغلَّة.

وكان سديد الملك بن منقذ قدْ وَفَد على شرف الدَّوْلة ونزل معه على حلب، وكان شرف الدولة قد عزم على الرَّحيل من حلب لما حَلَّ بهم من الضجر ومصابرة أهل حلب؛ وغَلَتِ الأسْعار || عندهم حتى [١٠٢ و] صار الخبز ستَّة أرطال بدينار.

وفَرَّ سديدُ المُلك أبو الحسن بنُ منقذ مِن سور القلعة، فاطلع إليه صديق له من أهل الأدب، فقال له: « كيف أنتُم » فقال: « طُولُ جُبٍّ» خوفًا من تفسير الكلمة. فعاد ابنُ منقذ وهو يقلِّب هذا الكلام فصحّ له أنّه قصد بكلامه أنّهم قد ضعفوا. وأوجس أنّها كلمتان، وأنّ قوله: « طول » يريد به: « مَدًا » و « جُبّ » يريد به « بير » فقال « مَدَابير والله ». فأعلم شَرَف الدَّولة بذلك فقَوَّى نفسَهُ فملكها[2].

---

(١) باب أربعين – باب قديم أنشئ في الشمال الغربيّ من حلب، ثم تهدّم – انظر ما جاء في الدر المنتخب لابن الشحنة ٦٢ حول هذا الباب وتسميته وآثاره لعهده.

(٢) في الزبد والضرب، بمخطوطة المدينة، في الورقة٩و، بعد هذا الكلام تعليق أضافه ابن الحنبلي نضعه بين يدي القارئ: « قلتُ: وشرف الدولة هذا هو مسلم بن قريش بن بدر مقلد بن المسيب صاحب الموصل. وقد كان ملكه حلب بعد ان حاصرها سنة واستنزل من قلعتها سابقًا ووثابًا ولدي محمود بن نصر بن صالح بن مرداس الكلابيّ. وأقرّه على ذلك السلطان ملكشاه بن السلطان ألب أرسلان بن داود بن ميكائيل بن سلجوق السلجوقي.

وما كان من قصَّة ابن منقذ مع صاحبه فأظنها منشأ ما عمله الزين بن عمر الوردي من الأحجية في « مدابير » حيث قال:

يا مَنْ أحاجِيهِ تُمنني   عن فطنة المتنبي
يا فاقد المثل فينا   مثّل طولَ جُبِّ

وهي من جملة أحاج جعلها على حروف الهجاء فيما وجدته بخطّه، والله سبحانه وتعالى أعلم اهـ. » – ر بعض ترجمة مسلم في حاشية الصفحة ٥٧.

ولمّا فُتحت المدينة انحاز سابقٌ إلى القلعة، وأخواه شَبِيب ووثّاب في القصر، لضيق القلعة؛ وشرف الدّولة محاصرٌ للقلعة بالمنجنيقات والعساكر. ولم يبقَ بالشّام وحصون جَبل بَهرَا[1]، وحِمص، وفَامية شيزر[2] ومن لم يَفِد على السّلطان إلّا وَفَد عَلَيه.

ودبّر شَبِيبٌ ووثّاب، وهما في القصر على سابقٍ وقفزا في القلعة، وصاح الأجناد بها: « شبيب يا منصور ». وقبض سابق وحُبس؛ وتسلّم شبيبٌ ما كان بها من مالٍ وسلاحٍ.

نهاية آل مرداس

ثم وقعت السّفارة بينهم وبين شرف الدّولة على أن أقطع شبيباً ووثّاباً قلعتي عزاز والأثارب وعدّة ضياع. وأقطع سابق بن محمود مواضع أخر في أعمال الرَّحبه، وأن يتزوج منيعة بنت محمود أخت سابق، وكان السّفير بينهم في ذلك الأمير سديد الملك عليّ بن منقذ؛ وبتدبيره جرى ذلك.

ووافق ذلك أنْ غار الماء في قلعة حلب؛ ونزل منها أولاد محمود. وانْقَضَتْ دَوْلَةُ آلِ مِرْدَاس[3].

وكان الوزير لسابق بن محمود الشَّيخ أبا نصر محمد بن الحسن بن النّحاس وعزله، واعتقله [١٠٢ظ] مُدَّةً ثُمَّ أطلَقَهُ.

وولّى وزارته أبا مَنصُور عيسى بن بُطرس النّصرانيّ فامتنع؛ فألزِمَ بها؛ ووزر له في النّصف من شوّال سنة تسع وستّين وأربعمائة.

(١) جَبَل جَبرا – يقع في الشمال من مدينة رفنية، ويدعى كذلك الحصن الشرقي – انظر تفصيل الاسم عنه في دوسو ١٦٦ وما يليها.

(٢) فامية: ويسميها بعضهم أفامية، وهي في نواحي حمص – انظر الصفحة ١٣ السابقة.

(٣) هنا ينتهي ما ترجمه المستشرق موللر إلى اللاتينية من تاريخ المرداسيين وقد جمله من سنة ٣٩٢ هـ – ٤٧٢ هـ (انظر الجزء الأول من زبدة الحلب ١٩٥)

القسم السابع عشر

ذكر
حلب في أيام شرف الدولة مسلم بن قريش العقيلي

خبر ابن منقذ - أعمال مسلم بن قريش - حصار دمشق - خبر ملكشاه - سليمان والروم

٤٧٣هـ - ٤٧٨هـ

خبر ابن مُنْقِذ

دخول حلب

وتسلَّمها أبو المكارم في شَهر ربيع الآخر من سنة ثلاث وسبعين وأربعمائة ، بعد حصار أربعة أشهر للقلعة . وقال ابن أبي حصينة يُهَنِّئُ شَرَف الدَّوْلَة بِفَتْحِ القَلْعَة :

لَقَدْ أَطَاعَكَ فِيهـا كُلُّ مُمْتَنِعٍ
خَوْفَ انْتِقَامِكَ حَتَّى غَارَتِ القُلُبُ

ولمَّا مَلَكَ شَرَفُ الدَّوْلَة حلبَ أحسن إلى أهلها ، وخَفَّف عنهم أثقالًا كثيرة ، وصفح عن كُلَفٍ كانت عليهم في أيام بني مرداس . ونُقِلَتِ الغلَّاتُ إلى حلب ، فرخصَت الأسعار بعد الغلاء الشَّديد[1] .

وفي يوم تَسَلُّمِه القلعة ودُخوله إليها دخل زوجتـه منيعة أخت سابق ، في اليوم والسَّاعة ، وهو اتفاقٌ لم يُسمع بمثله ، ففتح حصنين . وقال في ذلك أبو نصر بن الزَّنـكَل[2] يمدح شرفَ الدَّوْلَة :

فرعتَ أَمنع حصن وافترعْتَ بهِ
نعم الحَصَانُ ضُحىً من قبل يعتدلُ[3] ،
وحُزتَ بدرَ الدُّجى شمسَ الضُّحى فعلى
مثليكما شرفاً لم تُسْدَلِ الكللُ

(١) في تاريخ ابن القلانسي ١١٣ : « وفيها رخصت الأسعار في الشام بأسره » .

(٢) هو أبو نصر منصور بن تميم بن زنكل السرميني وقد مرّ بنا في الصفحة ٦٣

(٣) افترع البكر : أزال بكارتها — والحَصَان : المرأة العفيفة .

ومدحه ابنُ حَيّوس بالقصيدة الّتي أوّلُها[١] :

مَا أَدْرَكَ الطَّلَبَاتِ مِثْلُ مُتَمِّمِ
إِنْ أَقْدَمَتْ أَعداؤُه لم يُحْجِمِ[٢]

فلما وصل إلى قوله :

[١٠٣و] أَنتَ الّذي نَفَقَ الثَّنَاءُ بِسُوقِهِ
وَجَرى النَّدَى بِعُرُوقِهِ قَبْلَ الدَّمِ[٣]

اهتزّ شرفُ الدّولة وأمره بالجلوس ، فأتمّها جالساً وأجازه بألفي دينار وقريةٍ .

موت ابن حيوس

وقيل : انّه لما مدحه ابنُ حيوس قال له أبو العزّ بن صدقة البغدادي وزيرُ شرفُ الدّولة : « هذا رجلٌ كبير السنّ ولم يبق من عمره إلّا القليل ، فأرى أن تعظم له الجائزة فيحصل على الذكر الجميل » ؛ فأقطعه الموصل جائزة له .

فمات في هذه السنة قبل أن يصل إليها وترك مالًا جزيلًا فقيل لشرف الدولة : « هذا لا وارث له إلّا بيت المال » . فقال : « والله لا يدخل خزانتي مالٌ قد جمعه من صِلات الملوك انظروا له قرابة » . فسألوا عن ذلك فوجدوا له من ذوي الأرحام بنت أخٍ[٤] فأعطاها

---

(١) في ديوان ابن حيّوس ج ٢ ص ٥٦٩ : « قال أيضاً يمدح الأمير شرف الدولة أبا المكارم مسلم بن قريش لما فتح حلب في سنة ثلاث وسبعين وأربعمائة »

(٢) في طبعة الديوان : « مثل مصمّمِ » — وكذلك في النجوم الزاهرة ١١٩/٥ .

(٣) وقع هذا البيت في ديوان ابن حيوس ٥٧٥/٢ .

(٤) جاء في المصادر التاريخية أنّ زوجها أحمد والد أبي غانم .

ماله جميعه وهي بنتُ أخيه أبي المكارم محمّد بن سلطان بن حيّوسٍ.

ولما سَفَرَ ابن منقذ[١] في تسليم حلب وتسلّمها شرف الدّولة وعد ابن منقذ وعودًا جميلة، ومنّاه أماني حسنَة وأكرمه غاية الاكرام.

الرخاء في حلب

ونقل شرف الدّولة إلى الشّام من الغلال ما ملأ الأهراء، وعاد بالرِّفق على الناس؛ وكذلك نقل إليها من سائر الحبوب ومن البقر والغنم والمعز والدجاج شيء كثير.

وعاش الناس في أيّامه ورخصت الأسعار بحسن تدبيره. وتسلّم حصن عزاز من واليها عيسى. وتسلّم حصن الأثارب بعد حصار وحرب؛ وكذلك الحصُون التي كانت في أيدي أصحاب تاج الدّولة من أعمال حلب التي افتتحها.

وَصَفَتْ له جميع أعمال || حلب، وقال لسديد الملك: «امضِ في دَعَةِ الله فأنا سائر إلى بلادي. ويجبُ أن تصلح حالك فأنا أصِلُ وأبلغك كل ما تُؤثِرُهُ». ورجع إلى بلاده، وجعل أخاه عليّ بن قريش بحلب مع قطعة من عسكره بحلب. [١٠٣ظ]

وكاتبَ السُّلطان أبا الفتح ملك شاه يعلمه بما جَرى، ويسأله في تقرير شيء يحمله من الشّام فأجيب إلى ذلك.

ووصل أبو العزّ بن صَدَقة البغدادي وزير شرف الدّولة إلى حلب لجمع أموالها في سنة أربع وسبعين وأربعمائة؛ وعدل عما كان ابتدأ به من العَدْل والاحسان، وصادر جماعةً، وضاعف الخراج.

---

(١) هو أبو الحسن عليّ بن مقلد بن نصر بن منقذ الكناني الملقب سديد الملك، أول من ملك قلعة شيزر – انظر ابن خلكان ٣٦٧/١.

وكان شرف الدولة بالقادسيّة[١] فدخل الحمام وهي ملاصقة لداره ، فوثب عليه مملوك كان برسم خدمته ، فجعلا في حلقه أنشوطة[٢] ليخنقاه ، وانتظرا صاحباً لهما يدخل بسكين ؛ فصاح شرفُ الدّولة ، فسمعت صياحَهُ زوجته خاتون أخت السلطان ألب أرسلان ، فخرجتْ إليه فانهزما عنه . ومرض من ذلك أياماً ، وأُخذا وقُتلا .

ولمّا بلغ ذلك أبا العز بن صدقة البغدادي عاد من حلب إلى القادسيّة . وكان سديد الملك ابن منقذ قد عمر قلعة الجسر[٣] ، وقصد مضايقة شيزر[٤] وبها أسقف البارة[٥] وضيّق عليه إلى أن راسله واشتراها منه ، واستحلفه على أشياء اشترطها عليه[٦] .

(١) القادسيّة : بينها وبين الكوفة خمسة عشر فرسخاً ، وبها كان يوم القادسية بين سعد بن أبي وقاص والمسلمين والفرس في أيام عمر بن الخطاب سنة ١٦ للهجرة — انظر معجم البلدان لياقوت ٧/٦ .

(٢) الأنشوطة : عقدة يسهل انحلالها إذا أخذ بأحد طرفيها انفتحت كعقدة التكة . ج . : أناشيط .

(٣) في ابن خلكان ٣٦٧/١ : « كان نازلاً مجاوراً لقلعة بقرب الجسر المعروف بجسر بني منقذ » — وفي بغية الطلب ٢٢٣/١ أنها إلى جانب شيزر .

(٤) في معجم البلدان لياقوت ٣٥٣/٣ : « شيزر : بتقديم الزاي على الراء وفتح أوله — قلعة تشتمل على كورة بالشام قرب المعرة بينها وبين حماة يوم في وسطها نهر الأرند عليه قنطرة في وسط المدينة » — انظر دوسو بالصفحة ١٦٥ وما يليها — وقلعة شيزر اليوم على مسافة خمسة عشر كيلومتراً من الشمال الغربي لحماة — انظر كتاب أسامة بن منقذ للاستاذ محمد أحمد حسين ص ٣ — وفي بغية الطلب ٢٢٣/١ مثل هذا الكلام .

(٥) في معجم البلدان ٤٦٥/١ : « البارة : بليدة وكورة من نواحي حلب وفيها حصن ، وهي ذات بساتين ويسمونها زاوية البارة » — وقد بقيت الى اليوم من هذه المدينة خرابات وآثار قديمة .

(٦) انظر ما ذكره سبط ابن الجوزي ، في حاشية ابن القلانسي ١١٣ — وفي بغية الطلب ٢٢٣/١ : « وقصد بذلك التضييق على الاسقف الذي كان بشيزر فحصل لابن منقذ ما قصده وضاق بالاسقف الأمر ، وكره بلده ، فاشترى شيزر من الاسقف بمال بذله وتسلّم منه البلد ونزله » .

ولم يزل ابن منقذ يعده الجميل ويتلطّف له إلى أن سلم إليه حصن شَيْزَر ليلة الأحـد النصف من شهر رجب من سنة أربع وسبعين وأربعمائة .

ووفى له ابن منقذ بكلّ ما عاهده عليه ، فثقل ذلك على شرف الدّولة وحسد || ابن منقذ على شيزر فسار عسكر حلب مع مؤيّد [١٠٤و] الدّولة عليّ بن قريش إلى شيزر ، ونزلوا عليها في يوم الجمعة خامس ذي الحجة سنة أربع وسبعين وأربعمائة ، بعد مراسلاتٍ جرَتْ فلم يجب ابن منقذ إلى ما التمس منه .

وكان عليّ بن قريش قد أخذ في طريقه حِصناً لابن منقذ يقال له أسفُونا[١] غربيّ كفرطاب ، وكان ابن منقذ قد تأهب للحصار ، وحمل من الجسر إلى شيزر ما يكفي لمن فيه مدة طويلة من سائر الأشياء .

وحصره عليّ بن قريش مدة إلى أن وصل شرف الدّولة بنفسه ، فنزل على شيزر يوم الأربعـاء سلخ المحرم من سنة خمس وسبعين وأربعمائة .

ثم رحل عنها إلى حمص يوم السبت ثالث صفر ، وأقام عسكره على شيزر ، فتطارح ابن منقذ عَلَيه ، وسيّر إبنه أبا العساكِر وامرأته منصورة بنت المطوع وأُختَه رفيعة بنت منقـذ إلى حمص ؛ فدَخلوا عليه ، وحملوا إليه مالًا ، فأنفذ إلى عسكره ، ورحّله عن شيزر في الثامن والعشرين من صفر من السنة .

(١) اسفونا : حصن كان قرب معرّة النعمان – انظر ياقوت ١/٢٤٩ .

أعمال مُسْلِم بن قريش

ولما وصل شرف الدّولة إلى حماة قبض على جميع الأتراك الذين بالشام وأخذ منهم الحصون التي كانت في أيديهم، وهي بَيْت لاها[١]، وتل اغدي، وهاب[٢]، وكفرسل. وقبض على وثّاب وشبيب ابني محمود، وأخذ منها قلعة عزاز والأثارب، وأطلقهما بعد ذلك، وحمل الأتراك، وحبسهم في الرحبة فَدَاموا بها إلى أن قُتِل.

وقبض شرف الدّولة على أكثر أقطاع بني كلاب بالشام، وعاد إلى حلب، وقبض على حسن بن وثّاب النُّميري أمير بني نُمير، وكان قد حصره بسروج[٣] في العام الخالي فسلّمها إليه بعد أن عَوّضه عنها [١٠٤ظ] بنصيبين فاعتقله بحلب مدة وقتله.

وفي نزوله على شيزر، وقتاله حصن الجسر، وفعل وزيره أبي العزّ ابن صدقة من المصادرة، يقول أبو المَعافى سالم بن المهذّب المعرّي[٤]:

(١) في معجم البلدان لياقوت ٧٧٩/١: «بيت لاها — حصن عال بين أنطاكية وحلب على جبل ليلون».

(٢) في معجم اللبدان لياقوت ٩٦٥/٤: «هاب — قلعة عظيمة من العواصم» — ولم يتبين رسم الاسم التالي فلم نقع عليه في المصادر التي بين ايدينا ولعله كفرنُبُّل.

(٣) في الاعلاق الخطيرة لابن شداد، مخطوطة الجزيرة بالورقة ٣١ ظ: «سروج: عن شمالي حران إلى جسر منبج حسنة حصينة كثيرة الأشجار والمياه والفواكه والزبيب».

(٤) وردت ترجمة الرجل في بغية الطلب ١٩٠/٩ و — وهو سالم بن عبد الجبّار بن محمد ابن المهذب بن محمد بن همام بن عامر . . . أبو المعافى التنوخي المعرّي من أكابر بيوت معرة النعمان، وله شعر جيّد وكان بينه وبين سديد الملك مودة، وقد توفي سالم في سنة اثنتي عشرة وخمسمائة أو بعدها. وقد جاءت الأبيات في البغية وعليها فوائد وتعاليق.

أَمُسْلِمُ لَا سامتَ مِنْ حَادِثِ الرَّدَى
وَزَرْتَ وَزِيرًا ما شَدَدْتَ بِـهِ أَزْرا
رَبِحتَ ولَم تَخسر بِحَرْبِ ٱبْنِ مُنقِـذٍ
مِنَ ٱللهِ والنَّاسِ المَذَمَّـةَ وَالوِزْرا
قُمْتَ كَمدًا « فالجِسْرُ » لستَ بِجَاسِرٍ
عَلَيْهِ ؛ وَعَايِنْ شَيْزَرًا أَبَدًا شَزْرا

فبلغت الأَبيات شرف الدَّولة ، فقال : « من يقولُ هذا فينا ؟ » قالوا :« رجل من أهل المعرّة يقال له ابن المهذّب » . قال :« ما لنا وله اكتبوا إلى الوالي بالمعرّة يكفّ عنه ، ويُحسنُ إليه فربّما يكون قد جار عليهِ وأحوجه إلى أن قال ما قال » .

وعاد شرف الدّولة إلى الجزيرة ، وقد جَرَتْ منه هذه الحوادث ، وأجحف ببني كلاب ، فأجمع رأي وَثّاب وشبيب ابني محمود ، وخلف ابن ملاعب الأشهبي صاحب حمص ، وأبي الحسن بن مُنقذ ، ومنصور بن الدّوح على مكاتبة الملك تاج الدّولة بدمشق ، وشكَوْا أحوالهم ، وعرضوا عليه خدمتهم ، وأطمعوه في الشّام .

فسار من دمشق إلى الشام وقصد ناحية أنطاكية وأقام عليها مُدّةً[1] ، واتّصل به خبر شرف الدّولة وما هو عليه من الجمع والتّأهّب ،

---

(١) في ابن الأثير ٨/١٣٢ : «في هذه السنة جمع تاج الدولة تتش جمعًا كثيرًا ، وسار عن بغداد ، وقصد بلاد الروم انطاكية وما جاورها » – وفي ابن القلانسي ١١٤ : « سنة خمس وسبعين وأربعمائة – فيها توجه السلطان تاج الدولة إلى ناحية الشام من دمشق ومعه في خدمته الأمير وثاب بن محمود بن صالح ومنصور بن كامل وقصد ناحية الروم ، وأقام هناك مدة . »

واجتماع العَرب اليه من بني نمير ، وعقيل ، والأكراد ، والمولدة ، وبني شيبان، للنّزول على دمشق، والمضايقة لها والطمع في تملّك دمشق؛ فعاد تاج الدّولة إلى دمشق[1] . وخرج عسكر [حلب][2] || مع بعض [١٠٥و] أصحاب شرف الدّولة إلى أعمالها ، ورتّبوا ولاتَهم <فيها>[3] وساروا إلى حماة ، وبها وثّاب بن محمود ، فلقي عسكر شرف الدولة < وكبسه وقتل منه >[4] جماعةً ، وعاد من سلم منهم إلى حلب .

فنزل وثّاب بن محمود ومنصور بن كامل بن الدّوح وابن ملاعب[5] وابن منقذ على معرّة النّعمان ، وقطعوا كثيراً من شجرهـا ، ورعوا زرعها بالظعون، وَقَلبوه بالفدن ، وقَاتلوها أيّاماً ، ولم يمكنهم أهلها من فتحها خوفاً منهم .

وبلغ شرف الدّولة ذلك كله ، فسار ومعه أكثر بني كلاب وبني نمير ، وبعض بني عقيل ؛ ووصله بعض بني طيء وكَلب وعُليم ؛ ونزل في بالس في محرّم سنة ستّ وسبعين .

---

(١) في ابن القلانسي ١١٦ : « واتصل به خبر شرف الدولة مسلم بن قريش وما هو عليه من الجمع والاحتشاد والتأهب والاستعداد واجتماع العرب اليه من بني نمير وعقيل والأكراد والمولدة وبني شيبان للنزول على دمشق والمضايقة لها ، والطمع في تملكها ، فعاد منكفئاً إلى دمشق لما عرف هذا العزم ووصل إليها في أوائل المحرم سنة ٤٧٦ » .

(٢) هذه الكلمة ناقصة في الأصل يقتضيها السياق — وفي ابن الأثير ١٣٢/٨ توضيح بعض ما غمض هنا .

(٣) هذه الكلمة مطموسة استنبطناها من النص .

(٤) هذه الجملة مطموسة كذلك فوضعنا بين حاصرتين ما يقرب من معنى الكلام

(٥) هو خلف بن مُلاعب — انظر ابن القلانسي ١١٥ .

حصار دمشق

وسار إلى دمشق وحاصرها، وقاتل دمشق في بعض الأيام وخرج إليه عسكر دمشق، وحمل عليه حملةً صادقـة فانكشف عسكره وتضعضع، وعاد كلّ فريق إلى مكانه[١].

وعاد عسكر دمشق بحملةٍ أخرى، فـانهزمت العَرَبُ، وثبت شرف الدّولة مكانه، وأشرفَ على الأسر، وتراجع إليـه أصحابه؛ وكان قد ظنَّ أنّ العسكر المصريّ ينجـده فخاف أمير الجيوش من مَيْل العَرب إليهِ فتثاقل عنه[٢].

أخذ حرّان

وورد عليه من حرّان خبر أزعجه[٣]؛ وذلك أنّه كان قد تسلّمها من يحيى بن الشّاطر أحد عبيد ابن وثّاب النُّميْري، وكان يليها لعليّ بن وَثّاب الطفل[٤]، وكان وثّاب يعـدل فيهم ويرفق

---

(١) جاء في ابن القلانسي ١١٤ نصّ الجملة كما في ابن العديم مع اختلاف يسير في بعض الكلمات؛ وفي ابن الأثير ٨/١٣٢ عبارة قريبة جدًا من النصّ الذي بين أيدينا مع شيء من الاختصار.

(٢) في ابن القلانسي ١١٤: «وكان شرف الدولة قد اعتمد على معونة عسكر المصريين على دمشق ومعاضدته بالعسكر المصري على أخذها، فوقع التقاتل عليه بالانجاد والتقاعد عنه بالاسعاد، إشفاقًا من ميل الناس إليه وعظم شأنه بتواصلهم ووفودهم عليه».

(٣) في ابن الأثير ٨/١٣٢: «وأتاه عن بلاده الخبر أن أهل حرّان عصوا عليه فرحل عن دمشق إلى بلاده» – في ابن القلانسي ١١٥: «وورد عليه من أعماله ما شغل خاطره في تدبيره وأعماله، وتواترت الأخبار بما أزعجه وأقلقه، رأى أن رحيله عن دمشق إلى بلاده وعوده إلى ولايته لتسديد أحوالها واصلاح اختلالها أصوب من مقامه على دمشق وأوفق من شأنه».

(٤) في حاشية ابن القلانسي ١١٦ عن سبط ابن الجوزي: «فوجد قاضيها ابن جلبة الحنبلي قد استغوى اهلها وأدخل إليها جماعة من بني نمير مع ولد صغير لمنيع بن وثاب».

بهم ، فولّى فيها جعفر العُقَيْلي ، فعدل عمّا كان وثّاب يسلكه من العَدْل ، وأظهر مذهب التّشيّع والاعلان بهِ ؛ وكان || يتولى الحكم بها القاضي [١٠٥ظ] ابن جلبة ، فاتّفق مع أهل حرّان على العصيان على شرف الدّولة ، وكاتبوا يحيي بن الشّاطِر الّذي تسلّمها منه مسلمُ فوصل إليهم ، ومعه ابن عطيّة النّميْري وجماعة ؛ ووثبوا على أصحاب شرف الدّولة فهربوا إلى الحصن ، وقاتلهم ابن جلبة ومن انضم إليه .

فسيّر الوالي جماعة إلى شرف الدّولة يعلمه بالحال ، فبعضُهم أخذ بالقرب من حَرّان ، وبعضهم أخذه أصحاب تاج الدّولة ؛ فعرف تاج الدّولة الخبر قبل معرفة شرف الدولة فقويت نفسه .

وعرف شرف الدّولة ذلك واستضر عسكره بتواصل الغارات عليه عندما قويت نفس تاج الدّولة ، وكان ذا مكرٍ وخديعة ، فرحل إلى مرج الصّفر(١) ، وأوهم أنه يسير مقتبلًا لأمر عزم عليه ، وقلق أهل دمشق لذلك(٢) .

ثم رحل مشرّقاً في البرّيّة على وادي بني حصين ونزل شرقيّ حماة ، وراسل ابن ملاعب ، وطيّب نفسه إلى أن نزل فخلع عليه ؛

(١) مرج الصُّفر : سهل واسع ممتد في شمالي دمشق على بعد ٣٣ كيلومترًا منها – انظر دوسو ٣١٧ .

(٢) في ابن الأثير ١٣٢/٨ : « فرحل عن دمشق إلى بلاده ، وأظهر أنه يريد البلاد بفلسطين فرحل أولًا إلى مرج الصفر فارتاع أهل دمشق وتتش واضطربوا ، ثم انه رحل من مرج الصفر مشرقًا في البرية ، وجدّ في مسيره » – وفي ابن القلانسي ١١٥ : « فأوهم أنه سائر مقتبلًا لأمر مهمّ عليه وأرب مطلوب نهد إليه ، فرحل عن دمشق ونزل مرج الصفر ، وعرف من بدمشق ذلك فقلقوا لذلك واضطربوا ؛ ثم رحل مشرّقًا في البريّة وجلًا ، وجدّ في سيره مجفلًا » .

وقرّر معه أن يكون بينه وبين تاج الدّولة ردءاً يمنع من الأذية في بلاده[1]، فأجابه إلى ذلك؛ وخلع عليه شرف الدولة وأكرمه وطيّب نفسه.

وسار شرف الدّولة إلى حرّان بعد أن أشرف الحصن على الأخذ، فقاتل حرّان، ونقب نقوباً في سورها وثلم ثلمتين، وأقام عليها شهرين؛ ومضى أبو بكر ابن القاضي ابن جلبة ويحيى بن الشّاطر.

واستنجد بجماعةٍ من الأتراك فسيّر ابن عمّه ثروان بن وُهيب فكسرهم وأسر منهم خلقاً عبر بهم على || حرّان وسيّرهم إلى بلاده. [١٠٦ و]

وهجم حرّان بالسّيف من الثلمتين[2] وهم يقاتلون ولم تسكن الحرب حتى أعطى لؤلؤ الخادم الأمان، وأمن أبا بكر ابن القاضي وكان قد عاد إلى البلد، فحينئذٍ تفرّق النّاس.

ونهب عسكر شرف الدّولة البلد، وقطع عليهم ألف دينار، وقبض على خلق منهم، وقتل ابن جلبة وولديه وثلاثة وتسعين رجلاً صبرًا، وصلبهم، وصلب ابن جلبة أمامهم[3]، ولم يفِ له بعهده، وذلك كلّه في سنة ستّ وسبعين.

---

(١) في ابن القلانسي ١١٥ : « فأنفذ وزيره أبا العزّ بن صدقة إلى خلف بن مُلاعب المقيم بحمص ليجعله بين الشام وبين السلطان تاج الدولة لما يعلمه من نكايته في الأتراك وفتكه بمن يظفر به من أبطالهم الفتاك » — في تاريخ العظيمي بالورقة ١٨٤ ظ : « وعبر أبو العز صدقه في العساكر إلى الشام لدفع تاج الدولة عنه »

(٢) انظر تفصيل الموقعة في حاشية ابن القلانسي ١١٧، نقلًا عن سبط ابن الجوزي.

(٣) في سبط ابن الجوزي، بحاشية ابن القلانسي : « ثم طلب القاضي فوجد في كندوج فيه قطن، فأخذ وولداه فقبض على أعيان أهل حران، ونهب البلد إلى آخر النهار، ثم رفع النهب، وصلب القاضي وولديه وأعيان الحرانيين على السور وقتل خلقاً من العوام، وعاد إلى منازله بأرض الموصل » — انظر ابن الأثير ١٣٣/٨ .

خبر ملكشاه

وَوَصل ابن جهير وزير القائم ليتسلّم ديار بكر[١] ومعه عسكر من ملك شاه . وكان ابن جهير قد وزر مرّةً لثمال بن صالح ، ثُمّ وزر لابن مروان ، ثمّ للقائم - فوصل ابن مروان إلى شرف الدّولة ، واستنجده عليه فأنجده[٢] ، فالتقوا على آمد ، فكسرهم ابن جهير ، وأخذ أموال شرف الدّولة ، وأسر أصحابه[٣] ، وأطلقَ من أسر مِن بني عقيل[٤] .

انكسار شرف الدولة

ثم إنّ ابن جهير بثّ سراياه في أعمال شرف الدّولة فعاثتْ في بلاده ، ونَهبت ؛ وذلك في سنة سبع وسبعين .

ووصله مالٌ من حلب فتقوّى به ؛ وسار[٥] إلى الرّحبة وسيّر عمه

---

(١) في ابن الأثير ١٣٣/٨ : « وعقد السلطان لفخر الدولة بن جهير على ديار بكر وخلع عليه وأعطاه الكوسات وسيّر معه العساكر ، وأمره أن يقصدها ويأخذها من بني مروان » .

(٢) في ابن الأثير ١٣٤/٨ : « وكان ابن مروان قد مضى إلى شرف الدولة ، وسأله نصرته على ان يسلّم إليه آمد ، وحلف كل واحد لصاحبه ، وكل منهما يرى أن صاحبه كاذب لما كان بينهما من العداوة المستحكمة ، واجتمعا على حرب فخر الدولة وسارا إلى آمد » .

(٣) في ابن الأثير ١٣٥/٨ : « وغنم التركمان حلل العرب ودوابهم ، وانهزم شرف الدولة ، وحمى نفسه حتى وصل إلى فصيل آمد ، وحصره فخر الدولة ومن معه ، فلما رأى شرف الدولة أنه محصور خاف على نفسه فراسل الأمير أرتق » .

(٤) في ابن الأثير ، بالصفحة نفسها : « وافتكّ أسرى بني عقيل ونساءهم وأولادهم وجهزهم جميعهم وردّهم إلى بلادهم ففعل أمرًا عظيمًا وأسدى مكرمة شريفة » .

(٥) أي شرف الدولة ، وهو مسلم بن قريش بن بدران الامير أبو البركات شرف الدولة أمير بني عُقيل صاحب الموصل والجزيرة وحلب - انظر النجوم الزاهرة ١١٩/٥ .

مقبل بن بدران رسولًا إلى مصر يطلب معونتهم ، ويبذل لهم الطاعة ، وكاتب السّلطان ملك شاه يذكّره بخدمته وطاعته ويذكر ما فعله ابن جهير .

فلما عرف ملك شاه ذلك وانفاذه عمّه إلى مصر سار إلى الموصل ومعه نظام الملك ؛ — وكان نظام الملك يميل إلى شرف الدّولة ، ويشير بالإحسان إليه والصفح || عنه — وكاتب الوزيرُ نظامُ الملك شرفَ [١٠٦ظ] الدّولة يُشير عليه بالوفود على السّلطان ، ووعده بما طابت به نفسه ، فسار من الرّحبة إليه ، ولقيه نظام الملك على مراحل مِن الموصل[1] .

فترجّل شرفُ الدّولة وقبّل يده ؛ وكان في محفّة لمرض مَنَعَهُ من الرّكوب ، فأمره بالرّكوب[2] ، وقال له : « ذَهَبَ خوفُك وشرِحَ صَدْرُكَ ، وحُقِّقِ أَمَلُكَ » . وكان قد استصحب معه كلّ ما قدر عليه من بقايا ذخائره وأمواله وخيله عقيب هذه النّكبة العظيمة .

ودَخل على السّلطان فأكرمه وأحسن إليه ، وأجابه إلى كلّ ما طلبه ؛ وسامحه بما كان بقي عليه من مقاطعة الشّام ؛ وجدّد له التّوقيع بالبلاد الشّامية والجَزَرية وكلّ ما كان في يده ؛ وقرّر معه مسير ولده

(١) في ابن الأثير ٨/١٣٥ : « فأرسل مؤيد الملك بن نظام الملك إلى شرف الدولة وهو مقابل الرحبة فأعطاه العهود والمواثيق ، وأحضره عند السلطان وهو بالبوازيج ، فخلع عليه آخر رجب ، وكانت أمواله قد ذهبت ، فاقترض ما خدم به ، وحمل للسلطان خيلًا رائقة من جملتها فرسه بشار – وهو فرسه المشهور الذي نجا عليه من المعركة ومن آمد أيضًا وكان سابقًا لا يجارى– » .

(٢) في ابن القلانسي ١١٧ : « وفي رجب منها : توجه شرف الدولة مسلم بن قريش إلى دركاه السلطان العادل ملك شاه بن الب ارسلان ، ودخل عليه ووطئ بساطه ، فأكرمه واحترمه وخلع عليه ، وقرر أمره على ما يجرى من إصلاح أحواله والاقرار على أعماله ، وازالة ما كان يخشاه ، وعاد مسرورًا بما لقي ، ومحبورًا بنيل مبتغاه » .

محمد وأن يكون في عسكره ، وكاتب أخاه تاج الدّولة أن لا يعرض لبلاده، وكان قد توجّه إليها، وسار أبو العزّ بن صدقة إلى حلب لانجادها عليه ، وبلغه خروج عسكر من مصر فرجع من لطمين[1] .

سُلَيمانُ والرُّوم

وفي سنة سبع وسبعين وأربعمائة ، شرع سليمان بن قطلمش[2] في العمل على أنطاكية والاجتهاد في أخذها إلى أنْ تمّ له ما أراد[3] .

فأسرى من نيقيه[4] في عسكره ، وعبر الدُّروب وأوهم أن الفلاردوس[5] استدعاه ، وأسرع السَّير إلى أن وصل أنطاكية ليلاً ، فقتل أهل ضيعة تعرف بالعمرانيّة[6] جميعهم لئلا ينذروا به ، وعلقوا حبالاً في شرفات السّور بالرّماح ، وطلعوا مما يلي باب فارس ؛ وحين

(١) لطمين : كورة بحمص ، قريبة من أفامية وهي قديمة — انظر دوسو ٢٠٧ ، وزبدة الحلب ١/٢٥١ بالحاشية .

(٢) تختلف المصادر التاريخية في رسم هذا الاسم فبعضها يكتبه بالطاء وبعضها يكتبه بالتاء — وفي النجوم الزاهرة ٥/١١٩ : «سليمان بن قُتُلْمِش» — في ابن القلانسي ١١٧ ؛ وفي ابن الأثير ٨/١١٣ : «سليمان بن قتلمش» — وفي ابن العديم ، والعظيمي ١٨٥ ظ : «سليمان بن قطلمش» .

(٣) في ابن القلانسي ١١٧ عبارة مماثلة : «في هذه السنة شرع سليمان بن قتلمش في العمل على مدينة أنطاكية ، والتدبير لأمرها ، والاجتهاد في أخذها ، والتملك لها ، ولم يزل على هذه القضية إلى أن تمّ له ما أراده فيها وملكها سرقة» .

(٤) نيقية — بكسر أوله وسكون ثانيه وكسر القاف وياء خفيفة : من أعمال استانبول على البر الشرقي ، وهي المدينة التي اجتمع بها آباء الملة المسيحية — انظر معجم البلدان لياقوت ٤/٨٦١ .

(٥) رسم الناسخ هذا الاسم على وجهين فجعله في ص ٨٦، ٨٧ : «الفلادرس» ثم رسمه ص ١٠١ : «الفلاردوس» وهذا أقرب إلى لفظه الأعجمي فصوّبناه ووحّدنا رسمه — في العظيمي وفي ابن الأثير ٨/١٣٦ : «الفردوس الرومي» — وهو في الأعجمية : *Philaretos Brachamios* — انظر هونيغمان ١٢٣ .

(٦) في الأصل : «لئلا يبدروا به» — وفي ابن الشحنة ٢١١ : «وقتل أهل العمرانية جميعاً حتى لا ينذروا به» .

صار منهم || على السّور جماعة نزلوا إلى باب فارس وفتحوه. [١٠٧و]

ودخل هو وعسكره من الباب وأغلقوه، وكانوا مائتين وثمانين رجلًا، وذلك يوم الأحد العاشر من شعبان؛ وقيل يوم الجمعة الثامن، ولم يشعر بهم أهل البلد إلى الصَّباح.

وصاح الأتراك صيحةً واحدة فتوهّم أهل أنطاكية أنه عسكر الفلاردوس[1] حتى قاتلوهم فانهزموا وعلموا أن البلد قد هُجم فبعضهم هرب إلى القلعة وبعضهم رمى بنفسه من السُّور فنجا.

واستقلّ سليمان عسكره فوصل اليه ابن منجاك في ثلاثمائة فارس، ولم يزل عسكره يتواصل حتى قوي، فأمن النَّاس وردّهم إلى دورهم، وردّ أكثر السَّبي وصلّى المسلمون يوم الجمعة خامس عشر شعبان في القسيان[2]، وأذّن فيه ذلك اليوم مائة وعشرة من المؤذنين وخلق كثير من أهل الشَّام.

وكان يوم فتحها أوّل يوم من كانون الأول؛ وكان فتحُ الرُّوم لها أول ليلة من كانون الثاني لثلاث عشرة ليلة خلت من ذي الحجة من سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة.

ووُجد خطّ بعض المنجمين وهو ابن أخت الصَّابي على ظهر كتاب عند القاضي أبي الفضل بن أبي جرادة يقول: «ذكر المخبر عن أخذ مدينة أنطاكيّة أنّ دخول العدو — يعني الرّوم — إليها في وقت كذا وكذا من اللّيل؛ فان صحّ قولُ المخبر فإنها تثبت في أيدي الرّوم مائة وتسع عشرة سنة».

(١) في الأصل: «الفلادرس» — انظر هامش الصفحة السابقة.

(٢) في ابن الأثير ١٣٦/٨ «وتسلم القلعة المعروفة بالقسيان»

وكان قد وقف على هذا الخطّ محمود بن نصر بن صالح ؛ وقد ذكر في مجلسه ، وأظنّ ذلك حين نزل الأفشين التركيّ على أنطاكية ، [١٠٧ظ] وخاف محمود من أن يملك || أنطاكية فلم يتفق فتحُها حينئذ ، وكان الأمر كما ذكر المنجّم ، ففتحها سليمان بن قطلمش عند تمام المدّة .

وأقام سليمان بن قطلمش يُحاصر قلعة أنطاكية إلى الثاني عشر من شهر رمضان من السّنة وفتحها بالأمان ليقيها من القتل والسّبي . ونهب التُرك من أنطاكية ما يفوت الاحصاء ويزيد عن الوصف[1] .

وسكنها سليمان بعسكره وفتح الحصون المجاورة لها ، بعضها عن طوع وبعضها عن استدراج .

وصار لسليمان من نيقية إلى طرابلس ، وملكَ الثّغور الشّامية ، وكان حسن السيرة في جنده وعسكره جوادًا بماله ، فمال إليه الناس لذلك . ولما فتح أنطاكية أهدى إلى شرف الدّولة من الغنيمة هديّة حسنة .

ولما استقرّ حال شرف الدّولة مع ملك شاه واطمأن عاد إلى القادسيّة ، وناصف الجُند في أرزاقهم ، ونقصها عليهم ، فصار أكثرهم إلى سليمان ، وتركوه فأقطعهم ؛ وأحسن إليهم وسبّب لهم أرزاقاً تكفيهم .

وكان جماعة من أصحاب بني مرداس يخافون شرف الدّولة وهم متفرقون في الشّام فصاروا إليه .

(١) في ابن الأثير ١٣٦/٨ : « وأخذ من الأموال ما يجاوز الإحصاء ، وأحسن إلى الرعيّة ، وعدل فيهم » .

وكان من ضياع أنطاكية وأعمالها مواضع عـدة تغلّب محمود والأتراك عليها، وقبضوها من الرّوم لضعفهم، وصارت في أعمال حلب، فقبضها سليمان وأقطعها وغيرها مما يجاور أعمال أنطاكية.

وكان الشريف حسن الحتيتي رئيس حلب وغيره من أصحاب شرف الدّولة خافوا منه لمّا استقر حاله مع السّلطـان أن يتمّ له الصلح مع ابن قطلمش فيتفرغ لهم ويقبضهم، || ويستأصل أموالهم، فتوصّلوا [١٠٨و] إلى المفاسدة بينهما بمن صار في حلّته من أهـل الشام ليشتغل عنهم شرف الدولة.

وكان لأبي المكارم قطعة على أنطاكية يحملها الروم إليه فطمع بها من سليمان فلم يجبه إلى ذلك وقال: «تلك جزية كانت على الروم لتمسك عن جهادهم، وقد قمتُ أنا بفريضة الجهاد، وصارت أنطاكية للمسلمين فكيف أؤدي عنها إليك جزية؟». ففسد ما بينهما لذلك[1].

وسار شبيب بن محمود ومنصور بن الدوح وجماعة من بني كلاب إلى أنطاكية، وحضروا عند سليمان، ووعدهم ووعدوه بما لم يقبح من بعضهم لبعض، وأخذوا قطعة من عسكره، وخرجوا فعاثوا في بلاد شرف الدّولة، ثمّ إنهم خافوا منه فهربوا إلى أسفونا.

(١) في ابن الأثير ٨/١٣٧ تفصيل الأمر: «فلما ملكها – اي سليمان بن قتلمش – أرسل إليه شرف الدولة مسلم بن قريش يطلب منه ما كان يحمله إليه الفردوس من المال، ويخوفه معصية السلطان. فأجابه: أما طاعة السلطان فهي شعاري ودثاري والخطبة له والسكة في بلادي، وقد كاتبته بما فتح الله على يدي بسعادته من هذا البلد وأعمال الكفار. وأما المال الذي كان يحمله صاحب أنطاكية قبلي فهو كان كافرًا، وكان يحمل جزية رأسه وأصحابه، وأنا بحمد الله مؤمن ولا أحمل شيئًا».

وتواصلتْ غاراته على بلد حلب وسَرْمين[١] وبزاعا[٢] وقبض شرف الدّولة على وزيره أبي العزّ بن صدقة وصادره وحَبَسه، وسيّر ابن الحلزون إلى حلب ليدبّر أمرها؛ فوصل إلى حلب، وراسل سليمان في الصّلح.

الغارات على مسلم

وقبض على عليّ بن قريش بأمر أخيه شرف الدّولة، وصادره على عشرة آلاف دينار، وأخذ منه منبج لأنها كانت أقطاعه، فعند ذلك ازدادت وحشة الشّريف وغيره لما شاهدوه من فعله بأخيه. وكذا كانت سيرته في أصحابه. وبهذا الطريق فسد حاله؛ وأما رعيّته فكانوا معه على أجمل حال وأحسنه.

وحيث تحقّق شرف الدّولة احتلال حلب ونواحيها بغارات سليمان جمع عسكره وانضاف إليه بعض الأتراك، ووصل إلى عَزاز || [١٠٨ظ] في صفر من سنة ثمان وسبعين وأربعمائة.

وأشير عليه بالنّزول على حَلَب ومراسلة سليمان في الصُّلح، فامتنع واستدعى بني كلابٍ فوَصَلَه منهم جماعةٌ من أعيانهم وفرسانهم، وسار

(١) سَرْمين: تقع غربيّ قنسرين وفي الشمال من معرة النعمان، على خمسين كيلومترًا من الجنوب الغربيّ لحلب — انظر دوسو ٢١٤، وزبدة الحلب ١١٩/١ بالحاشية — وفي بغية الطلب ٢٢٠/١ أنها بطرف جبل السمّاق.

(٢) في معجم البلدان لياقوت ٦٠٣/١: «بزاعة: سمعتُ من أهل حلب من يقوله بالضم والكسر ومنهم يقول بزاعى بالقصر.. وهي بلدة من أعمال حلب في وادي بُطنان بين منبج وحلب، بينها وبين كل واحدة منها مرحلة» — وفي مخطوطة بغية الطلب ٣٣٩/١ لا نجد تفصيلًا للموقع وإنما لما في القرية من بساتين وثمار — وتقع بزاعا في الشمال الشرقي من الباب.

فنزل على نهر عفرين[1] بموضع يقال له قُرزَاحل[2].

ووَصل سُليمان من أنطاكية في أربعة آلاف فارس، وكان شرف الدّولة في عدّةٍ تزيدُ عن ستة آلاف ليس فيهم مناصح؛ وجاء شرف الدّولة بطيخ فنزل هو وبعض بني عمه وأكلوا، فقال ابن عمه:

كُلُوا أَكلةً مَنْ عَاشَ يُخْبِرُ أَهلَهُ
وَمَنْ مَاتَ يَلْقَى اللهَ وَهْوَ بَطِينُ

فقال شرف الدّولة: «قَتَلْتَنَا فأُلكَ يا ابنَ العَمّ».

مقتل شرف الدولة

والتقوْا في آخر نهار السّبت، لستّ بقين من صفر سنة ثمان وسبعين[3] وأربعمائة، والشّمس في وجوه عسكر شرف الدولة؛ وكان اللقاء بغتة في غير وقت يظن فيه؛ فانهزم عسكر شرف الدّولة، وجاءته طعنةٌ فقُتل. ولما طُعِنَ

(١) في ابن القلانسي ١١٨: «على نهر سفيان» – ونهر عفرين كما في معجم البلدان لياقوت ٣/٦٨٩: «بكسر أوله وسكون ثانيه وراء بلفظ الجمع الصحيح – اسم نهر في نواحي المصيصه يخرج إلى أعمال نواحي حلب، له ذكر في الأخبار».

(٢) في معجم البلدان لياقوت ٦/٥٦: «قُرزاحل: بالضم ثم السكون وزاي وألف وحاء مهملة ولام – من نواحي حلب ثم من نواحي العمق، قُتل بها مسلم بن قريش العُقيلي أمير الشام قتله سليمان بن قتلمش في سنة ٤٧٨ هـ».

(٣) في ابن الأثير ٨/١٣٧: «ثم ان شرف الدولة جمع الجموع من العرب والتركمان وكان ممن معه جبق أمير التركمان في أصحابه. وسار إلى أنطاكية ليحصرها، فلما سمع سليمان الخبر جمع عساكره، وسار إليه فالتقيا في الرابع والعشرين من صفر سنة ثمان وسبعين وأربعمائة في طرف من أعمال أنطاكية، فاقتتلوا، فمال تركمان جبق إلى سليمان، فانهزمت العرب، وتبعهم شرف الدّولة منهزماً، فقتل بعد أن صبر، وقتل بين يديه أربعمائة غلام من أحداث حلب، وكان قتله يوم الرابع والعشرين من صفر سنة ثمان وسبعين» – وهكذا نرى اختلاف التاريخ في مقتله بين ابن الأثير وابن العديم. واما ابن تغري بردي في النجوم الزاهرة ٥/١١٩ فقد جعل مقتله سنة ٤٧٧ هـ، وقال بعدها: «وكان شجاعاً جواداً ذا همة وعزم، احتاج إليه الخلفاء والملوك والوزراء وخُطب له على المنابر من بغداد إلى العواصم والشام، وأقام حاكماً على البلاد نيفاً وعشرين سنة.» – ويمدحه ابن الأثير كذلك فيقول

قالَ : «يا شام الشؤم[١]» وأتهم بعض أصحابه بقتله . وكان القتل بين الفريقين قليلًا لأن أصحاب شرف الدّولة لم يثبتوا معه لقبح رأيهم فيه . ورحل سليمان ونزل بظاهر حلب ، وحمل شرف الدّولة ، وطرحه على باب حلب فدُفِنَ هناك .

وانفرد الشريف أبو علي الحسن بن هبة الله الهاشمي المعروف بالحتيتي بتدبير حلب وسالم بن مالك العقيلي بالقلعة .

وكان القاضي بحلب في أيام شرف الدولة القاضي كسرى بن عبد الكريم بن كسرى وتولى قضاء حلب في سنة اثنتين وأربعين وأربعمائة || ومات [١٠٩و] في أيام أبي المكارم مُسلم بن قُريش ؛ فولي قضاءها أبو الفضل هبة الله بن أحمد بن أبي جرادة ـــ وهو ابن بنت كسرى المذكور[٢]، وابن القاضي أبي الحسن المتقدم قبل كسرى ـــ وكان أبو المكارم شرف الدّولة يخاطبه بابن العمّ لكونه عقيليًّا ؛ والقاضي عقيلي . ومن شعر أبي المكارم بن قُريش :

إذا قرعَتْ رِجْلي الرِّكاب تَزَعْزَعَتْ لَهَا الشمّ واهتزّ الصعيدُ إلى مصر

ومن شعره أيضًا :

الدَّهرُ يَوْمَانِ ذَا أَمنٌ وَذَا خَطَرٌ وَالْمَاءُ صِنْفَانِ ذَا صَافٍ وَذَا كَدِرُ

فيه : « وكان عادلًا حسن السيرة ؛ والأمن في بلاده عام ، والرخص شامل ، وكان يسوس بلاده سياسة عظيمة بحيث يسير الراكب والراكبان فلا يخافان شيئًا ، وكان له في كل بلد وقرية عامل وقاض وصاحب خبر ، بحيث لا يتعدى أحد على أحد » .

(١) في مخطوطة الزبد والضرب ، بالورقة ١٠ ظ : « انها مشتقة من الشوم كما هو أحد الوجهين في اشتقاقها والوجه الآخر أنها مأخوذة من اليد الشوماء وهي اليسرى على ما نقله ابن شداد في تاريخه عن أبي بكر محمد بن الأنباري وكلاهما خلاف مقتضى حديث (الشام شامة الله في أرضه) والله أعلم » .

(٢) هو جدّ جدّ كمال الدين بن العديم المؤلف وقد ذكره في كتابه الانصاف والتحري – انظر تعريف القدماء بآثار أبي العلاء – السفر الأول ص ٥١٨

القسم الثامن عشر

ذكر
حلب في أيام السلطان أبي الفتح ملكشاه

خبر سليمان بن قطلمش - خبر تاج الدولة تتش - ملكشاه في حلب - قسيم الدولة آق سنقر

٤٧٨ هـ — ٤٨٦ هـ

خبر سليمان بن قطلمش

وأما سليمان بن قطلمش فإنّه حاصر حلب مدّة ، ثم تردّدت الرّسل إلى أهل حلب في التّسليم ، فاستقرّت الحالُ بينهم على موادعةٍ مدةً.

وسيّر سليمان بن قُطلمش قطعةً من عسكره لاتباع العرب الذين كانوا مع شرف الدّولة ، فهربوا ، ولحقهم شدّة عظيمة من دخول البرّية في حزيران.

وتوجّه سليمان إلى معرّة النعمان و كفرطاب ، وتسلّمها ، ثمّ سار إلى شيزر ، فقاتلها وقرّر أمرها على مال يحمل إليه ، وأخذ لطمين ، وشحنها بالرّجال ، وعدل أصحابه بالشام عما عرف من سيرة العرب .

وجرت بالمعرّة أسباب وصل لأجلها حسن بن طاهر وزير سليمان ، في النصف من جُمادى الأولى ، يطلب أصحابه فثارت فتنة بالبلد ، وأخرجوه منه فخرج لوقته ، وأصبح قاتل البلد ، وقتلَ جماعةً من أهله في الحرب ، وأمن الناحية الغربية ، وأمن الباقي || < منها وجعل >[1] [١٠٩ظ] على أهل البلد عشرة آلاف دينار .

وأما بلاد شرف الدّولة فملكها < بعده أخوه >[1] ابراهيم ، ما خلا حلب ، وكاتب مَنْ بحَلَب في تسليمها إليه فلم < يرده الخبر >[1] .

الشريف الحتيتي

وأما الشّريف حسن الحتيتي فإنه كان متقدم الأحداث[2] ورئيسهم ، فعمر لنفسه في صفر من

(١) وضعنا هذه الاشارات للدلالة على الطمس الواقع في الورقة – كما بينا في باب الرموز – وقد وضعنا داخلها كلمات لإكمال السياق كما دل عليه المعنى المراد .

(٢) في ابن الأثير ٨/١٦٠ : « ابن الحتيتي العباسي مقدم أهل حلب » .

سنة ثمان وسبعين قلعة الشَّريف المنسوبة إليه، وبنى عليها سورًا دائرًا، وفصل بينها وبين المدينة بسور وخندق خوفًا على نفسه أن يسلمه أهل حلب، وكانوا يبغضونه، ويكرهون ولايته عليهم[١].

واتّفق الشَّريف وسالم بن مالك صاحب القلعة الكبيرة على أن كاتبا السّلطان ملك شاه يبذلان له تسليم حلب إليه، ويحثّانه على الوصول أو وصول نجدة تدفع سليمان بن قطلمش.

وعمر سليمان بن قطلمش قلعة قنّسرين وتحول إليها وتزوّج منيعة بنت محمود بن صالح زوجة مسلم بن قريش.

ونزل على حلب وطال انتظار الشَّريف حسن لنجدة تصله من السّلطان، فاجتمع بمبارك بن شبل أمير بني كلاب، واتفقا على أن سار مبارك بن شبل إلى تاج الدّولة تتش يستدعيه إلى حلب ليتسلّمها.

وعرفه ما استقرّ بينه وبين الشريف الحتيتي عن تسليمه حلب، ورغبة الكافة في مملكته. ففرح بذلك وجمع العسكر، وخرج من دمشق في المحرّم من سنة تسع وسبعين وأربعمائة إلى حلب، فحصر حصن سليمان بن قطلمش في قنّسرين.

|| ووصل إلى تاج الدّولة جماعة من بني كلاب، ورحل إلى النّاعورة [١١٠و] وعوّل على مراسلة الشريف حسن فان سلم إليه تغلّب وإلّا عاد < لحربه >[٢] فبادر سليمان وهو نازل في عسكره على حلب، وعارضه

(١) في ابن القلانسي ١١٨ : « سنة ٤٧٨ هـ – وفيها شرع في عمارة القلعة الشريف بحلب وترميم ما كان هدم منها، واعادتها إلى ما كانت عليه في حال عمارتها ».

(٢) الكلمة مطموسة في الأصل فجعلنا مكانها ما نرى متابعة للسياق.

في طريقه على عَيْن «سَيْلم»[١] وتراءى العسكران، فدبّر أرتق[٢] عسكر تاج الدّولة أحسن تدبير، والتقوا فانهزم عسكر سليمان.

خبر تاج الدّولة تُتُش

مقتل سليمان

وقتل سليمان، وأسر وزيره الحسن بن طاهر وخلق من عسكره في يوم الأربعاء الثّامن عشر من صفر، فأطلق تاج الدّولة الوزير ومن أسر، وغنم عسكرُه والعرب الذين معه جميع ما كان في العسكر.

واختلف في قتل سليمان، فقيل: عارضه فارس من فرسان تاج الدّولة فرماه في صدغه بسهم فقتله.

وقيل: بأنه لما يئس من النّصرة نزل عن فرسه، وقَتَلَ نفسَهُ بسكّين خفّه[٣]. وقيل: إنّ المصامدة تَتَبَّعتْ أسلابَ القتلى فظفروا بدرعٍ مرصّع بالياقوت والعقيان النفيس.

ونمي الخبر إلى تاج الدولة، فأحضره فقال: «هذا يشبه سلب الملوك». وسار إلى الموضع وإذا به مختلط بدمه فقال: «يشبه أن يكون هذا». وقد كان قال لهم: «لا تبيّنوه لي حتى أريكموه من بين القتلى». فقيل له: «ومن أين علمت ذلك؟» فقال: «قدمه تشبه قدمي وأقدام بني سلجوق تتشابه».

---

(١) هذه الكلمة مطموسة كذلك، وهي في ابن القلانسي ١١٩ : «في موضع يعرف بعين سلم» وهو تصحيف؛ وصحيحها في العظيمي ١٨٥ ظ : «عين سيلم». وعين سيلم على ثلاثة أميال من حلب – انظر معجم البلدان ٣/٧٦٢.

(٢) هو الأمير أرتق بن أكسب؛ كما في ابن الأثير ٨/١٦٠.

(٣) في ابن الأثير، بالصفحة المذكورة: «فانهزم أصحاب سليمان، وثبت وهو في القلب

ثم قال بلسانه : « ظلمناكم، وأبعدناكم ونقتلكم ! » ثم مسح عينيه واغتمّ لقتله. وترحّم عليه، وأحضر أكفانًا نفيسة فكفّنه، وصلّى عليه، وحمله إلى حلب فدفنه إلى جانب مُسلم بن قريش قبل أن ينقل مسلم إلى سرّ من رأى[1]. وقيل: دفن معه في قبرٍ واحد.

[١١٠ظ] ولما جرى ما جرى من قتل سليمان || وسار تاج الدّولة إلى حلب عدل الشّريف حسن الحتيتي عما كان اتّفق عليه مع مبارك بن شبل، وامتنع من تسليم حلب إلى تاج الدّولة، واحتجّ بأنّ كُتُبَ ملك شاه وَصَلَته بتجهيز العساكر إليه.

فأقطع تاج الدّولة بلد حلب وأعمالها لعسكره إلّا ما كان لبعض العرب الّذين وفدوا عليه، فانّه أقرّه في أيديهم؛ ثم رحل إلى مَرْج دابق[2] وأقام أيامًا.

ثم عاد ونازل حلب؛ فعمد رجل من تجار حلب يعرف بابن البرعوني[3] الحلبيّ، وراسل تاج الدّولة في تسليم حلب إليه؛ ورفع بعض أصحابه بحبال إلى بعض أبراج السور، وساعده قومٌ من الأحداث ونادوا بشعار تاج الدّولة في ذلك الموضع. وتسامع الناسُ فنادَوْا بشعاره في البلد جميعه[4]. وذلك

فلما رأى انهزام عساكره أخرج سكينًا معه فقتل نفسه، وقيل بل قتل في المعركة ».

(١) في معجم البلدان لياقوت ٨٣/٣ : « سرّ من رأى — قال الزجاجي : قالوا كان اسمها قديمًا سامرا، سمّيت بسامر بن نوح كان ينزلها لان اباه أقطعه إياها، فلما استحدثها المعتصم سمّاها سرّ من رأى؛ وقد بسط القول فيها بسامرّاء فأغنى ».

(٢) في معجم البلدان لياقوت ٥١٣/٢ : «دابق : بكسر الباء وقد روي بفتحها وآخره قاف—قرية قرب حلب من أعمال عزازينها وبين حلب أربعة فراسخ عندها مرج معشبتزه».

(٣) في ابن الأثير ١٦٠/٨ : « ابن الرعوي » — وفي ابن القلانسي ١١٩ : « ابن البرعوني الحلبيّ » — وفي العظيمي بالورقة ١٨٦ و : « ابن البرعوي ».

(٤) جاء خبر ذلك مفصلًا في ابن الأثير ١٦٠/٨ : « وكان ابن الحتيتي قد سلم كل برج من أبراجها إلى رجل من أعيان البلد ليحفظه، وسلم برجًا فيها إلى انسان يعرف بابن

في ليلة السَّبت السَّادس والعشرين من شهر ربيع الأوّل من السَّنة .

فانهزم هبةالله أبو الشريف حسن من قلعة ابنه إلى القلعة الكبيرة إلى سالم بن مالك ، وبقي الشَّريف حسن في قلعته المجدّدة ، ومعه فيها رجال من أحداث حلب ، فخافوا على أهلهم بحلب ، فخرجوا منها وبقي الشريف حسن في قلعته في نفر قليل ، فطلب الأمان فأمّنه تاج الدّولة بوساطة ظهير الدّين أرتق .

وخرج أرتق وصار عنده بماله وأهله ، وسلّم القلعة إلى تاج الدّولة تتش وسيره أرتق إلى بيت المقدس بماله فأقام به .

وعصي سالم بن مالك[1] بالقلعة الكبيرة ، وكان شرف الدّولة بن قريش لما ولّاه فيها أوصاه أن لا يسلّمها إلّا إلى السلطان ملكشاه ، فالتزم بوصيّته ، وامتنع أن يسلّمها إلى تتش .

|| وأقام تتش بمدينة حلب إلى اليوم السَّابع والعشرين من شهر [١١١ و] ربيع الآخر[2] ، وأحسن إلى أهلها ، وخلع على أحداثها ، فوصله الخبر أنّ السّلطان ملك شاه وصلت عساكره إلى نهر الجوز قاصدين مدينة حلب ، فسار تاج الدّولة إلى دمشق ، وترك بعض أصحابه بقلعة الشريف ومعه عدّة في اليوم المذكور ، ومعه قوم من بياض حلب ، فأقام نائبه أياماً يسيرة ، ثم سار ولحقه في دمشق .

الرعوي ، ثم ان ابن الحتيتي أوحشه بكلام أغلظ له فيه وكان هذا الرجل شديد القوة ، ورأى ما الناس فيه من الشدة فدعاه ذلك إلى أن أرسل الى تتش يستدعيه وواعده ليلة برفع الرجال إلى السور في الحبال ، فأتى تتش للميعاد الذي ذكره فأصعد الرجال في الحبال والسلاليم وملك تتش المدينة » .

(١) في ابن الأثير : « سالم بن مالك بن بدران وهو ابن عم شرف الدولة مسلم بن قريش » .

(٢) في ابن الأثير ١٦٠/٨ : « فأقام تتش يحصر القلعة سبعة عشر يوماً » .

مَلِكْشاه في حَلَب

ووصلت عساكر ملك شاه حلب مع برسق وإياز وبوزان[١] وغيرهم ، ونزل بعضهم إلى بلد الرّوم ، وامتدوا فيما بينها وبين أنطاكية؛ ووصل بعضهم إلى حلب ، وسارع أهل حلب وسالم بن مالك ومبارك ابن شبل إلى طاعة الواصل وخدمته .

ثم إنّ السّلطان وصل بعدهم إلى الرّها فسلّمها إليه الفلاردوس[٢] وأسلم على يده ، وسار منها إلى قلعة دوسر — وهي المعروفة بجعبر[٣] — فتسلّمها في طريقه من جعبر بن سابق القُشيري ، وقتله لما بلغه عنه من الفساد وقطع الطّريق .

وسار حتّى وصل حلب في الثّالث والعشرين من شعبان من سنة تسع وسبعين وأربعمائة .

---

(١) في ابن الأثير : « بوزان » بالواو قبل الزاي ، وهو عماد الدولة بوزان صاحب أنطاكية ، كما نرى فيما بعد ؛ ورسمه الناسخ عندنا كذلك بالواو في مواضع أخرى .

(٢) وقع في نسختنا سطران زائدان حشرا بعد هذه الكلمة ، وقد كانا من غير شك في هامش مسوّدة ابن العديم فجعلها الناسخ في صلب الكلام ، ووجودهما يجعل العبارة مضطربة لوقوعهما في غير موقعهما ، وهما في الأصل شرح لاسم دوسر نقله الناسخ عن عبارة وجدناها عند ابن خلكان في وفيات الأعيان . وهذان السطران هما : [ودوسر غلام كان للنعمان بن المنذر ، وتركه على أفواه الشام ، والنعمان بالحيرة ، فبنى هذه القلعة فنسبت إليه] — ونورد هنا عبارة ابن خلكان في وفيات الأعيان ١/١٦٦ للمقابلة والتثبت إن كان ثمة بقية من شك : « ويقال لهذه القلعة الدوسرية ، وهي منسوبة إلى دوسر غلام النعمان بن المنذر ملك الحيرة ، وكان قد تركه على أفواه الشام ، فبنى هذه القلعة فنسبت إليه . والجعبر في اللغة القصير الغليظ » .

(٣) في معجم البلدان لياقوت ٣/٨٦ : « قلعة جعبر — على الفرات بين بالس والرقة قرب صفّين ، وكانت قديمًا تسمى دوسر ، فملكها رجل من بني قشير أعمى يقال له جعبر بن مالك ، وكان يخيف السبيل ويلتجئ إليها ، ولما قصد السلطان جلال الدين ملكشاه بن ارسلان ديار ربيعة ومضر نازلها وأخذها من جعبر ، ونفي عنها بنو قشير » .

وتسلّم حلب وقلعتها وسائر قلاع الشّام، وعوّض سالم بن مالك عن قلعة حلب بقلعة دوسر، وأقطعه معها الرُّقة وعدّة ضياع.

وتوجّه السّلطان إلى أنطاكية فتسلّمها من الحسن بن طاهر || وزير [١١١ظ] سليمان بن قطلمش، ورتب بأنطاكية يغي سيان[١] بن ألب في عسكر واستخدم حسن بن طاهر في ديوانها، وتمّ إلى السّويديّة[٢]، وصلّى على البحر، وحمد الله على ما أنعم عليه مما تملكه من بحر المشرق إلى بحر المغرب[٣].

(١) ورد هذا الاسم في مخطوطتنا بسائر المواقع والصفحات: « يغي سغان » بالغين المعجمة بعد السين – وجاء كذلك في تاريخ ابن القلانسي بسائر الصفحات والمواضع: « يغي سغان » ولكن الناشر آمدروز جعله « يغي سيان » بالياء المنقوطة باثنتين بعد السين. واما ابن الأثير فيورد اسمه ١٦٧/٨: « باغي سيان ». ورأينا مجموعة المؤرخين للحروب الصليبية في الجزء الثالث حين يقتطف الناشر من تاريخ ابن العديم يروي ما تورده النسخة بين قوسين ثم يصحّحه كذلك كما فعل زميله المستشرق آمدروز، ويترجمه الى الفرنسية YAGHI SIAN – انظر: *Recueil des Historiens des Croisades, Historiens Orientaux*, tome III, Paris, 1884. P. 577. وارجع إلى فهرس الكتاب تجد الناشر يشير إلى أن العرب كانوا يدعونه حيناً: « يغي شغبان »، وحيناً آخر « يغي شعبان » وأما العظيمي فيروى اسمه: « بعسان » من غير نقط، بالورقة ١٨٧ و – وابن العديم ينقل غالباً عن العظيمي، لذلك أصلحنا الاسم متابعة للمنقول عنه وتمشياً مع ابن الأثير وجماناه « يغي سيان » بالرغم من انه في الزبدة وفي البغية بالمواضع جميعاً « يغي سغان ».

(٢) السويدية: ذكرها ابن الشحنة عن ابن شدّاد فقال ص ٢٢١: « سميت سلوكية بالسويدية لما غلب عليها اسم النهر والجبل » – والجبل المذكور هو قره طاغ أي الجبل الأسود، وهو في الجنوب من اسكندرون. – انظر دوسو ٤٣١. ويسمى الجبل الآن قزل طاغ؛ وتفسير ابن الشحنة لاسم السويدية طريف استحسنه دوسو وعلّق عليه.

(٣) ورد مثل هذه العبارة عند العظيمي بالورقة ١٨٦ و: « ففتحها من يد حسن وزير سليمان وتمّ إلى السويدية فصلى على ساحل البحر شكراً لله تعالى على أن ملكه من بحر المشرق الى بحر المغرب، وعاد إلى حلب وعيّد ».

قسيم الدّولة آق سنقر

وعاد إلى حلب، ورتّب بها الأمير قسيم الدّولة أق سنقر[1] ومعه عسكر، واستخدم بها تاج الرّؤساء ابن الخلّال في جمع الأموال.

ووصل إليه الشّريف حسن الحتيتي وهو بحلب يلتمس العودة إلى حلب، ويذكر خدمته وما جرى عليه، فتظلّم منه أهل حلب فلم يأذن له السّلطان فيما التمسه.

وكان هذا السّلطان من أعظم النّاس هيبة وأكثر الملوك عدلًا حتى أنّ أحدًا لا يقول: إنّ أحدًا من ذلك العالم العظيم من عسكره – وحزره أربعمائة ألف – أخذ لأحدٍ من الرّعايا قسرًا وظلمًا ما يساوي درهمًا واحدًا؛ حتى أنّ البازيار الّذي له اقتنص طائرين من الدّجاج من الأثارب[2] طعماً للبزاة في الطّريق، فعلم بذلك فعظم عليه حين رآه وهدّده حتى أعادها إلى صاحبها بعد عوده من أنطاكية.

وخرج هذا السّلطان إلى ضياع معرّة النّعمان يتصيّد، وبات بضيعة بينها وبين المعرّة ثلاثة فراسخ، فابتاع منها أصحابه ما احتاجوه بأوفى ثمن؛ ووضع السّلطانُ في هذه السّنة المكوس من جميع بلاده، ولم يبقَ من يستخرجُ مكساً في مملكته.

(١) وردت ترجمة الرجل مفصلة في بغية الطلب لابن العديم ٢٦٧/٤ ظ – ٢٧٢ ظ وفيها أنه «أق سنقر بن عبدالله المعروف بقسيم الدولة مملوك السلطان أبي الفتح ملكشاه» – وجاءت ترجمته كذلك في وفيات الأعيان ٧٩/١ : «أبو سعيد اق سنقر بن عبدالله الملقب قسيم الدولة المعروف بالحاجب جد البيت الأتابكي أصحاب الموصل وهو والد عماد الدين زنكي ابن آق سنقر» – وفي ابن الأثير وغيره من التواريخ يكتبه : «أقسنقر».

(٢) الأثارب : تبعد عن حلب ٢٥ كيلومترا وهي على طريق أنطاكية – انظر زبدة الحلب ١٣٣/١ بالحاشية.

وأقام السّلطان بحلب إلى أن عَيَّد بها عيد الفطر، وعاد منكفئاً إلى الجزيرة، وقد قرّر ولاية حلب، وولّى بقلعتها نوحاً التركي[١]، وبلغه عصيان تكش[٢] بترمذ[٣] فسار السّلطان، وقطع ما بين حلب ونيسابور في عشرة أيام، وعاد منكفئاً إلى الجزيرة وقد قرّر ولاية حلب لقسيم الدّولة آق سنقر التركي في سنة تسع وسبعين وأربعمائة، وجعل معه أربعة آلاف فارس ومكّنه فيها. [١١٢ و]

وقيل إنّه مملوك لملكشاه، وقيل إنّه لصيق وانّ اسم أبيه النّعمان[٤]، وولّى على جمع المال بحلب في الديوان تاج الرؤساء أبا منصور ابن الخلّال الرحبيّ. وقال شاعر حلبيّ فيه وفي الوزير ابن النّحاس:

قَدْ زنجرَ[٥] العَيْشُ على النّـاسِ
مَا بَيْنَ «خَلّالٍ» وَ«نحّاسِ»

فأحسن قسيم الدولة في حلب السّيرة وأجمل السّياسة وأقام الهيبة،

(١) في العظيمي، بالورقة ١٨٦ ظ: «سنة ٤٨٠ هـ — ولّى السلطان قلعة حلب نوح التركي والقصر والشحنكية قسيم الدولة اق سنقر» — ويلاحظ أن العبارة هنا مكررة فسيرد مثلها في مثل معناها بعد سطرين وسبب ذلك أنّ ابن العديم يورد آراء المؤرخين ونصوصهم بحروفها.

(٢) في الأصل: «تكس» بالسين المهملة — ولعلها كما في ابن الأثير ١٧٣/٨: «تكش عم السلطان بركيارق».

(٣) في معجم البلدان ٨٤٣/١: «ترمذ — مدينة مشهورة من أمهات المدن راكبة على نهر جيحون».

(٤) في بغية الطلب: «وقيل انه لصيق له وقيل اسم أبيه ال ترغان من قبيلة ساب يو. نقلتُ ذلك من خط أبي عبد الله محمد بن عليّ العظيمي».

(٥) الزنجير: بالفارسية السلسلة، ويبنون منه فعلاً فيقولون زنجره فتزنجر أي قيّده بالزنجير فتقيّد، والزنجير كذلك عند أهل الشام الصدأ يصيب الحديد.

وأفنى قطّاع الطريق، وتتبع الذُّعّار في كلّ موضع فاستأصل شأفتهم[١].

وعمرت حلب في أيامه بسبب ذلك لورود التجار والجلّابين إليها من كل مكان[٢].

وحكى لي والدي – رحمه الله –: أنّه استأصل أرباب الفساد إلى حدّ بلغ به أن نادى في قرى حلب وضياعها أن لا يغلق أحدٌ بابه، وأن يتركوا آلاتهم الّتي للحرث في البقاع في اللّيل والنّهار.

فخرج متصيّدًا فمرّ على فلّاح وقد فرغ من عمله، وأخذ آلة الحرث معه إلى منزله، فانفرد من عسكره وقال له: «ألم تسمع مناداة[٣] قسيم الدولة بأن لا يرفع أحدٌ من أهل القرى شيئاً من آلة الحرث؟» فقال: «بلى والله – حفظ الله قسيم الدّولة – والله لقد أمنّا في أيّامه من كل ذاعرٍ ومفسدٍ، وما رفعتُ هذا خوفاً عليها ممّن يأخذها؛ وإنّما هنا دويبة يقال لها ابن آوى[٤] إذا تركنا هذه العدّة هنا جاءت وأكلت [١١٢ظ] || هذه الجلود الّتي عليها».

فلما عاد قسيمُ الدّولة أمر بالصيّادين وبثّهم في أقطار بلد حلب لصيد

---

(١) في بغية الطلب: «وأقام الهيبة وجمع الدُّعَّار وأفنى قطاع الطريق ومخيفي السُّبُل وتتبع اللصوص والحراميّة في كل موضع فاستأصل شأفتهم».

(٢) وردت هذه العبارة كذلك في تاريخه الكبير بغية الطلب.

(٣) في بغية الطلب ٤/٢٦٨ و: «سمعتُ والدي القاضي أبا الحسن – رحمه الله – يقول لي فيما يأثره عن أسلافه أن قسيم الدولة آق سنقر كان قد نادى في بلد حلب بأن لا يرفع أحد متاعه ولا يحفظه في طريق لما حصل من الأمن في بلاده؛ فخرج يوماً يتصيّد فمر على قرية من قرى حلب فوجد بعض الفلاحين قد فرغ من عمل الفدان وطرح عن البقر النير ورفعه على دابة لتحمله إلى القرية فقال له ألم تسمع مناداة . . . . .».

(٤) في بغيةُ الطلب: «دابة يقال لها ابن آوى».

بنات آوى حتى أفنوْها من ضواحي حلب . وكان ذلك سبباً لِقلّتها في بلد حلب إلى يومنا هذا ، دُون غيرها من البلاد .

وفي أيام قسيم الدَّولة جدّد عمارة منارة حلب الموجودة في زماننا هذا ؛ وجددت في سنة اثنتين وثمانين وأربعمائة[1] .

وجرى خُلف بَيْن أهل كطِين وبين نصر بن عليّ بن منقذ في سنة إحدى وثمانين ، فخرج أق سنقر إلى شيزر ، وقاتلها ، وقتل مِن أهلها مائةً وثلاثين رجلًا ، وعاد إلى حلب بعد أن نهب رَبضَها ، واستقرّت الموادعة بينه وبين نصر صاحب شَيْزَر .

وكان أق سُنْقُر قـد تزوّج خاتون دايَة السّلطان ملك شاه[2] ، وكانت جالسةً معه في بعض الأيّام في داره بحلب ، وفي يده سكّين فأومأ بها إليها على سبيل المداعبة والمُزاح ، فوقعتْ في قلبهـا للقضاء المحتوم غير متعمّدٍ لها ؛ فماتتْ وَحَزِن عليها حزناً شديداً[3] ؛ وتأسّف لفقدِها ، وحملها في تابوت لتُدفن في مقابر لها بالشَّرق ؛ وخرج من حلب لتوديع تابوتِها في مستهلّ جُمادى الآخرة .

وتسلّم أق سُنقر حصن برزويه[4] ، في شعبان سنة اثنتين وثمانين

(١) في بغية الطلب : « وفي أيامه جدّدت منارة حلب بالجامع في سنة اثنتين وثمانين وأربعمائة واسمه منقوش عليها إلى اليوم » .

(٢) في بغية الطلب ، ٢٦٧/٤ ظ : « وتزوج أق سنقر داية السلطان ادريس بن طغان شاه » — ثم قال في المصدر نفسه ، بالورقة ٢٧٢ و : « زوجته خاتون داية السلطان أبي الفتح » .

(٣) في بغية الطلب ، ٢٧٢/٤ و : « وقيل انه جلس وفي يده سكين فأومأ بها إليها فوقعت في مقتل وهو غير متعمد لها فماتت في الحال فوضعها في تابوت وحملت إلى الشرق وخرج لوداعها يوم الاثنين مستهل جمادى الآخرة » .

(٤) حصن برزويه : قلعة بزنطية في شمالي أفامية — انظر زبدة الحلب ١٣٠/٢ بالحاشية .

وأربعمائة ، من الأرمن ــ وهو آخر ما كان قد بقي في أيدي الكفّار من أعمال أنطاكية ــ وأقام في يده تسعة أشهر ، وهدمه في ربيع الأوّل من سنة ثلاث وثمانين .

[١١٣ و] وكتب ولاةُ الشّام إلى السّلطان ملك شاه يشكون ما || يلقونه من خَلف بن مُلاعب بحمص من قطع الطّريق وإخافة السّبيل ، فكتبَ إلى قسيم الدّولة وتاج الدّولة ويغى سيان وبوزان صاحب الرُّها ، فساروا في عساكرهم ، فحاصروها وضايقوها ففتحوها ؛ وأعطاها السّلطان تاج الدّولة تتش .

ونزَل قسيم الدّولة على أفامية ، فأخذها من خلف بن مُلاعب وسلّمها إلى نصر بن منقذ .

ثمّ إنّ السّلطان أمر بحمل ابن ملاعب في قفص حديد الى أصبهان ، فحبسه إلى أن مات ملك شاه ؛ وتوجّه إلى مصر وعاد إلى الشّام ، واحتال حتى ملك أفامية بالحيلة بعد ذلك .

ولما فتحت حمص تسلّمها قسيم الدّولة إلى أن ورد عليه أمرُ السّلطان بتسليمها إلى تتش.

موت ملك شاه

ومات السّلطان ملك شاه ببغداد في اللّيلة السّادسة عشر من شوّال سنة خمس وثمانين وأربعمائة ، وكان أق سُنقر قد خرج من حلب وافِدًا عليه ، فلما بلغه الخبر عاد إلى حلب ، وخطب لابنه محمود مدّةً يسيرةً(١) ، ثم إنّه خطب بعد ذلك لتاج الدّولة تتش ــ على ما يُذكر ــ .

---

(١) في ابن الأثير ١٦٦/٨ : « لما مات ملكشاه كتمت زوجته تركان خاتون موته

ولما عاد إلى حَلب قَبَض على شبل بن جامع أمير بني كلاب وعلى ولده مبارك ، واعتقلها بالقلعة . وراسل تاجُ الدّولة قسيمَ الدّولة ويغي سيان وبوزان وجذبهم إلى طاعته ، والكون في جُملته ليسيروا معه إلى بلاد أخيه ليفتحها ، ويأخذ المملكة فأجابوهُ إلى ذلك ، وخطبوا له في أعمالهم[١] .

فسار في أوّل سنة ستّ وثمانين ، وسار إليـه قسيمُ الدّولة ويغى سيان وبوزان ، ووثق به أق سُنقر ، وفَتح تاجُ الدّولة الرّحبـة [١١٣ظ] ونصيبين[٢] ، فجمع ابراهيم بن قريش وتأهب للقاء تاج الدّولة .

والتقى العسكران على دارا[٣] ، وعاد كُلّ فريق إلى موضعه ، فركب الأميرُ قسيم الدّولة في خلقٍ من العسكر ، وحمل حتّى توسّط

كما ذكرناه وأرسلت إلى الأمراء سرّا فأرضتهم واستحلفتهم لولدها محمود وعمره أربع سنين وشهور ، وأرسلت إلى الخليفة المقتدي في الخطبة لولدها أيضًا فأجابها » .

(١) في ابن الأثير ١٦٦/٨ : « فرأى قسيم الدولة اختلاف اولاد صاحبه ملكشاه وصغرهم فعلم أنه لا يطيق دفع تتش فصالحه وصار معه ، وأرسل إلى باغي سيان صاحب أنطاكية وإلى بوزان صاحب الرها وحران يشير عليها بطاعة تاج الدولة تتش حتى يروا ما يكون من أولاد ملكشاه ففعلوا وصاروا معه وخطبوا له في بلادهم » .

(٢) في ابن الأثير ١٦٧/٨ : « ثم ساروا إلى نصيبين فحصروها ، فسبّ أهلها تاج الدولة ففتحها عنوة وقهرًا ، وقتل من أهلها خلقًا كثيرًا ، ونهبت الأموال وفعل فيها الأفعال القبيحة » – ونصيبين : تقع قرب جبل ماردين ، وهي مدينة في مستوٍ من الأرض – انظر الأعلاق لابن شداد قسم الجزيرة ، مخطوطتها بالورقة ٣٩ و – وقال ياقوت في معجم البلدان ٧٨٧/٤ : «وهي مدينة عامرة من بلاد الجزيرة على جادة القوافل من الموصل إلى الشام . . . بينها وبين الموصل ستة أيام » .

(٣) دارا : ذكرها ابن شدّاد في الأعلاق الخطيرة قسم الجزيرة ، مخطوطة ، بالورقة ٦٥ و ، وقال انها كانت مضافة إلى نصيبين ، وقد بناها دارا – وقـال ياقوت في معجم البلدان ٥١٦/٢ : « هي بلدة في لحف جبل بين نصيبين وماردين » .

عسكر ابراهيم فلم يثبت العرب ، وتبعه باقي العسكر ، فقتل منهم ما يقارب عشرة آلاف[1] .

وأسر ابراهيم بن قريش وعمه مقبل وغيرهم . فقتلهم تاج الدّولة صبرًا وسُبِيَتِ الحُرم ، وقتل جماعةٌ من نساء العرب نفوسَهن[2] .

وأمر تاج الدّولة بعد ذلك بجمع الأسرى وَوَهَبهم من محمّد بن شرف الدّولة — وكان قد صار في جملته قبل الحرب — وأقطعه نصيبين .

عودة تتش

وعظمت هيبة تاج الدّولة بعد هذه الوَقعَة ، وراسلته زوجةُ أخيه تحثّه على الوُصول ؛ واستقرّ الحال على أن تتزوّجه ؛ فسار عند ذلك بعد أن تسلّم من ابن جهير آمد وجزيرة ابن عمر[3] ، حتى وصل إلى تبريز[4] ، ففسخ عنه قسيم الدّولة أق سُنقر

(١) في ابن الأثير ١٦٧/٨ : «فلما ملك تتش نصيبين أرسل إليه يأمره أن يخطب له بالسلطنة ، ويعطيه طريقًا إلى بغداد لينحدر ويطلب الخطبة بالسلطنة ، فامتنع ابراهيم من ذلك فسار تتش إليه ، وتقدم ابراهيم أيضًا نحوه ، فالتقوا بالمضيع من أعمال الموصل ، في ربيع الاول ، وكان ابراهيم في ثلاثين ألفًا وكان تتش في عشرة آلاف وكان أقسنقر على ميمنته وبوزان على ميسرته ، فحمل العرب على بوزان فانهزم ، وحمل أقسنقر على العرب فهزمهم وتمت الهزيمة على ابراهيم والعرب» .

(٢) في ابن الأثير ، بالصفحة نفسها : «وأخذ ابراهيم أسيرًا وجماعة من أمراء العرب فقتلوا صبرًا ، ونهبت أموال العرب وما معهم من الابل والغنم والخيل وغير ذلك . وقتل كثير من نساء العرب أنفسهن خوفًا من السبي والفضيحة» .

(٣) في معجم البلدان ٧٩/٣ : «جزيرة ابن عُمر : بلدة فوق الموصل بينهما ثلاثة أيام ولها رستاق مخصب واسع الخيرات ، وأحسب أن أول من عمّرها الحسن بن عمر بن خطّاب التغلبي ، وكانت له امرأة بالجزيرة ، وذكر قرابة سنة ٢٥٠ ، وهذه الجزيرة تحيط بها دجلة إلّا من ناحية واحدة شبه الهلال» .

(٤) في معجم البلدان ٨٢٢/١ : «تبريز : بكسر أوله وسكون ثانيه وكسر الراء وياء ساكنة وزاي — كذا ضبطه أبو سعد — وهو أشهر مدن أذربيجان ، وهي مدينة عامرة ذات أسوار محكمة بالآجرّ والجصّ» .

صاحب حلب وعماد الدولة بوزان وسارا إلى بركيارق [1] ليكونا في خدمته – وكان بالقرب من الريّ [2] –

وكان سبب نفار قسيم الدّولة وبوزان تقريب تاج الدّولة يغي سيان وميلِهِ إليه ؛ وقيل : لأنّه لم يُولهما شيئًا من البلاد الّتي افتتحها ، فرجع تاج الدّولة إلى ديار بكر ، وشحنها بالرّجال ، وسار منها إلى سروج [3] فأخَذَها وولّى فيها بعضَ ثقاته .

ووصله الخبر بوصول أق سنقر وبوزان إلى باب السُّلطان بركيارُق ، وإكرامه لهما ، وأنّهما وجدا خاله مستوليًا على أمره ، فقتلاه وبعض الأمراء .

فانبسطتْ يدُ || بركيارُق ، واستقامت أحوالُه ، وخاطبه أق سنقر [١١٤ و] وبوزان أن يسير معهما إلى بلادهما حلب والرّها وحرّان ، لئلا يجري عليهما حادثٌ من تاج الدّولة عند عودته ، وضمنا له أن يكونا بينه وبين تاج الدّولة ؛ فسار معهما إلى الرّحبة ، وعقد بينهما وبين عليّ بن شرف الدّولة حِلفاً .

---

(١) ركن الدين بركيارق ابن أخي تاج الدولة تتش وكنيته أبو المظفر وهو ابن السلطان ملكشاه بن ألب ارسلان ، ومولده سنة ٤٧٤ هـ – وبركياروق بفتح الباء الموحدة وسكون الراء والكاف وفتح الياء المثناة من تحتها وبعد الألف راء مضمومة وواو ساكنة وقاف – كما في ابن خلكان وفيات الأعيان ١/٨٨ ، وأما ابن العديم فيرسمها بغير واو بين الراء والقاف .

(٢) الريّ : هي محطّ الحاج على طريق السابلة وقصبة بلاد الجبال بينها وبين نيسابور مائة وستون فرسخًا وإلى قزوين سبعة وعشرون فرسخًا – انظر معجم البلدان لياقوت ٢/٨٩٢ .

(٣) سرُوج : بلدة قريبة من حرّان من ديار مضر – انظر معجم البلدان لياقوت ٣/٨٥ ، ومعجم ما استعجم للبكري ٣/٧٣٧ – وفي الأعلاق الخطيرة لابن شداد قسم الجزيرة ، بالورقة ٣١ ظ : « وهي عن شمالي حرّان إلى جسر منبج حسنة حصينة » .

بركيارق في حلب

وسار عليّ بن قريش، ومعه جماعة من بني عقيل وقطعة من عسكر السّلطان بركيارُق مع قسيم الدّولة؛ فأوصلوه إلى حلب، فدخلها في شوّال من سنة ستّ وثمانين وأربعمائة.

وسار بوزان إلى بلاده، وعَاد مَنْ كان معهما إلى السّلطان.

وأما تتش فانّه قطع الفراتَ وتوجّه إلى أنطاكية، وأقام بها مع يغي سيان مدّة، فغلتْ بها الأسعار. فسار إلى دمشق في ذي القعدة من هذه السّنة.

وكان وثّاب بن محمود مع نفرٍ يسيرٍ من بني كلابٍ، فأنفذ أق سنقر بعد مسير تتش إلى دمشق مَنْ أَحرَق حصن أسفُونا وحصن القبّة، وقبض أقطاع وثّاب.

وفي سنة سبع وثمانين، قبض على الوزير أبي نصر محمّد بن الحسن ابن النحاس بسعاية المجنّ بركات الفُوعي به إلى قسيم الدّولة. ولم يزل به إلى أن أمره بخنْقه، وهو معتقل عنده، فخنقه في هذه السّنة.

وفي شهر ربيع الأوّل من سنة سبع وثمانين وأربعمائة، خرج تاج الدّولة تتش من دمشق، ومعه خلقٌ عظيم من العرب، ولقيه يغي سيان بعسكر أنطاكية بالقرب من حماة وأقاموا هناك أياماً؛ وزوّج ولده الملك رضوان من ابنة يغي سيان، وسيّره عائدًا إلى دمشق.

[١١٤ظ] وسار تاج الدّولة بعساكره فنزل تلمنس[1]، وأقام || بها أياماً،

(١) تلمنس أو تلّ منّس: حصن قرب معرة النعمان بالشام – انظر زبدة الحلب ٩٠/١ بالحاشية.

فوصلهُ الخبرُ بوصول كربوقا(١) صاحب الموصل وبوزان صاحب الرّها، ويوسف بن أبق صاحب الرّحبة، في ألفين وخمسمائة فارس إلى حلب، لنجدة أق سنقر، فعدل تاج الدّولة إلى الحانوتة، ورحل إلى النّاعورة، وعوّل على قصد الوادي(٢)، وأن يسير منه إلى أعمال أنطاكية؛ وأخذَ العسكرُ دوابَّ النقرة وبعضَ زرعها.

بين تتش وأق سنقر

فخرج أق سنقر ومَنْ وصله من النَّجدة وجماعة كثيرة مع شبل بن جامع ومبارك بن شبل من بني كلاب — وكان قد أطلقها من الاعتِقال في هذه السَّنة — ومحمَّد بن زائدة في جماعته وجماعة من أحداث حلب والدّيلم والخراسانيّة؛ وعدّة عسكره تزيد عن ستَّة آلاف فارسٍ وراجل، في أحسن أهبة وأكمل عدّة(٣).

وقصد عسكر الملك تاج الدَّولة، يوم السبت تاسع جمادى الأولى من السَّنة، والتقوا على «سَبْعين»، وكان أوّل من قطع السواقي التي كانت بين العسكرين وبرز للحرب أق سنقر، ورتّب مصاف عسكره(٤).

(١) في الأصل عندنا: «كربغا» – وفي ابن الأثير وابن القلانسي وبغية الطلب: «كربوقا» فتابعنا رسم ابن العديم لها في تاريخه الكبير الذي كتبه بخطه، ورمينا بخطأ الناسخ وأوهامه تمشّيًا مع المؤرخين العرب في رسم الاسم.

(٢) جاءت هذه العبارة بحروفها في بغية الطلب ٦/٢٦٩ ظ، وزاد فيها تعريف الوادي فقال: «وادى بزاعا».

(٣) وردت هذه العبارة نفسها في بغية الطلب وختمها: «في أحسن زي وأكمل عدّة».

(٤) في بغية الطلب: «ولم يثق أق سنقر بمن كان معه من العرب ونقلهم من الميمنة إلى الميسرة في وقت المصاف ثم نقلهم إلى القلب فلم يغنوا شيئًا» – انظر ابن القلانسي ١٢٦.

وبقي عسكر بوزان وكربوقا لم يتمكن من قطع السواقي ، فيختلطون بالعسكر ، ولم يستنصح أق سنقر العرب الذين معه ، وخاف ميلهم إلى تاج الدّولة ، وكان عسكر تاج الدّولة في مثل هذه العدّة من العَرب والرّجالة ، وكان التّرك معه في قلّة لأنّ أصحابه وخواصّه كانوا متفرقين في البلاد التي افتتحها .

وحمل عسكر تاج الدّولة على عسكر أق سنقر فلم يثبت لحظةً واحدةً ، وانهزمت العَرَبُ وبوزان وكربوقا[1] نحو حلب فدخلاها ، [١١٥و] واستأمن || يوسف بن أبق إلى تاج الدّولة .

مقتل أق سنقر

وأسر أق سنقر وجماعةٌ من خواصّه ووزيره أبو القاسم بن بديع ، وأحضر بين يدي تاج الدّولة أسيرًا ، فقتله صبرًا ، وقال له تاج الدّولة : « لو ظفرت بي ما كنتَ صنعتَ ؟ » قال : « كنتُ أقتلك » فقال له : « فأنا أحكمُ عليك بما كنتَ تحكمُ عليّ » فقتله[2] .

وحكى وثّاب بن محمود قال : « جَلَس تاجُ الدّولة ، وطلب قسيمَ الدّولة ، فأُحضِر مكشوفَ الرّأس ، مكتوفاً ، فقام تاجُ الدّولة ، وكلّمه كلاماً كثيرًا ، فلم يردّ عليهِ جوَابًا ، فضربَهُ بيده أطار رأسه[3] » .

---

(١) في بغية الطلب : « وانهزمت العرب وعسكر كربوقا وبزان – وكربوقا وبزان معهم – إلى حلب ووقع فيهم القتل » .

(٢) وردت العبارة نفسها في بغية الطلب .

(٣) في بغية الطلب : « فسحبوه وكلموه فما ردّ جوابًا ولا تحرك فقام إليه تاج الدولة فكلمه فلم يردّ له جوابًا مرتين أو ثلثة فضرب رقبته بيده وقطع رأسه فطيف به البلاد وحملت جثته فدفنت عند مشهد قرنبيا »

وحملَ رأسه إلى حلب والي دمشق ، ودَفن جسَدَهُ في القُبَّة الّتي على سطح جبل قَرَنْبِيَا ، غربيَّ المَشهد الذي ابتناه بقَرَنْبِيا ؛ ثم نقله ابنُه زنكي لمَّا فتح حلب[1] إلى مدرسة الزجَّاجين ، ووَقَف شامر – قرية مِنْ بلدِ حلب – على من يقرأ على قبرهِ[2] .

واختار قسيمُ الدَّولة وقتاً للخروج إلى اللّقاء ، وهو وقت قِران زُحَل للمرّيخ في بُرْجِ الأسد[2] – وهو طَالِعُ بيت السُّلطان بحلب – وكان مُوقِناً بالظَّفر ، فخرج وأمرهم أن يلحقُوهُ بالجبال لكتائفهم بها ، وكان تاجُ الدَّولة قد عزم على ما ذكرناه ؛ ولم يكن مُؤثِرًا لقاءه ؛ فنصره اللهُ تعالى كما شاء وأراد ؛ لا رادَّ لأمره ، ولا معقّب لحكمه ، ولا تأثير لشيءٍ في ملكُوتهِ .

وأُسِرَ شبلُ بن جامع أميرُ بني كلاب فوهبه تاجُ الدَّولة لابن أخيه وثّاب بن محمُود .

(١) في بغية الطلب ٢٧١/٤ ظ : « لما قتل دفن إلى جانب مشهد قرنبيا بالقبة الصغيرة المبنية بالحجارة من غربيّ المشهد ، وكان قسيم الدولة بنى مشهد قرنبيا لمنام رآه بعض أهل زمانه ووقف عليه وقفًا فدفن إلى جنبه وعمر على قبره . فلما ملك زنكي حلب آثر ان يبني لأبيه مكانًا ينقله إليه وكانت المدرسة بالزجاجين لم تتم » – وآق سنقر هو جدّ الملك العادل نورالدين محمود المعروف بالشهيد .

(٢) في بغية الطلب : « القرية المعروفة بشامر وهي جارية إلى الآن » .

(٣) في ابن القلانسي ١٢٦ : « والتقى الفريقان غداة يوم السبت تاليه عقيب اقتران المريخ وزحل في برج الأسد » – انظر النجوم الزاهرة ١٣٦/٥

القسم التاسع عشر

ذكر

حلب في أيام فخر الملوك رضوان بن تتش

ملك تتش في حلب - ملك رضوان في حلب - الدعوة للمصريين - خروج الفرنج إلى الشام

٤٨٧ هـ - ٥٠٧ هـ

مُلكُ تُتُش في حَلَب

وعوّل بُوزان وكربوقا على الاعتصام بحلب، وانتظارِ النَّجدة من بركيارُق؛ لأنّ كتابَ الطّائر وصل إلى حلبَ يُخبِرُ بوصول النَّجدةِ إلى المَوْصل، وقرّروا مع الأحداثِ ذلِك(١).

فوصل تاجُ الدَّولة بعسكره إلى || حلب، وتحيّر أهلُها فيما يفعلونه، [١١٥ظ] فبادر قومٌ من الأحداثِ ممّنْ لَا يعرف وَلَا يذكر ففتحوا بابَ أنطاكية(٢).

ودخل وثّاب بنُ محمود في مُقدّمة أصحاب تاج الدَّوْلة إلى حلب، وسكن البلد، فنزل الوالي بقَلْعَة الشَّريف، وسلّمها إلى تاج الدَّولة فدخلها، وباتَ بها، فراسلَهُ نُوحٌ والي القلعة الكبيرة، وسلّمها إليه بعد أن تَوَثّق منه. وطلع تَاجُ الدَّوْلة إليها في الحادي عشر من جمادَى الأولى من السَّنة(٣).

---

(١) في ابن القلانسي: «واجتمعوا بأهل البلد والأحداث وتقرر بينهم الاعتصام بحلب والاستنجاد بالسلطان بركيارق».

(٢) في ابن القلانسي ١٢٦: «وقد اختلفت الآراء فيما بينهم، وحاروا فيما يعملون عليه فوثب جماعة منهم لم يؤبه لهم وكسروا باب البلد ونادوا بشعار تاج الدولة».

(٣) في ابن القلانسي ١٢٧: «فدخل الأمير وثاب بن محمود بن صالح البلد في مقدميه وبادر إلى المقيم بقلعة الشريف التي قبلي حلب بالظهور إلى تاج الدولة، ومن باب منها دخل تاج الدولة ونزل إليه رسول الأمير نوح صاحب قلعة حلب وزوجته وتوثقا منه وأخذا الأمان له من تاج الدولة، وعادا إليه وأعلماه بما كان من تقرير الحال وأخذ الأمان، فسلمها اليه وحصل بها في يوم الاثنين الحادي عشر من جمادى الأولى، وسلّمت جميع الحصون إليه من الشام».

قتل بوزان

وقبضَ تاجُ الدَّولة على بُوزان فَضَرَب رقبتَه صَبْرًا ، وأَخذَ كربوقا واعتقَله بحمص[١] ، وأَقطع الشَّام لِعَسكرِهِ ، وأَقطع معرَّة النُّعمان واللَّاذقية ليغي سِيان ، ورتَّب أَبا القاسم بْنَ بديع وزيرًا بحلب .

وأَقامَ ثلاثَةَ أَيام ثُمَّ توجَّهَ فقطع الفُرَاتَ ، وتسلَّم حرَّان ، وسار إلى الرُّها فتسلَّمها ، وقيل : بأنَّ واليها امتنع مِنْ تسليمها إِلا بعلامَةٍ مِنْ بُوزان ، وأنَّ بوزان كان مَحْبُوساً بحلب ، فأنفذ إليه مَنْ قَطَعَ رَأْسَهُ وَرَمَاهُم به ، فسلَّموا الرُّها إِليهِ ، وتسلَّم ديارَ بكر .

وسارَ إلى مَيَّافَارقين فقَتَلَ بَني جَهيرٍ بعد أَن قطع رُؤوس أَوْلادِهم وعلَّقها في رقابِهم .

وَعَدَلَ عَن المَوصِلِ ، وسار لِلِقَاء زَوْجة أَخيهِ خاتون الجلاليَّة لإِتمام ما كانَ استقرَّ بينهما فماتتْ في الطَّريق[٢] .

وتوجَّه تاجُ الدَّولة الى الرَّيِّ ، فوصله خلقٌ كثيرٌ مِن التركمان وعساكِرِ أَخيه ، وملَكَ كُلَّ بلدةٍ مَرَّ بها ، وخطبَ له على منابر الإِسلام: الشَّام والفرات ، وبغْداد .

سفر رضوان

وعِنْدَ وُصولِهِ إلى هَمذان كتب إلى ولَدِهِ الملك رضوان يستَدْعيهِ مِنْ دمشقَ فتوجَّهَ إليهِ وَمَعَهُ بقيَّة مَنْ تخلَّف

---

(١) في ابن القلانسي ١٢٧ : «وكان بوزان صاحب الرها في جملة من أسر في الوقعة ، فتقدم تاج الدولة بقتله فضربت عنقه صبرًا ، وكذلك الامير كربوقا صاحب الموصل كان قد أسر في الوقعة فاعتقل بحلب الى أن تقرر أمر حلب» .

(٢) في ابن القلانسي : «وعدل عن طريق السلطان بركيارق لانه كان نازلًا بأرض الموصل طالبًا لخاتون زوج السلطان ملك شاه والدة أخيه محمود ، وكانت مستولية على أصفهان» — انظر ص ١٠٨ من كتابنا هذا .

مِنْ أصحابه بالشَّام(١) .

[١١٦ و] ‖ ودخل تاجُ الدَّولة الرَّيَّ وملكها(٢) في المحرَّم سنة ثمان وثمانين وأربعمائة ، وخرَج بركيارق من أصبهان ، والتقوا على خمسة فراسخ(٣) من الرَّيّ في يوم الأحد السَّابع عَشَر مِنْ صفر . فانهزم عسكرُ تاج الدَّولة تتش واستبيح ونُهب ، وقُتِلَ ذلك اليوم تاجُ الدَّوْلة وخواصُّهُ في الحرب(٤) .

مقتل تتش

وقَتَل تاجَ الدَّولة بعضُ أصحاب قسيم الدَّولة بعد أن اصطنعَهُ وقرَّبه ، ضَرَبه بنُشَّابَة في ترقوتِهِ اليُسرى فوقع ؛ وقُطِع رأسه وطيف به العسكر ، ثمّ حُمِل إلى بَغْداد فَطِيف به(٥) ، وتفرَّق مَنْ سَلِم منهم إلى مواضعهم .

مُلك رضوان في حلب

وَوَصَلَ الخبرُ إلى ولده الملك رضْوان ، وهو نازلٌ على الفُرات

(١) في ابن القلانسي : فوصل إلى همذان وكاتب ولده فخر الملوك رضوان بدمشق يأمره بالمسير اليه في من بقي من الاجناد في الشام،فسار إلى حلب ومن حلب إلى العراق».

(٢) في ابن القلانسي ١٢٨ :« فانه تمّ في رحيله إلى مدينة الريّ فنزل عليها وضايقها وملكها » .

(٣) في ابن القلانسي ١٢٩ : « وبرز السلطان بركيارق من أصفهان في العسكر ، وقصد جهة عمّه السلطان تاج الدولة ، وخاف تاج الدولة من أهل الريّ أن يخامروا عليه ان أقام ، فرحل عنها ، ونزل في منزل على أربعة فراسخ منها » .

(٤) في ابن القلانسي : « فانفلّ عسكر السلطان تاج الدّولة ، وتفرق ، ونهب سواده وأثقاله ، وأسر أكثره ، وقتل منه الخلق الكثير » .

(٥) في ابن القلانسي : « واستشهد تاج الدولة – رحمه الله – وقتله بعضُ أصحاب قسيم الدولة أق سنقر صاحب حلب بعد اصطناعه إيّاه ، وتقريبه له وحُمل رأسه وطيف به في العسكر ، ثم حمل إلى بغداد وطيف به فيها » – انظر ابن الأثير ١٧٥/٨

بِعَانة[1] متوجّهاً إلى والده ، فقَلِق وخاف مِنْ وُصول مَنْ يطلبُه فحطّ خِيَمَهُ في الحال[2] .

ورَحل مُجدًّا حتّى وصل حلبَ في جماعةٍ من غلمانه وحاشِيته؛ وترك باقي عسكره مِنْ ورائه ، فسلّم وزيرُ أبيه أبو القاسم بنُ بديعٍ إليْهِ المدينةَ والقلعةَ ؛ وصعد إليها ؛ وأخذُوا الأهبَة لِمَنْ يَقْصِدُها[3] .

دقاق بعد تتش

ووصل إليه إلى حلب من الفَلّ أخوه أبو نَصْرٍ دقّاق[4] وجناح الدّوْلة حُسَيْن ، فاستولى جناح الدّوْلة على تدبير مُلْكِ الملك رضوان ؛ وكان تاج الدّوْلة قد جعله مدبّرًا لَهُ ، وهو أتابكه في حياته ، وَجَعَل دُقاق مع أتابك ظهير الدّين .

وَلمّا افتتح دياربكر سلّمَها إلى ظهير الدّين ، وشمس المُلوك دقاق معه ، ولم يَزَلْ بها إلى أن سارَ إلى الرّيّ فسارَا معه.

وعاد دُقاق إلى حلب فأقــام بها مدّةً يَسيرة ، وراسَلَهُ الأمير

(١) في معجم البلدان لياقوت ٣/٥٩٤ : « وعانة : بلد مشهور بين الرقة وهيت يعدُّ في أعمال الجزيرة . . . وهي مشرفة على الفرات قرب حديثة النورة وبها قلعة حصينة » .

(٢) في ابن القلانسي ١٣٠ : «سنة ٤٨٨هـ — فيها ورد الخبر إلى الملك فخر الملوك رضوان ابن تاج الدّولة باستشهاد أبيه تاج الدولة وانفلال عسكره ، وهو نازل في عانة على الفرات في عسكره يريد الانضمام إلى بغداد ، ثم المصير إلى أبيه تاج الدولة حين استدعاه إلى الوصول إليه ، فاضطرب لذلك وقلق وخاف من وصول من يطلبه فحطّ مضاربه في الحال » .

(٣) وردت هذه العبارة نفسها في ابن القلانسي ثم قال : « وفتح الوزير أبو القاسم ، النائب في القلعة ، أبوابها ؛ وأصعده إليها ، وأخذوا الأهبة لمن يقصدها » .

(٤) ينقل ابن العديم هنا عن المصدر الذي استقى منه ابن القلانسي معلوماته ، فيتفقان في ايراد العبارة والمعنى ، بل لعله نقل عنه مباشرة — ويورد ابن القلانسي : « ووصل إليه من الفلّ أخوه شمس الملوك دُقاق ابن السلطان تاج الدّولة من ناحيــة ديار بكر وجماعة من خواصّ عسكره المفلول » — وفي الحاشية ينقل ما يلي : « قلتُ دقاق كنيته أبو نصر ويقال فيه تُقاق أيضاً بالتاء » .

ساوتكين الخادم[١] – وكان نائب تاج الدّولة بدمشق في حفظ القَلْعَةِ والبلد – < وقَرَّرَ >[٢] لدقاق مملكة دمشق سرًّا. وخاف من أخيه [١١٦ظ] رضوان، فخرج من حلب وهَرب إلى دمشق من غير أن يعلم به أحدٌ. وَجدّ في السَّير، وتبعه رضوان، وأنفذ خَلْفَهُ عدّةً من الخيلِ فَفَاتَهم، فدخل دمشقَ فسارع ساوتكين إلى طاعته، وصارتْ دمشقُ وبلادُها بحكمه[٣].

وقتل رضوانُ أخَوَيْه أبا طالب وبهرام ابني تتش، وكان أتابك طغتكين[٤] مُعتقلًا عند السّلطان بركيارق، وقبض في الوقعةِ فطلبوا منه كربوقا والجماعة الّذين معه، وكانوا في يد رضوان فاتّفق رأيُهم أن يسيّروا عضب الدّولة أبق بن عبدالرّزّاق[٥] إلى رضوان لاستخلاص كربوقا.

(١) في ابن العديم ٨/١٧٦: «وسار به إلى حلب وأقام عند أخيه الملك رضوان فراسله الأمير ساوتكين الخادم الوالي بقلعة دمشق سرًّا يدعوه ليملكه دمشق» – وفي ابن القلانسي ١٣٠: «وأقام بحلب مدة يسيرة وراسله الأمير ساوتكين الخادم المستناب في القلعة والبلد. وقرّر له مملكة دمشق سرًّا».

(٢) كلمة مطموسة في الأصل أخذناها عن ابن الاثير وابن القلانسي كما مرّ في السطر السابق.

(٣) في ابن القلانسي: «فخرج في الحال من حلب من غير ان يعلم به أحد. وجدّ في سيره ليله ونهاره. فلما عرف الملك فخر الملوك خبره انهض عدّة من الخيل في أثره، ففاتهم، ولم يعرفوا له خبرًا، ولا وجدوا له أثرًا. ووصل إلى دمشق وحصل بها وأجلسه ساوتكين في منصب ابيه السلطان تاج الدولة، وأخذ له العهد على الأجناد والعسكرية» – وفي ابن الأثير: «فهرب من حلب سرًّا وجدّ في السير، فأرسل أخوه رضوان عدة من الخيالة فلم يدركوه، فلما وصل إلى دمشق فرح به الخادم وأظهر الاستبشار».

(٤) في ابن القلانسي ١٣٠: «وفي هذه السنة – وردت الأخبار بخلاص الأمير ظهير الدين طغتكين أتابك من اعتقاله عقيب الكسرة التاجية» – وابن الأثير يرسم «طغدكين» هكذا بالدال بعد الغين فيقول: «معتمد الدولة طغدكين».

(٥) هو الأمير أبق بن عبد الرزاق أحد مقدّمي أمراء دمشق، توفي سنة ٥٠٢ هـ – انظر ابن القلانسي ١٦٦

وكان أبق أيضاً مِنْ جملة مَنْ قُبض عليه من الجماعة الّذين كانوا مع تتش فخاطَبُوا السُّلطَان في إطلاقه وتسْييره فأجابهم إلى ذَلك، وسيَّره إلى حلب، فلمّا وصله أكْرَمَهُ رضوان وأطلق كربوقا في شعبان وسيَّره مكرماً.

فأطلق بركيارق أتابكَ طغتكين وجميع من كان في اعتقاله من خواصّ تاج الدّولة، ووصل دمشق فابتهج دقاق بوصوله وقويت نفسه، وألقى تدبير أموره إليهِ، فقام فيها أحسنَ قيامٍ[1].

فاستأذن عضبُ الدّوْلة الملك رضوان في الوصول إليهِ فأذن له، وقرّر معه قرب العودة إلى حلب وترك اقطاعه بحلبَ على حاله، فوصل دمشق واختار المقام بها، وكتب إلى أصْحَابهِ بعَزَاز يأمرهم بتسليمها إلى رضوان فسلّموها.

الاسماعيلية

ولمّا وصلتْ هذه الأَخبارُ وثب أهل أفامية على حِصْنها فأخذُوهُ من الأتراك، وقتلوا بَعْضَهم، وكان تاجُ الدّولة قد أخذه من ابن منقذ، وسار || جماعةٌ مِنْ أهلها إلى مصر يستدعون [١١٧ و] والياً من قِبَلهم ‹ لميلهم ›[2] إلى الإسماعيلية ونُفورهم من التُّرك.

ووصل خلَف بْنُ مُلَاعب في سنة تسعٍ وثمانين وأربعمائةٍ وتسلّمها، وعاد إلى الفساد وقَطع الطريق، وقتل خَلقاً من أفامية.

وأمّا الملكُ رضوان فإنّه خَرج في سنة ثمان وثمانين من حلب، ومعه

(١) في ابن القلانسي ١٣١ : « فتلقاه الملك شمس الدولة دقاق وعسكره وأرباب دولته وبولغ في أكرامه واحترامه، وردّ اليه النظر في الاسفهسلارية، واعتمد عليه في تدبير المملكة ».

(٢) كلمة مطموسة في الأصل جعلنا مكانها هذه اللفظة متابعة للسّياق.

جناحُ الدَّولة حسين[1] . ووصله يغي سيان ويوسف بن أبق مِنْ أنطاكية بعسكرهما ، وتوجّهوا إلى الرُّها ، ومعهم رهائن أهلها ليتسلّمها الملك رضوان من المُقيمين فيها من أصحاب والده .

فلمّا نزلوا الرّها أراد يغي سيّان ويوسف أن يقبضا جناحَ الدَّولة ويتفرّدا بتدبير رضوان ، فهرب منها ، وقطعَ الفُرات ، ووَصل حلبَ ، وتبعه رضوان ، فدخل حلبَ ، وهرب رهائن الرّها من العسكر ودخلوها . وعـاد يغي سيان ويوسف بن أبق ، وقد استوحش رضوان منهما .

سكمان بن أرتق

وكتب رضوان إلى سكمان[2] واقطاعه سروج[3] يستدعيه إلى حلب لمعونته ، فسار وقطَع الفُرات فلقيه يوسف بن أبق في عدّةٍ وافرةٍ فخافه سكمان ، فأظهر موافقته وصار معه .

وخاف جناحُ الدَّولةِ من اجتماعهم ، وكان عقيب وُصول رضوان من الرُّها قد سَيَّر جماعةً من عسكر حلب إلى معرّة النُّعمان مع عضب الدَّولةِ لأخذها من يغي سِيان .

وكاتب وثّاب بن محمود فوصل ببني كلابٍ لمساعدتِهِ على أخذ المعرّة ، فأخرجوا ابن يغي سيان وأصحابه منها ، وتسلّموها .

وعاد عضبُ الدَّولة ووثّاب ، فلمّا وصلا حلبَ حدث ما ذكرناه

(١) جناح الدولة حسين أتابك الملك فخر الملوك رضوان – انظر ابن القلانسي ١٣٣

(٢) في ابن الأثير ١٧٦/٨ : « الأمير سقمان بن ارتق »

(٣) في ابن الأثير ١٨٤/٨ : « فأرسل رضوان رسولاً إلى سقمان بن أرتق وهو بسروج يستنجده فأتاه خلق كثير ».

[١١٧ظ] || من أمر سكمان ويوسف بن أبق ، فخرج جناحُ الدَّولة بالعسكر ، فلقيه يوسف بالقرب من مَرْج دابق فهَرَب يُوسف ونهبوا عسكره ، وأعانهم على ذلك سكمان ، ودخل يوسف أنطاكية . وعاد جَناح الدَّولة وسكمان ووثّاب وأبق إلى حلب .

وأقطع الملك رضوان معرَّة النُّعمان سكمان بن أرتق وأعمالها ، ثم سار رضوان وسكمان لقصدِ دمشق وانتزاعها من أخيه دقاق ، وترك جناح الدولة بحلب .

فَلَمَّا نزلا دمشق وَصل إليهما أن دُقاق قبض على نجم الدِّين إيلغازي ابن أرتق[1] ، واعتقله لتهمة وقعتْ به ، فعاد الملك رضوان إلى حلب ، وسار سكمان إلى بَيْتِ المقدس وتسلّمها من نُوّاب أخيه وأقام بها .

وَرَاسَلَ يوسف بن أبق الملكَ رضوان واستأذنه في الوصول إلى خدمته فأذن له ، ووصل حلب وسكنها .

مقتل يوسف بن أبق

ثُمَّ خافَ رضوان وحسين منه فتقدّما إلى بركات ابن فارس رئيس حلب المعروف بالمجن[2] بقتله ، فهجم عليه وأصحابه فَقَتلوه ونهبُوا دارَه وأخذوا رأسه[3] ، وسيَّروه إلى بزاعَا ومَنْبج ، فتسلموها من أصحابه ، وقبضوا على اقطاع أخيه

(١) في ابن القلانسي ١٢٧ : « الأمير نجم الدين إيل غازي بن أرتق » — وفي بغية الطلب ٨/٨٨ ظ : « ايلغازي » موصولة .

(٢) في ابن الأثير ٨/١٧٩ : « وهو رئيس الأحداث بحلب » .

(٣) في ابن الأثير، بالصفحة المذكورة : « فقصد المجن الدار التي بها يوسف فكبسها من الباب والسطح ، وأخذ يوسف فقتله ونهب كل ما في داره وبقي بحلب حاكماً » .
— وفي العظيمي بالورقة ١٨٩ و : « سنة ٤٨٩ـ قتل الأمير يوسف بن أرتق ونهبت داره » .
— انظر ابن القلانسي ١٣٥

وأصحابها؛ وهربوا من حلب. وكان الملك قد توَهَّم منه الارتداد عن الاسلام.

ثم انّ رضوان وجناحَ الدّولة خرجا في سنة تسعٍ وثمانين إلى تَلّ باشر[1]، وشيح الدّير[2]، وفتحاها بالسّيف من أصحاب يغي سِيان، وأغارا على أعمال أنطاكية، وعادا إلى حلب، وسارا في أول شهر رمضان منها إلى دمشق.

بين رضوان ودقاق

فسار يغي سيان مُنجدًا لدقاق فضعفَت نَفْس رضوان ‖ ولم يتمكّنْ مِن العَودة، فسار إلى بيت [١١٨و] المقدس، فتبعه دقاق وطغتكين ويغي سيان وأقاموا متحابسين مدة.

وأشرف عسكر رضوان على التّلف[3] فانفَصَلَ عنه جناحُ الدّولة، وهرب على طريق البرية إلى حلب، وتبعه الملك رضوان بعد مدّةٍ وحَصَلا بجميع العساكر بحلب.

وعَادَ دُقاق وطغتكين إلى دمشق ويغي سيان إلى أنطاكية. وعاد سكمان بن أرتق من القدس على البريّة حتّى وصل حلب على البرية في المحرّم من سنة تسعين وأربعمائة.

واجتمع بجناح الدّولة واتفقا على قصد بلاد يغي سيان فخرج

(١) في معجم البلدان لياقوت ٨٦٦/٣ : « تلّ باشر : بالشين المعجمة – قلعة حصينة وكورة واسعة في شمالي حلب بينها وبين حلب يومان، وأهلها نصارى أرمن، ولها ربض وأسواق، وهي عامرة آهلة » – انظر دوسو ٤٦٨

(٢) شيح الدّير : وردت في بعض المصادر شيخ الدير بالخاء المعجمة وهي البلدة الكردية الآن : شادر Šâdir – انظر هونيغمان ١٠٩ بالحاشية والمصادر التي يسردها .

(٣) في ابن الأثير ١٨٦/٨ : « فرحل إلى نابلس وسار إلى القدس ليأخذه فلم يمكنه، وانقطعت العساكر عنه ».

دقاق وطغتكين، فوصلا حَماة وعاثَ العسكرُ في بلدها ووصلها يغي سيان، وساروا إلى كفرطاب في الثّاني من ربيع الأوّل، فقاتلوها، ونهبوها، وقرّروا على أهلها مالًا.

وهرب أصحاب سكمان من المعرّة فتسلّمها يغي‌سيان وقرّر عليها مالًا. وتنقّل العسكر في الجَزْر وغيرها من أعمال حلب، فاستنجد رضوان بسليمان بن إيلغازي صاحب سُمَيْسَاط فوصل بعسكرٍ كثيرٍ إلى حلب.

وجمع رضوان مَنْ قَدَرَ عليهِ من التُّرك والعرب وأحداث حلب، ونزل عسكر دقاق بِقِنّسرين.

ونزل عسكرُ حلب بحاضر قِنّسرين فاتّفق الأمر على أن يجتمعوا على نَهر قُوَيْق ويتحدّثوا، فاجتمعوا وتحدّثوا والنهر بينهم؛ فلم يتّفق الصُّلحُ، فقال يغي سيان لسكمان: «هؤلاء الملوك يقتتلون على ملكهم، أنتَ يا بيّاع اللّبن دخولُك معهم لأيّ صِفة؟» قال: «غدًا تُبصر ايشْ أنا».

[١١٨ظ] فأصبحُوا والتقَوْا يوم الاثنين خامس || شهر ربيع الآخر من سنة تِسعين وأربعمائة فأَبلى سكمان بَلاءً حسناً.

ولم تزل الحرب بينهم إلى آخر النهار، فانهزم يغي سيان إلى أنطاكية، ودقاق وطغتكين إلى دمشق؛ وأسر في الحرب اصباوه[1]، فاعتقل بحلب ثم أطلق، فهرب إلى دمشق ولم يقتل من العسكر إلّا القليل.

(١) جاء في ابن الأثير ٢٢٨/٨: «أصبهبذ صباوو» في الحديث عن الصلح بين رضوان والفرنج، وأن هذا الرجل منع رضوان من الصلح.

وَقَتَل الفلّاحون في الطَّريق وقتَ الهزيمة مِنَ الأرمن الّذين كانوا مع يغي سيان جماعةً كثيرةً ، وتغيّرت نيّة الملك رضوان على جَناح الدّولة حسين فَهَرب من حلب إلى حمص ، وخرج من حلب ليلًا ومعه زوجته أمّ الملك رضوان ، وأقام بحمصَ لأنها كانت في يده وحَصَّنها[1] .

ووصل يغي سيان إلى حلب عقيب ذلك ، وخدم رضوان ، ودبّر أمره ، وتزوّج رضوان ابنة يغي سيان خاتون جنجك[2] .

الدعوة للمصريين

المستعلي

وعوّل رضوان على قصد جناح الدّولة بحمص ، وقصد دقاق بدمشق ، ووَصَلَهُ رسولُ الأفضل[3] من مِصْر يدعوه إلى طاعة المُسْتَعْلي[4] وإقامة الدّعوة له ، وعلى يده هديّة سنيّة من مصر ، ووَعَدَه بأن يُمِدَّه بالعساكر والأموال[5] .

(١) في ابن القلانسي ١٣٣ : « وفي شعبان منها – ورد الخبر بأن الأمير جناح الدولة حسين أتابك الملك فخر الملوك رضوان بحلب استوحش من الملك استيحاشاً خاف معه على نفسه ، وكان زوج والدته ، ففصل عن حلب منكرًا لما تمّ في أمره ، وكان أمر التدبير إليه والمعتمد في الحل والعقد فيها عليه ، ووصل إلى حمص في عسكره وخواصه ، وكان قراجة نائبه فيها ، فسلّمها اليه ، وحصل بها ، وشرع في تحصينها » .

(٢) في بغية الطلب المخطوطة ٨/٩٠ و : « خاتون جنجل » من غير نقط فلم نعرف الضبط فيها – وفي العظيمي بالورقة ١٩٠ و : « جنجل » من غير نقط كذلك .

(٣) هو الأفضل شاهنشاه أمير الجيوش أبو القاسم ابن أمير الجيوش بدر الجمالي الأرمني وزير مصر وكان القائم بأمر المستعلي بالله خليفة مصر – انظر النجوم الزاهرة ٥/١٦٣

(٤) المستعلي بالله خليفة مصر واسمه أحمد وكنيته أبو القاسم بن المستنصر بالله معدّ بن الظاهر بالله عليّ بن الحاكم بأمر الله منصور ، السادس من خلفاء مصر الفاطميين بني عُبيد ، بويع بالخلافة بعد موت أبيه المستنصر معدّ في يوم الغدير سنة ٤٨٧ هـ – انظر النجوم الزاهرة ٥/١٦٣ حيث ينقل ترجمته عن ابن خلكان .

(٥) في ابن القلانسي ١٣٣ : « وفي هذه السنة ورد على فخر الملوك رضوان كتاب

فتقدم بالدّعوة للمصريين على سائر منابر الشّام الّتي في يده، ودعا الخطيبُ أبو تراب حيدرة بن أبي أسامة[١] بحلب للمُستَعْلي ثمّ للأفضل ثم لرضوان، في يوم الجمعة السّابع عشر من شهر رمضان من هذه السّنة.

وكان قد ولّى الخطابة أبا تُراب وعَزَل جَدّ أبي أبا غانم محمّد بن هبة الله بن أبي جرادة عن القضاء والخطابة بحلب[٢]، لأنّ توليته كانتْ على قاعدة أبيه من بغداد في سَنة ثمان وثمانين وأربعمائة.

[١١٩ و] || وكان أبوه القاضي أبو الفضل هبة الله قد مات في هذه السّنة المذكورة، وهو على القضاء والإمامة بحلب.

وولّى رضوان قضاء حلب في سنة تسعين القاضي فضلَ الله الزّوْزني العَجَمي الحنفيّ، وسَيَّرهُ رسولا إلى مصر[٣]، وناب عنه في القضاء حال غيبته أبو الفضل أحمد بن أبي أسامة الحلبي. ودامت الدّعوة بحلَب إلى رجب من سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة. وقيل: لم تَدُم أكثر من أربع جمع[٤].

المستعلي بالله صاحب مصر مع رسوله يلتمس منه الدخول في طاعته واقامة الدعوة لدولته وكذلك كتاب الأفضل يتضمن مثل هذه الحال فأجابا إلى ما التمساه».

(١) جاءت ترجمة الرجل في بغية الطلب المخطوطة ٦/٣٣٣ و: «حيدرة بن الحسن ابن أحمد بن عليّ بن عبيدالله بن محمد بن عبدالله بن محمد بن جلول الحلبي أبو تراب العدل الخطيب ابن أبي أسامة ... وكان إمامي المذهب».

(٢) في بغية الطلب: «وعزل جد أبي القاضي أبا غانم عن القضاء والخطابة في سنة تسعين وأربعمائة. وقيل ان أبا تراب لم يعش بعد ذلك إلّا مدة يسيرة ومات وكان قد أسنّ».

(٣) في العظيمي بالورقة ١٩٠ و: «وتولّى قضاء حلب القاضي الروزني العجمي وسار رسولًا إلى مصر واستناب موضعه».

(٤) في تاريخ العظيمي: «وخطب للمصريين شهرًا وعادت الخطبة للعبّاسيين».

وأعادها رضوان للإمام المستظهر ثم للسلطان بركيارق ثمّ لنفسه، ولم يَصِحّ له مما التمسه من المصريّين شيء.

وأعاد القضاء والخطابة إلى جدّ أبي أبي غانم على قاعدته الأولى، في سنة خمس وتسعين وأربعمائة، حين قُتل الزَّوْزَنيّ، وكان خرج من بين يدي رضوان، فقُتِل في بعض الدُّروب؛ وكان أزرى على البَاطِنيّة وعلى معتقدهم فقيل إنّهم قتلوه.

خروج الفرنج الى الشام

ولما سار[1] رضوان ويغي سيان وصلا إلى شيزر متوجّهَيْن إلى حمص لقصد حمص[2]، فتواصلت الأخبارُ بوصول خَلْق من الفرنج قاصدين أنطاكية، فقال يغي سيان: «عودُنا إلى أنطاكية ولقاء الفرنج أولى». وقال سكمان: «مسيرُنا إلى ديار بكر وأخذها من المتغلّبين عليها ونتقوّى بها، وأنزل أهلي بها ونعود إلى حمصَ أولى»؛ واختلفوا[3].

فسار الملك رضوان نحو حلب حفلاً وكان معه وزيره أبو النّجم بن بديع أخو وزير أبيه تتش أبي القاسم، وكان قد ولّاه وزارته حين ملك

---

(١) هذا القسم وما يليه من أقسام خاصة بالصليبيّين [أي من سنة ٤٩٠ – ٥٤١ هـ] نشرها المستشرق باربيه ده مينار في جملة النصوص التاريخية المتعلقة بالحروب الصليبية مع ترجمتها إلى الفرنسية من غير تحقيق أو تعليق على عادة المجموعة – انظر :
Recueil des Historiens des Croisades, Historiens Orientaux, Paris 1884, tome III, pp. 577-690

(٢) في ابن القلانسي ١٣٣ : «وبرز الملك رضوان وياغي سيان من حلب في العسكر إلى ناحية شيزر، عازمًا على الاحتشاد والتأهب والاستعداد لمعاودة النزول على دمشق».

(٣) في ابن القلانسي، بالصفحة نفسها : «فأقاموا على شيزر تقدير شهر، ووقع الخلف بين مقدمي العسكر، فتفرّقوا وعاد كل منهم إلى مكانه؛ وعاد الملك إلى حلب».

حلب ، فاتّهماه أنّه هو الّذي يُفْسِدُ حالَ رضوان ، فطلع إلى حصن شيزر ، وأقام به عند || ابن منقذ خشية من يغي سيان وسكمان ، فلمّا سارا عن شيزر سار إلى حلب ولحق بالملك رضوان بها . [١١٩ظ]

ولما عاد رضوان مُغَاضِباً ليغي سيان وسكمان عَادَ والأمراء من شيزر إلى أنطاكية[1] ، وبلغهم نزول الفرنج البلّانة[2] ونهبها .

ولما دخل يغي سيان أنطاكية أخرج ولديه شمس الدّولة ومحمدًا ، فسار أحدهما إلى دقاق وطغتكين يستنجدهما ، وبثّ كتبه إلى جناح الدّولة ووثّاب بن محمود وبني كلاب ، وسار محمّد ابنه إلى التركمان وكربوقا وأمراء الشرق وملوكه ، وسارتْ كتبه إلى جميع أمراء المسلمين[3] .

هجوم الفرنج

وفي ثامن شهر رمضان، وصل من قبرس[4] إلى ميناء اللّاذقية اثنتان وعشرون قطعة في البحر ، فهجموه وأخذوا منه جميع ما كان للتجّار، ونهبوا اللّاذقية ، وعادوا . ووَصَلت الفرنج إلى الشّام ، واعتبروا عسكرهم فكانوا ثلاثمائة ألف وعشرين

---

(١) في ابن القلانسي ١٣٤ : « وفي النّصف من شعبان توجّه الأمير ياغي سيان صاحب أنطاكية والأمير سكمان بن أرتق والأمير كربوقا في العسكر الى أنطاكية ، وقد وردت الأخبار بقرب الأفرنج منها وتزولهم البلانة » .

(٢) بلّانة – ذكر الجغرافيون العرب أنها قرب المرقب وسمّوها «بلنياس» وضبطوها على اختلاف فيا بينهم – انظر معجم البلدان لياقوت ٧٢٩/١ ؛ وتقويم البلدان لأبي الفداء ٢٥٤ – وارجع إلى دوسو ١٢٨ وما يليها من صفحات .

(٣) في ابن القلانسي ١٣٤ : « وخف ياغي سيان إلى أنطاكية ، وسيّر ولده إلى دمشق إلى الملك دقاق وإلى جناح الدولة بحمص ، والى سائر البلاد و الأطراف بالاستصراخ والاستنجاد والبعث على النفوف إلى الجهاد ، وقصد تحصين أنطاكية واخراج النصارى منها » .

(٤) قبرس : جزيرة في بحر الروم – انظر زبدة الحلب ٧١/١ بالحاشية .

ألف إنسان، لأنهم وصلوا من جهة الشمال.

وفي اليوم الثاني من شوّال[١] نزلت عساكر الفرنج على بغراس وأغاروا على أعمال أنطاكية، فعند ذلك عصى مَنْ كان في الحصون والمعاقل المجاورة لأنطاكية، وقتلوا مَنْ كان بها، وهرب مَنْ هرَب منها.

وفعل أهل أرتاح[٢] مثل ذلك واستدعَوْا المَدَد من الفرنج. وهذا كله لقُبْح سيرة يغي سيان وظلمه في بلاده.

ونزل الفرنج على أنطاكية لليلتين بقيتا من شوّال من سنة تسعين وأربعمائة.

وخرج في المحرّم من سنة إحدى وتسعين وأربعمائة نحو ثلاثين ألفاً[٣] من الفرنج إلى أعمال المسلمين ببلد حلب، فأفسدوا ونهبوا || وقتَلوا مَنْ وَجَدُوا. [١٢٠ و]

وكان قَدْ وَصَل الملك دقاق وأتابك ومعهما جناح الدّولة، ونزلوا أرض شيزر، ومعهم ابن يغي سيان وهم سائرون لانجاد أبيه، فبلغهم خبر هذه السرّية، فساروا إليها بقطعة من العسكر، فلقوهم في أرض البارة[٤] فقتلوا منهم جماعة[٥].

---

(١) وقعت هذه العبارة نفسها من غير نقص أو زيادة عند ابن القلانسي ١٣٤، ويبدو أن ابن العديم ينقل عنه حرفياً في كثير من المواقع وخاصة هنا.

(٢) أرتاح: حصن من أعمال حلب – انظر زبدة الحلب ١/١٦٩ بالحاشية وهذه العبارة عن ابن القلانسي، لكن الحكم على سيرة يغي سيان يبدو من أسلوب ابن العديم.

(٣) في ابن القلانسي ١٣٤: «وفي شعبان ظهر الكوكب ذو الذؤابة . . . وكان قد نهض من عسكر الافرنج فريق وافر يناهز ثلاثين ألفاً فعاثوا في الأطراف».

(٤) في معجم البلدان لياقوت ١/٦٦٥: «البارة – بليدة وكورة من نواحي حلب وفيه حصن وهي ذات بساتين ويسمونها زاوية البارة»

(٥) في ابن القلانسي ١٣٤: «ووصلوا إلى البارة وفتكوا فيها تقدير خمسين رجلاً

وعاد الفرنج إلى الرّوج ، وعرجوا منه إلى معرّة مصرين ، فقَتَلوا مَنْ وجدوا و كسروا مِنبرها، وحين عاد العسكر الدمشقيّ من البارة فارقهم ابن يغي سيان ووصل إلى حلب يستنجد بالملك رضوان ، فأخذ عسكر حلب وسكمان، ودخل بهما إلى أنطاكية فلقيهم من الفرنج دون عدّتهم ، فانهزم عسكر المسلمين إلى حارم[1] وذلك في آخر صفر، وتبعهم عسكر الفرنج إلى حارم فانهزموا إلى حلب، وغلب أهل حارم من الأرمن عليها .

وفي شهر ربيع الأول من السَّنة وصل خلقٌ من الأرمن إلى تلّ قبّاسين[2] بناحية الوادي فقَتَلوا مَنْ فيه، وخرج المسلمون الّذين بالوادي وجماعة من الأتراك تبعوهم وقتلوا منهم جماعة ، والتجأ الباقون إلى بعض الحُصون الخربة، فأدركهم عسكر حلب فقاتلهم يومين، وأخذوهم فقتلوا بعضهم ، وحمل الباقي أسرى إلى حلب فقُتِلوا ، وكانوا يزيدون عن ألف وخمسمائة .

الفرنج في أنطاكية

ولما نَزَلَ الفرنجُ — لَعَنَهُم اللهُ — بأنطاكية جعلوا بينهم وبين البَلَد خنْدَقًا لأجل غارات عسكر أنطاكية عليهم و كثرة الظَّفر بهم ، ولا يكاد يخرج عسكر أنطاكية

وكان عسكر دمشق وصل إلى ناحية شيزر لانجاد ياغي سيان . فلما نزلت هذه الفرقة المذكورة على البارة نهضوا نحوهم وتطاردوا وقتل منهم جماعة » .

(١) في معجم البلدان لياقوت ١٨٤/٢ : «حارم : بكسر الراء — حصن حصين وكورة جليلة تجاه أنطاكية، وهي الآن من أعمال حلب، وفيها أشجار كثيرة ومياه وهي لذلك وبئة» .

(٢) في معجم البلدان لياقوت ٨٦٩/١ : « تلّ قبّاسين : بفتح القاف وتشديد الباء الموحّدة والسين مكسورة مهملة وياء ساكنة ونون — قرية من قرى العواصم من أعمال حلب» .

ويعود إلّا ظافرًا[١].

وجعل يغي سيان النّاس على البُعد والقُرب. وكان حسن التّدبير في سياسة العسكر[٢].

وجمع كربوقا صاحبُ المَوْصل عسكرًا عظيماً، وقطع به الفرات[٣].

ووصل ‖ دقاق وطغتكين وجناح الدّولة، ووصل سكمان بن أرتق[٤]، [١٢٠ظ] وفارق رضوان وسار مع دقاق.

ووصل وثّاب بن محمود ومعه جماعة من العرب ووصلوا تلّ منس وقاتلوها لأنه بلغهم أنهم كاتبوا الفرنج وأطمعوهم في الشّام، وقرّر عليهم دقاق مالًا أخذ بعضَه ورهائن على الباقي، وسيّرهم إلى دمشق.

وسار دقاق بالعساكر إلى مرج دابق، واجتمع بكربوقا فيه في آخر جُمادى الآخرة، ورحلوا منه نحو أنطاكية.

خيانة الزرّاد

فلما كان ليلة الخميس أوّل ليلة من رجب واطأ رجل يُعرَف بالزّرّاد من أهل أنطاكية[٥] وغلمان له على برج

---

(١) في ابن القلانسي: « وجعل الافرنج بينهم وبين أنطاكية خندقًا لكثرة الغارات عليهم من عسكر أنطاكية ».

(٢) في ابن الأثير ٨/١٨٦: «وظهر من شجاعة باغيسيان وجودة رأيه وحزمه واحتياطه ما لم يشاهد من غيره فهلك أكثر الفرنج موتًا، ولو بقوا على كثرتهم التي خرجوا فيها لطبقوا بلاد الاسلام ».

(٣) في ابن الأثير ٨/١٨٦: « لما سمع قوام الدولة كربوقا بحال الفرنج وملكهم أنطاكية جمع العساكر وسار إلى الشام وأقام بمرج دابق ».

(٤) في ابن الأثير ٨/١٨٧: « فاجتمع معه دقاق بن تتش وطغتكين أتابك وجناح الدولة صاحب حمص وارسلان تاش صاحب سنجار وسليمان (!) بن أرتق وغيرهم من الأمراء ممن ليس مثلهم ».

(٥) في ابن الأثير ٨/١٨٦: «فلما طال مقام الفرنج على أنطاكية راسلوا أحد المستحفظين

كانوا يتولّون حفظه؛ وذلك أن يغي سيان كان قد صادَر هذا الزّرّاد وأخذ مالَه وغلّته، فحمله الحنقُ على أن كاتب بيمند[1] وقال له: «أنا في البُرجِ الفُلاني، وأنا أُسلِمُ إلَيْكَ أنطاكية إنْ أمّنْتني وأعطَيْتَني كذا وكذا». فبذل له ما طلب[2]، وكتم أمرَهُ عن باقي الفرنج.

وكان بعسكر الفرنج تسعة قوامِص مقدّمين عليهم كندفري، وأخوه القمص، وبيمند، وابن اخته طنكريد وصَنجيل وبَغْدوين وغيرهم[3]. فجمعهم بيمندُ وقالَ لهم: «هذه أنطاكية إنْ فتحناها لِمَنْ تَكُونُ؟» فاختلفوا، وكُلٌّ طلبها لنفسه، فقال: «الصَّوابُ أنْ يحاصرها كُلُّ رجلٍ مِنّا جُمعة؛ فَمَن فُتِحَتْ في جُمعته فهي له». فرضوا بذلك.

فلما كانت نوبتُه دلّى لهم الزّرّاد ـ لَعَنَه اللهُ ـ حَبْلًا، فطلعوا من السّور، وتكاثروا، ورَفَع بعضُهم بَعْضاً وجاءوا إلى الحرّاس، فقتلوهم[4]،

للابراج، وهو زرّاد يعرف بروزبه» – وفي ابن القلانسي ١٣٥: «في آخر جمادى الأولى ورد الخبر بأن قومًا من أهل أنطاكية من جملة الأمير ياغي سيان من الزّرادين عملوا على أنطاكية وواطئوا الأفرنج على تسليمها إليهم لاساءة تقدّمت منه في حقهم ومصادرتهم» – ويسميه بعد ذلك: «فيروز، وهو رجل أرمني».

(١) في الأصل المخطوط: «ميمند» – وهو تصحيف صحيحه: «بيمند» – وفي الأعجمية: « Boémond ».

(٢) في ابن الأثير: «وبذلوا له مالًا واقطاعاً وكان يتولى حفظ برج يلي الوادي وهو مبني على شباك في الوادي» — في ابن القلانسي: «ووجدوا الفرصة في برج من ابراج البلد مما يلي الجبل باعوه للافرنج».

(٣) في ابن الأثير ٨ / ١٨٧: «وكان معهم من الملوك بردويل وصنجيل وكندفري والقمص صاحب الرها وبيمنت صاحب أنطاكية وهو المقدم عليهم» – وسنورد ترجمة المستشرق دەمينار، تقريباً للأسماء الأعجمية ممن يحبّ الرجوع الى المصادر الغربية:

Leur armée était commandée par neuf comtes, entre autres Godefroi, son frère le comte (Baudouin), Boémond, Tancrède, fils d'une sœur de Boémond, Saint-Giles, Baudouin (du Bourg)

(٤) في ابن الأثير ٨/١٨٦: «فلما تقرر الأمر بينهم وبين هذا الملعون الزراد جاءوا إلى الشباك ففتحوه، ودخلوا منه، وصعد جماعة كثيرة بالحبال».

وتسلّمه بيمند بن الانبرت[1].

مقتل يغي سيان

وطَلَع الفرنج في سحرة || هذه اللّيلة إلى البلد وصاح الصّائح من ناحية الجبل ، فتوهّم يغي سيان أنّ القلعة قد أخِذَت فخرج من البلد في جماعة منهزمين فلم يسلم منهم أحد[2]. [١٢١ و]

ولمّا حَصَل بالقرب من أرمناز ومعه خادم من غلمانه وقع عن ظهر فرسه ، فحمله الخادم الّذي كان معه ، وأركبه ، فلم يثبت على ظهر الفرس ، وعاد فسقط ، وأدركه الأرمن ؛ فهرب الخادم عنه ، وقتله الأرمن وحملوا رأسه إلى الفرنج[3].

قتلى المسلمين

واستشهد في ذلك اليوم بأنطاكية ما يفوتُ الإحصاء ويجاوزُ العَدَد ، ونُهِبت الأموالُ والآلات والسّلاح ؛ وسُبي مَنْ كان بأنطاكية . وَوَصل هذا الخبرُ إلى عِمّ وأنب[4] ، فهَرب مَنْ كان بها من المسلمين وتسلّمها الأرمن .

---

(١) في الأصل المخطوط عندنا : « ميمند بن الانبرت » — وقد قرأه المستشرق : « بيمند بن الاسكرت » وترجمه : « Boémond, fils de Guiscard » .

(٢) في ابن الأثير : « فلما زادت عدتهم على خمسمائة ضربوا البوق وذلك عند السحر وقد تعب الناس من كثرة السهر والحراسة فاستيقظ باغيسيان فسأل عن الحال فقيل إنّ هذا البوق من القلعة ، ولا شك أنها قد ملكت ، ولم يكن من القلعة ، وانما كان من ذلك البرج فدخله الرعب وفتح باب البلد وخرج هارباً في ثلاثين غلاماً على وجهه » — في ابن القلانسي : « فانهزم باغي سيان ، وخرج في خلق عظيم فلم يسلم منهم شخص ».

(٣) تتفق رواية ابن العديم وما جاء في ابن القلانسي ١٣٥ : « ولما حصل بالقرب من أرمناز — ضيعة بقرب من معرة مصرين — سقط عن فرسه على الأرض ، فحمله بعض أصحابه وأركبه فلم يثبت على ظهر الفرس ، وعاود سقط فمات رحمه الله » — وفي تاريخ العظيمي : « وانهزم صاحبها يغي سغان منها فمات في الطريق من العطش » — وفي ابن الأثير : « واجتاز به انسان أرمني كان يقطع الحطب وهو بآخر رمق فقتله وأخذ رأسه وحمله الى الفرنج بأنطاكية » .

(٤) عِمّ : هو حصن مشهور ، على بعد ٤١ كيلومتراً من بلدة ارتاح — انظر زبدة

وبلغَ الخبرُ إلى دُقاق وكربوقا ومَن كان معهما، فرحلوا إلى أرتاح، وسار بعضهم إلى جسر الحديد[1] وقتلوا مَنْ كان فيه من الفرنج، وتوجّهوا نحو أنطاكية، فعرفوا أنّ قلعتها باقية في أيدي المسلمين، فأعلموا العساكر الإسلاميةَ بذلك، فوصلوا إلى أنطاكية سحرة يوم الثلاثاء سادس رجب، فانهزم مَنْ كان بظاهر البلد من الفرنج إليها.

ونزل المسلمون بظاهرها مِمّا يلي الجبلَ، ودخلوا البلد من ناحية القلعة، وقاتلوا الفرنج في جبل المدينة، وأشرفَ الفرنجُ على التَّلف فبَنَوا سُوراً على بعض الجبل يَمنعُ المسلمين من النزول إليهم، وأقاموا أياماً، وعدم القوت عندهم[2].

واحتوى كربوقا على كثير ممّا كان في قلعة أنطاكية، وولّى فيها أحمدَ بن مروان، وترادفتْ رُسُل الملك رضوان في أثناء ذلك إلى كربوقا، فتوهّم || دُقاق من ذلك، وخافَ جناح الدَّوْلة من أصحاب يوسف بن أبق وأخيهِ. [١٢١ظ]

وجَرَت بين الأتراك والعرب الّذين مع وثّاب منافرةٌ عادوا لأجلها، وتَفَرّق كثير من التركمان بتدبير الملك رضوان ورسالته.

وتحيّل بعضُ الأمراء مِنْ بعض ثم اجتمع رأيهم على التحوُّل إلى

الحلب ١/١٨٧ بالحاشية – وأما إنّب فهي كما يقول أحد مؤرخي الصليبيين الأجانب تقارب « NEPA » – انظر ترجمة المستشرق ٣/٥٨٢ بالحاشية.

(١) جسر الحديد: يقع في الشمال الشرقي من أنطاكية على مسافة نصف يوم سيرًا على الأقدام بين أنطاكية وحارم – انظر زبدة الحلب ١/١٨٧ بالحاشية.

(٢) في ابن القلانسي ١٣٦: « فحصروهم حتى عدم القوت عندهم حتى أكلوا الميتة » – وفي ابن الأثير ٨/١٨٧: « ليس لهم ما يأكلونه، وتقوت الأقوياء بدوابهم والضعفاء بالميتة وورق الشجر ».

المنازلة في السَّهل بظاهر أنطاكية، فنزلوا باب البحر، وجعَل المسلمون بينهم وبين البلد خندقاً.

وأكل الفرنج بأنطاكية الميتات والدّواب، فخرجوا من أنطاكية يوم الاثنين السَّادس والعشرين من شهر رجب.

فأشار وثّاب بن محمود أن يمنعوا من الخروج، وأشار بعض الأمراء[1] أن لا يمكنوا من الخروج بأجمعهم وَيُقتَلوا أوّلاً فأوّلاً، فلم يعرّج المسلمون على شيء من ذلك لأنهم أيقَنُوا بالظَّفر بالفرنج، وخَرجُوا بأجمعهم في خلق عظيم.

وعاثَ التركمان في العسكر فانهزم، وتوهّمَ الفرنج أن ذلك مكيدة[2] فتوقفوا عن تبعهم، فكان ذلك سبباً لسلامة من أراد الله سَلاَمَتَهُ؛ ولم يَبْقَ غير كربوقا ومعه أكثر عسكره، فأحرق سرادقه وخيامَه وانهزم نحو حلب.

وقُتل من المطوّعة والغِلمان والسُّوقة خلقٌ كثير[3]، ولم يُقتل مذكورٌ، ونُهب من المسلمين من الآلات والخيام والكراع والغلّات ما لا يُحصى؛ ومَن انقطع من العسكر نَهَبَهُ الأرمن.

قلعة أنطاكية

وعَادَ الفرنج إلى قلعة انطاكية، وبها أحمد بن مروان، فراسَلَهُ الفرنج وأمّنوه، ومَن كان معه، وسَلّمها إليهم

(١) في ابن الأثير ٨/١٨٧: «فقال المسلمون لكربوقا: ينبغي أن نقف على الباب فنقتل كل من يخرج فان أمرهم الآن وهم متفرقون سهل».

(٢) في ابن الأثير: «فلما رأى الفرنج ذلك ظنوه مكيدة إذ لم يجر قتال ينهزم من مثله وخافوا أن يتبعوهم».

(٣) في ابن القلانسي ١٣٦: «ووقع السيف في الرجال المتطوعين والمجاهدين والمغالبين في الرغبة في الجهاد وحماية المسلمين».

يومَ الأحد الثاني من شعبان من السّنة ، وأنزلوهُ في دارٍ بأنطاكية ، وأطلقوا || أصحابَهُ وسَيَّرُوا معهم مَنْ يُوصلهم إلى أعمال حلب ، فخرج الأرمنُ فأخذوا بعضَهم وقتلوا بعضم ، ولم يَسْلَمْ منهم إلا القليل . [١٢٢ و]

ولمَّا وصل كربوقا إلى حلب خرج إليه الملك رضوان ، وحمل له خيامًا وغيرها ، ورحل عنها . وعاد عسكرُ دمشق إليها وتفرّقت العساكر .

وبعد أيام مِن هذه الوقْعَة خرج جماعةٌ من الفرنج في شعبانَ ، وزحفوا مع أهل تلمنس وجميع نصارى بلد المعرّة على المعرّة وقاتلوها ، فوصلتْ قِطعةٌ من عسكر حلب إليهم ، فالتقَوْا بَيْنَ تل منس والمعرّة ، فانهزم الفرنج وبقي الرَّجالةُ منهم ، فقُتِلَ منهم زائدًا عن ألفِ رجل ، وحُمِلَتْ رؤوسهم إلى معرّة النّعمان .

ابن الموصول

وفي هذه السَّنة — وهي سنة إحدى وتسعين — في جُمادى الأولى عَزل الملك رضوان وزيره أبا النجم هبة الله بن محمد بن بديع ، وولّى وزارته أبا الفضل هبة الله بن عبدالقاهر بن الموصول . وكان أبو الفضل حسَن السّيرة جوادًا كثير المعروف والصَّدقات . ووافق ذلك شدة الغلاء والجوع بحلب ، حتّى أكلوا الميتات ، فأخرج غلّة كثيرة ، وتصدّق بها على النّاس .

وقيل : إنّه كان يخرج في كل سنة صدقة وبرًّا ثلاثة آلاف مكوك غلّة سوى ما يُطلقه لمن يسأله معونته من الوفود والضّيوف ، وغير ما يُطلقه من العَيْن والوَرِق ، وغير ما كان يعتمدُ مِن افتكاك الأسرى من المسلمين .

خبر المجن

وفيها قتل الملكُ رضوان رئيسَ حلب بركات بن فارس الفوعي المعروف بالمجنّ ، وكان هذا المجنُ أوّلًا من جُملة

اللّصوص الشُّطّار ‖ وَقُطّاع الطّريق الدُّعّـار فاستتابه قسيمُ الدّولة [١٢٢ظ] أق سنقر ، وولّاه رئاسة حلب لشهامته و كفايته ومعرفته بالمفسدين ، وكان في حال اللّصوصية يُصَلّي العشاء الآخرة بالفُوعة(١) ، ويَسري إلى حلبَ ويسرق منها شيئاً ويخرج ، وَيُصَلّي الفجرَ بالفُوعة فاذا اتهم بالسّرقة أحضر مَنْ يَشْهَدُ له أنّه صَلّى العِشاء بالفُوعة والصُبح فيبرئونه .

واستمرَّ على رئاسة حلب في أيامِ قَسِيم الدّولة وأيّام تاج الدّولة وبعده في أيّام رضوان ، وامتدّتْ يَدُه وحكم على القُضاة والوزراء ومَنْ دُونَهم ، وهو الّذي قتل الوزير أبا نصر بن النّحاس في أيام قَسِيم الدّولة .

وبلغني أنه حنق عليه بسَبَبِ حُصُرٍ أراد شراءها فاشتراها المجنّ فشقّ على أبي نصرٍ ، فَسَيَّرها المجنّ إليه ، فردَّها عليه أبو نصر ، وتكلّم في حقّه بكلامٍ قبيحٍ فحنق بسببها على ابن النَّحاس ، فاعتقله بعد ذلك عندَه وخَنَقَهُ .

وكانَ كثيرَ السِّعاية في قَتْل النُّفُوسِ وسَفْكِ الدِماء وَأَخذ الأموال وارتكاب الظُّلم ، فمَضَى عَلى الملك رضوان ، ثم ضعف واختفى بعد أن حصر رضوان في قلعة حلب في سنة تسعين وأربعمائة .

قتل المجن

فأمر رضوان منادياً نادى بالقلعة بأن الملك قد ولّى رئاسة حلب صاعد بن بَديع فانقلب الأَحداث عنـه

(١) في معجم البلدان ٣/٩٢٣ : « وهي قرية كبيرة من نواحي حلب واليها ينسب دير الفوعة » — وفي تقويم البلـدان لأبي الفداء ٢٣١ : « وهي وسرمين ومعرة مصرين في بقعة واحدة من أعمال حلب في جهة الجنوب على مرحلة منها ».

لبغضهم إيّاه ، ومضَوا إلى صاعِد فاختفى المجنّ ، ثم ظهر عليه فعجل الله المكافأة له على قبيح فعله .

وسلّط عليهِ الملك رضوان فسَجَنه في ذي القعدة من سنة تسعين وعذّبه || [١٢٣ و] عذاباً شديدًا بأنواع شتّى ، وأراد بذلك أن يستصفيَ ماله . فمّا عذّبه به أنّه أحمى الطسْتَ حتّى صار كالنّار ، ووضعه على رأسه ، ونَفَخ في دُبره بكير الحدّاد ، وثُقبت كعابه ، وضَرب فيها الرُّزز والحلَق .

ولمّا وضع النّجار المثقّب على كعبه قَطَع الجلد واللّحم ولم يَدُر المِثقب ، فلطَمه المجَنٌّ وقال : « ويلَكَ لا تعرف ! أحضر خشبةً وضَعْها علِى الكعب » . فأحضَر خشبةً ووضعَها على كعبه ، فدار المثقبُ ونَزل ونَزَل ، وثقب الكعب .

فلما فرغ قِيل له : « كيفَ تجد طعمَ الحديد ؟ » فقال : « قُولوا للحديد كيف يجِدُ طَعْمي » . ولم يُقرّ المجنّ مع هذا كلّه بدرهمٍ واحدٍ ، ولم يحصل للملك رضوان من ماله إلّا ما أقرّ به غلامٌ أَوْ جاريةٌ ، وذلك شيء يسير . واستغنى جماعة من أهل حلب من ماله .

ولما طال الأمر على رضوان أشير عليه بقَتْله ، فأخرج إلى ظاهر باب الفرج من نحو الشّرق ، ومعه ابنان له شابان مقتبلا الشباب ، فقُتِلا قبله[1] ، وهو ينظر إليهما ولا يتكلّم .

(١) ينفرد ابن العديم بتفصيل حكاية المجن الفوعي – وفي ابن القلانسي ١٣٥ : «سنة ٤٩٠ هـ – وفي هذه السنة وردت الأخبار من ناحية حلب بفساد حال رئيسها والمعروف بالمجن لما كان عليه من التمكن والغلبة على الأمر وارتكاب الظلم بحيث قُبض عليه ونهبت داره ، وقتل مع من قتل من أولاده ، واستؤصلت شأفته . وذلك مجازاة الساعي في قتل النفوس

ثم قتل بعد ذلك في سنة إحدى وتسعين. وسلمت رئاسة حلب إلى صاعد بن بديع. ولما قُدم المجنّ للقَتْل صاحَ بصَوْتٍ عالٍ: «يا مَعْشَر أهل حلب، مَنْ كان لي عنده مَالٌ، فهُوَ فِي حِلٍّ منه».

وكان ابنُ بديع من أولاد الدَّيْلَم الّذين كانوا في أيام سَيف الدَّولة، وولد أبوه بحلب.

هروب صنجيل

وفي سنة إحدى وتسعين وأربعمائة عَصَى عُمر والي عَزاز على الملك رضوان فَخَرَج عسكر حلب وحَصَره، فاستنجد بالفرنج، فوصل صَنجيل بعسكرٍ كبيرٍ، فعادَ عَسْكَرُ حلب فنهب صنجيل ما قدر عليه وعاد إلى أنطاكية، وأخذ ابنَ عُمَرَ [١٢٣ظ] رهينةً، فمات عنده؛ فوقع الملك رضوان على عُمر إلى أن أخذه من تلّ هرَاق[1] فسلّم إليه عَزاز وأقام عنده بحلب مدّةً، ثم قتله.

وخرج صنجيل في ذي الحجّة، وحصر البارة فقلّ الماء فأخذها بالأمان، وغَدَر بأهلها، وعاقب الرّجال والنّساء، واستصفى أموالهم وسبي بعضاً وقتل بعضاً، ثم خرج بقيّة الفرنج من أنطاكية والأرمن الّذين في طاعتهم والنّصارى، وانضموا إليه، ووصلوا إلى معرّة النّعمان لليلتين بقيتا من ذي الحجة في مائة ألف.

وسفك الدماء.» — ويحسن أن نوازنها بما جاء في بغية الطلب عن العظيمي ٩٢/٨ و، في أثناء ترجمته لرضوان بن تتش قال: «أنبأنا المؤيد بن محمد بن عليّ الطوسي عن أبي عبدالله محمد ابن عليّ العظيمي قال: وفيها يعني سنة تسعين وأربعمائة عصى المجن الموفّق على الملك رضوان وتعصّب معه الحلبيون ثم تخاذلوا عنه، واختفى فقبض عليه الملك رضوان وعلى ذويه وبنيه واستصفى أمواله في ذي القعدة وعذّبهم بأنواع العذاب ثم قتله بعد ذلك وقتلهم حوله».

(١) في معجم البلدان لياقوت ٨٧٢/١: «تلّ هرَاق — من حصون حلب الغربية».

معرّة النعمان

وحصروا معرّة النُّعمان في سنة اثنتين وتسعين، وقطعوا الأشجار، واستغاث أهلها بالملك رضوان وجناح الدولة فلم ينجدهم أحد.

وعمل الفرنج بُرجًا من خشبٍ يحكم على السّور وزحفوا إلى البلد، وقاتلوه من جميع نواحيه حتى لصق البُرج بالسّور فكشفوه وأسندوا السُّلالم إلى السّور وثبتَ النَّاس في الحرب من الفجر إلى صلاة المغرب، وقُتِل على السُّور وتحته خلقٌ كثير، ودخلوا البلد بعد المغرب ليلة الأحد الرّابع والعشرين من محرّم سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة[1].

ودخل عسكر الفرنج جميعُه إلى البلد، وانهزم بعضُ النّاس إلى دورٍ حصينةٍ، وطلبوا الأمان من الفرنج فأمّنوهم، وقطعوا على كل دار قطيعة[2]، واقتسموا الدُّورَ، وهجموها وناموا فيها، وجعلوا يهدّثون النّاس حتّى أصبح الصبحُ، فاخترطوا سيوفَهم، ومالوا على النّاس، وقتلوا منهم خلقاً؛ وسبوا النّساء والصّبيان.

وقُتل فيها أكثر من عشرين ألف رجل وامرأةٍ وصبيّ[3]، ولم

(١) في ابن القلانسي ١٣٦: «في المحرم منها زحف الافرنج الى سور معرة النعمان من الناحية الشرقية والشمالية، وأسندوا البرج إلى سورها وهو أعلى منه فكشفوا المسلمين عن السور. ولم يزل الحرب عليه إلى وقت المغرب من اليوم الرابع عشر من محرّم، وصعدوا السور، وانكشف أهل البلد عنه». — انظر رواية ابن الأثير ١٨٧/٨

(٢) في ابن القلانسي: «وانهزم الناس إلى دور المعرّة للاحتماء بها، فأمنهم الافرنج وغدروا بهم، ورفعوا الصلبان فوق البلد، وقطعوا على أهل البلد القطائع ولم يفوا بشيء مما قرروه، ونهبوا ما وجدوه، وطالبوا الناس بما لا طاقة لهم به».

(٣) في ابن الأثير ١٨٧/٨: «فقتلوا ما يزيد على مائة ألف، وسبوا السبي الكثير وملكوه، وأقاموا أربعين يوماً».

يسلم || إلّا القليل مِمّن كان في شَيْزر وغيرها من بني سُليمان وبني أبي حُصين وغيرهم ، وقتلوا تحت العُقوبة جمعًا كثيرًا ، فاستخرجوا ذخائرَ النّاس ، ومنعوا النّاس مِن الماء ، وباعوه مِنهم فهلك أكثر النّاس مِن العطَش ، وملكوها ثلاثةً وثلاثين يوماً بعد المجمعةِ ، ولم يُبقوا ذخيرةً بها إلّا استخرجُوها . [١٢٩ و]

وهدَموا سورَ البَلَد وأحرقوا مساجدَه ودُورَه وكسروا المَنابِرَ .

وعاد بيمند إلى أنطاكية وقمص الرّها إليها . وفي هذه السّنة فتحوا بيتَ المقدس وفعلوا فيها كما فعلوا بالمعرّة[1] .

نهاية مبارك

وفي سنة ثلاث وتسعين ، وَصل مُبارك بن شبل أمير بَني كلاب في جمع كثير مِن العرب فحالف الملك رضوان ، وزرعوا زَرع المعرّة ، وكفرطاب ، وحماة ، وشيزر ، والجسر ، وغيرَ ذلك .

وخلَتِ البلادُ ، ووقع الغَلاء في بلد حلب ، ولم يزرع شيء في بلدها ، وسلّط الله الوباء على العَرب ، فمات شبلٌ ومُباركٌ ولده ؛ واضمحلت دولة العرب .

حصار حلب

وتوجّه الملك رضوان في سَلخ رجب من هذه السّنة إلى الأثارب وأقام عليها أياماً ، وتوجّه إلى « كلّا »[2] في

(١) في ابن القلانسي ١٣٦ : « ثم قصدوا بعد ذلك ناحية بيت المقدس آخر رجب من السنة ، وأجفل الناس منهم من أماكنهم ، ونزلوا أولًا على الرملة فملكوها عند ادراك الغلة ، وانتقلوا إلى بيت المقدس فقاتلوا أهله وضيقوا عليهم ونصبوا عليه البرج واسندوا إلى السور » – انظر تفصيل الخبر في ابن الأثير ١٨٩/٨

(٢) كلّا – لم نقع على تحديد لموقعها .

الخامس والعشرين من شعبان لإخراج الفرنج منها ، فاجتمع مَن كان في الجزر[1] وزردنا[2] وسَرمين مِن الفرنج والتقَوا ، فانهزم رضوان[3] ، واستبيح عسكرُه ، وقُتل خلقٌ كثيرٌ وأُسر قريبٌ مِن خمسمائة نفسٍ وفيهم بعضُ الأمراء .

وعاد الفرنج إلى الجزر وأخذوا برج كفرطاب[4] وبُرج الحاضر ، وصار لهم من كفرطاب إلى الحاضر ، ومن حَلب غرباً سوى قلّ منس فإنّ أصحابَ جناح الدّولة كانوا بها .

وسار رضوان عقيبَ هذه النّكبة إلى ‖ حِمصَ مُستَنجداً بجناح الدّولة فأجابه ، وعاد إلى حلب ومعه جناح الدّولة ، وقد عاد الفرنج إلى أنطاكية ، فأقام جناح الدّولة بظاهر حلب أياماً ، فلم يلتفت إليه رضوان فعاد عنه إلى حمص . [١٢٤ظ]

وتجمّع الفرنج بالجزر وسَرمين وأعمال حلب وجمعوا العُدَد والغِلال لِحصَار حلب ، وعوّلوا على حصارها في سنة خمس وتسعين ، وقيل قبلها .

ووصل بيمند وطنكريد إلى قرب حلب فنزلوا المُشرفة ـــ من الجانب القبليّ على نَهر قُوَيق ـــ لما بلغَهم مِن ضَعف رضوان وتمزيق عسكره ، وعزموا أن يبنوا مَشهد الجفّ ، ومَشهد الدّكّة ، ومشهد قرنيبا حصوناً ، وأن يُقيموا على حلب ويستغلوا بلدَها .

---

(١) الجزر – كورة من كور حلب – انظر معجم البلدان لياقوت ٧١/٢

(٢) في معجم البلدان لياقوت ٩٢٦/٢ : « زَرْدنا – بليدة من نواحي حلب الغربية » .

(٣) في تاريخ العظيمي ١٩١ و : « كسرت الفرنج الملك رضوان على كلّا في شعبان » .

(٤) في الأصل : « كفر حلب » ، وهي مصحّفة عن « كفرطاب » كما يدل السّياق على ذلك .

فأقاموا في تدبير ذلك يوماً أو يومين فبلغه خروج أنوشتكين الدانشمند ، وأنه قد نازل بعض معاقل الفرنج ، وهي ملطية[1] فعادوا للدفع عنها .

هزيمة الفرنج

فخرج الدانشمند فلقي بيمند وجمعاً من الفرنج بأرض مرعش[2] فأسره ، وقتل عسكره ، ولم يُفلت منهم أحدٌ ، فخيّب الله ظنّ الفرنج ، وهربوا من أعمال حلب ، وتركوا جميع ما كانوا أعدّوه ، فخرج رضوان وأخذ الغلال التي جمعوها ، ونزل سرمين .

وسار جناح الدولة إلى أسفونا وبه جماعةٌ من الفرنج فهجمه وقتل جميع من فيه ، وسار إلى سرمين فكبس عسكر الملك رضوان ونهبه ؛ وانهزم رضوان وأكثر عسكره وأسر الوزير أبا الفضل بن الموصول وجماعةً وحملهم إلى حمص .

الباطنية

وطلب الحكيم المنجّم الباطني فلم يظفر به ، وكان هذا الحكيم قد أفسد ما بينه وبين رضوان [١٢٥ و] واستمال رضوان إلى الباطنية جداً ، وظهر مذهبهم[3] في حلب ، وشايعهم رضوان وحفظ جانبهم ، وصار لهم بحلب الجاهُ العظيم والقُدرة الزائدة ، وصارت لهم دارُ الدعوة بحلب في أيامه ، وكاتبه الملوك في أمرهم ، فلم يلتفتْ ولم يرجع عنهم ؛ فوصل هذا الحكيمُ حلبَ سالماً في جملة من سَلِم في هذه الوقعة .

(١) ملطية — تقع غربي الفرات ، على مسيرة أيام من الشمال الشرقي لحلب — انظر معجم البلدان لياقوت ٦٣٣/٦ وهي بالأعجمية : « Mélitène » .

(٢) مرعش : مدينة بالثغور بين الشام والبلاد الرومية — انظر ابن الشحنة ١٩١ وما يرويه من تفصيل عن بنائها .

(٣) انظر في تفصيل أخبار الباطنية ابن الأثير ٨ / ٢٠٠ — ٢٠٦

واستغلَّ جناحُ الدَّولة سرمينَ ومعرَّة النُّعمان وكفرطاب وحماة، وفدى الوزير ابن الموصول نفسَهُ مِنْ جناح الدَّولة بأربعة آلاف دينار، وفدى أصحاب الملك نُفوسَهم أيضاً بمالٍ حملوهُ إليه.

ولم يبقَ في أيدي المُسلمين في سنة خمس وتسعين إلّا حصن بَسَرْفُوث[1] — من عمل بني عليم —

وتسلَّم دُقاق الرَّحبة في سنة ستّ وتسعين وأربعمائة، وكان المُقيم بها زوج آمنة بنت قيماز[2]، وكان قيماز من أصحاب كربوقا فماتَ، وكانت الرَّحبة له. وكان جناح الدَّولة قد خرج إليها فوجد الأمر قد فات، فعادَ ونزل النّقرة وخرج إليه رضوان إلى النّقرة واصطلحا، وأخذه معه إلى ظاهر حلب، وضرب له خياماً، وأقام في ضيافته عشرة أيام، ولم يصفُ قلب أحدٍ منهما لصاحبه.

مقتل جناح الدولة

وسار جناح الدَّولة إلى حمص فسيَّر الحكيم المنجِّم الباطنيّ ثلاثة أعجام من البَاطِنيَّة فاغتالوه، وقد نزل[3] يوم الجمعة الثّاني والعشرين من شهر رجب، لصلاة الجمعة فقتلوه، وقتلوا بعضَ أصحابه وقُتلوا. وقيل: إنَّ ذلك كان بأمر رضوان ورضاه.

---

(١) في معجم البلدان لياقوت ٦٢١/١ : « بَسَرْفُوث : حصن من أعمال حلب في جبال بني عُليم، له ذكر في فتوح الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي، وقد خرب. وهو الآن قرية ؛ وهو بالتحريك وسكون الراء وضم الفاء وسكون الواو والثاء المثلثة ».

(٢) قايماز من مماليك ألب أرسلان — انظر ابن الأثير ٢١٨/٨

(٣) في ابن القلانسي ١٤٣ : « نزل من القلعة إلى الجامع لصلاة الجمعة وحوله خواص أصحابه بالسلاح التام، فلما حصل بموضع مصلّاه على رسمه، وثب عليه ثلثة نفر عجم من الباطنية ومعهم شيخ يدعون له ويسمونه في زيّ الزهاد، فوعدهم فضربوه بسكاكينهم وقتلوه، وقتلوا معه جماعة من أصحابه، وكان في الجامع عشرة نفر من متصوفة العجم وغيرهم فاتهموا، وقتلوا جبرًا مظلومين في الوقت عن آخرهم ».

وبقي المنجّم الباطنيّ بعده أربعة وعشرين يوماً[١] ومات. وقام بَعْدَهُ بأمرِ الدّعوة ‖ الباطنيّة بحلب رفيقه أبو طاهر الصّائغ العجميّ. [١٢٥ظ]

ووَصل صنجيل الفرنجي وتَرك حمص بَعْد قتل جناح الدّولة بثلاثة أيام[٢]، فسَيّرت زَوجتُه خاتون أمّ الملك رضوان تستدعيه لتسلّم إليه حمص ويدفع الفرنج، فكَرِهَ المقدّمُون ذَلك، وخافوا منه لسُوء رأيه فيهم، وسيّروا إلى بَوّاب دُقاق إلى دمشق، وكان دُقاق بالرّحبة فسار أيتكين الحلبي من دمشق ودخلها وطلع القَلعة.

ووصل رضوان إلى القُبّة فبلغه الخَبَر وعاد وَرَحل صنجيل عَنْها بعد أن قرّر عليهم مالًا، ووصل دُقاق فتسلّم حمص وأحسَن إلى أهلها ونَقل أهل جناح الدّولة وأولاده إلى دمشق، وسلم حمص إلى طغتكين.

دخول حلب

وسارَ والي عَزاز وأغار على الجُومة[٣] – وهي من عَمل أنطاكية – فخرج عسكر أنطاكية وعسكر الرُّها فنزلوا المسلميّة[٤]، وقتلوا بعضَ أهلها، وقطعوا على عدّة مواضع قطائع أخذوها، وأقامُوا ببلَد حلب أيّاماً، وراسلوا الملكَ رضوان.

(١) في ابن القلانسي ١٤٣ : « وهو الذي ندب الثلاثة النفر لقتل جناح الدولة بحمص، وورد الخبر بهلاكه بعد الحادثة بأربعة عشر يوماً ».

(٢) في ابن القلانسي ١٤٣ : « ووافق ذلك وصول الافرنج إليها، ونزولهم على الرستن لمضايقتها ومنازلتها، فحين عرفوا ذلك أحجموا عن القرب إليها والدنوّ منها ورحلوا عنها ».

(٣) الجومة – بالضم – من نواحي حلب بالقرب من العمق – انظر معجم البلدان ١٥٩/٢، وارجع الى دوسو ٢٢٣، وكانار ٦٢ حيث يحدّد أنها في منطقة نهر عفرين أحد فروع نهر العاصي وهي تمتد حتى سهل العمق من الشمال الغربي لأنطاكية.

(٤) قرية على طريق حلب تبعد عنها أحد عشر كيلومترًا.

واستقرّ الحال علی سَبعةِ آلاف دينارٍ وعشرة رُؤوس من الخَيل ، ويُطلقون الأسرى ما خلا مَنْ أسَرُوه علي المسلمية من الأمراء، وذلك في سنة ستّ وتسعين .

ثم خرج الفرنج من تلّ باشِر[1] ، وأغاروا على بلد حلب الشمالي والشّرقي ، وأحرقوه ، وتكرّر ذلك منهم ، ونزلوا على حصن بَسَرْفُوث ، وفتحوه بالأمان ، ووصلوا إلى كفرلاثا[2] ، فكبسهم بنو عُلَيم فانهزموا إلى بَسَرْفُوث .

[١٢٦ و] ووقع بين الفرنج وبين سكمان وجكرمش[3] وقعة || عظيمة استظهر فيها المسلمون ، وهلك الفرنج ، وأسر القُمص ، وغنم المسلمون غنيمةً عظيمةً .

نصر رضوان

وكان الملكُ رضوان قد سار إلى الفُرات ينتظر ما يكون من خبر الفرنج ، فلما وصله الخبر أنفذ الى الجَزر وغيره من أعمال حلب الّتي في أيدي الفرنج ، فأمرهم بالقبض على مَن عندهم من الفرنج ، فوثب أهل الفُوعة[4] وسَرْمين ، ومعرّة مصرين وغيرها ، ففعلوا ذلك .

---

(١) في معجم البلدان لياقوت ١/٨٦٤ : « تلّ باشِر – الشين معجمة – قلعة حصينة وكورة واسعة في شمالي حلب بينها وبين حلب يومان ، وأهلها نصارى أرمن ، ولها ربض وأسواق ، وهي عامرة آهلة . »

(٢) في معجم البلدان لياقوت ٤/٢٩١ : « كَفَرْلاثا – بالثاء المثلثة والقصر : بلدة ذات جامع ومنبر في سفح جبل عاملة من نواحي حلب بينها يوم واحد وهي ذات بساتين ومياه جارية نزهة طيبة وأهلها اسماعيلية » – وهي في جبل أريحا ما تزال قريتها قائمة إلى اليوم وكانت مدينة حصينة .

(٣) هو شمس الدولة جكرمش صاحب جزيرة ابن عمر – انظر ابن الأثير ٨ / ٢١٠ ؛ وأما سكمان فهو معين الدولة بن أرتق .

(٤) الفوعة : قرية كبيرة من نواحي حلب واليها ينسب دير الفوعة – انظر معجم

وطلب بَعْض الفرنج الأَمانَ مِنْ رضوان فأمّنهم من القتْل ، وحملهم أسْرى ، ولَمْ يبقَ بأيدي الفرنج غير الجبل و«هَاب»[١] ، وحُصُون المعرّة ، وكفرطاب ، وصوران[٢] .

فوصل شَمسُ الخَواصّ وفتح صورَان ، فهرب مَن كان بِلَطْمِين وكفرطَاب وبلد المعرّة والبارة إلى أنطاكية ، وسلّموهـا إلى رضوان وأصحابه ما خَلا «هَاب» .

واسترجَع رضوان بالِسَ والفايا مِمَّن كان بهما مِن أصحاب جناح الدّولة وَجَرَى بحماة خُلفٌ ، وخـافوا من شمس الخَواص ، فكاتبُوا رضوَان ، وسلَّموها إليه وسَلمية ، فأمنتْ أعمالُ حلب وتَراجَعَ أهلها إليها وَقَوِيَ جأشُ رضوان .

واتّصلتْ غارات عسكر حَلَب إلى بلد أنطاكية ، وَعَرف بيمند[٣] ضعفَه عن حفظ البلد ، وانّه لَمْ يُفلِتْ مِنْ وقعـة سكمان إلا في نفر قليل ، وخاف من المسلمين[٤] فصَار إلى بلادِهِ في البحر يستنجـد بمن يخرج بهم إلى البلاد ، واستخلفَ ابنَ أختـه[٥] طنكريد يُدبّر أمرَ أنطاكية والرّها .

البلدان لياقوت ٣/٩٢٣ ؛ وذكرها أبو الفداء في تقويم البلدان ٢٣١ : « وهي ومرمين ومعرة مصرين في بقعة واحدة من أعمال حلب في جهة الجنوب على مرحلة منها ، ولهذه البقعة الأشجار الكثيرة من الزيتون والتين وغير ذلك » .

(١) في معجم البلدان لياقوت ٤/٩٤٥ : « هاب : قلعة عظيمة من العواصم » .

(٢) صَورَان – ذكرها ياقوت في معجم البلدان ٣/٤٣٣ ، وضبطها بالفتح ثم بالتشديد وقال إنّها علم مرتجل فوصفها مرة في كورة حمص وقال انها جبل وقال مرة أخرى إنها قرب دابق .

(٣) في الأصل : « بيمند » وهو بيمند – انظر الصفحات السابقة Boémond .

(٤) انظر خبر هذه المعركة في ابن الأثير ٨/٢٢٢

(٥) في الأصل : « ابن أخيه » – وصحيحه : « ابن أخته » .

موت دقاق

وَمَاتَ الملكُ دُقاق سَنة سَبْع وتسعين في رَمضان، وأوصى بالملك لولدٍ له صغير[1] اسمــه تُتُش، وجعل التدبير إلى أتابك || [١٢٦ظ] طغتـكين، فتوجّه الملكُ رضوان نحوَ دمشق، وَحَاصرهـا، وقرّر له الخُطْبَة والسكّة، فلم تستتبّ أموره وعاد إلى حلب.

هرب الفرنج والمسلمين

ثم إنّه خرج في شهر رجب من سنة ثمان وتسعين، وجمع خَلقًا كثيرًا، وعزم على قَصْد طرابلس مَعُونةً لفخر المُلك بن عمّار على الفرنج النّازلينَ عليه.

وكان الأرمن الّذين في حصن أرتاح قد سَلّمُوه إلى الملك رضوان لجوْر الأفرنج[2]، فخرج طنكريد من أنطاكية لاستعـادة أرتاح، وَخَرَج جميعُ مَنْ في أعماله من الفرنج مَعَه، ونزل عليها، فتوجّه نحوه رضوان في عساكره وجموعه وجميع من أمكنه من عمـل حلب والأحداث.

فَلَمَّا تَقَاربا نشبَتِ الحربُ بَيْن الفَريقين فثبت راجـلُ المُسلمين وانهزمتِ الخَيل، ووقعَ القَتْل في الرجالةِ فلم يسلم منهم إلّا من كتب

(١) في ابن الأثير ٨ / ٢٢٢ : « في هذه السنة في شهر رمضان، توفي الملك دقاق بن تتش ابن ألب أرسلان صاحب دمشق، وخطب أتابكهُ طغتكين لولد له صغير له سنة واحدة وجعل اسم المملكة فيه » — وفي مرآة الزمان ٨ / ١١ : « وتوفي اليوم الثاني والعشرين من رمضان، ودفن على الشرف الشمالي بدمشق بالخانكاه التي يقال لها قبة الطواويس » — وفي ابن القلانسي ١١٤ : « وتوفي إلى رحمة الله في اليوم الثاني عشر من شهر رمضان من السنة ».

(٢) في ابن القلانسي ١٤٨، ما يقرب من هذا اللفظ نثبت نصّه هنا للموازنة بينهما : « وفي رجب خرج فخر الملوك رضوان صاحب حلب وجمع خلقًا كثيرًا وعزم على قصـد طرابلس لمعونة فخر الملك ابن عمّار على الافرنج النازلين عليه، وكان الأرمن الذين في حصن أرتاح قد سلموا إليه الحصن لما شملهم من جور الافرنج وتزايد ظلمهم . . . » وهكذا نجد أن ابن العديم قد أخذ من ابن القلانسي أو أنهما استقيا من مصدر واحد؛ فهما يتفقان في هذا الخبر كله حتى نهايته.

الله سلامته ، ووصل الفَلُّ إلى حلب ، وقتلَ من المسلمين مقدار ثلاثة آلاف ما بين فارس وراجل ، وهرب من بأرتاح من المسلمين(١) .

وقصد الفرنج بلد حلب فأجفل أهله ، ونهب من نهب وسبي من سبي ، وذلك في الثالث من شعبان .

واضطربت أحوال بلد حلب من لَيْلُون إلى شَيْزر(٢) ، وتبدّل الخوف بَعْد الأمنِ والسّكون، وهَرَب أهلُ الجزر ولَيْلون إلى حلب ، فأدركهم خيلُ الفرنج فسَبوا أكثرهم ، وقتلوا جماعة .

وكانتْ هذه النَّكبَةُ على أعمال حلب أعظمَ من النَّكبَةِ الأولى على كَلّا .

ونَزَل طنكريد على تلّ اغدي — مِنْ عمل لَيْلُون — وأخذه وأخذَ بقيّة الحصون الّتي في عمل حلب .

[١٢٧ و] ‖ ولم يبق في يد الملك رضوان من الأعمال القبلية إلّا حماة وَمِن الغربيّة إلّا الأثارب ، والشّرقية والشّمالية في يده ، وهي غير آمنة .

الصائغ الباطنيّ

وسَيَّر أبو طاهر الصَّائغ الباطني(٣) جماعةً من الباطنيّة من أهل سَرمين إلى خَلَف بْنِ مُلَاعِب بتدبير رجلٍ يُعرف بأبي الفتح السَّرميني(٤) ، من دعاة الاسماعيلية ، فقتلوه

(١) في ابن القلانسي ، بالصفحة نفسها : « وأحصي المفقود من الخيل والرجل فكان تقدير ثلاثة آلاف نفس » .

(٢) في ابن القلانسي : « واضطربت أحوال من بالشام بعد الأمن والسكون » .

(٣) في ابن القلانسي ١٤٩ : « المعروف بأبي طاهر الصائغ العجميّ من حلب ، وهو الذي قام للباطنية مقام الحكيم المنجّم الباطنيّ بعد هلاكه » .

(٤) في ابن القلانسي ، بالصفحة نفسها : « بموافقة رجل من دعاتهم يعرف بأبي الفتح السرميني كان مقيماً بأفامية » .

ووافقهم جماعة من أهل أفامية ، ونقبوا سورَ الحصن ، ودخلوا منه ، وطَلَع بعضهم إلى القلّة فأحسَّ بهم ، فخَرجَ فَطَعَنَــهُ أحدهُم بخشت[١] فرَمى بِنَفْسِهِ ، فطعِنَ أُخرى فَمَات ؛ ونادَوْا بِشِعَار الملك رضوان .

ووصل أبو طاهر الصَّائغ إلى الحصن عقيب ذلك وأقام به ، وسار طنكريد[٢] إلى أفامية ، فقطع عليها مالًا أخذه ، وعاد فوصله مصبح ابن خَلَف بن ملاعب وبعض أصحابه ، فأطمعوه في أفامية ، فعــاد وَنَزلها ، وحاصرها فتسلَّمها في الثَّالث عشر مِنْ مُحرّم من سنة خمسمائة بالأمان[٣] .

وقَتَل أبا الفتح السَّرميني بالعقوبة ، ولَمْ يَفِ لأبي طاهر الصَّائغ بالأمان ، وحمله معه أسيرًا فاشترى نفسه بمال ، ودخل حلب[٤] .

وفي سَنَةِ إحدى وخَمسمائة ، عصى ختلع[٥] بقلعَةِ عَزَاز ، واستقرّ

---

(١) في المصدر السابق : « فوثب اليه بعضهم فطعنه في جوفه فرمى بنفسه في القلّة يريد بعض دور أهله فطعنه آخر طعنة ثانية فعاش ساعة ومات ، وصاح الصائح على القلّة ، ونادوا بشعار الملك رضوان » .

(٢) في المصدر عينه : « ووصل طنكري إلى أفامية عقيب هذه الكائنة طامعًا فيها ومعه أخ كان لأبي الفتح الداعي السرميني كان مأسورًا في يده فقرر له شيئًا دفعه إليه فرحل عنه » – انظر تفصيل الخبر في ابن الصائغ عند ابن الأثير ٨ / ٢٣٦

(٣) في ابن القلانسي : « فنهض اليها ونزل عليها وضايقها إلى أن تسلّمها بالأمان في الثالث عشر من المحرم سنة ٥٠٠ » .

(٤) في المصدر نفسه : « فلما حصل أبو الفتح السرميني الباطني في يده قتله بالعقوبة ، وحمل أبا طاهر الصائغ ... وأصحابه أسرى ، ولم يف لهم بما بذل من الأمان وكان الفوت قد نفذ من أفامية ولم تزل الأسرى في يده إلى أن فدوا نفوسهم بمال بذلوه لهم فأطلقهم ووصلوا إلى حلب » .

(٥) في الأصل : « ختلع » ومعناها في اللغة التركية السعيد ، ولعلها « خطلغ » فليس في التركية إلّا « قطلغ » وهي قريبة مما رسمناه .

أن يُسلِّمها إلى طنكريد ، ويعوِّضهُ عنها موضعاً غيرها، فسار رضوان إليها فتسلم عَزاز منهُ .

وَبَلَغ رضوان، في سنة إحدى وخمسمائة ، ما ذُكر به من مشايعة الباطنيَّة ، وأنه لُعِن بذلك في مجلس السُّلطان مُحمَّد بن ملكشاه ، فأمر أبا الغنائم ابن أخي أبي الفتح الباطنيّ الّذي [١٢٧ظ] عَمِل في قتل ابن مُلاعب ما دبّر الخروج من حلب فيمن معه، فانسلّ وخرج بجماعة من أصحابه بعد أن قُتل أفرادٌ منهم .

وفي سنة إحدى ــ وقيل : اثنتين ــ وخمسمائة اجتمع جَاولي سقَّاوه[1] وجوسلين الفرنجي ، على حرب طنكريد صاحب أنطاكية؛ واستنجد طنكريد بالملك رضوان، فأمدّه بعسكر حلب[2] والتقوا، فقُتِلَ من الفرنج جماعة .

وَوَصل إلى جَاوَلي مَنْ أخبره أنَّ الفرنج يريدون الاجتماع عليه فمال على أصحابه من الفرنج وقتل فيهم ، وهرب[3] بعد أن قتلهم عن آخرهم وهلك جميع رجّالة طنكريد وأكثر خيله .

موت بيمند

وعاد إلى أنطاكية وعاد عسكر حلب إلى رضوان، فتسلّم بالس من أصحاب جاوَلي ، وخرج بيمند من بلاده ومعه

(١) ابن الأثير برسمه : « جاولي سقاوو »

(٢) في ابن الأثير ٨ / ٢٥٥ : « فأرسل إليه رضوان ستمائة فارس » .

(٣) في ابن الأثير ، بالصفحة نفسها : « وحملت ميسرة جاولي على رجالة صاحب أنطاكية فقتلت منهم خلقاً كثيراً ، ولم يبق غير هزيمة صاحب أنطاكية فحينئذ عمد أصحاب جاولي إلى جنائب القمص وجوسلين وغيرهما من الفرنج فركبوها وانهزموا ، فمضى جاولي وراءهم فلم يرجعوا ، وكانت طاعته قد زالت عنهم حين أخذت الموصل منه ، فلما رأى أنهم لا يعودون معه أهمه نفسه وخاف من المقام فانهزم وانهزم باقي عسكره » .

خلقٌ عظيمٌ ، ثُمَّ عاد وتُوفّي سنــة أربع وخمسمائة ، وكُفي المُسلمون شرّه .

وفي سنة ثلاث وخمسمائـة ، كاتب السُّلطانُ الأميرَ سكمان القطبي[١] صاحب أرمينية ومودود صاحب الموصل ، يأمرهما بالمسير إلى جهاد الفرنج ، فجمعا وسارا ، ووصل إليهما نجمُ الدّين إيلغازي بن أرتق في خلق كثيرٍ من التركمان ، فرَحلوا إلى الرّها فنَزَلوا عليها[٢] وأحدقُوا بها في شوّال من هذه السَّنة .

فاتّفق الفرنج كلّهم ، وأزالوا ما كان بينهم من الشَّحنـاء ، وكان المسلمون في جمعٍ عظيمٍ ، فتصافى طنكريـد وبغدوين وابن صنجيل بعد النّفار[٣] ، وقصدوا إنجادَ مَنْ بها مِن الفرنج ، وأحجموا عن العبور إلى الجانب الجزري لكثرة مَن به مِنْ عساكر المسلمين[٤] .

فاندفع المُسلمون عن الرّها إلى حرّان ليعبر الفرنج ويتمكنوا

---

(١) في ابن القلانسي ١٦٩ : « وفيها كاتب السلطان غياث الدنيا والدين الأمير سكمان القطبيّ صاحب أرمينية وميافارقين وشرف الدين مودود صاحب الموصل يأمرهما بالمسير في العساكر إلى جهاد الافرنج وحماية بلاد الموصل » .

(٢) في الأصل : « فنزلوا على الرها فنزلوا بها » وقد رأينا في الجملة اضطراباً لم نعهده في أسلوب ابن العديم ، فهو لا يكرر كلمة قريبة على هذا الوجه، لذلك جعلناها : « فرحلوا إلى الرها فنزلوا عليها »– وقد تابعنا ابن القلانسي ١٦٩ حين يقول : « فرحلوا بأسرهم ونزلوا عليها في العشر الثاني من شوّال وأحاطوا بها من جهاتها كالنطاق » – ولا علينا حين نفعل ذلك لأن ابن العديم ينقل عن ابن القلانسي ، ولا شك في أن ما وقع تحريف من الناسخ .

(٣) في ابن القلانسي ١٦٩ : « واجتمع طنكري صاحب أنطاكية وابن صنجيل صاحب طرابلس والملك بغدوين مقدّمو وُلاة الأعمال من الافرنج وتعاهدوا وتعاقدوا على الثبات في الحرب والمصابرة واللِّباث . »

(٤) في ابن القلانسي ، بالصفحة المذكورة : « قد أحجموا عن العبور لتفرّق سرايا العساكر الاسلامية وطلائعهم في سائر الجهات والمسالك إلى الفرات » .

منهم[١] ، || وَوَصلهم عَسكر دمشق . [١٢٨ و]

هزيمة الفرنج

فحين عبر الفرنج وَبَلَغَهم خَبَرُ المُسْلِمِينَ عادوا ناكصين على الأعْقَاب إلى شاطئ الفُرات ، فنهض المُسلمون في أثرهم ، وأدركتهم خيول الإسلام ، وقد عبر الأجلادُ مِنهم[٢] ، فغنم المُسلمون جُلَّ سَوَادِهِم وأكثرَ أثقالهم ، واستباحوهم قتلاً وأسراً وتغريقاً في الماء ، وأقام المُسلمون بإزائهم على الفرات .

ولما عَرف الملكُ رضوان هزيمة الفرنج عن الرّها خرج ليتسلّم أعمالَ حلب الّتي كانت في أيدي الفرنج ، وقَاتَل ما امتنعَ عَلَيْهِ منها ، وأغار على بلد أنطاكية وغَنِم منها ما يجلّ قَدْرُه ، وكان بينه وبينهم مهادنَةٌ نَقَضَها .

وكاتب الفرنجُ رضوان يُوهِنُونَ رأيَه في نقض الهُدنة ، فلمّا تحقّق سلامة طنكريد وعَوْدَهُ رَجع إلى حلب[٣] .

وعاد الفرنجُ مِن الفُرات فقصدوا بلد حلب من شرقيّها ، فقتلوا مَنْ وَجَدُوا ، وسَبَوْا أهل النّقرة ، وأخذوا ما قدروا عليه من المواشي .

وهَرَبَ النّاسُ نحو بالس ، وعاد طنكريد ، فنزل على الأثارب ، وطيّب قلوبَ الفلّاحين مِن المسلمين ، وأمّنَهم ، ونَصَب على الأثارب

---

(١) في المصدر المذكور : « ليتمكنوا من لقائهم في الفضاء من شرقي الفرات ، ورحلوا عن الرّها في آخر ذي الحجة منها ونزلوا أرض حرّان على سبيل الخديعة والمكر » .

(٢) في ابن القلانسي ١٧٠ : « وفطن الافرنج لهذا التدبير والاتفاق عليه ، فخافوا واستشعروا الهلاك والخذلان وأجفلوا ناكصين على الأعقاب إلى شاطئ الفرات ، وبلغ المسلمين خبرهم فنهضوا في إثرهم وأدركهم سرعات الخيل وقد قطع الفرات بعضهم من مقدّميهم » .

(٣) انظر خبر ذلك في ابن القلانسي ١٧٠

المناجيق وكبشاً عظيماً ينطح به شرفات الأسوار فيلقيها، فخرب أسوارها وكان يسمع نطحه مِنْ مَسيرة نِصف فرسخ.

صلح رضوان

وبذل رضوانُ لطنكريد في الموضع عشرين ألف دينار على أن يَرْحل[1] فامتنع، وقال: «قد خسرتُ ثلاثين ألف دينار، فان دفعتموها إليَّ وأطلقتم كلَّ عبد بحلب منذ ملكت أنطاكية فأنا أرحل». فاستعظم ذلك واتّكل على الحوادث.

[١٢٨ظ] وكان الّذي بقي في القلعة مقدار مائة دينار، وأخذها || الخازنُ على وَسطِهِ، وهَرَبَ إلى الفرنج، وهرب جماعَةٌ أخر من المُسلمين إليهم فكتبوا إلى الملك رضوان كتاباً على جناح طائرٍ يُخبرونه بما تجدَّد من قُوَّة الحصار وقلّة النفقة وقَتْلِ الرّجال. وأَرْسَلوا الطَّائرَ فسقط في عسكر الفرنج، فَرَمَاهُ أَحدُهم بنُشَّابَةٍ فقَتَلَهُ.

وحُمِلَ الكِتابُ إلى طنكريد، ففرح وقويتْ نفسه، وَبذل رضوان المال المطلوب له على أن يكون أقساطاً ويضع عليه رَهائنَ فَلَمْ يَفْعَل، ويَئِسَ مَنْ في الأثارب من نجدةٍ تصل إليهم فسلّموها إلى طنكريد في جمادى الآخرة منها، وأمن أهلها وخرجوا منها.

ثم صالح رضوان على عشرين ألف دينار وعشرة رؤوس من الخيل، وقبضها وعاد إلى أنطاكية[2].

---

(١) جاء في ابن الأثير ٨/٣٦١ في حوادث سنة ٥٠٤: «فشرع اصحاب البلاد الاسلامية بالشام في الهدنة معهم فامتنع الفرنج من الاجابة إلّا على قطيعة يأخذونها إلى مدة يسيرة فصالحهم الملك رضوان صاحب حلب على اثنين وثلاثين الف دينار وغيرها من الخيول والثياب.»

(٢) في ابن القلانسي ١٧١: «واستقرّت الموادعة بعد ذلك بين الملك فخر الملوك رضوان وبين طنكري على أن يحمل إليه الملك من مال حلب في كل سنة عشرين ألف دينار مقاطعة وعشرة أرؤس حيلا وفكاك الأسرى واستقرّت على هذه القضية»- انظر ابن الأثير ٨/٣٦١

ثم عاد وخرج إلى الأثارب، وقد أدركتِ الغلّـة، وضعفتْ حلب بأخذِ الأثاربِ ضَعْفاً عظيماً، وطلب من حلب المقاطعة التي قررها على حلب وأسرى من الأرمن كان رضوان أخذهم وقت إغارته على بلد أنطاكية، والفرنج على الفرات، فأعادهم إليه. وطلب بعضَ خيـل الملك رضوان فأعطاه، وطلب حُرم الفلّاحين المسلمين من الأثارب، وكانوا وقت نزول طنكريـد على الأثارب حصلوا بحرمهم في حلب فأخرجهنّ إليه.

طلب النجدة

وضاق الأمرُ بأهـل حلب، ومضى بعضهم إلى بغداد واستغاثوا في أيام الجمع، ومنعوا الخطباء من الخطبـة مستصرخين بالعساكر الإسلامية على الفرنج[1].

وقلّت المغلّات في بلد حلب، فباع الملك رضوان في يوم واحد ستّين خربةً من بلد حلب لأهلها بالثّمن البخس، وطلب بذلـك استمالتهم، وأن يلتزموا بالمقام بها بسبب أملاكهم، وهي ستّون خربة [١٢٩ و] معروفة في دواوين حلب إلى يومنا هذا، غير ما باعه في غير ذلك اليوم من الأملاك.

ولذلك يَقال ان بَيْع الملك من أصحّ أملاك الحلبيين لأنّ المصلحة في بيعها كانت ظاهرةً لاحتياج بيتِ المال إلى ثمنها، ولعمارة حلب ببقاء أهلها فيها بسبب أملاكهم.

(١) في ابن الأثير ٨ / ٣٦١ : « فسار جماعة من أهل حلب إلى بغداد مستنفرين على الفرنج، فلما وردوا بغداد اجتمع معهم خلق كثير من الفقهاء وغيرهم فقصدوا جامع السلطان واستغاثوا ومنعوا من الصلاة وكسروا المنبر » – انظر ابن القلانسي ١٧٣

خبر مودود ولما استصرخ الحلبيّون العساكرَ الاسلاميةَ ببغداد وكسروا المنابر، جهّز السّلطانُ العساكرَ للذبّ عنهم، فكان أوّل مَنْ وصل مَوْدُود صاحب المَوْصل[١] بعسكره إلى شَبَخْتَان[٢]، ففتح تَلّ قُرَاد[٣] وعدّة حُصون.

ووصل أحمديل الكُرديّ في عسكرٍ ضخم وسكمان القُطبي[٤]، وعبروا إلى الشّام فنزلوا تلّ باشر[٥]، وحصروها حتى أشرفت على الأخذ، وكان طنكريد قد أخذ حصن بِكِسْرَائيل[٦]، وتوجّه مُغيراً على بلد شَيْزر ونازلها.

وشرع في عمارة تلّ ابن مَعْشر[٧] وضرَب اللَّبن وحَفرَ الجَباب ليُوعي

(١) في ابن الأثير ٨/٣٦١: « فأرسل الخليفة الى السلطان في المعنى يأمره بالاهتمام بهذا الفتق ورتقه، فتقدم حينئذ إلى من معه من الأمراء بالمسير إلى بلادهم والتجهيز للجهاد وسيّر ولده الملك مسعودًا مع الأمير مودود صاحب الموصل» – ابن القلانسي ١٧٤: «وكان أول من نهض منهم إلى أعمال الافرنج الأمير الاسفهسلار شرف الدين مودود صاحب الموصل في عسكره».

(٢) في الأصل: « سختان » – وفي ابن القلانسي ١٧٤: « سنجتان » – وفي معجم البلدان لياقوت ١/٨٦٤، ٨٦٩: « شَبَخْتَان » وهو يضمها في بلاد الأرمن من نواحي ديار ربيعة.

(٣) في ابن القلانسي ١٧٤: « تلّ مراد » – وفي معجم البلدان لياقوت ١/٨٦٩: « تَلّ قُراد: حصن مشهور في بلاد الأرمن من نواحي شَبَخْتَان ».

(٤) في ابن القلانسي ١٧٤: « ووصل إليه الأمير أحمديل في عسكر كثيف الجمع، وكذلك تلاه الأمير قطب الدين سكمان القطبي من بلاد أرمينية وديار بكر، فاجتمعوا في أرض حران ».

(٥) في معجم البلدان ١/٨٦٤: « تلّ باشر: – قلعة حصينة وكورة واسعة في شمالي حلب بينها وبين حلب يومان، وأهلها نصارى أرمن، ولها ربض وأسواق، وهي عامرة آهلة ».

(٦) في معجم البلدان ١/٧٠٦: « بكسرائيل: بكسر أوله وثانيه وسكون السين وراء وألف وهمزة وياء – حصن من سواحل حمص مقابل جبلة في الجبل ».

(٧) في ابن القلانسي ١٧٤: « تل ابن معشر في مقابلة شيزر ».

بها الغلّة، فلما بلغه نزول عساكر السلطان محمّد على تلّ باشر رحل عنها. وأمّا العساكر الإسلاميّة النازلة على تلّ باشر فانّ سكمان مات عليها – وقيل : بَعْدَ الرّحيل عنها – وأشرف المسلمون على أخذها فتطارح جوسلين الفرنجي صاحِبُها على أحمديل الكردي وحَمَل إليه مالاً [١]، وطلب منه رحيل العسكر عنه فأجابه إلى ذلك.

وكتب الملكُ رضوان إلى مودود وأحمديل وغيرهما : « إنني قد تلفتُ وأريدُ الخروج مِنْ حلب. فبادِرُوا إلى الرّحيل »، فَحَسَّنَ لهم أحمديل الرّحيل عنها || بعد أن أشرَفُوا على أخذها، ورحلوا إلى حلب، فأغلق رضوان أبوابَ حلب في وجوههم، وأخذَ إلى القلعة رهائنَ عنده من أهلها لئلّا يسلّموها [٢]. [١٢٩ظ]

ورتّب قوماً من الجند والباطنيّة الّذين في خدمتِهِ لِحِفْظِ السُّور وَمَنْع الحلبيين من الصّعود إليه، وبقيَتْ أبوابُ حلب مُغْلَقَةً سَبْعَ عشرة ليلة.

وأقام النّاسُ ثلاث ليالٍ ما يجدون شيئاً يقتاتون به، فكثرت اللّصوص مِن الضّعفاء، وخاف الأعْيَانُ على أنفسهم.

وساء تدبيرُ الملك رضوان فأطلق العوامّ ألسنتهم بالسبّ له

(١) في ابن القلانسي ١٧٥ : « فأنفذ جوسلين صاحب تلّ باشر إلى الأمير أحمديل الكردي يلاطفه بمال وهديّة، ويبذل له الكون معه والميل إليه فأجابه الى ذلك على كراهية من باقي الأمراء ».

(٢) في ابن القلانسي ١٧٥ : « وأغلق أبواب حلب وأخذ رهائن أهلها إلى القلعة، ورتّب الجند وأحداث الباطنية والطائفين لحفظ الأسوار ومنع الحلبيين من الصعود إلى السور» – في ابن الأثير ٨/٢٦٣ : « فأغلق الملك رضوان أبواب البلد ولم يجتمع جم ».

وتعييبه، وتحدثوا بذلك فيما بينهم، فاشتدَّ خوفُه من الرَّعيَّة أن يُسلموا البلدَ؛ وتَرَكَ الرُّكوبَ بينهم.

وصفر انسانٌ من السُّور فأمر به فضُرِبَتْ عُنقه. ونَزَعَ رَجُلٌ ثوبَهُ ورَماهُ إلى آخر فأمَرَ به فألقي مِن السّور إلى أسفل، فعاثَ العسكَر فيما بقي سالماً ببلد حلب بعد نهب الفرنج له وسَبيهم أهله.

وبَثَّ رضوان الحراميَّـة يتخطَّف مَن ينفَرِدُ مِنَ العساكر فيأخذونه[١]، فرحلوا إلى معرَّة النُّعمان في آخر صَفَر من سنـة خمس وخمسمائة[٢]، وأقاموا عليها أياماً وَوَجَدُوا حولها ما ملأ صدورهم مِمّا يحتاجون إليْهِ من الغَلَّات وما عجزوا عن حمله.

وكان أتابك طغتـكين قد حَصَل معهم[٣]، فراسل رضْوان بعضَهم حتى أفسد ما بينه وبينهم، فظهر لأتابـك منهم الوحشة، فصار في جملة مَوْدود صَاحب الموصل، وثَبَتَ له مَوْدُود، وَوَفى له.

وحَمل لهم أتابك هَدَايا وتُحفاً من مَتَاع || مصر[٤]، وعَرَض عليهم [١٣٠ و]
المسير إلى طرابلس والمعونـة لهم بالأموال، فلم يعرجوا[٥]؛ وسار

(١) في ابن القلانسي، بالصفحة نفسها: «وأطلق الحرامية في أخذ من يظفرون به من أطراف العسكر».

(٢) في ابن الأثير ٨/٢٦٣: «لما غلق الملك رضوان أبواب حلب، ولم يجتمع بالعساكر السلطانية رحلوا إلى معرة النعمان» — انظر ابن القلانسي ١٧٧

(٣) في ابن الأثير، بالصفحة نفسها: «واجتمع بهم طغتكين صاحب دمشق، ونزل على الأمير مودود».

(٤) في ابن القلانسي ١٧٧: «وحمل إلى بقيـة الأمراء ما كان جمعه من الهدايا لهم والتحف والحصن العربية السُّبَّق والأعلاق المصرية».

(٥) في المصدر نفسه: «وجعل أتابك يحرّضهم على قصد طرابلس ويمدهم حمل ما يحتاجون اليه من الميرة من دمشق وعملها، وان أدركهم الشتاء أنزلهم في بلاده فلم يفعلوا وتفرقوا أيدي سبا».

أحمديل وبرسق بن برسق وعسكر سكمان نحو الفُرات، وبقي مودود مع أتابك، فرحلا[1] من المعرّة إلى العاصي فنزلا على الجَلالي .

فنَزَل الفرنج أفامية : بغدوين وطنكريد وابن صنجيل، وساروا لِقَصد المسلمين[2]، فخرج أبو العساكر بْنُ منقذ من شيزر بعسكره وأهله ؛ واجتمعُوا بمودود وأتابك وساروا إليهم .

ونَزَلوا قبليّ شَيْزر والفرنج شماليّ تَلّ ابن معشر، ودارت خيولُ المسلمين[3] حولهم ومنعوهم المـاء، والأتراك حول الشرائع بالقسيّ تَمنعهم الوِرد، فأصبحُوا هاربين سائرين، يَحمي بعضهم بعضاً[4] .

أبو حرب الخجندي

ووصل إلى حلب في هـذه السّنة في شهر ربيع الأول من سنة خمس وخمسمائـة، رجل فقيهٌ تاجر كبير يقال له أبوحرب عيسى بن زيد بن محمد الخُجَندي[5]، ومعه خمسمائة

(١) في المصدر نفسه : « وعاد برسق بن برسق واحمديل وتبعوا عسكر سكمان القطبي، وتخلّف منهم الأمير مودود مع أتابك فرحلا عن المعرة ونزلا على العاصي » – انظر ابن الأثير ٨/٢٦٣

(٢) في ابن القلانسي ١٧٧ : « ولما عرف الفرنج رحيل العساكر وتفرقهم اجتمعوا ونزلوا أفامية بأسرهم بغدوين وطنكري وابن صنجيل بعد التباين والمنافرة والخلف وصاروا يدًا واحدة وكلمة متفقة على الاسلام وأهله، وساروا لقصدهم، فخرج سلطان بن منقذ من شيرز بنفسه وجماعته واجتمع مع أتابك ومودود وحرّضهما على الجهاد وهوّن عليهما أمر الافرنج» – انظر ابن الأثير ٨/٢٦٣

(٣) في المصدر نفسه : « وثبت الخيـل من جميع جهاتهم تطرق حولهم وتجول عليهم وتمنع من الوصول إليهم، وضيقوا عليهم وجلوهم عن الماء وذادوهم عن العاصي لكثرة الرماة على شطوطه وجوانبه ».

(٤) في مجموعة الحروب الصليبية نقص من هذا النصّ ما يقرب من صفحة فقد وقف عند هذه الكلمة، ثم بدأ السطر التالي بعبارة : « ثم ان رضوان حين ضعف أمره» بالصفحة ١٦٠ ظ ؛ وذلك لأنّ البحث لا يلمّ بالحروب الصليبية .

(٥) الخُجَنْدي : بضم الخاء وفتح الجيم وسكون النون : نسبة إلى خُجَنْدة، بلدة على طرف سيحون – انظر الانساب للسمعاني بالورقة ١٨٩ظ، واللباب لابن الاثير ١/٣٦٨

يحمل عليها أصناف التجارات، وكان شديدًا على الباطنيّة أنفق أموالًا جليلة على من يقاتلهم، وكان قد صحبه من خراسان باطنيّ يُقال له أحمد بن نصر الرّازي وكان أخوه قد قتله رجال الخُجَندي.

فدخل أحمد إلى حلب، ومضى إلى أبي طاهر الصَّائغ العجميّ رئيس الباطنيَّة بحلب، وكان متمكّناً من رضوان، فصعد إلى رضوان، وأطْمَعَهُ في مال الفقيه أبي حرب، وأراه أنّه بريءٌ من التّهمة في ماله[1]، إذ هُوَ معروف بعداوة الباطنيَّة.

فطمع رضوان في ماله وطار فرحاً، وبعث غلاماً له يتوكّلون به،

[١٣٠ظ] وسَيَّر أبو طاهر ‖ الباطنيّ معه جماعة من أصحابه، فبينا أبو حرب الخُجَندي في غلمان له يستعرض أحمالَهُ وحوله جماعةٌ من مماليكه وخَدَمِهِ إذ هجم عليه أحمد بن نصر الرّازي في جماعةٍ من أصحاب أبي طاهر الباطنيّ، فقال لغلمانه: «أليس هذا رفيقنا؟» فقالوا: «هُوَ هُوَ». فوقعوا عليه فقتلوه.

وقُتِل الجماعةُ الّذين معه من أصحاب أبي طاهر الباطنيّ العجميّ بأسرهم، ثمّ قال أبو حرب: «الغِياث بالله من هذا الباطنيّ الغادر، أمنّا المخاوفَ ورآنا إلى أن جئنا إلى الأمنة، فبعث علينا من يقتلنا».

فأخبر رضوان بذلك فأبلس، وصار السنّة والشّيعة إلى هذا الرجل، وأظهروا إنكار ما تمّ عليه. وعبث أحداثهم بجماعة من أحداث الباطنيَّة فقتلوهم، ولم يتجاسر رضوان على إنكار ذلك.

(١) وردت كذا في الأصل من غير نقط فلم نهتد إلى تصويبها، ولعلها: «في شأنه».

وكاتبَ الفقيه أبو حرب أتابكَ طغتكين وغيره من ملوك الاسلام فتوافت رسلهم إلى رضوان يُنكرون عليه، فأنكر وحلف أنه لم يكن له في هذا الرجل نيّة.

وخرج الرّجل عن حلب مع الرّسل فعاد إلى بلده، ومكث الناس يتحدّثون بما جرى على الرجل ونقص في أعين الناس، فتوثبوا على الباطنيّة من ذلك اليوم.

ضعف رضوان

ثم إنّ رضوان حين ضعف أمره بحلب رأى أن يستميل طغتكين أتابك إليه ويستصلحه، فاستدعاه إلى حلب عندما أراد أن ينزل طنكريد على قلعة عزاز، وبذل له رضوان مقاطعة حلب عشرين ألف دينار وخيلًا وغير ذلك، فامتنع طنكريد من ذلك، فوصل طغتكين أتابك، وتعاهدا على مساعدة || كلّ منهما لصاحبه بالمال والرّجال. [١٣١و]

واستقرّ الأمر على أن أقام طغتكين الدّعوة والسكّة لرضوان بدمشق، فلم يظهر منه بعد ذلك الوفاء بما تعاهدا عليه.

ومات طنكريد في سنة ستّ وخمسمائة، واستخلف ابن اخته روجار[1] وأدّى إليه رضوان ما كان يأخذه منه طنكريد وهو عشرة آلاف دينار.

ووصل مودود إلى الشّام، واتفق مع طغتكين على الجهاد، وطلب نجدة من الملك رضوان فتأخرت إلى أن اتّفق للمسلمين وقعةٌ استظهروا فيها على الفرنج، ووصل عقيبَها نجدةٌ للمسلمين من رضوان، دون

(١) مات طنكريد سنة ٥٠٦ / ١١١٢، وخلفه ابن أخته روجار «Roger».

المائة فارس، وخالف فيما كان قرّره ووَعد بهِ[١]، فأنكرَ أتابك ذلك، وتقدّم بابطال الدّعوة والسكّة باسم رضوان من دمشق في أوّل ربيع الأوّل من سنة سبع وخمسمائة.

وكان رضوان يحب المال، ولا تسمح نفسه باخراجه حتّى كان أمراؤه وكتّابه ينبزونَهُ بأبي حبّة، وهو الّذي أفسد أحواله وأضعف أمره.

وفاة رضوان

ومَرِضَ رضوان بحلب[٢] مرضًا حادًّا وتوفّي في الثّامن والعشرين من جُمادى الآخرة سنة سبع وخمسمائة. ودُفِن بمشهد الملك، فاضطرب أمرُ حلب لوفاته وتأسّف أصحابهُ لفقـده، وقيل: إنّه خلّف في خزانتهِ[٣] من العين والآلات والعُروض والأواني ما يبلغ مقداره ستّمائة ألف دينار.

(١) في ابن القلانسي ١٨٦: « وعقيب هذه النوبة وصل من حلب من عسكر الملك فخر الملوك رضوان مائة فارس على سبيل المعونة خلاف ما كان قرره وبذله، فأنكر ظهير الدين أتابك وشرف الدين مودود ذلك منه، وأبطلا العمل بما كانا عزما عليه من الميل إليه واقامة الخطبة له في أول شهر ربيع الأول سنة ٥٠٧ ».

(٢) في ابن القلانسي ١٨٩: « وفي جمادى الآخرة وردت الأخبار من ناحية حلب بمرض عرض للملك فخر الملوك رضوان صاحبها، وأنه أقام به واشتد عليه وتوفي – رحمه الله – في الثامن والعشرين من الشهر ».

(٣) في المصدر نفسه: « وقيل انه خلف في خزانته من العين والعروض والآلات والأواني ... » كما جاء في ابن العديم.

القسم العشرون

ذكر
حلب في أيام ألب أرسلان وسلطان شاه ابني رضوان

ملك ألب أرسلان - أتابك طغتكين - ملك سلطان شاه - خبر إيلغازي بن أرتق

٥٠٧ هـ - ٥١١ هـ

مُلكُ ألب أرسلان

وملكَ حلب بعده ابنهُ ألب أرسلان ، ويُعرَفُ بالأخرس ، وعمرُهُ ستّ عشرة سنة . وأمّه بِنْتُ يَغي سيان صاحب أنطاكية ، وكان في كلامِهِ حَبْسَةٌ وتمتمةٌ فلذلك عُرِف بالأخرَس ، وكان مُتَهوِرًا قليل العقل ، ووضع عن أهل حلب || ما كان والـده جدّده عليهم من الرّسوم [١٣١ظ] والمكوس .

وقبضَ على أخوَيْهِ مَلك شاه ومُبارك ، وكان مُبارك من جاريةٍ وملك شاه من أمّه ، فقتلها . وكذلك فعل أبوه رضوان بأخويه[١] ؛ فانظرْ إلى هٰذه المُقابلة العجيبة . وقبضَ جماعةً من خواصّ والدِه فقتل بعضَهم ، وأخذ أموال الآخرين[٢] .

وكان المتولّي لتدبير أُموره خادمٌ لأبيهِ يقال له لؤلؤ اليايا[٣] ، وهو الّذي أنشأ خانكاه البلاط بحلَب . وكان قبل وصوله إلى رضوان

---

(١) في ابن القلانسي ١٨٩ : « وقبض على أخويه ملك شاه من أمه وأبيه ، ومبارك من أبيه وجارية ، وقتلها . وقد كان أبوه الملك رضوان في مبدأ أمره فعل مثله بقتل أخويه من تاج الدولة أبي طالب وبهرام شاه ، وكانا على غاية من حسن الصورة ، فلما توفي كان ما فُعل بولديه مكافأة عما اعتمده في أخويه . » – انظر ما يقرب من هذا اللفظ عند ابن الأثير ٨/٢٦٧

(٢) في المصدر نفسه : « وقبض على جماعة من خواصّ أبيه ، فقتل بعضاً وأخذ مال بعض ودبّر الأمر معه خادم أبيه لؤلؤ » .

(٣) في ابن القلانسي ١٩١ : « بابا المعروف بلؤلؤ الخادم » – وعندنا ياءين ، وقد ترجمه المستشرق في كتابه عن الحروب الصليبية ٩٠٣ : El-Yaya (le piéton ou fantassin) .

خادماً لتاج الرّؤساء ابن الخلال ، فدبر أسوأ تدبير مع سوء تدبيره في نفسه .

وكان أمرُ الباطنيَّة قد قَوي بحلب في أيام أبيه ، وتابعهم خلقٌ كثيرٌ على مَذْهَبِهم طلباً لِجَاهِهِم ، وصار كلُّ مَنْ أراد أن يحمي نفسهُ من قَتْلٍ أوْ ضَيْمٍ التجأ[1] إليهم .

وكان حسام الدّين بن دملاج وَقْتَ وَفاة رضوان بحلب ، فصاروا مَعَهُ ، وصار ابراهيم العجميّ الدّاعي من نُوَّابه في حفظ القُلَيْعة[2] بظاهر بالس .

محاربة الباطنية

فكتب السُّلطان مُحَمَّد بن ملك شاه إلى ألب أرسلان وقال له : «كان والدُكَ يُخالفني في الباطنيَّة ، وأنتَ وَلَدِي فَأُحِبُّ أن تقتُلَهم » .

وشرع الرّئيس ابنُ بديع متقدّم الأحداث في الحديث مع ألب أرسلان[3] في أمرهم ، وقرّر الأمر معه على الإيقاع بهم ، والنكاية فيهم ، فساعده على ذلك .

فقبض على أبي طاهر الصائغ وقتله ، وقَتَل اسماعيلَ الدَّاعي

(١) في ابن القلانسي ١٨٩ : « وخاف ابن بديع رئيس الأحداث وأعيان البلد منهم لكثرتهم ، وشدّ بعضهم من بعض ، وحماية من يلجأ منهم لكثرتهم » .

(٢) جاءت هذه اللفظة مصغّرة في بعض المصادر وأوردها بعضهم بلفظ « القلعة » — وهما واحد في المعنى — انظر مقالة ده فرامري : *Defrémery* J A., 1854, 393 .

(٣) في ابن القلانسي : « فشرع ابن بديع رئيس حلب في الحديث مع الملك الب ارسلان بن رضوان في أمرهم ، وقرر الأمر معه على الايقاع بهم والنكاية فيهم ، فقبض على أبي طاهر الصائغ وعلى كل من دخل هذا المذهب وهو زهاء مئتي نفس » .

وأخا الحكيم المنجّم والأعيانَ من أهل هذا المذهب بحلب ، وقبضَ على زُهاء مائتي نفس منهم.

وحَبَسَ بعضَهم واستصفَى أموالهم ، وشفع في بعضهم فمنهم مَن [١٣٢و] أُطلق ومنهم مَنْ رُمي من أعلى القلعة ، ومنهم من قُتِل . وأفلَت جماعةٌ منهم فتفرّقوا في البلاد[1] ، وهرب إبراهيم الدّاعي من القليعة إلى شيزر ، وخرج حسام الدولة بن دملاج عند القبض عليهم فمات في الرقة .

وطلب الفرنج من ألب أرسلان المقاطعة التي لهم بحلب ، فدفعها إليهم من ماله ، ولم يكلّف أحدًا من أهل حلب شيئًا منها .

أتابك طغتكين

ثمّ إنّ ألب أرسلان رأى أن المملكة تحتاج إلى مَن يدبّرها أحسن تدبير ، وأشار خدمُه وأصحابُه عليهِ بأنْ كاتَب أتابكَ طغتكين أمير دمشق[2] ، ورغب في استعطافه ، وسأله الوُصولَ إليهِ ليدبّر حلب والعسكرَ ، وينظُر في مصالح دَولتِهِ . فأجابه إلى ذلك ، ورأى موافقَتهُ لكونهِ صبيًا لا يخافه الكفّار ولا رأي له ، فدعا له على منبر دمشق بعد الدّعوة للسّلطان وضُربت السّكة باسمِهِ ، وذلك في شهر رمضان.

وأوجبت الصُّورةُ أن خرج ألب أرسلان بنفسِه في خواصّه ،

(١) وردت العبارة نفسها في ابن القلانسي ١٩٠

(٢) في ابن القلانسي : « فوقع اختياره على ظهير الدين أتابك صاحب دمشق فراسله في ذلك وألقى مقاليده إليه ، واعتمد في صلاح أحواله عليه ، وسأله الوصول إلى حلب والنظر في مصالحها » .

وقصد أتابك إلى دمشق ليجتمع معه، ويؤكد الأمر بينه وبينه[١]، فلقِيَه أتابك على مرحلتين، وأكرمه ووصل معه وأنزله بقلعة دمشق.

وبالغ في إكرامه وخدمتِهِ والوقوفِ على رأسِهِ[٢]. وحمل إليهِ دست ذهبٍ وطيرًا مرصّعاً وعدّة قطع ثمينــة، وعدّة من الخيل، وأكرم من كان في صحبته.

وأقام بدمشق أيّاماً وسار في أوّل شوّال عائدًا إلى حلب، ومعه أتابك[٣] وعسكره، فأقام عنده أياماً واستخلص كمشتكين البعلبكي مقدّم عسكره، وكان قد أشار عليهِ بعض أصحابه بقبضِهِ، || وقبضِ [١٣٢ظ] جماعة من أعيان عسكره[٤] وقبضِ الوزير أبي الفضل بن الموصول، ففعل ذلك؛ فاستوهَب أتابك منه كمشتكين فوهَبه إيّاه.

وقَبَض على رئيس حلب صاعِد بن بديع، وكان وجيهًا عند أبيهِ رضوان، فصادَرَهُ بعــد التَّضييق عليهِ حتى ضرب نفسَهُ في السجن بسكّين ليقتل نفسه، ثمّ أطلقه بعد أن قرّر عليهِ مالًا، وأخرجه وأهلَهُ من حلب، فتوجّه إلى مالك بن سالم إلى قلعة جعبر.

---

(١) وردت هذه العبارة نفسها عند ابن القلانسي.

(٢) في ابن القلانسي ١٩٠: «فوصل إليه في النصف من شهر رمضان من السنة، فلقيه أتابك بما يجب لمثله من تعظيم مقدمه واجلال محله وأدخله إلى قلعة دمشق وأجلسه في دست عمّه شمس الملوك دقاق بن تاج الدولة.»

(٣) العبارة نفسها في ابن القلانسي.

(٤) في ابن القلانسي ١٩٠: «وأشار عليه قوم من أصحابه بالقبض على جماعة من أعيان عسكره وعلى وزيره أبي الفضل بن الموصول – وكان حميد الطريقة مشهورًا بفعل الخير وتجنب الشرّ – ففعل ذلك، واستخلص ظهير الدين أتابك من جملتهم الأمير كمشتكين البعلبكي مقدم عسكره».

ابن الفراتي

وسلّم رئاسة حلب إلى ابراهيم الفراتي فتمكّن ولُقّب ونُوّه باسمِهِ، وإليهِ تُنسَب عرصة ابْنِ الفُراتي بالقُرب من باب العراق بحلب . ثمّ رأى أتابك من سوء السِّيرة وفساد التَّدبير مع التقصير في حقِّه والاعراض عن مَشُورته ما أنكره، فعاد من حلب إلى دمشق[1]، وخرجت معه أمّ الملك رضوان هرباً منه .

وساءت سيرةُ ألب أرسلان، وانهمك في المعاصي واغتِصاب الُحرَم والقتل . وبَلَغَنا أنّهُ خرج يوماً إلى عين المباركة متنزهاً، وأخذ معهُ أربعين جارية، ونَصَب خيمةً، ووطئهنّ كلّهن[2] .

لؤلؤ اليايا

واستولى لؤلؤ اليايا على الأمر، فصادر جماعة من المتصرّفين، وأعاد الوزارة إلى أبي الفضل بن الموصول . وجمع ألب أرسلان جماعةً من الأمراء، وأدخلهم إلى موضع بالقلعة شبيهٍ بالسِّرداب لينظروه، فلمّا دخلوا إليه قال لهم : « ايش تقولون في مَنْ يضرب رقابكم كلكم ههنا ؟ » فقالوا : « نحن مماليكك وَبِحُكمك » . وأخذوا ذلك منه بطريق المزاح، وتضرّعوا له حتى أخرجهم[3] .

وكان فيهم مالك بن سالم صاحب قلعة جعبر[4] فلمّا نزل سار عن

(١) في المصدر نفسه : « فحين شاهد الأمر على غير السداد والصواب، وبان له فساد التدبير واختلاف التقدير رأى أن الانكفاء إلى دمشق اصوب ما قُصد، وأحسن ما اعتمد، وفي صحبته والدة الملك رضوان لرغبتها في ذلك وايثارًا لها » .

(٢) في بغية الطلب، مخطوطة طوبقبوسراي، ٤/ ٢٨٩ظ : « قال لي بدران بن حسين ابن مالك : بلغني أن تاج الدولة الأخرس خرج يوماً إلى عين المباركة ونصب بها خيمة، وأخذ معه أربعين جارية ووطئهن كلهن في ذلك اليوم » .

(٣) وردت هذه الحكاية في بغية الطلب المخطوطة ٤/ ٢٨٩ و، وهو يزيد على الجملة : « حتى أخرجهم، ثم إنهم خافوا على أنفسهم منه فأجمعوا على قتله فقتلوه » .

(٤) في بغية الطلب، المخطوطة : « وقال لي الأمير بدران بن جناح الدولة حسين بن

[١٣٣و] حلب || وتركها خوفًا على نفسه .

مقتل ألب ارسلان

وخاف منه لؤلؤ اليايا فقتله بفراشه بالمركز بقلعة حلب ، في شهر ربيع الآخر من سنة ثمان وخمسمائة[1] ، وساعده على ذلك قراجا التركي[2] وغيره .

ملك سلطان شاه

ولزم لؤلؤ اليايا قلعة حلب وشمس الخواص في العسكر ، ونصب لؤلؤ أخًا له صغيرًا عمره ست سنين ، واسمه سلطان شاه بن رضوان ، وتولى لؤلؤ تدبير مملكته ، وجرى على قاعدته في سوء التدبير .

اعمال لؤلؤ

وكاتب لؤلؤ ومقدمو حلب أتابك طغتكين وغيره يستدعونهم إلى حلب لدفع الفرنج عنها فلم يجب أحد منهم إلى ذلك .

ومن العجائب أن يخطب الملوك لحلب فلا يوجد من يرغب فيها ،

مالك بن سالم كان جدّي مالك من جملة الأمراء الذين فعل جم ذلك ، فلما نزل من القلعة سار عن حلب إلى قمة جعبر » .

(١) في بغية الطلب ، مخطوطة ٤ / ٢٨٩ ظ : « فاغتاله خادم كان خصيصًا به اسمه لؤلؤ في رجب سنة ثمان وخمس مائة وكان ملكه بحلب سنة واحدة » – ثم يورد تاريخًا آخر لقتله نقلًا عن غيره من المؤرخين على عادته فيقول : « وخانه لؤلؤ اليايا فقتله بقلعة حلب في الثاني من ربيع الآخر من سنة ثمان وخمسمائة » . – وفي ابن القلانسي ١٩١ : « وثبوا عليه فقتلوه في داره بقلعة حلب ، واضطرب الأمر بعده ، وقد كان تدبيره لنفسه وعسكريته ورعيته سيئًا فاسدًا لا يُرجى له صلاح ولا إصلاح ، فمضى لسبيله غير مأسوف عليه ولا محزون لفقده » – انظر النجوم الزاهرة ٥ / ٢٠٨

(٢) في ابن القلانسي : « خيرخان بن قراجا التركي » كما سيرد اسمه كاملًا في ذيل الصفحة ١٧٦ .

ولا يمكنه ذبّ الفرنج عنها ، وكان السبب في ذلك أنّ المقدّمين كانوا يريدون بقاء الفرنج ليثبت عليهم ما هُم فيه .

وقلّ الربيع ببلد حلب لاستيلاء الفرنج على أكثر بلدها والخوف على باقيه ، وقلّتِ الأموالُ واحتيج إليهــا لصرفها إلى الُجند ، فباع لؤلؤ قرىً كثيرةً من بلدِ حلب ، وكان المتولّي بيعَها القاضي أبا غانم محمّد بن هبة الله بن أبي جرادة قاضي حلب ، ولؤلؤ يتولى صرفَ أثمانها في مصالحِ القلعة والجندِ والبَلَد .

وقبض لؤلؤ على الوزير أبي الفضل بن الموصول ، واستأصلَ ماله ، وسار إلى القلعة فأقام عند مالك بن سالم ، واستوزَر أبا الرَّجاء ابن السَّرطان الرحبيّ مدّة ، ثم صادره وَضَرَبه ، وطلب أبا الفضل بْنَ الموصول فأعاده إلى الوزارة بحلب .

وجاءت زلزلة عظيمة ليلةَ الأحد ثامن وعشرين من جُمادى الآخرة من سنة ثمــان || بحلب وحرّان وأنطاكية ومرعش والثّغور [١٣٣ظ] الشامية ، وسقط برجُ بابِ أنطاكيــة الشمالي وبعضُ دُور العَقَبة وقتَلَتْ جماعةً .

وخربت قلعة عَزاز ، وهرب وَاليها إلى حلب ، وكان بينه وبين لؤلؤ مواحشَةٌ ، فحين وَصل إلى حلبَ قتله وأنفذ إليها مَنْ تدار كها بالعمارة والتّرميم ، وخرب شيءٌ يسيرٌ في قلعة حلب ، وخرب أكثر قلعة الأثارب وَزَرْدنا .

وقيل : إنّ مؤذن مسجد عَزاز كان حارساً بالقلعة ، فحرس وَنام على بُرج المسجد بالقلعة ، فلما جاءت الزَّلزَلةُ ألقته على كتف الخندق

وهو نائمٌ لم يعلم بها ، فاجتاز به جماعةٌ فظنّوه ميّتاً ، فأخذوا عنه اللّحاف فانتبه وسألهم فأخبروه بما جرى .

وصار شمسُ الخواصّ مقدَّمَ عسكر حلب ، ومتولّيَ أقطاع الجند ، وكانت سيرتُه إذ ذاكَ صالحةً ؛ وكان لؤلؤ في أوّل أمره مقيماً بقلعة حلب لا ينزلُ منها ويدبّر الأمور ، فكتب إلى السّلطان على سبيل المُغالطة يبذل له تسليم حلب والخزائن التي خلّفها رضوان وولده ألب أرسلان ، ويطلب إنفاذ العساكرِ إليه .

فوصل برسق بن برسق مقدّم الجيوش وبكربسن[1] وغيرهم من أمراء السّلطان في سنة تسع وخمسمائة ، فتغيّرت نيّة لؤلؤ الخادم عمّا كان كتب به إلى السّلطان ، وكتب إلى أتابك طغتكين يستصرخه ويستنجده ، وَوَعَده تسليم حلب إليه ، وأن يعوّضه طغتكين من أعمال دمشق ، فبادر الى ذلك .

ووصل حلب ، والعساكر السّلطانيّة ببالس متوجّهين إلى حلب فرحلوا منها إلى المعرّة ، ووصلهم الخبر || أنّ ذلك اليوم وصل أتابك [١٣٤ و]
إلى حلب فأعرضوا عن حلب ، وساروا إلى حماة فتسلّموها .

وتسلّموا رفنية من أولاد علي كرد[2] ، وسلّموها إلى خير خان بن قراجا ، فخاف طغتكين من عساكر السلطان أن يَقصِدَ دمشق ، فأخذ عسكر حلب ، وشمس الخواص ، وايلغازي بن أرتق ، واستنجد بصاحب أنطاكية روجار وغيره مِنْ مُلوك الفرنج ونزلوا أجمعين أفامية[3] .

(١) لم نستطع معرفة هذا الاسم ، ولم نقع على مثل رسمه في المصادر ولاشك في انه مصحّف .

(٢) في ابن الأثير : « علي الكردي صاحب حماة » .

(٣) في ابن الأثير ٨ / ٢٧٢ : « وكان قد سار ايلغازي وطغتكين وشمس الخواص إلى

خبر الفرنج

ونزلت العساكر السّلطانية أرض شيزر ، وجعل أتابك يريّث الفرنج عن اللّقاء خوفاً من الفرنج أن يكسروا العساكر السّلطانية فيأخذوا الشّام جميعه ، أو ينكسروا فتستولي العساكر السّلطانية على ما في يده .

وخاف الفرنج وضاقتْ صدورُ أمراء عسكر السّلطان من المصابرة ، فرحلوا ونزلوا حصن الأكراد وأشرف على الأخذ ، فاتّفق أتابك والفرنج على عَوْدِ كلّ قوم إلى بلادهم [١] ، ففعلوا ذلك .

شمس الخواص

وتوجّه أتابك إلى دمشق ، وعاد عسكر حلب وشمس الخواصّ إلى حلب ، فقبض عليه لؤلؤ الخادم واعتقله فعادت عساكر السُّلطان حينئذٍ عن حصن الأكراد ، وساروا إلى كفرطاب ، وحصروا حصناً كان الفرنج عمروه بجامعها وأحكموه ، فأخذوه وقتلوا مَنْ فيه ، ورحلوا إلى معرّة النّعمان [٢] .

وأمن الترك وانتَشَرُوا في أعمال المعرّة واشتغلوا بالشُّرْب والنَّهب وَوَقَع التّحاسُدُ فيما بينهم ، ووصل رسول من بزاعا مِن جِهَة شمس الخواصّ يستدعيهم لتسليم بزاعا ، ويقول إنّ شمس الخواص مقبوض عليه

أنطاكية ، واستجاروا بصاحبها روجيل ، وسألوه ان يساعدهم على حفظ مدينة حماة ، فلما بلغهم فتحها ووصل إليهم بأنطاكية بغدوين صاحب القدس وصاحب طرابلس وغيرهما من شياطين الفرنج اتفق رأيهم على ترك اللقاء لكثرة المسلمين . وقالوا انهم عند هجوم الشتاء يتفرقون ، واجتمعوا بقلعة أفامية » .

(١) في المصدر نفسه : « فلما انتصف أيلول ورأوا عزم المسلمين على المقام تفرقوا فعاد ايلغازي إلى ماردين ، وطغتكين إلى دمشق ، والفرنج إلى بلادها » .

(٢) في المصدر نفسه : « وساروا إلى قلعة أفامية فرأوها حصينة ، فعادوا عنها إلى المعرة وهي للفرنج أيضاً » .

[١٣٤ظ] عند لؤلؤ الخادم، ولؤلؤ يكشف أخبار العساكر ويطالع بها الفرنج. ورحل برسق وجامدار صاحب الرّحبة نحو دانيث[1] يطلبون حلب، فنزل جامدار في بعض الضّياع.

انكسار المسلمين

ووصل برسق بالعسكر إلى دانيث بكرة الثلاثاء العشرين من شهر ربيع الآخر، والفرنج يعرفون أخبارهم ساعةً فساعة؛ فوَصَلهم الفرنج؛ وقصدوا العسكر من ناحية جبل السّماق، والعسكر على الحال الّتي ذكرناها من الانتشار والتفرّق، فلم يكن لهم بالفرنج طاقة، فانهزموا من دانيث إلى تلّ السّلطان.

واستتر قوم في الضّياع من العسكر فنَهبهم الفلّاحون وأطاقوهم، وغنم أهل الضّياع ممّا طرحوه وقتَ هزيمتهم ما يفوتُ الإحصاء، وأخذ الكفّار مِنْ هذا ما يفوتُ الوصف، وغنموا من الكراع والسّلاح والخيام والدّوَابّ وأصناف الآلات والأمتعة ما لا يحصى، ولم يقتل مُقدَّمٌ ولا مذكورٌ.

وقُتِل منَ المسلمين نحو خمسمائة وأسر نحوها واجتمع العَسكر على تلّ السّلطان، ورحلوا إلى النّقرة مخذولين مختلفين، ونزلوا النّقرة؛ وكان أونبا[2] قد طلع أصحابه إلى حصن بزاعا، وكان قد تقدّم العسكر إليها، فلمّا بَلَغهم ذلك نزلوا ووصلوا إلى العسكر.

وتوجّهت العساكر إلى السّلطان وإلى بلادهم، ووَصل طغتكين

(١) في معجم البلدان لياقوت ٢/ ٥٤٠: «دانيث: بلد من أعمال حلب بين حلب وكفرطاب».

(٢) لم نقع على هذا الاسم في المصادر التي بين أيدينا

مِنْ دمشق فتسلم رفنية[١] ممن كانوا بها ، وأطلق لؤلؤ شمسَ الخواص من الاعتقال ، وسلّم إليه ما كان أقطعه من بزاعا وغيرها ، فوصل إلى طغتكين فردّ عليه رفنية ، وعاد إلى دمشق واستصحبه معه .

مقتل لؤلؤ

وأما لؤلؤ الخادم فانّه صار بعد مُلازمة القلعة يَنْزِلُ منها في الأحيان || ويركبُ ، فاتّفق أنــه خرج في سنة عشر [١٣٥و] وخمسمائة بعسكر حلب والكتاب إلى بالس ، وهو في صورة متصيّد ، فلمّا وصل إلى تحت قلعة نادر قتله الجُند[٢] .

أمر سنقر

واختلفَ في خُروجه ، فقيل : إنّه كان حَمَل مالاً إلى قلعة دَوْسر ، وأودعه عند ابن مالك فيها ، وأراد ارتجاعه منه والعَوْد إلى حلب ، وكان السُّلطان قد أقطع حلبَ والرّحبة أق سنقر البرسقي[٣] ، فواطأ جماعة من أصحابه على أن أظهروا مفارقته ، وخدموا لؤلؤاً وصاروا من خواصِهِ ، وواطأهم على قتل لؤلؤ ، وأمّل أنّهم إذا قتلوه تصحّ له أقطاع حلب فقتلوه .

وسار بعضُهم إلى الرّحبة فأعامه ، فأسرع أق سنقر البرسقي المسير إلى حلب من الرّحبة ؛ وانضاف بعض عسكره إلى بقيّة القوم الّذين قتلوه ، وطمعوا في أخذ حلب لأنفسهم ، وساروا إليهـا فسبقهم ياروقطاش الخادم[٤] — أحد خدم الملك رضوان — وَدَخَل حلب .

(١) انظر خبر ذلك في ابن الأثير ٨ / ٢٧٢

(٢) في ابن القلانسي ١٩٨ : « وفيها وردت الأخبار من ناحية حلب بقتل لؤلؤ الخادم الذي كان غلب أمره فيها ؛ وعمل على قتل مولاه الملك ألبا رسلان بن رضوان في ذي الحجة منها بأمر دبره عليه أصحاب الملك المذكور » .

(٣) سترد ترجمته وتفصيل أمره عند الحديث عن تملكه حلب في فصل خاص آت ، بالصفحة ٢٢٧

(٤) في ابن القلانسي ١٩٩ : « الاصفهسلار ياروقتاش الخادم متولّي اصفهسلارية حلب »

وقيل[١] : إنّ لؤلؤاً كان قد خاف فأخذ أمواله ، وخرج طالباً بلاد الشّرق للنجاة بأمواله ، فلمّا وصل إلى قلعة نادر قال سنقر الجكرمشيّ : « تتركونه يقتل تاج الدّولة ويأخذُ الأموال ويمضي ! » وصاح بالتّركية : « أرنب أرنب » فضربوه بالسّهام فقتلوه .

يارو قتاش

ولمّا خرَج عن حلب أقامت القلعة في يد آمنة خاتون بنت رضوان يومَين[٢] إلى أن وَصَل ياروقتاش الخادم مُبادرًا فدخل حلب ونَزَل بالقَصْر ، وأخرجَ بَعْض عسكر حلب ، وأوقع بالّذين قتَلوا لؤلؤاً ، وارتجع ما كان أخذوه من عسكر حلب[٣] . [١٣٥ظ] وانهزَم بعضُ مَنْ كان في النّوبة فالتقّوا أقْ سنقر في بالس في أوّل محرّم سنة إحدى عشرة وخمسمائة .

ولم يتسهّل للبرسقي ما أمّلَ وراسل أهل حلب ومَنْ بها في التّسليم إليه فلم يجيبوه إلى ذلك .

— والناسخ يرسمها هنا على وجهين هما : ياروقطاش ، وبعد سطور رسمها : ياروقتاش ، مما يدل على ان ابن العديم نقل من مصدرين مختلفين ما ورد حرفياً . — في العظيمي : «يارقتاش» — وفي ابن الأثير ٨ / ٢٧٩ : «شمس الخواص ياروقتاش» .

(١) في بغية الطلب ، مخطوط طوبقپو سراي ، ٤ / ٢٨٩ و : « قال : ثم إن لؤلؤاً خاف فأخذ الأموال من قلعة حلب وسار طالباً بلاد الشرق ، فلما وصل الى دير حافر قال سنقر الجكرمشي : تتركونه يقتل تاج الدولة ويأخذ الأموال ويمضي ، فصاح بالتركية يعني : الأرنب الارنب ، فضربوه بالسّهام فقتلوه » — ويلاحظ أنه أبدل « قلعة نادر » بذكر « دير حافر » — وفي ابن الأثير ٨ / ٢٧٩ : « فلما كان عند قلعة نادر نزل يريد الماء ، فقصده جماعة من أصحابه الأتراك ، وصاحوا : أرنب أرنب وأوهموا أنهم يتصيّدون ورموه بالنشاب فقتل » — وفي العظيمي بالورقة ١٩٦ ظ : « خرج لؤلؤ الخادم لزيارة صفّين فقتلته الوشاقية عند قلعة نادر» .

(٢) وردت العبارة نفسها في بغية الطّلب المخطوطة بالموقع المذكور قبل قليل .

(٣) تكررت هذه العبارة في الأصل فحذفنا المكرر واكتفينا بالاشارة هنا .

وكاتب ياروقتاش الخادم نجم الدّين إيلغازي بن أُرتُق[1] لِيَصِلَ مِنْ ماردين ويدفع أق سنقر، وكاتب روجار صاحب أنطاكيـة أيضاً فوصل إلى بلد حلب، وأخذ ما قدر عليه من أعمال الشّرقية، فحينئذٍ أيس البرسقيّ من حلب، وانصرف من أرض بالس إلى حمص فأكرَمه خيرخان صاحبُها، وسار معه إلى طغتكين إلى دمشق فأكرمه، ووعده بإنجاده على حلب.

وَهادَنَ ياروقتاش صاحبَ أنطاكية روجار، وحمل إليـه مالا وسلّم إليه حصن القُبّة، ورتّب مسيرَ القوافل من حلب إلى القبلة عليه، وأن يؤخذ المكس منهم له.

ثم إنّ ياروقتاش طلع إلى قلعة حلب، وعزم على أن يعمل حيلةً يوقعها بالمقدّمين ويملكها مثل لؤلؤ، فقَبض عليه مقدّمو القلعة بأمر بنات رضوان بعد تمام شهر[2] من ولايته، وأخرجوه من حلب وَوَلّوا في القلعة خادماً من خدم رضوان.

وردّ أمر سلطان شاه وتقدمة العسكر وتدبير الأمور إلى عارض الجَيْش العميد أبي المعالي المحسن بن الملحّى[3]، فدبّر الأُمور وساسها؛ وضعفت حلب وَقلّ ارتفاعُها وخربت أعمالُها.

(١) أرتُق : بضمّ الهمزة وسكون الراء وضم التاء المثناة من فوقها وبعدها قاف – انظر وفيات الأعيان ١/٦١

(٢) في تاريخ العظيمي بالورقة ١٩٦ ظ : « وتسلّم أتابكية حلب يارقتاش الخادم شهورًا وعزل ».

(٣) في ابن القلانسي ١٩٩ : «إلى الأمير أبي المعالي المحسّن بن الملحمي العارض الدمشقي» – وفي تاريخ العظيمي : « وولي الأتابكية أبو المعالي بن الملحّى الدمشقي السُّلَمي » – وفي ابن الأثير ٨/ ٢٧٩ : « وولي بعده أبو المعالي بن الملحى الدمشقي ثم عزلوه ».

خبر ايلغازي بن أرتق

[١٣٦و] ووصل إيلغازي بن أرتق إلى حلب فأنزلوه في قلعة || الشّريف، ومنعوه من القلعة الكبيرة، واستولى على تدبير الأمور وتربية سلطان شاه في سنة إحدى عشرة وخمسمائة، وسلّموا إليه بالس والقليعة.

وقبض على أبي المعالي بن الملحّي، وقصر ارتفاع حلب عما يحتاج إليه ايلغازي والتركمان الّذين معه، ولم ينتظم له حال. واستوحش من أهل حلب وجُندها فخرج عنها إلى ماردين[1]. وبقيت بالس والقُليعة في يده، وأخرج ابن الملحّي من الاعتقال وأعيد إلى تدبير الأمور.

وأفسد الجُند الّذين ببالس في أعمال حلب فاستدعوا الفرنج، وخرجَ بعضُ عسكر حلب ومعهم قطعةٌ من الفرنج وحصروها، فوصل إيلغازي في جمع من التركمان إليها، فعاد عسكر حلب والفرنج عن بالس وباعها لابن مالك، وعاد إلى ماردين، وبقي تمرتاش ولدُه رهينةً في حلب[2].

ووصل في هذه السّنة أتابك طغتكين وأق سنقر البرسقي إلى حلب، وراسلَ أهلها في تسليمها فامتنعوا من إجابته، وقالوا: «ما

(١) في ابن الأثير ٨/٢٧٩: «فلما تسلّمه لم يجد فيه مالًا ولا ذخيرة، لأنّ الخادم كان قد فرق الجميع... فلما رأى ايلغازي خلو البلد من الأموال صادر جماعة من الخدم بمال صانع به الفرنج وهادنهم مدة يسيرة».

(٢) في المصدر المذكور: «واستخلف بحلب ابنه حسام الدين تمرتاش» — وفي ابن القلانسي ١٩٩: «وفسد عليه ما أرادوه، فخرج منها وبقي ولده حسام الدين تمرتاش» — وفي العظيمي، بالورقة ١٩٧ و: «فخرج منها ورهن ولده تمرتاش» — انظر ابن الأثير ٨/٢٨٤

نُريد أحدًا من الشّرق» وأنفَذوا واستدعَوا الفرنج من أنطاكية لدفعه عنهم، فعاد أق سنقر إلى الرّحبة وأتابك إلى دمشق.

ابن قراجا

واشتدّ الغلاء بأنطاكية وحلب، لأن الزّرع عَرِقَ ولِحقَهُ هَوَاءٌ عند إدراكه أتلفَهُ، وهَرَب الفلّاحون للخَوْف، واستدعى أهلُ حلب ابنَ قراجا من حمص، فرتّب الأمور بها، وحصّنها، وسار إلى حلب، ونزل في القَصر خوفاً من إيلغازي لِمَا كان بينهما.

وخَرَجَ أتابك إلى حمص، ونهب أعمالها وشَعَّثها، وأقام عليها مُدَّة، وعاد إلى دمشق لحركة الفرنج. وخرجت قافلةٌ من حلب إلى دمشق ‖ فيها تجار وغيرهم، وحملوا ذَخائرهم وأموالهم لما قد أشرفَ عليه أهلُ حلب. فلمّا وصلوا إلى القبّة نزل الفرنج إليهم، وأخذوا منهم المكس، ثم عادوا وقَبضوهم وما مَعَهم بأسرهم، ورفعوهم إلى القبّة، وحملوا الرجال والنساء بعد ذلك إلى أفامية، ومَعرّة النّعمان، وحبسوهم ليقرّوا عليهم مالًا. [١٣٦ظ]

فراسلهم أبو المعالي بن الملحى ورغّبهم في البقاء على الهدنة وأن لا ينقضوا العهد، وحمل إلى صاحب أنطاكية مالًا وهديّة، فردّ عليهم الأحمال والأثقال وغير ذلك، ولم يعدم منه شيء.

غارات الفرنج

وقوي طمعُ الفرنج في حلب لعدم النجد وضَعفها، وغدروا ونقضوا الهدنة، وأغاروا على بلد حلب، وأخذوا مالًا لا يُحصيه إلّا الله، فراسل أهل حلب أتابك طغتكين، فوعدهم بالإنجاد، فكسره جوسلين وعساكر الفرنج، وراسلوا

صاحب الموصل وكان أمرُه مضطرباً بعد عوده من بغداد .

ونزل الفرنج بعد عودهم من كسرة أتابك على عزاز ، وضايقوها ، وأشرفت على الأخذ ، وانقطعت قلوبُ أهـل حلب إذلم يكن بقي لحلب معونة إلّا من عزاز وبلدها ؛ وبقيّةُ بلد حلب في أيدي الفرنج ، والشرقيّ خراب مُجدب ، والقوتُ في حلب قليـلٌ جدًّا ، ومكوك الحنطة بدينار ، وكان إذ ذاك لا يبلغ نصف مكوك بمكّوك حلب الآن ، وما سوى ذلك مناسب له .

القسم الحادي والعشرون

ذكر

حلب في أيام نجم الدين إيلغازي بن أرتق

ملك إيلغازي في حلب - خبر سليمان بن إيلغازي - خبر بلك بن بهرام - نهاية إيلغازي

٥١١ هـ - ٥١٦ هـ

تملك إيلغازي في حلب

ويئس أهل حلب من نجدةٍ تصلهم من أحد من الملوك، فاتّفق رأيهم على أن سيّروا الأعيانَ والمقدّمين إلى إيلغازي بن أرتُق[1]، واستدعوه ليدفع الفرنج عنهم || وظنّوا أنّه يصل في عسكر يفرّج به عنهم، وضمنوا له مالًا يقسطونه على حلب يصرفه إلى العساكر. [١٣٧ و]

فوصل في جندٍ يسير والمدبّر لحلب جماعةٌ من الخدم؛ والقاضي أبو الفضل بن الخشّاب هو المرجوع إليه في حفظ المدينة والنظر في مصالحها؛ فامتنع عليه البلد، واختلفت الآراء في دخوله، فعاد فلحقه القاضي أبو الفضل بن الخشّاب[2] وجماعة من المقدّمين، وتلطّفوا به ولم يزالوا به حتّى رجع.

تسلم القلعة

ووصل إلى حلب، ودخلها، وتسلّم القلعة، وأخرج منها سائرَ الجند وأصحابَ رضوان وأنزل سلطان شاه بن رضوان وبنات رضوان في دار مِنْ دُورِ حلب.

وقبض على جماعةٍ ممّن كان يتعلّق بالخدم ويخدمهم، وأخذ منهم

(١) في ابن الأثير ٨/٢٨٨: «فأرسل أهل البلد إلى بغداد يستغيثون ويطلبون النجدة فلم يغاثوا وكان الأمير ايلغازى صاحب حلب ببلد ماردين يجمع العساكر والمتطوعة لغزاة، فاجتمع عليه نحو عشرين ألفًا».

(٢) في تاريخ العظيمي، بالورقة ١٩٧ ظ: «ونادى الناس بشعار نجم الدين بن أرتق، وشرّق إليه ابن الخشّاب وعاد صحبة العساكر الأرتقية ونزلوا قبلي حلب في سنة ثلث عشرة».

ما كان صار إليهم من مال رضوان ومال الخدم الّذين استولَوْا على حلب بعده .

وراسل الفرنج في مالٍ يحمله عن عَزاز ليرحلوا عنها ، فلم يلتفتوا لقوّة أطماعهم في أمر الاسلام ؛ وكان إيلغازي يعجز بحلب عن قُوتِ الدّواب ، وحلب على حدّ التّلف .

فلما عرف مَنْ بِعَزَاز ذلك ويئسوا من دفع الفرنج سلّموها إلى الفرنج ، وراسلهم مَنْ بحلب في صُلحٍ يستأنفونه معهم ، فأجابوا إلى ذلك لطفاً مِنَ الله بهم ، على أن يسلّموا إلى الفرنج تلّ هراق ويُؤَدُّون القطيعة المستقرّة على حلب عن أربعة أشهر ، وهي ألف دينار ، ويكون لهم من حلب شمالًا وغرباً .

وزرعوا أعمال عَزاز وقوّوا فلاحها وعادوا إلى أنطاكية وصار يدخل إلى حلب ما يتبلّغون به من القُوت .

وسار إيلغازي إلى الشّرق || ليجمع العساكرَ ويعودَ بها إلى حلب ، [١٣٧ظ]
فسار إليه أتابك طغتكين ، والتقاه بقلعة دوسر ، ووافقه على ذلك ؛ وسارت الرّسل إلى ملوك الشّرق والتّركمان يستنجدونهم .

مقتل ابن بديع

وكان ابنُ بديع رئيس حلب عند ابن مالك بقلعة دَوْسر ، فنزل إلى إيلغازي ليطلب منه العود إلى حلب ، فلمّا صار عند الزّورق ليقطع الماء إلى العسكر وَثَب عليه اثنان من الباطنيّة فضرباه عدّة سكاكين ، ووَقع ولداه عليهما فقتلاهما ، وقتل ابن بديع وأحد ولديه وجرح الآخر[1] . وحمل إلى القلعة فوثب آخر

(١) في تاريخ العظيمي بالورقة ١٩٧ ظ : «وقُتل صاعد بن بديع وولداه بقلعة دوسر» .

من الباطنيّة وقتله ، وحمل الباطني ليقتل فرمى بنفسه في الماء وغرق .

هجوم على الفرنج

وتوجّه إيلغازي إلى ماردين ومعه أتابك ، وراسلا مَنْ بَعُد وقَرُب من عساكر المسلمين والتّركمان ، فجمعا عسكرًا عظيماً ، وتوجّه إيلغازي في عسكر يزيد عن أربعين ألفاً في سنة ثلاث عشرة وخمسمائة ، وقطع الفُرات مِنْ عَبْرِ بَدايا وسنجة[١] .

وامتدّت عساكرُه في أرض تلّ باشر وتلّ خالد وما يقاربها ، يقتل وينهب ويأسر ، وغنموا كلّ ما قدروا عليه . ووصل مِنْ رُسُل حلب مَنْ يستحثّه على الوصول لتواصُل غارات الفرنج من جهة الأثارب وإياس أهلها من أنفسهم ، فسار إلى مرج دابق ثمّ إلى المسلمية، ثمّ إلى قنّسرين في أواخر صفر من سنة ثلاث عشرة وخمسمائة.

وسارت سراياه[٢] في أعمال الرّوج والفرنج يقتلون ويأسرون ، وأخذوا حصن || قسطون[٣] في الرُّوج ، وجمع سرجال[٤] صاحب [١٣٨ و] أنطاكية الفرنج والأرمن وغيرهم ، وخرج إلى جسر الحديد ، ثمّ

---

(١) في معجم البلدان لياقوت ٣/١٦٢: « سنجة : بفتح أوله وسكون ثانيه ثم جيم – قال الأدبي: هو نهر عظيم لا يتهيّأ خوضه لأن قراره رملٌ سيّال كلما وطئه الإنسان برجله سال به فغرّقه، وهو يجري بين حصن منصور وكيسوم وهما من ديار مضر – بالضاد المعجمة – » .

(٢) في المخطوطة جملة مكررة: «وقطع الفرات من عبر . . . وسارت» ولا محل لوجودها، وقد كتب فوق الجملة بخط دقيق « من لا . . . إلى » وهي دلالة الحذف ، وبدونها تستقيم الجملة ، على أن نبدل الكلمة في الأصل وهي «سراياهم» فنرسمها «سراياه» متابعة للسّياق .

(٣) انظر تعليقنا في حاشية الصفحة ٦٦ ، ومعجم البلدان لياقوت ٤/٩٧

(٤) سرجال هو : سير روجير « Sir Roger » ملك أنطاكية . – وفي ابن القلانسي ٢٠٠: «ووردت الأخبار ببروز روجير صاحب أنطاكية منها فيمن جمعه وحشده من طوائف الافرنج ورجالة الأرمن » – في ابن الأثير ٨/٢٨٩ : « سيرجال » .

رحلوا ونزلوا بالبلاط بين جبلين، ممـا يلي درب سرمدا[١]، شمالي الأثارب، وذلك في يوم الجمعة التّاسع من شهر ربيع الأول.

وضجر الأمراء من طُول المقام، وإيلغازي ينتظر أتابك طغتكين ليصل إليه ويتفقا على ما يفعلانه، فـاجتمعوا وحثُّوا إيلغازي على مُناجزة العدوّ فجدّد إيل غازي[٢] الأيمان على الأمراء والمقدّمين أن يُناصِحُوا في حربهم، ويصابروا في قتال العـدوّ، وأنّهم لا ينكلون ويبذلون مُهَجَهم في الجهاد، فحلفوا على ذلك بنفوسٍ طيبةٍ.

وسار المُسلمون جرايد، وخلّفوا الخيام بقنّسرين، وذلك في يوم الجمعة السّادس عشر من شهر ربيع الأوّل، فباتوا قريباً من الفرنج وقد شرعوا في عمارة حصن مطلّ على تل عفرين[٣] والفرنج يتوهّمون أن المسلمين ينازلون الأثارب أو زَرْدَنا، فما شعروا عنـد الصبح إلّا ورايات المسلمين[٤] قد أقبلتْ، وأحاطوا بهم من كل جانب.

وأقبل القاضي أبو الفضل بن الخشّاب يُحَرِّض النّاس على القتال، وهو راكب على حَجَرٍ وبيده رمحٌ، فرآه بعض العسكر فازدراه

---

(١) في ابن القلانسي ٢٠١ : «قد نزلوا في الموضع المعروف بِسَرمدا وقيل دانيث البقل بين أنطاكية وحلب» – وفي معجم البلدان لياقوت ٣/ ٨٢ : «سَرْمَدٌ : بلفظ السرْمد، الدائم، موضع من أعمال حلب» – وفي دوسو ٢٢١ أنها منذ الحروب المصرية القديمة وتسمى Sarmad أو Sarmeda وهي عند المؤرخين الفرنجة Sarmit .

(٢) وردت منفصلة في الأصل فتركناها كذلك كما في ابن القلانسي وغيره من المؤرخين.

(٣) في الأصل: «تلّ عقبرين»، ولكننا لم نقع عليها في الأماكن والمواقع، فتابعنا رواية ابن الأثير حيث يقول ٨/ ٢٨٨ : «تل عفرين» – وكذلك رواية العظيمي ١٩٨و.

(٤) في ابن الأثير ٨/ ٢٨٨ : «ولم تعتقد الفرنج أن أحدًا يقدم عليهم لصعوبة المسلك إليهم، فلم يشعروا إلّا وأوائل المسلمين قد غشيهم».

وقال : « إنّما جئنا من بلادنا تبعًا لهذا المعمّم ! » فأقبل على الناس ، وخطبهم خطبة بليغة استنهض فيها عزائمهم ، واسترهف هممهم بين الصفّين ، فأبكى النّاس وعَظُم في أعينهم .

نصر المسلمين

ودار طغان أرسلان بن دملاج مِن ورائهم ونزل في خيامهم ، وقَتل من فيها ونهبها ، وألقى || الله النصر على المسلمين ، وصار مَن انهزم من الفرنج وقصد الخيام قُتل . [١٣٨ظ]

وحَمل التُّرك بأسرهم حملةً واحدةً من جميع الجهات صدقُوهم فيها ، وكانت السّهام كالجراد ، ولكثرة ما وقع في الخيل والسّواد من السّهام عادت منهزمةً وغُلِبَتْ فُرسانها ، وطُحِنَت الرَّجالَـةُ والأتباع والغلمان بالسّهام ، وأخذوهم بأسرهم أسرى .

وقُتِل سرجال في الحرب[١] ، وفقد من المسلمين عشرون نفرًا منهم سليمان بن مبارك بن شبل ، وسلم من الفرنج مقدار عشرين نفرًا لا غير[٢] ، وانهزم جماعة من أعيانهم .

وقُتِل في المعركة ما يقارب خمسة عشر ألفاً من الفرنج ، وكانت الوقعة يوم السبت وقت الظهر[٣] ، فوَصَل البشير إلى حلب بالنّصر والمصافّ قائمٌ ، والنّاس يصلُّون صلاة الظهر بجامع حلب ، سمعوا صيحةً عظيمةً بذلك من نحو الغرب ، ولم يصل أحدٌ من العسكر إلى

(١) في ابن الأثير ٨ / ٢٨٩ : « وأما سيرجال صاحب أنطاكية فانه قتل وحمل رأسه » – في ابن القلانسي ٢٠١ : « ووجد مقدمهم روجير صريعاً بين القتلى » .

(٢) في العظيمي ١٩٨ و : « فلم يفلت من الفرنج دون العشرة مجروحين فلما وصلوا أنطاكية ماتوا ولم يقتل من المسلمين إلّا دون العشرة » .

(٣) في ابن الأثير ، بالصفحة المذكورة : « وكانت الوقعة منتصف شهر ربيع الأول» .

نحو صلاة العصر.

وأحرق أهلُ القرى القتلى من الفرنج، فوجد في رماد فارس واحدٍ أربعون نصل نشّاب، ونزل إيلغازي في خيمة سرجال، وحمل إليه المسلمون ما غَنِموه، فلم يأخذ منهم إلّا سلاحًا يُهديه لملوك الإسلام، وردّ عليهم ما حملوه بأسره.

ولمّا حضر الأسرى بين يدي إيلغازي، كان فيهم رجلٌ عظيم الخلقة مشتهرًا بالقوّة، وأسره رجلٌ ضعيفٌ قصيرٌ قليلُ السّلاح، فلمّا حضر بين يدي إيلغازي قال له التركمان: «أما تستحي يأْسرك مثل هذا الضّعيف وعليك مثل هذا الحديد؟» فقال: «والله ما أخذني هذا، ولا هو مولاي || [١٣٩ و] وإنّما أخذني رجلٌ عظيمٌ أعظم مني وأقوى، وسلّمني إلى هذا؛ وكان عليه ثوب أخضر وتحته فرس أخضر».

وتفرّقت عساكر المسلمين في بلد أنطاكية والسويدية وغيرهما يقتُلون ويأسرون وينهبون، وكانت البلاد مطمئنّة لم يبلغهم خبر هذه الوقعة، فأخذ المسلمون من السّبي والغنائم والدّواب ما يفوتُ الاحصاء. ولم يبقَ أحد من التّرك إلّا امتلأ صدره ويداه بالغنائم والسّبي.

دخول أنطاكية

ولقي بعضُ السّرايا بَغدوين الرويس [١] وابنَ صنجيل في خيلهما بالقرب من جبلة، وقد توجها لنصرة سرجال صاحب أنطاكية، فأوقع بهم التّرك، وقتلوا جماعةً وغَنموا ما قدروا عليه، وانهزم بغدوين وابنُ صنجيل، وتعلّقوا بالجبال.

(١) في الأصل: «الرولس» — باللّام قبل السين — وقد رأينا صحيحه عند ابن القلانسي وفي بغية الطلب ٧ / ٣٠٥ ظ: «الملك بغدوين الرّويس الفرنجي» وهو ملك القدس Baudouin.

ورحل إيلغازي إلى أرتاح ، وبادر بغدوين فدخل أنطاكية ، وسلّمت إليه أختُه زوجةُ سرجال خزائنَه وأمواله ، وقبض على أموال القتلى ودورِهم ، وأخذها وزوّج نِساء القتلى بمن بقي ، وأثبتَ الخيلَ وجمّعَ وحَشَد واستولى على أنطاكية ، ولو سبقه إيلغازي إلى أنطاكية لما امتنعت عليه .

ووصل أتابك إلى نجم الدّين بِأرتاح ، فعاد ونزل الأثارب ، وهجم الرّبَض ونهبه ، وقتل مَنْ قدر عليه ، وخرج أحداثٌ مِنْ حلب ونهبوا حصنها فطلبوا الأمان فأمّنهم بعد أن استأخذت ، وسيّرهم إلى مأمنهم .

ورحل منها إلى زَرْدَنا وكانوا قد حصّنوها وأحكموا عمارتها ، وقاتلها فطلبوا الأمانَ فأمّنهم ، وسيّرهم إلى أنطاكية || فلقيهم بعضُ [١٣٩ظ] التّركمان ، فنهبوهم وقتلوا بعضهم ومَضَوا إلى أهلهم .

وكان صاحبُ زَرْدَنا لمّا بلغه منازلتها حَمَل بغدوين والفرنج على الخُروج لاستنقاذها ، وقد عرفوا تفرّق التّركمان بالغنائم وعودهم إلى أهليهم ، وأنّ إيلغازي في عِدّةٍ قليلةٍ ، فبلغه ذلك فجدّ في قتالها حتى أخذها — كما ذكرناه — ورتّب أصحابَه بها ، وتوجه بمن بقي معه واستصحب معه عسكر أتابك وطغان أرسلان بن دملاج جرايد إلى دَانيث بعد أن ردّ الأثقال والخيام إلى قنّسرين .

ووصل إلى دانيث في يومه ، فوجد الفرنج قد نَزَلوها يوم فتحِهِ زَرْدَنا في مائتي خيمة وراجلٍ كثير ، وقيل إنهم كانوا يزيدون على أربعمائة فارس سوى الرّجالة ، وذلك في رابع جُمادى الأولى ، والتقوا فحمل صاحب زَردنا وأكثرُ خيل الفرنج على عسكر دمشق وحمص

وبعض التركمان ، فكشفوهم وانهزموا بين أيديهم ، وسار ليتدارك أمر زَردنا ، ويكبس الأثقال والخيامَ فعرف أخذها وتسيير الأثقال إلى قنّسرين فعاد .

نصر ايلغازي

وحمل بقيّة المسلمين على بغدوين ومَنْ كان معه ، فقتلوهم وردّوهم على أعقابهم ، فحينئذ حمل إيلغازي وطغتكين وطغان أرسلان فيمن بقي من الخواصّ على الفرنج ، فكسروهم وقتلوا أكثر الرّجالة وبعض الخيّالة ، وتبعوهم إلى أن دخلوا إلى حصن هاب[1] ، وغنموا أكثر ما كان معهم .

وعاد نجم الدّين وطغتكين وطغان أرسلان إلى دانيث ، فوجدوا [١٤٠ و] صاحب زَردنا والفرنج قد عادُوا بعد أن هَزَموا || مَنْ كان بين أيديهم من المسلمين ومعرفة أخذ المسلمين زَردنا ، فلقوهم وقتلوا منهم جماعةً كثيرةً ، وانهزم الباقون إلى هاب ، وعاد التّرك بالظّفر والغنيمة.

وحين بلغ مَن بقنّسرين مع الأثقال هَزيمة مَن كان في مقابلة صاحب زَردنا رحلوا إلى حلب ، وانزعج أهلُ حلب غاية الانزعاج، فوصلهم البشيرُ بعد ساعتَين بما بَدّل غمهم سروراً وهمّهم حبوراً .

وكان البشيرُ مِن الفرنج قد مضى إلى بلادهم وأخبر بكسرة صاحب زَردنا للمسلمين، فزيّنوا بلادهم، وأظهروا فيها الجذل والمسرّة فوصل ابنُ صنجيل مِن الكسرة بعد ذلك ، فانقلب سرورُهم حزنًا وراحتهم تعباً وعناء .

وكان صاحب زَردنا، وهو القومص الأبرص واسمُه روبارد[2]، قد

(١) انظر تعليقنا في حاشية الصفحة ٧٨ وارجع الى معجم البلدان ٤/ ٩٦٥ .

(٢) هو الكونت الأبرص روبير « Robert » .

سقط عن فرسه، فأدركه قومٌ من أهل جبل السمّاق من أهل مَرْيمين[١]، فقبضوه وحملوه إلى إيلغازي بظاهر حلب، فأنفذه إلى أتابك طغتكين، فقتله صبرًا.

ثم دخل إيلغازي إلى حلب، وأحضر الأسرى فأفرد[٢] أصحاب القِلاع والمقدَّمين وابنَ بيمند صاحب أنطاكية ورسول ملك الروم ونفرًا يسيرًا ممّن كان معه مال فأخذه وأطلقهم، وبقي من الأسرى نيّف وثلاثون رجلًا بذلوا من المال ما رَغِب عنه، فقتلهم بأسرهم.

وتوجّه من حلب إلى ماردين في جُمادى الأولى من سنة ثلاث عشرة وخمسمائة، ليجمع من التركمان مَن يعود به إلى بلد حلب؛ وكانت حلب ضعيفةً عن مقامه فيها، فخرج الفرنج إلى بلد المعرّة، فسبوا جماعةً، وأدركهم || جماعة من الترك فرجعوا. [١٤٠ظ]

ثمّ خرج بغدوين من أنطاكية في عسكره ونزل على زور[٣]، غربيّ البارة — وهو حصن كان لابن منقذ وسلّمه إليهم — ولما جرَت الوقعة الأولى على البلاط عاد وأخذه، فقاتله بغدوين، وأخذه في جُمادى الأولى، وأطلق مَنْ كان فيه. هروب بغدوين

ورحل إلى كفر روما[٤] فأخذَ حصنها بالسّيف، وقتل جميع من

(١) في الأصل: «مريمن» — ولم نقع على مثلها في معاجم الأماكن، ولعلّها «مريمين» وقد ذكر ياقوت في معجمه ٤/٥١٦: «ومريمين أيضًا من قرى حلب مشهورة» فتكون كما صوّبنا بل لعلّها في رسمها قريبة من كلمة مرّين، انظر الصفحة ٣٤٨ الآتية.

(٢) في الأصل: «فافرد» — وفي طبعة المستشرق: «فرّد» — وقد حافظنا على الأصل.

(٣) في الأصل: «علا زور».

(٤) في معجم البلدان لياقوت ٤/٢٨٨: «كَفَرْ روما: قرية من قرى معرة النعمان،

كان فيه ، ووصلوا إلى كفرطاب ، وقد أحرق ابن منقذ حصنها، وأخذ رجاله منه خوفاً منهم ، فرمّوه ، ورتّبوا رحالهم فيه ، وساروا إلى سرمين ومعرّة مصرين فتسلّموها بالأمان ، ثم نزلوا زَردنا ، ورحلوا عنها إلى أنطاكية .

ومع هذا فغارات عسكر حلب متواصلة على ما يقرب منهم ، وتعود بالظّفر والغنيمة .

جوسلين

ووصل جوسلين إلى بغدوين خاله وَقْت أخذه سَرمين، فأقطعه الرّها وتلّ باشر ، وسيّره إليها ، فأسرى إلى وادي بطنان[1] دفعتين ، وإلى ما يلي الفُرات من جهة الشّام ، وقتل وسَبى ما يقارب ألف نفس . وأغار جوسلين على منبج والنّقرة وأعمال حلب الشرقية ، وأخذ كلّ ما وجده من < دواب >[2] ، وأسر رجالاً ونساء ، وأسرى إلى الرّاوندان[3] يتبع طائفةً من التّركمان كانت قطعت الفُرات ، فاقتتلوا فانهزم الفرنج وقُتل منهم جماعةٌ .

وفي صفر من سنة أربع عشرة وخمسمائة ، وقعت مشاحنة بين والي الأثارب بلاق بن اسحاق صاحب نجم الدين إيلغازي وبين الفرنج فأسرى ومعه جماعة من عسكر حلب إلى أنطاكية ، فلقيهم عسكر

وكان حصناً مشهوراً خرّبه لؤلؤ السّيفي المعروف بالجرّاحي المتغلّب على حلب بعد أبي الفضائل بن سعد الدولة بن سيف الدولة في سنة ٣٩٣ » .

(١) انظر تعليقنا في حاشية الصفحة ٦١ .

(٢) طمست في الأصل أخذناها عن طبعة المستشرق فقد رآها قبل أن يصيبها البلل .

(٣) في معجم البلدان لياقوت ٢/٧٤١ : « الرّاوندان : قلعة حصينة وكورة طيبة معشبة مشجرة من نواحي حلب » .

أنطاكية فكسرهم، وعاد فتبعه الفرنج || والتقَوْا ما بين تُرمانين(١) وتلّ اغدي، من فرضة لَيْلُون. [١٤١و]

ووصل في هذه السَّنة إيلغازي بجمعٍ كثير من التّركمان، وقطع الفرات في الخامس والعِشرين من صفر، وتوجّــه إلى تلّ باشر، وأقام أياماً ولم يقاتلها، ورحل إلى عَزاز يريد أخذهــا، ولم يمكّن أحداً من التّركمان من تشعيث ضياعها، ورحل إلى أنطاكية وأقـام عليها يوماً واحداً، وأقام في أعمال الرّوم(٢) أياماً يسيرة.

ثم خرج إلى قنّسرين فتشوّشت قلوب التّركمـان لأنّهم أمّلوا من الغنائم مثل السَّنة الخاليــة، ولم يُقاتِل بهم حصناً، ولا غنموا شيئاً، وباع الأسرى الّذين أسرهم في الوقعــة الأولى، فعادوا إلى بلادهم، وبالغوا في التشفّي من المسلمين والقتل والسَّبي.

وجَرى مِنْ نجم الدين إساءةٌ إلى بعض التّركمان على شيء أنكره عليهم، فبالغ في هوانِهم وحَلَق لحى بعضهم، وقَطَع أعصابَهم، فتفرّق عسكره وبقي نفرٌ يسيرٌ متفرّقين في أعمال حلب.

فطمع الفرنج وخرجوا إلى دانيث، فوصل طغتكين وعسكرُ دمشق، واجتمعوا مع إيلغازي في عسكر يُقـاوم الفرنج، فساروا إلى الفرنج، وهم في ألف فارس وراجل كثير، فـدار التّرك حولهم فلم يخرج منهم أحدٌ وكرهوا أن يعودوا على أعقابهم فتكون هزيمة،

(١) في معجم البلدان لياقوت ١٥/٥ : « تُرمانين : بضم أوله وثانيه وفتح ثالثه ثم ألف ثم نونين بينهما تحتانية — قرية من أعمال الحلية لجُنب، وربما قيل فيها تلّ ترمانين». وهي اليوم قرية عامرة من أعمال حلب فكلمة الحلية مصحّفة في السطر السابق.

(٢) يقترح المستشرق في كتابه عن الحروب الصليبية أن تكون الكلمة هنا: «أعمال الرّوج».

فساروا نحو معرّة مصرين لا ينفرد منهم فارسٌ ولا راجل .

وأشرف التّرك على أخذهم ، ومَن خرج منهم قُتل ، ومن وقفت دابّته تركها وأخذت ، ولا يقدرون على الماء وهم على حالة الهلاك ، وإيلغازي وطغتكين يردّان الناس || عنهم بالعصا ، فنزلوا بقرب معرّة مصرين ، وعاد التّرك عنهم إلى حلب ، وعادوا إلى أنطاكية . [١٤١ظ]

وصالحهم إيلغازي إلى آخر سنة أربع عشرة ، على أنّ لهم المعرّة وكفرطاب والجبل والبارة ، وضِياعاً من جَبَل السُّمَّاق برسم هاب ، وضياعاً من ليلون برسم تل اغدي ، وضياعاً من بلد عَزاز برسم عزاز .

وسار نجم الدّين إيلغازي إلى ماردين ليجمع العساكر . وهَدَم إيلغازي زَردنا في شهر ربيع الأوّل . وكان أهل حلب قد شَكَوْا إليه تجديدَ رسوم جدّدت عليهم في أيّام رِضوان ، لم تجر بها عادة في دولة العرب ولا دولة المصريّين ولا في أيّام أق سنقر ، فأمر بكشفِ مقدارها ، فأخبر أنّها مبلغ اثني عشر ألف دينار في كلّ سنة ، فرَسَم بحذفها ، ووَقَّع لهم بذلك ، وكتب لوحاً بذلك ، وسَمَّره على باب الجامع وذلك في هذه السَّنة .

غدر الفرنج

وخرج الفرنج فقبضوا على الفلّاحين الّذين تحتَ أيديهم في هذه الأعمال من المسلمين وعاقبُوهم وصادروهم ، وأخذوا منهم من الأموال والغلّات ما تقوّوْا به ، وكانت الضِّياع الّتي في أيدي المسلمين قد عمرت ، واطمأنّوا بالصّلح ، فغدر اللّعين جوسلين ، وخَرَج فأغار على النّقرة[1] والأحصّ ، واحتجّ بأنه أسرله والي

(١) في الأصل : « المنقرة » وصحيحها ما أثبتنا فهي ترد صحيحة بعد سطرين .

منبج أسيرًا[١]، وأنّه كاتب في ذلك فلم ينصف، وذلك في شوّال، وقتل وسبى وأحرق كل ما في النّقرة والأحصّ؛ ونزل الوادي وعاثَ فيه.

ثم سار إلى تلّ باشر، ثمّ عاد وحشد وخرج وعمل كفعله الأول، وأخذ في غارته الأولى المشايخ والعجايز والضعفاء، فنزع || عنهم ثيابهم [١٤٢و] وتركهم في البرد عُراةً، فهلكوا بأجمعهم.

فأنفذ والي حلب إلى بَغدوين في ذلك، وقال: «إنّ نجم الدّين لم يترك هذه البلادَ خاليةً من العساكر إلّا ثقةً بالصلح» فقال: «ما لي على جوسلين يد». وتتابعت من جوسلين غاراتٌ متعددة.

ثم خرج الفرنج من أنطاكية عقيب ذلك، وأغاروا على بلد شَيْزَر وأخذوا ما لا يُحصى، وأسروا جمعاً، وطلبوا المقاطعة الّتي جرَت عادتُهم قبل الوقعة بأخذها، فبذل لهم ابنُ منقذ ذلك على أن يردّوا ما أخذوه، فلم يجيبوه إلى ذلك، فجعل لهم مالًا[٢] حملَه، وصالحهم إلى آخر السَّنة.

وهرب ملكُ العرب دبيس بن صدقة الأسديّ من المسترشد والسلطان محمود، فوصل إلى قلعة جَعْبر، فأكرمه نجم الدَّولة مالك[٣]، وأضافَه، ثمّ سار إلى إيلغازي إلى ماردين، وتزوَّج ابنَته[٤] فاستدّ به

---

(١) في الأصل: «أسيرًا الى منبج» وقد سقطت الواو، فرددناها وأخرنا كلمة «أسيرًا» ليستقيم المعنى.

(٢) في الأصل: «فحصل إليهم مالًا حمله» — وهي مصحّفة صوبناها كما ترى.

(٣) في ابن القلانسي ٢٠٣: «وانهزم دبيس إلى قلعة جعبر مستجيرًا بصاحبها الأمير شهاب الدين مالك بن سالم بن مالك فأجاره وأكرمه واحترمه. وقيل انه انعقد بينهما صهر».

(٤) في ابن الأثير ٢٩١/٨: «وفيها أرسل دبيس بن صدقة القاضي أبا جعفر عبد الواحد ابن أحمد الثقفي قاضي الكوفة إلى ايلغازي بن أرتق بماردين يخطب ابنته، فزوجها منه ايلغازي وحملها الثقفي معه إلى الحلة واجتاز بالموصل» — انظر خبر لجوئه إلى ايلغازي في ابن الأثير ٢٩٣/٨.

وأجاره ، ووصل معه الأموال العظيمة والنّعمة الوافرة ، وحمل إليه إيلغازي ما يفوتُ الإحصاء .

خراب حلب

فاشتغل إيلغازي بدبيس عن العبور إلى الشّام ، فخرب بلد حلب ، واستولى الفرنج على معظمه، وأغار جوسلين إلى صِفّين ، وسبى العربَ والتركمانَ ، ونزل بزاعا وقاتلها ، وأحرق بعضَ جدارها ، وصونع على شيء ودخل بلده .

ثمّ هجم الفرنج ، في صفر من سنة خمس عشرة وخمسمائة ، الأثاربَ ، وقتلوا جماعةً وأحرقوها وأسروا من لم يعتصم بالقلعة .

ثمّ إنّهم في ربيع الآخر من السّنة ، نزلوا نواز[1] ، وزحفوا إلى الأثارب ثانيةً ، وأحرقوا الدُّور والغلّة . وسار || بغدوين ، وأغار على [١٤٢ظ] حلب، وأخذ الناس والدوابّ من حاضر حلب ومن الفنادق[2]، وأخذ ما يجلّ قدرُه من الماشية ، وأسر نحوًا من خمسين أسيرًا .

وصاح الصائحُ فخرج نفرٌ يسيرٌ من العسكر فظفروا بالفرنج وخلّصوا المواشي ، وعاد الفرنج إلى أعمالهم .

خبر سليمان بن إيلغازي

وكان النائب بحلب شمس الدّولة سليمان بن نجم الدين إيلغازي . وكان إيلغازي قد ولّى رئاسةَ حلب ، في سنة أربع عشرة في رجب ،

(١) في معجم البلدان لياقوت ٤/٨١٦ : « نَوَاز : بالفتح ثم التخفيف وآخره زاي – قرية كبيرة فيها تفاح كبير مليح اللون أحمر في جبل السُّمّاق من أعمال حلب ».

(٢) كذا في الأصل ، ولعلها : « الفنيدق » وهو موقع بظاهر حلب ؛ ولكننا لا نستطيع أن نقطع بالأمر لأننا لم نقع على مثل ذلك في المصادر الأخرى .

مكيّ بن قرناص[١] الحمويّ، وجعله بين يديه، فكتب إلى ولده ونوّابه يأمرهم بصُلح الفرنج على ما يريدون، فصالحوهم على سرمين والجزر وليلون وأعمال الشمال على أنها للفرنج، وما حول حلب للفرنج منه النّصف، حتى أنّهم ناصفوهم في رحى العربية[٢]، وعلى أن يهدم تلّ هراق بحيث لا يبقى للفئتين فيه حكم، وطلبوا الأثارب فأجاب إيلغازي إلى ذلك، فامتنع مَن كان فيها من التّسليم فبقيت في أيدي المسلمين.

وكان الـذي تولّى الصلح جوسلين وجفري، وكان بَغدوين في القدس، فلما وصل رضي بذلك، وشرع في عمارة دَيْر خراب قـديم، بالقرب من سرمدا[٣]، وحصَّنه ثمّ أطلقه لصاحب الأثارب سيرألان دمسخين[٤].

وأمر إيلغازي ولدَه بإخراب قلعة الشّريف المجدّدة بحلب وإخراج مَنْ كان فيها من جُند رضوان، فأخرجهم شمس الدّولة وابن قرناص بعُذْرِ الإغارة على أعمال الفرنج، وأغلقت أبواب حلب في وجوههم، وتولّى الرئيس مكيّ بن قرناص خَرابها في جُمادى الآخرة.

واستنجد الملك طغرل بإيلغازي بن أرتق على الكرج وملكهم

(١) في ابن الأثير ٨/٣٠٣: «انسان من أهل حماة من بيت قرناص كان قـد قدمه إيلغازي على أهل حلب وجعل إليه الرياسة».

(٢) يذكر المؤرخون أن الرّحا كانت بظاهر باب الجنان، وقد ترجم المستشرق هذه العبارة إلى الفرنسية فقال:

« La moitié du moulin de la femme arabe »

(٣) انظر دوسو ٢٢١ وحاشية الصفحة ١٨٨ السابقة.

(٤) هذه الكلمة غير منقوطة في الأصل، والاسم قريب في الرسم من « Meschin » وهو « Alain Seigneur de Cerez » وقد ترجمه المستشرق برسم: «Sir AlanDe...» – انظر حاشية الصفحة ٢١٠.

[١٤٣ و] داود ، فسار || إليه في عالم عظيم ، ومعه دُبَيْس بْنُ صدقة ، فكسرهم المسلمون ، ودخلوا وراءهم في الدَّرب ، فكرَّ الكرج عليهم في الدَّرب ، فانهزم المسلمون وتبعهم الكرج قتلًا وأسرًا . ونُهب لِدُبَيْس ما مقداره ثلاثمائة ألف دينار ، ووصل مع نجم الدين إيلغازي إلى ماردين سالمًا .

عصيان سليمان

وأنفذ إيلغازي إلى ابنه سليمان بحلب يلتمس منه أشياء ، فقَبَّحَ ذلك عنده ، وقيل له أشياء أوجبت عصيانه على والده ، فعصى وأخرج الملوك سلطان شاه وابراهيم وغيرهما من حلب ، فمضوا إلى قلعة جعبر ، ومدَّ يده في مصادرة أهل حلب وظلمهم والفساد .

وقيل : إن دُبَيس بن صدقة لما سار مع إيلغازي إلى الكرج سأل إيلغازي في الطَّريق أن يَهَب له حلب وأن يحمل إليه دُبيس مائة ألف دينار يجمع بها التركمان ويعاضده حتى يفتح أنطاكية ، فأجابه إيلغازي إلى ذلك ، وأخذ يده على ذلك .

فلما وقعت كسرة الكرج بدا له من ذلك ، فأنفذ إلى ولده سليمان وكان خفيفًا[١] ، وقال له : « أظهر أنك قد عصيتَ عليّ حتى يبطل ما بيني وبين دُبيس » . فحمله الجهلُ على أن عصى ونابذ أباه ، ووافقه مكيّ بن قرناص والحاجب ناصر ، وهو شحنة[٢] حلب وغيرها .

وقبض سليمان حجّاب أبيه فصفعهم وحلق لحاهم ، ومدّ يده إلى أموال النّاس وظلمهم ، فطمع الفرنج وقرّبهم سليمان ، فنزلوا زردنا

(١) انظر خبر عصيان سليمان بن ايلغازي في ابن الأثير ٨ / ٣٠٣

(٢) الشِّحنة والشِّحنكيّة : حاكم البلد أو صاحب الشرطة أو الأمير المشرف على حراسة المدينة ، على ما يرد في تواريخنا القديمة — انظر معجم دوزي ١/٧٣٣ .

وعمروها لابن صاحبها كليام بن الأبرص .

ثم سار الفرنج إلى باب حلب ، فكبسوا في طريقهم حاضرَ طَيِّئ وغيرها ، فخرج إليهم الحاجب ناصر والعسكر ‖ فكسروهم وقتلوا [١٤٣ظ] منهم جماعة .

وخرج بغدوين في جمادى الآخرة ، فنازل خناصرة ، وأخذها وخرّبها ، وحمل باب حصنها إلى أنطاكية ، ونزل برج سبنا ففعل به كذلك ، وكذلك فعل بغيرهما من حصون النّقرة والأحصّ ، وسبى وأحرق ونهب .

وعاد فنزل صِلدع ـ على نهر قُوَيْق ـ ، وخرج إليه اترد[1] بن تُرك طالباً منه الصّلح مع سليمان ، فقال : « على شرط أن يعطيني سليمان الأثارب حتى أحفظه ، وأنا أذبّ عنه وأقاتل دونه » . فقال له : « ما يجوز أن نسلّم ثغرًا من ثغور حلب في بدوّ مملكته ، بل التمسْ غير هذا ممّا يمكن ليوافقك عليه » فقال له : « الأثارب لا يقدر صاحب حلب على حفظها ، فانّي قد عمرتُ عليها الحصون بما دارت ، وأنا أعلمكم أنها اليوم تشبه فرساً لفارس قد عطبت يداها ، وللفارس هري[2] شعير يعلفُها رجاء أن تبرأ ويكسب عليها ، فنفد هُري الشّعير ، وعطبت الفرس ، وفاته الكسب » . ثمّ رحل نحوها ، فحصرها ثلاثة أيّام ، واتّصل به ما أوجب رحيله إلى أنطاكية .

استسلام سليمان

ولما بلغ إيلغازي إصرار ولده على العصيان ضاقت عليه الأرض ، وأعمل في الوصول إليه وأخذ حلب منه ،

(١) لعله اتسز بن ترك .

(٢) الهُري : بالضم — بيت كبير يجمع فيه طعام السلطان ج أهراء .

فكاتبه أقوام وعرّفوه أنّ ما بحلب من يدفعه عنها، فسار حتى وصل إلى قلعة جعبر فضعفت نفس ابنه سليمان عن العصيان على أبيه، فأنفذ إليه من استحلفه على الصّفح عنه والاحسان إليه وإلى من حسّنَ لـه العصيان مثل ابن قرناص وناصر الحاجب، وأكّد الأيمانَ على ذلك[١].

[١٤٤ و] ودخل حلب في أول شهر رمضان || فخرج الناس للقائه، ودخل إلى القصر، وأحسن إلى أهل حلب، وسامحهم بشيء من المكوس، وصرّف الشّحنة الّذي كان يؤذي الناس في البلد.

وقبض على الرّئيس مكي بن قرناص وعلى أهـله، وشقّ لسانه وكحله[٢] وأخذ ما وُجد له، وسلّم أخاه إلى من يعذّبه ويستصفي ماله.

وكحل ناصر الحاجب[٣]، فعني بـه مَنْ تولّى أمره فسملت[٤] إحدى عينيه، وعرقب[٥] طاهر بن الزائر، وكان من أعوان الرئيس مكي.

وأعاد الملوكَ أولاد رضوان من قلعـة جعبر إلى حلب، وخطب

(١) في ابن الأثير ٨/٣٠٣: «فلم يشعر به سليمان حتى هجم عليه، فخرج إليه معتذرًا، فأمسك عنه».

(٢) في ابن الأثير ٨/٣٠٤: «وقطع يديه ورجليه وسمل عينيه فمات وأحضر ولده وهو سكران فأراد قتله فمنعه رقة الوالد فاستبقاه فهرب إلى دمشق».

(٣) في ابن الأثير ٨/٣٠٣: «وقبض على من كان أشار عليه بذلك، منهم أمير كان قد التقطه أرتق والد ايلغازي ورباه اسمه ناصر، فقلع عينيه وقطع لسانه».

(٤) في الأصل: «فسلمت» بتقديم اللام على الميم؛ وهو تصحيف صوابه كما أثبتنا، وسَمَلَ عين فلان: فقأها بحديدة محماة وقلعها.

(٥) عَرْقَب الدابّة: قطع عرقوبها. والعُرْقوب: كجُمْهُور: عصب غليظ موتّر فوق عقب الانسان.

بنت الملك رضوان، وتزوّج بها، ودخل بها بحلب. وولّى رئاسة حلب سلمان بن عبد الرزّاق العجلاني البالسي، وولّى ابن أخيه بدر الدّولة سليمان بن عبد الجبار نيابته في حلب[1]، وصالح الفرنج مدّة سنة كاملة، وأعطاهم من الضياع ما كان في أيديهم أيّام مملكتهم الأثارب وزردنا[2].

موت ابن الموصول

وسار في محرّم من سنة ستّ عشرة وخمسمائة إلى الشرق ليجمع العساكر، فمات وزيرُه بحلب أبو الفضل بن الموصول في صفر ووَلي الوزارة أبو الرجاء بن السرطان.

خبر بلك بن بهرام

وعبر إيلغازي وبلك في سابع عشر شهر ربيع الآخر الفُرات — وكان بلك غازي ابن أخيه بهرام بن أرتق، واستدعاه من أعمال الرُّوم وبيده عدة قلاع بالقرب من ملطية — وصحبتها عدّة من التُّركمان دون ما جرت عادته باستصحابه، فعزل أبا الرجاء بن السرطان عن الوزارة، وقبض عليه لسعاية سُعي به إليه عليه.

ونَزَلَ إيلغازي زَردنا، نَزَل عليها في || العشرين من جُمادى الأولى، [١٤٤ظ]
وحصرها أياماً وأخذ حوشها. وكان صاحبها قد سمع حين عبر إيلغازي الفُرات أنه ينزلها، فجمع أصحابه واستحلفهم على المصابرة من وقت نُزولهم عليها مدّة خمسة عشر يوماً، وحلف هُو لهم على أن ينجدهم،

(١) في ابن الأثير ٨/٣٠٦: «واستناب بحلب سليمان ابن أخيه عبد الجبار بن أرتق ولقبه بدر الدولة».

(٢) انظر خبر ذلك في ابن القلانسي ٢٠٩

ومضى على أن يستجيش ، فان جازتْ هذه المدّة ولم يصلهم فإنّه يبتاعُ دماءهم بكلّ ما يملكه . وقال لهم : « واللهُ لكم عليّ من الشاهدين ، لئن لم يخلصكم إلا إسلامي إنْ قبلَه أسلمتُ على يديه لخلاصكم » .

وخرج حتى وصل إلى بغدوين صاحب أنطاكية ، وهو بأكناف طرابلس في حكومة بينه وبين صاحبها ، فأخبره بعبور إيلغازي وبما بلغه من قصده زَردنا ، فقال : « مذ حلفنا له وحَلَف لنا ما نكثنا ، وحفظنا بلده في غيبته ونحن شيوخ ، وما أظنه يَغْدرُ ، بل ربّما قصد طرابلس أو قصدني في القدس ، لأنني ما صالحته إلّا على أنطاكية وأعمالها، بل يجب أن تعود إلى أفامية وكفرطاب وتكشف ما يتجدد ». فعاد وكشف الأمر .

وسيّر إلى بغدوين فأعلمه بنزوله على زردنا ، فصالح صاحب طرابلس ، وشرط عليه الوصول إليه . ووصل أنطاكية ، واستدعى جوسلين ، ونصب المسلمون مجانيق أربعة على زَردنا، وأخذوا الفصيل الأوّل ، فوَصل الفرنج بعد أربعة عشر يوماً من مُنازلة المسلمين لها ، فنزلوا تحت الدَيْر .

وبلغ الخبر إيلغازي ، فترك زردنا وتوجّه نحوهم، فنزل نوَاز، وطلب أن يخرج الفرنج من المضيق إلى السَّعة فلم يخرجوا، فرحل إلى تلّ السّلطان ، وأتابك طغتكين في صحبته ، فخرج الفرنج فنزلوا على
[١٤٥ و] نواز || وهجموا ربض الأثارب وأحرقوا البيدر والجدار .

ودخل صاحبُها يوسف بن ميرخَان[1] قلعتَها ، ونزلوا أَبين ، ورحلوا

(١) في تاريخ العظيمي بالورقة ١٩٩ ظ : « يوسف الحرامي ».

منها فنزلوا دانيث[1]، وأقاموا عليها فلم يصلهم أحد، فعادوا إلى بلادهم، فعاد إيلغازي فنزل زَردنا، وهجم الحوش الثاني، وقتل جماعة من الفرنج.

نهاية إيلغازي

مرض ايلغازي

فعاد الفرنج ونزلوا تحت الدَّيْر، فرحل إيلغازي إلى نواز، وأقام ثلاثة أيّام يزاحف الفرنج وهم لا يخرجون إلى الصَّحراء، فاتّفق أن أكل إيلغازي لحمَ قديدٍ كثيراً وجوزاً أخضر وبطيخاً وفواكهَ، فانتفخ جوفُه وضاق نَفَسُه، واشتدّ به الأمر، فرحل إلى حلب، وتزايد به المرض، فسار طغتكين إلى دمشق وبلك غازي إلى بلاده.

ودخل إيلغازي ليتداوى بحلب، فنزل القصر، ولم يخلص من علّته. وخرج عسكر حلب في ألف فارس إلى تُبَّل[2] من عمل عزاز، ومعهم أمراء منهم دَولب[3] بن قتلمش، فنهبوا وعادوا؛ فوقع عليهم عند حربل كليام[4] في أربعين فارساً، فانهزم المسلمون وقتل منهم جماعة.

---

(١) انظر تعليقنا في حاشية الصفحة ١٧٦ وارجع إلى معجم البلدان لياقوت ٢/ ٥٤٠

(٢) في معجم البلدان لياقوت ١/٨٢٣ : « تُبَّل : بالضم ثم الفتح والتشديد ولام — من قرى حلب ثم من ناحية عزاز بها سوق ومنبر ».

(٣) في تاريخ العظيمي بالورقة ٢٠٠و : « وأغار دولاب بن قطلمش على بلاد اعزاز فقتله كليام صاحب عزاز .

(٤) هو (غليوم Cuillaume). — وأما حربل فلم تقع لنا في المعاجم التي بين أيدينا.

وفي شهر رجب من هذه السنة، ظفر بلك غازي باللّعين جوسلين وابن خالتـه قلران[1] بالقُرب من سروج، فأسرهما وأسر ابن أخت طنكريد، وقد كان أسره في وقعـة ليلون، واشترى نفسه بألف دينار وأسر ستّين فارساً.

وطلب من جوسلين وقلران أن يسلّما مـا بأيديهما من المعاقل فلم يفعلا، وقالا: «نحنُ والبلاد كالجمال[2] والحدج، متى عقر بعير حُوّل رحله إلى آخر؛ والذي بأيدينا قد صار بيد غيرنا». فأخذهما ومضى إلى بلده.

[١٤٥ظ] ووَصل || الفرنج بعد ذلك من تلّ باشر[3] في شعبان، وكبسوا تلّ قبّاسين[4]، فخرج النائب ببزاعا مع أهلها فالتقوا، وانهزم المسلمون وقتل منهم تسعون رجلا.

موت ايلغازي

وأمّا إيلغازي فأقام أياماً، وصَلح مِنْ مرضه، وسار إلى ماردين، ثم خرج منها يريد ميّافارقين، فاشتـدّ مرضُهُ في الطّريق، وتوفّي بالقرب من ميّافارقين بقرية يقال لها «عجولين»[5]، في أول شهر رمضان من سنة ستّ عشرة وخمسمائة.

(١) هو (غاليران Caléran) – في ابن القلانسي ٢٠٨: «وابن خالته كليام».

(٢) الحِدج: بالكسر، هو الحمل يشد على البعير.

(٣) انظر تعليقنا على موقع هذه القلعـة في الصفحتين ١٤٨، ١٥٨ وارجع الى كتاب سوريا في عهد المالك لديومبين ص ٩٢ والحاشية عن هارقان.

(٤) انظر تعليقنا في حاشية الصفحة ١٣٢ السابقة وارجع إلى معجم البلدان لياقوت ٨٦٩/١

(٥) في ابن القلانسي ٢٠٨: «وورد الخبر بوفاة الامير نجم الدين إيل غازي بن أرتق بعلّة عرضت له، وهو نازل في قرية تعرف بالفحول من عمل ميا فارقين من ديار بكر، في السادس من شهر رمضان من السنة» – ولم نقع في معاجم البلدان على ذكر لاسم قرية «الفحول» او «عجولين»؛ ولعل ابن القلانسي صحّف كلمة «المجول» أو «عجولين» إلى الفحول.

القسم الثاني والعشرون

ذِكْرُ

حَلَبَ في أيامِ بقيةِ بني أُرتُق

مُلْكُ سُليمان بن عبد الجبار بن أُرتُق ـ مُلْكُ بلك بن بهرام بن أُرتُق ـ مُلْكُ تمرتاش بن ايلغازي بن أُرتُق

مُلْكُ آق سُنْقُر البرسُقي

٥١٦ هـ ـ ٥٢١ هـ

مُلك سُليمان بن عبد الجبار بن أرتق

وملك ابنهُ سليمان ميّافارقين ، وابنُه تمرتاش ماردين ، وابنُ أخيه بدر الدّولة سليمان بن عبد الجبـار بن أُرتق حلب . ولما سمع صاحب أنطاكية بوفاته حشد عسكره وجماعـة من الأرمن ، ونزل وادي بزاعا ، وعاث فيه وأفسد ما قدر عليه ، وحمل إليه أهلُ « الباب »من الوادي مالًا وخدموه .

فرحل إلى بالس وقاتلها بالمنجنيقات ، وقرّروا على بالس مع ابن مالك مالًا يحمل إليه ، فأسرف في الطلب وكان ببالس جماعـة من التركمان ومن خيل حلب ، فخرج أهلها والخيل التي عندهم واقتتلوا ، فقُتِل من الفرنج جماعةٌ من المقدّمين ، وظفر المسلمون أحسن ظفر .

فرحل بغدوين إلى الوادي وقد وصل ‹ سليمان بن ›[1] إيلغازي فحصر البيرة ، وتسلّم حصنها على أن يؤمّن أهلها على أنفسهم فأخذهم وسار بهم إلى أنطاكية ، وتتابعت غارات الفرنج حول حلب إلى آخر سنة ستّ عشرة وخمسمائة .

ووّلى بدر الدّولة سليمان الوزارة بحلب أبا الرّجـاء ‹ سَعْد ›[2] الله بن هبة الله بن السّرطان ، في صَفَر ، بعد ما قبضَ عليه || إيلغازي – كما تقدم ذكره – [١٤٦ و]

ابن السرطان

(١) هذه الكلمة مطموسة في الأصل رأينا ان غلاّها بما ترى متابعة للسياق .

(٢) هذه الكلمة غامضة في الأصل ، قد أصابتها رطوبة فطمستها – وهي في تاريخ

وجدّد بدرُ الدّولة المدرسة الّتي بالزّجاجين بحلب، المعروفة ببني العجمي، بإشارة أبي طالب بن العجمي. وذكر لي أنّه عزم على أن يقفها على الفرق الأربع، ونقل آلتها من كنيسة داثرة كانت بالطّحّانين بحلب.

وفي العاشر من شهر صفر من سنة سبع عشرة وخمسمائة، استقر الصّلح بين بدر الدّولة صاحب حلب وبين بغدوين صاحب أنطاكية، على أن يسلّم بدر الدولة إليه قلعة الأثارب فتسلموها[1]، وصارت لصاحبها أولًا سيرألان دمسخين[2]، وبقيتْ في يده إلى أن مات، وكانت في يد الحاجب جبريل بن برق[3]، فعوّضه بدر الدّولة عنها شِحنكيّة حلب.

مُلكُ بلك بن بَهرام بن أرتق

وفي يوم الأربعاء تاسع عشر صفر، سار بغدوين صاحب أنطاكية

العظيمي ٢٠٠ ظ: «أبو الرجاء بن السرطان» من غير ذكر لاسمه – وفي الزبد والضرب بالورقة ١٣ و: «ولّى بدر الدولة سليمان الوزارة بحلب أبا الرجاء سعدالله بن هبة بن السرطان» والزبد ينقل عن الزبدة لذلك تابعناه – ارجع الى الصفحة ١٧٣ بالمتن.

(١) في ابن الأثير ٣١١/٨: «وكان بحلب حينئذ بدر الدولة سليمان بن عبد الجبار بن أرتق – وهو صاحبها – ولم يكن بالفرنج قوة وخافهم، فهادنهم على أن يسلم الأثارب ويكفوا عن بلاده، فأجابوه إلى ذلك وتسلموا الحصن وتمت الهدنة بينهم».

(٢) مرّ بنا هذا الاسم في ص ١٩٩ غير منقوط، وهنا وضع له الناسخ نقطة على الخاء واثنتين تحت الياء فأصبح (دمسخين) وقد اقترح المستشرق في حاشية ترجمته أن تكون «Meschin» تصحيفًا لكلمة «Medecin» وهو الطبيب بالفرنسية؛ ولم نقع عليه في المصادر الأخرى لنقض النظرية أو قبولها.

(٣) هذه الكلمة غير منقوطة كذلك، فلهذا حرنا كما حار المستشرق في ضبطها فلعلها «برق» أو «يُرق York»!

ليقاتل نور الدّولة بلك بن بهرام بن أرتق ، وكان محاصراً قلعة كركر[١] ، فالتقيا على موضع اسمه « اورش » بالقرب من قنطرة سنجة[٢] ، فكسره نور الدّولة بلك ، وأسره ، وقتل معظم عسكره ومقدّميه ونهب < خيمه > ، وفتح < الكركر >[٣] بعد جمعة ؛ وكان في دون عدّة الفرنج . وجعل بغدوين في خرتبرت[٤] مع جوسلين وقلران .

ثمّ إنّ نور الدولة بلك عبر الفُرات ونزل على حلب وضايقها ، ونزل من قبليّها ، ثم انتقل إلى بانقوسا[٥] وأقام أيّاما ، ورحل إلى أرض النّيرب[٦] ، وجبرين[٧] ، وأمر بحرق الغلّة وأخذ الدّواب .

---

(١) في معجم البلدان لياقوت ٤/ ٢٦٣ : « كَرْكَر : بالفتح ثم السكون وكاف أخرى وراء – . . حصن بين سيساط وحصن زياد ، وهو قلعة وقد خربت » – وحصن زياد ليس إلّا خربوط أو (خرتبرت) – وقد مرّ بنا ذلك من قبل .

(٢) مرّ بنا هذا الاسم من قبلُ ، وهو حيناً بالصاد وحيناً بالسين ، فارجع إلى تعليقنا في حاشية الصفحة ١٨٧ ، وانظر في معجم البلدان لياقوت ١٦٣/٣

(٣) كلمتان مطموستان الآن ، وقد قرأهما المستشرق والمخطوطة لم تصب بهذا البال العظيم ، فنقلناها عنه ص ٦٣٦ ، وعن ابن الأثير ٣١٣/٨

(٤) في معجم البلدان لياقوت ٤١٧/٢ : « خرتبرت : بالفتح ثم السكون وفتح التاء المثناة وباء موحدة مكسورة وراء ساكنة وتاء مثناة من فوقها – هو اسم أرمني ، وهو الحصن المعروف بحصن زياد الذي يجيء في أخبار بني حمدان ، في أقصى ديار بلاد بكر من بلاد الرّوم ، بينه وبين ملطية مسيرة يومين وبينهما الفرات » – وقد قلنا قبل سطور إنه « خربوط » ، وقد رسم في مرآة الزمان لسبط ابن الجوزي ١١١/٨ :« خرت برت » .

(٥) في معجم البلدان لياقوت ٤٨٢/١ : « بانَقُوسا : بالقاف – جبل في ظاهر مدينة حلب من جهة الشمال » – وقد أصبح اليوم داخل المدينة ، وما يزال معروفاً بهذا الاسم .

(٦) النَّيْرَب : قرية قديمة كانت قائمة على تلّ مرتفع ، وهي في الجنوب الشرقي من حلب على بعد عشرة كيلومترات ، وما تزال تحمل هذا الاسم إلى اليوم .

(٧) جبرين : قرية شرقي حلب قريبة من النيرب .

ومضي قطعة من عسكره إلى حدادين[١] ، فأخذ أحدهم عنزاً ، فرماه بعض فلّاحي الضيعة بسهم فقتله فحصرت مغارتها وأخذت بعد أن امتنع أهلها من التسليم ، فدخّنوا || على المغارة فاختنق بها مائة وخمسون . [١٤٦ظ]

وخنق في مغارة تلّ عبّود وتعجين جماعـة وسبوا نساء عفر تنّور[٢] وأولادها وباعوا بعضهم واستعبدوا بعضًا وأخذ لاهل حلب جشير[٣] خيل ثلاثمائة رأس، وكان حريق الزرع من رهقات[٤] بلك وكان سبباً للغلاء العظيم .

دخوله حلب

وفي صباح يوم الثلاثاء ، غرة جمادى الأولى من سنة سبع عشرة وخمسمائة ، تسلّم مدينة حلب سلّمهـا إليه مقلّد بن سقويق بالأمان ومفرّج بن الفضل، ونودي بشعار بلك من عدّة جهات، وكسر باب أنطاكية ، وأخربت ثلمة من غربي باب اليهود .

وفي يوم الجمعة رابع الشهر تسلّم القلعة وجلس بها بعد ما نزل بدر الدّولة منها بيوم ، وقرر حالهـا ، وأخرج سلطان شاه بن رضوان ، وسيّره إلى حرّان ، وكان قد فتحها في شهر ربيع الآخر خوفاً منه .

ثم إنّه سار إلى البارة وهجمها، وأسر الأسقف الّذي بها وقيّده، ووكّل به ، ورحل إلى كفرطاب فغفـل الموكّل به فهرب إلى

(١) لم نقع على موقع القرية في معاجم البلدان التي في أيدينا ، وقد رسمت بالذال المنقوطة بعد الحاء في الأصل المخطوط .

(٢) « تلّ عبّود » ، « تعجين » ، « عفر تنّور » : أعلامٌ لم نقع على تحديد لها أو تفسير في المعاجم التي بين أيدينا .

(٣) الجشير : الجُوالق الفخم .

(٤) الرَّهق : اسم من الإرهاق وهو حمل الانسان على ما لا يطيقه ، وهو الإثم .

كفرطاب[1]، فعزم على قتال حصنها واسترجاع الأسقف في يوم الثلاثاء الثاني عشر من جمادى الآخرة.

أسرى الفرنج

فوصله مَنْ أخبره أنّ بغدوين الرّويس وجوسلين وقلران وابن اخت طنكريد وابن أخت بغدوين وغيرهم من الأسرى الّذين كانوا مسجونين بجب خرتبرت عاملوا قوماً من أهل حصن خرتبرت فأطلقوهم[2]، ووثبوا على الحصن فملكوه، وأخذوا كلّ ما كان لنور الدّولة فيه وكان جملة عظيمة، فقال جوسلين: «كنا قد أشرفنا على الهلاك والآن فقد خلصنا، والصواب أن نمضي ونحمل ما قدرنا عليه». فما سمحتْ نفس بغدوين بترك الحصن || والخروج [١٤٧ و] منه.

فاتّفق رأيهم على خروج جُوسلين، وحلّفوه على أنّه لا يُغيّر ثيابه ولا يأكل لحماً ولا يشرب إلّا وقت القربان إلى أن يجمع جموع الفرنجة ويصل بهم إلى خرتبرت ويخلّصهم.

وأما بلك فإنّه سار حتّى نزل على خرتبرت ففتحه بالسّيف في ثالث وعشرين من رجب، وقتل كل من كان بـه من أصحابه[3] الّذين كفروا نعمته ومن كان فيه من الفرنج، ولم يستبقِ سوى بغدوين الملك وقلران وابن أخت بغدوين، وسيّرهم إلى حرّان وحبسهم بها.

---

(١) في تاريخ العظيمي ٢٠١ و: «هرب من عسكر بلك اسقف البارة، وخلص».

(٢) في ابن الأثير ٨/٣١٣: «فأعمل الفرنج الحيلة باستمالة بعض الجند فظهروا وملكوا القلعة» — في ابن القلانسي ٢١٠: «عملوا الحيلة فيما بينهم وملكوا القلعة وهربوا».

(٣) في ابن القلانسي ٢١٠: «وفي الشهر المذكور توجّه الأمير نور الدولة بلك في عسكره إلى خرتبرت وضايق قلعتها إلى أن استعادها من الافرنج الواثبين عليها، ورتب فيها من يحفظها ويتيقظ فيها» — وفي ابن الأثير ٨/٣١٣ ما يقرب من هذا النص.

اغارة جوسلين

وأما جوسلين فمضى إلى القدس ، واستنجد بالفرنج ، ووصلوا تلّ باشر ، فسمعوا خبر فَتْح خرتبرت بالسَّيف فسار إلى الوادي وقاتل بزاعا وأحرق بعض جدارها ثم أحرق الباب وقطع شجره ، وأحرق ما سواه من الوادي .

ثم نزل حيلان[1] ثم حلب من ناحية « مشهد الجفّ » من الشمال ، وخرّب المشاهد والبساتين ، وكسر الناس عند « مشهد طرود » بالقرب من بستان النّقره ، وقتل وسبى مقدار عشرين نفراً .

ثمّ رحل ونزل الجانب الغربي في البقعة السوداء ، وخرب مشاهد الجانب القبلي وبساتينه ، ونَبَش الضريح الّذي بِ « مَشْهد الدكَّة » فلم يجد فيه شيئاً فألقى فيه النار ، والحلبيّون في كل يوم يقاتلونه أشدّ قتال ، ويخسر معهم في كلّ حركة .

ثم رحل يوم الثلاثاء مستهلّ شهر رمضان ، ونزل السعديّ ، وقطع شجره ، وافترقوا منه وسار كلّ إلى بلده ، ووجد في منازلهم التي نزلوها نيّف وأربعون حصاناً موتى ، ونبش || الناس منهم موتى جماعة . [١٤٧ظ]

فأمر القاضي ابن الخشّاب بموافقة من مقدّمي حلب أن تهدم محاريب الكنائس الّتي للنصارى بحلب ، وأن يعمل لها محاريب إلى جهة القبلة وتغيّر أبوابها ، وتتّخذ مساجد : فَفُعِل ذلك بكنيستهم العظمى ، وسُمّي مسجد السرّاجين[2] : وهو مدرسة الحلاويين

(١) حَيْلان : قرية قريبة من حلب فيها عين تصل بمياهها إلى حلب – انظر معجم البلدان لياقوت ٣٨٢/٢

(٢) في الأعلاق الخطيرة لابن شداد ، الجزء الأول ، مخطوطة رومة ، بالورقة ٧٦ ظ : « ان القاضي أبا الحسن بن القاضي أبي الفضل بن الخشاب الحلبيّ ، لما حاصر الفرنج حلب في

الآن . وكنيسة الحدادين : وهي مدرسة الحدادين[١] الآن ؛ وكنيسة بدرب الحراف : وهي مكان مدرسة ابن المقدّم[٢] . ولم يترك للنّصارى بحلب سوى كنيستين لا غير ، وهي الآن باقية .

هذا كلّه ونور الدّولة بلك غائب عن مدينة حلب في بلاده .

ثم إنّ جوسلين خرج في تاسع عشر شهر رمضان إلى الوادي والنّقرة والأحصّ ، وأخذ ما يزيد عن خمسمائة فرس كانت في الغريب[٣] ، حتّى لم يبقَ بحلب من الخيّالة خمسون فارسًا لهم خيل ؛ وأخذ من الدّواب البقر والغنم والجمال ما لا يُحصى ، وقتل وسبى وخرب ما أمكنه وعاد إلى تل باشر .

وخرج سير ألان في عسكر أنطاكية من الأثارب حتى وصل الحانوتة وحافا ، وأخذ ما كان بقي من خيل حلب في الغريب في الجانب القبليّ ، وذلك مقدار ثلاثمائة فرس ؛ وأخذ قافلة كانت واصلةً من شيزر بغلّة .

سنة ثمان عشرة وخمسمائة ، وبعثروا القبور التي بظاهرها وأحرقوا من فيها عمدوا إلى أربع كنائس من الكنائس التي كانت بها وصيّروها مساجد وكانت هذه المدرسة تعرف قديمًا بمسجد السرّاجين ، ولما ملك نور الدين حلب وقفه مدرسة وجدّد فيه مساكن يأوي اليها الفقهاء ، وأيوانًا » .

(١) تحدث عنها ابن شدّاد في مخطوطة الأعلاق ، بالورقة ٨١ ظ ، بعنوان : « المدرسة الحدّادية » ؛ وقال انها كانت من الكنائس الأربعة التي تهدمت ثم بنيت من جديد.

(٢) في مخطوطة الأعلاق الخطيرة لابن شدّاد ، بالورقة ٨٢ ظ : « المدرسة المقدّمية : أنشأها عز الدين عبد الملك المقدم ، وكانت أحدى الكنائس الأربع التي صيّرها القاضي أبو الحسن ابن الخشّاب مساجد في سنة ثمان وعشرة وخمسمائة » — وفي الورقة ٣٥ ظ : أنها كانت في درب الحطّابين .

(٣) يبدو أنه كان موضعًا للخيول قائمًا خارج جدران المدينة في القسم الجنوبي منها ، كما يظهر بعد قليل من سياق الكلام .

ثم عبر جوسلين من الفرات إلى شَبَخْتان وأغار على تركمان وأكراد، فأخذ من الغنم والخيل ما يزيد على عشرة آلاف وسَبَى وقتل، ومَنْ سَلِم له فرس من عسكر حلب يخرجون مع الحراميّة ولا يقطعون الغارات على بلادهم، ويحضرون الأسارى مرّة بعد أخرى.

[١٤٨ و] ثم أغار ‖ جوسلين على الجَبُّول[1]، وما حولها، وأخذ دوابّ كثيرة وتوجّه إلى دير حافر[2]، فخنق أهلها بالدّخان في المغاير، وفتح المقابر، وسلب الموتى أكفانهم.

هرب المسلمين

وفي يوم الأربعاء سادس عشرين من ذي القعدة، عبر بلك إلى الشّام وقبض على نائب بهرام داعي الباطنية بحلب، وأمر بإخراجهم من حلب فباعوا أموالهم ورحالهم وخرجوا منها.

ثم انّ الأمير نور الدّولة بلك جمع العساكر، ووصله أتابك طغتكين بعسكر دمشق وعسكر آق سنقر البرسقي، وعبروا حتى نزلوا على عزاز، وضايقوها بالحصار، وأخذوا عليها نقوباً إلى أن سهل أمرها، فتجمّع الفرنج وقصدوا ترحيل المسلمين عنها فالتقى الجيشان، وهزم المسلمون، وتفرّقوا بعد قتل مَن قُتل وأسر من أُسر.

وعمّر بلك حصن الناعورة[3] بالنّقرة وحصن المغارة ــ على شطّ

(١) في معجم البلدان لياقوت ٢٩/٢: «الجَبُّول: بالفتح ثم التشديد، والواو ساكنة ولام – قرية كبيرة إلى جنب ملّاحة حلب، وفي الجبُّول ينصبّ نهر بُطنان وهو نهر الذهب، ثم يجمّد ملحاً فيمتار منه كثير من بلدان الشام وبعض الجزيرة» – وما يزال هذا الموضع معروفاً بهذا الاسم إلى اليوم.

(٢) في معجم البلدان لياقوت ٦٥٣/٢: «دير حافر: قرية بين حلب وبالس».

(٣) في معجم البلدان لياقوت ٧٣٣/٤: «النّاعورة: بلفظ ناعورة الدولاب – موضع

الفرات — وتروّج بالخاتون فرخنده خاتون بنت رضوان ، وعَرَّس بها في ثالث وعشرين ذى الحجّة من سنة سبع عشرة وخمسمائة .

عودة بلك

وفي المحرّم من سنة ثماني عشرة وخمسمائة ، تنكّر بلك على رئيس حلب [سلمان العجلاني وجعل عليها](١) رجلًا من أهل حرّان اسمه محمد بن سعدان ، ويعرف بابن سعدانة ، وكثر الأمن من الدّعار وقطّاع الطريق عند قدوم بلك حلب ؛ وأقام الهيبة العظيمة ؛ وتقدّم بفتح أبواب حلب ليلًا ونهارًا ، وحسم مادّة أرباب الفساد . وقال للحارس : « إنْ عدتُ سمعتُك تصيح ضربتُ عنقَك ! » .

ونقل بغدوين ومَنْ كان معه من حبس حرّان ، فحبسه في قلعة حلب .

وتوجّه ‖ في شهر صفر فرقةٌ من أصحابه الأتراك إلى ناحية عَزاز ، [١٤٨ظ] فوقع بينهم وبين الفرنج وقعةٌ عند مشحلا(٢) ، وظَفِر بهم الأتراك ، وقتلوا منهم أربعين رجلًا من الخيّالة والرّجالة وأخذوا أسلابهم ، ووصل الباقون عَزاز وما فيهم إلّا من جُرح جراحاً عدّة .

وانقطع المطر في كانونين ونصف شباط ، ثم تـدارك فأخصب

بين حلب وبالس فيه قصر لمسلمة بن عبد الملك . . . وبينه وبين حلب ثمانية أميال » — ولكننا لم نعرف أين موقع حصن المنارة في معاجم البلدان سوى ما نوّه به ابن العديم من قوله إنها على شط الفرات .

(١) نرى أن هذه العبارة ناقصة غامضة في المخطوطة ، فلعل الناسخ نسي جملة وسها عن نقلها ، فأردنا أن نكملها فوضعنا بين حاصرتين ما يسدّ الثغرة . وقد رأينا في تاريخ العظيمي ، بالورقة ٢٠١ ظ ما يعيننا على ذلك ، واليك عبارة العظيمي : « جلس على رياسة حلب محمد بن سعدان الحراني وعزل عنها سلمان العجلاني » .

(٢) في معجم البلدان لياقوت ٥٣٧/٤ : « مَشْحَلا : بالحاء مهملة والقصر — قرية من نواحي عزاز من أعمال حلب » .

الزرع واستغلّ الناس ، وكان بحلب غلاء شديد[١] .

صاحب منبج

وفي صفر من سنة ثماني عشرة وخمسمائة ، تنكّر نور الدّولة بلك على حَسَّان بن كمشتكين صاحب منبج لشيء بلغه عنه ، فأنفذ قطعةً من عسكره مع ابن عمه تمرتاش بن إيلغازي بن أرتق ، وتقدّم إليهم أن يمرّوا على منبج ، ويطلبوا من حَسَّان أن يخرج معهم للإغارة على تلّ باشر فإذا خرج قبضوه[٢] ، ففعلوا ذلك ، ودخلوا منبج ، وعصى عليهم الحصن ودخله عيسى أخو حسان .

وسُيّر حسان فحُبس في حصن بالو[٣] بعد أن عوقب وعُرّي ، وسحب على الشوك فلم يُسلّمها أخوه .

نصر المسلمين

وكتب عيسى إلى جوسلين : « إن وصلتَني وكشفتَ عني عسكر بلك سَلَّمْتُ إليكَ منبج » . وقيل : إنه نادى بشعار جوسلين بمنبج ، فمضى إلى بيت المقدس وطرابلس وجميع بلاد الفرنج ، وحشد ما يزيد على عشرة آلاف فارس وراجل ، ووصل نحو منبج ليرحل بلك عن منبج .

فسار إليه بلك لمّا قرب من منبج ، والتقيا يوم الاثنين ثامن عشر

---

(١) في تاريخ العظيمي ، بالورقة ٢٠١ ظ : « واحتبس المطر بالشام كانونين وشباط ، ثم تدارك الغيث ، فزرع الناس واستوى الزرع وحصدوا واستغلوا » – انظر عبارة ابن القلانسي ٢١٢ في وصف القحط واحتباس الغيث بأرض الشام .

(٢) في ابن الاثير ٣١٥/٨ : « في هذه السنة في صفر قبض بلك بن بهرام بن ارتق صاحب حلب على الأمير حسان البعلبكي صاحب منبج ، وسار اليها فحصرها فملك المدينة وحصر القلعة فامتنعت عليه » .

(٣) في معجم البلدان لياقوت ٤٨٠/١ : « بَالُو : قلعة حصينة ، وبلدة من نواحي ارمينية بين أرزن الروم وخلاط » .

شهر ربيع الأوّل ، واقتتـــل العسكران ، وانهزم الفرنج ، وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون إلى آخر النهار .

وحمل فيهم بلك || ذلك اليوم خمسين حملةً يفتك فيهم ويخرج [١٤٩و] سالماً ، يضرب بالسيوف ويطعن بالرماح ولا يكلم ، وعـاد إلى منبج فبات مصلّياً مبتهلاً إلى الله تعالى لما جدده على يده من الظفر بالفرنج .

وأصبح يوم الثلاثاء تاسع عشر ربيع الأول فقتل كلّ أسير أسره في الوقعة ، ثم زحف نحو الحصن ليختار موضعاً ينصب فيه المنجنيق ، وعليه بيضة وبيده ترس .

مقتل بلك

وكان قد عزم على أن يستخلف ابنَ عمه تمرتاش بن إيلغازي على حصار منبج ، ويطلع منجداً لأهل صور ، فانّ الفرنج كانوا في مضايقتها[1] . وفي تلك المضايقة أخذوها ، فبينا كان بلك قائماً يأمر وينهى إذ جاءه سهم من الحصن . وقيل : إنّه كان من يد عيسى ، فوقع في ترقوته اليسرى فانتزعه وبصق عليه ، وقال : « هذا قتـل المسلمين كلهم » . ومات لوقته[2] .

وقيل : بقي ساعات وقضى نحبه ــ رحمه الله ــ وحُمل إلى حلب ، ودفن بها قبليّ مقام ابراهيم ــ عليه السّلام ــ .

---

(١) في الأصل : « كانوا مضايقها » – ولعلها كما صوبنا متابعة للسّياق .

(٢) في ابن الاثير ٣١٥/٨ : « وعاد إلى منبج فحصرها ، فبينا هو يقاتل من جا اتاه سهم فقتله لا يدري من رماه واضطرب عسكره وتفرقوا وخلص حسان من الحبس ؛ فكان حسام الدين تمرتاش بن ايلغازي بن أرتق مع ابن عمه بلك ، فحمله مقتولاً الى ظاهر حلب » . — انظر العبارة نفسها في فصل عماد الدين زنكي ، بالصفحة ٣٨٢

ملك تمرتاش بن ايلغازي بن أرتق

تمرتاش في حلب

ووصل حسام الدين تمرتاش بن إيلغازي إلى حلب يوم الأربعاء العشرين من شهر ربيع الأوّل، ودخل القلعة ونصب علمه، ونادى الناس بشعاره[١].

وسار سليمان بن إيلغازي من ميّافارقين إلى خرتبرت وحصون بلك، وهي نيّف وخمسون موضعاً فتسلّمها.

وسار داود بن سكمان، فأخذ حصن بالو وأطلق حسّان بن كمشتكين فعاد إلى منبج[٢].

فأمّا تمرتاش فإنّه لمّا ملك حلب ألهاه الصّبي واللعب عن التشمير والجدّ والنظر في أمور الملك، ففسدت الأحوال، وضعف أمر المسلمين بذلك، واستوزر أبا محمّد بن الموصول، ثم عزله وصادره [١٤٩ظ] || في رجب من سنة ثماني عشرة واستوزر أبا الرّجاء بن السّرطان، وولى الرئاسة بحلب فضائل بن صاعد بن بديع.

وسيّر إلى حرّان فحمل منها سلطان شاه بن رضوان، وكان بلك أسكنه بها؛ فاعتقله في دار بقلعة ماردين وكان فيها طاقة فتدلّى منها بحبل وهربَ إلى دارا، ثم رحل منها إلى حصن كيفا إلى داود بن سكمان.

أعمال تمرتاش

وفي العشر الأواخر من ربيع الأول سار نائب جوسلين من الرها وأغار على ناحية شبختان ونهبها فسار إليه

(١) في المصدر نفسه: «وتسلمها في العشرين من ربيع الأول من هذه السنة».
(٢) في المصدر عينه: «وزال الحصار عن قلعة منبج وعاد إليها صاحبها حسان».

نائب تمرتاش عمر الخاص وكان نائبه وربيب أبيه إيلغازي وركب خلفه في ثلاثمائة فارس فلحقه على مرج اكساس ، فقاتله وهزمه وقتله ، وقتل أكثر من كان معه من الفرنج ، وعاد غانماً ، وأنفذ رؤوسهم وما غنمه إلى تمرتاش إلى حلب .

وولّاه تمرتاش شحنكية حلب وهو المدفون في القُبّة التي مقابل باب مشهد ابراهيم ـ عليه السلام ـ واسمه مكتوب على جهاتها الأربع .

وولّى قلعة حلب رجلًا يقال له عبد الكريم .

وفي غرة جمادى الأولى من هذه السنة استقرّ الأمر بين الملك بغدوين صاحب أنطاكية ـ وكان في سجن بلك بحلب ـ وبين تمرتاش ابن إيلغازي على تسليم الأثارب وزردنا والجزر وكفرطاب وعلى تسليم عزاز وثمانين ألف دينار وقدّم منها عشرين ألف دينار .

وحلف على ذلك وعلى أن يُخرِجَ دُبَيسَ بْنَ صَدَقَةَ من
دبيس بن صدقة النّاس ، وكان قد وصل دبيس منهزماً من المسترشد[1] بعد أن كسره المسترشد ، وقتل خلقاً من عسكره فترك || بلاده ، [١٥٠ و]
وحمل ما قدر عليه من العين والعروض على ظهور المطايا ؛ ووفد على ابن سالم بن مالك بن بدران إلى قلعة دوسر ، واستجار به فأجاره ، وغاضب المسترشد والسلطان محمودًا في أمره .

وكاتب دُبَيْس قومًا من أهل حلب ، وأنفذ لهم جملة دنانير ، وسامهم تسليمها إليه[2] ، وكشف ذلك رئيسها فضائل بن صاعد بن بديع ،

(١) في بغية الطلب ، المخطوطة ، ٣٠٦/٧ وما يليها ، تفصيل ما وقع بين المسترشد ودبيس
(٢) انظر ابن الاثير ٢١٦/٨

فأطلع على ذلك تمرتاش بن إيلغازي، فأخذهم وعذّبهم وشنق بعضهم، وصادر بعضاً، وأحرق بعضاً.

غدر بغدوين

وكان المتوسّط حديث بغدوين مع تمرتاش الأمير أبو العساكر سلطان بن منقذ، وسيّر أولاده وأولاد إخوته رهناً عن بغدوين إلى حلب.

وفكّت قيود بغدوين وأحضر إلى مجلس تمرتاش، وتواكلا وتشاربا وخلع عليه قباء ملكيًّا وقلنسوة ذهب وخفافاً ورانا[1]؛ وأُعيد عليه الحصان الذي كان أخذه منه بلك يوم أسره، فركبه، وسار إلى شيزر يوم الأربعاء رابع جُمادى، فبقي عند أبي العساكر حتى أحضر جماعة رهنًا على الوفاء بما شرطه لتمرتاش وهم: ابنته، وابن جوسلين، وغيرهما من أولاد الفرنج؛ وعدّتهم اثنا عشر نفرًا. وحمل العشرين ألف دينار التي عجّلها.

وقبض صاحبُ شيزر الرّهائن، وأطلق بغدوين من سجن شيزر، في يوم الجمعة سابع عشر شهر رجب، فخرج ـ لعنه الله ـ وغدر بتمرتاش وأنفذ إليه يقول: « البطريرك الّذي لا يمكن خلافه سألني عما بذلت، وما الذي استقرّ، فحين سمع حديثَ عزاز وتسليم حصنها منّي أبى، وأمرني بالدفع عنها || وقال إنّ خطيئتك تُلزمني؛ ولا أقدر على خلافه ». فتردّدت الرُّسل بينهما فلم يستقرّ على قاعدة[2]. [١٥٠ظ]

دبيس وبغدوين

وخالط دبيس جوسلين وبغدوين، وصافاهم وصافوه بوساطة الأمير مالك بن سالم صاحب قلعة جعبر، واتّفق

(١) الرّان: حذاء كالخف إلّا أنه أطول منه ولا قدم له. وأصله رين فقلبت الياء ألفًا.
(٢) في الأصل: « فلم يستقر قاعده » – ولعلّها كما صوبنا.

دبيس والفرنج على قواعد تعاهدوا عليها منها أن تكون حلب لدبيس والأموال والأرواح[1] للفرنج مع مواضع من بلد حلب تكون للفرنج ؛ وتقدّم دبيس إلى مرج دابق[2] فخرج إليه حسام الدّين تمرتاش فكسره .

وسار تمرتاش من حلب عندما علم بغدر الفرنج به إلي ماردين، في الخامس والعشرين من شهر رجب، ليستنجد بأخيه سليمان بن إيلغازي ويجمع العساكر، وبقي بنو مُنقِذ رهائن بقلعة حلب عند تمرتاش ؛ وأولاد الفرنج رهائن عند أبي العساكر بن منقذ بشيزر .

والرسل مع هذا تتردّدُ بين تمرتاش وبغدوين إلى أن عادت الرسل في ثامن عشر شعبان مخبرة بنقض الهدنة، وبخروج بغدوين إلى أرتاح قاصدًا النزول على حلب .

ورحل بغدوين من أرتاح حتى نزل على نهر قويق وأفسد كلّ ما كان عليه، ثمّ رحل فنزل على باب حلب، في يوم الاثنين السادس والعشرين من شعبان، وهو السادس من تشرين الأوّل .

وخرج دبيس وجوسلين من تلّ باشر، وقصدا ناحية الوادي، وأفسدا القُطْنَ والدُّخن[3]، وسائر ما كان به وقوّم ذلك بمائة ألف

(١) في بغية الطلب ٧/٣٠٧ ظ : « وأخبرني والدي رحمه الله عن أبيه أن دبيس بن صدقة عاهد الفرنج على أنهم يحاصرون حلب وتكون الأنفس والأموال للفرنج والبلاد لدبيس » .

(٢) انظر في موقع مرج دابق، زبدة الحلب ١/٢٩٦ بالحاشية .

(٣) الدخن : نباتات عشبية من النجليّات فيه أنواع كثيرة تنبت بريّة في أنحاء الشام، وفيه أنواع تزرع لحبّها – انظر معجم الألفاظ الزراعية للامير مصطفى الشهابي ص ٤٧٤

دينار ، ورحلا ونزلا مع بغدوين على حلب ، ووصل إليهم الملك سُلطان شاه بن رضوان .

[١٥١ و] ونزل بغدوين مقدّم ‖ الفرنج من الجانب الغربي من حلب في الحلبة ، ونزل جوسلين على طريق عَزاز وما يجاوره يمنة ويسرة . ونزل دبيس وسلطان شاه بن رضوان مما يلي جوسلين من الشّرق ؛ وفي صحبة دبيس عيسى بن سالم بن مالك .

ونزل يغي سيان بن عبد الجبّار بن أُرتق صاحب بالس[1] مما يلي دبيس من الشّرق ، وكانت عدّة الخيم ثلاثمائة ؛ للفرنج مائتا خيمة وللمسلمين مائة خيمة .

اعمال الفرنج

وأقاموا على حلب يزاحفونها ، وقطعوا الشجر وخربوا مشاهد كثيرة ، ونبشوا قبور موتى المسلمين ، وأخذوا توابيتهم إلى الخيم[2] وجعلوها أوعيةً لطعامهم ، وسلبوا الأكفان ، وعمدوا إلى من كان من الموتى لم تنقطع أوصاله ، فربطوا في أرجلهم الحبال ، وسحبوهم مقابل المسلمين .

وجعلوا يقولون : « هذا نبيّكم محمد ! » وآخر يقول : « هٰذا عليّكم ! » وأخذوا مصحفاً من بعض المشاهد بظاهر حلب وقالوا : « يا مسلم أبصر كتابكم » . وثقبه الفرنجي بيده ، وشدّه بخيطين ، وعمله

(١) في بغية الطلب ٧/٣٠٩ ظ : « ونزل الفرنج غربي البلد وغربي قويق ومعهم عليّ بن سالم بن مالك وصاحب بالس أخو بدر الدّولة » .

(٢) في المصدر نفسه : « فقطعوا الشجر وأخرجوا المشاهد الظاهرة ، وكان عدد الخيم ثلثمائة خيمة مائة للمسلمين . ونبش الفرنج القبور وأخرجوا الموتى بأكفانهم ، وعمدوا إلى من كان طريّاً فشدّوا الحبال في ارجلهم وسحبوهم مقابل المسلمين » .

ثفرًا[1] لبرذونه ؛ فظل البرذون يروثُ عليه ، وكلما أبصر الرَّوث على المصحف صَفَّق بيديه وضحك عجباً وزهواً .

وأقاموا كلّما ظفروا بمسلم قطعوا يديه ومذاكيره ودفعوه إلى المسلمين ؛ والمسلمون يفعلون بمن يأسرونه من الفرنج كذلك .

وربّما شنق المسلمون بعضهم ، ويخرج الغزاة من باب العراق ، ويسرقونهم من المخيم ، ويقطعون عليهم الطّرق ، ويقتلون ويأسرون . ويصيح المسلمون على دبيس من الأسوار : « دبيس ، يا نحيس » ! والرسل تتردد بينهم في الصّلح ، ولا يستتبّ || إلى أن ضاق الأمر [١٥١ظ] بالمسلمين جدًّا .

وكان بحلب بدر الدّولة سليمان بن عبد الجبّار والحاجب عمر الخاص ، ومعهما مقدار خمسمائة فارس ؛ والذي يتولّى تدبيرها وهو في مقام الرئاسة القاضي أبو الفضل بن الخشّاب وتولّى حفظ المكان وبذل المال والغلال .

الحلبيون عند تمرتاش

فاتفقوا على أن سيّروا جدّ أبي قاضي حلب القاضي أبا غانم محمد بن هبة الله بن أبي جرادة ونقيب الأشراف وأبا عبد الله بن الجلي[2] فخرجوا ليلاً ، ومضوا إلى تمرتاش إلى ماردين مستصرخين إليه ومستغيثين به فوجدوه وقد مات أخوه سليمان بن إيلغازي صاحب ميافارقين في شهر رمضان ؛ وسار تمرتاش إلى بلاده ليملكها ، واشتغل بملك تلك البلاد عن حلب .

---

(١) الثفر : بالتحريك وقد يسكّن – السّير الذي في مؤخر السَّرج ، ج. أثفار .

(٢) في بغية الطلب ، المخطوطة ٧/٣٠٧ ظ : « وتوجّه جدّ أبي القاضي أبو غانم والشريف النقيب وابن الجلّي يستغيثون إلى تمرتاش فما أغاثهم » .

وكانت الرسلُ مترددةً بينه وبين أق سنقر البرسقيّ صاحب الموصل في اتِّفاق الكلمة على قصد الفرنج وكشفهم عن حلب ؛ فاشتغل بهذا الأمر عن هذا التقرير ، والحلبيون عنده يمَنِّيهم ويمطلهم.

ولما خرج الحلبيُّون من حلب بلغ الفرنج ذلك فسيّروا خلفهم من يلحقهم ، فلم يدركهم وأصبحوا في صباح تلك اللّيلة وصاحوا إلى أهل حلب : « أينَ قاضيكم ؟ وأينَ شريفكم[1] ؟ » فأُسقِط في أيديهم إلى أن وصل منهم كتابٌ بخبر سلامتهم.

وبقي الحلبيّون عند تمرتاش يحثّونه على التَّوجّه إلى حلب ، وهو يعدهم ولا يفعل ، وهم يقولون له : « نريد منكَ أن تصلَ بنفسك ، والحلبيون يكفونك أمرهم ».

فضاق الأمر بالحلبيّين إلى حدٍّ أكلوا فيه الكلاب والميتات ، وقلّتِ الأقواتُ[2] ، ونفد ما عندهم ، وفشا المرض فيهم ، فكان

(١) في بغية الطلب المخطوطة ٦/٢٧٥ ظ : « فأخبرني والدي أبو الحسن أحمد وعمي أبو غانم محمد، وحديث أحدهما ربما يزيد على الآخر قالا : سمعنا جدك – يعنيان أباهما أبا الفضل هبة الله – يقول : لما اشتد الحصار على حلب ، وقلّت الأقوات بها ، وضاق الامر بهم ، اتفق رأيهم على أن يسيروا أبي القاضي أبا غانم قاضي حلب والشريف زهرة وابن الجلي إلى حسام الدين تمرتاش إلى ماردين ، وكان هو المتولي حلب وهي في أيدي نوابه ، وقد تركها ومضى إلى ماردين واشتغل بملك تلك البلاد عن حلب ، قال : فاتفقوا على ذلك وأخرجوا أبي والشريف وابن الجلي ليلًا من البلد .

فلما أصبح الصباح صاح الفرنج إلى أهل البلد أين قاضيكم وأين شريفكم ؟ قال : فانقطعت ظهورنا وتشوشت قلوبنا، وأيقنا بأنهم ظفروا بهم ، فوصلنا منهم كتاب يخبر أنهم قد وصلوا إلى مكان أمن عليهم بالوصول فطابت قلوب أهل حلب لذلك » .

(٢) في بغية الطلب ، المخطوطة ، ٦/٢٧٥ و : « وطال حصار حلب وأشرفت على الاستيلاء عليها وبلغ بهم الضرر الى حالة عظيمة حتى أكلوا الميتات والجيف ، ووقع فيهم المرض . فحكى لي والدي أنهم كانوا في وقت الحصار مطرحين من المرض في أزقة البلد ، فاذا زحف الفرنج وضرب بوق الفزع قاموا كأنما انشطوا من عقال ، وقاتلوا حتى يردوا الفرنج ؛ ثم يعود كل واحد من المرضى إلى فراشه » – انظر مرآة الزمان لسبط ابن الجوزي ٨/١١٦

[١٠٢ و] المرضى يئنّون لشدّة المرض ، فإذا ضرب || البوق لزحف الفرنج قام المرضى كأنّما أنشطوا من عقال ، وزحفوا إلى الفرنج وردُّوهم إلى خيامهم ، ثم يعودون إلى مضاجعهم.

فكتب جدّي أبو الفضل هبة الله بن القاضي أبي غانم كتاباً إلى والده يخبره بما آل أمر حلب إليه من الجوع وأكل الميتات والمرض[١]؛ فوقع كتابه في يد تمرتاش فغضب وقال: « انظروا إلى هؤلاء يتجلّدون عليّ ، ويقولون إذا وصلتَ فأهل حلب يكفونك أمرهم ، ويغرّرون بي حتى أصل في قلّة ، وقد بلغ بهم الضعف إلى هذه الحالة ».

ملك أق سنقر البرسقي

نجدة البرسقي

ثمّ أمر بالتوكيل والتضييق عليهم[٢] ، فشرعوا في إعمال الحيلة والهرب إلى أق سنقر[٣] البرسقيّ ، ليستصرخوا به فاحتالوا على الموكّلين بهم ، حتى ناموا وخرجوا هاربين ، فأصبحوا ابدارا.

(١) في بغية الطلب ، المخطوطة ، ٤/٢٧٥ ظ : « قال القاضي أبو الفضل : فكتبت كتاباً من حلب إلى والدي أبي غانم أخبره فيه بما حلّ بأهل حلب من الضر وأنه قد آل الأمر بهم إلى أكل القطط والكلاب والميتة ، فوقع الكتاب في يد تمرتاش وشقّ عليه وغضب وقال : انظروا إلى جلد هؤلاء الفعلة الصَّنعَة قد بلغ بهم الأمر إلى هذه الحالة وهم يكتمون ذلك ويتجلّدون ويغروني ويقولون إذا وصلت إلينا نكفك أمرهم » .

(٢) في بغية الطلب ، بالموقع نفسه : « قال القاضي أبو غانم : فأمر تمرتاش بأن يوكل علينا فوكل بنا من يحفظنا خوفاً أن ننفصل عنه إلى غيره ، فأعملنا الحيلة في الهرب إلى الموصل وأن نمضي إلى البرسقي ونستصرخ به ونستنجده » – ويورد ابن العديم بعد هذا الكلام تفصيل الهرب وكيف وقع ، مما لا جدوى من اثباته هنا .

(٣) هو أق سنقر بن عبدالله البرسقي ، وقيل اسمه سنقر ، وكان مملوك الامير برسُق مملوك السلطان ، وقد ذكرنا من قبل أن المؤرخين في رسم أق سنقر على وجهين ، منهم من يجمعها كلمة واحدة (اقسنقر) ومنهم من يفصلها ، وقد تابعنا في هذا الكتاب رسم ابن العديم نفسه عن خطّه في بغية الطلب – انظر الصفحة ١٧٧

وساروا حتى أتوا الموصل ، فوجدوا البرسقي مريضاً مدنفاً ، والناس قد مُنِعوا من الدّخول عليه إلّا الأطبّاء ، والفرُّوج يدقُّ له لشدّة الضعف[1] . ووصل إلى دبيس من أخبره بذلك ، فضرب البشارة في عسكره ، وارتفع عنده التكبير والتهليل ، ونادى بعض أصحابه أهل حلب: قد مات من أمّلتم نصره . فكادت أنفس الحلبيّين تزهق .

واستؤذن للحلبيّين على البرسقيّ فأذن لهم ، فدخلوا إليه ، واستغاثوا به ، وذكروا له ما أهل حلب فيه من الضرّ ، فأكرمهم – رحمه الله – وقال لهم : « ترون ما أنا فيه الآن من المرض ، ولكن قد جعلتُ لله عليّ نذرًا إن عافاني من مرضي هذا لأبذلنّ جهدي في أمركم ، والذبّ عن بلدكم ، وقتال أعدائكم[2] » .

[١٠٢ظ] قال القاضي أبو غانم قاضي حلب : فما مضى || ثلاثة أيام بعد ذلك حتى فارقته الحمى ، فأخرج خيمته ، ونادى في العساكر بالتأهب للجهاد إلى حلب .

وبقي أياماً وعمل العسكر أشغاله وخرج – رحمه الله – في عسكر قويّ ، فوصل إلى الرَّحبة ، وكاتب أتابك طغتكين صاحب دمشق ، وصمصام الدّين خيرخان بن قراجا صاحب حمص .

ورحل إلى بالس ، وسار منها إلى حلب فوصلها يوم الخميس لثمان بقين من ذي الحجة من سنة ثماني عشرة .

(١) في بغية الطلب ، المخطوطة ، ٤/٢٧٦ ظ : « فوجدنا البرسقي مريضًا قد اشفى وهو يسقى أمراق الفراريج المدقوقة ، فأعلم بمجيئنا فأذن لنا فدخلنا عليه ووجدناه مريضًا مدنفًا فشكونا إليه » – انظر ابن الأثير ٨/٣١٧

(٢) ورد في بغية الطلب ما يقرب من هذه العبارة في نصّها ومعناها .

ولما قرب من حلب رحل دبيس ناشرًا أعلامه البيض إلى الفرنج عند قرية من حلب، وتحوّلوا إلى جبل جَوْشَن كلّهم. وخرج الحلبيّون إلى خيامهم فنهبوها ونالوا منها ما أرادوا.

وخرج أهل حلب[1] والتقَوْا قسيم الدولة عند وصوله. وسار نحو الفرنج فانهزموا بين يديه من جبل جوشن[2]، وهو يسير وراءهم على مهل حتى أبعدوا عن البلد.

فأرسل الشالشيّة[3]، وأمرهم أن يردّوا العسكر، فجعل القاضي ابن الخشّاب يقول له: «يا مولانا لو ساق العسكر خلفهم أخذناهم، فانهم منهزمون[4] والعسكر محيطة بهم». فقال له: «يا قاضي تَعْلَمُ أنّ في بلدكم ما يقومُ بكم وبعسكري لو قُدِّر علينا – والعياذ بالله – كسرةٌ؟» فقال: «لا». فقال: «ما يؤمننا أن يرجعوا علينا ويكسرونا، ويهلك المسلمون، ولكن قد كفى الله شرّهم وندخل

---

(١) في بغية الطلب، المخطوطة، ٢٧٦/٤ ظ: «رحل الفرنج ونزلوا على جبل جوشن وتأخروا عن المدينة وساق إلى أن قارب المدينة وخرج أهلها إلى لقائه فقصد نحو الفرنج وأهل البلد مع عسكره فانهزم الفرنج من يديه وهو كسير، وراءهم على مهل حتى أبعدوا عن البلد».

(٢) ذكرنا في زبدة الحلب بالحاشية ١٣٧/١ موقع جبل جوشن من حلب، وأنه على ربع ساعة من باب أنطاكية، وقد كان متدمساً عند الشيعة، وذكره ياقوت في معجم البلدان ١٥٦/٢

(٣) الشالشية: ترجمها المستشرق بالكشّافة Eclaireurs – وهي في معجم دوزى ٧٨٢/١: «شلَاشات: الجنود الرّماة Tirailleurs».

(٤) في بغية الطلب المخطوطة ٢٧٧/٤ و: «فجعل القاضي أبو الفضل بن الخشاب يقول له: يا مولانا لو ساق المولى خلفهم أخذناهم بأمرهم فانهم منهزمون. قال فقال له: يا قاضي كن عاقلا أتعلم أن في بلدكم ما يقوم بكم وبعسكري لو قدر والعياذ بالله علينا كسرة من العدو» – وبقية العبارة في البغية موافقة لما عندنا هنا، فقد نقلت بحروفها تقريباً – انظر ابن القلانسي ٢١٢

إلى البلد ونقوّيه وننظر في مصالحه ، ونجمع لهم إن شاء الله ، ونخرج إليهم بعد ذلك » .

دخوله حلب

ورجع ودخل البلد وتسلّم قلعتها ، ونظر في مصالح البلد وقوّاه ، وأزال الظلم والمكوس ‖ وعدل فيهم عدلاً شاملاً وأحسن إليهم إحساناً كاملاً . [١٥٣و]

وكتب لأهل حلب توقيعاً بإطلاق المظالم والمكوس[١] ، نسخته موجودة ، بعد ما كان الحلبيّون مُنوا به من الظلم والمصادرة من عبد الكريم والي القلعة ، وعمر الخاص والي البلد ، وتسليطهما الجند والأتراك على مصادرة الناس بحيث أنهم استصفوا أموال جماعة من الأكابر والصدور وغيرهم في حالة الحصار .

وأما الفرنج فانهم توجّهوا إلى الأثارب ودخلوا أنطاكية .

وشرع النّاس في الزّرع ببلد حلب في الثّاني عشر من شباط وجعلوا يبلّون الغلّة بالماء ، ويزرعونها فنبتت وتداركت عليها الأمطار فأخصبت ، وجاءت الغلّة من أجود الغلال وأزكاها[٢] .

وأطلق البرسقيّ بني منقذ من الاعتقال بقلعة حلب ، ورحل إلى تلّ السّلطان[٣] في سنة تسع عشرة وخمسمائة ، في أواخر المحرّم ، وأقام به ثلاثة أيام ، ورحل إلى أن وصل إلى شيزر في سابع صفر ، وتسلّم

---

(١) في بغية الطلب ، المخطوطة ٢٧٧/٦ و : « قال : ورجع ودخل البلد ورتّب الأحوال وجلب إليه الغلال وأمن الناس واستقروا » .

(٢) في بغية الطلب : « قال وكان ذلك في آذار فجعل الناس يأخذون الحنطة والشعير ويبلّونها بالماء ويزرعونها ، فاستغل الناس في تلك السنة مغلّاً صالحاً . »

(٣) انظر تعليقنا في حاشية الصفحة ٣١ ، وارجع إلى زبدة الحلب ٢٧٨/١ ؛ وكذلك دوسو ٣١٣

أولاد الفرنج من ابن منقذ، وباعهم بثمانين ألف دينار حُمِلَتْ إليه.

وأقام بأرض حماة أياماً حتى وصل إليه أتابك طغتكين، فرحل في عساكره التي لا تحدّ كثرةً، ونزل كفرطاب فسلّمت إليه يوم الجمعة ثالث شهر ربيع الآخر، وسلّمها إلى صمصام الدين خيرخان بن قراجا، وكان قد وصل إليه من حمص والتقاه بتلّ السلطان[1].

وسار إلى عزاز وقاتلها، ونقبت قلعتها فقصدهم الفرنج، فالتقوا سادس عشر ربيع الآخر[2]، وكسر البرسقيّ كسرة عظيمة، واستشهد [١٥٣ظ] ‖ جماعةٌ من المسلمين من السُّوقة والعامة، ولم يقتل من الأمراء والمقدّمين أحد.

ووصل أق سنقر البرسقيّ سالماً إلى حلب، وأقام على قنّسرين أياماً، وتفرّقت العساكر إلى بلادهم، ووصل أمير حاجب صارم الدّين بابك بن طلماس، فولّاه البرسقي حلب وبلدها، وعزل عنها سوتكين والياً كان ولّاه.

أقسنقر والفرنج

ووقعت الهدنة بين البرسقيّ والفرنج على أن يناصفهم في جبل السُّمّاق[3] وغيره مما كان بأيدي الفرنج،

---

(١) في بغية الطلب، المخطوطة، ٢٧٧/٦ ظ: «وسار الأمير صمصام الدين عن حمص في أول ربيع الأول فلقي الأمير قسيم الدولة البرسقيّ بتلّ سلطان بعد انفصاله عن حلب وانهزام الافرنج عنها.»

(٢) في ابن الأثير ٨/٣١٨: «وسار إلى قلعة عزاز وهي من أعمال حلب من جهة الشمال وصاحبها جوسلين، فحصرها فاجتمعت الفرنج، فارسلها وراجلها وقصدوه ليرحلوه عنها فلقيهم وضرب معهم مصافّاً واقتتلوا قتالاً شديداً، صبروا كلهم فيه، فانهزم المسلمون وقتل منهم وأسر كثير، وكان عدد القتلى أكثر من ألف قتيل من المسلمين وعاد منهزماً إلى حلب.»

(٣) انظر تعليقنا في حاشية الصفحة ٦٦ السابقة، وأرجع إلى معجم البلدان لياقوت ٢١/٣

وسار البرسقيّ إلى الموصل فلم يزل الفرنج يعلّلون الشحن والمقطعين بالمُحال في مغلّ ما وقعت الهدنة عليه إلى العشرين من شعبان من السّنة.

وسار بغدوين إلى بيت المقدس والرسولُ خلفه يُعلمه بأن الفرنج لا يمكّنون أحدًا من رفع شيء من الصَّيـافي؛ وأخذ بعض متصرفي المسلمين بعض الارتفاع من بعض الأماكن والهدنة على حالها، فتجمّع الفرنج ونزلوا رفنية.

وخرج شمس الخواص صاحبها طالباً أق سنقر البرسقيّ مستصرخاً به، وسلّمها إليهم ولده المستخلف فيها في آخر صفر من سنة عشرين وخمسمائة، وقصدوا بلد حمص فشعّثوه.

فجمع البرسقيّ العساكر وحشد، وسار نحو الشّام لحربهم حتى وصل الرّقة في أواخر شهر ربيع الآخر، وسار إلى أن نزل بالنّقرة على النّاعورة[1] في الشهر المذكور، وأقام بـه أيّاماً والفرنج يراسلونه، فراسله جوسلين على أن تكون الضِّياع ما بين عزاز وحلب مناصفةً || وأن يكون الحرب بينهما على غير ذلك، فاستقرّ هذا الأمر. [١٥٤ و]

وكان بدر الدّولة سليمان بن عبد الجبّار وشهريار بك[2] ابن عمه، قد توجّها مع جماعة من التركمان إلى المعرّة فأوقعوا بعسكر الفرنج، وقتل المسلمون منهم مائة وخمسين، وأسروا جفري بلنك[3]، صاحب بَسَرْفوث، من جبل بني عليم، وأودع في سجن حلب.

وكان قد سيّر البرسقيّ ولده عزّ الدين مسعودًا منجدًا لصاحب

(١) انظر تعليقنا في حاشية الصفحة ٢١٦ السابقة، وارجع الى معجم البلدان لياقوت ٤/٧٣٣

(٢) الاسم غامض في الأصل ولم نقع على مثله في المصادر التي بين أيدينا فلعلّه كما رسمنا.

(٣) هو « Geoffroy Blanc ».

حمص ، فاندفع الفرنج عنها فعاد عزّ الدين إلى والده ، فتركه بحلب ، وعزل بابك[1] عن ولايتها وولّاها كافور الخادم إلى أن ينظر فيمن يوليه إياها ولاية مستقلة .

ورحل قسيم الدولة إلى الأثارب في الثامن مِنْ جمادى الآخرة من سنة عشرين ، وسيّر بابك بن طاماس في جماعة من العسكر والنقّابين إلى حصن الدير المجدّد فرق سرمدا ففتحه سلماً .

وقتل من الخيّالة بعد ذلك خمسون فارساً ، ونهب العساكرُ الغلال والفلاحين في سائر البلد الذي وصلت الغارات إليه ، ورفعوا الغلّة جميعها إلى حلب ، وزحفوا إلى قلعة الأثارب ، وخربوا الحوشين ، ولم يتيسر فتحها .

ووصل بغدوين من القدس في جموع الفرنج ، ووصل إليه جوسلين ، ونزلوا عِمّ[2] وأرتاح ، وسيّروا إلى البرسقي : « ترحل[3] عن هذا الموضع ، ونتّفق على ما كنّا عليه في العام الخالي ، ونعيد رفنية عليك » . فتجنّبَ الحرب ، وخشي أن يتمّ على المسلمين ما تمّ على عزاز فصالحهم إلى أن فرّج الخناق عن الأثارب ، وخرج صاحبها بماله ورجاله .

غدر الفرنج

فغدر الفرنج || وقالوا : « ما نصالح إلّا على أن تكون الأماكن التي ناصفنا فيها في العام الماضي لنا دون المسلمين » . [١٥٤ظ] فامتنع من ذلك وأقام على حلب أياماً والرسل تتردد بينهم ، فلما لم

---

(١) هو صارم الدين بابك بن طاماس وقد ولّاه البرسقي حلب كما مرّ بنا من قبل وكما يأتي بعد سطور .

(٢) ارجع إلى تعليقنا في حاشية الصفحة ١٢٥ السابقة لمعرفة موقع هذا الحصن من حلب .

(٣) في طبعة المستشرق لهذا النص ، بالصفحة ٦٥٣ : « ارحل عن هذا الموضع » .

تتفق حال عاد أق سنقر، ونزل قنّسرين، ورحل إلى سرمين، وامتدت العساكر إلى الفوعة[١] ودانيث.

ونزل الفرنج على حوض معرّة مصرين، فأقاموا كذلك إلى نصف رجب، ونفدت أزواد الفرنج، فعادوا إلى بلادهم، ثم عاد البرسقي وفي صحبته أتابك طغتكين، وكان وصل إليه وهو على قنسرين فدخلوا من العسكر ونزلوا باب حلب.

ومرض أتابك فعملت له المحفّات، وأوصى إلى البرسقيّ، وتوجه إلى دمشق، وسلّم البرسقي حلب وتدبيرها إلى ولده عزّالدين مسعود، فدخل حلب، وأجمل السيرة وتحلّى بفعل الخير.

قتل البرسقي

وسار أبوه إلى الموصل، فدخلها في ذي القعدة سنة عشرين وخمسمائة[٢]، وقصد الجامع بها ليصلّي فيه يوم الجمعة تاسع ذي القعدة، وقصد المنبر، فلما قرب منه وثب عليه ثمانية نفر في زيّ الزهّاد، فاخترطوا خناجر وقصدوه وعليه درع من الحديد، وحوله جمع عظيم وهو متحفظ منهم، فسبقوا أصحابه إليه، فضربوه حتى أثخنوه[٣] وحُمل جريحاً فمات من يومه.

---

(١) ذكرنا موقع هذه القرية من نواحي حلب في حاشيتي الصفحتين ١٣٩ و١٤٨، فارجع إلى تعليقنا فيها، وانظر في معجم البلدان لياقوت ٩٢٣/١، وديمومبين ٩١

(٢) في ابن الأثير ٣٢٠/٨: «سنة ٥٢٠ هـ – في هذه السنة ثامن ذي القعدة قتل قسيم الدولة أقسنقر البرسقي صاحب الموصل بمدينة الموصل قتلته الباطنية يوم جمعة بالجامع، وكان يصلّي الجمعة مع العامة».

(٣) في بغية الطلب، المخطوطة، ٢٧٨/٤ ظ: «فلما كان يوم الجمعة تاسع الشهر قصد الجامع ليصلي جماعة ويسمع الخاطب كما جرت عادته في أكثر الجمع فدخل الجامع وقصد المنبر، فلما قرب منه وثب عليه ثمانية نفر في زي الزهّاد، فاخترطوا خناجر وقصدوه وسبقوا الحفظة الذين حوله فضربوه حتى أثخنوه، وجرحوا قوماً من حفظته وقتل الحفظة منهم قوماً

وقُتِلَ مَنْ كان وثب عليه من الباطنيَّة غير شاب واحد كان من كفرناصح ـ ضيعة من عمل عزاز[1] ـ فإنّه سلم، وكان له أم عجوز فلما سَمِعَتْ بقتل البرسقي وقتل من وثب عليه وكانت قد علمت أنَّ ابنها معهم فرحت واكتحلت وجلست مسرورة فوصلها || ابنها بعد [١٠٠ و] أيام سالماً فأحزنها ذلك، وجزّت شعرها وسوّدت وجهها[2].

وقيل: إنّ البرسقي قتل بيده منهم ثلاثة، وكان البرسقي ـ رحمه الله ـ قد رأى تلك الليلة في منامه عدّة من الكلاب ثاروا به فقتل بعضها، ونال منه الباقون أذى شديدًا، فقصّ رؤياه على أصحابه، فأشاروا عليه بترك الخروج من داره عدّة أيام، فقال: «لا أترك الجمعة لشيء أبدًا». وكان من عادته أن يحضر الجمعة مع العامة ـ رحمه الله ـ[3] وكان وزير البرسقيّ المؤيد بن عبد الخالق وكان قدم

وقبضوا قومًا. وحمل البرسقي بآخر رمقه إلى بيته. وهرب كلّ من في الجامع، وبطلت صلاة الجمعة، ومات الرجل من يومه.»

(١) في بغية الطلب، بالموقع نفسه: «وقتل أصحابه من بقي في أيديهم من الباطنية ولم يفلت منهم سوى شاب كان من كفرناصح، ضيعة من عمل عزاز من شمالي حلب».

(٢) وردت هذه العبارة السابقة في بغية الطلب المخطوطة ٦/٢٧٩ و نقلها ابن العديم فيما يصرح لنا عن أبي الفوارس حمدان بن عبد الرحيم في تاريخه الذي جمعه ووقع إليه منه أوراق بخطه.

(٣) في بغية الطلب، المخطوطة، ٦/٢٧٨ ظ: «قال لي عز الدين أبو الحسن بن الأثير في سنة عشرين وخمسمائة قتل أق سنقر البرسقي بالجامع العتيق بالموصل بعد الصلاة يوم الجمعة قتله باطنيّة، وكان رأى تلك الليلة في منامه أن عدة من الكلاب ثاروا به فقتل بعضها، ونال الباقون أذىً شديدًا، فقصّ رؤياه على أصحابه، فأشاروا عليه بترك الخروج من داره عدة أيام، فقال . . . » وهكذا فقد نقل ابن العديم إلى زبدة الحلب ما كتبه في تاريخه الكبير بحروفه – انظر ابن القلانسي ٢١٤ – وفي ابن الأثير ٨/٣٢٠: «فركب الى الجامع على عادته وكان يصلي في الصف الأول فوثب عليه بضعة عشر نفسًا عدة الكلاب التي رآها فجرحوه بالسكاكين، فجرح هو بيده منهم ثلاثة، وقتل رحمه الله.»

معه حلب حين قدمها[١] .

عز الدين مسعود

وملك عزّ الدين مسعود حلب عند ورود الخبر عليه بقتل أبيه في سنة عشرين ، واستوزر المؤيّد وزير أبيه وولّى فيها من قِبَلِهِ الأمير تومان[٢] .

وسار من حلب في سنة إحدى وعشرين وخمسمائة إلى السلطان محمود وهو ببغداد ، فسأله أن ينعم عليه ببلاد أبيه ، فكتب له منشورًا بذلك ، فوصل إلى الموصل وملكها ، ثم نزل إلى الرّحبة قاصدًا إلى الشام[٣] ؛ وكان يظن أنّ قاتل أبيه قومٌ من أهل حماة ، فأضمر للشّام وأهله شرًّا عظيمًا[٤] .

موت مسعود

ورجع عما كان عليه من الأفعال المحمودة والإقبال على مجاهدة الفرنج[٥] ، وبلغ طغتكين عنه أنه يقصده ، فتأهّبَ له فلمّا نزل بظاهر الرّحبة امتنع واليها من تسليمها ، فحاصرها

(١) في ابن الأثير ٨/٣٢٠ : « ولما قتل كان ابنه عز الدين مسعود بحاب يحفظها من الفرنج فأرسل إليه أصحاب أبيه بالخبر ، فسار إلى الموصل ودخلها أول ذي الحجة ، وأحسن إلى أصحاب أبيه بها . وأقر وزيره المؤيد أبا غالب بن عبد الخالق بن عبد الرزاق على وزارته ، وأطاعه الأمراء والأجناد .

(٢) في ابن الأثير ٨/٣٢٦ : « واستناب بحلب أميرًا اسمه قومان » — وهو بالتاء في زبدة الحلب عندنا وفي مفرج الكروب ، ط. الدكتور جمال الدين الشيال ص٢٧ كذلك .

(٣) في ابن الأثير ٨/٣٢١ : « لما استقامت أموره في ولايته ، وراسل السلطان محمودًا ، وخطب له ولاية ما كان أبوه يتولّاه من الموصل وغيرها ، فأجاب السلطان إلى ما طلب ، فرتب الأمور وقررها ، فكثر جنده . »

(٤) في المصدر نفسه : « فطمع في التغلب على بلاد الشام ، فجمع عساكره وسار إلى الشام يريد قصد دمشق ، فابتدأ بالرحبة فوصل إليها ونازلها وقام يحاصرها » .

(٥) في ابن القلانسي ٢١٦ : « فلما استتب امره وقويت شوكته واستقامت ولايته شمخ بأنفه ونفخت حداثة السن في سحره ، وحدثته نفسه بمنازلة البلاد الشامية والطمع في تملك المعاقل الاسلامية والاطراح لمجاهدة العصب الافرنسية بالضدّ من أولى الحزامة والسداد وذوي البأس والبسالة » — انظر ابن الأثير ٨/٣٢٦

أيّامًا فسلمها الوالي إليه ، ونزل فوجده قد مات فجأة ؛ وقيل : سقي سمًّا فمات[١] .

تومان

ونَدم الوالي على تسليم الرّحبة ، وكان قـد وصلتْ قطعةٌ من العسكر لتقوية حلب ‖ فمنعهم تُومان من الدُّخول إليها ، فوقع [١٥٥ظ] الشرّ بينه وبين رئيس حلب فَضَائل بن بديع ، ودَاخَلَهم إلى حلب .

ختلغ أبه

فوصل إلى حلب ختلغ أبه[٢] السُّلطانيّ غلام السُّلطان محمود ، ومعه توقيع مسعُود بن البرسقي بحلب ، كَتَبَه قبل وصوله إلى الرّحبة فلم يقبله تُومان والي حلب[٣] فعاد ختلغ أبه إلى الرّحبة ، ــ وقد جرى فيها ما ذكرناه من موت مسعود ــ .

فعاد ختلغ أبه على فوره إلى حلب فتسلّمها من يـد تومان ، آخر جُمادى الآخرة ، وصعد إلى قلعتها بطالعٍ اختاره له المنجّمون ، فأخذه الطَّمع في أموال النَّاس[٤] ، وصادر جماعةً من أهـل حلب ، واتّهمهم

---

(١) في ابن القلانسي ٢١٧ : « فما كان بعد ذلك إلّا الأيام القلائل حتى انفصمت عُرى شبابه ونزل محتوم القضاء به بهجوم مرض حاد عليه بظاهر الرحبة أتى عليه وأصاره إلى المحتوم الذي لا بد عنه ولا مجير له منه » — في ابن الأثير ٣٢٦/٨ : « فأخذه مرض حاد وهو محاصر لها فتسلم القلعة ومات بعد ساعة ، فندم من بها على تسليمها اليه . ولما مات بقي مطروحاً على بساط لم يدفن ، وتفرق عنه عسكره ، ونهب بعضهم بعضاً فشغلوا عنه ، ثم دفن بعد ذلك ، وقام بعده أخ له صغير » .

(٢) في ابن الأثير ٣٢٦/٨ : « ثم انه ولى عليها أميرًا اسمه قتلغ أبه » — أنظر تعليقنا في حاشية الصفحة ١٥٢ السابقة على كلمة ختلغ واقتراحنا ان تكون قطلغ أو خطلغ فالتاء والطاء تتناوبان وتتعاوران المكان عند المؤرخين كما في قطلمش وقتلمش وكل يرسمها كما يريد ، وابن العديم يرسمه في بغية الطالب بخطه بالخاء فالتاء فاللام فالغين في مخطوطة استانبول ٢٠٦/٨ظ .

(٣) في ابن الأثير ٣٢٦/٨ : « وسيّره بتوقيع إلى قومان بتسليمها فقال : بيني وبين عز الدين علامة لم أرها ، ولا أسلّم إلّا بها ، وكانت العلامة بينهما صورة غزال ، وكان مسعود بن البرسقي حسن التصوير » — انظر مفرج الكروب ٣٧/١

(٤) في المصدر نفسه : « فظهر منه بعد ايام جور شديد وظلم عظيم ، ومدّ يده إلى

بودائع المجنّ الفوعيّ، رئيس حلب المقتول في أيّام رضوان.

وقبض على شرف الدّين أبي طالب بن العجميّ وعمّه أبي عبدالله، واعتقلهما بحلب. وثقب كعاب أبي طالب وصادره، فعاد فعلُه القبيحُ عليه بالبوار، وضلّ رأي منجّمه في ذلك الاختيار.

سليمان بن عبد الجبار

وقام أهل حلب عليه فحصروه، وقدّموا عليهم[1] بدر الدّولة سليمان بن عبد الجبّار، ونادى أهلُ حلب بشعار بدر الدّولة، وساعده على ذلك رئيسُ حلب فضائلُ بن صاعد ابن بديع، وقبض على أصحاب ختلغ أبه، وذلك في الثاني من شوّال.

وقصد حلب في تلك الحال ملك أنطاكية وجوسلين فصانعوه على مال حتّى رحل[2]؛ وضايقوا القلعة وأحرقوا القصر، ودخل إليهم إلى المدينة الملك ابراهيم بن رضوان؛ ووصل إليهم حسّان صاحب منبج، وصاحب بزاعا[3]؛ ودام الحصار إلى النّصف من ذي الحجّة[4].

أموال الناس لا سيّما التركات فإنه أخذها، وتقرّب إليه الأشرار، فنفرت قلوب الناس منه» — انظر مفرج الكروب ١/٣٨

(١) في ابن الأثير: «وقاموا ليلة الثلاثاء ثاني شوّال فقبضوا على كلّ من كان بالبلد من أصحاب قتلغ أبه، وكان أكثرهم يشرب في البلد صبيحة العيد وزحفوا إلى القلعة فتحصن قتلغ أبه فيها بمن معه فحصروه.»

(٢) في ابن الأثير، ٨/٣٢٦: «وسمع الفرنج بذلك فتقدم جوسلين بعسكره إلى المدينة فصونع بمال فعاد عنها، ثم وصل بعده صاحب أنطاكية في جمع من الفرنج فخندق الحلبيون حول القلعة، فمنع الداخل والخارج إليها من ظاهر البلد» — في مفرج الكروب ١/٣٨: «ثم وصل الجوسلين ملك الفرنج في مائتي فارس إلى بانقوسا».

(٣) في المصدر نفسه: «ووصل إلى حلب حسان صاحب منبج وحسن صاحب بزاعة لاصلاح الأمر فلم ينصلح» — في مفرج الكروب ١/٣٨: «ووصل الأميران حسن وحسّان ابنا البعلبكي صاحبا منبج من بزاعة».

(٤) في المصدر نفسه: «وأشرف الناس على الخطر العظيم إلى منتصف ذي الحجّة من السنة» — في مفرج الكروب ١/٣٩: «وطال الحصار على ختلغ أبه إلى نصف ذي الحجة».

القسم الثالث والعشرون

ذكر

حلب في أيام أتابك عماد الدين زنكي بن قسيم الدولة آق سنقر

أخبار عماد الدين في الشام والجزيرة - حروب الفرنج والروم - مقتل عماد الدين زنكي الشهيد

٥٢٢هـ - ٥٤١هـ

أخبار عماد الدين في الشام والجزيرة

دخوله حلب

وكان أتابك[1] || عماد الدّين زنكي بن قسيم الدّولة أق سنقر[2] قد ملك الموصل بتواقيع السّلطان محمود، فسيّر إليه شهاب الدّين مالك بن سالم صاحب قلعة جعبر، وأعلمه بأحوال حلب وحصارها؛ فسيّر أتابك إليها عسكرًا مع الأمير سنقر دراز والأمير الحاجب صلاح الدّين حسن[3]. [١٥٦و]

(١) أتابك : هو الذي يربي أولاد الملوك، أتا : بالتركية هو الأب؛ بك : هو الأمير؛ ولما تقلّد زنكي الموصل سلّم إليه السلطان محمود ولديه ألب ارسلان وفروخ شاه المعروف بالخفاجي ليربّيها، فلهذا قيل له أتابك – انظر ابن خلكان، وفيات الأعيان ١٩٣/١

(٢) هو أبو الجود عماد الدين زنكي بن آق سُنْقُر بن عبدالله الملقّب بالملك المنصور المعروف والده بالحاجب، كما في وفيات الأعيان ١٩٣/١ – وقد ترجم له ابن العديم في بغية الطلب، المخطوطة ٢٠٦/٨ و : «زنكي بن آق سنقر أبو المظفر التركي ... ويعرف بأتابك زنكي بن قسيم الدولة لأنه كان عنده ولدان للسلطان محمود بالموصل يربيهما وكان مولده بحلب في أيام ولاية أبيه في سنة ثمانين وأربعمائة؛ وربّي بها، وكان في أول أمره مضافًا إلى آق سنقر البرسقي، والبرسقي شحنة بغداد، وولّاه البصرة. فلما عزل البرسقي عن شحنكية بغداد فارق البصرة وقصد السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه فأكرمه وأقطعه البصرة وأعاده إليها في سنة ثمان عشرة وخمس مائة، ثم ترقّت به الحال إلى أن ملك الموصل في سنة احدى وعشرين وخمسمائة» – انظر أخباره مفصلة في تاريخ الدولة الأتابكية، ملوك الموصل، لابن الأثير طبعة باريس ١٨٧٦ م؛ مع الترجمة الفرنسية.

(٣) في ابن الأثير ٣٢٦/٨: «فسير إلى حلب الأمير سنقر دراز والأمير حسن قراقوش وهما من أكابر البرسقي وقد صاروا معه» – في مفرج الكروب ٣٩/١ : «وسيّر جيشًا مع الأمير صلاح الدين الباغيسياني حاجبه» – وفي بغية الطلب المخطوطة ٢٠٧/٨ و : «وصل الأمير سنقر دراز والأمير حسن قراقش وجماعة أمراء في عسكر قويّ إلى باب حلب».

ودخل الأميرُ صلاح الدّين فأصلح الحالَ ، ووَفَّق بينهما[١] على أن استدعيا أتابك زنكي من المَوْصل ، فتَوجّـهَ بالجيوش إلى حلب ، وقيل : إنّ بدر الدَّوْلة وختلغ سارا إليه .

وقيل : إنَّ ختلغ أبه لم يزل بالقلعة حتى وصل أتابك فنزل إليه ، وصعد أتابك إلى القلعة ، يوم الاثنين سابع عشر جمادى الآخرة ، من سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة ، وارتاد موضعًا ينقل أباه قسيم الدَّوْلـة إليه ويدفنه به ، وكان مدفونًا بالقبّة التي على جبَل قَرَنْبيا[٢] . فعرض عليه بدرُ الدّولة نقلَ أبيه إلى المدرسة الّتي أنشأها بالزَّجّاجين[٣] .

وقيل : إنّ أبا طالب بن العجمي طلب منه ذلك ، فنَقَلَهُ ورفعه في اللّيل من سُور حلب ، ودفنه في البيت الشّمالي من المدرسة ، واتّخذه تربةً لِمَنْ يموتُ من أولاده ، ووَقَفَ على المُقْرئين على تربة والده القرية

(١) الجملة غامضة في النص المثبت في المخطوطة ، فلعله يريد أن صلاح الدين العمادي كما تسميه البغية أصلح بين ختلغ أبه وبدر الدولة سليمان بن عبد الجبار وأرادهما على أن يسيرا إلى عماد الدين زنكي — وفي مفرّج الكروب ١/٣٩ : « واتفق الأمر على أن يسير ختلغ أبه وبدر الدولة إلى الأمير عماد الدين زنكي ، فليمكّن ولّى استقر الأمر ، فمضيا إلى باب عماد الدين ، وبقي في البلد حسن قراقوش واليًا ولاية مستعارة » — وفي بغية الطلب ٨/٢٠٧ و : « فلمن ولّى عاد إلى منصبه » — وكذلك في تاريخ ابن الوردي ٢/٣٦

(٢) في ابن شدّاد ، مخطوطة رومة ، بالورقة ٣٦ ظ : « في شرقي المدينة مشهد قَرَنْبيا أنشأه عماد الدين آق سنقر قسيم الدولة صاحب حلب ، وكان هذا الموضع قديمًا يعرف بقبر الأنبياء ، فحرّفته العامّة . وسبب بناء قسيم الدّولة لهذا المشهد أن شيخًا من أهل منبج رأى في حلب كأنّ عليّ بن أبي طالب عليه السّلام يصلّي فيه ، وأنه قال : قل لآق سنقر يبني على قرنبيا مشهدًا . وقرنبيا : اسم الربوة » ، وقد نقل ابن شدّاد هذا الكلام عن المؤرخ الشيعي ابن أبي طيّ في تاريخ حلب ؛ ومرّ بنا هذا الاسم في الصفحة ١١٣

(٣) المدرسة الزجّاجية : من المدارس الشافعية ، أنشأها بدر الدولة أبو الربيع سليمان بن عبد الجبار بن أرتق صاحب حلب ، وهي أول مدرسة بنيت بحلب ابتدئ في عمارتها سنة ست عشرة وخمسمائة — كما في مخطوطة ابن شدّاد ، بالورقة ٦٢ و .

المعروفة بشامر[١] .

وأما الملك ابراهيم بن رضوان فإنّه هرب منه إلى نصيبين، وكانت في أقطاعه إلى أن مات .

قتل ختلغ

وأما ختلغ أبه فانّه سلّمه إلى فضائل بن بديع فكحله بداره، ثم قتله أتابك بعد ذلك .

وقيل : إنّ بدر الدَّوْلة هرب منه عند ذلك ؛ وهَرَب فضائل بن بديع إلى قلعة ابن مالك خوفاً من أتابك[٢] .

وَوَلّى ‖ أتابك رئاسةَ حلب الرئيسَ صفيَّ الدّين أبا الحسن علي بن عبد الرَّزّاق العجلاني البالسي، فسلك أجملَ طريقةٍ مع النّاس . [١٥٦ظ]

الموصل والجزيرة

وخرج أتابك من حَلَب، وسار حتّى نَزل أرض حماة، فوصله صمصام الدّين خير خان بن قراجا ؛ وتأكَّدَتْ بينهما مودّةٌ لم تحمد عاقبتها – فيما نذكره بعد – وكذلك وصله سونج ابن تاج[٣] الملوك .

ثم سار أتابك بعد ذلك، فوطئ بساط السُّلطان، في سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة ؛ وعاد بالتّواقيع السلطانيّة بملك الغرب كلّه، ودخل

---

(١) في الأعلاق الخطيرة لابن شداد، مخطوطة رومة، بالورقة ٦٢ظ : «ولما ملك الأتابك عماد الدين زنكي بن قسيم الدولة آق سنقر حلب سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة نقل والده قسيم الدولة آق سنقر من قرنبيا وكان مدفونًا بها فدفنه في شمالي هذه المدرسة، وزاد في وقفها لأجل القرّاء المرتبين في التربة» – انظر الصفحة ١١٣ السابقة .

(٢) في ابن الأثير ٨/٣٢٦ : «قبض على قتلغ أبه وسلّمه إلى ابن بديع فكحله بداره بحلب فمات قتلغ أبه، واستوحش ابن بديع فهرب إلى قلعة جعبر واستجار بصاحبها فأجاره» – في بغية الطلب، المخطوطة، ٨/٢٠٧ ظ : «وقبض على خُتلُغ أبه وحمله إلى حلب وسلمه إلى عدوّه ابن بديع فكحلوه بداره في النصف من رجب»

(٣) جماء الدين سونج هو ابن تاج الملوك بوري بن طغتكين .

الموصل ، ثم فتح قلعة السّنّ ، وتوجّـه إلى حلب ، ورعى عسكره زرع الرّها .

وعبر أتابك الفرات إلى حلب بتوقيع السّلطان محمود ، وقد كان السلطان آثر أن تكون البلاد لِدُبَيْس ، فقبّح المسترشدُ ذلك ، وكاتب السُّلطان وقال له فيما قال : إنّ هذا أعـان الفرنج على المسلمين وكثر سواد الكفار ، فبطل هذا التدبير .

واستقرّ ملك أتابك بالمَوْصل ، والجزيرة ، والرّحبة ، وحلب ، والتوقيع له بجميع البلاد الشّاميّة وغيرها .

زوجة أتابك

وتزوّج أتابك خاتونَ بنت الملـك رضوان ، وبَنَى بها في ديْر الزَّبيب[1] ، وكانت معه إلى أن فتح الخزانة بحلب ، واعتبر ما فيها ، فرأى الكِبْر[2] الّذي كان على أبيه أق سنقر ، حين قتله تُتُش جَدُّها ، وهو مُلَوَّثٌ بالدّم ، فهجرها من ذلك اليوم .

وقيل : إنّه هدم المشهدَ الّذي على قبر رضوان ، عند ذلك .

ودام أتابك مهاجرًا لها إلى أن دخلتْ على القاضي أبي غانم قاضي حلب ، وشكت حالها ، فصعد إليه وكان جبـارًا إلّا أنه ينقاد || إلى [١٥٧ و] الحقّ ، وإذا خُوّف بالله خاف ، فخرج ليركب ، فلما ركب ذكر لـه القاضي ما ذَكَرَتْهُ خاتُون ، فساق دابّته أتابك ، ولم يردّ عليه جواباً ، فجذب القاضي أبو غانم بلجام دابته ، فوقفتْ ، وقال له : « يا مَوْلانا ،

---

(١) في بغية الطلب ، المخطوطة ٢٠٨/٨ و : « وفي هذه المدة تزوج أتابك قسيم الدولة بخاتون بنت الملك رضوان ودخل بها ليلة الاثنين في عشرين من شعبان » — وتفصيل طلاقها وهجرها في بغية الطلب كما في الزبدة .

(٢) الكِبْر : ضرب من الفراش أو الثياب — انظر دوزي ٤٣٧/٢ ، وترجمها المستشرق : « la tunique»

هذا الشَّرْعُ لا ينبغي العُدُولُ عنه ». فقال له أتابك : « اشهدْ عَلَيَّ أنها طَالِقٌ ». فأرسل اللجامَ وقال : « أمَّا السَّاعة فنعم ! ».

سوار بن ايتكين

واستوحشَ الأميرُ سوار بن أيتكين من تاج الملوك بوري صاحب دمشق، وكان في خدمته، فورد إلى حلب إلى خدمة أتابك، في سنة أربع وعشرين، فأكرمه وشرَّفه، وخَلَعَ عليه، وأجرى له الاقطاعات الكثيرة، وأعطاه ولاية حلب وأعمالها، واعتمد عليه في قتال الفرنج، وكان له بصيرة بالحرب وتدبير الأمور ؛ وله وقعات كثيرة مع الفرنج ومواقف مشهورة أبان فيها عن شجاعة وإقدام، وصار له بسببها الهيبة في قلوب الكفَّار الأغتام.

حمص وحماة

وعزم أتابك في السَّنة على الجهاد، وكتب إلى تاج الملوك بوري بن طغتكين صاحب دمشق، يلتمس منه المساعدة[1]، فأجابه إلى ذلك وتحالفا على الصَّفَاء.

وكتب تاج الملوك إلى ولده بهاء الدين سونج بحماة، يأمره بالخروج بعسكره، وجهَّز إليه مِنْ دِمَشق خمسمائة فارس، وجماعةً من الأمراء مقدّمهم شمس الخواص[2] ؛ فخرجوا[3] حتّى وصلوا إلى مخيّم أتابك على حلب، فأكرمهم وتلقَّاهم، وأقاموا عنده ثلاثاً. ثم أظهروا الغارة على

(١) في ابن القلانسي ٢٢٧ : « وفي هذه السنة، ورد الخبر بوصول الأمير عماد الدين أتابك زنكي بن آق سنقر صاحب الموصل إلى حلب في عسكره عازماً على الجهاد، وأرسل تاج الملوك بوري بن ظهير الدين أتابك يلتمس منه المعونة والاسعاد على محاربة الافرنج الأضداد، وترددت الرسل بينهما في ذلك إلى أن أجاب إلى المراد » – انظر النص عند ابن الأثير ٨/٣٢٩

(٢) في ابن القلانسي بالصفحة نفسها : « يأمره بالخروج في عسكره والاختلاط بالعسكر الدمشقي ومقدّمه الأمير شمس الأمراء الخواص وعدّة من الأمراء والمقدّمين ».

(٣) في ابن القلانسي ٢٢٨ : « وتوجهوا جميعاً إلى مخيم عماد الدين أتابك فأحسن لقاءهم

عَزاز ، وركبوا وعطفوا على سونج ، وغدر به وبأصحابه ؛ ونهب خيامهم وأثقالهم وكراعهم ، وهرب بعضهم ، وقبض على سونج والباقين ، وحملهم [١٥٧ظ] إلى حلب ، واعتقلهم فيها .

وسار من يومه إلى حماة فأخذها يوم السَّبت ثامن شوال ، وأقام بها أياماً ، وطلبها خير خان بن قراجا[1] صاحب حمص ، وبذل عليها مالاً ، فسلَّمها إليه بكرة الجمعة رابع عشر شوال ، وضربت بوقاته عليها ، وخطب له الخطيبُ على المنبر . فلمَّا كان وقت العصر من ذلك اليوم قبض عليه ونهب خيامه وجميع ما فيها .

وسار فنزل حمص ، فقاتلها أربعين يوماً[2] لم يظفر فيها بطائل غير الربض ، وكان يربط خير خان على غراير التّبن ، ويعاقبه ويعذّبُهُ أنواع العَذاب ، وانتقم اللهُ منه ببعض ظُلمه في الدُّنيا ، وهو كان يحرّضُ أتابك على الغدر بسونج ، فكافأه الله .

وهجم الشّتاء فعاد أتابك إلى حلب في ذي الحجّة .

خبر الفرنج

وملكتْ أنطاكية زوجةالبيمند بنت بغدوين[3]، وحالفتْ جماعةً من الفرنج على قِتال أبيها ، ووقع بين الفرنج شرٌّ .

وبالغ في الاكرام لهم ، وأغفلهم أياماً ، وعمل عليهم وغدر بهم ، وقبض على سونج ولد تاج الملوك وعلى جماعة المقدّمين ونهب خيامهم وأثقالهم وكراعهم ، فهرب منهم من هرب واعتقل الباقين ، وحملهم إلى حلب ، وأمر بحفظهم فيها » – انظر ابن الأثير ٨/٣٣٠

(١) في ابن الأثير ٨/٣٣٠ : « ورحل عنها إلى حمص وكان صاحبها قرجان بن قراجة» – في ابن القلانسي ٢٢٨ : « وكان صاحبها خيرخان بن قراجه » .

(٢) في ابن القلانسي : « فأقام عليها مدة طويلة يبالغ في المحاربة لأهلها والمضايقة لها فلم يتهيّأ له فيها مطلب » – وفي ابن الأثير قريب من هذا المعنى .

(٣) ذكر المستشرق أنها : «Alix, fille de Baudoin»

وهجم المسلمون ربضَ الأثارب، وربض معرّة مصرين؛ فوصل بَغدوين من البيت المقدّس، وأغار على أنطاكية وأخذ قوماً من أصحاب ابنته، فقطع أيديهم وأرجلهم.

وفتح قومٌ من السرجندية[1] باب أنطاكية، فدخلها في سنة خمس وعشرين، فطرحتْ ابنتهُ نفسها عليه، فصفح عن ذنبها، وأخذ أنطاكية، ووهبها جبلة واللّاذقية. وعاد إلى القُدس.

وتوجّه أتابك إلى الموصل في سنة خمس وعشرين وخمسمائة، واستصحب معه سونج بن تاج الملوك، وبعض المقدّمين من عسكر دمشق؛ وترك الباقين بحلب؛ وتردّدَتِ المُراسلات في إطلاقهم، فلم يفعل؛ والتمس عنهم خمسين ألف || دينار أجاب تاج الملوك إلى تحصيلها [١٥٨ و] وحملها.

ووقع في هذه السّنة وقعة بين جوسلين وسوار، بناحية حلب الشماليّة، فكانت الغلبة لجوسلين؛ وقَتَل من المسلمين جماعةً؛ وخرج سوار بعد ذلك فهجم ربض الأثارب ونَهَبه.

ووصل دُبَيس في هذه السّنة منهزماً من المسترشد، وكان قد كسره عسكر المسترشد في هذه السّنة، فانهزم وخفي خبرُه عن كلّ أحد، فظهر بعد مدّة أنّه وصل إلى قلعة جعبر، وأودع ابنَ السلطان عند مالك صاحبها، وسار إلى جوسلين، واستند إلى الفرنج فلم يَرَ ما يُعْجِبُهُ.

دبيس بن صدقة

(١) ترجمها المستشرق في تاريخ الحروب الصليبية ٣/٦٦١: بأنها مفرزة من القواد الصغار: «Une troupe de sergents d'armes»

وكاتب تمرتاش ثم خاف مِن غَدْره ، وأن يفادي به خير خان ، فسار إلى بلد دمشق ، فنزل ضالاً على مكتوم بن حَسَّان .

وقيل : كان سائرًا إلى صاحبة صَرْخد ليتزوَّجها ، فضلّ في الطريق[1] ، ولم يكن معه دليلٌ عارفٌ بالمناهل .

وقيل : كان قاصدًا حلّة مُرّين ، فهلك أكثر أصحابه .

وحصل في حلّة حسان[2] كالمنقطع الوحيد في نفر يسيرٍ مِنْ أصحابه ، فأنهض تاجُ الدَّوْلة بُوري العسكر إليه حينما سمع به ، فأسَرَهُ ، ووصلوا به إلى دمشقَ ، لستٍّ خَلَوْنَ مِنْ شَعْبان سَنة خمسٍ وعشرين ؛ وأنزله في دارٍ بقلعة دمشق ، وأكرمه وأضافه ، وحمل إليه من الملبوس والمفروش ما يليق به ، واعتقله اعتقال كرامة[3] . وكاتب المسترشدَ في أمرِهِ ، فردَّ عليه الجواب بالاحتياط عليه إلى أن يصل من يحمله إلى بغداد .

[١٥٨ظ] فلمّا عرف أتابك زنكي ذلك ، أنفذ رسوله إلى تاج الملوك || يطلبُ تسليم دبيس إليه ، وأن يُطلِقَ له الخمسين ألف دينار المقرَّرة عن وَلَده

(١) في ابن الأثير ٨/٣٣٣ : « جاءه قاصد من الشام صرخد يستدعيه إليها لأن صاحبها كان خصياً فتوفى هذه السنة وخلف جارية سريّة له ، فاستولت على القلعة وما فيها ، وعلمت أنها لا يتم لها ذلك إلّا بأن تتصل برجل له قوة ونجدة ، فوصف لها دبيس بن صدقة وكثرة عشيرته ، وذكر لها حاله وما هو عليه بالعراق ؛ فأرسلت تدعوه الى صرخد لتتزوج به وتسلّم القلعة وما فيها من مال وغيره إليه . فأخذ الأدلاء معه وسار من أرض العراق إلى الشام فضلّ به الأدلاء بنواحي دمشق » — انظر مفرج الكروب ١/٦٤

(٢) في تاريخ العظيمي بالورقة ٢٠٧ ظ : « وسار دبيس نحو صاحبة صلخد ليتزوج بها فأضافه مكتوم بن حسّان بن مسمار بالحلّة ، وابطن إلى تاج الملوك وقيل بالاتفاق فخرج إليه عسكر دمشق فقبضوا على دبيس » — انظر مرآة الزمان لسبط ابن الجوزي ١/١٣٥

(٣) في ابن الأثير ٨/٣٣٣ : « فنزل بناس من كلب كانوا شرقي الغوطة ، فأخذوه وحملوه الى تاج الملوك صاحب دمشق فحبسه عنده » — انظر مفرج الكروب ١/٦٥

سونج وبقيّة العسكر ، فأجاب إلى ذلك ، وتقرّر الشّرط عليه[1] .

ووصل أتابك زنكي إلى قريب قارا[2] بسونج والمعتقلين ؛ وتوجّه أصحابُ تاج الملوك بدُبَيس فتسلّمهُ زنكي ، وحمله في محنة مُقيّدًا ؛ وسلّم سونج بن تاج الملوك وجماعته إلى أصحابه .

وكان يظنّ دُبَيس أنّ أتابك زنكي يُهلكه ، فلمّا وصل إلى حلب أطلقه وأكرمه ، وأنزله بحلب في دار لاجين ، وأعطاه مائة ألف دينار ، وخلع عليه خِلعاً فاخرة[3] .

وكان عرَض لدبيس في طريقه وهو مُكبّل بالحديد شاعرٌ امتدحَهُ بأبياتٍ ، ولم يكن معه ما يُجيزُه ، فكتب له في رُقعةٍ هذين البيتين ، ودفعهما إليه :

الْجودُ فِعْلِي وَلٰكِنْ لَيسَ لِي مَالُ   وَكَيْفَ يَصْنَعُ مَنْ بِالْقَرْضِ يَحْتَالُ
فَهَاكَ خَطِّي إلى أيَّام مَيْسَرَتِي   دَيْنًا عَلَيَّ فلي في الغَيْبِ آمَالُ

فجاءه الشّاعر بحلب ، وقد خرج مُسيّرًا في مَيدان الحَصا ، فقال له : « يا أمير لي عليك دَيْنًا » فقال : « واللهِ ما أعرفُ لِأحدٍ عليّ دَيْناً »

(١) في ابن الأثير ٨/٣٣٣ : « وسمع أتابك عماد الدين زنكي الخبر ، وكان دبيس يقع فيه وينال منه ، فأرسل إلى تاج الملوك يطلب منه دبيساً ليسلمه إليه ويطلق ولده ومن معه من الأمراء المأسورين وان امتنع من تسليمه سار إلى دمشق » – انظر تفصيل أمر دبيس في تاريخ الدولة الأتابكية ص ٨٣

(٢) القارة : اسم قرية كبيرة على قارعة الطريق ، وهي المنزل الأول من حمص للقاصد إلى دمشق ، وأهلها كلهم نصارى – كما في معجم البلدان لياقوت ٧/١٢

(٣) في ابن الأثير ٨/٣٣٣ : « وأرسل تاج الملوك دبيساً فأيقن دبيس بالهلاك ، ففعل زنكي معه خلاف ما ظن ، وأحسن إليه ، وحمل له الأقوات والسلاح والدواب وسائر أمتعة الخزائن ، وقدّمه حتى على نفسه ، وفعل معه ما يفعل مع أكابر الملوك » – انظر مرآة الزمان ١/١٣٧

فقال : « بلى ، وشاهِدُهُ منك » ، وأخرج له خَطَّه ؛ فلما وقَفَ عليه قال : « إي والله دَيْنٌ وأيُّ دَيْن ! » وأمره أن يأتي إليه إذا نزل ، فأتاه فأعطاه ألفَ دينار والخِلْعةَ التي خلعها أتابك زنكي عليه ، وكانت جبَّة أطلس وعِمامة شَرْك .

وحصل دُبَيْس بعد ذلك عند السُّلطان مسعود ، في سنة تسع وعشرين ، حتى كسر مسعود المسترشد || وأَسَرَه على بَاب مراغة[1] . [١٥٩ و]

وسَيَّر السُّلطان إلى أتابك زنكي يَستدعيه ، وعَزَم على الفَتْكِ به ، واطلع دبيس على ذلك ، فكتب إلى أتابك يُعلِمُهُ ويُحذِّرُهُ من المجيء فامتنعَ . وكان السلطان قد سَيَّر دُبَيساً إلى الحلّة[2] ، واطّلع بعد ذلك على فِعل دُبَيْس ، فَرَدَّهُ . وحَذَّره النَّاسُ فلم يفعل فوصل . فلما وصل إلى الخيمة قام السُّلطان عن السَّرير ، وقال : « هٰذا جزاء مَنْ يَخُونُ مولاه » . وضَرَب رأسه فأطارَهُ ، فبلغ ذلك زنكي فقال : « فَدَيْنَاهُ بالمالِ وَفَدَانا بالرُّوحِ » .

مقتل دبيس

ووَصل سديدُ الدَّولة بن الأنباريّ كاتبُ الإنشاء للمسترشد إلى تاج الملوك ، في أواخر ذي القعدة لتسليم دُبَيْس إلى مَنْ يحمله إلى بغدادَ ، فوجد الأمرَ قد فات ، فعاد فصادفَتْه خيلُ أتابك زنكي بناحية الرَّحبة فأوقعوا به ، وقبضُوه ، ونَهَبُوا ما كان معه حتّى نهبوا القافلةَ الّتي كانت معه ، وقَتَل بعضَ غِلمانه ، ولقي شدّة عظيمة من الاعتقال إلى أن أُطلق ، وعاد إلى بغداد[3] .

(١) انظر موقع هذه البلدة في حاشية الصفحة ٢٦٠ الآتية .

(٢) في معجم البلدان لياقوت ٣٢٢/٢ : « الحِلّة : علم لعدة مواضع ، وأشهرها حلّة بني مزيد ، مدينة كبيرة بين الكوفة وبغداد . . . وتزلها سيف الدولة صدقة بن منصور بن دبيس . »

(٣) في تاريخ الدولة الأتابكية ٨٦ : « فاتصل ذلك بالشهيد ، وكان له في كل بلد

وفي سنة ستّ وعشرين وخمسمائة، فتح الملك كليام رامَ حمدان، وسار أتابك ودبيس إلى بغداد، مباينين للمسترشد، وعزما على أن يهجما بغداد، فبذل لهما الحِلّة، وأن يدخل نائبهما بغداد، فأبيا[1] فخرج إليهما المسترشد بنفسه، والتقوا في شعبان[2] على عَقَرْقُوف[3] فكسرهما.

وعاد أتابك زنكي إلى الموصل، وسار دُبيس إلى السّلطان سنجر.

فتن الفرنج

ووقع بَيْنَ الفرنج، في هذه السنة، فتنٌ. وقتل بعضُهم بعضاً، وقتل صاحب زردنا، ونزل التّركمان على بلد المَعَرَّة وكفرطاب، وقسموا المغَلّات، فاجتمع الفرنج[4] || وهزموهم عن البلد، وفتحوا حصن قبّة ابن ملاعب، وأسروا منه بنتَ سالم بن مالك وحريم ابنِ ملاعب، وخرّبوا الموضع. [١٥٩ظ]

وأوقع الأميرُ سيف الدّين سوار بفرنج تلّ باشر، وقتَلَ منهم خلقًا كثيرًا، ووَثَب قومٌ من أهلِ الجبل على حِصْن القدموس[5]،

مَنْ يطالعه بالأخبار، فامتعض لذلك وأرسل إلى البرية وشحنها بالرجال وأمرهم بأخذ ابن الأنباريّ وحمله. فلما عاد أخذ بنواحي الرحبة وحمل إلى الشهيد فحبسه بالموصل. فأرسل الخليفة المسترشد بالله يشفع فيه، فأطلقه، وأحسن إليه.»

(١) في الأصل: «فأبوا» وصححناها بالتثنية. وهنا يستطرد ابن العديم فيتحدث عن أعمال دبيس كأنه حيّ، وقد ذكر وفاته في الصفحة السابقة.

(٢) في مفرّج الكروب ١/٥٠: «ونزل عماد الدين زنكي بالمنارية من دجيل، ثم التقيا في السابع والعشرين من رجب بمكان يقال له عقرقوف» – في ابن الأثير ٨/٣٣٧: «ونزل عماد الدين زنكي بالمنارية من دجيل، والتقيا بحصن البرامكة سابع عشرى رجب».

(٣) عَقَرْقُوف: قرية من نواحي دُجَيْل بينها وبين بغداد أربعة فراسخ كما في معجم البلدان لياقوت ٣/٦٩٧

(٤) في تاريخ العظيمي، ٢٠٨ ظ: «واجتمع الفرنج وهزموهم عن البلد وفتحوا حصن القبة، وأسروا منه حريم ابن ملاعب بنت سالم بن مالك».

(٥) حصن قديم غربيّ مصياف بينه وبين بانياس؛ ويسميه الفربيون Cademois – انظر دوسو ١٦٠

فأخذوه وسلّموه إلى سيف الملك بن عمرون، فاشتراه أبو الفتح الدّاعي الباطنيّ منه[١] .

ووصل صاحب القدموس إلى أنطاكية، وجمع وخرج إلى نَواز[٢]، وسار إلى قِنّسرين في جموع الفرنج ، والتقَوْا بِعَسْكر حلب وسوار ، في سنة ثمانٍ وعشرين في ربيع الأوّل ، فكسروا المُسْلمين ، وقتلوا أبا القاسم التّركماني ، وكان شجاعاً ، وقتلوا القاضي أبا يَعْلى بْنَ الخشّاب ، وغيرهما .

وتحوّل الفرَنجُ إلى النّقرة ، فصالحهم سوار والعسكر ، فأوقعُوا بسرّيةٍ منهم ، فقتلوهم ، وعادوا برؤوسهم وأَسرَى منهم ، فَسُرَّ النّاسُ بذلك بعد مساءتهم بالأمس[٣] .

وأغارتْ خيل الرّها من الفرنج ببلد الشّمال ، وهي عابرة إلى عساكر الفرنج ، فأوقع بهم سوار وحَسّان صاحب منبج وقتلوهم بأسرهم وحملوا الرؤوس والأسرى إلى حلب[٤] .

---

(١) في ابن الأثير ٨/٣٦١ : « سنة ٥٢٧ هـ — في هذه السنة اشترى الاسماعيلية بالشام قلعة حصن القدموس من صاحبه ابن عمرون وصعدوا إليه ، وقاموا بحرب من يجاورهم من المسلمين والفرنج » — وكذلك في تاريخ العظيمي ٢٠٩ و .

(٢) في ابن القلانسي ٢٦٠ : « وفي صفر من السنة نهض صاحب بيت المقدس ملك الأفرنج في خيله إلى أطراف أعمال حلب، ووصل إلى موضع يعرف بنوار فنهض إليه الأمير سوار النائب في حلب في عسكر حلب» —وقد مر بنا في الصفحات السابقة تحديد موقع نواز— في العظيمي : « صاحب القدموس » .

(٣) في ابن القلانسي ٢٦١ : « وعاد المسلمون برؤوس القتلى والقلائع إلى حلب فانجلت تلك الغمة بتسهّل هذه النعمة .»

(٤) في المصدر نفسه : « ووصل الملك إلى أنطاكية ، وانتهى إلى سوّار خبر خيل الرّها ، فنهض الأمير سوّار وحسّان البعلبكي فأوقعوا بهم وقتلوهم عن آخرهم في بلد الشمال، وأسروا من وقع في أيديهم حيّاً، وعادوا إلى حلب ظافرين سالمين ومعهم الأسرى والرؤوس» .

حروب السلاطين

وفتح شمسُ الملوك اسماعيل بن تاج الملوك حماة من يد نائب صلاح الدين(١) ، وكان قد عزم على ذلك ، فتحصّن واليها ، فانتهى ذلك إلى شمس الملوك ، فخرج في العشر الأواخر من شهر رمضان ، وعزم على قصدها والنّاس بها غافلون .

وهجم يوم العيد على من فيها || وزحف في الحال فتحصّنوا منه ، [١٦٠و] فعاد في ذلك اليوم ، وقد نكا أصحابه في أهلها ، ثمّ زحف عليها زحفاً قويًا ، فانهرموا بين يديه ، وهجم البلد فطلبوا الأمان فأمّنهم ، وحلّفه والي القلعه على أشياء اقترحها ، وأجابه إليها وسلمها إليه ، فسلّمها إلى شمس الخواصّ .

وحصر المسترشدُ الموصلَ ، وثارتْ الحروبُ بين السّلاطين ، فبلغ المسترشدَ ما أزعجه ، فعاد عنها ، فوصل حسام الدّين تمرتاش إلى خدمة أتابك زنكي ، فسار معه إلى لقاء داود بن سكمان بن أرتُق ، فكسره أتابك بباب آمد ، وانهزم داوُد وأسر ولده ، وقتل جماعة(٢) من أصحابهِ ، وذلك في يوم الجمعة سلخ جمادى الآخرة .

ونزل على آمد وحصرها ، وقطع شجرها ، فصانعهُ صاحبُها بمال(٣) ،

(١) في مفرّج الكروب ٥٣/١ : « فلما نزل شمس الملوك على حماة حاصرها ، وذلك في العشر الأخير من رمضان من هذه السنة ، وكان الوالي بها وهو سنقر — غلام صلاح الدين محمد الياغسياني — مقطعها قد سمع الخبر » .

(٢) في مفرج الكروب ٥٤ : « اجتمع الأمير عماد الدين أتابك زنكي والأمير حسام الدين تمرتاش بن إيلغازي بن أرتق ، وقصدا مدينة آمد وحاصراها ، فأرسل صاحبها إلى الأمير ركن الدين بن سقمان بن أرتق يستنجده ، فجمع العساكر ، وسار ليرحلها عنها فالتقوا على باب آمد ، واقتتلوا فانهزم ركن الدين وعاد مفلولاً ، وقتل من أصحابه جماعة كثيرة » — وفي ابن الأثير ٣٦٣/٨ مثل هذا في عبارة مماثلة ، وكذلك في ابن القلانسي ٢٦٣

(٣) في مفرج الكروب ٥٤/١ : « وأقام عماد الدين وحسام الدين على آمد محاصرين لها وقطعا الشجر وشعّثا البلد ، ثم عادا عنها من غير بلوغ غرض » — والعبارة عن العظيمي ٢٠٩ظ

فرحل عنها إلى قلعة الصّور[١] ففتحها ، وفتح البارعيّة ، وجبل جور[٢] ، وذا القرنين ، ووَهَب ذلك كلّه لحسام الدّين تمرتاش ، وفتح طنزة[٣] فاستبقاها لنفسه .

وتزوّج أتابك صاحبة خِلاط ابنة سقمان القُطبي .

واستولى أتابك[٤] على العَقر[٥] وشوش[٦] وغير ذلك من قلاع الأكراد ؛ وأغار في هذه السَّنة سوار على الجزر وحصن زَردنا ، وأوقع بالفرنج على حارم ، وشَحن على بلد المَعرّتين ، وعاد بالغنائم إلى حلب .

واستوزر زنكي في هذه السَّنة ضياء الدين أبا سعد الكفرتوثي ، وكان مشهوراً بحسن الطّريقة والكفاية وحبّ الخير والمذهب الحميد[٧] ، وقَدم معه إلى حلب ، وعَزَم على قصدِ دمشق ومُضايقتها .

وذَكَرَ العظيميُّ في تاريخه[٨] : « أنه حصرَها ‖ في هذه السَّنة مدّة ، [١٦٠ظ]

(١) في ابن الأثير ٣٤٣/٨ : « فقصد زنكي قلعة الصور من ديار بكر وحصرها » .

(٢) في معجم البلدان لياقوت ٢٠/٢ : « جبل جور : بالجيم المضمومة وسكون الواو وراء : اسم لكورة كبيرة متصلة بديار بكر من نواحي أرمينية ، أهلها نصارى أرمن ، وفيها قلاع وقرى » .

(٣) طنزة : بلد بجزيرة ابن عمر من ديار بكر ، انظر معجم البلدان لياقوت ٥٥١/٣

(٤) في ابن الأثير ٣٤٣/٨ : « في هذه السنة استولى عماد الدين زنكي على جميع قلاع الأكراد الحميدية منها قلعة العقر وقلعة شوش وغيرهما » – وهو شبيه بما جاء في مفرج الكروب ٥٥/١

(٥) العقر : قلعة حصينة في جبال الموصل أهلها أكراد ، وهي شرقي الموصل تعرف بعقر الحُمَيدية – انظر معجم البلدان لياقوت ٦٩٦/٣

(٦) شوش : بتكرير الشين وسكون الواو : قلعة عظيمة عالية جداً قرب عقر الحميدية من أعمال الموصل ، قيل هي أعلى من العقر وأكبر ولكنها في القدر دونها – انظر معجم البلدان لياقوت ٣٣٦/٣

(٧) في ابن الأثير ٣٤٣/٨ : « واتصل به ضياء الدين أبو سعيد بن الكفرتوثي فاستوزره زنكي ، وكان حسن الطريقة عظيم الرياسة والكفاية محبّاً للخير » .

(٨) يخالف ابن العديم هنا طريقته في كتابه « زبدة الحلب » ، فيذكر أحد مصادره

ثمّ رحل إلى حلب، ثمّ شرّق إلى الموصل[١] ».

والصحيح: أنّه حصرها في سنة تسع وعشرين وخمسمائة.

وذلك أنّ صاحبها شمس الملوك أبا الفتح اسماعيل ابن بوري، انهمك في المعاصي والقبائح، وبالغ في الظّلم، وأعرض عن مصالح الدّين والنظر في أمور المسلمين، بعد اهتمامه أوّلًا بذلك.

ظلم ابن بوري

واستخدم بين يديه رجلًا كرديًا – يعرف ببدرّان الكافر – جاءه من بلد حمص، وكان قليل الدّين متنوّعاً في أبواب الظلم، ليس في قلبه لأحد رحمة، فسلّطه على ظُلم المسلمين ومصادرة المتصرّفين بأنواع قبيحة من الظّلم؛ وظهر منه بُخلٌ عظيم وسَفَّتْ نفسُه إلى تناول الدنايا[٢] وغير ذلك من الأفعال الذميمة.

وعزم على مُصادرة كُتّابه وحُجّابه وأمرائه، فخاف منه أصحابُه، واستشعروا منه، ووقعت الوَحشةُ بينهم.

وعرف عزم أتابك زنكي على قصد دمشق، وأنه متى وصلها سُلّمتْ إليه، فكاتب أتابك زنكي وحثّه على سرعة الوصول إليها

وهو العظيمي وذلك ليخالفه في رأيه. وهذه الطريقة انفرد بها في كتابه بغية الطلب كما بيّنا في مقدمة الجزء الأول.

(١) في تاريخ العظيمي، بالمخطوطة، في الورقة ٢٠٩ ظ: « وحصر أتابك دمشق مدة، ثم رحل إلى حلب، ثم شرّق إلى الموصل » – وذلك في حوادث سنة ٥٢٨ هـ. ويبدو أن ابن العديم استعمل النسخة التي وقعت لنا من تاريخ العظيمي ونقل عنها بما يطابق النصّ الذي بين أيدينا.

(٢) في مفرج الكروب ٥٧/١: « شمس الملوك اسماعيل بن بوري بن طغتكين كان ظالمًا سيئ السيرة إلى الغاية القصوى مع بخل زائد ودناءة نفس » – ومثل هذه العبارة عند ابن الأثير ٣٦٥/٨؛ وتفصيلها في ابن القلانسي ٢٦٥

ليسلّمها إليه طوعاً ، وَشَرَط عليه أن يمكّنه من الانتقام من كُلِّ من يكرهه من المقدّمين والأمراء والأعيان ؛ وكرّر المكاتبة إليه في ذلك ، وقال : « إنْ أهملتَ هذا الأمرَ استدعَيْتُ الفرنج وَسَلَّمْتُ دمشقَ إليهم ، وكان إثمُ المسلمين في عنقك[1] » .

مقتل ابن بوري

وَشَرَع في نقل أمواله وأحواله إلى صَرخد ؛ فظهر هذا الأمرُ لأصحابه ، فأشفقوا من الهَلاك وأعلموا والدته زمرّد خاتون[2] بذلك ، فقلقتْ له ، وحَسَّنُوا لها قتلَهُ ، وتمليك أخيه شهابِ الدّين محمود ؛ فرجح ذلك في نظرها ، وعزمتْ عليه ، فانتظرتْ [١٦١ و] ‖ وقتَ خلوته مِن غلمانه وسلاَحِيّته ، وأدخلتْ عليه من أصحابها مَنْ قتله[3] .

وأخرَجَتْهُ فأُلقِيَ في ناحية من الدّار ليشاهدَهُ غِلمانه وأصحابُه فسرُّوا بذلك . وذلك في يوم الأربعاء الرّابع عشر من شهر ربيع الآخر ، سنة تسع وعشرين وخمسمائة .

وقيل : إنّه اتّهم يُوسُفَ بْنَ فيروز حاجبَ أبيه بوالدته ، فهرب

(١) في ابن الأثير ٣٦٦/٨ : « كاتب عماد الدين زنكي أنه يسلم إليه دمشق ويحثه على سرعة الوصول ، وأخلى المدينة من الذخائر والأموال . ونقل الجميع إلى صوبه . وتابع الرسل إلى زنكي يحثه إلى الوصول إليه ؛ ويقول له : ان أهملت المجيء سلمت البلد إلى الفرنج » — تفصيل الخبر في ابن القلانسي ٢٦٥

(٢) في ابن القلانسي ٢٦٦ : « واخوا الحال إلى والدته الخاتون صفوة الملك فقلقت لذاك » .

(٣) في ابن الأثير ٣٦٦/٨ : « ثم انها ارتقبت الفرصة في الخلوة من غلمانه فلما رأته على ذلك أمرت غلمانها بقتله فقتل وأمرت بالقائه على موضع في الدار ليشاهده غلمانه وأصحابه ، فلما رأوه قتيلا سرّوا لمصرعه وبالراحة من شره ، وكان مولده سابع جمادى الآخرة سنة ست وخمسمائة » — وفي مفرج الكروب ٥٧/١ : « وتحقق ذلك أصحابه فواطأوا أمه على قتله فقتلته » — والتفصيل عند ابن القلانسي ٢٦٦

منه إلى تدمر ، فأراد قتلَ أمِّه ، فبلغها الخبرُ فقتلتْهُ خوفاً منه[١] .

وأجلستْ والدتُه مكانَه أخاه شهابَ الدِّين محمودَ بن بوري[٢] ، وحلف النَّاسُ له . وتوَجَّهَ أتابك زنكي من الموصل مُجدًّا ليتسلَّم دمشق من شمس الملوك ، فوصل إلى الرَّقَّة وقال : « أشْتَهي أن أدخل الحمام » . فأحضرَ صلاحُ الدِّين مسيَّبَ بْنَ مالك صاحب الرَّقة ، وقال له : « أتابك يَشتهي دخولَ الحَمّام ، وهذه خمسمائة دينار تسلَّموا واعملْ له بها دعوة » فلم يشكَّ في ذلك ، ودخلوها ، فلمَّا حصلوا بها أخذوها منه ، وذلك في العشرين من شهر ربيع الآخر .

شهاب الدين محمود

وبلَغه ما جرى بدمشق ، فلم يقطعْ طمَعَه فيها ، وسار فنزل العبيدية ، وراسَل أهلَ دمشق ، فلم يجيبوه إلى مطلوبه ، وردّوا عليه جواباً خشناً[٣] ، يتضمَّنُ أنَّ الكلمة قد اتَّفقَتْ على حفظ الدَّوْلة والذبِّ عنها ، فلم يحفل بذلك .

وسار إلى حماة فخرج إليه شمسُ الخواص بعد أن توثَّق منه

(١) في ابن الأثير ٣٦٦/٨ : « وقيل : كان سبب قتله أن والده كان له صاحب اسمه يوسف بن فيروز ، وكان متمكناً منه ماكناً في دولته ثم في دولة شمس الملوك بعده ، فاتهم بأم شمس الملوك ؛ ووصل الخبر إليه بذلك فهمّ بقتل يوسف فهرب منه إلى تدمر وتحصن بها ، وأظهر الطاعة لشمس الملوك ، فأراد قتل أمه فبلغها الخبر فقتلته خوفاً منه والله أعلم » - انظر تفصيل ذلك في ابن القلانسي ٢٦٤

(٢) في ابن القلانسي ٢٦٧ : « وفي الوقت نودي بشعار أخيه الأمير شهاب الدين محمود ابن تاج الملوك بن أتابك ، جلس في منصبه بمحضر من والدته خاتون صفوة الملك وحضر الأمراء وأماثل الأجناد وأعيان الرعيّة ، فسلموا عليه بالإمرة واستحلفوا على الطاعة له ولوالدته والمناصحة في خدمتها والنصرة لأوليائها . »

(٣) في ابن القلانسي ٢٦٧ : « إلّا أنهم أكرموا وبجّلوا وأحسن إليهم ، وأعيدوا بأجمل جواب وألطف خطاب ، وأعلم عماد الدين جليّة الحال واتفاق الكلمة في حفظ الدّولة والذبّ عن الحوزة والبعث على إجمال الرعية والود على أحسن نية » .

بالأيمان . ورحل إلى دمشق ، وسار إليها ، فنزل على دمشق في عسكر عظيم ، وزحف عليها مرارًا متعدّدة ، فلم يظفر فيها بطائل[١] ، واشتدّ الغلاء في العسكر ، وعدموا القوتَ ، وقفز جماعةٌ من العسكر إلى [١٦١ظ] دمشق ، ووقعت || المراسلةُ في حديث الصلح . وكان قد وصل مع أتابك بعضُ أولاد السُّلطان فطلب أن يخرج شهابُ الدّين محمود لوطء بساط ولد السّلطان ، فلم يفعل[٢] .

واتّفق الأمرُ على خروج أخيه تاج الملوك بهرام شاه ، واتّفق عند ذلك وصول بشر بن كريم بن بشر رسولًا من المسترشد إلى زنكي بخلعٍ هُيّئتْ له ، وتقدّم إليه بالرّحيل عن دمشق والوصول إلى العراق ، ليولّيه أمره وتدبيره ، وأن يخطب للسُّلطان ألب أرسلان داود بن محمود المُقيم بالموصل[٣] ـ وكان قد وصل هارباً من بين يدَيْ عمّه السُّلطان مسعود ـ فأكرمه أتابك .

فدخل الرّسول وبهاء الدّين بن الشهرزُوريّ إلى دمشق ، وقرّرا هذه القاعدة وأخمدا الفتنة ، وأكّدا الأيمانَ ، وخطب يوم الجمعة الثّامن والعشرين من جُمادى الأُولى بجامع دمشق بحضورهما ، على القاعدة الّتي وَصل فيها الرّسول[٤] .

(١) انظر تفصيل الأمر في ابن القلانسي ٢٦٨

(٢) في ابن القلانسي ٢٦٨ : « والتمس خروج الأمير شهاب الدين محمود بن تاج الملوك إليه لوطء بساط ولد السلطان الواصل معه ويخلع عليه ويعيده إلى بلده . »

(٣) في المصدر نفسه : « ووافق ذلك وصول الرئيس بشر بن كريم بن بشر رسولًا من الامام المسترشد بالله أمير المؤمنين إلى عماد الدين أتابك بخلع أعدّت له والأمر بالرحيل عن دمشق وترك التعرض لها والوصول إلى العراق لتولي أمره والتدبير له وأن يخطب للسلطان ألب ارسلان المقيم بالموصل » – أنظر ابن الأثير ٨/٣٦٦

(٤) عبارة عن ابن العديم شبيهة بما عند ابن القلانسي ٢٦٨

نصر زنكي

وعاد أتابك من دمشق ، فلمّا وصل حماة قبض على شمس الخواصّ صاحبها ، وأنكر عليه أمرًا ظهر منه ، وشكا أهلها من نُوّابه فتَسَلَّمها منه ، وأطلقه فهرب ، وردّ حماة إلى صلاح الدّين ورَحل مِنْ حماة .

وسار إلى بلد حلب ، فنزل على الأثارب ، ففتحها أوّل رجب ، ثمّ فَتح زَردنا ، ثمّ تَلّ اغدي ، ثمّ فَتح مَعرّة النّعمان ، ومَنّ على أهلها بأملاكهم ، ثمّ فَتحَ كَفرطاب ونزل على شيزر فخرج إليه أبو المغيث بن منقذ نائباً عن أبيه ، ثمّ نَزَل بارين[1] وأظهر أنه يحاصرها ، ثمّ سار ، وأهل حمص غادون ، فشَنّ عليهم الغارةَ ، واستاق كلّ ما كان في بلدها ونهبهم .

ووصل ابن الفنش[2] الفرنجي من بيت المقدس || وخرج في جموع [١٦٢ و] الفرنج ، فنزل قِنّسرين ، فسار إليهم أتابك فأحسن التّدبير ، وما زال بالمسلمين حولهم حتى عادوا إلى بلادهم .

وسار زنكي إلى حمص فأحرق زرعها ، وقاتلها في العشر الأواخر من شوّال ، ثمّ سار إلى الموصل في ذي القعدة من هذه السّنة .

وسار منها في المحرّم من سنة ثلاثين وخمسمائة إلى بغداد ، ومعه داود بن محمود بن محمّد بن ملكشاه الواصل إليه إلى الموصل ، فأنزله في دار السّلطنة ببغداد ، وأتابك في الجانب الغربيّ ، والخليفة إذ ذاك الرّاشد بعد قَتْل المُستَرْشِد .

(١) بارين : والعامة تقول بعرين مدينة حسنة بين حلب وحماة من جهة الغرب — انظر معجم البلدان ١/٦٦٦

(٢) في المصادر الأجنبية :

«Berterand, fils d'Alphonse le franc, comte de Toulouse»

فوصل السّلطان مسعود[١] إلى بغداد فحصرهم بها فوقع الوباء في عسكره ، فسار إلى أرض واسط ليعبر إلى الجانب الغربيّ ، فاغتنم أتابك غيبته ، وسار إلى الموصل ، وسار داود إلى مراغة[٢] .

وبلغ الخبر السُّلطان مسعود فعاد ، فهرب الرّاشد ، ولحق أتابك بالموصل . ودخل مسعود بغداد ، فبايع محمد المقتفي[٣] ، وخطب له ببغداد وأعمال السُّلطان ، وبقيت الخطبة بالشّام والموصل على حالها إلى أن اتّفق أتابك زنكي والسّلطان مسعود واصطلحا ، وخطب بالشام والموصل للمقتفي ولمسعود . وفارق الرّاشد إذ ذاك زنكي ، وسار عن الموصل إلى خراسان في سنة إحدى وثلاثين .

حروب الفرنج والرّوم

وسار سيف الدّين سوار في سنة ثلاثين وخمسمائة في جمع من التركمان يبلغ ثلاثة آلاف إلى بلد اللّاذقيّة ، وأغار على الفرنج على غرّة وقلّة[٤] احتراز ، فعادوا ومعهم ما يزيد على سبعة آلاف أسير ، ما

---

(١) في الأصل : « السلطان محمود » ، ولعلها « السلطان مسعود » كما يفهم من السّياق .

(٢) مراغة : بلدة مشهورة عظيمة ، أعظم وأشهر بلاد أذربيجان—انظر معجم البلدان لياقوت ٦ / ٤٧٦

(٣) في ابن القلانسي ٢٥٦ : « وحين خلت بغداد من الخليفة وتدبيره تمكّن من كل ما يريد فعله ، ويروم قصده . فأقام في منصب الخلافة أبا عبدالله محمد أخا المسترشد بالله ولقبه المقتفى لأمر الله . وعمره أربعون سنة ، وأخذ البيعة له على جاري الرسم ، وخطب له على المنابر في بلاده فقط في ذي القعدة سنة ٥٣٠ هـ » — انظر مفرج الكروب ١/٦٨ وتاريخ الدولة الأتابكية ٩٦

(٤) في ابن الأثير ٨ / ٣٥٣ : « في هذه السنة — في شعبان اجتمعت عساكر أتابك زنكي صاحب حلب وحماة مع الأمير اسوار نائبه بحلب وقصدوا بلاد الفرنج على حين غفلة

بين رجل وامرأةٍ وصبيّ وصبيّةٍ || ومائــة ألف رأس من البقر والغنم [١٦٢ظ] والخيل والحمير[١]، والّذي نهبوه ـ على ما ذُكر ـ مائة قرية وامتلأت حلب من الأسارى والدّوابّ، واستغنى المسلمون بما حصل لهم من الغنائم.

ووصل أتابك زنكي من الموصل إلى حلب، في رابع وعشرين من شهر رمضان سنة إحدى وثلاثين، وسيّر صلاحَ الدّين في مقدمته، فنزل حمص. وسار أتابك إلى حماة، وعيّد عيدَ الفطر في الطّريق، وأخذ من حلب معه خمسمائة راجلٍ لحصار حمص[٢].

ورحل أتابك من حماة إلى حمص في شوال وبها أُنَر[٣] من قِبَل صاحب دمشق، فحصرها مدّة.

وخرج الفرنج نجدةً لحمص وغيلةً لزنكي. فرحل عَن حمص، ولقيَهم تحت قلعة بارين، فكسرتْهُم طلائعُ زنكي مع سوار، فأفنوا عامّتهم[٤] قتلًا وأسرًا، وقتل أكثر من ألفَيْن مِن الفرنج، ونجا القليلُ

منهم وقصدوا أعمال اللاذقية، ولم يتمكن أهلها من الانتقال عنها والاحتراز فنهبوا ما يزيد عن الوصف، وقتلوا وأسروا وفعلوا في بلاد الفرنج ما لم يفعله جم غيرهم.»

(١) في ابن الأثير ٨/٣٥٣: «وكان الأسرى سبعة آلاف اسير ما بين رجل وامرأة وصبيّ ومائة ألف رأس من الدواب ما بين فرس وبغل وحمار وبقر وغنم» — وقد نقل ابن العديم عبارة ابن القلانسي ٢٥٥ إلى كتابه.

(٢) في تاريخ العظيمي بالورقة ٢١١و: «وأقبل أتابك إلى نحو حماة، وعيّد في الطريق. وأخذ من حلب خمسمائة رجل لحصار حمص» — وفي ابن الأثير ٨/٣٥٧: «في هذه السنة في شعبان، سار أتابك زنكي إلى مدينة حمص وقدم إليها حاجبه صلاح الدين محمد الياغيساني وهو أكبر أمير معه، وكان ذا مكر وحيل، أرسله ليتوصل مع من فيها ليسلموها إليه».

(٣) في ابن الأثير، بالصفحة نفسها: «فوصل اليها وفيها معين الدين أنر وهو الوالي عليها والحاكم فيها وهو أيضاً أكبر أمير بدمشق وحمص إقطاعه.»

(٤) في تاريخ العظيمي، بالمخطوطة ٢١١و: «وخرج الفرنج نجدة لحمص وغيلة لأتابك

منهم، فدخل إلى بارين مع ملكهم كنـدياجور[١] صاحب القدس؛ وأقام الحصار على بارين بعشر مجانيق ليلًا ونهارًا، ثمّ تقرّر الصلح في العشر الأواخر من ذي القعدة على التّسليم بعد خراب القلعة.

وخلع على الملك وأطلق، وخرج الفرنج منها، وتسلّمها زنكي، وعاد إلى حلب.

واستقرّ الصلح بين أتابك وصاحب دمشق، وتزوّج أتابك خاتون بنت جناح الدّولة حسين، على يد الإمام بُرهان الـدّين البَلْخي[٢]، ودخل عليها بحلب في هذه السّنة.

ووصل في هذه السّنة ملك الروم كاليانى[٣] من القُسْطَنْطِينيّة في جموعه، ووصل إلى أنطاكية فخالفـه الفرنج — لطفاً من الله تعالى — وأقام

[١٦٣ و] إلى أن وصلته مراكبه البحريّة بالأثقال والميرة والمال، فاعتمد لاون بن روبال[٤] صاحب الثّغور في حقّه فتحاً عظيماً.

وتخوّف أهلُ حلب منه فشرَعوا في تحصينها وحفر خنادقها، فعاد

فرحل عن حمص ولقيهم تحت قلعة بعرين فكسرهم طلائع أتابك وفيها سيف الدين سوار فأجهز عليهم قتلًا وأسرًا وهرب القليل» — وهكذا نلاحظ أنّ ابن العديم يتفق في اللفظ والمعنى مع العظيمي فلعله نقل عنه هنا وبدّل بعض الكلمات على عادته — انظر تفصيل المركة في ابن الأثير ٨/٣٥٨

(١) في ابن القلانسي ٢٥٩: «كندأياجور» وقد ترجمه المستشرق في كتابه عن الحروب الصليبية بالصفحة ٦٧٣: «Comte d'Anjou, roi de Jérusalem»

(٢) في تاريخ العظيمي، بالمخطوطة ٢١١ ظ: «وتمت الهدنة بين أتابك وصاحب دمشق. وتزوجت خاتون به على يد الفقيه برهان الدين البلخي»

(٣) هو: «Jean Commène» — وقد حرّف اسمه ابن القلانسي ٢٥٨ فأثبته: «متملك الروم كياليانى».

(٤) وضع المستشرق هذا الاسم في ترجمته ص ٦٧٣:

«Léon, fils de Roubal (Roupen), roi de la Petite-Armenie»

إلى بلاد لاون فافتتحها جميعها ، فدخل إليه لاون مُتطارحاً ، فقال : « أنت بين الفرنج والأتراك لا يصلح لك المَقـام » . فسيّره إلى القُسطنطينية ، وأقام في عين زربة[1] وأذنة[2] والثغور ، مدّة الشتاء .

وكان في عودهِ عن أنطاكية إلى ناحية بغراس[3] في الثّاني والعشرين من ذي الحجة من سنة إحدى وثلاثين ، أنفذ رسولـه إلى زنكي ، وظفر سوار بسرّية وافرةِ العَدَد مِن عَسْكره ، فقتل وأسر ، ودخـل بهم إلى حلب[4] .

ووصل الرّسولُ إلى زنكي ، وهو متوجّهٌ إلى القبلة فردّه ومعه هدية إلى ملك الروم فهود وبزاة وصقور[5] على يـد الحاجب حسن ، فعاد إليه ومعه رسول منه وأخبره بأنه يحاصر بلاد لاون ، فسار إلى حماة ، ورحل إلى حمص فقاتلها .

ثم سار في نصف المحرّم من سنة اثنتين وثلاثين فنزل بعلبـكّ ، وأخذ منها مالاً ، وسار إلى ناحية البقاع فملك حصن المجدل من أيدي

---

(١) عَيْن زربى : بلد بالثغر من نواحي المصيصة ، واسمها الاعجمي : Anazarbe –

انظر زبدة الحلب ١/١٣٢ بالحاشية ومعجم البلدان لياقوت ٣/٧٦١ – وعبارة ابن القلانسي ٢٥٨ : « وتسلم أذنه والمصيصة وغيرهما وحاصر عين زربة » .

(٢) أذنة : مدينة على نهر سيحون من غربيه – انظر زبدة الحلب ١/١٦١ بالحاشية ومعجم البلدان لياقوت ١/١٧٩

(٣) بغراس : مدينة في لحف جبل اللكام ، بينها وبين أنطاكية أربعة فراسخ على يمين القاصد إلى انطاكية من حلب – انظر زبدة الحلب ١/١٥٩ – ومعجم البلدان لياقوت ١/٦٩٣

(٤) في تاريخ العظيمي بالمخطوطة ٢١١ ظ : «وأوقع سيف الدين بسريّة من الروم فقتل وأسر ، وأدخل الأسرى إلى حلب » .

(٥) عبارة العظيمي : « ورد رسول ملك الروم على أتابك وهو بالقبلة فردّه ، ومعه هدية الى ملك الروم : فهود وبزاة وصقور » ؛ فابن العديم نقلها عنه من غير شك .

فتحرّز النّاسُ وتحفّظوا ، وكاتبوا أتابك زنكي بذلك ، فوصله الخبر وهو على حمص ، فسيّر في الحال الأمير سيف الدّين سوار والرّجالة الحلبيّين وخمسمائة فارس ، في أربعة من الأمراء الاصفهسلاريّة[1] منهم زين الدّين علي كوچك ، فقويت قلوب أهل حلب بهم ، ووصلوا في سابع وعشرين من رجب .

وأمّا الرُّوم فإنّهم حصروا حصن بزاعا ، وقاتلوه سبعة أيّام ، فضعفتْ قُلوب المسلمين ، وكان الحصن في يد امرأة فسلّموه إلى الرُّوم بالأمان ، بعد أن توثّقوا منهم بالعهود والأيمان ، فغدروا بهم ، وأسروا من بزاعا ستة آلاف مسلم أو يزيدون ؛ وأقام المِلكُ بالوادي يدخّن على مَغَاير الباب عشرة أيّام ، فهلكوا بالدخان[2] .

حصار حلب

ثمّ رحل فنزل يوم الأربعاء الخامس من شعبان ، بأرض الناعورة ، ثُمّ رحل يوم الخميس || سادس شعبان ، ومعه [١٦٤ و] ريمند صاحب أنطاكية وابن جوسلين ، فنزل على حلب ونَصَب خيمته من قبليّها على نهر قويق ، وأرض السعدي[3] ، وقاتَل حَلَب يوم الثّلاثاء من ناحية بُرج الغَنَم ، وخرج إليهم أحداثُ حلب ، فقاتلوهم وظهروا عليهم ، وقُتِل من الرُّوم مقدّمٌ كبيرٌ ورجعوا إلى خيمهم خائبين .

فيورد قريباً من العبارة ٢٦٥ : « واستأمنَ منهم إلى حلب جماعة من كافر تُرك وانذروا من بحلب بالروم ، فحذروا وضمّوا أطرافهم ».

(١) هذه العبارة منقولة كذلك عن العظيمي .

(٢) هذا النصّ كذلك منقول عن العظيمي مع شيء من التصرّف .

(٣) في تاريخ العظيمي ، بالورقة ٢١٣ ظ : « ورحل إلى الناعورة ثم إلى حلب في سادس شعبان ، وضرب خيمه قبليّ حلب على نهر قويق ، وقاتل حلب يوم الثلاثاء ».

ورَحل يوم الأربعاء ثامن شعبان مقتبلًا إلى صلدي[1] ، فخاف مَنْ بقَلْعَة الأثارب من الجُند المسلمين ، فهربوا منها يوم الخميس تاسع شعبان ، وطرحوا النّار في خزائنهم .

وعَرف الرُّوم ذلك فخَفَّتْ منهم سرّيةٌ وجماعةٌ من الفرَنج ، ومعهم سبي بزاعا والوادي ، فملكوا القلعةَ ، وألجأوا السَّبْيَ إلى خنادقِها وأحواشها[2] ، فهرب جماعةٌ منهم إلى حلب ، وأعلموا الأميرَ سيفَ الدّين سوار بْنَ أيتكين بذلك ، وأنّ الروم انعزلوا عنها .

فنهض إليهم سوار في لَمَّـةٍ من العسكر ، فصابحهم وقد انتشروا بعد طلوع الشّمْس ، فوقع عليهم واستخلص السّبي جميعَه إلّا اليسير منهم[3] ، وأركب الضُّعَفاء منهم خلف الخَيَّالة حتَّى أنّه أخـذ بنفسه جماعةً من الصّبيان ، وأركبهم بين يديه ومِنْ خلفـه ، ووصل بهم إلى حلب ، ولم يبق من السّبي إلّا القليـل ، ووصل بهم إلى حلب في يوم السَّبت الحادي عشر من شعبان ، فسُرَّ أهلُ حلب سرورًا عظيماً[4] .

وكان أتابك قد رحل من حمص إلى حمـاة ثم رحل إلى سَلَمية ،

---

(١) في تاريخ العظيمي : « ورحل يوم الأربعاء ثامن شعبان مقتبلًا ، وخاف من بالاثارب من الجند فانهزموا منها ليلة الخميس » - وهكذا نلاحظ ان ابن العديم زاد كلمة (صلدى) والمستشرق يقترح أن تكون « سمدي » — وأما ابن القلانسي فيوردها كما يلي ٢٦٥ : « ورحلوا عنها غداة يوم الأربعاء ثامن شعبان مقتبلين إلى أرض صلدع » . وصلدي : قرية قريبة من حلب على نهر قويق — انظر زبدة الحلب ١/٢٦٦

(٢) هذه العبارة منقولة عن تاريخ العظيمي ، بالورقة ٢١٢ ظ ، وتمامها في العظيمي بعد هذا الكلام : « وهرب منهم قوم إلى حلب فأعلموهم بذلك فنهض إليهم الأمير سيف الدين سوار » — انظر ابن القلانسي ٢٦٥

(٣) عبارة العظيمي : « فخلصوا السبي جميعه إلّا من قد اطلع إلى القلعة فردهم إلى حلب ما مقدره ألف روح » .

(٤) في ابن القلانسي ٢٦٦ : « وسر أهل حلب بهذه النوبة سرورًا عظيماً » .

ورحل ملك الرُّوم إلى بلد مَعَرَّة النُّعمان، ورحل عنها يوم الاثنين ثالث عشر شعبان إلى جهة شَيْزَر[١]، ونزلوا كفرطاب ورَمَوْهـا بالمجانيق، فسلَّمها أهلُها في نصفِ شعبان.

وهرب أهل الجسر[٢]، وتركوه خالياً || فوصله الرُّوم، وجلسوا [١٦٤ظ] فيه ورحلوا عنه إلى شيزر، يوم الخميس سادس عشر شعبان، فوصلوها في مائة ألف راكب ومائة ألف راجل، ومعهم من الكراع والسّلاح ما لا يحصيه إلّا الله، فنزلوا الرّابية المشرِفَة على بلدة شيزر، وأقاموا يومَهم ويوم الجمعة إلى آخر النّهار.

وركبوا وهجموا البلدَ، فقاتلهم النَّاسُ وجُرح أبو المرهف نصْر ابن منقذ[٣]، ومات في رمضان من جُرْحه ذلك.

هرب الروم

ثمّ انهزم الرُّوم، وخرجوا، ونزل صاحب أنطاكية في مسجد سمّون، وجوسلين في المصلّى، وركب الملكُ يوم السَّبت، وطلع إلى الجبل المقابل لقلعة شيزر المعروف بجريجس، ونصب على القلعة ثمانية عشر منجنيقاً وأربع لعب تمنع النَّاس من الماء.

ودَام القتالُ عشرة أيام، ولقي أهل قلعة شيزر بلاءً عظيماً، ثمّ اقتصروا في القتال على المجانيق، وأقاموا إلى يوم السَّبت تاسع شهر رمضان.

(١) في العظيمي ٢١٢ ظ : « ورحل أتابك من حماة إلى سلمية في يوم الاثنين ثالث عشر شعبان، ورحل الملك عن بلد المعرّة مقتبلًا، وهرب جند كفرطاب منها ونزل الروم شيزر يوم الخميس سادس عشر شعبان» – أنظر مفرج الكروب ١/٧٨، وابن الأثير ٨/٣٦٠

(٢) هو جسر الحديد، وقد مرّ ذكره في الصفحة ١٣٦ وعلقنا في الحاشية على موقعه.

(٣) في ابن الأثير ٨/٣٦٠ : « وأما الروم فأنهم قصدوا قلعة شيزر فانها من أمنع الحصون وانما حصروها لأنها لم تكن لزنكي فلا يكون له في حفظها اهتمام، وإنما كانت للأمير أبي العساكر سلطان بن عليّ بن مقلد بن نصر بن منقذ الكناني » – انظر مفرج الكروب ١/٧٨، والدولة الأتابكية لابن الأثير ٩٩

وبلغهم أنَّ قرا أرسلان بن داود بن سكمان بن أُرْتُق عَبَر الفُرات في جموع عظيمة تزيد عن خمسين ألفاً من التّركمان وغيرهم، فأحرقوا آلات الحصار، ورحلوا عن شيزر[1]، وتركوا مجانيق عظاماً رفعها أتابك إلى قلعة حلب بعد رحيلهم، وساروا بعد أن هجموا ربض شيزر دفعات عدة[2]، ويخرجهم المسلمون منها.

فوصل صلاح الدّين من حماة يوم السَّبت تاسع الشّهر، وبلغه أنَّ الفرنج هربوا من كفرطاب فسار إليها، وملكها، ووصل أتابك يوم الأحد عاشر الشّهر، وسار إلى الجسر يوم الاثنين، فوجد الفرنج قد هربوا منه نصف اللّيل ونزل أهلهُ من «أبي قبيس»[3]، فمنعوهم ||وَدَخل الرُّوم مضيق أفامية إلى أنطاكية، وطلبها من الفرنج فلم [١٦٥ و] يعطوه إيّاها، فرحل عنها إلى بلاده، وسَيَّر أتابك خلفهم سرية من من العسكر تتخطّفهم. هذا كلّه وأتابك لم يستحضر قرا أرسلان بن داود، ولم يجتمع به، بل بَعَث إليه يأمُرُه بالعود إلى أبيه، وأنّه مستغنٍ عنه[4] وانحاز عنهم فنزل أرض حمص، وكتب إلى شهاب الدّين محمود ابن بوري يطلبها.

(١) في ابن القلانسي ٢٦٦ : وكان سبب رحيل الروم عن شيزر ما انتهى إليهم من وصول التركمان وتجمّع العساكر خاسرين وكان مدة اقامتهم ثلثة وعشرين يوماً » – في ابن الأثير ٨ / ٣٦٠ : « فرحل ملك الروم عنها في رمضان وكان مقامه عليها أربعين يوماً وترك المجانيق وآلات الحصار بحالها » .

(٢) في المظيمي : « هاجموا ربض شيزر دفعات عدة والله تعالى يعطي النصر للمسلمين عليهم فرحلوا عنها سحرة السبت تاسع رمضان، فكانت مدة الحصارة ثلثة وعشرين ليلة ».

(٣) في الأصل : « من بوقبس » بغير نقط، ولعلها كما ارتأى المستشرق : « من أبي قبيس» –وفي معجم البلدان لياقوت ١ / ١٠٣ : «وأبو قبيس أيضاً حصن مقابل شيزر معروف».

(٤) هذا النص منقول عن تاريخ المظيمي، بالورقة ٢١٣ و، ويزيد فيه: «وأنه مستغن لم يلتفت إليه ».

وتردّدت الرّسل بينهم على أن يسلّم إلى أتابـك حمص ، ويعوّض أنر واليها ببارين ، واللكمة[1] ، والحصن الشرقيّ ، وأنْ يتزوّج أتابك أمه زمرّد خاتون بنت جاولي ، ويتزوّج محمود ابنة أتابك ؛ ويسلّم أتابك حمص ، ويسلّم الدمشقيون المواضع المذكورة .

وسارت زمرّد خاتون مِن دارها إلى عسكر زنكي[2] مع أصحابه المندوبين لإيصالها إليه في أواخر شهر رمضان سنة اثنتين وثلاثين ، وقد اجتمع [عنده][3] رسول الخليفـة المقتفي ، وألبسه التّشريف الواصل إليه ، ورسول السّلطان ، ورسول مصر ، والرّوم ، ودمشق .

ورحل أتابك عن حمص ، وسار إلى حلب ، ثمّ خرج منها إلى بزاعا وفَتَحها بالسّيف ، يوم الثلاثاء تاسع عشر محرّم من سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة[4] ؛ وقَتَل كلّ من كان بها على قبر شَرف الدّولـة مسلم بن قريش[5] ، وكان ضُرب عليها بسَهْم في عينهِ فمات .

(١) في معجم البلدان لياقوت ٦ / ٣٦٥ : « اللّكمة : حصن بالساحل قرب عرقة والله أعلم » .

(٢) في مفرج الكروب ١/ ٧٧ : «وخطب زمرد خاتون وهي التي ذكرنا أنها قتلت ولدها شمس الملوك ، وزفت إليه في رمضان سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة ، واعتقد عماد الدين أنه اذا تزوجها كان ذلك طريقاً إلى تملكه دمشق ، فلما لم يحصل له ذلك أعرض عنها » – في تاريخ العظيمي : «واجتمع بخاتون زمرّد وصلت إليه من دمشق » – في ابن القلانسي ٢٦٦ : « الخاتون صفوة الملك زمرد ابنة الأمير جاولي . . . وتوجهت الخاتون صفوة الملك والدة شهاب الدين من دارها إلى عسكر عماد الدين أتابك بناحية حمص وحماة مع أصحاب عماد الدين المندوبين لايصالها إليه في أواخر شهر رمضان منها » .

(٣) أضفنا الكلمة للسّياق – وفي العظيمي : « واجتمع عنده رسل ملوك الأرض ، ولبس التشريف الواصل إليه مع ابن الانباري بظاهر حلب » .

(٤) في مفرج الكروب ١/ ٨٣ : «وفي المحرم سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة وصل الأمير عماد الدين رحمه الله إلى حلب ، واستقر أهلها وأهل حماة وأهل منبج على حصن بزاعة حتى فتحه بالسيف . »

(٥) في الأصل المخطوط : « مسلم بن قرواش بن مسلم بن قريش » وهو غير صحيح ،

وَعَاد منها إلى حلب، وسار إلى الأثارب، ففتحها، في ثالث صَفَر.

أثر الزلازل

وفي يوم الخميس ثالث عشر صفر، حدثت زلزلةٌ شديدةٌ ثمّ اتبعتها أخرى، وتواصلت الزّلازل، فهرب النّاس[1] [١٦٥ظ] من حلب إلى ظاهر البلد || وَخَرجت الأحجارُ من الحيطان إلى الطّريق، وسمع النّاسُ دويًّا عظيماً، وانقلبت الأثاربُ فهلك فيها ستمائـة من المسلمين[2]، وسلم الوالي ومعه نفرٌ يسيرٌ. وهلـك أكثر البلاد من شيح، وتلّ عمار، وتلّ خالد، وزَردنا[3]؛ وشُوهِدَت الأرضُ تموج، والأحجار عليها تضطرب كالحنطة في الغربال.

وانهـدمَ في حلب دورٌ كثيرةٌ، وتشعَّث السُّورُ، واضطَّربت جُدران القلعة[4]، وسار أتابك مشرِّقًا فنَزل القلعة[5] فأخذها، وسار منها إلى القلعة، ثمّ إلى الموصل.

فارجع إلى حاشية الصفحة ٦٩ في ترجمته، لذلك حذفنا الزائد في المخطوطة هنا.

(١) في ابن الأثير ٨/٣٦٥ : «وفيها في صفر كانت زلازل كثيرة هائلة بالشام والجزيرة وكثير من البلاد، وكان أشدها بالشام، وكانت متوالية عشر ليال كل ليلة عشر دفعات، فخرب كثير من البلاد ولاسيما حلب، فان أهلها كما كثرت عليهم فارقوا البلاد وخرجوا إلى الصحراء.»

(٢) في تاريخ العظيمي، بالورقة ٢١٣ ظ : «وانقلبت قلعة الأثارب بكلّ من فيها، ودامت الزلازل، وكان يحدث دويّ عظيم قبلها ثم يأتي بعده كذلك أربعة أشهر» — والغريب أن العظيمي لم يسجّل خراب حلب وهو منها، وابن القلانسيّ الدمشقي نقل إلينا خبر ذلك في تفصيل أمين.

(٣) مرّ بنا في حواشي الصفحات السابقة تحديد مواقع هذه الأماكن.

(٤) في ابن القلانسي ٢٦٨ : «وتناصرت الأخبار من الثقات السفار والواردين من ناحية الشمال بصفة هذه الرجفات المذكورات، وأنها كانت في حلب وما والاها من البلاد والمعاقل والأعمال أشدّ ما يكون بحيث انهدم في حلب الكثير من الدور، وتشعث السور، واضطربت جدران القلعة» — ولا شك في ابن العديم أخذ عن هذا النصّ.

(٥) لم نفهم ماذا يريد ابن العديم من قوله : «فنزل القلعـة فأخذها وسار منها إلى القلعة»، ولعل في النسخة نقصاً جعل النصّ غامضاً، فهو قد شرّق يريد قلعة ... وسار

وتواترت الزّلازل إلى شوّال، وقيل: إنّ عدّتها كانت ثمانين زلزلة.

وكان في سنة اثنتين وثلاثين قد عوّل أتابك على قبض أملاك الحلبيين الّتي استحدثوها من أيّام رضوان إلى آخر أيّام إيلغازي، ثمّ قرّر عليهم عشرة آلاف دينار، فأدّوا مِنْ ذلك ألف دينار؛ وجاءت هذه الزّلازل، فهرب أتابك من القلعة إلى ميدانها حافياً، وأطلق القطيعة.

وفي هذه السّنة، نهض سوار إلى الفرنج فغنم من بلادهم، ولحقوه فاستخلصوا ما غنم، وانهزم المسلمون فغنم الفرنج، وأخذوا منهم ألفاً ومائتي فارس، وأسروا صاحب الكهف ابنَ عمرون، وكان قد سلّمها إلى الباطنيّة.

وفي شهر رمضان منها، استحكمَ الفَسَادُ بين أتابك وتمرتاش، فنزل أتابك زنكي دارا، وحصرها وافتتحها[1] في شوّال، وأخذ رأس عين[2] وجَبَل جُور[3] وَذَا القَرْنَيْن. ومات سوتكين الكرجيّ بحرّان، فأنفذ أتابك زنكي وأخذها.

منها إلى قلعة . . . ثم إلى الموصل. ولم نقع في المصادر التي بين أيدينا على ما يوضّح النصّ أو ينير السبيل إلى تعديله وتصحيحه .

(١) في مفرّج الكروب ١/٨٣: «وفي هذه السنة نازل عمادالدين قلعة دارا وهي للأمير حسام الدين تمرتاش بن ايلغازي بن أرتق ، فلم ينل منها طائلًا وخاف على المسلمين ، ثم رحل منها إلى حرّان »– ثم يقول: « ثم مات سودكين فنازلها عسكر عماد الدين فتسلم المدينة».

(٢) رأس عين ، ويقال رأس العين ، والعامة تقول كذلك : وهي مدينة كبيرة مشهورة من مدن الجزيرة بين حرّان ونصيبين ودنيسر ، وبينها وبين نصيبين خمسة عشر فرسخاً – انظر معجم البلدان لياقوت ٢/٧٣١

(٣) في الأصل : « جبلجور» كلمة متصلة وصحيحها ما أثبتنا ، وقد مرّ ذكرها في الصفحة ٢٥٤ ، وبيّنا الموقع في حاشيتها عن معجم البلدان .

مقتل محمود

وقُتِلَ شِهابُ الدّين محمود بن تاج الملوك على فراشه، ليلة الجمعة الثالثة والعشرين من شوّال[1] من السنة، قتله البغش[2] [١٦٦ و] || ويوسف الخادم، وفرّاش، وكان قد قرّبهم واصطفاهم.

وسيّر أنر إلى محمّد أخيه صاحب بعلبك، فأجلسه في منصب أخيه[3] وأخرج أخاه بهرام شاه فمضى إلى حلب وشرّق إلى أتابك زنكي.

وعلمتْ والدته زمرّدخاتون، فأرسلت إلى زوجها زنكي، وهو بالموصل تستدعيه لطلب الثأر بولدها، وتحثّه على الوصول، فأقبل وفي مقدّمته الأمير الحاجب صلاح الدّين، فسار إلى حماة.

ووصل زنكي حتّى عبر الفرات، ونزل بالناعورة[4]، ودخل حلب، ورحل إلى حماة في سابع ذي الحجة، ورحل إلى حمص، ثمّ إلى بعلبك، فحصرها أوّل محرّم من سنة أربع وثلاثين وخمسمائة، وضربها بالمجانيق[5] إلى أن فتحها يوم الاثنين رابع عشر صفر.

---

(١) في ابن القلانسي ٢٦٨ : «وفي يوم الجمعة الثالث والعشرين من شوال من السنة في غدائه، ظهرت الحادثة المدبّرة على الأمير شهاب الدين محمود بن تاج الملوك بن ظهير الدين أتابك، وقتله في فراشه وهو في نومه في ليلة الجمعة المذكورة، بيد غلمانه الملاعين البغش الأرمنيّ الذي اصطنعه وقرّبه إليه، واعتمد في أشغاله عليه، ويوسف الخادم الذي وثق به في نومه لديه، والخركاويّ الفرّاش الراقد حواليه» – انظر بقية النص عند ابن القلانسي.

(٢) في الأصل : «البغش» – وفي طبعة المستشرق : «البغش» – وفي ابن القلانسي كما مرّ بنا : «البغش الأرمنيّ».

(٣) في ابن القلانسي ٢٦٩ : «وكُتب إلى الأمير جمال الدين محمد بن تاج الملوك أخيه صاحب بعلبك بصورة الحال، فبادر بالوصول إلى دمشق في أسرع وقت وأقرب أوان، فجلس في منصبه وعقد الأمر له.»

(٤) تفصيل هذا الخبر في ابن القلانسي ٢٦٩، ومفرّج الكروب ٨٥/١

(٥) في مفرج الكروب ٨٦/١ : «ونصب عليها أربعة عشر منجنيقاً ترمي ليلاً ونهاراً، فأشرف من بها على الهلاك، فطلبوا الأمان وسلموا إليه المدينة» – انظر تفصيل الأمر عند ابن القلانسي ٢٦٩

وفتح القلعة يوم الخميس خامس وعشرين منـه ، وأقام بها إلى منتصف شهر ربيع الآخر، وكان قد حلف لأهل القلعة بالأيمان المغلّظة والمصحف والطلاق ، فلمّا نزلوا غدر بهم[1] ، وسلخ واليهـا ، وشنق الباقين ، وكانوا سبعةً وثلاثين رجلًا ، وغدَر بالنّساء ، وأخذهم.

موت محمد بن بوري

وسار في نصف ربيع الآخر إلى دمشق لمضايقتها، فنزل على دَارَيّا[2] ، وزحف إلى البلد[3] ، وراسل محمَّد بن بوري في تسليمها ، وأخذ بعلبـكّ وحمص، وما يقترح معها عوضًا عنها ، وأراد إجابته إلى ذلك فمنعه أصحابه ، وخوّفوه الغدرَ به، فمات محمّد بن بوري، في ثامن شعبان[4] ، ونصبَ ولَدَه عضب الدّولة أبق مكانه[5] .

غارات الفرنج

وكاتب أنر الفرنج في نجدته، وتسليم بانياس من ابراهيم ابن طرغت إليهم ، فتجمّعوا لذلك ، فرحـل أتابك عن

(١) في ابن القلانسي ٢٦٩ : « فلما حصلت في ملكته نكث عهده ونقض أمانه لحنق أسرّه وغيظ على من كان فيها أكنه ، فأمر بصلبهم ولم يفلت منهم إلّا من حماه أجله .»

(٢) داريّا : قرية كبيرة مشهورة من قرى دمشق بالغوطة ، والنسبة اليها داراني على غير قياس – انظر معجم البلدان لياقوت ٥٣٦/٢

(٣) في ابن القلانسي ٢٧٠ : « فرحل عن البقاع ونزل على داريّا ظاهر دمشق في يوم الأربعاء ثالث عشر ربيع الآخر منها .»

(٤) في ابن القلانسي ٢٧١ : « وابتدأ بجمال الدين محمد بن تاج الملوك مرض اتّصل به في جمادى الأولى من السنة فصار يخفّ تارة ويثقل ، ويمضي ويعود ، ويقلّ ويزيد ، إلى أن اشتد به اشتدادًا وقع اليأس معه منه ، ولم يكن له فيه طبّ ولا راق ، ولم يزل على هذه الحال إلى أن قضى محتوم نحبه، وصار إلى رحمة ربه في ليلة الجمعة الثامن من شعبان منها ، في الوقت الذي أصيب فيه أخوه شهاب الدين محمود بن تاج الملوك رحمها الله ، فعجب الناس من ذلك واتفاق الوقت والساعة .»

(٥) هو الأمير عضب الدولة أبو سعيد آبق بن جمال الدين محمد »– انظر ابن القلانسي

[١٦٦ظ] دمشق، في خامس شهر رمضان، للقاء الفرنج || ان قربوا منه إلى ناحية بصرى[(١)] وصرخد[(٢)] من حوران، وأقام مدّة، ثم عاد إلى الغُوطة فنزل عذراء[(٣)] وأحرق عدة ضياع من الغوطة.

ووصل الفرنج فنزلوا بالميدان، فرحل أتابك إلى ناحية حمص. وأسر[(٤)] ريمند صاحب أنطاكية ابراهيم بن طرغت صاحب بانياس، وقتله. ونزل معين الدّين أنر عليها فحصرها وتسلّمها، وسلّمها إلى الفرنج، وعادتْ خاتُون إلى حلب في العشرين من ربيع الأوّل.

وعاد أتابك إلى حلب في الرّابع والعشرين من جُمادي الأُولى، واستقرّ الحالُ بين زنكي وأبق على أن خطب لزنكي بدمشق.

ومات قاضي حلب أبو غَانم محمّد بن أبي جرادة في شهر ربيع الآخر من سنة أربع وثلاثين وخمسمائة، فولّى أتابك قضاء حلب وَلَده أبا الفضل هبة الله بن محمد بن أبي جرادة، ولمّا استحضره وولّاه القضاء قال له: «هذا الأمرُ قد نزعتهُ من عُنقي، وقلّدتُك إيّاه، فينبغي أن

---

٢٧١ – في مفرج الكروب ١/٨٧: «فأجلس في الملك بعده ولده الأمير مجير الدين آبق بن محمد، وهو آخر ملوك دمشق من بيت طغتكين».

(١) بُصرى: بالشام من أعمال دمشق، وهي قصبة كورة حوران – انظر معجم البلدان لياقوت ١/٦٥٤

(٢) صَرْخَد: بلد ملاصق لبلاد حَوْران من أعمال دمشق وهي قلعة حصينة وولاية حسنة واسعة – انظر معجم البلدان لياقوت ٣/٣٨٠

(٣) في ابن الأثير ٨/٣٦٧: «ونزل بعذراء شماليها سادس شوال» – وقد ذكرها ياقوت في معجم البلدان ٣/٦٢٥: «وهي قرية بغوطة دمشق من اقليم خولان معروفة وإليها ينسب مرج. وإذا انحدرت من ثنية العقاب وأشرفتَ على الغوطة فتأملت على يسارك رأيتها أول قرية تلي الجبل، وبها منارة».

(٤) في الأصل: «وكسر» وصحيحها كما اثبتنا.

تتقي اللهَ وأن تساويَ بين الخصمين ، هكذا[١] »؛ وجمع بين أصابعه.

وكثر عَيْث التّركمان وفسادهم ، وامتدت أيديهم إلى بلاد الفرنج ، فأرسلوا رسولًا إلى أتابك يشكونهم ، فعاد الرّسول متنصِّلًا ، فلقيه قومٌ من التّركمان فقتلوه ، فأغار الفرنج على حلب ، فأخذوا من العرَب والتّركمان ما لا يُحصى .

وعاد أتابك في سنة ستّ وثلاثين على الحلبيّين بالقطيعة الّتي كان قرّرها على الأمـلاك ، وأرسل اليهم عليّ الفُوتي العجميّ ، فعسف النّاس في استخراج القطيعة ، وأخرق بهم ، ومات ابن شقارة بحلب ، وصارت أملاكهُ إلى بيت المـال فردّ على النّاس ما كان وُظّف || على [١٦٧ و] أملاكه من القطيعة وأخذه منهم .

وأغار الفرنج في سنة ستّ وثلاثين وخمسمائة على بلد سَرْمين ، وأخرّبوا ونهبوا ، ثمّ تحوّلوا إلى جبل السُّمَّاق ، وكذلـك فعلوا بكفرطاب ، وتفرّقوا فأغار علم الـدّين بن سيف الدّين سوار مع التّركمان إلى باب أنطاكية ، وعادوا بالغنائم والوسيق العظيم .

وأغار لجة التركي وكان قد نزح عن دمشق إلى خدمة زنكي على بلد الفرنج ، في جمادى ، فساق وسبى وقتل . وذكر أن عدّة المقتولين سبعمائة رجل[٢] .

(١) في بغية الطلب ٨/٢١٢ و : « وسمعتُ عمي أبا غانم يقول : قال لي والدي أبو الفضل : لما مات أبي القاضي أبو غانم وولاني أتابك زنكي القضاء بعده على أهل حلب وأعمالها ، واحضرني مجلسه وقال لي : يا قاضي هذا أمر قد نزعته من عنقي وقلدتك إياه ، فانظر كيف تكون ، واتق الله بيننا وبين الخصمين ولا تخلف أحدًا ؛ ومن امتنع عليك فها أنا من ورائك » .

(٢) في تاريخ العظيمي ، بالورقة ٢١٥ و : « وفي جمادى أغار لجة التركي على بلاد الفرنج

واتّفق في هذه السّنة خلفٌ شديدٌ بين أتابك زنكي وقرا أرسلان ابن داود بن سكمان بناحية بهمرد[1] ، فالتقيا فكسره أتابك ، وفتح بهمرد ، وعاد إلى الجزيرة ، ثم إلى الموصل فشتّى بها .

وفي هذه السّنة تقرّر الصُّلح بين أتابك والأُرتقيّة ووصل أولادُهم إلى الخدمة ثمّ عادوا .

وفي خامس شعبان مات وزيرُ أتابك ضياء الدّين بن الكفرتوثي[2] ووزّر موضعه أبا الرضا بنَ صدقة ، ثمّ عزله في سنة ثمان وثلاثين .

ونهض سوار في شهر رمضان إلى بلـد أنطاكية ، وعند الجسر جمع عظيم وخيم مضروبة من الفرنج ، فخاض التّركمان إليهم العاصي ، وكسروا الجميع هناك ، وقتلوا كلّ من كان بالخيم ، ونهبوا وسبوا ، وعادوا إلى حلب بالوسيق العظيم ، والأسرى والرؤوس[3] .

وفتح أتابك قلعة أشب المشهورة بالحصانة[4] ، في ثالث وعشرين

وساق وسبى ونفر إليه نفر من الفرنج فظفر بهم وقتل منهم سبعمائة وعـاد بالغنائم والوسيق والقلائع » — في ابن القلانسي ٢٧٤ : « فيها ورد الخبر من ناحية الشمال باغارة الأمير لجه التركي النـازح عن دمشق إلى خدمة الأمير عماد الدين أتابك على بلد الفرنج وظفره بخيلهم وفتكه بهم بحيث ذكر أن عدّة المقتولين منهم تقدير سبعمائة رجل » .

(١) في مفرج الكروب ٨٩/١ : « جرت وقعة بين عماد الدين والأمير ركن الدين داود بن سقمان بن أرتق صاحب حصن كيفا فانهزم ركن الدين وملك عماد الدين بهمرد »

(٢) في ابن القلانسي ٢٧٥ : « وفيها ورد الخبر بوفاة ضياء أبي سعيد بن الكفرتوثي وزير الأمير عماد الدين أتابك في خامس شعبان » وكذلك جاء النص عند العظيمي .

(٣) هذا النصّ منقول عن تاريخ العظيمي : « ونهض الأمير سيف الدين في العشر الثاني من رمضان إلى بلد أنطاكية ، وعند الجسر جمع كثير وخيم مضروبة وقطعة من العسكر يخطفون الأطراف فخاض التركمان إليهم العاصي وكسروا الجمع هناك وقتلوا من كان بالخيم ونهبوا وسبوا ، وعاد سيف الدين إلى حلب بالوسيق العظيم والقلائع والرؤوس والأسرى » .

(٤) في ابن الأثير ٦/٩ : « في هذه السنة أرسل أتابك زنكي جيشاً إلى قلعة أشب وكانت أعظم حصون الأكراد الهكارية وأمنها وبها أموالهم وأهلهم فحصروها وضيقوا

من شهر رمضان من سنة سبع وثلاثين.

وخرج ملك أنطاكية إلى وادي بزاعا، فخرج سوار فردّهم إلى بلد الشّمال || واجتمع سوار وجوسلين بين العسكرين فاتّفق الصُّلح بينهما[1]. [١٦٧ظ]

وفي سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة، فتح أتابك قلعة انيرون[2]، وبعدها قلعة حيزان[3]، ومما كان أيضاً بيد الفرنج جملين[4]، والموزّر[5]، وتل مَوْزَن[6]، وغيرها.

وخرج عسكر حلب فظفروا بفرقةٍ كبيرةٍ[7] من التجّار والأجناد

علي من جبا فملكوها، فأمر باخراجها وبناء القلعة المعروفة بالعمارية عوضاً عنها» — وفي تاريخ العظيمي أنه فتحها ليلة القدر.

(١) في تاريخ العظيمي، بالورقة ٢١٥ ظ: «فظهر ملك أنطاكية إلى وادي بزاعة فنهض إليه الأمير سوار فردّهم إلى بلد الشمال، وأغار الجوسلين إلى شط الفرات وسبى أهل عكرمة بأسرهم تسمائة روح» — ثم يقول: «واجتمع الأمير سيف الدين والجوسلين ببلد الشمالي في المعسكرين واتفق الصلح بينهما».

(٢) في الأصل «أنيرون»؛ وفي العظيمي مثلها — وفي القلانسي ٢٧٧ جامشها عن الفارقي: «ايزون».

(٣) حيزان: بلد فيه شجر وبساتين كثيرة ومياه غزيرة، وهي قرب إسْعِرت من ديار بكر — انظر معجم البلدان لياقوت ٣٨٠/٢

(٤) في الأعلاق الخطيرة، قسم الجزيرة ٣/٣٠ ظ: «جملين والموزر: قلعتان لها عملان متسعان بين بلاد ديار مضر وبلاد ديار بكر على يوم من حرّان ما زالتا في أيدي من تملك ديار مضر إلى أن استولى عليها الفرنج عند ملكهم للرها.»

(٥) مُوَزّر: بالضم وتشديد الزاي وراء كأنه مفعل: كورة بالجزيرة منها نصيبين الروم — انظر معجم البلدان لياقوت ٦٧٩/٤

(٦) تلّ مَوْزَن: بفتح الميم وسكون الواو وفتح الزاي وآخره نون: بلد قديم بين رأس عين وسروج، وبينه وبين رأس عين نحو عشرة أميال — انظر معجم البلدان لياقوت ٨٢٧/١

(٧) في الأصل: «فظفروا برفقة كثيرة» — وصحيحها كما أثبتنا، فهو تصحيف من الناسخ، وقد جاء في ابن القلانسي ٢٧٨: «وفي جمادى الأولى منها ورد الخبر من ناحية

وغيرهم خرجتْ من أنطاكية تريد بلادَ الفرنج ، ومعها مال كثير ودوابّ ومتاع ، فأوقعوا بهم ، وقتلوا جميعَ الخيَّالة من الفرنج الخارجين لحمايتهم ، وأخذوا ما كان معهم ، وعادوا إلى حلب ، وذلك في جمادى الأولى من السّنة .

وفي يوم الأربعاء خامس وعشرين من ذي القعدة ، وقعتْ خيـلُ تركمان نهضتْ من بلد حلب ، فأوقعتْ بخيلٍ خارجةٍ من بَاسُوطـا فقتلوهم ، وأسروا صاحب باسوطا وجاءوا به إلى حلب ، فسلّموه إلى سوار فقيّده(١) .

وعزل أتابك وزيرَهُ جلالَ الـدّين أبا الرّضا بالمَوْصل ، واستوزر أبا الغنائم حَبَشي بن مُحمّد الحلّي(٢) .

فتح الرّها

وكان أتابك زنكي لا يزال يفكّر في فتح الرّها ، ونفسه في كل حين تُطالبه بذلك ، إلى أن عرف أنّ جوسلين صاحبها قد خرج منها(٣)

الشمال تفيد بأن عسكر حلب ظفر بفرقة كبيرة من التجار والأجناد وغيرهم خرجت من أنطاكية تريد بلاد الافرنج ومعها مال كثير ودواب ومتاع وأثاث فأوقعوا بها واشتملوا على ما كان فيها ، وقتلوا من كان معها من خيالة الأفرنج لحمايتها والذب عنها ؛ وعاد إلى حلب بالمال والسبي والأسرى والدواب »- وقد أثبتنا نصّ ابن القلانسي لنبرهن على أن ابن العديم نقله عنه وأسقط بعض كلمات منه على عادته .

(١) نقل ابن العديم هذا النصّ عن تاريخ العظيمي ، بالورقة ٢١٧ و ، مع تغيير بعض الكلمات ببعض . وهنا يقف تاريخ العظيمي فنحرم من المقـابلة عليه والاستفادة منه ، وقد نقل عنه ابن العديم نقلًا حرفيًّا كثيرًا كما بيّنا ، ولكنّ العظيمي يسجّل التاريخ حتى نهاية سنة ٥٣٨ هـ فحسب .

(٢) في ابن القلانسي ٢٧٧ : « وفيها ورد الخبر بعزل عماد الدين أتابك وزيره أبا الرضا ابن صدقة لأسباب أوجبت ذاك ، ودعت اليه ، وأغراض بعثت عليه ، واستوزر مكانه . »

(٣) في ابن الأثير ٩ / ٨ : « وفارق جوسلين الرّها وعبر الفرات الى بلاد الغربية ، فجاءت عيون أتابك إليه فأخبروه الخبر فنادى في العسكر بالرحيل . »

في معظم عسكره ، في سنة تسع وثلاثين وخمسمائة ، لأمرٍ اقتضاه ؛ فسارع أتابك إلى النّزول عليها في عسكرٍ عظيم ؛ وكاتب التّركمان بالوصول إليه ، فوصل خلقٌ عظيمٌ .

وأحاط المسلمون بها من كلّ الجهات ، وحالوا بينها وبين مَنْ يدخل إليها بميرةٍ أو غيرها ، ونصب عليها المجانيق ؛ وشرع الحلبيّون فنقبوا عدّة مواضع عرفوا أمرها إلى أن وصلوا تحت أساس أبراج السّور ، فعلقوه بالأخشاب ، واستأذنوا أتابك في إطلاق النّار فيه ، فدخل إلى النّقب نفسه وشاهده ثم أذِنَ لهم ، فألقَوْا النّارَ فيه ، فوقع السّور في الحال[1] .

وهجم || المسلمون البلد ، وملكوه بالسّيف يوم السّبت سادس [١٦٨ و] عشر جمادى الآخرة[2] ، وشرعوا في النّهب والقتل والأسر والسّبي ، حتّى امتلأتْ أيديهم من الغنائم . ثمّ أمر أتابك برفع السّيف عن أهلها ، ومنع السّبي ، وردّه من أيدي المسلمين ، وأوصى بأهلها خيرًا ، وشرع في عمارة ما انهدم منها وترميمه[3] .

وكان جمالُ الدّين أبو المعالي فضل الله بن ماهان رئيس حَرّان هو الّذي يحثّ أتابك في جميع الأوقات على أخذها ، ويسهّل عليه أمرها ،

---

(١) في ابن الأثير كذلك ، بالصفحة نفسها : « فسقطت البدنة التي نقبها النقابون ، وأخذ البلد عنوة وقهرًا . »

(٢) في مفرج الكروب ١/٩٦ : « وحصر القلعة فملكها وذلك لأربع عشر بقيت من جمادى الآخرة من هذه السنة ، ونهب الناس الأموال وسبوا الذرية وقتلوا الرجال »—ومثل هذا النص في ابن الأثير .

(٣) في ابن الأثير : « فأمر فنودي في العساكر برد ما أخذوه من الرجال والنساء والأطفال إلى بيوتهم واعادة ما غنموه من أثاثهم وأمتعتهم فردوا الجميع عن آخره لم يفقد منه شيء الا الشاذ النادر »—ومثل ذلك في مفرج الكروب فهما متشابهان متفقان في النصّ.

فوُجِدَ على عضادة مِحرابها مكتوب[١] :

أَصبَحْتُ صِفْرًا مِنْ «بَني الأَصْفَرِ» أَخْتالُ بالأَعْلامِ والمِنْبَرِ[٢]
دَانٍ مِنَ المَعْروفِ حَالٍ بِهِ نَاءٍ عن الفَحْشَاءِ وَالمُنْكَرِ
مُطَهَّرِ الرَّحْبِ عَلَى أَنَّني لَوْلَا «جَمالُ الدِّين» لَمْ أُطْهَرِ[٣]

فبلغَ ذلك رئيسَ حران، فقال: «امْحوا جمال الدِّين، واكتبوا عمادَ الدِّين». فبلغ ذلك زنكي، فقال: «صَدَق الشَّاعِرُ لولاكَ ما طَمِعْنَا فيها». وأمر عُمَّاله بتخفيف الوطأة عليهم في الخراج، وأن يأخذوه على قَدْرِ مغلَّاتها[٤].

ثمَّ رحل إلى سروج ففتحها، وَهَرب الفرنج منها، ثمَّ رحل فنزل على البيرة، في هذه السنة فحاصرها في هذه السَّنة.

وجاء الخبر من الموصل أن نصير الدِّين جقر نائبه بالموصل قُتل[٥]، فخاف عليها، وترك البيرة بعد أن قارب أخذها، مقتل جقر

(١) وردت الأبيات في بغية الطّلب ٨/ ٢١٠ و : «فلما فتحها أوصى بأهلها خيرًا، ولم يسب أهلها ونوى عمارتها، ووجدوا على عضادة المحراب مكتوبًا :

أصبحت صفرًا من بني الأصفر أختـال (الأبيات)

فبلغ ذلك رئيس حرّان جمال الدين فضل الله أبا المعالي، فقال : امحوا جمال الدين واكتبوا عماد الدين فبلغ ذلك عماد الدين فقال : صدق الشاعر، لولاك ما طمعنا فيها. وأمر عمّاله إذا جاءت جائحة في الغلّة أن يأخذوا الخراج على قدرها.» – في النجوم الزاهرة ٥/٢٧٥ : «وجدوا مكتوبًا عليها سطرين بالسريانيّة، فجاء شيخ يهودي فحملها إلى العربية».

(٢) في النجوم الزاهرة : «أصبحت خلوًا»

(٣) في النجوم : «فظهر الرحب على أنني لولا ابن سنقر لم أظهر»

(٤) بقية النصّ وتفصيل الأمر في بغية الطلب المخطوطة.

(٥) في ابن الأثير ٩/ ٩ : «في هذه السنة في ذي القعدة قتل نصير الدين جقر نائب أتابك زنكي بالموصل والأعمال جميعها التي شرقي الفرات» – في مفرج الكروب ١/٩٥ : «فحسن بعض المفسدين للملك ألب ارسلان قتل نصير الدين وقال : ان قتلته ملكت الموصل وغيرها، ولا يبقى مع أتابك زنكي فارس واحد» – وهذا شبيه بما عند ابن الأثير.

وسار حتّى دخل الموصل، وأخذ فرخانشاه ابن السّلطان الّذي قَتَل جقر، وعزم على تَمَلُّك الموصل، فقتله بدم جَقر، وَوَلَّى الموصل مكانَهُ الأميرَ زَيْنَ الدّينِ علي كوچك[1].

ثمّ || شَرَع زنكي في الجمع والاحتشاد، والاستكثار من عمل [١٦٨ظ] المجانيق، وآلة الحرب، في أوائل سنة أربعين وخمسمائة؛ ويُظهر للنّاس أنّ ذلك لقصد الجهاد. وبعضُ النّاس يقولُ: إنّه لقَصْد دمشق ومُنازلتها. وكان ببعلبكّ مجانيق فَحُمِلَتْ إلى حمصَ، في شعبان من هذه السَّنة.

وقيل: إنّ عَزْمَهُ انثنى عن الجهاد في هذه السَّنة، وأنّ جماعةً من الأرمن بالرّها عاملوا عليها، وأرادوا الإيقاعَ بمن كان فيها من المسلمين واطّلع على حالهم؛ وتوجه أتابك من الموصل نحوها، وقُوبل مَن عَزَمَ على الفساد بالقتل والصلب.

مَقتَل عِمَادِ الدِّين زَنكي الشَّهِيد

وسار ونزل على قلعة جعبر بالمرج[2] الشَّرْقي تحت القلعة، يوم الثلاثاء ثالث ذي الحجّة، فأقام عليها إلى ليلة الأحد سادس شهر ربيع الآخر نصف اللّيل من سنة إحدى وأربعين وخمسمائة، فقتله يرنقش الخادم؛ كان يهدّده في النّهار، فخاف منه فقتله في اللّيل في فراشه[3].

---

(١) في ابن الأثير: «ففارق البيرة وأرسل زين الدين عليّ بن بكتكين إلى قلعة الموصل واليًا على ما كان نصير الدين يتولّاه» — وهو زين الدين علي كوچك، كما في مفرج الكروب ٩٦/١

(٢) الكلمة غامضة هنا، وقد وضعها المستشرق: «بالبرج الشرقي» — وأما بغية الطلب، المخطوطة بالورقة ٢١٣/٨: «ونزل على قلعة جعبر بالمرج الشرقي تحت القلعة» إلى آخر ما أثبته ابن العديم في الزبدة.

(٣) جاء هذا النصّ نفسه في بغية الطلب المخطوطة وقد ذكر ابن العديم مصدره فقال:

وقيل: إنّه شرب ونام، فانتبه فوجد يرنقش الخادم وجماعةً من غلمانه يشربون فضلَ شرابه، فتوعّدهم. ونام فأجمعوا على قتله، وجاء يرنقش إلى تحت القَلعة، فنادى أهلَ القلعة: «شيلوني فقد قتلتُ أتابك». فقالوا له: «اذهبْ إلى لَعنَةِ الله، فقد قتلتَ المسلمين كُلّهم بقتله[1]».

وقد كان أتابك ضايَقَ القلعة، فقلَّ الماء فيها جدًّا، والرُّسل من صاحبها عليّ بن مالك تَتَرَدَّدُ بينه وبين أتابك، فبذل عليُّ بنُ مالك له ثلاثين ألف دينار ليرحلَ عنها، فأجابه إلى ذلك.

[١٦٩ و] وَنَزل الرَّسول، وقد جمع الذَّهبَ || حتّى قلع الحلقَ من آذان أَخَواتِهِ[2]، وأحضر الرَّسولَ، وقال لبعض خواصه: «إمضِ بفَرَسه وقرّبه إلى قِدْر اليَخْني فإنْ شَرِبَ منه فأعلمني». ففعل ذلك، فشربَ الفرسُ مَرَقة اليخني، فعلم أنَّ الماء قد قَلَّ عندهم، فغالط الرَّسولَ ودافعه، ولم يُجِبْهُ إلى مُلتَمَسِهِ، فأُسقِط في يد عليّ بن مالك.

وكان في القلعة عنده بقرة وحش، وقد أجهدَها العَطَشُ، فصعدتْ في دَرَجة المِئذنة حتّى عَلَت عليها، ورفعت رأسها إلى السَّماء، وصاحتْ

«قرأتُ في تاريخ أبي شجاع محمد بن عليّ بن الدهّان الفرضي في حوادث سنة احدى وأربعين وخمسمائة قال: وفي هذه السنة قُتل عماد الدين زنكي ليلة الأحد سادس عشر ... الخ» – وفي ابن الأثير ٩ / ١٣ : «قتله جماعة من مماليكه ليلًا غيلة وهربوا إلى قلعة جعبر، فصاحوا على من جا من العسكر يعلموهم بقتله وأظهروا الفرح فدخل أصحابه إليه فأدركوه وبه رمق».

(١) ورد هذا النص بحروفه في بغية الطلب المخطوطة ٨/٢١٣و. سوارجع إلى الصفحة ٢١٩ السابقة.

(٢) في بغية الطلب المخطوطة ٨/٢١٤ و : «ونزل رسول عمّي اليه وقد جمع الذهب حتى قلع الحلق من آذان عماتي أخواته على ما حكى لي بعض المشايخ. قال: فلما نزل الرسول إليه قال له بعض خواصه: امض بفرسه وقرّبه إلى قدر اليخني فان شرب منه فاعلمني .. الخ» ..

صيحةً عظيمةً، فأرسلَ اللهُ سحابةً ظلّلت[1] القلعةَ، وأمطروا حتى رووا، فتقدّم حسّان البعلبكيّ صاحب مَنْبج إلى تحتِ القلعة، ونادى عَليَّ بنَ مَالك، وقال لـه: «يا أميرَ عليّ، ايشْ بقى يخلّصك من أتابك» فقال له: «يا عاقِل، يُخلِّصني الذي خلّصَك مِنْ حَبْس بلك». يعني حين قُتِل[2] بلك على منبج وخلص حسّان، فصدق فأله – وكان ما ذكرناه –.

وأخبرني والدي – رحمه الله – أنّ حارس أتابك كان يحرسُه في اللّيلة الّتي قُتِل فيها بهذَين البيتين[3]:

يَا رَاقِد اللَّيلِ مَسْرُورًا بأوَّلِهِ، إنَّ الحَوَادِثَ قَدْ يَطْرُقْنَ أسْحَارا!
لَا تَأمَنَنَّ بِلَيْلٍ طَابَ أوَّلُـهُ فَرُبَّ آخرِ لَيْـلٍ أجَّجَ النَّارا!

وكان أتابك جبارًا عظيمًا ذا هيبـة وسطوة. وقيل: إنّ الشاووش[4] كان يصيح خـارج باب العراق، وهو نازل من القَلْعَة. وكان إذا ركبَ مَشي العسكرُ خَلْفَهُ كأنهُم بَيْنَ خَيْطَيْن مخافةَ أنْ يدوسَ العَسْكَرُ شيئاً من الزَّرع، ولا يجسر أحدٌ من هيبته أن يدوسَ عِرقاً منه[5]، ولا يمشي || فرسُه فيه، ولا يجسر أحدٌ من أجناده أن يأخـذ [١٦٩ظ]

(١) هذا النصّ كله في بغية الطلب ٨/٢١٦ ظ: «وصاحت صيحة عظيمة ملأت الوادي قال: فأرسل الله سبحانه سحابة ظلّلت القلعة وامطروا حتى رووا»

(٢) أصاب الورقة بلل ومع ذلك حاولنا قراءة ما فيها، وقد اقترح المستشرق لهذه الكلمة: «حين نزل» وهي في النصّ المبلّل: «قتل».

(٣) في بغية الطلب: «سمعتُ والدي رحمه الله يقول: ان حارس أتابك كان يحرسه في الليلة التي قتل فيها بهذين البيتين» – ثم روى ابن العديم ما نقله إلى الزبدة.

(٤) الشاوُش: كلمة تركية بمعنى حرس للسلطان أو غيره، وهو عند العثمانيين (جاوش) ولا تزال الكلمة في أسماع الناس لكثير من الأقطار العربية – انظر دوزي ١/٧١٧

(٥) وقع هذا النصّ بتمامه في بغية الطلب ٨/٢١٠ ظ: «قرأتُ في تاريخ حرّان جمع

لفلّاح علاقة تبن إلّا بثمنها أو بخطٍ من الدّيوان إلى رئيس القرية ؛ وإنْ تعدّى أحدٌ صلبه[1].

وكان يقولُ: « ما يتّفق أن يكونَ أكثر من ظالمٍ واحد » — يعني نفسه — فعمرت البلادُ في أيّامهِ بعد خرَابها وأَمِنَتْ بعد خَوْفِها. وكان لا يُبْقي على مُفْسِدٍ، وأوصى ولاته وعمّاله بأهـل حَرّان، ونهى عن الكلف والسّخر والتثقيل على الرّعية[2]. هذا ما حكاه أهل حَرّان عنه.

وأما فلّاحو حلب فإنهم يذْكُرون عنه ضدّ ذلك[3].

وكانت الأسعار في السّنة الّتي تُوفّي فيها رخيةً جدًّا. الحنطـة ستّ مكايك[4] بدينار؛ والشّعير اثنا عشر مكّوكاً بدينار؛ والعَدس

أبي المحاسن بن سلامة الحرّاني قال : حدّثني أبي — رحمه الله — قال : كان أتابك زنكي بن قسيم الدولة أق سنقر رحمه الله اذا ركب مشى العسكر خلفه كأنهم بين خيطين . . . » وهو مطابق لما عندنا في الزبدة .

(١) في بغية الطلب : « وان تعدى أحد صلبه عليها » .

(٢) في بغية الطلب ٨/ ٢١١ و : « وكان لا يبقى على مفسد ، وأوصى ولاته بأهل حرّان وعمّاله ، ونهى عن الكلف والمغارم والسخر والتثقيل على الرعية وأقام الحدود في بلاده — رضي الله عنه — هذا ما حكاه أبو المحاسن عنه » .

(٣) في بغية الطلب ، بالصفحة المذكورة : « وسمعتُ من جماعة من فلاحي حلب أنه كان عليهم منه جور وظلم في أيام ولايته ، وأكثر ما كان يذكر عنه من الظلم ما يلزم الناس به من جمع الرجّالة للقتال والحصار . فان كان ذلك في جهاد الكفار فقد كان يجلب عليهم ذلك ، وله إلزامهم به . وبلغني أنه لا يتجاسر أحد من رعيته كائنًا من كان أن يظلم أحدًا من خلق الله . ويقول . لا يتفق ظالمان ، يعني نفسه وغيره » .

(٤) في كتاب النقود العربية للأب انستاس الكرملي ٢٠٦ : « المكّوك : وهو

أربع مكاكيك بدينار ؛ والجلبان خمسة مكاكيك بدينار ؛ والقطن ستّون رطلًا بدينار ؛ والدّينار هو الّذي جعله أتابك دينارَ الغلّة ؛ وقدره خمسون قرطيساً برساً[1] وذلك لقلّة العالم[2] .

ولمّا قُتِلَ افترقتْ عساكِرُهُ فأخذ عسكر حلب ولدَه[3] نورَ الدّين أبا القاسم محمودَ بن زنكي ، وطلبوا حلب فملكوه إيّاها ، وأخذ نورُ الدّين خاتمه من إِصْبعِهِ قبلَ مسيره إلى حلب . وسار أجنادُ المَوْصل بسَيْف الدّين غازي إلى الموصل وملكها .

وبقي أتابك وَحْدَه ، فخرج أهلُ الرّافقة[4] فغسّلوه بقحف جَرَّةٍ ،

مكيال يسع صاعًا ونصفًا ، أو نصف رطل إلى ثماني أواقيّ — وجمع المكوك مكاكيك ، وقد تخفف فيقال مكاكيّ » وقد بسطنا أمر القفيز والمكوك في الصفحة ١٢

(١) في الأصل : « برشا » وصحيحها ما أثبتنا — وقد ترجم المستشرق هذه الكلمة : «Cinquante assignats en papier de papyrus»

(٢) أسهب المؤرخون في مدح أتابك زنكي ، وأخصّهم ابن الأثير في كتابه « الباهر في تاريخ دولته ودولة أولاده » كما يعلمنا في الكامل ٩/١٣ ، وقد رأينا له في تاريخ الدولة الأتابكية ذكرًا لصفاته واخلاقه طبعة باريس من الصفحة ١٣٦ — ١٥٢ ؛ وفي مفرّج الكروب ١/١٠٠—١٠٦ ، وفي الروضتين ١/٦٣—٦٦ ، وفي غيرها من التواريخ والكتب .

(٣) في بغية الطلب ٨/٢١٣ ظ : « وافترقت العساكر فأخذ أولاد الدّاية نور الدين محمود الملك العادل ابن عماد الدين زنكي وطلبوا حلب والشام ، فملكها ؛ وسار أجناد الموصل بسيف الدين غازي إلى الموصل وأعمالها فملكها وملك الجزيرة » .

(٤) في بغية الطلب المخطوطة : « وبقي عماد الدين أتابك زنكي وحده ، فخرج إليه أهل الرافقة فغسلوه بقحف جرّة ، ودفنوه على باب مشهد الامام عليّ عليه السلام في جوار الشهداء من الصّحابة ، وبنى بنوه عليه قبة ، فهي باقية الى الآن . كذا قال أبو المحاسن ، وانما دفن أولًا داخل مشهد عليّ رضى الله عنه ، ثم نقل من ذلك الموضع إلى جوار الشهداء كما يذكر بعد هذا ، وبنى عليه ولده نور الدين محمود حائطًا يقصر عن القامة ، ولم يُبن عليه

ودفنوه على باب مَشْهَدِ عَلِيٍّ — عليه السَّلام — في جوار الشُّهَدَاء مِنَ الصَّحَابة — رِضْوَانُ الله عليهم — وبَنى بنُوهُ عليه قبة ، فهي باقية إلى الآن[1] .

عليه قبة »— وفي ابن القلانسي ٢٨٥ : « ونحبت أمواله الجمة وخزائنه الداثرة ، وقبر هناك بغير تكفين إلى أن نُقل كما حكي إلى مشهد الرقة » — انظر حاشية الصفحة عن الفارقي .

(١) هنا ينتهي النص الذي نشره المستشرق باربيه ده مينار نقلًا عن مخطوطة باريس من كتاب الزبدة مما يتعلق بالحروب الصليبية، وقد طبع في باريس ١٨٨٤ ، واستغرق من صفحاته ٥٧٧—٦٩٠ ؛ انظر بدء النص في الصفحة ١٢٩ من هذا الجزء الذي بين يديك .

القسم الرابع والعشرون

ذكر
حلب في أيام الملك العادل أبي القاسم نور الدين محمود بن زنكي الشهيد

حكم نور الدين في الشام - حروب الفرنج - نور الدين والأيوبيون

٥٤١ هـ - ٥٦٩ هـ

تحكم نور الدين في الشام

ملك حلب وَمَلك المَلِكُ العَادِل نورُ الدِّين أبو القَاسِم محمود بن زنكي (١) ابن آق سنقر حلب، عند ذلك في شهر || ربيع الآخر يوم [١٧٠و] الثلاثاء عاشر الشهر، سنة إحدى وأربعين وخمسمائة.

ووَصَل إليه صلاحُ الدِّين الياغيسياني (٢) يُدبِّر أموره ويقُوم بحفظ

(١) ترجم له كثير من المؤرخين وفيهم ابن خلكان صاحب وفيات الأعيان ٨٧/٢، وقد قال فيه: «وكانت ولادته يوم الأحد عند طلوع الشمس سابع عشر شوال سنة إحدى عشرة وخمسمائة . . . وكان أسمر اللون طويل القامة حسن الصورة، ليس بوجهه شعر سوى ذقنه» — وفي النجوم الزاهرة ٢٨٢/٥: «نور الدين محمود صاحب دمشق المعروف بالشهيد» — وفي تاريخ أبي الفداء ١٩/٣: «ولما قتل زنكي كان ولده نور الدين محمود حاضراً عنده، فأخذ خاتم والده وهو ميت من اصبعه، وسار إلى حلب فملكها» — وفي مرآة الزمان لسبط ابن الجوزي ١٩١/٨: «واولاده — أي زنكي — الثلاثة: مودود، وغازي، ومحمود. ولقب مودود قطب الدين، ولقب غازي سيف الدين، ولقب محمود نور الدين. وكان لزنكي ولد آخر اسمه أمير ميران لقبه نصرة الدين؛ وليس له عقب. ونور الدين كان له اسماعيل مات وانقرض عقبه بعده، والعقب لقطب الدين مودود».

(٢) في الفارقي بهامش ابن القلانسي ٢٨٦: «وتفرّق الناس فرقتين، فأخذ صلاح محمد بن أيوب اليغسياني نور الدين محمود بن أتابك وعسكر الشام ومضوا الى الشام فملك حلب وحماة ومنبج وحرّان وحمص وجميع ما بيد أتابك من الشام واستقرّ به. وسرنا نحن مع الملك وعساكر ديار ربيعة فطلبنا الموصل فوصلنا إلى سنجار» — في الكامل لابن الأثير ١٣/٩: «وكان حينئذ يتولّى ديوان زنكي ويحكم في دولته من أصحاب العمائم جمال الدين محمد بن عليّ وهو المنفرد بالحكم ومعه أمير حاجب صلاح الدين محمد الياغيسياني فاتفقا على حفظ الدّولة . . . وبقي أخوه نور الدين بحلب وهي له، وسار اليه صلاح الدين الياغيسياني مدبّر أمره والقائم بدولته وحفظها» — وفي الروضتين ٦٧/١: «وكان نور الدين محمود ابن الشهيد قد سار لما قتل والده إلى حلب فملكها وذلك باشارة أسد الدين شيركوه عليه بذلك» — أنظر مفرج الكروب ١٠٧/١، ١١٠

دَوْلته، فحينئذٍ راسلَ جوسلين الفرنجي أهلَ الرّها وعامّتهم من الأرمن، وحَمَلهُم على العصيان وتسليم البلد، فأجابوه إلى ذلك[1]، وواعدُوهم يومًا يصلُ إليهم فيه.

وسار إليها فملك البلد، وامتنعت القلعة فقاتلها، فبلغ الخبر إلى نور الدّين محمود بن زنكي، وهو بحلب، فسار إليها في عسكره[2]، فخرج جوسلين هاربًا إلى بلاده.

ودخلها نُور الدّين فنَهَبَها وسَبَى أهلَها، وخَلَتْ منهم، فَلَمْ يَبْقَ بها منهم إلّا القليل[3].

وأرسل نورالدّين مِنْ سَبْيِها جاريةً في جُملة ما أهداهُ إلى زَيْن الدِّين علي كُوچك[4]، نائب أبيه بالموصل، فلمّا رآها دخل إليها، وخرج مِنْ عندها وقد اغتسل، وقال لِمَنْ عِنده: «تَعْلَمُونَ ما جرى لي يَوْمَنا هذا؟» قالوا: «لا»، قال: «لمّا فتحنا الرّها مع الشّهيد وَقَعَ بيدي من النّهب جاريةٌ رائقة أعجبني حسنُها ومال قلبي إليها، فلم يكن

(١) في ابن القلانسي ٢٨٨: «ووردت الأخبار في أثناء ذلك في أيام من جُمادى الآخرة من السنة بان ابن جوسلين جمع الافرنج من كل ناحية وقصد مدينة الرها على غفلة بموافقة من النصارى المقيمين فيها فدخلها واستولى عليها وقتل من فيها من المسلمين» — وكذلك في الروضتين ١/٦٨، ومفرج الكروب ١/١١٠

(٢) هذا النصّ مطابق لما عند ابن الأثير ٩/١٤ فهو منقول عنه.

(٣) في ابن الأثير، بالصفحة المذكورة: «ودخل نور الدين المدينة ونهبها حينئذ وسبى أهلها وفي هذه الدفعة نهبت وخلت ولم يبق بها منهم إلّا القليل».

(٤) في الروضتين ١/٦٩: «ان نور الدين أرسل من غنائمها إلى الامراء وأرسل إلى زين الدين عليّ جملة من الجواري فحملن إلى داره ودخل لينظر اليهن، فخرج وقد اغتسل وهو يضحك فسئل عن ذلك فقال: لما فتحنا الرها مع الشهيد كان في جملة ما غنمت جارية...» — انظر ابن الأثير ٩/١٤، والدولة الأتابكية لابن الأثير ١٥٧

بأسرع من أن أمر الشهيد فنودي بردّ السّبي والمال المنهوب، وكان مَهيباً مخوفاً، فردَدْتها وقلبي متعلّقٌ بها، فلمّا كان الآن جاءتني هديّةُ نور الدّين وفيها عدّة جوارٍ منهنّ تِلك الجارية، فوَطِئتُها خوفاً أن يقع مثل تلك الدّفعة».

• وشَرَع نور الدّين – رَحِمَهُ الله – في صَرْف هِمّته إلى الجهاد، فدخل في سَنة اثنتين وأربعين وخمسمائة، إلى بلد الفرنج؛ فَفَتح أرتاح بالسّيف، ونهبها[1]. وفتح حِصْنَ مابولة، وبَسَرْفُوث، || وكفرلاثا [١٧٠ظ] وهاب.

الفرنج

وكان الفرنجُ بَعْد قتل والده قَدْ طمعوا وظنّوا أنّهم يستردّون ما أخذه، فلمّا رأوا من نُور الدّين الجِدّ في أول أمره، علموا بُعْد ما أمّلوه.

وخرج مَلِك الألمان ونَزَل على دمشق، في سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة، وسار لنجدتها سيفُ الدّين غازي من الموصل، ونورالدين محمود، فوصلا إلى حمص[2].

(١) في أبي الفداء ٣/٢٠: «ففتح منها مدينة ارتاح بالسيف، وحصر مأمولة وبصرفوت وكفرلاثا» – وفي ابن الأثير ٩/١٧: «ففتح منه مدينة أرتاح بالسيف وحصر مابولة وبصرفوث وكفرلاثا» – وقد علقنا في حواشي الصفحات السابقة على مواقع هذه البلدان فارجع إليها. وأما مابولة فلم نستطع أن نقطع في تحديد موقعها، فلعلها حصن مالون الذي ذكره كاهن ص ١٥٠ في كتابه عن سورية الشمالية.

(٢) في ابن الأثير ٩/٣٠: «في هذه السنة سار ملك الالمان من بلاده في خلق كثير وجمع عظيم من الفرنج عازماً على قصد بلاد الاسلام وهو لا يشك في ملكها بأيسر قتال لكثرة جموعه وتوافر أمواله وعدده، فلما وصل إلى الشام قصده من به من الفرنج وخدموه» - وفي مفرج الكروب ١/١١٢: «نازل ملك الألمان بجموعه ومن انضم اليه من فرنج الساحل مدينة دمشق وصاحبها مجير الدين ابق بن محمد».

وتوجّه نور الدّين إلى بعلبك، واجتمع بمعين الدّين أنَر بها، ورحل ملكُ الألمان عن دِمَشق، وكان صحبتُه ولد الفنش، وكان جده قد أخذ طرابلس من المسلمين. فأخذ ولد الفنش(1) هذا حصْن العريمة من الفرنج، وعزم على أخذ طرابلس من القمص، فأرسل القمص إلى نور الدّين إلى بعلبكّ يقول له في قصد حصن العريمة وأخذِهِ مِنْ وَلَد الفنش.

فسار نُور الدّين ومُعين الدّين أنَر معه، وسيّرا إلى سَيْفِ الدّين غازي إلى حمص، يستنجِدانِهِ فأمدّهما بعسكرٍ كثيرٍ مع الدُّبيسي(2) صاحب الجزيرة، فنازلوا الحِصْن، وحصروه وبه ولدُ الفنش.

فزحف المُسلمون إليه مرارًا، ونقب النقّابون السُّور فطلب مَنْ به مِنَ الفرنج الأمانَ، فملكه المسلمون، وأخذوا كلَّ مَنْ بـه مِنْ فارسٍ وراجـل، وصبيّ، وامرأةٍ، وفيهم ابن الفنش، وأخربوا الحصنَ، وعادوا إلى حمص(3).

ثم عاد سيف الدين غازي إلى الموصل.

وتجمّع الفرنج ليقصدُوا أعمالَ حلب، فخرج إليهم نورُ الدّين بعسكره والتقاهم بيغرى(4)، واقتتلوا قتالًا شديدًا، فانهزم الفرنج، وأسر منهم جماعة وقُتل خلقٌ، ولم ينجُ إلّا القليل. [١٧١و]

(١) في ابن القلانسي ٣٠٠: « ولد الملك الفنش أحد ملوك الافرنج المقدّم ذكرهم ».– وفي مفرج الكروب ١/١١٤: « ولد الادفونش » وهو الفونس في اللغة الأعجمية – انظر ابن الأثير ٩/٢١

(٢) في مفرج الكروب ١/١١٤: « الأمير عز الدين الدبيسي فقطع جزيرة ابن عمر».– في ابن الأثير: « مع الأمير أبي بكر عز الدين الدبيسي ».

(٣) تتشابه النصوص عند ابن الأثير وابن واصل، ويبدو أن ابن العديم أخـذ عن نصّ ابن الأثير ٩/٢١

(٤) في الأصل عندنا: « بيعرا » بالباء المكررة والعين والراء ورسم الألف وهي في

وفي هذه الوقعـة يقول الشّيخ أبو عبد الله القيسراني[1] مِن قصيدة[2] :

وَكَيفَ لا نُثني[3] عَلى عَيشِنا أَلْـ ... مَحْمُودِ والسُّلطَانُ «مَحْمُودُ»!

وَصارِمُ الاسْلامِ لا يَنْثَني ... إلّا وشِلْوُ الكُفْرِ مَقْدُودُ

مَكَارِمُ[4] لَمْ تَكُ مَوْجُودَةً ... إلّا وَ«نُورُ الدّينِ» مَوْجُودُ[5]

المدارس والعلماء

وَشرع نُور الدّين في تجديـد المدارس والرّباطات بحلب، وجَلَب أهلَ العِلم والفقهاءَ إليها، فجدّد المدرسة المعروفة بالحَلاويّين، في سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة؛ واستـدعى بُرهانَ الدّين أبا الحسن علي بن الحسن البَلْخي الحَنَفي وَوَلّاهُ تَدْرِيسَها،
١٠ فَغيَّرَ الأذان بحلب، ومَنَع المؤذّنين مِنْ قَوْلهم: «حَيَّ عَـلَى خَيْرِ

مفرج الكروب: «بيغري» — انظر دوسو ٤٣٦: حيث يقول ان يغري على حدود العمق بجوار دربساك، وأبو الفداء في تقويم البلدان ٢٦١ — وابن الأثير ٩/٢٢: «هزم نور الدين الفرنج بمكان اسمه يغرى من أرض الشام».

(١) هو أبو عبدالله محمد بن نصر بن صغير بن داغر المخزومي الخالديّ الحلبيّ الملقب شرف الدين المعروف بابن القيسراني، وكان من الشعراء المجيدين في الشام ويقول ابن خلكان إنه ظفر بديوانه وهو في حلب بخطه، ونقل منه أشياء إلى كتابه وفيات الأعيان، ولد سنة ٤٧٨ وتوفي سنة ٥٤٨ هـ بمدينة دمشق وما يزال ديوانه مخطوطاً — انظر وفيات الأعيان ٢/١٦

(٢) في ابن الأثير ٩/٢٢: «وفي هذه الوقعة يقول ابن القيسراني في قصيدته التي أولها:

يا ليت أن الصدّ مصدودُ ... أولا، فليت النوم مردودُ

ومنها ما هو في ذكر نور الدين:

وكيف لا يثنى على عيشنا الـ ... ـمحمود والسلطان محمود»

— وقد وردت الأبيات في مفرج الكروب ١/١١٥، وفي الروضتين ١/٥٥

(٣) في ابن الأثير: «وكيف لا يثنى» — وفي نسختنا، والروضتين: «وكيف لا نثنى».

(٤) في الروضتين، ومفرج الكروب: «مناقب لم تك».

(٥) أكثر القصيدة في الروضتين ١/٥٦ يحسن الرجوع إليها.

العمَل[١] » وجلَسَ تحت المنارة ومعه الفقهاء، وقـال لهم : « مَنْ لم يؤذِّن الأذانَ المشروعَ فألقوه من المنارة على رأسه » . فـأذَّنوا الأذانَ المشروع[٢]، واستمرّ الأمرُ منْ ذلك اليوم .

وجدَّدَ المدرسةَ العَصْرُونيّة[٣] على مذهب الشافعي، وولّاهـا شرف الدّين بْنَ أبي عَصْرُون، ومدرسةَ النفري[٤]، وولّاها القطبَ النّيسابُوري[٥]، ومسجد الغَضَائِري وَقَفَ عليه وقفاً، وولّاهُ الشيخَ شُعَيب[٦]، وصار يُعرَفُ به .

(١) في ابن القلانسي ٣٠١ : « وفي رجب في هذه السنة ورد الخبر من ناحية حلب بأن صاحبها نور الدين أتابك أمر بإبطال حيّ على خير العمل في أواخر تأذين النداة والتظاهر بسب الصّحابة – رضي الله عنهم – وأنكر ذلك انكارًا شديدًا وحظر المعاودة إلى شيء من هذا المنكر وساعده على ذلك الفقيه الامام برهان الدين أبو الحسن علي الحنفي وجماعة من السنّة بحلب ».

(٢) في حاشية نسختنا المخطوطة كتب بخط متأخر سقيم : « هذه حكاية تدل على أن شعار الرافضة كان ظاهرًا بحلب وقد زال ذلك، وكان ابتداء هذا الشعار في أيام سعد الدولة وذكر معه قوله : حيّ على خير العمل، محمد وعليّ خير البشر وكان ذلك في سنة سبع وستين وثلاثمائة، وقيل : سنة تسع وسبعين، وقيل : سنة ثمان وخمسين . وقد تقدم ذلك كلّه في مسير سعد الدّولة من حمص الى حلب وذلك قبل هذا بكراريس وقـد كتبنا هناك على الحاشية : هذا مبدأ ظهور شعار الرافضة بحلب » . – والواقع أننا أثبتنا ذلك بحاشية كتابنا الأول زبدة الحلب ١٧٢/١، في حوادث سنة ٣٦٧، فارجع إليها للموازنة بين الحاشيتين فهما بخط واحد يبدو أنه خط أحد مالكي النسخة المتأخرين .

(٣) انظر تعليقنا على هذه المدرسة في زبدة الحلب ١ /٢٩٣ حيث نقلنا عن مخطوطة كنوز الذهب، نسخة رومة بالورقة ٤٣ ظ .

(٤) في مخطوطة رومة بالورقة ٦٥ ظ : « المدرسة النفرية النورية الشافعية أنشأها نور الدين في سنة أربع وأربعين وخمسمائة . أول من تولى التدريس بها قطب الدين مسعود بن محمد بن مسعود النيسابوري الطرثيثي مصنف كتاب الهادي في الفقه والتزم فيه أن لا يأتي إلّا بالقول الذي عليه الفتيا » .

(٥) توفي قطب الدين النيسابوري سنة ٥٧٨ هـ ودفن غربيّ دمشق بجوار مدافن الصوفية – انظر وفيات الأعيان ٢ / ٩٢

(٦) ذكرنا في زبدة الحلب ١ / ٢٨ بالحاشية نقلًا عن بغية الطلب أن هذا المسجد داخل

وبقي برهانُ الدين البلخي بحلب مُدرّسًا بالحلاويـة(١) إلى أن أخرجه مجدُ الدين بن الداية، لوحشةٍ وقعت بينهما(٢)، ووليها علاء الدين عبدُ الرحمن بن محمود الغزنوي(٣) || ومات ووليها ابنه محمود(٤)، [١٧١ظ] ثمّ وليها الرضي صاحبُ المحيط(٥)، ثمّ وليها علاء الدين الكاشاني(٦).

باب أنطاكية وان النضايري كان يعبد الله فيه ثم جاء نور الدين فوقف عليه وقفًا وجعل فيه الشيخ شعيبًا يقرئ الناس الفقه ».

(١) هذه المدرسة ما تزال عامرة إلى اليوم قبالة الجامع الأموي بحلب وقد ذكرها سبط ابن العجمي في كنوز الذهب بمخطوطه : « المدرسة الحنفية الحلوية : هذه المدرسة تجاه باب الجامع الكبير الغربي كانت أولًا كنيسة من بناء هيلانة أم قسطنطين، وهيلانة هي التي بنت القمامة بيت المقدس على مكان المصلوب » – وكانت هذه المدرسة تعرف قديمًا بمدرسة السراجين .

(٢) في مخطوطة كنوز الذهب : « ولم يزل برهان الدين مدرسًا إلى أن خرج من حلب لأمر جرى بينه وبين مجد الدين أبي بكر محمد بن محمد بن نوشتكين بن الداية لما كان نائبًا عن السلطان بحلب ».

(٣) في كنوز الذهب، مخطوطة رومة : « وتولى المدرسة بعد خروجه الفقيه الامام عبد الرحمن بن محمود بن محمد بن جعفر الغزنوي أبو الفتح، وقيل أبو محمد الحنفي الملقب علاء الدين فأقام بها مدرسًا إلى أن توفي بحلب لسبع بقين من شوال سنة أربع وستين وخمسمائة ».

(٤) في كنوز الذهب : « وولي بعده ولده محمود وكان صغيرًا، فتولى تدبيره الحسام علي بن أحمد بن مكي الرازي الوردي ثم ولي بعده الإمام رضى الدين محمد بن محمد أبو عبدالله السرخسي، وكان في لسانه لكنة فتعصب عليه جماعة الفقهاء الحنفية وصغروا أمره عند نور الدين وكانت وفاته يوم الجمعة آخر جمعة في رجب سنة إحدى وسبعين وخمسمائة ».

(٥) في الجواهر المضية ٢/١٢٨ : « محمد بن محمد بن محمد العلامة الملقب رضيّ الدين وبرهان الاسلام السرخسي، كان إمامًا كبيرًا مصنف المحيط وهو أربع مصنفات المحيط الكبير وهو نحو من أربعين مجلدًا » ثم ينقل كلام ابن العديم فيه بما يتفق مع النصّ الذي نقله صاحب كنوز الذهب قبل سطور .

(٦) في كنوز الذهب : « واتفق أن أبا بكر بن مسعود بن أحمد الكاساني الملقب علاء الدين سُيّر رسولًا من الروم الى نور الدين فعرض عليه المقام بحلب والتدريس بالحلوية فأجابه إلى ذلك » – وتوفي علاء الدين هذا سنة ٥٨٧ هـ . – وفي الجواهر المضية نقلًا عن ابن العديم في بغية الطلب : « وكان الكاساني صاحب البدائع قد ورد في ذلك الزمان رسولًا فكتب له نور الدين خطبة المدرسة الحلاوية فمضى في الرسالة ثم عاد وتولى التدريس بها » –

وتُوفّي سيفُ الدّين غازي بن زنكي بالموصل في سنة أربع وأربعين[١] وتَرَك ولدًا صغيرًا ، فربّاه عَمُّه نورُ الدّين ، وَعَطَفَ عليه .

خبر الموصل

واتّفق الوزيرُ جمال الدّين وزينُ الدين علي[٢] على أن مَلّكوا قُطب الدّين مودود بن زنكي الموصلَ ، وكان نُور الدّين أكبرَ منه ، وكاتَبَهُ جماعةٌ من الأمراء وطلبُوه .

وفيمَنْ كاتَبَهُ المقدّمُ[٣] عبد الملك والد شمس الدّين محمد ، وكان بسنجار[٤] ، فكتب إليه يَستدعيه ليتسلّم سِنجار .

فَسَارَ جريدةً في سَبْعين فارساً من أمراء دَوْلته فوصل سنجار[٥]

وفي الزبد والضرب لابن الحنبلي مخطوطة المدينة ، بالورقة ١٣ ظ : « قلت : وهو غير أشرف الدين أشرف الكاشاني الحنفي الذي ذكره صاحب الجواهر المضيّة في طبقات الحنفية . . . لأن أشرف الدين توفي بكاشغر وعلاء الدين مات بحلب ودفن بمقام ابرهيم التحتاني ، وهو صاحب كتاب بدائع الصنائع » .

(١) في مفرج الكروب ١/١١٦ : « لما عاد سيف الدين الى الموصل عرض له مرض حاد . . . فتوفي في آخر جمادى الآخرة من هذه السنة اعني سنة أربع واربعين وخمسمائة ، فكانت مدة ولايته ثلاث سنين وشهرًا وعشرين يومًا » – انظر ابن الأثير ٩/٢٣

(٢) في مفرج الكروب ١/١١٧ : « لما توفي سيف الدين غازي كان قطب الدين مودود مقيمًا بالموصل ، فاتفق الوزير جمال الدين محمد بن علي الأصفهاني والأمير زين الدين علي كوجك صاحب إربل والمقدّم على الجيوش على تمليك قطب الدين فاستحلفوه وحلفوا له وأركبوه الى دار السلطنة وزين الدين ماش في ركابه ، وتسلّم جميع ما كان بيد سيف الدين من البلاد » – انظر ابن الأثير ٩/٢٦

(٣) في مفرج الكروب ١/١١٨ : « فلما ملك قطب الدين الموصل كان أخوه نور الدين بحلب ، وهو أكبر منه ، فكاتبه بعض الامراء وطلبوه إليهم ، منهم المقدّم والد شمس الدين ابن المقدم وكان دزدارًا بسنجار » .

(٤) في معجم البلدان لياقوت ٣/١٥٨ : « سنجار : مدينة مشهورة من نواحي الجزيرة ، بينها وبين الموصل ثلاثة أيام ، وهي في لحف جبل عالٍ . »

(٥) في ابن الأثير ٩/٢٦ : « فوصل إلى ماكسين في نفر يسير . . . ثم سار الى سنجار » .

مُحمّدًا ، ونزل بظاهر البَلد ، وأرسل الى المقدّم يُعلمه بوصوله ، فرآهُ الرّسُول وقد سار إلى الموصل ، وترك ولدَهُ شمسَ الدّين محمّدًا بالقلعة ، فسَيّر مَنْ لحق أباه في الطّريق ، وأعلمه بوصول نور الدّين ، فعاد إلى سنجار ، وسلّمها إليه ، وأرسل إلى قرا أرسلان[1] صاحبِ الحصن يستدعيه لمودّة كانت بينهما ، فوصل إليه .

ولما سمع قطبُ الدّين[2] والوزيرُ جمال الدّين ، وزينُ الدّين بالموصل ، جمعوا العَساكر ، وعزموا على قَصْد سِنجار وساروا إلى تَلّ أعفر[3] ، فأشار الوزير جمالُ الدّين بمداراته ، وقال : « إنّنا نحنُ قد عظّمنا محلّه عند السّلطان[4] ، وجعلنا محلّنا دونه ، وهو فيعظّمنا عند الفرنج ، ويُظهرُ أنّهُ تبعٌ لنا ، ويقول : إنْ كُنتم كما نُحبّ وإلّا سلّمتُ البلادَ إلى صاحب الموصل ، وحينئذٍ يفعل بكم ويصنَع ، فإنْ هزَمْناه طَمعَ || فينا السّلطان ويقولُ : إنّ الّذي كانوا يعظّمونَهُ ، ويخوّفوننا به [١٧٢ و]

(١) في ابن الأثير : « وارسل الى فخر الدين قرا ارسلان صاحب . . . » وهكذا ينقل ابن العديم أكثر معلوماته عن ابن الأثير – وفي مفرج الكروب ١١٩/١ : « صاحب حصن كيفا » .

(٢) في ابن الأثير : « فلما سمع أتابك قطب الدين » .

(٣) في ابن الأثير : « تلّ يعفر » – وفي الاصل عندنا : « تلّ عفر » – وفي ياقوت بمعجم البلدان ٨٦٣/١ : « تل أعفر : بالفاء ، هكذا تقول عامة الناس ، واما خواصّهم فيقولون تلّ يعفر ، وقيل إنما أصله التلّ الأعفر للونه فغيّر بكثرة الاستعمال وطلب الخفة– وهو اسم قلعة وربض بين سنجار والموصل في وسط وادٍ فيه نهر جارٍ » .

(٤) وردت العبارة قريبة مما عند ابن الأثير وابن واصل ، وسننقل عبارة ابن الأثير فهي تبدو اقرب الى التمام : « ليس من الرأي محاقنته وقتاله ، فاننا نحن قد عظمنا محلّه عند السلطان وما هو بصدده من الغزاة ، وجعلنا أنفسنا دونه وهو يظهر للفرنج تعظيماً وأنه تبعنا ولا يزال يقول لهم إن كنتم كما يحبّ وإلّا سلمت البلاد لصاحب الموصل ، وحينئذ يفعل بكم ويصنع ؛ فاذا لقيناه فان هزمناه طمع السلطان فينا . . . » وبقية العبارة حرفية مشابهة لما عندنا تماماً .

أضعفُ منهم، وقد هزموه، وإنْ هو هزَمَنا طَمع فيهِ الفرنج، ويقولون: إنّ الّذي كان يحتمي بهم أضعفُ منه، وبالجملة فهو ابنُ أتابك الكبير»؛ وأشار بالصُّلح.

وسار إلى نور الدين بنفسه، فوفّق بينهما على أن يسلّم سنجار إلى قطب الدّين، ويتسلّم الرّحبة، ويستقلّ نورُ الدّين بالشّام جميعه، وقطب الدين بالجزيرة ما خلا الرّها، فإنها لنور الدين[1].

حروب الفرنج

وعاد نُور الدّين إلى الشّام، وأخذ ما كان قد ادّخره أبوه أتابك مِن الخزائن، وكانت كثيرةً جدًّا.

نصر نور الدين

فغزا نورُالدين محمود بن زنكي بلدَ الفرنج[2] من ناحية أنطاكية، وقصَد حِصْنَ حارم وهو للفرنج، فحَصَره، وخرب ربضه، ونَهب سوادَه، ثُمّ رحل إلى حِصن أنب[3] فَحَصَرهُ أيضًا.

فاجتمع الفرنجُ مع البرنس صاحب أنطاكية وحارم، وتلك الأعمال، وساروا إلى نُور الدّين ليرحّلوه عن انّب، فلقيهم يومَ الأربعاء حادي وعشرين من صفر، سنة أربع وأربعين وخمسمائة، واقتتلوا قتالًا عظيماً، وباشر نُور الدين القتالَ ذلك اليوم، فانهزمَ الفرنجُ

(١) انظر ابن الأثير ٩/٢٦، ومفرج الكروب ١/١٢٠

(٢) هذه العبارة وما يليها منقولة عن ابن الأثير حرفيًا ٩/٣٥، وقد اختصر ابن القلانسي هذه العبارة ٣٠٣

(٣) مرّ بنا في حواشي الصفحة (١٣٥) السابقة ذكر موقع انّب.

أقبحَ هزيمةٍ ، وقُتل منهم جمعٌ كثير[1] ، وأُسر مثله .

وكان مِمّن قُتل ذلك اليوم البرنس صاحب أنطاكية ، وكان مِنْ عظماء الفرنج وأقويائهم[2] . ويُحكى عنه أنّه كان يأخذُ الركاب الحديد بيده ، فيُطبقُهُ بيدِهِ الواحدة ؛ وأنّه مرّ يوماً وهو راكبٌ حصاناً قويّاً تحت قنطرةٍ فيها حلقةٌ أو شيء ممّا يتعلّق به ، فتعلّق بيديهِ وضمّ || فخذيه علَى الحصان فَمَنَعَهُ الحركةَ . [١٧٢ظ]

فلما قُتل البرنسُ مَلَكَ بَعْدَهُ ابنُه بيمند ، وتزوّجتْ أمه ببرنس آخر ، ليدبّر البلدَ إلى أن يكبر ابنها[3] ، وأقام معها بأنطاكية ، فغزاهم نُور الدّين غزوةً ثانية ، فاجتمعوا ولقوه فهَزَمهم ، وقَتَلَ منهم خلقاً وأسر كذلك ، وأسر البرنس الثّاني زوج أم بيمند ، واستقلّ بيمند بأنطاكية .

وفي ذلك يقولُ الشّيخُ أبو عَبدالله القَيْسَرانيّ مِنْ قصيدةٍ أوّلها[4] :

---

(١) نقل ابن العديم ما تقدّم من عبارة عن ابن الأثير ٩/٢٥ حرفيّاً – انظر مفرج الكروب ١/١٢١

(٢) في ابن الأثير ٩/٢٥ : « صاحب أنطاكية وكان عاتياً من عتاة الفرنج وعظيماً من عظمائهم » — وفي ابن القلانسي ٣٠٥ : « ووجد اللعين البلنس مقدّمهم صريعاً بين حماته وأبطاله ، فعرف وقطع رأسه وحمل الى نور الدين ، فوصل حامله باحسن صلة . وكان هذا اللعين من أبطال الافرنج المشهورين بالفروسيّة وشدة البأس وقلّة الحيل وعظم الخلقة مع اشتهار الهيبة وكبر السطوة والتناهي في الشر ، وذلك يوم الاربعاء الحادي والعشرين من صفر سنة ٥٤٤ » .

(٣) في ابن الأثير ٩/٢٥ : « ولما قتل البرنس ملك بعده ابنه بيمند وهو طفل فتزوجت امه ببرنس آخر ليدبر البلد الى ان يكبر ابنها وأقام معها بأنطاكية » — وهكذا ينقل ابن العديم عن الكامل لابن الأثير — انظر مفرج الكروب ١/١٢١ ، والروضتين ١/٥٨

(٤) جاءت القصيدة في الروضتين ١/٥٨ وهي تنيف على خمسين بيتاً ، وجاء منها في الكامل لابن الأثير ٩/٢٥ ، وفي مفرج الكروب ١/١٢١

هٰذِي العَزَائِمُ لَا مَا تَـدَّعِي القُضُبُ
[وَذِي المَكَارِمُ لَا مَا قَالَتِ الـكُتُبُ][1]

صَافَحْتَ يَا « ابْنَ عِمَادِ الدِّينِ » ذِروتها
بِراحَـةٍ لِلْمَسَاعِي دَونَها تَعَبُ

أَغَرْتَ سُيوفَكَ بالأفرنجِ راجِفَـةً
فُؤادُ رومِيَةَ الـكُبْرَى لهـا يَجِبُ

ضَرَبْتَ كَبْشَهُمُ مِنْهـا بِقَاصِمَةٍ
أَودى بِهـا الصُّلْبُ وانْحطَّت بِها الصُّلُبُ

طَهَّرْتَ أَرْضَ الأعـادي مِنْ دِمائِهِمُ
طَهَارَةً كُلُّ سَيْفٍ عِنْدَهـا جُنُبُ

وَقَالَ ابنُ مُنير[2] في ذلك[3] :

صَدَمَ الصَّليبَ على صَلَابَةِ عُودِهِ فَتَفَرَّقَتْ أَيدي سَبَا خَشَبَاتُه
وَسَقَى البرنْسَ وَقَدْ تَبَرْنَسَ ذِلَّةً بالرّوحِ مِمَّا قَدْ جَنَتْ غَدَرَاتُه[4]

(١) أثبت الناسخ صدر البيت فحسب ثم ترك بياضاً فأكملناه عن المصادر المذكورة.

(٢) هو أبو الحسين أحمد بن منير بن أحمد بن مفلح الطرابلسي الملقب مهذّب الدين عين الزمان الشاعر المشهور ، له ديوان شعر ، قدم دمشق فسكنها ، وكان كثير الهجاء خبيث اللسان ، وكان بينه وبين القيسراني مكاتبات وأجوبة ومهاجاة وكانا مقيمين بحلب ومتنافسين في صناعتها ، وكانت وفاته في جمادى الآخرة سنة ٥٤٨ ه بحلب ودفن في جبل جوشن بقرب المشهد الذي هناك – انظر وفيات الأعيان ١/٥٠ ، وتاريخ ابن عساكر طبعة بدران بدمشق ١٣٣٠ ؛ ٢/٩٧

(٣) وردت القصيدة في الروضتين ١/٦٠ وهي تنيف على ستين بيتاً وجاء منها في مفرج الكروب ١/١٢٢ عدة أبيات، ومطلعها في الروضتين : « أقوى الضّلال وأقفرت عرصاتُـه وعلا الهدى وتبلّجت قسماتُه » ونقع هذه الأبيات الثلاثة التي رواها ابن العديم في منتصف القصيدة الكبيرة .

(٤) في ابن الوردي ٢ : ٤٩ : « بالروح مما قد جنت غدراته » – وفي الأصل عندنا : « بالروح تمقر ما جنت » – ولعلها كما أثبتنا .

تَمْشِي القَنَاةُ بِرَأْسِهِ وَهُوَ الّذي نَظَمَتْ مَدَارَ النَّيِّرَيْنِ قَنَاتُه

وَسارَ نُور الدّين محمود إلى أفامية، في سنة خمس وأربعين، فالتجأ الفرنجُ إلى حصنها فقاتله، واجتمع الفرنج وساروا إليه ليرحّلوه عنه، فوجدوه قد مَلَكه وملأه من الرّجال والذّخائر، فَسَار في طلبهم، فعدلوا عن طريقه، ودخلوا بلادهم[1].

وَجمع نُور الدّين العساكرَ وَسَار إلى بلادِ جُوسلين الفرنجي[2] ليملكها || وكَان جُوسلين من أشْجَع الفرنج وَأَسَدّهم رأياً[3]، فجمع الفرنجَ وأكثر، وسار إلى نُور الدّين والتقيا، فانهزم المُسلمون وقُتل منهم وأسر[4]. [١٧٣و]

وكان سِلَاحدار نُور الدّين مِمّنْ أُسر، فأخذ جوسلين سلاحه[5]، فسيَّره إلى الملك مَسْعُود بن قِلج أرسلان صاحب قونية[6]، وقال: «هذا سلاحُ زَوْج ابنتِك»[7]. فعظُم ذلك على نُور الدّين، وَهَجَر

(١) انظر ابن الأثير ٩/٢٧، ومفرج الكروب ١/١٢٢

(٢) في ابن الأثير ٩/٢٩: «وسار الى بلاد جوسلين الفرنجي وهي شمال حلب منها تلّ باشر وعين تاب واعزاز وغيرها».

(٣) في ابن الأثير ٩/٢٩: «وكان جوسلين — لعنه الله — فارس الفرنج غير مدافع قد جمع الشجاعة والرأي» — انظر مفرج الكروب ١/١٢٣

(٤) هذه عبارة ابن الأثير نفسها.

(٥) في ابن الأثير ٩/٢٩: «وكان في جملة من أسر سلاح دار نور الدين فأخذه جوسلين ومعه سلاح نور الدين» — والسلاح دار تكتب عند المؤرخين متصلة ومنفصلة، وتعني مرتبة صاحب السلاح عند السلطان يختاره بين مقدّمي الامراء، وما تزال بعض الأسر في الشام تحمل هذا الاسم التركي الى اليوم.

(٦) هذه عبارة ابن الأثير — أما مفرج الكروب ١/١٢٣: «مسعود بن قلج أرسلان بن سليمان بن قطلمش السلجوقي صاحب بلاد الرّوم».

(٧) في مفرج الكروب ١/١٢٣: «هذا سلاح زوج ابنتك وسيأتيك بعده ما هو أعظم منه» — ومثل هذه العبارة في ابن الأثير.

الرّاحةَ إلى أن يأخذ بثأره(١) ، وجعل يفكّر في حيلةٍ يحتـالُ بها على جوسلين ، وعلم أنّه إن قصدَهُ احتمى في حُصونِه .

اسر جوسلين

فأحضر أمراء التّركمان ، وبذل لهم الرّغائب إنْ ظَفِروا بجوسلين ، فجعلوا عليه العيونَ ، فخرج إلى الصَّيْـد فظفر به طائفةٌ من التّركمان ، فصانَعَهم على مال يُؤَدّيه إليهم ، فأجابوه إلى إطلاقه إذا أحضر المالَ ، وأرسلَ في إحضاره(٢) .

فمضى بعضُ التّركمان إلى مجدِ الدّين أبي بكر بنِ الـدّاية ، وكان ابنَ دايةِ نُور الدّين ، واستنابَهُ في حلب ، وسلّم أمورها إليهِ ، فأحسَنَ الولايةَ فيها والتّدبيرَ ، فَأَعلَم ذلك التّركماني ابنَ الداية بصورةِ الحالِ ، فَسيَّر مجدُ الدّين معه عسكرًا ، فكبسوا أولئـك التّركمان ، وأخذوا جوسلين أسيرًا ، وأحضروه إلى ابن الدّاية ، في محرم هذه السّنة(٣) .

فسار نُور الدّين عند ذلك إلى قلاع جوسلين ، ففتح عَزاز بعد الحصار ، في ثامن عشر شهر ربيع الأوّل ، سنة خمس وأربعين وخمسمائة ، وفَتَح تلّ باشر ، وتلّ خالد ، وفَتَح عَيْن تاب(٤) سنة خمسين(٥) ، وفتح

(١) عبارة ابن الأثير نفسها .

(٢) عند ابن الأثير : « فأرسل في احضاره » وكذلـك في مفرج الكروب ، وفيما سوى اختلاف هذه العبارة فالنصّ واحد في هذه التواريخ .

(٣) انظر قريبًا من هذه العبارة عند ابن الاثير وابن واصل — ويزيد ابن الأثير : « وكان أسره من اعظم الفتوح لانه كان شيطانًا عاتيًا شديدا على المسلمين قاسي القلب ، واصيبت النصرانية كافة بأسره »

(٤) في معجم البلدان لياقوت ٧٥٩/٣ : « عين تاب : قلعة حصينة ورستاق بين حلب وأنطاكية ، وكانت تعرف بدلوك ، ودلوك رستاقهـا ، وهي الآن من أعمال حلب » — وما يزال الناس يسمونها الى يومنا بهذا الاسم ويكتبونها متصلة ، وهي تقع في الجمهورية التركية — انظر حاشية ص ١١ من هذا الجزء .

(٥) كذا في الاصل وهو خطأ ، ولعل الناسخ اراد ان يكتب خمسمائة وست وأربعين وهي سنة فتحها فسها .

قُورس[١] والرَّاونــدان[٢] وبرج الرَّصاص[٣] ، وحصن البيرة[٤] و كفرسود[٥] ومرعش ونهر الجوز .

وتَجمَّع الفرنج وساروا إليه وهو بـبـلاد جوسلين ليمنعوه عن عن فتحها ، في سنة سبع وأربعين وخمسمائـة ، فلمَّا قربُوا منه رَجع إليهم ، ولَقيهم || عند دلوك ، فاقتتلوا فانهزم الفرنج ، وقتـل منهم [١٧٣ظ] وأسر كثير ، وعاد إلى دلوك ففتحها[٦] .

وأمّا تلّ باشر فإنّه تسلّمها منهم بعد فتحه دمشق ، لأنهم لمّا علموا أنّه فتح دمشق ، وأنّه يقصدهم ولا طاقة لهم به راسلوه ، وبذلوا له تسليمها إليه ، فسَيّر إليهم الأميرَ حسَّان صاحب منبج لقربها من منبج فتسلّمها منهم ، وحصّنها .

فتح دمشق

وكان فتحه دمشق في صفر[٧] سنة تسع وأربعين وخمسمائة ، لأنّ الفرنج أخذوا عسقلان من المصريين في سنة ثمـان

---

(١) قورس : انظر فيها زبدة الحلب ٢٦٢/١ بالحاشية .

(٢) في معجم البلدان لياقوت ٧٦١/٢ : « الراوندان : قلعة حصينة وكورة طيبة معشبة مشجرة من نواحي حلب » .

(٣) في معجم البلدان لياقوت ٥٤٩/١ : « برج الرّصاص : قلعة ولها رساتيق من أعمال حلب قرب أنطاكية » .

(٤) في ابن الأثير ٢٩/٩ ، ومفرج الكروب ١٢٦/١ : « حصن البارة » وقد مرّ بنا ذكر موقعها .

(٥) لعلها كما في معجم البلدان لياقوت ٢٨٨/٤ : كَفَرْسُوت : بالتاء في آخرها على أنها من اعمال حلب قرب بَهَسْنا – وقد صحّفها كتاب الروضتين ٧٢/١ فجعلها : « كفرسوب » وقد نقل النصّ عن ابن الأثير من نسخة قديمة .

(٦) انظر خبر ذلك عنـد ابن الأثير ٣٢/٩ ، ومفرج الكروب ١٢٥/١ ، والروضتين ٧٦/١

(٧) في ابن القلانسي ٣٢٧ : « يوم الاحد العاشر من صفر » وفي هذا المصدر تفصيل الفتح وقد أوجزه ابن العديم .

وأربعين ، ولم يكن له طريق إلى إزعاجهم عنها لاعتراض دمشق[١] بينه وبين عسقلان[٢] .

وطمع الفرنج[٣] في دمشق ، وجعلوا عليها قطيعةً يأخذونها منهم في كلّ سنة ، فخاف نُور الدّين أن يملكها الفرنج ، فاحتالَ في أخذها لعلمه أنّ أخذها بالقهر يصعب لأنّه متى نازلهـا راسلَ صاحبُها الفرنج مستنجدًا بهم ، وأعانوه خوفًا من نور الدّين أن يملكها فيقوى بها عليهم .

فراسل مجير الدين[٤] أبق بن محمد بن بوري صاحبها ، واستمالـه وهاداه ، وأظهر له المودّة حتى وثق به ، فكان يقول لـه في بعض الأوقات : «إنّ فلانًا قد كاتبني في تسليم دمشق » ــ يعني بعض أمراء مجير الدّين ــ فكان يبعد ذلك عنه ، ويأخذ أقطاعه ، فلمّا لم يبقَ عندهُ أحد من الأمراء قدّم أميرًا يقال له عَطاء بن حفاظ الخـادم ، وكان شجاعاً وفوض إليـه أمورَ دولته ، فكان نُور الدّين لا يتمكّن من أخذ دمشق منه ، فقبض عليه مجيرُ الدّين وقتله .

فسارَ نُور الدّين حينئذٍ إلى دمشق ، وكان قد كاتَبَ أهلَهـا

---

(١) في ابن الأثير ٩/٦٥ : « في هذه السنة في صفر ملك نور الدين محمود بن زنكى ابن آقسنقر مدينة دمشق واخذها من صاحبها مجير الدين أنز بن محمد بن بورى بن طغدكين أتابك وكان سبب حرصه على ملكها ان الفرنج لما ملكوا في العام الماضي مدينة عسقلان لم يكن لنور الدين طريق الى ازعاجهم عنها لاعتراض دمشق بينه وبين عسقلان » — وفي مفرج الكروب ١/١٢٥ : « آخر من ملك دمشق من بيت الامير ظهيرالدين أتابك طغتكين الامير مجيرالدين آبق بن جمال الدين محمد بن تـاج الملوك بورى بن طغتكين وكان القيم بتدبير أموره معين الدين أنر مملوك جدّه » — انظر مفرج الكروب ١ / ١٢٦

(٢) عسقلان : مدينة بالشام من اعمال فلسطين على ساحل البحر بين غزة وبيت جبرين ويقال لها عروس الشام وكذلك يقال لدمشق أيضًا — انظر معجم البلدان لياقوت ٣/٦٧٣

(٣) هذا النص شبيه في عبارته بما عند ابن الأثير ٩/٦٥ وعنه نقل ابن واصل .

(٤) هذه العبارة منقولة كذلك عن ابن الأثير حتى كلمة : « وقتله » .

واستمالهم ، وكان النّاس يميلون إليه ، لما هو عليه من العَـدْل والدّيانة والاحسان ، فوعدوه بالتّسْليم إليه .

فلمّا حَصَرَ دمشقَ أرسل مُجير الدّين[1] إلى الفرنج || يبـذُل لهم [١٧٤ و] الأموالَ وتسليم قلعة بعلبكّ إليهم ، لينجدوه ويرحّلوا نورَ الدّين عنه ، فشرعوا في جمع فارسهم وراجلهم لذلك .

موت مجير الدين

فتسلّم نورُ الدّين دمشقَ ، وخرج الفرنج وقد قُضي الأمر[2] فعادوا خائبين ، وسلّمها إليـه أهلُها من باب شرقي ، والتجأ مجير[3] الدّين إلى القلعة ، فراسله وبَذَل له عوضاً عنها حمص ، وغيرها ؛ فسلّمها إليه وَسَار إلى حمص ، ثمّ إنّه راسلَ أهــلَ دمشقَ ، فعلم نُور الدّين ، فخاف منه ، فأخذ منـه حمصَ ، وعوّضه ببالسَ ، فلم يَرْضَ بذلك ، وسار إلى بغداد فمات بها .

وسار نورُ الدّين إلى حارم[4] ، وهي لبيمند صاحب أنطا كيـة ،

(١) في ابن الأثير ٩/٦٦ : «فلما حضر نورالدين البلد ارسل مجيرالدين الى الفرنج يبذل لهم الاموال وتسليم قلعة بعلبك إليهم لينجدوه ويرحلوا نور الدين عنه فشرعوا . . . » – وهكذا نبرهن على النقل الحرفيّ عند ابن العديم مع تبديل بسيط في بعض الكلمات .

(٢) في ابن الأثير ٩/٦٦ : « فعادوا بخفي حنين ، واما كيفية تسليم دمشق فانه لما حصرها ثار الاحداث الذين راسلهم فسلّموا اليه البلد من الباب الشرقي وملكه » .

(٣) في الأصل المخطوط عندنـا : « والتجى معين الدين » وهو سهو من الناسخ وصحيحها ما وضعنا – في ابن القلانسي ٣٢٧ : « وكان مجيرالدين لما أحس بالغلبة والقهر قد انهزم في خواصه الى القلعة» – في ابن الأثير ٩/٦٦ : « وحصر مجير الدين في القلعة وراسله في تسليمها وبذل له أقطاعاً من جملته مدينة حمص فسلّمها إليه وسار إلى حمص وأعطاه عوضاً عنها بالس.فلم يرضها وسار منها الى العراق وأقام ببغداد وابتنى بها داراً بالقرب من النظامية وتوفي بها . » – وقد نقل هذا النص مفرج الكروب وأضاف : « وصفت الممالك بالشام لنور الدين » .

(٤) في ابن الأثير ٩/٦٩ : « قلعة حارم وهي للفرنج ثم لبيمند صاحب انطاكية وهي تقارب أنطاكية من شرقيها » – انظر الروضتين ١/١٠٠

وحَصَرَها في سنة إحدى وخمسين ، وضَيَّق على أهلها ، فتجمَّع الفرنج وعَزَموا على قصْدِهِ فأرسل والي حارم إلى الفرنج ، وقال : « لا تلتقوه فإنّه إنْ هَزَمكم أخَذَ حارمَ وغيرها، ونحنُ في قُوَّةٍ والرأيُ مطاولته»[1] فأرسلوا إلى نُور الدِّين ، وصالحوه على أن يُعْطوه نصف أعمال حارم ، ورجع نور الدّين إلى حلب .

أثر الزلازل

ووقعتِ الزّلازل[2] في شهر رجب في سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة ، بالشّام ، فخربت حماة ، وشيزر ، وكفرطاب ، وأفامية ، ومعرّة النعمان ، وحمص ، وحصن الشميمس[3] ، عند سلمية ، وغير ذلك من بلاد الفرنج . وَتَهَدَّمتْ أسوارُ هـذه البلاد فجمع نُورُ الدّين العساكرَ ، وخاف على البلاد من الفرنج ، وشرع في عمارتها حتّى أَمِنَ عَلَيْها .

خراب شيزر

وأمّا شيزر ، فانقلبت القلعة[4] على صاحبها وأهلـه ، فهلكوا كلُّهم ، وكان قد ختن ولدًا له وعمـل وليمةً ، وأحضر أهلَه في داره ، وكان له فرسٌ يُحبُّه ولا يكاد يفارقـه ، وإذا

---

(١) انظر العبارة عند ابن الأثير ، ومفرج الكروب والروضتين ١/١٠١

(٢) انظر تفصيل الخبر عن هذه الزلازل في ابن القلانسي ٣٣٥ ، والروضتين ١/١٠٦

(٣) لم نقع على موقعه وقد انفرد بذكره ابن العديم ، وذكر ابن الأثير ٩/٥٣ «حصن الأكراد» .

(٤) في ابن الأثير ٩/٥٣ : « هذا الحصن قريب من حماة بينهما نصف نهار وهو على جبل عال منيع لا يسلك إليه الا عن طريق واحدة ، وكان لآل منقذ الكنانيين يتوارثونه من أيام صالح بن مرداس إلى ان انتهى الامر الى ابي مرهف نصر بن علي بن نصر بن منقذ بعد أبيه أبي الحسن عليّ وكان بيده الى أن مات سنة احدى وتسعين واربعمائة . . .» — وفي ابن القلانسي ٣٤٦ : «وأما حصنها المشهور فانه انهدم على واليها تاج الدولة بن أبي العساكر ابن منقذ رحمه الله ومن تبعه الا اليسير ممن كان خارجاً » — انظر مفرج الكروب ١/١٢٨

كان في مجلسٍ أقيم ذلك الفرس على || بابه ، فكان ذلك اليوم على [١٧٤ظ] الباب ، فجاءت الزلزلةُ فقام النّاس ليخرجوا من الدّار فخرج واحدٌ من الباب فرمحه ذلك الفرس فقتله ، فامتنع النّاسُ من الخروج ، فسقطتِ الدّارُ عليهم فهلكوا[1] .

وبادرَ نورُ الدّين ، ووصل إلى شيزر ، وقد هَلَك تاجُ الدّولة بْنُ مُنقِذ وأولادُه ، ولم يَسْلَمْ مِنْهُمْ إلّا الخاتون أُخت شمس الملوك زوجة تاج الدّوْلة ، ونُبِشَتْ من تحت الرّدْم سالمةً ، فتسلّم القلعةَ وعمّر أسوارَها ودورَها ، وكان نور الدّين قَدْ سَأل أُختَ شمس الملوك عن المال وهدّدها ، فذَكرتْ له أنّ الدار سقطتْ عليها وعليهم ، ونُبِشَتْ هيَ دُونهم ، ولا تَعلَمُ بشيء ، وإنْ كان لهم شيْءٌ فهو تحت الرّدم .

وكانَ شرفُ الدّولة اسماعيل غائباً ، فلمّا حضر وعايَن قلعةَ شيزر ، ورأى زوجةَ أخيه في ذلك الذُّلّ بعد العزّ ، عَمِلَ قصيدةً أوّلها :

لَيسَ الصَّباحُ مِنَ المَساء بأمْثَلِ … فأقول لِلّيلِ الطّويلِ ألا انْجلي[2]

قالَ فيها :

يَا «تَاجَ دَوْلَة هَاشِم» بَلْ يا أبا التّـ … ـيجانِ بَلْ يا قَصْدَ كُلِّ مُؤَمّلِ
لَوْ عَايَنَتْ عَيْنَاكَ « قَلْعَةَ شيْزَرٍ » … والسِّتْرُ دُونَ نِسائها لم يُسْبَلِ
لَرأيتَ حِصْناً هَائِلَ المَرْأى غَدَا … مُتَهلهِلاً مِثْلَ النَّقا المُتَهيّلِ
لا يَهتَدي فِيهِ السُّعاةُ لمَسْلَكٍ … فكأنّما تَسْري بِقَاعٍ مُهْوِلِ

ذَكَر فيها زَوْجَةَ أخيهِ ، فقال :

(١) جاءت هذه الحكاية كذلك في ابن الأثير ٥٤/٩

(٢) يضمّن قول امرئ القيس : « ألا ايها الليل الطويل ألا انجلي »

[١٧٥ و] ‖ نَزَلَتْ عَلَى رَغْمِ الزَّمَانِ وَلَوْ حَوَتْ يُمْنَاكَ قَائِمَ سَيْفِهَا لَمْ تَنْزِلِ
فَتَبَدَّلَتْ عَنْ كِبْرِهَا بِتَوَاضُعٍ وَتَعَوَّضَتْ عن عِزِّها بِتَذَلُّلِ

وَأَقَامَت الزَّلازِلُ تَتَرَدَّدُ في البلاد سبع سنين ، وهلك فيها خلقٌ كثير .

وفي هذه السَّنة أبطلَ الملكُ العَادِلُ نُورُ الدّين ، وهو بشيزر ، مظالمَ ومكوسًا بِبلاده كلّها مقدارها مائة وخمسون ألف دينار .

ثمّ إنَّ نور الدّين تلطَّف الحال مع ضحَّاك البِقاعي[١] ، وراسله ، وهو ببعلبك ، وكان قد عصَى فيها بعد فتح دمشق ، ولم يرَ أن يحصره بها لِقُرْبه من الفرنج ، فسلّمها إلى نُور الدّين في هذه السَّنة .

وجَرَتْ وقعةٌ بين نور الدّين وبين الفرنج بين طبريّة وبانياس ، فكسرهم نُور الدّين كسرةً عظيمةً في جُمادى الأُولى سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة .

مرض نور الدين

ثمّ عاد نُور الدّين إلى حلب ، فمرض بها في سنة أربع وخمسين[٢] مرضاً شديدًا ، بقلعتها ، وأشفى على الموت ، وكان بحلب أخوه الأصغر نصرة الدّين أمير أميران محمَّد بن زنكي[٣] ؛ وأُرْجِفَ بِمَوْتِ نُور الدّين ؛ فجمع أمير أميران النَّاسَ ، واستمالَ الحلبيّين ، ومَلَكَ المدينةَ دُونَ القَلْعَة ، وأَذِنَ للشِّيعة أنْ يَزِيدوا في الأَذان :

(١) انظر خبر ذلك في مفرج الكروب ١/١٢٨ — وفي ابن الاثير ٩/٥٧ : « يقال له ضحاك البقاعي منسوب الى بقاع بعلبك وكان قد ولاه اياها صاحب دمشق » .

(٢) جاء تفصيل ذلك في ابن الأثير ٩/٦٧ ، وفي مفرج الكروب ١/١٣٠ — وفي ابن القلانسي ٣٥٥

(٣) في ابن الأثير : « أميران » — وفي ابن القلانسي ٣٥٥ : « أمير ميران» .

« حيَّ على خيرِ العَمَلِ محمّدٌ وعليٌّ خيرُ البَشر » ، على عادتهم مِنْ قبـلُ ، فالوا إليه لذلك[١] .

وثارتْ فتنة بين السنّة والشّيعة ، ونَهَبَ الشّيعـةُ مَدرَسة ابن عَصرُون وغيرها من أدر السّنّة ، وكان أسد الدّين شُير كوه[٢] بحمص ، فبلغه ذلك فسار إلى دمشق ليغلب عليها ، وكان بهـا أخوه نَجْمُ الدّين أيوب || فأنكر عليه ذلك ، وقال : « أهلَكتَنا والمصلحةُ أن تعود إلى حلبَ ، فانْ كان نور الدّين حيّاً خدمتَه في هـذا الوقت ، وإنْ كانَ ماتَ فأنا في دمشق ، وتفعل ما تريد »[٣] . [١٧٥ظ]

فعاد مُجدًّا إلى حلب ، فوجد نُور الدّين وقد ترجّح إلى الصّلاح ، فأجلسه في طَيّارةٍ[٤] مُشرِفَةٍ إلى المدينة ، بحيثُ يراه النّـاسُ كلّهم ، وهو مصفرّ الوجه من المرض ، ونادَوْا إلى الناس : « هذا سُلطانكم » . فقال بعضُهم : « ما هٰذا نُور الدّين ، بل هو فلان » — يعنون رجلاً كان يشبهه وقد طلى وجهه بصفرة ، ليخدعوا الناس بذلك — .

ولما تحقّق أمير أميران عافيةَ أخيه خَرَج من الدّار الّتي كان بها تَحتَ القلعة ، وبيده تُرسٌ يحميه من النّشّاب ، وكان النّاس قد تَفرّقوا

(١) في ابن القلانسي ٣٤٩ : « واقترحوا على نصرة الدين اقتراحات من جملتها اعادة رسمهم في التأذّن بحي على خير العمل محمد وعلي خير البشر ، فأجابهم إلى ما رغبوا فيه وأحسن القول لهم والوعد ونزل في داره » .

(٢) هو أبو الحارث شيركوه بن شاذى بن مروان الملقب الملك المنصور أسد الدين عمّ السلطان صلاح الدين ، توفي بالقاهرة سنة ٥٦٤ هـ. ولم يخلف ولدًا سوى ناصر الدين محمد بن شيركوه الملقب بالملك القاهر . — وشيركوه : لفظ اعجمي تفسيره بالعربية اسد الجبل ، فشير : اسد ، وكوه : جبل — انظر في ترجمته وفيات الاعيان ٢٢٧/١

(٣) وردت هذه العبارة نفسها في مفرج الكروب ١٣١/١ مع شيء من الاختلاف .

(٤) في مفرج الكروب ١٣١/١ : « وأجلس نور الدين في شباك يراه الناس » .

عنهُ ، فسار إلى حَرَّان ، فملكها[١] .

فتنة الشيعة

وسَيَّر نُور الدّين[٢] إلى قاضي حلب ، جدّي أبي الفَضل هِبَة الله بْن أبي جَرادة ، وكان يلي بها القَضاء والخطابة والإمامَة ، وقالَ لَهُ : « تَمْضي إلى الجَامع ، وتُصَلّي بالنّاس ، ويُعاد الأَذانُ إلى ما كان عليه » .

فنَزَلَ جدّي ، وجَلَس بشمالية الجَامع تحتَ المنارة ، واستَدعى المؤذّنين ، وأَمَرَهم بالأَذان المَشْرُوع على رأي أبي حنيفة ، فخافوا فقال لهم : « هَا أنا أسفَل منكم ولي أسوةٌ بكم » .

فصَعد المؤذّنون وشرعوا في الأذان ، فاجتمع تَحت المنارة مِنْ عَوَامّ الشّيعة وغوغائهم خلقٌ كثير ؛ فقام القاضي إليهم ، وقال : « يا أصحابَنا ، وفّقكم الله ، مَنْ كان على طهارةٍ فليدخل وليصلّ ، ومَنْ كان مُحدثًا فليجدّد وضوءَهُ ويُصَلّي ، فانّ المولى نُور الدّين ــ بحَمْدِ الله ــ في عافية ، وَقَدْ تَقَدَّم بما يفعل ، فانصَرفوا راشدين . »

[١٧٦ و] فانصرفوا وقالوا[٣] : « ايش نقول || لقاضينا » ! ونزل المؤذّنون وَصَلّى بالنّاس ، وسَكنت الفِتَنُ .

فلما عُوفي نُورُ الدّين قَصَدَ حَرَّان ، فَهَرب نصرة الدّين أمير أميران ،

(١) في ابن الأثير ومفرج الكروب : « فلما رأوه حيًّا تفرقوا عن أخيه أميران فسار إلى حران فملكها » .

(٢) نقل ابن الحنبلي هذا النص التالي بحروفه إلى كتابه الربد والضرب فقابلناه على ما في مخطوطة المدينة بالورقة ١٥ و ، فلم نقع على اختلاف الا في كلمة واحدة .

(٣) في الاصل : « وقال ايش نقول » ولعلّ صحيحها كما جاء عند ابن الحنبلي : « وقالوا ايش نقول » .

وترك أولادَه بالقلعة بحرّان فتسلّمها ، وأخرجهم منها ، وسلّمها إلى زين الدّين علي كوچك ، نائب أخيه ، قطب الدّين[1] .

ثمّ سار إلى الرقّة وبها أولادُ أميرك الجاندار[2] ، وقد ماتَ أبوهم ، فشفع إليه بعضُ الأمراء في إبقائها عليهم ، فغَضِب ، وقال : « هَلّا شَفِعتم في أولاد أخي لمّا أخذت مِنهم حَرّان ، وكانتِ الشَّفاعةُ فيهم منْ أحبِّ الأشياء إليّ » ؛ وأخذها منهم .

عود الفرنج

وخرج مَجدُ الدّين بْنُ الدَّاية مِن حلب إلى الفَزاة ، في شهر رجب من سنة خمس وخمسين[3] ، فلقي جوسلين بن جوسلين ، فكسره ، وأخذه أسيراً ، ودخل به إلى قلعة حلب .

ثمّ إنّ الفرنج أغاروا على بلد عَيْن تاب ، فأخذوا التّركمان ، ونهبوا أغنامهم ، وعادوا يُريدون أنطاكية ، فخرج إليهم مجدُ الدّين ، ولقيهم بالجومة ، وكسرهم ، وقتَل منهم خلقاً عظيماً ، وأسر البرنسَ الثّاني

(١) هذه العبارة مشابهة لما عند ابن الأثير ٩/٦٧ ، واما مفرج الكروب ١/١٣١ : « الامير زين الدين علي كوچك بن بكتكين صاحب إربل ونائب أخيه قطب الدين مودود ابن زنكي .

(٢) في ابن الأثير ٩/٦٧ : « وبها أولاد أميرك الجاندار وهو من أعيان الأمراء وقد توفي وبقي أولاده فنازلها فشفع جماعة من الامراء فيهم فغضب من ذلك وقال : هلا شفعتم في أولاد أخي لما أخذت منهم حرّان وكانت الشفاعة فيهم من أحب الاشياء اليّ ، فلم يشفعهم وأخذها منهم » — وهذا دليل على نقل ابن العديم عن الكامل كما نقل عنه ابن واصل في مفرج الكروب .

(٣) تقف حوادث التاريخ في ابن القلانسي عند هذه السنة ٥٥٥ هـ. ، وبذلك نحرم من مصدر ثمين في تفصيل الاخبار عن دمشق والشام كلّه ؛ وقد توفي صاحب هذا التاريخ — وهو حمزة بن أسد بن عليّ بن محمد أبو يعلى التميمي العميد الدمشقي ويعرف بابن القلانسي — في دمشق يوم الجمعة سابع شهر ربيع الاول ودفن بقاسيون سنة ٥٥٥ هـ. وبذلك يكون قد سجّل الحوادث حتى قريب وفاته . — انظر النجوم الزاهرة ٥/٣٣٢

وخلقاً معه ، ودخل بهم إلى حلب في مستهلّ ذي الحجّة من سنة ستّ وخمسين وخمسمائة .

وفي سَنة سبع ، ولّى نُورُ الدّين كمالَ الدّين أبا الفَضل محمّــد بْن الشَّهْرزوري قضاء ممالكه كلّها ؛ وأمر القضاةَ ببلادِهِ أنْ يكتُبوا في الكُتب بالنّيابة عنه ، وكان قَدْ حَلَف له على ذلك وعاهده عليه ، وكان ذلك بدمشق في السَّنة المذكورة ، فامتنع زكيّ الـدّين قاضي دمشق ، فَعُزِلَ ؛ وكُتب إلى جدّي أبي الفضل بحلب ، فامتنع أيضاً .

ووَصل نُور الدّين ومعه مجد الدّين بن الدّاية ،واستدعاه نُورالدّين إلى القلعة ، وقال :«كُنَّا قَدْ عَاهَدْنَا كمالَ || الدّين ، وحلفنا له على هذا الأمر ، وما أنتَ إلّا نائبي ، وله اسم قضاء البـلاد لا غير » فامتنَع وقال : « لا أنُوبُ عن مَكانَيْن » . فولّى قضاء حلب مُحيي الـدّين أبا حامد ابن كمال الدّين ، وأبا المفاخر عبد الغفور بن لُقمان الـكردي ؛ وذلك بإشارة مجْدِ الدّين لوحشةٍ كانتْ بينَهُ وبَيْنَ جدّي . [١٧٦ظ]

ثُمّ إنَّ نُور الدّين جَمَعَ العَسَاكِرَ بحلب ، في سنــة سبع ، وسار إلى حارم ، وقاتلها ، فجمع الفرنجُ جموعَهم ، وساروا إليــه . فطلب منهم المَصَاف فلم يجيبوه ، وتلطّفوا معه حتّى عاد إلى حلب[١] .

هزيمة نور الدين

ثمّ جمع العساكر في سنة ثمانٍ وخمسين وخمسمائة ، ودخل إلى بلاد الفرنج ، ونزل في البقيعة تحت حصن

(١) في ابن الأثير ٧٩/٩ : « فلما قاربوه طلب منهم المصاف فلم يجيبوه إليه وراسلوه وتلطفوا الحال معه ، فلما رأى أنه لا يمكنه أخذ الحصن ولا يجيبونه إلى المصاف عاد إلى بلاده» – انظر مفرج الكروب ١٣٦/١

الأكراد محاصرًا له، وعازماً على أن يقصد طرابلس[١].

فاجتمع الفرنج، وخَرَج معهم الدّوقس الرّومي، وكان قد خرج في جمعٍ كثيرٍ من الرُّوم، واتّفق[٢] رأيُهم على كبسة المسلمين نهارًا، فإنهم يكونون آمنين، فركبوا لوقتهم ولم يتوقفوا[٣]، وساروا مجدّين إلى أن قربوا من يزك[٤] المُسلمين، فلم يكن لهم بهم طاقة، وأرسلوا إلى نور الدّين يعرّفونه الحال فرهقهم الفرنج بالحملة عليهم فلم يثبت المسلمون وعادوا منهزمين إلى نور الدّين والفرنجُ في ظُهورهم، فوصلوا جميعاً إلى عسكر نور الدّين، ولم يتمكَّن المسلمونَ من رُكوب الخيل وأخذِ السّلاح[٥]، حتّى خالطهم الفرنجُ، فقتلوا، وأسروا، قتلًا عظيماً وأسرًا كبيرًا.

وكان الدّوقس أشدَّهم على المُسلمين[٦]، فلم يُبقِ أصحابُه على أحدٍ، وقصدوا خيمةَ نُور الدّين، وقد ركب فيها فرسه، فنجا بنفسه، ولسرعته ركبَ الفرسَ والشُّبحةُ[٧] في رجله، ‖ فنزل انسانٌ كرديٌّ، [١٧٧ و]

---

(١) هذا النص هو عين ما جاء عند ابن الأثير ٩/٨٣

(٢) هذا النص التالي نقله ابن العديم عن الكامل لابن الاثير بحروفه.

(٣) في ابن الأثير: «ولم يتوقفوا حتى يجمعوا عساكرهم وساروا مجدين فلم يشعر بذلك المسلمون الا وقد قربوا منهم، فأرادوا منعهم فلم يطيقوا ذلك فأرسلوا الى نور الدين يعرفونه الحال»

(٤) اليَزَك: الحرس في الصفوف الامامية للجيش، أو ما نسميه اليوم الفرق الكشافة في الطليعة — انظر معجم دوزي ٢/٨٥١

(٥) أخذ ابن العديم النص المتقدم عن ابن الأثير ٩/٨٣ وتمامه بعد ذلك: «واخذ السلاح إلا وقد خالطوهم فأكثروا القتل والأسر».

(٦) في ابن الأثير: «وكان أشدهم على المسلمين الدوقس الرومي، فانه كان قد خرج من بلاده الى الساحل في جمع كثير من الروم فقاتلوا محتسبين في زعمهم فلم يبقوا على أحد وقصدوا خيمة نور ...» وهكذا يتفق بعد ذلك مع ما ينقل ابن العديم حرفياً.

(٧) الشُّبحة: سلسلة من الحديد تربط بها رجل الفرس من طرف ويثبت الطرف الثاني بالوتد وذلك لئلا يهرب الفرس، وهو معروف حتى اليوم — انظر معجم دوزي ١/٧١٩

وفداه بنفسهِ ، فقطع الشَّبحة ، ونجا نُورُ الدّين ، وقُتِـلَ الـكُرديُّ ، فأحسنَ إلى مخلفيه ، ووَقَف عليهم الوقوف[1] .

وَوَصل نُور الدّين الى بُحَيْرة قَدس[2] ، وبينــه وبين المعركة نحو أربعة فراسخ ؛ وتلاحق به مَنْ سَلِم من العسكر ، فقــال له بعضُهم : « المصلحةُ أنْ نسير ، فانَّ الفرنج ربَّما طمعوا وجاؤوا إلينا ، ونحنُ على هٰذِهِ الحال » ؛ فوبَّخَهُ وأسكتَهُ ، وقال : « إذا كان مَعي ألف فـارس التَقَيْتُهُم ، وَوَاللهِ لَا أستظِلُّ بسقفٍ حتى آخذَ بثأري وثأرِ الاسلام[3] »

خُلقُ نور الدين

وأرسل إلى حلب ودمشق ، وأحضَر الأموالَ والثّيابَ والخيامَ والسّلاحَ والخيــلَ ، فأعطى الناسَ عوضاً عمّا أخذ منهم بقولهم ، وأصبح عسكرُه كأنْ لم يُهزَمْ ولم يُنْـكَبْ ، وكلّ مَنْ قُتِل أعطَى أولادَه أقطاعه[4] .

ولمّا رَأى أصحابُ نُورالدّين كثرةَ خَرْجه قال له بعضُ صَحابةِ السُّوء : « إنَّ لك في بلادِكَ إدراراتٍ وصلاتٍ ووقوفاً كثيرة على الفُقَهــاء ، والفقراء ، والقرّاء ، والصوفيّة وغيرِهم ؛ فلو استعنتَ بها في هٰذا الوقتِ لكانَ أصلح » . فَغَضِبَ منْ ذٰلِك وَقَال : « واللهِ إنَّني لا أَرْجو النَّصر إلّا بدُعاء أُولٰئِكَ ، فإنَّمــا تُرْزَقُون وتُنْصَرُون بِضُعَفَائِكم ، كيف أقْطَعُ صلات قوم يُقاتلون عَنّي وأنا نائم على فراشي بسهامٍ لا تُخطِئ ، وهؤلاء القوم لهم نَصيبٌ في بيت المال ، كيف يحلّ لي أن أعطيه غيرهم[5] ! »

(١) هذه عبارة ابن الأثير ٩/٨٣ ، ومفرج الكروب ١/١٣٥

(٢) في ابن الأثير : « بحيرة قدس بالقرب من حمص » .

(٣) هذا النص شبيه بما جاء عند ابن الأثير .

(٤) هذه العبارة نفسها في ابن الأثير ٩/٨٣

(٥) هذا النصّ المتقدم نُقل بحرفيته عن ابن الأثير من غير اختلاف في العبارة ؛

وقيل : إنَّ بُرهان الدّين البَلْخي قال لِنُور الدّين : « أتُريدُونَ أن تنصروا وفي عَسْكركم الخمور والطُّبول والزّمورُ ، كَلَّا وَاللهِ . » [١٧٧ظ] فلمّا سَمع نُور الدّين كلامه عاهد الله على التَّوْبَة ، ونَزَع عَنْهُ ثيابَه تلك الّتي كان يلبسُها ، والتزَم بلبس الخَشن؛ وبطل جميع ما كان بَقي في بلاده من الأعْشار والمُكوس والضَّرائب ؛ ومنع من ارتكابِ الفَوَاحِش ، وكتب إلى البلادِ إلى زُهّادها وعُبّادها يذكرُ لَهمْ ما نال المُسلمين مِنَ القَتل والأسر ، ويستمدّ منهم الدُّعاء ، وان يَحثّوا المُسلمين على الغَزَاة؛ وكاتبَ المُلوكَ الإسلامية يطلب منهم النجد والاستعدادَ؛ وامتنعَ من النَّوم على الوَطيء وعن جَميع الشَّهَوات .

نُورُالدِّين وَالأَيُوبِيّون

وراسلـه الفرنجُ في طلب الصُّلح فامتنع[١] ، فبينا هو في الاستعداد للجهاد إذ وَرَدَ عليه في شهر ربيع الأوّل ، من سنـة تسع وخمسين وخمسمائة ، شاور[٢] وزير العَاضِد[٣] بمصر إلى دمشق ، ملتجئاً

فالكامل مصدر أساسي لابن العديم في هذا الفصل من فصول تاريخه بعد ان انقطع ابن القلانسي والعظيمي عن امداده بالمصادر — انظر مفرج الكروب ١٣٦/١ فقد نقل كذلك عن ابن الأثير حرفياً .

(١) في ابن الأثير ٨٣/٩ : « ثم ان الفرنج راسلوا نور الدين يطلبون منه الصلح فلم يجبهم وتركوا عند حصن الاكراد من يحميه وعادوا الى بلادهم » .

(٢) هو ابو شجاع شاور بن مجير بن نزار بن عشائر بن شاس بن مغيث . . . ابن هوازن السعديّ — انظر في ترجمته وفيات الاعيان ٢٢٠/١ ، والنجوم الزاهرة ٣٣٨/٥

(٣) هو الخليفة ابو محمد عبدالله العاضد بالله ابن الأمير يوسف ابن الخليفـة الحافظ بالله . . . الفاطمي العبيدي المغربي الاصل المصريّ ، الحادي عشر من خلفاء بني عبيد بمصر ، توفي يوم عاشوراء سنة ٥٦٧ هـ وعمره ثلاث وعشرون سنة، فكانت أيامه احدى عشرة سنة، وهو آخر خلفـاء مصر — انظر النجوم الزاهرة ٣٣٤/٥ ، وابن خلكان ٢٦٩/١ ، وابن الأثير ١١١/٩

إليه، ومستجيراً به على ضرغام[١]، وكان قد نازعه في الوزارة وغلب عليها.

وطلب منه إرسالَ العساكر معه إلى مصر ليعود إلى منصبه، ويكون لنُور الدّين ثلث دخل البلاد بعد إقطاعات العساكر، ويكون نائبه مقيماً بعساكره في مصر، ويتصرّفُ بأمر نُور الدّين واختياره، فبقي متردّدًا بين أن يفعلَ ذلك وبين أن يجعلَ جلّ قصده إلى الفرنج.

شيركوه

ثُمّ قويَ عزمُهُ وَسيّر[٢] أَسد الدّين شيركوه بن شادي في عسكر معه، في جُمادى الأُولى من سنة تسع وخمسين، وتَقدّم إلى أسد الدّين أن يُعيد شاورَ إلى مَنصبه.

وسار نُور الدّين إلى طرف بلاد الفرنج[٣] ممّا يَلي دمشق، بما بقي من العساكر ليمنَعَ الفرنجَ من التّعرُّض لِأَسد الدّين وشاور في طريقهما، [١٧٨ و] فاشتغل الفرنجُ || بحفظ بلادهم من نُور الدّين عن التّعرُّض لهما، ووَصل أَسدُ الدّين وشاور إلى بلبيس[٤]، فخرج إليهم ناصر الدّين[٥] أخو ضِرغام

(١) هو ضرغام بن سوّار الملقب بالمنصور كما في مفرج الكروب ١٣٧/١

(٢) في مفرج الكروب ١٣٨/١ : « ثم انه قوى عزمه وصمم على اجابة شاور الى ملتمسه، واستخار الله سبحانه في ذلك، فتقدم الى اسد الدين بالتجهيز للمضي مع شاور واستصحب معه العساكر وسار في صحبته شاور » – انظر ابن الأثير ٨٤/٩

(٣) في ابن الأثير ٨٤/٩ : « وسار نور الدين الى طرف بلاد الفرنج مما يلي دمشق بعساكره ليمنع الفرنج من التعرض لاسد الدين ومن معه ».

(٤) في معجم البلدان لياقوت ٧١٢/١ : « بِلبيس : بكسر البائين وسكون اللام وياء وسين مهملة – كذا ضبطه نصر الاسكندري، قال والعامة تقول بِلْبَيْس : مدينة بينها وبين فسطاط مصر عشرة فراسخ على طريق الشام ».

(٥) في الاصل المخطوط : « ناصر المسلمين » وهو سهو من الناسخ – في ابن الأثير ٨٥/٩ : « فخرج اليهم ناصر الدين أخو ضرغام بعسكر المصريين ولقيهم فانهزم وعاد الى القاهرة » – انظر مفرج الكروب ١٣٩/١

بعسكر المصريّين ، ولقيهم فانهزمَ وعاد إلى القاهرة .

وَوَصل أسدُ الدّين إلى القاهرة ، فنزل عليها في آخر جُمادى الآخرة ، فخرج ضرغام[1] فقتل ، وقُتل أخوه ، وخلع على شاور وأُعيد إلى الوزارة .

وأقام أسدُ الدّين بظاهر القاهرة ، فَغَدر شاور[2] ، وعاد عمّا كان قرّره مع نُور الدّين . وأمر أسد الدّين بالعَوْد إلى الشّام فامتنع ، وطلب ما كان استقرّ فلم يُجبه إليه ، فأرسل أَسَدُ الدّين نُوّابَه فتسلّموا بلبيس ، وحكم على البلاد الشرقية .

فأرسل شاور إلى الفرنج ، واستنجدَ بهم ، وخوّفهم من نُور الدّين إنْ مَلَك مصرَ ، فسارعُوا إلى تَلْبِيَتِهِ ، وطَمِعُوا في مُلْكِ الدّيار المِصْرِيّة ، وساروا إلى بلبيس ، وسار نُور الدّين إلى طرف بلادهم ليمنعهم عن المسير ، فلم يلتفتوا ، وتركوا في بلادهم مَنْ يحفظها[3] .

وَسَار مَلِكُ القُدس في الباقين إلى بلبيس ، واستعان بجَمْع كثير كانُوا خرجوا إلى زيارة القُدس[4] ؛ وأقام أسدُ الدّين ببلبيس ، وحصَره الفرنجُ ، والعسكر المصْريّ ثلاثة أشهرٍ وهو يغاديهم القتال

(١) في ابن الأثير : « فخرج ضرغام سلخ الشهر فقتل عند مشهد السيدة نفيسة وبقي يومين ثم حمل ودفن في القرافة . وقتل اخوه فارس المسلمين وخلع على شاور مستهل رجب وأعيد إلى الوزارة وتمكن منها » .

(٢) في ابن الأثير : « فغدر به شاور وعاد عمّا كان قرره لنور الدين من البلاد المصرية ولاسد الدين أيضاً وأرسل اليه يأمره بالعودة الى الشام » .

(٣) شبيه بها عند ابن الأثير .

(٤) في ابن الأثير : « وكان قد وصل الى الساحل جمع كثير من الفرنج في البحر لزيارة البيت المقدس فاستعان بهم الفرنج الساحلية فأعانوهم » .

ويراوحهم، فلم يظفروا منــه بطائل، مع أنَّ سور بلبيس قصير[١]، وهو مِنْ طِين.

قصد الفرنج

فعندَ ذٰلك خَرَج نُور الدّين لِقَصْدِ بلاد الفرنج، وَنَزل إلى حلب وجمع العساكر وأرسل إلى أخيه قطب الدّين صاحب الموصل، وإلى فخر الدّين قرا أرسلان صاحب حصن كيفا[٢]، وإلى [١٧٨ظ] نجم الدّين ألبي صاحب ماردين || وَغَيْرِهم مِنْ أَصحــاب الأَطراف واستنجدَ بهم.

فسارَ قطبُ الدّين ومقدَّمُ عسكرهْ زينُ الـدّين علي كوجك، وسَيَّر صاحب ماردين عسكره؛. وأما صاحبُ الحِصن[٣] فقال لـه خواصّه ونُدماؤه: «على أيّ شيء عزَمْتَ؟» فقال: «على القعود، فإنَّ نورَ الدّين قَدْ تَحَشَّفَ مِنْ كثرة الصَّوم والصَّلاة، فهو يُلقي نفسَه وَمَنْ مَعه في المهالك».

فلمّا جاء الغدُ أمر العسكر أن يتجهَّز للغزاة فسألوه عمّا صَدَفَهُ عَنْ رأيه[٤]، فقال: «إنَّ نُور الدّين إنْ لم أُنْجِــدْهُ خرجتْ بلادي عَنْ

---

(١) في ابن الأثير: «مع ان سورها قصير جدًّا وليس له خندق ولافصل يحميها».

(٢) في ابن الأثير ٩/٨٦ مثل مـا عندنا من نص – في مفرج الكروب ١/١٤٣: «وكاتب أخاه قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكي صاحب الموصل، وقرا أرسلان بن داود بن سقمان بن أرتق صاحب حصن كيفا والديار الجزرية، ونجم الدين ألب أرسلان بن تمرتاش بن ايلغازي بن أرتق صاحب ماردين، وأصحاب الاطراف يدعوهم الى مساعدته».

(٣) في ابن الأثير ٩/٨٦: «واما فخر الدين صاحب الحصن فبلغني عنه انــه قال له ندماؤه وخواصه: على ي شيء عزمت فقال ...»

(٤) في ابن الأثير: «فقال له اولئك: ما عدا مما بدا؟ فارقناك امس عــلى حالة فنراك اليوم على ضدها. فقال ان نورالدين قد سلك معي طريقًا ان لم أنجده خرج أهل بلادي عن طاعتي وأخرجوا البلاد عن يدي فانــه قد كاتب .... » – انظر مفرج الكروب ١/١٤٤

يدي ، فانه قد كاتَبَ زُهّادَها والمنقطعين عن الدّنيا يستمدُّ منهم الدّعاء ، ويطلبُ منهم أن يحثّوا المسلمين على الغَزاة ، وقد قَعَد كلُّ واحدٍ منهم ومعه أتباعُه وأصحابُه ، وهم يَقرَؤون كُتُبَ نور الدّين ، ويبكون ، فأخافُ أن يجتمعوا على لعنتي والدعاء عليَّ » . ثم تجهّز وسار بنفسِهِ[1] .

ولمّا اجتمعتِ العَساكِرُ خَرَجَ نُور الدّين إلى حارم[2] ، وحصَرها ، ونصب المجانيقَ عليها ، وزحف إليها ، فخرج البرنس بيمند ، والقمص صاحب طرابلس ، وابن جوسلين والدوك مقدّم كبير من الرّوم[3] . وابن لاون مَلِكُ الأرمن ، وجمعوا جميعَ مَنْ بَقي من الفرنج بالسّاحل ، وقصَدوا نورَ الدّين .

فرحل إلى أرتاح ليتمكّن منهم إنْ طلبُوه < ويبتعدوا >[4] عَن البِلاد إنْ لقوه ؛ وسَيَّر اثقالَـهُ إلى تيزين ، فساروا فنزلوا على الصفيف[5] ، ثمّ عادوا إلى حارم ، فتبعهم نُور الدّين على تعبئةِ الحرب ، فلمّا تَقَاربوا اصطَفُّوا للقتال فحملَ الفرنجُ على ميمنة المسلمين ، وفيها

النصر

(١) هذه العبارة قريبة جدًّا مما عند ابن الأثير .

(٢) في ابن الاثير : « وأما نجم الدين فانه سير عسكرًا ، فلما اجتمعت العساكر سار نحو حارم فحصرها ونصب عليها المجانيق وتابع الزحف اليها » .

(٣) في ابن الأثير : « وابن جوسلين وهو من مشاهير الفرنج والدوك وهو مقدم كبير من الروم » .

(٤) في الأصل : طمس وبلل : « و . . . . وا » وقد اقتبسنا من نص ابن الأثير الذي ينقل عنه ابن العديم ففيه « رحل عن حارم الى ارتاح طمعاً ان يتبعوه فيتمكن منهم ببعدهم عن بلادهم إذا لقوه » – انظر مفرج الكروب ١/١٦٦

(٥) في ابن الأثير : « فساروا فنزلوا على غمر ثم علموا عجزهم عن لقائه فعادوا إلى حارم ، فلما عادوا تبعهم نورالدين » – في مفرج الكروب : « فنزلوا على عم » .

عسكر حلب وصاحب الحصن ، فانهزم المسلمون[١] حتّى وصلوا إلى [١٧٩ و] جدارهم ؛ ونورُ الدّين واقفٌ بإزائهم || على تلّ هُناكَ يتضرّعُ إلى الله ، وهو مكشوفُ الرّأس .

وبَقِيَ راجلُ الفرنج فوق عِمّ ، ممّا يلي حارم بالصّفيف ، فَعَطَفَ عَلَيْهم زينُ الدّين عليّ كوجك ، في عسكر المَوْصل ؛ وكان نورُ الدين قد جعله كميناً في طرف العُمْق ، وآجام القصب ؛ فقتَلَهم عن آخرهم .

ورجعتِ الخيّالة من الفرنج خوفاً على الرّاجل أن يتبعوا المسلمين ، فيقع المسلمون عليهم ، فوجدوا الأمرَ على ما قدّرُوه ، فرأوا الرّجالة منهم قتلى وأسرى ، واتّبعهم نور الدين مَع من انهزم من المسلمين ، فأحاطوا بهم من جميع الجهات ، فاشتدّ الحرب ، وكثر القتلُ في الفرنج ، فوقعت عليهم الغلبة[٢] .

وعَدَل المسلمون إلى الأسر[٣] ، فأسروا صاحبَ أنطاكية ، وصاحبَ طرابلس ، والدّوكَ مقدَّم الروم ، وابنَ جوسلين ، ولم يسلم إلّا مليح بن لاون ؛ قيل إنّ الياروقيّة أفرجوا له حتى هرب ، لأنّهُ كان خالَهُمْ . وكانَ عدّة القَتْلى تزيدُ على عشرَة آلاف[٤] .

(١) في ابن الأثير : « فانهزم المسلمون وتبعهم الفرنج فقيل كانت تلك الهزيمة من الميمنة على اتفاق ورأي دبروه وهو ان يتبعهم الفرنج فيبعدوا عن راجلهم فيميل عليهم من بقي من المسلمين بالسيوف » .

(٢) ارجع الى ابن الأثير ٨٦/٩ ومفرج الكروب ١٦٦/١

(٣) في ابن الأثير : « فعدل حينئذ المسلمون عن القتل الى الأسر فأسروا ما لا يحد ، وفي جملة الاسرى صاحب أنطاكية والقمص صاحب طرابلس وكان شيطان الفرنج وأشدهم شكيمة على المسلمين والدوك مقدم الروم وابن جوسلين » .

(٤) في الروضتين ١٣٣/١ نقلاً عن العماد الكاتب : « وقتل في معركة واحدة منهم عشرين ألفاً » .

وسار إلى حارم فملكها في شهر رمضان من السَّنة[1]، وبثَّ سراياه في أعمال أنطاكية، فنهبوها وأسروا أهلها، وباع البرنس[2] بمالٍ عظيم وأسرى من المسلمين.

ثمَّ ساروا في هذه السَّنة إلى دمشق، بعد أن أذِن لعسكر الموصل وديار بكر بالعَوْد إلى بلادهم، ثمَّ خرج إلى بانياس، فحصَرها وقاتلها. وكانَ معَهُ أخوه نصرة الدِّين أمير أميران ــ وكان قد رضي عنه وسامحه ــ وهو على حارم، بعد أن دخلَ إلى الفرنج، فأصابه سهم[3] أذهَبَ إحدَى عَيْنَيْهِ، فقال له: «لو كُشِفَ لَكَ عن الأجر الّذي أُعِدَّ لَكَ لتمنَّيتَ ذَهابَ الأُخرى». وجَدَّ في حصارها وفَتْحِها، وملأَ القلعة بالذَّخائر والرِّجال[4]، ‖ وشاطر الفرنج في أعمالِ طَبرية، وقرّروا له[5] على ما سوى ذلك مالًا في كلّ سنة. [١٧٩ظ]

ووصل خَبَرُ فتح حارم وبانياس إلى الفرنج النَّازلين على بلبيس، فأرادوا العَوْد إلى بلادهم، فراسلوا أسدَ الدِّين في الصُّلح رجاءَ أن يَلحَقُوا بانياس، فاتَّفق الحالُ معهم على أن يَعُودَ إلى الشَّام، ويسلِّم ما

(١) في مفرج الكروب ١/١٦٥: «وسار نور الدين الى حارم فتسلمها للتسع بقين من رمضان من هذه السنة أعني سنة تسع وخمسين وخمسمائة».

(٢) في ابن الأثير ٩/٨٧: «ثم انه فادى برنس بيمند صاحب أنطاكية واشترى من المسلمين خلقًا كثيرًا فأطلقهم» — انظر مفرج الكروب ١/١٦٥

(٣) في ابن الأثير ٩/٨٧: «وكان من جملة عسكره أخوه نصرة الدين أمير أميران فأصابه سهم فأذهب إحدى عينيه، فلما رآه نور الدين قال له: لو كشف لك عن الاجر الذي أعد لك لتمنيت ذهاب الاخرى وجد في حصارها» — انظر مفرج الكروب ١/١٦٦

(٤) في ابن الأثير ٩/٨٧: «فملك القلعة وملأها ذخائر وعدة ورجالًا» — انظر مفرج الكروب ١/١٦٦

(٥) في ابن الأثير: «وقرروا له على الاعمال التي لم يشاطرهم عليها مالًا في كل سنة»

بيده من أعمال مصر إلى أهلها، ولم يَكُنْ عنده علمٌ بما جَرَى لِنُور الدّين بالشّام ، وكانَت الذّخائر قد قلّتْ عِنْدَه ببلبيس (١) .

وخَرَج من الدّيار المصرية إلى الشّام ، وجاء الفرنج ليدركوا بانياس ، فوجدوا الأمرَ قَدْ فاتَ ، وكَشَفَ أسدُ الدّين الديارَ المصرية، واستصغر أمرَ مَنْ بها .

ودخلتْ سَنة إحدى وستّين وخمسمائة ، فسَار نُور الدّين إلى المُنَيْطِرَة (٢) جَريدةً في قلّة من العسكر ، على غَفْلَة من الفرنج ، وَحَصر حصنها ، وأخذه عنوةً ، وقَتَل مَنْ به ، وسَبَى وغَنم غنيمةً كثيرةً ، وأيس الفرنجُ من استرجاعه بعد أن تجمّعوا له وتفرّقوا (٣) .

وتحدّث أسدُ الدّين مع نُور الدّين ، في عوده إلى الدّيار المصريّة ، فلمّا رأى جدَّه سيَّره إليها في ألفي فارس من خِيار العسكر ، في سنة اثنتين وستّين وخمسمائة .

فسار على البرّ ، وتَرَك بلادَ الفرنج على يمينه ، فوصل الديار المصريّة ، وعَبر النّيل إلى الجانبِ الغَرْبيّ عند أطفيح (٤) ، وحكم على البلاد

---

(١) انظر الخبر عند ابن الأثير ٨٧/٩

(٢) في معجم البلدان لياقوت ٦٧٣/٦ : « المُنَيْطِرة : تصغير الطاء مهملة — حصن بالشام قريب من طرابلس » .

(٣) في ابن الأثير : « فأخذه عنوة وقهرًا ، وقتل من بها وسبى وغنم غنيمة كثيرة . . . فلما ملكه تفرقوا وأيسوا من ردّه » — في مفرج الكروب ١٦٨/١ : « وذكر القاضي بهاء الدين بن شداد : ان الواقعة كانت سنة اثنتين وستين وخمسمائة » .

(٤) في الاصل : « ايفح » — وهي مصحّفة ؛ وصحيحها اطفيح : وهي من البلاد المصرية القديمة الواقعة على الشاطئ الشرقي للنيل ، وكانت في عهد الفراعنة قاعدة قسم ماتونو ، وفي عهد الرومان قاعدة قسم أفروديتون ، وفي عهد العرب قاعدة كورة الاطفيحية ، وكان يقال لها الشرقية لوقوع بلادها شرقي النيل ، وفي سنة ١٨٩٨ أصبح المركز الصف واصبحت

الغربيّة ، ونزل بالجيزة[1] مقابل مصر[2] ، فأقام نيّفاً وخمسين يوماً .

فأرسل شاور واستنجد بالفرنج ، فسار أسدُ الدّين إلى الصّعيد ، وبَلَغَ إلى مَوْضعٍ يعرف بالبَابَيْن[3] ؛ وسارت العساكرُ المصريّة والفرنجيّة || خلفه ؛ فوصلوا إليه وهو على تعبئة[4] [١٨٠ و] وقد جعل أثقاله في القلب ليتكثّر بها ؛ وجعل ابنَ أخيه صلاح الدين[5] في القلب ، وأوْصاهم مَتَى حملوا عليه أن يندفع بين أيديهم قليلًا ، فإذا عادُوا فارجعُوا في أعقابهم .

صلاح الدين

واختار من يثق بشجاعته ، ووقف بهم في الميمنة ، فحمل الفرنجُ على القلب ، فاندفع بين أيديهم غير مفرقين ، فحمل أسدُ الدّين بمن معه عَلى مَنْ بَقي منهم ، فهزمهم ووضع السَّيف فيهم ، وأكثر القتلَ والأسرَ ، وعاد الّذين حَملوا على القلب فوجدوا أصحابهم قد مَضوا قتلًا وأسرًا فانهزموا[6] .

اطفيح احدى بلاد مركز الصف بمديرية الجيزة ، ومـا تزال كذلك الى اليوم — انظر النجوم الزاهرة ٣١٧/٥ والحاشية ، ومفرج الكروب ١٦٩/١ والحاشية ، وابن الاثير ٩٥/٩

(١) الجيزة : معناها الجانب والناحية ، وجمعها حيز ، أنشأها العرب سنة ٢١ هـ على الشاطئ الغربي للنيل وسموها الجيزة لانها في المكان الذي اجتازوا فيه النيل بين الفسطاط وبين جانب الوادي الغربي الممتد من الجيزة الى الجبل . وكانت مدينة الجيزة في عهد العرب قاعدة لكورة الجيزة ، وفي عهد المماليك قاعدة للاعمال الجيزية . وقد سميت مديرية الجيزة سنة ١٨٣٣ ، وما تزال هذه المدينة قاعدة لها الى اليوم — انظر النجوم الزاهرة ٣٤٨/٥ والحاشية .

(٢) في النجومْ الزاهرة : « حتى نزل بر الجيزة غربي مصر على بحر النيل » .

(٣) قرية كانت تقع في الجنوب من مدينة المنيا .

(٤) في ابن الأثير ٩٥/٩ : « فأقام بمكانه حتى أدركه المصريون والفرنج وهو على تعبية ، وجعل الاثقال في القلب » .

(٥) في النجوم الزاهرة ٣٤٨/٥ : « ورتب اسد الدين عساكره فجعل صلاح الدين في الميمنة ، وفي الميسرة الاكراد ، واسد الدين في القلب » .

(٦) هذه العبارة السابقة قريبة من عند ابن الأثير ومفرج الكروب — وفي النجوم

وسار أسدُ الدّين إلى الاسكندريّة ، ففتحها باتّفاق من أهلها ، واستناب بها صلاحَ الدين ، وعاد إلى الصَّعيد ، وجبى أمواله[1] .

وتجمّع الفرنج والمصريّون ، وحَصَروا صلاحَ الدّين بالاسكندريّة[2] ، فصبروا على الحصار إلى أن عاد أسدُ الدّين ، فوقعَ الصُّلح على أن بَذلوا لأسد الدّين خمسين ألف دينار ، سوى ما أخذ من البلاد ، وأن الفرنج لا يُقيمون في البلاد ، فاصطلحوا على ذلك ، وعاد إلى الشّام ، وتسلّم المصريّون الاسكندريّة[3] .

وأمّا نُور الدّين فإنّه جَمع العساكرَ في هذه السَّنة ، ودخل مِن حِمص إلى بلاد الفرنج ، فنازَل عَرْقَة ، ونهب بلدها[4] ، وخَرَّب بلادَهم ، وفَتَح صَافيتا والعَرِيمة ، وعاد إلى حمص ، وخرج إلى بانياس ، وخرج إلى هونين[5] ، فانهزم الفرنج عنه وأحرقوه ، فوصل إليه نُور الدين من الغَد ، فخرب سوره وعاد .

وكان حسَّان صاحب منبج قد مات ، وأقطع نُور الدّين منبج

الزاهرة : « فقتلا منهم الوفًا وأسرا مائة وسبعين فارساً » .

(١) هذه العبارة السابقة قريبة مما عند ابن الاثير ٩/٩٥ – واما في النجوم الزاهرة ٥/٣٤٩ : « فلو ساق اسد الدين خلفهم في الحال ملك القاهرة وانما عدل الى الاسكندرية فتلقاه أهلها طائعين فدخلها وولي عليها صلاح الدين » .

(٢) في النجوم الزاهرة : « فحصروا الاسكندرية أربعة اشهر » .

(٣) انظر النص عند ابن الاثير ٩/٩٦ ففيه تفصيل الخبر .

(٤) في ابن الأثير : « فدخل نور الدين بالعساكر بلاد الفرنج فاجتازوا على حصن الاكراد فأغاروا ونهبوا وقصدوا عرقة فنازلوها وحصروها وحصروا حلبة وأخذوها وخربوها » – انظر مفرج الكروب ١/١٥٣

(٥) في ابن الأثير ٩/٩٦ : « وقصدوا حصن هونين وهو للفرنج ايضاً من امنع حصونهم ومعاقلهم ، فانهزم الفرنج عنه وأحرقوه فوصل نور الدين من الغد فهدم سوره جميعه وأراد الدخول الى بيروت » .

ولده غازي بن حسّان[1] ، فعصى عليه في هذه || السّنة ، فسيّر إليه [١٨٠ظ] عسكرًا ، وأخذوها منه فأقطعها أخاه قطب الدّين ينال بن حسّان ، وهو الّذي ابتنى المدرسة الحنفيّة بمنبج .

وفي سنة ثلاثٍ وستّين وخمسمائة ، نزل شهابُ الدّين مالك قلعة جعبر ابن عليّ بن مالك[2] صاحب قلعة جعبر ليتصيّد ، فأخذه بنو كلاب أسيرًا وحملوه إلى نُور الدّين في رجب ، فاعتقله وأحسنَ إليه، ورَغّبه في الأقطاع فلم يُجبْهُ ، فَعَدل إلى الشدّة والعُنف .

ثمّ سَيّر إليها عسكرًا فلم يقدر على فتحها ، فعدل إلى اللّين مع صاحبها ، إلى أن اتّفق الحالُ على أن عَوّضَهُ عنها بسروج وبزاعا والمَلّوحة[3] ، وسلّم إليه القلعَة في سنة أربع وستّين ، وقيل لمالك : « أيّما أحبُّ إليكَ سروج أو القلعة ؟ » فقال : « هذه أكثر مالًا ، وأمّا العزُّ ففارقناهُ بالقلعة » .

وفي هذه السّنة أطلقَ نور الدّين في بلادهِ بعضَ ما كان قد بقي من المظالمِ والمؤن .

(١) في ابن الأثير ٩٧/٩: «في هذه السنة عصى غازي بن حسان المنبجيّ على نورالدين محمود بن زنكي صاحب الشام وكان نورالدين قد أقطعه مدينة منبج فامتنع عليه فيها » — انظر مفرج الكروب ١٥٣/١

(٢) في مفرج الكروب ١٥٥/١ : « إن شهاب الدين مالك العقيلي نزل يتصيد فاخذه بنو كلب اسيرًا » — وباقي العبارة قريب من عند ابن العديم وابن الاثير .

(٣) في مفرج الكروب ١٥٥/١ : « وتسلم سروج واعمالها والملاحة التي في بلد حلب وباب وبزاعة » — ولعلهذا تصحيف من ابن واصل؛وصحيحها الملّوحة كما أثبتها ابن العديم وقد جاءت في معجم البلدان لياقوت ٦٣٨/٤ : « الملّوحة : بالفتح ثم تشديد اللام وضمها وحاء مهملة — قرية كبيرة من قرى حلب » — واما ابن الأثير فيقول ٩٩/٩: «والملاحة: التي بين بلد حلب وباب بزاعة » .

ثمّ إنّ الفرنج طمعوا في الدّيار المصريّة فصعدوا إليها في سنة أربع وستّين وخمسمائة ، وأخذوا بلبيس(١) وساروا إلى القاهرة فقاتلوها(٢) ؛ وسيّر العاضدُ يستغيثُ إلى نُور الدّين ، وسيّر شُعُورَ نسائه في الكتب(٣) ، فوصله الرّسول وهو بحلب ، وبذل له ثُلثَ بلاد مصر ، وأن يكون أسدُ الدّين مقيماً عندهم .

أسد الدين

وكتبوا إلى أسدالدّين بمثل ذلك،فوصل إلى نور الدين إلى حلب من حمص(٤) وقد عزم على الايفاد إليه،فأمره بالتجهّز إلى مصر ، وأعطاه مائتي ألف دينارٍ سوى الثّياب والسّلاح والدّواب ، وحكمه في العسكر والخزائن || فاختار ألفَيْ فارسٍ، وأخذ المال وجمع [١٨١ و] ستّة آلاف فارس ، وسار هو ونور الدّين إلى دمشق(٥) فوصلها سلخ صفر ، ورحل إلى رأس الماء .

وأضاف إلى أسد الدّين جماعةً أخرى من الأمراء منهم(٦) : عزّ الدّين جورديك ، وغرس الدّين قلج ، وشرف الدّين برغش ،

(١) في ابن الأثير ٩٩/٩ : « ونازلوا مدينة بلبيس وملكوها قهرًا مستهل صفر،ونهبوها وقتلوا فيها وأسروا » .

(٢) انظر تفصيل ما فعلوا بالقاهرة في ابن الاثير ٩٩/٩ والروضتين ١٦٣/١

(٣) في ابن الأثير ٩٩/٩ : « ارسل الخليفة العاضد الى نور الدين يستغيث به ويعرفه ضعف المسلمين عن دفع الفرنج ، وارسل في الكتب شعور النساء وقال : هذه شعور نسائي من قصري يستغثن بك لتنقذهن من الفرنج » .

(٤) في ابن الأثير ١٠٠/٩ : « أرسل الى اسد الدين يستدعيه إليه فخرج القاصد في طلبه فلقيه على باب حلب وقد قدمها من حمص وكانت اقطاعه » .

(٥) العبارة قريبة من ابن الأثير ١٠٠/٩ : « وسار هو ونور الدين الى باب دمشق فوصلها سلخ صفر ورحل الى رأس الماء » .

(٦) في ابن الأثير : « منهم مملوكه عز الدين جرديك وغرس الدين قلج وشرف الدين برغش وعين الدولة الياروقي وقطب الدين ينال بن حسّان المنبجي وصلاح الدين يوسف بن أيوب أخي شيركوه » .

وعَيْن الدَّولة بن يارُوق، وقطب الدِّين ينال بن حسّان، وصلاح الدِّين ابن أخيه.

وسارَ أسدُ الدِّين، فلمَّا قاربَ مصر رحل عنها الفرنج إلى بلادهم، ووصل أسدُ الدِّين إلى القاهرة سابع جمادى الآخرة، ودخل إليها واجتمع بالعاضد، وخلع عليه وعاد إلى خيامه، وفي نفس شاور منه ما فيها، ولا يتجاسر على إظهاره[1].

مقتل شاور

وكان شاور يخرج في الأحيان إلى أسد الدِّين يجتمع به، فخرج في بعض الأيام على عادَتِهِ فلمْ يجده في الخيام، وكان قد مَضَى لزيارة قَبْر الشَّافعيِّ — رضيَ اللهُ عنه — فلقيَه صلاحُ الدِّين، وجورديك، في جَمْعٍ من العسكر وخدموه، وأعلمُوه أنَّ أسد الدِّين قد مضى للزِّيارة فقال: «نَمْضِي إليه» فساروا جميعاً، فساوره صلاحُ الدين وجورديك[2]، وألقياه إلى الأرض، فهرب عنه أصحابُه وأُخِذَ أسيرًا.

وأرسلوا إلى أَسد الدِّين فحضر في الحال، وجاءه التَّوقيع في الحال بالوزارة على يد خادمٍ خاصٍ، ويقول: «لا بُـدَّ من رأسه» جرياً على عادتهم في وزرائهم أنّ الذي يقوى على الآخر يقتله. فقُتل وأُنفذ رأسهُ إلى العاضِد[3].

---

(١) انظر عبارة ابن الأثير ٩/١٠٠: «فلم يتجاسر على اظهار ما في نفسه».

(٢) في ابن الأثير ٩/١٠١: «فسايره صلاح الدين وجرديك وألقوه إلى الأرض عن فرسه فهرب أصحابه عنه فأخذ أسيرًا فلم يمكنه قتله بغير أمر أسد الدين فتوكلوا بحفظه».

(٣) ارجع إلى النص عند ابن الأثير ٩/١٠١: «وأرسل رأسه إلى العاضد في السابع عشر من ربيع الآخر».

موت أسد الدين

وأنفذ إلى أسد الدّين خلعة الوزارة ، فسار ودخل القصرَ ، وترتّب وزيرًا في سابع عشر شهر ربيع الآخر ، ودام آمرًا ناهيًا[١] || إلى أن عرض له خوانيق ، فمات في الثّاني والعشرين من جمادى الآخرة[٢] . [١٨١ظ]

صلاح الدين والخليفة

وفوّض الأمر بعده إلى ابن أخيه ، وكان جماعة من الأمراء[٣] الّذين كانوا مع أسد الدّين قد تطاولوا إلى الوزارة ، منهم : عَيْن الدّولة بن ياروق ، وسيف الدّين المشطوب[٤] ، وشهابُ الدّين محمود الحَارميّ — خال السّلطان صلاح الدّين — وقطبُ الدّين ينَال بن حسّان[٥] .

فأرسلَ العَاضِدُ إلى صَلاح الدّين ، وأحضره عنده، وولّاه الوزارة بعد عمّه ، وخلع عليه، ولقّبه بالملك النّاصر، فاستَتَبّتْ أحوالُه ، وبَذل المال ، وتاب عَنْ شُرب الخمر ، وأخذ في الجِدّ والتّشمير في أموره

(١) في ابن الأثير : « فخلع عليه خلع الوزارة ولقب الملك المنصور أمير الجيوش وسار بالخلع إلى دار الوزارة وهي التي كان فيها شاور » .

(٢) في ابن الاثير ١٠١/٩ : « فتوفي يوم السبت الثاني والعشرين من جمادى الآخرة سنة أربع وستين وخمسمائة وكانت ولايته شهرين وخمسة أيام ».

(٣) في ابن الأثير ١٠٢/٩ : « فان جماعة من الامراء النورية الذين كانوا بمصر طلبوا التقدم على العساكر وولاية الوزارة العاضدية بعده منهم عين الدولة الياروقي وقطب الدين ينال وسيف الدين المشطوب الهكاري وشهاب الدين محمود الحارمي وهو خال صلاح الدين وكل واحد من هؤلاء يخطبها وقد جمع أصحابه ليغالب عليها » — انظر مفرج الكروب ١٦٨/١

(٤) في مفرج الكروب : « سيف الدين علي بن أحمد المشطوب ، وكان جده صاحب قلاع الهكارية » — انظر تاريخ الدولة الأتابكية ٢٥٥

(٥) في مفرج الكروب : « قطب الدين خسرو بن التليل وهو ابن أخي ابن أبي الهيجاء الهذباني صاحب اربل » — انظر كذلك الدولة الاتابكية ٢٥٥

كلها ، وكان الفقيهُ عيسى الهكّاري[1] معه ، فميّل الأمراء الّذين كانوا قد طمعوا بالوزارة إلى الانقياد إليه ، فأجابوا سوى عين الدّولة ابن يارُوق ، فإنه امتنع ، وعاد إلى نُور الدّين إلى الشّام .

فاستمرَّ الملكُ الناصر بالدّيار المصريّة وزيرًا ، وهو نائبٌ عن نُورالدّين ، وكان إذا كتب إليه كتاباً يكتب: « الأمير الاسفهسلار ، وكافّة الأمراء بالدّيار المصريّة يَفْعَلُون كذا » . وتكتب العلامة على رأس الكتاب ، ولا يذكر اسمه[2] .

وسَيَّر الملك النّاصر ، وطلب أباه نجم الدّين وأهله ، فَسَيَّرهم نُورُ الدّين إليه مع عسكر ، واجتمع معهم من التُّجّار خلقٌ عظيمٌ ، وذلك في سنة خمسٍ وستّين .

وخاف نُور الدّين عليهم من الفرنج ، فسار في عساكره إلى الكرك[3] فحصره ونصب عليه المجانيق ، فتجمّع الفرنج ، وساروا إليه وتقدّمهم ابن الهنفري ، وابن الدقيق[4] ، فرحل نُورالدّين نحوهما قبل

---

(١) في ابن الأثير ١٠٢/٩ : « وكان الفقيه عيسى الهكاري معه فسعى مع المشطوب حتى أماله إليه وقال له إن هذا الأمر لا يصل اليك مع عين الدولة والحارمي وغيرهما » .

(٢) في ابن الاثير : « وثبت قدم صلاح الدين ومع هذا فهو نائب عن نور الدين وكان نور الدين يكاتبه بالأمير الاسفهسلار ويكتب علامته على رأس الكتاب تعظيماً عن أن يكتب اسمه وكان لا يفرده بكتاب بل يكتب الأمير الاسفهسلار صلاح الدين وكافة الأمراء بالديار المصرية يفعلون كذا . . » – وهكذا نجد اتفاق العبارة بين ابن العديم وابن الأثير – انظر حاشية مفرج الكروب ١٧٣/١ حيث يشرح الناشر أمر العلامة والطغراء بوضوح وفائدة عن المقريزي بالخطط ٣٦٧/٣

(٣) في معجم البلدان ٢٦٢/٤ : « الكَرَك : اسم لقلعة حصينة جدًا في طرف الشام من نواحي البلقاء في جبالها بين أيلة وبحر القلزم والبيت المقدس وهي على سن جبل عال تحيط بها أودية إلّا من جهة الربض » – وفي ابن الأثير ١٠٦/٩ : « الكرك وهو من امنع المعاقل على طرف البر » .

(٤) في ابن الأثير : « ابن هنفرى وقريب بن الرقيق ؛ وهما فارسا الفرنج في وقتها »

[١٨٢ ر] أن تلحقهما بقيّة عساكر || الفرنج فرجعا خوفاً منه واجتمعا ببقيّة الفرنج .

وسلك نور الدّين[١] وسط بلادهم ، فنهب وأحرق ما في طريقه إلى أن وصل إلى بلاد الاسلام ، فنزل على عَشترا[٢] على عزم الغزاة ، فأتاه خبرُ الزّلازل الحادثة بالشّام ، فإنّهـا خربَت حلب خراباً شنيعاً ، وخرج أهلُها إلى ظاهرها .

الزلازل

وتواتَرتِ الزّلازل بها أيامًا متعـدّدة ، وكانت في ثاني عشر شوّال من السّنة يوم الاثنين طلوع الشمس ، وَهَلك من النّاس ما يزيدُ على خمسة آلاف نفر ذكر وأنثى ، وكان قـد احترق جامعُ حلب وما يجاورُه من الأسواق قبل ذلك في سنة أربع وستّين وخمسمائة ، فاهتمّ نورُ الدّين في عمارته وإعادته والأسواق التي تليـه إلى ما كانت عليه . وقيل : إنّ الاسماعيليّة أحرقوه .

وبلغه أيضاً وفاةُ مجد الدّين ابن دايته ، أخيه من الرضاعة بحلب ، في شهر رمضان سنة خمس وستّين وخمسمائة ، فتوجّـه نور الدّين إلى حلب ، فوجد أسوارها وأسواقها[٣] قد تهدّمت .

— وفي الدولة الأتابكية ٢٦١ : « ابن الهنفري وقريب بن الدقيق » ويترجمها المستشرق وهو يحاول رد الاسماء إلى أصلها :

«Fils de Honfroi de Toron, et Karib, fils d'Ed-dakik (Serait - ce le nom de Guermond de Péquigny) »

(١) العبارة التالية قريبة مما عند ابن الأثير ١٠٦/٩

(٢) في معجم البلدان ٦٧٩/٣ : « عَشتَرَا : بفتح أوله وسكون ثانيه وفتح التاء المثناة من فوق ثم الراء والقصر — موضع بحوران من أعمال دمشق » .

(٣) في ابن الأثير ١٠٦/٩ : « ثم أتى مدينة حلب فرأى فيها من آثار الزلزلة ما ليس بغيرها من البلاد فانها كانت قد أتت عليها » — انظر مفرج الكروب ١٨٥/١

ونزل على ظاهر حلب حتّى أحكم عمـارة جميع أسوارها ، وبنى الفَصيل الدائر على البلد ، وهو سورٌ ثانٍ .

ورمّم نوّابُه ما خرب من الحُصُون والقلاع مثل بعلبك، وحمص وحماة ، وبارين ، وغيرها .

وفاة قطب الدين

وخرجَ نورُ الـدّين إلى تلّ باشر ، فوصله الخبرُ بوفاة أخيه قطب الدّين بالموصل في ذي الحجّـة[1] ، وكان أوصى بالمُلك لابنه الأكبر عمـاد الدّين زنـكي ، وكان طوع عمّه نور الدّين لـكثرة مقامه عنده ، ولأنّه زوجُ ابنته .

ثمّ إنّ فخرالدّين عبد المسيح[2] وخاتون || ابنة تمرتاش بن إيلغازي [١٨٢ظ] زوجة قطب الدّين ، وهي والدة سيف الدّين غازي بن قطب الدّين اتفقا على صَرف قطب الدّين عن وصيّته لابنه عماد الدّين إلى سيف الدّين غازي .

فَرحَل عمادُ الدّين[3] إلى عمّه نور الدّين مستنصرًا به ليعينـه على أخذ المُلك له ؛ فسار نُور الدّين في سنة ستّ وستّين وخمسمائة ، وعبر الفُرات عِند قلعة جَعْبر في مستهلّ المحرّم ، وقصد الرّقّة فحصرهـا

(١) في ابن الأثير : « في هذه السنة في ذي الحجة مات قطب الدين مودود بن زنكي بن أقسنقر صاحب الموصل بالموصل ، وكان مرضه حمّى حادة ، ولما اشتد مرضه وصى بالملك بعده لابنه الأكبر عماد الدين زنكي وعدل عنه إلى ابنه الآخر سيف الدين غازي » — انظر سيرة قطب الدين في مفرج الكروب ١٨٩/١

(٢) في ابن الأثير ١٠٧/٩ : « فاتفق فخر الدين وخاتون ابنة حسام الدين تمرتاش بن ايلغازي وهي والدة سيف الدين على صرف الملك عن عماد الدين إلى سيف الدين » .

(٣) في ابن الأثير ١٠٧/٩ : « فدخل عماد الدين إلى عمّه نور الدين مستنصرًا به ليعينه على أخذ الملك لنفسه » .

وأخذها ؛ ثم سار في(١) الخابور ، فملكه جميعه ، وملك نصيبين ، وأقام بها يجمع العساكرَ ، وكانت أكثر عساكره في الشّام في مقابلة الفرنج.

فلمّا اجتمعت العساكرُ سار إلى سنجار فحصرها ، ونصب عليها المجانيق ، وفتحها فسلّمها إلى عمـاد الدّين زنكي ابن أخيه ؛ وجاءته كُتُب الأمراء بالَموصل يبذلون له الطّاعة ، ويحثّونـه على الوصول إليهم ، فسار إلى الموصل(٢) .

وكان سيفُ الدّين غازي وعبدالمسيح قد سَيّرا عزّ الدّين مسعود ابن قطب الدّين إلى أتابك شمس الدّين إيلدكز صاحب أذربيجان وأصبهان ، يستنجدانه على نُور الدّين ، فأرسل إيلدكز إليه رسولاً يَنهاه عن التعرُّض للمَوْصل فقَال نور الدين : « قلْ لصَاحِبك أنا أصلح لِأولاد أخي منك ، فلا تَدخُلْ بيننـا ؛ وعند الفراغ من إصلاح بلادهم يكونُ لي معكَ الحديث على باب هَمَذان ، فانك قد ملكتَ هـذه المملكةَ العظيمةَ ، وأهملتَ الثُّغور حتّى غلب الكرج عليها ؛ وقد بُليتُ أنا ولي مثل رُبع بلادك بالفرنج ، فأخذتُ مُعْظَمَ بلادهم ، وأسرتُ ملوكهم(٣) » .

[١٨٣ و] وأقام على الموصل فعزم || مَنْ بها مِنَ الأمراء على مُجـاهرة عبد المسيح بالعصيان ، وتسليم البلد إلى نُور الدّين ، فعلم بذلـك ،

(١) في ابن الأثير : « ثم سار إلى الخابور فملكه جميعه وملك نصيبين وأقام بها فجمع العساكر » .

(٢) العبارة السابقة مطابقة لما عند ابن الأثير ١٠٩/٩

(٣) هذه العبارة السابقة منقولة عن ابن الاثير ١٠٩/٩ — انظر مفرج الكروب ١٩٢/١ .

فأرسل إلى نُور الدّين في تسليم البلد على أن يقرّه بيد سيف الدّين ؛ وطلب الأمان لِنفسه[1] وعلى أن يمضي صُحبته إلى الشّام ، ويقطعه ما يرضيه فتسلّم البلد[2] ، وأبقى فيه سيفَ الدّين غازي .

وعاد إلى حلب فدخلها في شعبان من هذه السَّنة .

الخطبة العباسية

وكتب إلى الملك النَّاصر صلاح الدّين يأمرُهُ بقطع الُخطبة العاضِديّة وإقامة الخطبة المُستَضيئيّة العَبّاسيّة ، فامتنع واعتذر بالخوف من قيام أهل الدّيار المصرية عليه[3] ، وكان يُؤثر أن لا يقطع الُخطبة للمصريّين في ذلك الوقت ، خوفاً من نُور الدّين أن يدخل إلى الدّيار المصريّة فيأخذها منه ، وإذا كان العَاضِدُ معه امتنعَ وأهل مصر معه ، فلم يَقبل عذرَهُ نُور الدّين ، وألحّ عليه[4] .

وكانَ العاضِدُ مريضاً فخطب للمستضيء[5] في الديار المصريّة . وتُوفّي العَاضِدُ ، ولم يعلم بِقَطع الُخطبة . وقيل : إنّه علم قبل موته ؛ وكان ذلك في سنة سبع وستّين وخمسمائة .

---

(١) العبارة السابقة منقولة عن ابن الأثير ٩/١١٠

(٢) في ابن الأثير : « فتسلَّم البلد ثالث عشر جمادى الأولى من هذه السنة ودخل القلعة من باب السرّ » .

(٣) العبارة السابقة كما في ابن الاثير ٩/١١١ ، وباقي العبارة قريب مما في الكامل .

(٤) في ابن الأثير : « وألح عليه بقطع خطبته وألزمه إلزاماً لا فسحة له في مخالفته ، وكان على الحقيقة نائب نور الدين » .

(٥) هو المستضيء بأمر الله الحسن أبو محمد بن المستنجد بالله ، ولد سنة ست وثلاثين وخمسمائة ، وأمه أم ولد أرمنية اسمها غضة ، بويع بالخلافة يوم موت أبيه ، وتوفي سنة ٥٧٥هـ — انظر تاريخ الخلفاء للسيوطي ط . المنيرية ، ص ٢٩٤ وما يليها — وارجع كذلك إلى مفرج الكروب ١/١٩٥ ، ٢٠٣

وفي هذه السّنة تتبّع نُور الدّين[1] رسوم المظالم والمؤن في جميع البلاد الّتي بيده، فأزالها وعفى رسومها ومحا آثار المنكرات والفواحش، بعدما كان أطلق مِنْ ذلك في تواريخ متقدّمة، وكان مبلغ ما أطلقه أوّلًا وثانياً خمسمائة ألف وستّة وثمانين ألفًا وأربعمائة وستّين دينارًا.

وكان رأى وزيرهُ مُوفّق الدّين خالد بن القَيْسَراني في المَنام كأنّهُ يُفصّل ثياب [١٨٣ظ] || نُور الدين، فَفَسّر ذلك عليه، ففكّر في ذلك ولم يردّ عليه جواباً، فخجل وزيرهُ وبَقي أيّاماً واستدعاه، وقال: « تعال يا خالد، اغسل ثيابي »؛ وأمرَهُ فكتب توقيعاً بازالة ما ذكرناه.

أخبار الناصر

وسارَ المَلِكُ النّاصِرُ[2] من مصر غازياً، فنازل حصن الشّوبك[3] وحصره، فطلبوا الأمان واستمهلوه عشرة أيام، فلمّا سمع نُور الدّين بذلك سار عن دمشق، فدخل بلاد الفرنج من الجهة الأخرى، فقيل للملك الناصر: « إنْ دَخَل نُور الدين مِنْ جانب وأنتَ مِنْ هذا الجانب مَلَكَ بلادَ الفرنج، فلا يبقى لك مَعَهُ بديار مصر مقام، وإنْ جاءَ وانتَ هُهُنا فلا بُدّ لك من الاجتماع به،

(١) في مفرج الكروب ١/١٩٦: « وأطلق نور الدين المكوس بالموصل كلها وكذلك فعل في سائر ما فتحه من البلاد ».

(٢) في ابن الأثير ٩/١١٢: « ان صلاح الدين يوسف بن أيوب سار عن مصر في صفر من هذه السنة إلى بلاد الفرنج غازياً ونازل حصن الشوبك وبينه وبين الكرك يوم وحصره وضيّق على من به من الفرنج ».

(٣) في معجم البلدان لياقوت ٣/٣٣٢: « الشَّوْبَكُ: بالفتح ثم السكون ثم الباء الموحدة المفتوحة وآخره كاف إن كان عربياً فهو مرتجل – قلعة حصينة في أطراف الشام بين عمّان وأيلة بالقلزم قرب الكرك ».

ويبقى هو المتحكّم فيك بما شاء ؛ والمصلحةُ الرّجوع إلى مصر[1] » .

فرحل عن الشّوبك إلى مصر ، وكتب إلى نُور الدين يعتذرُ باختلال أمور الدّيار المصريّة وأنّ شيعتها[2] عزموا على الوثوب بها ، فلم يَقْبَلْ نُور الدين عذرَهُ ، وتغيّر عليه وعزم على الدّخول إلى الديار المصريّة[3] .

سياسة أيوب

فسمع الملكُ النّاصر ، فجمع أباه نجم الدين وخاله شهابَ الدين، وتقيَّ الدين عمر ، وغيرهم من الأمراء ، وأعلمهم ما بلغَهُ مِنْ حركة نُور الدين واستشارهم ، فلم يجبه أحدٌ ، فقام تقيُّ الدين[4] ، وقال: « إذا جاءنا قاتلناهُ » ووافقهُ غيره من أهله، فشتمهم نجمُ الدين أيّوب والدُ المَلِكِ النّاصِرِ ، وأقعد تقيَّ الدين ، وقال للملكِ النّاصر : « أنا أبوك ، وهذا شهابُ الدين خالُك ، ونحنُ أكثر محبّةً لك مِنْ جميع مَنْ ترى ؛ وَوَاللهِ لو رأيتُ أنا وَهذا خالك نورَ الدين لم يمكننا[5] إلّا أن نُقبِّل الأرضَ بَيْنَ يديه، ولو أمرَنا أنْ نَضْرِبَ عُنقك بالسّيف لفعلنا . || فإذا كُنّا نحنُ هكذا ، فما ظنُّك بغيرنا ، وكلّ مَنْ [١٨٤و] نراه عندك[6] ، فهو كذلك، وهذه البلادُ لِنُور الدين ، ونحن مماليكه

(١) ارجع إلى عبارة ابن الأثير ١١٣/٩

(٢) في ابن الأثير : « لأمور بلغته عن بعض شيعة العلويين وأنهم عازمون على الوثوب بها » .

(٣) في ابن الأثير : « وعزم على قصد مصر واخراجه عنها » .

(٤) في ابن الأثير : « فقام تقي الدين عمر ابن أخي صلاح الدين فقال : إذا جاءنا قاتلناه ومنعناه عن البلاد ووافقه غيره من أهلهم » .

(٥) في ابن الأثير ١١٣/٩ : « وهذا خالك نور الدين لم نمكث إلّا أن نقبل بين يديه »
— انظر تفصيل الحديث في هذه الجلسة كتاب السلوك للمقريزي ٤٩/١

(٦) في ابن الأثير ١١٣/٩ : « وكلّ من تراه عندك من الامراء لو رأى نور الدين

ونُوّابُه فيها ، فإنْ أراد عزْلكَ سَمِعْنا وأطَعْنا ، والرَّأيُ أنْ تكتبَ كتابًا مع نَجَّابٍ وتقول له : بَلَغَني أنَّك تريدُ الحركة لأجل البلاد ، ولا حاجة إلى ذلك بَل يُرْسِلُ المَوْلى نجّابًا يَضَعُ في رَقَبتي مِنديلًا ، ويأخذُني إليك[1] » . وتَفَرَّقوا .

فلَمَّا خلا نجمُ الدّين أيُّوب بالمَلِكِ النَّاصِرُ قالَ لَهُ : « كَيْفَ فَعَلْتَ مِثْلَ هذا ؟ أمَا تَعْلَمُ أنَّ نُور الدّين إذا سَمِعَ عَزْمَنا على مَنْعِهِ ومُحاربتِهِ جَعَلَنا أهَمَّ الوجوه إليهِ ، وحينئذٍ لا نَقْوى بِهِ[2] ، وأمّا إذا بَلَغَهُ طاعتُنا له تَرَكنا واشتغلَ بغيرِنا ، والأقْدارُ بيدِ الله ؛ وَوَالله لَوْ أراد نُور الدّين قَصَبَةً مِنْ قَصَبِ السُّكَّرِ لقاتلْتُه عليها حتّى أمنعه أو أقتل » . ففعل ما أشار به عليه والده ، فترك نُور الدين قصده ، واشتغل بغيره[3] .

وخَرَجَ نُور الدين بالعساكر ، ففتح حصن عَرقة[4] ، وصافيتا ، وعريمة ، ونهب وخرّب بلاد الفرنج ثم هادنهم .

وحده لم يتجاسروا على الثبات على سروجهم وهذه البلاد له ونحن مماليكه » وبقية العبارة مشابهة في نصها لابن العديم — انظر مفرج الكروب ١/٢٢٢

(١) في ابن الأثير : « ويأخذني إليك وما ههنا من يمتنع وقام الأمراء وغيرهم وتفرقوا على هذا » — انظر السلوك للمقريزي ١/٤٩

(٢) في ابن الأثير : « لا نقوى عليه . وأما الآن إذا بلغه ما جرى وطاعتنا له تركنا واشتغل بغيرنا والأقدار تعمل عملها . » — انظر الروضتين ١/٢٥٤

(٣) في ابن الأثير ٩/١١٣ : « واشتغل بغيره ، فكان الامر كما ظنه أيوب فتوفي نور الدين ولم يقصده ، وملك صلاح الدين البلاد ، وكان هذا من أحسن الآراء وأجودها » — ومثل ذلك في مفرج الكروب ١/٢٢٣

(٤) في ابن الأثير : « وحصر هو حصن عرقة وخرب ربضه ، وأرسل طائفة من العسكر الى حصن صافيتا وعريمة فأخذها عنوة ونهب وضرب وغنم المسلمون غنائم كثيرة وعادوا إليه وهو بعرقة » .

ثمّ إن الفرنج[١] ساروا إلى بلد حوران في سنة ثمان وستّين للغارة، فسار نُور الدين إليهم، فنزل عَشْتَرَا، وسَيَّر عسكره إلى أعمال طبريّة، فغنموا غنائمَ عظيمة، وعادوا.

ملك الارمن

وكانَ نُور الدين قد اسْتَخْدَم مليح بن لاون[٢]، ملك الأرْمن، وأقْطَعَهُ أقطاعاً من بلاد الإسلام، وحضر معه حُروباً متعدّدة فأنجـدَهُ في هذه السّنة[٣] بطائفةٍ مِنْ عَسْكَرِهِ، فدخل مليح إلى أذَنَة وطرسوس والمَصِّيصة، وفتحها من يَد مَلِـك الرُّوم، وأرسل إلى نُور الدين كثيرًا من غَنائمهم وثلاثين أسيرًا من أعيانهم[٤].

وقَصَد قلج أرسلان[٥] || ذَا النُّون بن الدَّانشمند صاحب ملطية [١٨٤ظ] وسيواس[٦]، وأخذ بلادَه، وأخرجه عنها طريدًا، فاستجار بنور الدين، ووصل إليه فأكرمه، وسَيَّر إلى قلج أرسلان يشفع إليه في إعادة بلاده إليه، فلم يفعل؛ فسار نُور الدين إليه في هذه السَّنة فابتدأ بكيسوم[٧]،

(١) انظر تفصيل ذلك في ابن الأثير ٩/١١٨

(٢) في ابن الأثير ٩/١١٩ : « في هذه السنة – ٥٦٨ هـ – في جُمادى الأولى هزم مليح بن ليون الأرمني صاحب بلاد الدروب المجاورة لحلب عسكر الروم من القسطنطينية »

(٣) ذكر ابن الأثير في سبب انجاده : « قال : أستعين به على قتال أهل ملته وأريح طائفة من عسكري تكون بازائه لتمنعه من الغارة على البلاد المجاورة له، وكان مليح أيضًا يتقوى بنور الدين على من يجاوره من الأرمن والروم . وكانت مدينة أذنة والمصيصة وطرسوس بيد ملك الروم صاحب القسطنطينية فأخذها مليح منهم ».

(٤) في ابن الأثير : « فسير نور الدين بعض ذلك إلى الخليفة المستضيء بأمر الله وكتب يعتد بهذا الفتح لأن بعض جنده فعلوه ».

(٥) هو عز الدين قلج ارسلان بن مسعود بن قلج ارسلان بن سليمان بن قطلمش السلجوقي صاحب قونية – انظر مفرج الكروب ١/٢٣٣

(٦) في ابن الأثير ٩/١٢٠ : « صاحب ملطية وسيواس واقصرا وغيرها » .

(٧) في ابن الأثير « بكيسون » وكذلك في مفرج الكروب وصحيحها ما جاء عند

وبهسنى[1] ، ومَرْعَش ، ومرزبان ، وما يليها . وكان ملكه مرعش ، في أوائل ذي القَعدة ، والباقي بعدها .

وسَيَّر طائفةً مِنْ عَسكرِهِ إلى سيواس ، فملكها ؛ وراسله قلج أرسلان في الصُّلح ، وأتاه من أخبار الفرنج ما أزعجه فصالحه ، وأعطى سيواس ذا النّون ، وجعل معه قِطعةً مِنْ عسكره ؛ وَشرط على قلج أرسلان إنجادَهُ بعساكره إلى الغزاة[2] .

قتال الفرنج

واتّفق نُور الدين وصلاح الدين على أن يصل كلٌّ واحدٍ منهما من جهته ، وتواعدا على يوم معلوم على أن يتّفقا على قتال الفرنج ، وأيّهما سبق أقام للآخر منتظرًا ، إلى أن يقدم عليه ، فَسَبق صلاحُ الدين ووصل إلى الكرك وحصره[3] .

وسارَ نور الدين فوصل إلى الرَّقيم[4] — وبينه وبين الكرك مَرْحَلَتان — فَخَافَ صلاحُ الدين ، واتّفق رأْيه ورأْيُ أهله على العَوْد إلى مصرَ لِعِلْمِهِم بأنّهما متى اجتمعا كان نُور الدين قادرًا على أخذ مصر منه .

ابن العديم — وكيسوم : قرية مستطيلة من أعمال سميساط ، وفيها حصن كبير على تلعة — انظر معجم البلدان ٣٣٣/٤

(١) في معجم البلدان لياقوت ٧٧٠/١ : « جسنّا : بفتحتين وسكون السّين ونون وألف — قلعة حصينة عجيبة بقرب مرعش وسميساط ورستاقها هو رستاق كَيْسُوم » — وفي ابن الأثير : « جهنى » وهو تصحيف

(٢) انظر ابن الأثير ١٢٠/٩ ، ومفرج الكروب ٢٣٣/١

(٣) العبارة السابقة مأخوذة عن ابن الأثير ١٢١/٩

(٤) الرقيم : بقرب البلقاء من أطراف الشام — انظر معجم البلدان لياقوت كذلك ٨٠٤/٢ .

فعاد إلى مصر ، وأرسلَ الفقيهَ عيسى[١] إلى نُور الدين يعتذر عن رَحيله بأنّه كان استخلفَ أباه نجمَ الدين أيّوب على مصر ، وأنّه بلغه أنّه مريضٌ ، ويخاف أنْ يحدث به حادثُ الموت فتخرج البلادُ عن أيديهم ، ولم يكن مريضاً ، وأرسل | مع الفَقيه عيسى من التُّحف [١٨٥ و] والهدايا ما يجلّ عن الوَصف ، فجاء إليه فأعلمه برسالة صَلاح الدين ، فعظم ذلك عليه[٢] ولم يظهر التأثّر بذلك ، وقال : « حفظ مصر أهمّ عندنا » .

موت أيوب

واتّفق أنّ صلاحَ الدين وصل إلى مصر فوجد أباه قد سَقَطَ عن الفَرس ، وبقي أيّامًا ومات ، وهو غائبٌ عنه ، في السّابع والعشرين من ذي الحجّة من سنة ثمان وستّين وخمسمائة[٣] .

وخاف صلاحُ الدين من نورالدين أن يدخلَ مصر فيأخذها منهم ، فشرع في تحصيل مملكةٍ أخرى[٤] لتكون عدّة له بحيث أنّ نُور الدين إنْ غَلَبه إلى الديار المصريّة سارَ هُو وأهله إليها وأقامُوا بها .

فَسَيَّر أخاهُ الأكبرَ تُورَانْشَاه بإذنِ نُور الدين له في ذلك ، وسَيّرهُ

(١) في ابن الأثير ٩/١٢١ : « فلما عاد أرسل الفقيه عيسى إلى نور الدين . . . » وبقية العبارة شبيهة بما عند ابن العديم .

(٢) في ابن الأثير ٩/١٢١ : « فعظم عليه وعلم المراد من العود إلّا أنه لم يظهر للرسول تأثرًا بل قال له حفظ مصر أهم عندنا من غيرها » .

(٣) توفي الملك الأفضل نجم الدين أيوب والد الملك الناصر صلاح الدين في مصر يوم الثلاثاء لثلاث بقين من ذي الحجة ، كما يقول مفرج الكروب ١/٢٣٠ – انظر ابن الأثير : « ومات في السابع والعشرين من ذي الحجة » وعنه نقل ابن العديم وأخذ بروايته – انظر سيرة صلاح الدين لابن شداد ٣٦

(٤) في ابن الأثير ٩/١٢٢ : « فشرعوا في تحصيل مملكة يقصدونها ويتملكونها تكون عدة لهم ان اخرجهم نور الدين من مصر ساروا إليها وأقاموا بها » .

قاصدًا عَبْدَ النبيّ بن مهديّ[١] ، وكان دَعا إلى نفسه ، وقطَع خُطبَة بني العبّاس ، فمضى إليها ، وفتح زَبيد[٢] وعَدن[٣] ومُعظَم بلاد اليَمن .

موت نور الدين

وصَلاحُ الدين على ما كان عليه من الطّاعة في الظّاهر لِنور الدين إلى أن اتّفق أنْ مَرِضَ نُور الدين بِعلّة الخَوانيق[٤] بدمشق ، وتُوفّي بِهَا يَوْمَ الأربعاء حادي عَشر شوّال من سنة تسع وستّين وخمسمائة ، وكانَ قَدْ شَرَع في التّأهّب للدخول إلى الديار المصريّة وختن ولده الملك الصّالح اسماعيل بدمشق[٥] ، في خامس شوّال ، وأخرج صَدَقات كثيرة وكسوات للأيتام الّذين خَتَنهم معه[٦] .

واتّسع مُلكهُ بحيثُ خُطِبَ له بالحَرَمَيْن الشّريفَين وبلاد اليَمن

(١) في ابن الأثير : « فسيّروا شمس الدولة نورانشاه بن أيوب وهو أخو صلاح الدين الأكبر إلى بلد النوبة ، فكان ما ذكرناه ، فلما عاد إلى مصر استأذنوا نور الدين في أن يسير إلى اليمن لقصد عبد النبي صاحب زبيد لأجل قطع الخطبة العباسية فاذن في ذلك » – انظر مفرج الكروب ٢٣٨/١

(٢) في معجم البلدان لياقوت ٩١٥/٢ : « زَبيد بفتح اوله وكسر ثانيه ثم ياء مثناة من تحت – اسم مدينة يُقال لها الحُصَيْب ثم غلب عليها اسم الوادي فلا تعرف إلّا به ، وهي مدينة مشهورة باليمن أحدثت أيام المأمون ، وبازائها ساحل غلافقة وساحل المندب » .

(٣) عَدَن : مدينة مشهورة على ساحل بحر الهند من ناحية اليمن – انظر معجم البلدان لياقوت ٦٣١/٣ – وأما ابن الأثير ١٢٢/٩ : « عدن : وهي على البحر ولها مرسى عظيم وهي فرضة الهند والزنج والحبشة وعمان وكرمان وكيش وفارس وغير ذلك ، وهي من جهة البر من أمنع البلاد وأحصنها » .

(٤) في ابن الأثير ١٢٥/٩ : « وقد تمكنت الخوانيق منه وقارب الهلاك فلا يكاد يسمع صوته » – والخوانيق : هي الذبحة الصدرية كما يسميها الطبّ الحديث .

(٥) انظر في حفلات الختان مفرج الكروب ٢٦٠/١ وما يليها .

(٦) في ابن الأثير ١٢٦/٩ : « ودفن بقلعة دمشق ونقل منها إلى المدرسة التي أنشأها بدمشق عند سوق الخواصين » – ومثل هذا القول جاء في مفرج الكروب ٢٦٣/١

التّي افتتحها شمسُ || الملوك ، وانعمر بلد حلب في زَمانِهِ لِعَدْله وحُسْن [١٨٥ظ] سيرته[١] حتّى لم تبقَ مزرعةٌ في جبلٍ ولا وَادٍ إلّا وفيها سكّانٌ ولها مغَلٌّ .

وَصار على ظاهر حلب من العمارة والمساكن أكثر من المدينة ، مثل الحَاضِر السُّلَيْمَاني[٢] ، وخارجَ باب الأربعين[٣] ، وغير ذلك من الأبواب جميعها .

وارتفعت الأسْعَار مَعَ كَثْرَة المغلّات لكثرة العالم ، حتّى كانت الأسْعَارُ في السَّنة التّي ماتَ فيها بَعْدَ ذلك الرّخص في السّنَة التي مات فيها والده[٤] : الحنطة مكّوك ونصف بدينار ، والشّعير مكُّوكان ونصف بدينار ، والعَدَس مكّوك ومصع بدينار ، والجلبّان كذلك ، والقُطن ستّةُ أرطالٍ جَوْز بدينار .

وَٱللهُ تَعالى يَرْحَمُهُ

(١) انظر تفصيل الامر في سيرته وعدله عند ابن الأثير ١٢٥/٩ ؛ ومفرج الكروب ١٦٨/١ وما يليها من صفحات ؛ والدولة الأتابكية ٢٩٢ ، وتاريخ أبي الفداء ٥٨/٣ ، وتاريخ ابن الوردي ٨٣/٢ ، والمنتظم لابن الجوزي ٢٤٩/١٠ ، والنجوم الزاهرة ٧١/٦ ، والروضتين ٢٢٨/١ ، وسيرة صلاح الدين لابن شدّاد ٣٧

(٢) الحاضر السليماني : قصر بناه سليمان بن عبد الملك بالحاضر أيام ولايته وكان قد تأنق في بنائه وزخرفته واليه ينسب – كما في الدر المنتخب لابن الشحنة ٥٨

(٣) باب الأربعين : من أبواب حلب القديمة ، اختلف في تسميته ، وكان قد خرب ولم يبق منه في عهد ابن الشحنة بناء ولا حجارة – انظر الدر المنتخب ٤٢

(٤) انظر الأسعار في عهد عماد الدين زنكي ، آخر القسم السابق ، ص ٢٨٤ ، لتوازن بينها وبين ما يثبت ابن العديم هنا .

تمّ الجزء الثاني
من زبدة الحلب

فهارس الكتاب

فهرس الأعلام

جمعنا في هذا الفهرس أعلام الرجال والقبائل والطوائف التي جاءت في متن «الزبدة»، أو وردت في الحواشي التي علقناها وأضفناها توضيحاً وبياناً. وقد رتبنا هذه الأعلام بالكنى أو بالألقاب أو الأسماء والأنساب كما اشتهرت. واعتبرنا كلمة ابن وأب وأم أساسية في صلب الاسم سواء أكانت في بدئه أم في وسطه كأنّ الاسم مركب.

وذكرنا في هذا الفهرس عناوين الكتب بين قوسين إلى جانب أسماء المؤلفين، ووضعنا نجمة (*) إلى يمين السطر نحيل بها القارئ إلى عنوان الكتاب في «فهرس الكتب والمراجع» فقد دللنا على المصادر في الحواشي حيناً باسم الكتاب وحيناً باسم مؤلفه بغية الإيجاز والاختصار. واكتفينا بذكر أرقام الصفحات، وأهملنا ذكر السطر منها، وإنما أشرنا بأرقام مختلفة فجعلنا الأرقام الدقيقة للدلالة على وجود الاسم في الحواشي تمييزاً لها عما جاء في المتن من كلام ابن العديم.

ا

ب

ت

ث

ج

ذ

ر

ز

غ

ف

فهرس البلدان والمواضع

كثرت أسماء المواضع والبلدان في تاريخ حلب لابن العديم حتى لكأنه جعله في جغرافية حلب وأطرافها ، متبعاً في ذلك خطة كتابه الكبير . وقد استعنا في تحديد البلدان ووصف المواضع بياقوت الحموي ، وهو صديق ابن العديم ومعاصره ، فهو أحسن من يعرّف الأماكن لعصره .

وقد جعلنا هذا الفهرس لترتيب أسماء هذه الأماكن ما جاء منها في متن ابن العديم أو ما ورد في الحواشي التي علقناها . وأشرنا في هذا الفهرس كذلك بأرقام دقيقة لما وقع في الحاشية تمييزاً لها عما في المتن .

ا

ذ

ر

ز

س

فهرس الكتب والمراجع

وضعنا في ذيل مقدمتنا جدولاً لبيان الرموز المستعملة والاختصارات الواردة في الطبعة ؛ وسنورد في هذا الفهرس العناوين الموجزة لأسماء الكتب والمراجع ، وما ورد منها على لسان ابن العديم او ما علقناه في الحواشي .

وقد ذكرنا إلى جانب هذه الكتب أسماء مؤلفيها ، ليسهل الرجوع معها إلى **فهرس الأعلام** فقد ألمعنا إلى المصادر حيناً بأسمائهم وحيناً بعناوين الكتب ؛ وحددنا في الفهرس الطبعات التي اعتمدنا عليها بالسنين والبلدان ، وأشرنا إلى ما لم يطبع منها بكلمة « مخطوطة » . وجعلنا الأرقام الدقيقة كذلك لما ذُكر من الكتب في حواشي الطبعة تمييزاً لها عما ذكره ابن العديم في « الزبدة » .

ا

١ — « أسامة بن منقذ ، صفحة من تاريخ الحروب الصليبية » — لمحمد أحمد حسين (القاهرة ١٩٤٦) ٧٦

٢ — « الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة » — لابن شدّاد (مخطوطة) ٧٨، ١٠٧، ١٠٩، ٢١٤، ٣٤٣، ٣٧٧

٣ — « الأنساب » — للسمعاني (طبعة جيب بلندن) ١٦١

٤ — « الانصاف والتحري في دفع الظلم والتجري عن أبي العلاء المعرّي » — لكمال الدين بن العديم (في كتاب تعريف القدماء بأبي العلاء — مصر ١٩٤٤) ٩٣

ب

٥ — « بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع » — لعلاء الدين الكاشاني (مصر ١٩١٠) ٢٩٥، ٢٩٦

٦ — « بغية الطلب في تاريخ حلب » — لكمال الدين بن العديم (مخطوطة استانبول) ٧٦، ٧٨، ٩٠، ١٠١، ١٠٢، ١٠٣، ١٠٤، ١٠٥، ١١١، ١١٢، ١١٣، ١٢٧، ١٣٨، ١٤١، ١٧١، ١٧٣، ١٧٨، ١٩٠، ٢٢١، ٢٢٣، ٢٢٤، ٢٢٥، ٢٢٦، ٢٢٧، ٢٢٨، ٢٢٩، ٢٣٠، ٢٣١، ٢٣٤، ٢٣٥، ٢٣٧، ٢٤١، ٢٤٣، ٢٤٣، ٢٤٤، ٢٥٥، ٢٧٥، ٢٨٠، ٢٨١، ٢٨٢، ٢٨٣، ٢٨٤، ٢٨٥، ٢٩٤، ٢٩٥

— البلدان = « مختصر كتاب البلدان »

ت

— تاريخ ابن الأثير = « الكامل في التاريخ »

— تاريخ ابن الشحنة = « الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب »

— تاريخ ابن عساكر = « تاريخ دمشق أو التاريخ الكبير »

٧ — « تاريخ ابن الوردي » — (مصر ١٢٨٥ هـ) ٢٤٣، ٢٤١

٨ — « تاريخ أبي شجاع محمد بن عليّ بن الدهان » — (وقع لابن العديم ولم يصل إلينا) ٢٨٢

— تاريخ أبي الفداء = « المختصر في أخبار البشر »

٩ — « تاريخ حرّان » — لابن سلامة الحرّاني (وقع لابن العديم) ٢٨٢

ج

ح

خ

د

٢٣ — « ديوان ابن حيّوس » — تحقيق خليل مردم بك (دمشق ١٩٥١ في جزءين) ٤٠ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٩ ، ٥٣ ، ٧٤

٢٤ — « ديوان ابن سنان أبي محمد الخفاجي » — (مخطوطة) ١٥ ، ١٨

ذ

٢٥ — « ذيل تاريخ دمشق » — لابن القلانسي (طبعة آمدروز في بيروت ١٩٠٨) ٩ ، ١٣ ، ٢٣ ، ٣٦ ، ٣١ ، ٤٥ ، ٧٣

٢٦ — « الذيل على طبقات الحنابلة » — لابن رجب البغدادي (حققه هنري لاووست وسامي الدهان ، ونشر الجزء الأول بدمشق ١٩٥١) ١٧

ر

٢٧ — « الروضتين في أخبار الدولتين » — تأليف شهاب الدين أبي شامة المقدسي (ط. مصر ١٢٨٧) ٢٨٥ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩٣ ، ٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣٠٣ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣٣٠ ، ٣٣٦ ، ٣٣٦ ، ٣٤١

ز

٢٨ — « زبدة الحلب من تاريخ حلب » — لكمال الدين بن العديم (تحقيق سامي الدهان ، الجزء الأول ، دمشق ١٩٥١) ٩ ، ١٠ ، ١١ ، ١٣ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٦ ، ١٩ ، ٣١ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٦ ، ٣٣ ، ٤٣ ، ٤٧ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٦ ، ٦١ ، ٦٣ ، ٦٦ ، ٦٨ ، ٧٠ ، ٨٦ ، ٩٠ ، ١٠١ ، ١٠٣ ، ١٠٥ ، ١١٠ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ، ٢١٠ ، ٢٣٣ ، ٢٣٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٤٤ ، ٢٥٤ ، ٢٦٣ ، ٢٦٦ ، ٢٨١ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤ ، ٢٨٦ ، ٢٩٤ ، ٣٠٣

٢٩ — « الزبد والضرب في تاريخ حلب » — لابن الحنبلي (مخطوطة) ٦٩ ، ٩٣ ، ٢١٠ ، ٢٩٦ ، ٣١٠

س

٣٠ — « السلوك لمعرفة دول الملوك » — لتقي الدين أحمد المقريزي (القاهرة ١٩٣٦) ٢٣٥ ، ٢٣٦

٣١ — « سوريا الشمالية في عصر الصليبيين » — كلود كاهن (بالفرنسية في باريس ١٩٤٠) ٢٩١

٣٢ – « سوريا في عهد المماليك » – غودفروا ديمومبين (بالفرنسية في باريس ١٩٢٣) ٣٠٦
٣٣ – « سيرة صلاح الدين الأيوبيّ » – لبهاء الدين بن شدّاد (مصر ١٣١٧) ٣٣٩ ، ٣٤١

ش

٣٤ – « شذرات الذهب في أخبار من ذهب » – لعبد الحيّ بن العماد الحنبليّ (مصر ١٩٣١) ٣٥

ص

٣٥ – « صبح الأعشى في صناعة الانشا » – للقلقشندي (مصر ١٩١٣ – ١٩١٨) ٣٤

ط

– طبقات الحنابلة = « الذيل على طبقات الحنابلة »
– طبقات الحنفية = « الجواهر المضيّة في طبقات الحنفيّة »

ف

٣٦ – « فوات الوفيات » – لابن شاكر الكتبيّ (مصر ١٢٩٩) ٣٦ ، ٣٩ ، ٤٠

ق

٣٧ – « قاموس ما أغفلته القواميس العربية » – لدوزي (بالفرنسية في باريس ١٩٢٧) ١١ ، ٣٥ ، ٣٨ ، ٣٠٠ ، ٣٣٩ ، ٣١٣

ك

٣٨ – « الكامل في التاريخ » – لابن الأثير (مصر ١٣٤٨ – ١٣٥٣) ١٧ ، ١٨ ، ٣٠ ، ٣٣ ، ٣٥ ، ٣ ، ٣٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣٥ ، ٤١ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٢٨٩ ، ٢٩٩ ، ٣١١ ، ٣١٣ ، ٣١٥ ، ٣٢٣
٣٩ – « كنوز الذهب في تاريخ حلب » – لسبط ابن العجمي (مخطوطة) ٢٩٤ ، ٢٩٥

ل

٤٠ – « اللباب في تهذيب الأنساب » – لابن الأثير (مصر ١٣٥٧) ١٦١
٤١ – « لواء حلب » – لهارتمان (بالألمانية ، سنة ١٨٩٥) ١٦

م

٤٢ – « المحيط الكبير » – لرضي الدين السرخسي ، ٢٩٥

٤٣ – « مختصر كتاب البلدان » – لابن الفقيه الهمذاني (ليدن ١٣٠٢/١٨٨٥) ٢٤

٤٤ – « المختصر في أخبار البشر » – لأبي الفداء (القسطنطينية ١٢٨٦) ٢٨٩ ، ٢٤١

٤٥ – « مرآة الزمان في تاريخ الأعيان » – لسبط ابن الجوزي (حيدر آباد الدكن ١٣٧٠/١٩٥١) ٣٦ ، ٣١ ، ١٥٠ ، ٣١١ ، ٣٢٦ ، ٣٤٨ ، ٣٤٩ ، ٣٨٩

٤٦ – « مسالك الممالك » – لأبي اسحق الاصطخري (ليدن ١٩٢٧) ٣٥

٤٧ – « معجم الألفاظ الزراعية » – للأمير مصطفى الشهابي (دمشق ١٩٣٤) ٣٢٣

٤٨ – « معجم البلدان » – لياقوت الحموي (طبعة وستنفلد في ليبتسيك ١٢٧٨/١٨٦٦) ١٠ ، ١٣ ، ١٦ ، ٣٠ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٩ ، ٥٤ ، ٦٣ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٧٦ ، ٧٨ ، ٨٦ ، ٩٠ ، ٩١ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ١٠٠ ، ١٠٣ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١٣٠ ، ١٢٥ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٣ ، ١٣٩ ، ١٤١ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٨ ، ١٧٦ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ١٩٨ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣١١ ، ٣١٤ ، ٣١٦ ، ٣١٨ ، ٣٢٩ ، ٣٣١ ، ٣٣٣ ، ٣٣٤ ، ٣٤٩ ، ٣٥٠ ، ٣٥٤ ، ٣٥٩ ، ٣٦٣ ، ٣٦٨ ، ٣٦٩ ، ٣٧١ ، ٣٧٣ ، ٣٧٤ ، ٣٧٦ ، ٣٧٧ ، ٣٩٦ ، ٣٩٧ ، ٣٠٢ ، ٣٠٣ ، ٣٠٤ ، ٣١٦ ، ٣٣٣ ، ٣٣٥ ، ٣٣٩ ، ٣٣٠ ، ٣٣٤ ، ٣٣٨ ، ٣٤٠

٤٩ – « معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواقع » – للبكري (مصر ١٩٤٥–١٩٤٩) ١٠٩

٥٠ – « مفرج الكروب في أخبار بني أيوب » – لجمال الدين بن واصل (طبعه الدكتور جمال الدين الشيال ، الجزء الأول بمصر ١٩٥٣) ٣٣٦ ، ٣٣٧ ، ٣٣٨ ، ٣٤٣ ، ٣٤٨ ، ٣٥١ ، ٣٥٣ ، ٣٥٤ ، ٣٥٥ ، ٣٥٦ ، ٣٦٠ ، ٣٦٧ ، ٣٦٩ ، ٣٧١ ، ٣٧٣ ، ٣٧٤ ، ٣٧٦ ، ٣٧٩ ، ٣٨٠ ، ٣٨١ ، ٣٨٥ ، ٣٨٩ ، ٣٩٠ ، ٣٩١ ، ٣٩٣ ، ٣٩٣ ، ٣٩٦ ، ٣٩٧ ، ٣٩٨ ، ٣٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣٠٣ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣٠٨ ، ٣٠٩ ، ٣١٠ ، ٣١١ ، ٣١٢ ، ٣١٤ ، ٣١٥ ، ٣١٦ ، ٣١٨ ، ٣١٩ ، ٣٣٠ ، ٣٣١ ، ٣٣٢ ، ٣٣٣ ، ٣٣٤ ، ٣٣٥ ، ٣٣٨ ، ٣٣٩ ، ٣٣٠ ، ٣٣١ ، ٣٣٣ ، ٣٣٣ ، ٣٣٤ ، ٣٣٦ ، ٣٣٧ ، ٣٣٨ ، ٣٣٩ ، ٣٤٠ ، ٣٤١

٥١ – « المنتظم في تاريخ الملوك والأمم » – لابن الجوزي (طبعة حيدر آباد ١٣٥٩) ١٧ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٤١ ، ٤٣ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٧٦ ، ٢٤١

٥٢ – « مؤرخو الحروب الصليبية » – نصوص مختلفة من المؤرخين العرب وترجمتها إلى الفرنسية (الجزء الثالث في باريس ١٨٨٤) ١٠١ ، ١٣٩ ، ١٦٧ ، ١٩٥ ، ٣٦٣ ، ٣٨٦

= ٧٤٩ =

ن

٥٣ — « النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة » — لابن تغري بردي (طبعة دار الكتب المصرية ١٩٣٦) ٢٩ ، ٣٥ ، ٤٣ ، ٤٥ ، ٧٤ ، ٨٤ ، ٨٦ ، ٩١ ، ١١٣ ، ١٣٧ ، ٢٨٠ ، ٢٨٩ ، ٣١١ ، ٣١٥ ، ٣٣٣ ، ٣٣٤ ، ٣٤١

٥٤ — « النقود العربية وعلم النميات » — نشره الاب انستاس الكرملي (القاهرة ١٩٣٩) ٢٨٤

و

٥٥ — « وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان » — لابن خلكان (مصر ١٣١٠) ١٧ ، ٢٠ ، ٢٣ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٦ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ١٠٠ ، ١٠٣ ، ١٠٩ ، ١٧٩ ، ٢٤١ ، ٢٨٩ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ٣٠٠ ، ٣٠٩ ، ٣١٥

فهرس محتويات الكتاب

الصفحة

الصفحة

فهارس الكتاب

تصويب بعض الاخطاء

الصفحة	السطر	خطأ	صواب
١٩	٦	ديار مصر	ديار مضر
٤١	٥	ساشكر	ساشْكر
٧٦	١٠	شرفُ	شرفٍ
١١٣	٢٢	قرنيبا	قرنبيا
١٦٦	١٧	قرنيبا	قَرَنْبيَا
١٥٣	١١	ختلع	ختلغ

وأما باقي الأخطاء مما لم نقف عليه فنعتمد فيه فطنة القارئ ودقته فهو يرى ما لا يرى المؤلف أو الناشر .

SAMI DAHAN
Docteur ès Lettres
Membre de l'Académie Arabe de Damas

HISTOIRE D'ALEP

par

KAMĀL AD-DĪN IBN AL-ʿADĪM

588-660/1192-1262

TOME II

457-569/1064-1173

